

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد أصول الدين

قسم: الدعوة والإعلام

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الشيخ محمد الغزالي

مفكر وداعية

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام

إشراف:

الدكتور مولود سعادة

إعداد الطالب:

إبراهيم نووري

السنة الجامعية ١٤١٨ - ١٤١٩ هـ

١٩٩٨ - ١٩٩٩ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة :

الحمد لله حمد الشاكرين و الصلاة و السلام على رسوله النبي الأمين وعلى آله وصحبه و سائر الأتقياء و الصالحين ... اللهم إنا نتوجه إليك ونسعى نحوك ونؤمل في قربك ، ونركب الصراط المستقيم الذي نهجته لنا إلى مرضاتك ، فأعنا بقوتك واهدنا بعزتك واعصمنا بقدرتك ، وبلغنا الدرجة العليا برحمتك و السعادة القصوى بجودك ورافتلك إنك على ماشاء قدير .

.. وبعد : فإن قادة الفكر و الدعوة و التجديد في أمتنا هم حراس الحقيقة وورثة الأنبياء و الصديقين ، وهم بجهدهم الموصول يحمون أصول الرسالة ويقدمون الإسلام و الإيمان للناس - في أي زمان ومكان - رائفا نقيما كما نزل من السماء وكما بينه وشرحه وتمثله صاحب الرسالة العظيمى محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - فحياتهم وقف لخدمة الدين وميراث النبوة ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ولاشك أن هذه الميزة من آلاء الله تعالى على هذه الأمة التي تحمل أمانة الشهادة و الإشهاد على الخلق، لأنها تجعل الحق مصونا بمظانه المعصومة ، ومراد الله من الخلق واضحا بجهد واجتهاد العلماء والدعاة المجددين؛ وفقدان هذه الميزة لدى الأمم الأخرى هو ما جعل الضلال يتوارث والأخطاء تترسب والأجيال تزيج و الأهواء تضطرم...ولما كان شرف قادة الفكر و الدعوة يتجسد أول ما يتجسد في مدى إخلاصهم للإسلام و لغوبهم في إحياء تعاليمه و إصرارهم على إنجاح رسالته و بلورة قضاياها، لأنهم موقعون عن الله رب العالمين، قائمون على رعاية حقوقه وحدوده من منطلق حجة البالغة ومستلزمات عهده و ميثاقه الذي أخذه عليهم .. فإن واجب دراسة و تحليل و نقد وتقييم منجزاتهم وتجاربهم ومناهجهم في الفكر و الدعوة و البلاغ يضحى منوطا بالقادرين من أبناء هذه الأمة ، لكي تحصل الفائدة ، و تنتفع الأجيال الناشئة - التي تعني المستقبل - بثمرات و خلاصات الرواد والنماذج القدوة، لا سيما إذا تذكرنا بأن ناموس " اللفت و المحاكاة " له أثره الفاعل في صياغة أفعال ووقائع الأحياء المختلفة .

ثم إن الاحتفاء الواجب بالرواد من قادة الفكر و الدعوة و التغيير هو في جوهره احتفاء و توقير للرسالة و للمنهج الإلهي الأقوم الذي يعملون له و يدعون إليه و يبينون معالمه و مقاصده للناس ، وهو كذلك تأكيد على أن جهود و منجزات المصلحين و المجددين من العلماء و المفكرين لا تضيع سدى و لا تعصف بها الرياح لأنهم لم يعيشوا لأنفسهم و إنما عاشوا للفكرة و المنهج و الرسالة ، و لم يجاهدوا من أجل ما يفنى و يتلاشى لكنهم جاهدوا في سبيل ما يبقى و يخلد ، و ربما كان من ناقله القول الإشارة إلى وجود مشابه عامة بين الخصائص و المميزات الشخصية و الفكرية بين هؤلاء الرواد ، و هذا ليس غريبا فهم جميعا صناعة النبع الخالد و الأثر المعصوم ؛ ثم إن كلا منهم استجاب لواجب الوقت في رد التحديات المشهورة في وجه الإسلام و تذليل أوهام المشكلات التي تكتنف واقع و سيرورة حياة و مجتمعات المسلمين .

و عندما فكرت في خلفيات و تداعيات هذا الموضوع ، و أردت أن أسهم في هذا العمل الرسالي الجليل بالتصدي لدراسة أحد هؤلاء النماذج المضيئة الفاعلة من قادة الفكر و الدعوة و التغيير و البلاغ وقع اختياري على فضيلة الشيخ الإمام محمد الغزالي -رحمه الله و أسكنه فسيح جناته في علبين- و أردت أن يكون هذا العمل أطروحة علمية جامعية لتحصيل درجة " الماجستير " من المعهد الذي أحببته و انتميت إليه " معهد أصول الدين " بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية ، و جعلت عنوان الأطروحة (الشيخ محمد الغزالي : مفكرا و داعية) .

- أما البواعث التي دفعتني لاختيار هذا البحث فأهمها :

١- الإحساس الذي انتابني لحظة الانفعال بفكر الشيخ الغزالي -قراءة ثم تفاعلا مع الفكر و الشخص في مرحلة لاحقة أثناء الدراسة- و الذي تركز بشكل خاص حول القيمة المستقبلية لهذا الفكر ، فكم من مفكر و مجتهد و مجدد سبق عصره ، فانتفع المستقبل أكثر مما انتفع الحاضر بثمرات عقله .

٢- اعتقادي بأن اجتهادات الشيخ الغزالي و رؤاه و منجزاته الفكرية و عقلايته المتألقة اللامحة و معطيات شخصيته الثرة و روحانيته الشفافة البلورية ... باتت تمثل ملامح و معالم مدرسة مستقلة لها إشعاعاتها و بصماتها و فرادتها في مجالات الفكر و التغيير و البلاغ و التنظير و الحركة داخل الإطار العام للمرجعية الإسلامية بأفاقها الكونية الرحبة .

٣- تميز الوضوح النظري في العطاء الفكري للشيخ الغزالي ، إذ هو يتسم بخاصية الجمع بين استيعاب لحظة الوعي الإسلامي الآتية و الراهنة و اللحظات السابقة الموعظة في التاريخ الإسلامي و في أخايد الزمن الماضي ... الأمر الذي يتيح فرصة و فضاء جديدا للإجتهد و التجديد الإسلامي على أسس و مرتكزات سليمة بعيدا عن أجواء جدلية الصراع المفتعل بين التراث و الحداثة أو الأصالة و المعاصرة .

٤- حيوية الطرح السجالي المتبصر و خصوبة المشروع الفكري -بشتى أبعاده و مقاصده الإنسانية و الحضارية- الذي يقدمه الشيخ الغزالي ، خاصة من زاوية حوار و نقاشه لقضايا العصر ، و تجاوبه المتميز مع مشكلات الأمة الإسلامية ، و سعيه الدؤوب لوضع و استخلاص الحلول المنطقية لها ، و وقوفه بثبات أمام مختلف أنواع وصور التحديات الداخلية و الخارجية التي تعترض سير الإسلام و واقع إنسان مجتمعاته .

٥- حاجة الدعوة و الدعاة المعاصرين إلى دراسة تجارب الرواد ممن أبلوا البلاء الحسن في حقول التغيير الإسلامي و الدعوة إلى الله على بصيرة ، كي تستفيد مناهج و مدارس الدعوة و التربية بحصائل تلك التجارب .

- أما الأهداف التي يرومها هذا البحث فيمكن إجمالها فيما يأتي :

١- الوقوف على أهم خصائص و قسّمات الفكر و الدعوة عند الشيخ الغزالي ، وإبراز أكبر و أوسع المحاور التي أولاهها الشيخ عناية و اهتماما في مشروعه الفكري .

٢- إثراء ساحات الفكر الإسلامي وحقول الدعوة الإسلامية بخلاصات مركزية ومنتخبة بعناية ووعي تامين عن تجارب أعلام الفكر و الدعوة ورموز الإصلاح و الاستنهاض و التجديد ، قصد ضمان استمرار فعالية و انسيابية العقل الإسلامي و توهج إبداعاته و عطاءاته .

٣- إبراز أثر القرآن الكريم في صياغة و بناء الشخصية النموذجية المتوازنة تربوياً و فكرياً و روحياً ، الشخصية المنطبعة بمؤهلات القدوة .. فالشيخ الغزالي مافتيء يصرح بأنه صناعة قرآنية و ذلك لعمق ارتباطه بهذا الكتاب المعجزة .

٤- ربط أجيال الصحوة الإسلامية المعاصرة بفكر تيار الوسطية و الاعتدال - و الشيخ الغزالي من أبرز ممثلي هذا التيار - حفظاً لمكاسب و منجزات الدعوة في واقعنا الراهن الذي يمتاز باشتجار التيارات و المذاهب و الآراء و تنوع التحديات .

٥- المساهمة في عملية بناء عالم المسلمين الثقافي و الفكري ، إذ لا يخفى على النابهين دور مثل هذه الدراسات عن قادة الفكر و الدعوة و التجديد ، في دفع و صقل مشروعات الإصلاح الثقافي و التأسيس المعرفي ، والتي تسلك في عمومها ضمن سياق المحافظة و البلورة العامة لقسمات و معالم الهوية الفكرية و الثقافية و الروحية و الحضارية للأمة الإسلامية ، و ذلك من منطلقات صحيحة معتكزة و بشكل خاص على مداخل الأصالة و المعاصرة و التجديد و فكر الإسلام المقاصدي .

٦- العمل على ألا تكون المعاصرة (معاصرتنا للعلماء و المفكرين) حجاباً يحول بيننا و بين الاستفادة الواعية و المنهجية من نوي الفكر الناضج و العقول الراجحة و المواهب المتميزة ، فضلاً عن أن الاحتفاء بأفذاذ العلماء و المفكرين و الدعاة يُعد من أهم و أخطر واجبات المتقف المسلم المعاصر ؛ و قد أشار الشيخ الغزالي -رحمه الله- إلى ذلك بقوله : " لسنا نأسى على الأموات فقد أفضوا إلى الله الذي يضاعف الحسنات ، و إنما نأسى على الأحياء الذين لا يحسنون الانتفاع بثمرات المجددين الذين عاشوا مع الزمن يدافعون عن الإسلام و يحرسون أركانه و يجلون بريقه " (١) ، و في إشارة أخرى قريبة من هذا المعنى يقول الشيخ يوسف القرضاوي : " إني لأنكر على الإسلاميين أنهم لا يعطون مفكريهم و علماءهم و أدباءهم ما يستحقون من تكريم و تقدير ، ينزلهم منازلهم ، في حين يصنع العلمانيون و الماركسيون هالات مكبرة حول رجالاتهم ، حتى يجعلوا من الحبة قبة و من القط جملاً " (٢) .

و لتحقيق هذه الأهداف فقد عكفت على قراءة نتاج الشيخ الغزالي الفكري و تكشيفه -بطريقتي الخاصة- متطلعاً إلى استبانة أكبر و أهم المحاور في هذا العطاء الفكري الواسع الضخم ، ثم صممت خطة تتضمن -بالإضافة إلى المقدمة و الخاتمة- أربعة فصول استغرقت أربعة عشر مبحثاً :

(١) محمد الغزالي ، مع الله : دراسات في الدعوة و الدعاة (القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ط ٥ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ٣٤٢

(٢) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته : رحلة نصف قرن (القاهرة : دار الوفاء ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م) ، ص ٧

فقد تناول الفصل الأول شخصية الشيخ الغزالي وكان لابد من تفريع هذا القسم إلى ثلاثة مباحث، تعرض الأول منها إلى بعض جوانب من الظروف العامة التي كان يعيشها المجتمع المصري-خاصة إبان العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي- قصد التعرف على بعض ملامح و معالم المحيط الاجتماعي والاقتصادي و الثقافي و السياسي الذي برز فيه الغزالي إلى الوجود ، بينما تعرض الثاني إلى تتبع أطوار ومراحل حياة الشيخ الغزالي من الميلاد بقرية نكلا العنب المصرية إلى الوفاة بالرياض بالمملكة العربية السعودية ، وتناول الثالث أبرز خصائص شخصيته ومصادر ثقافته وأهم المؤثرات في تكوينه .

أما الفصل الثاني فقد تناول بالدراسة محور الفكر السنني و المواجهة الثقافية عند الشيخ الغزالي ، ونظرا لكثرة المسائل و المفردات في هذا المحور من فكر الشيخ الغزالي فقد اكتفيت بدراسة ثلاثة قضايا هي: فقهه للسنن الإلهية وإشكالية التخلف والتقهقر الحضاري عند المسلمين ، والأسس العامة للرئيسة للوحدة الثقافية و الفكرية بين المسلمين باعتبار أن الوحدة أو الاختلاف ليست نتائج أو ظواهر تطفو على واقع أمة جزافا واعتباطا وكما اتفق ، وإنما هي مرتبطة بسنن الله في الاجتماع البشري ، ثم المواجهة الثقافية عند الشيخ الغزالي ومنهجه في التصدي للغزو و الاستلاب الفكري و التحديات الحضارية .. بينما تعرض الفصل الثالث إلى فكر الشيخ الغزالي الاجتماعي و السياسي وبما أنني قدرت بأن هذا الجانب هو أكبر محور في مشروع الشيخ الغزالي الفكري و أن استيعاب كل جزئياته يتطلب عملا مستقلا فقد اقتصرت على دراسة و تحليل قضية المرأة في هذا المشروع ثم الفكر السياسي و قد جعلت مسألة حقوق الإنسان مبحثا مستقلا بالرغم من أنها تدرج عادة في سياق فضاءات الفكر السياسي و القانون الدولي ، و تعليل ذلك عندي عدة أمور منها : خلفيات استغلال هذه المسألة في نطاق الصراعات الإيديولوجية و المذهبية والحضارية التي يشهدها رهن الواقع المعاصر ، و الادعاءات الترمويه السخيفة السانجة لمراكز قوى الاستكبار العالمي و استثمار واجهة الدفاع -الانتقائي غير البريء- عن قضايا حقوق الإنسان لترسيخ وتكريس القهرية الحضارية الغربية لتأييد تبعية الآخر الحضاري و استلاب عقيدته و مقومات شخصيته الفكرية و الحضارية ، و تصوير الأمر كله و كأنه أحد الإنجازات الفريدة للحضارة الغربية؛ ومنها كذلك سبق الشيخ الغزالي لوضع الأمور في سياقها الطبيعي و انتصاره لحقائق التاريخ الإنساني باسم الإسلام و حضارته التي سعد في ظلها الإنسان دهرا و استشعر حقيقة و عمق كينونته وإنسانيته وختمت هذا الفصل بوقفة نقدية تقويمية لمشروع الشيخ الغزالي الفكري .

أما الفصل الرابع من هذه الأطروحة فقد تناول الجانب الدعوي عند الشيخ الغزالي ، و تضمن أربعة مباحث : الأول عن الطبيعة التاريخية لانسباب حركة الفتح الإسلامي و الدعوة الإسلامية بمنظور الشيخ الغزالي ؛ و سبب البدء بهذا المبحث الشبهات العديدة المثارة في وجه الدعوة الإسلامية حول حقيقة طبيعة انتشار الإسلام في الأرض ، و الثاني عن خصائص الداعية الناجح ، و الثالث عن أدوات و وسائل الدعوة وموقعها في تجربة الشيخ الغزالي الدعوية ، كي يستفيد منها الدعاة والعاملون في حقول التغيير

والبناء الإجتماعي ، فإن ما يستجد من وسائل و أدوات بفعل إبداعات التقانة المعاصرة ، لا يصح إغفال استثماره لخدمة الدعوة و بلورة قضاياها و إزاحة الشبهات عنها ؛ ثم ختم هذا الفصل بمبحث رابع تم من خلاله رصد و استنتاج أهم خصائص منهج الدعوة عند الشيخ الغزالي .

و لعله من المهم التذكير بأنني توسعت و أطلت الاستقصاء والتحليل في بعض المحاور مثل : المواجهة الثقافية ، أو دور الشيخ الغزالي في الدفاع عن معالم و بصمات و قسّمات الهوية الحضارية الإسلامية و تصديه للتحديات الثقافية و الفكرية التي تحاول و تعمل على تسويها و تزييف خصوصياتها و ثوابتها ومنها أيضا محور المرأة و محور الفكر السياسي .. و علة ذلك تكمن في تعاضم اهتمام الغزالي بهذه الموضوعات إذ هي تشغل أكثر مساحات تفكيره واجتهاداته ونضالاته الحركية والسياسية و الفكرية ، فتعاطلي إذن وفق هذا التعليل تعامل موضوعي بل هو وجه من وجوه الأمانة العلمية المطلوبة في الأطروحات الأكاديمية و الدراسات العلمية ، ولعل ذلك سيساعد على فتح المجال للباحثين و الدارسين ليجعلوا من هذه المحاور بشكل خاص ومن بقية المحاور التي تعرض لها هذا البحث أطروحات جامعية أو بحثا فكريا نافعة .

أما بالنسبة لمصادر البحث فقد اعتمدت اعتمادا كلياً على مؤلفات الشيخ الغزالي ولم أشأ الاعتماد على مقالاته الكثيرة المتناثرة هنا وهناك في المجلات و الصحف - رغم توافر الكثير منها بين يدي وبمكتبتي الخاصة - وذلك لتأكيدي الكامل بأن ما هو منشور في هذه الدوريات و المنابر قد أودعه الشيخ مؤلفاته ؛ و الحقيقة أن جوانب عريضة من هذه المؤلفات ظهرت على صفحات المجلات و الصحف قبل أن تظهر في شكل كتب و مؤلفات (١) ، أما محاضراته وأحاديثه الإذاعية و التلفزيونية فلم أسع لجمعها لهذه الأسباب :

أ- غزارة المادة العلمية و الفكرية في مؤلفات الشيخ و وضوح أبرز المحاور التي يدور حولها تفكيره من خلالها .

ب- إن جانب الأداء الفكري و الدعوي - المتمثل خاصة في الأحاديث و المحاضرات و الندوات - يتطلب عملاً مستقلاً لا تتسع له هذه الأطروحة .

ج- نشر البعض منها في كتاب (٢) .

(١) أذكر من ذلك على سبيل المثال: تأملات في الدين و الحياة، و معظم مقالاته منشورة في مجلات : الإخوان المسلمون ، و الدعوة و المباحث، وكذا كتابه في موكب الدعوة ، و كتابه : الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، أغلب موضوعاته منشورة بمجلة الدوحة القطرية و كتابه هموم داعية أغلب مقالاته منشورة في مجلة الأمة القطرية و المسلمون السعوديون ... الخ .

(٢) منها كتابه (المحاور الخمسة في القرآن) وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها الشيخ بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة ، ثم نشرته وزارة الشؤون الدينية الجزائرية .

كما استعنت بالعديد من المقابلات التي أجريت مع الشيخ - المنشورة ببعض المجلات و الصحف لأهميتها في توضيح الكثير من القضايا و الآراء الواردة في مؤلفاته ولتضمنها أيضا وجهات نظر جديدة ؛ أما المراجع فقد استعنت بطائفة منها، حسب موضوع كل مبحث ، وقد كان الاعتماد عليها ضروريا ولا محيص عنه إما لمقارنة رأي وإما لتأكيد وجهة نظر أو نقد فكرة أو ما شابه ذلك ، وهذا طبعا ينطبق على المراجع التي عدت إليها عند دراسة المحاور الفكرية، أما المبحث الأول من الفصل الأول التمهيدي ، فقد اعتمدت في إنجازه على بعض المراجع التي تناولت المجتمع المصري خلال بعض عقود القرن العشرين في أوضاعه العامة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و السياسية ، و بالنسبة لدراسة شخصية الشيخ الغزالي فقد استعنت ببعض الدراسات - وما أفلها - التي تناولت بعض جوانب منها ، كما اعتمدت على مذكرات الشيخ الغزالي : قصة حياة ، وتتبع - في الوقت ذاته - عدة مظان و مراجع أخرى لها صلة بمراحل و أطوار حياة الشيخ الغزالي .

أما المنهج الذي أتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي - أكثر المناهج شيوعا (١) - بما يتضمنه من تجميع وتحليل ومقارنة ونقد وغير ذلك من العناصر التي تساعد على ضبط العلاقة بين التوصيف والتشخيص، وبين الأحكام والاستنتاجات، ولا شك أن هذا المنهج بشئى مواصفاته هو ما وجدته مناسباً لموضوع هذه الأطروحة.. أما عن ضخامة الصفحات التي استغرقتها هذا البحث، فليست فيها أبداً من المتكلفين، فإن الموضوع نفسه هو الذي يحدد عدد الصفحات، وليس عدد الصفحات من يحدد الموضوع، وقناعتي راسخة في عدم وجود علاقة موضوعية ومنطقية بين جودة وقيمة البحث وبين عدد الصفحات .

أما عن الصعوبات التي اعترضتني فتعتبر نسبية فقط - لأنها تقاس دائما بالإرادة التي تواجهها - أذكر منها ما يأتي :

* منهج الشيخ الغزالي في الكتابة و التأليف ، إذ إن الفكرة التي أتوقع وجودها مثلا تحت العنوان الذي يفترض أنه يدل عليها بصورة أو أخرى كثيرا ما كنت أعثر عليها بعيدا عنه في موارد أخرى ، لأن الشيخ كان يكتب بأسلوب الخواطر ، فهو لا يتصنع ما يكتبه وإنما يترك سجيته - في أحيان كثيرة - تتحكم في صياغة الأفكار التي تتثال عليه .

* ندرة ما كتب عن الشيخ، لاسيما أنني عندما اخترت هذا الموضوع - منذ عدة سنوات - لم أكن قد قرأت شيئا يذكر عن الشيخ الغزالي، استنتني من ذلك - وهذا للأمانة العلمية - ما قرأته عن حياة الشيخ - يرحمه الله - في كتاب الشيخ محمد المجذوب (علماء ومفكرون عرفتهم) والذي لم أعثر عليه إلا في كتاب الأطروحة، وما كتبه الأستاذ المفكر عمر عبيد حسنة في مقدمة كتاب الشيخ (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) و ما كتبه الأستاذ عبد الله العقيل في مقدمة كتاب الشيخ (قذائف الحق) .

• عدم العثور على الكثير من مؤلفات الشيخ الغزالي ، خاصة تلك التي لم تطبع بالجزائر ، الأمر الذي اضطرني إلى اقتنائها من مصر بواسطة علاقات شخصية ، كما لجأت إلى تكثيف المراسلات مع عدة أشخاص ومؤلفين ودور نشر ومجلات ودوريات ومؤسسات فكرية وعلمية كان الشيخ الغزالي يتعاون معها في إنجاز مشروعاتها وتحقيق أهدافها ، وقد أفنت كثيرا من تلك المراسلات .

وإني لأود الآن أن أتقدم بالشكر و التقدير لكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وأولهم أستاذي الدكتور مولود سعادة الذي أنفق كثيرا من وقته بإشرافه على هذه الأطروحة ومتابعته لي طوال مراحل الإنجاز وقد أفنت كثيرا من نصائحه وملاحظاته وتوجيهاته المنهجية ، كما أشكر الدكتور يوسف حسين الذي كان أول من قبل بالإشراف على هذا البحث وتفاعل معه وشجع على المضي في إنجازه .

كما أرفع أسمى آيات التبجيل و المودة و الوفاء و العرفان لأصدقائي الأساتذة و المقربين لروحي و فكري الذين انتفعت بأرائهم و ملاحظاتهم السديدة ، أذكر منهم أستاذي الدكتور علي القرشي و الدكتور بلقاسم الغالي ، و الأستاذ الطيب برغوث و الأستاذ محمد مراح و الأستاذ عمار طسطاس ، و الدكتور بشير بوجنافة ، فلهم مني كل الشكر و لأخريين أيضا غابت أسماؤهم عني الآن .

و لا يجب أن أنسى شكري العميق للمفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة الذي تكرم بإهدائي نسخة من كتابه الصغير و الممتع عن الشيخ الغزالي ، و كذلك الأستاذ الفاضل عمر عبيد حسنة مدير تحرير مجلة الأمة القطرية - يسر الله عودتها للساحة الفكرية - الذي تفضل بإرسال صور مقالات الشيخ الغزالي المنشورة بمجلة الأمة إلى جانب صورة من العدد الخاص برحيل الشيخ الغزالي الذي أصدرته صحيفة (العالم الإسلامي) ، و شكري أيضا للأخت طروب الخياط أمينة المكتبة بالمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن التي تفضلت بإهدائي نسخة من كتاب (العطاء الفكري للشيخ الغزالي) و كذا الأستاذ محمد الطاهر الميساوي أمين تحرير مجلة إسلامية المعرفة (بماليزيا) الذي استجاب بأريحية فأرسل ما طلبته منه و شكري للمجلة العربية و كذلك لمجلة الفيصل ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالمملكة العربية السعودية ، ولأخ الأستاذ جمال عزيزي ونجلي الشيخ الغزالي علاء وضياء على تعاونهم ودعمهم وحرصهم على إنجاز وإخراج هذا البحث الذي أسأل الله أن يكون نبتة أخرى في طريق خدمة الفكر الإسلامي والإصلاح المنهجي لعالم أمتنا النقاقي والمعرفي ... و أخيرا لا يسعني إلا تجديد تشكراتي القلبية لهؤلاء جميعا ، و لكل من ساهم من قريب أو من بعيد و أعان على إخراج هذا البحث و كل أمني أن أكون قد وفقت في إدراك وتحقيق بعض ما كنت أرومه و أتطلع إليه من غايات و مقاصد .

الفصل الأول

الشيخ الغزالي: الرجل و العصر

نبذة عن المجتمع المصري قبل وبعد ثورة يوليو

تمهيد :

ليست النشأة الأسرية و الاجتماعية للفرد عملية معزولة عن مؤثرات انصهار العوامل العامة الفاعلة في سيرورة حركة المجتمع ، فمن المسلمات التي يقرها علم الاجتماع المعرفي وعلم النفس التربوي وجود علاقة لها جوانب خفية وأخرى ظاهرة بين الإنسان كفرد أو كذات مستقلة ، وبين مختلف المرجعيات و الأطر المشكلة للضمير الجمعي وكذا الظروف العامة التي تمثل القاسم المشترك في الحياة الاجتماعية .. وثمة أمر آخر له دلالاته العميقة في هذا السياق ، وهو مدى التداخل بين عبقرية الشخص وعبقرية المكان ، فهناك مؤشرات و علامات عديدة تؤكد بعض مساحات و مظاهر التأثير في هذه المعادلة ، حتى و إن كانت لا ترتقي إلى مستوى الحتميات المعروفة أو السنن الاجتماعية الصارمة ، لكنها تظل من الحقائق المحترمة عند دراسة التجليات الاجتماعية و الإنسانية خاصة منها العبقريات الفردية و المواهب المتميزة .

و بما أن العلاقة بين الشخص كوجود فيزيائي و أحاسيس إنسانية و بين المجتمع كشخصية معنوية على هذه الدرجة من التلازم في أبعادها العامة ... فإن هذه العلاقة تضحى ذات دلالة خاصة عند دراسة نتاج عالم من العلماء أو مفكر من المفكرين ، لأن هذا النتاج وفق المعادلة السابقة لا يصح موضوعيا فصله عن جذوره المركوزة في طبيعة البنى العميقة للمجتمع ، لا سيما إذا اعتبرنا تواصل العالم أو المفكر مع بيئته و محيطه ، و فهمه لطبيعة مشكلات مجتمعه ، و تفاعله مع الواقع و استجابته للإسهام في حل جوانب من تلك المعضلات و المشكلات معيار حيوية و مؤشر فاعلية يحسب له ؛ و هذا أمر وارد بهذا الخصوص من حيث الأصل لأنه يفترض -كقاعدة عامة- في العالم أو المفكر أو الأديب أو الداعية أو الفنان أو أي صاحب موهبة أو عبقرية ، أن يكون ذا رؤية لمشكلات أمته انطلاقا من قدرته على استيعاب و هضم معضلات و أوقاع الواقع الذي يعيش فيه و المحيط الذي يتفاعل مع أحداثه ... و ربما ساغ القول أيضا -وفق هذا المنظور- أن حياة أي علم من الأعلام ما هي إلا صفحة من صفحات تاريخ مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم .

من أجل ذلك و اطمئنانا لما تم تقريره و إثباته ارتأيت أن استهل هذا الفصل بمبحث تمهيدي ليبسط بعض الظروف التي عاشها المجتمع المصري خلال بعض عقود القرن العشرين الميلادي التي توقعنا تأثيرها في حياة الشيخ الغزالي ، أي في تركيبته النفسية و الفكرية و توجهه العام ، ففي العديد من هذه العقود الزمنية محطات و منعطفات تفاعل معها الغزالي أو انفعال بها -كما سيتضح من خلال مباحث هذا الفصل و من خلال بعض المواضع التحليلية في فصول أخرى- فإن الوقائع و الأحداث هي في جوهرها حركة الواقع التي تقتضي بأن تستجيب لها حركة الفكر ؛ و سأقتصر -و بصورة مختصرة- على الحديث

عن بعض الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و السياسية ، التي تجلت على مسرح الحياة العامة في مصر خلال تلك العقود ، من أجل الكشف عن مواضع النضج و التأثير لتلك العلاقة الجدلية المشار إليها ؛ ثم إن الحديث عن حياة الشيخ الغزالي يختزل العديد من مراحل تاريخ مصر المعاصر و يقف شاهداً على بعض أحداثه و منعطفاته ، و هو ما يدعم - كما نرى - بداعتنا هنا في هذا الفصل بهذا المبحث التمهيدي .

خطوط عامة لواقع مجتمع

تداخلت صورة و أوضاع مصر التي لم تكن تدرج ضمن منطقة (الشرق الأوسط) كما هو شأنه الآن (١) بين حكم عائلة محمد علي و الحملة الفرنسية و الاحتلال أو الحماية البريطانية ... و كان لهذه الصورة الباهتة ذات البقع الغريبة المتناقضة آثارها و وقعها فيما بعد - مع بدايات القرن العشرين الميلادي - على المجتمع المصري و حركة تطوره كما سيتضح من خلال هذه الفضاءات و المجالات :

أ- الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية :

على الرغم من تعاقب الحملة الفرنسية و الاحتلال البريطاني على مصر و بروز الشعور القومي إلا أن السيطرة على مواقع النفوذ في الحكم و المجتمع استمرت في سلالة أسرة محمد علي و لم تضعف إلا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ؛ و يظهر أن هذه السلالة قد توارثت عناصر الفساد الاجتماعي و الاقتصادي كما توارثت السلطة و السيادة على مصر ، فمحمد علي -المثال الأول لهذه الأسرة- كان كما يصفه الرحالة الفرنسي " شامبليون " نموذجاً للحاكم الأناني الذي لا يفكر إلا في مصالحه الخاصة ، فكان " ليس له من مآرب سوى ابتزاز أكبر قدر ممكن من أموال الدولة ، و لما كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة فإن محمد علي لا يتورع عن حلبها و إنهاكها ليل نهار انتظاراً لشق بطنها و نحرها في وقت قريب " (٢)

و قد ظلت هذه التركة الثقيلة تنخر في بنية المجتمع المصري لعقود طويلة ، و استمرت مع العهد الملكي ، فانتشر البؤس و الأمراض و الأمية ، و ساءت حالة الفلاحين و المواطنين و صغار الملاك بسبب الضرائب الباهظة و الإتاوات الظالمة التي كانت تفرض عليهم فرضاً لا يستقيم معه عدل ، فتضاعفت هذه الأوضاع و ما يشبهها مجتمعة و أدت إلى انفجار ثورة الشعب المصري سنة (١٩١٩م) كما تسببت تلك الأوضاع قبل أكثر من ثلاثة عقود من هذا التاريخ إلى الثورة العرابية (١٨٨١-١٨٨٢م) و الواقع الذي يجب إقراره أنه حتى مع بدايات القرن العشرين حينما بدأ الإحساس المصري يستيقظ و يتبلور في شكل حركات النضال التي كانت تستهدف التخلص من هيمنة الخديوية و العنصر التركي و الشركسي ، لم يكن هناك وعي حقيقي إزاء الاهتمام و العمل على تحسين الظروف الاجتماعية

(١) أ.هـ ، كار ، العلاقات الدولية منذ معاهدات الصلح ، ترجمة سمير شيخاني (بيروت : دار الجيل ، ط١ ، ١٩٩٢ م) ، ص ٢١٥

(٢) عزة بدر " رحلة في أعماق التاريخ : رحلة شامبليون " ، مجلة العربي الكويتية ، العدد (٤٤٩) (أبريل ١٩٩٦ م) ، ص ١٦٠

و الاقتصادية للشعب ، و إذا أردنا التحري و الاستقصاء لهذه المرحلة فإننا " لا نكاد نجد للأحزاب السياسية في التاريخ المصري فكرا سياسيا اجتماعيا بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، فرغم أن حزب الأمة نشأ في حضان المفكرين إلا أننا نجد فكرهم تعميمي أحيانا و وقتي مرحلي أحيانا أخرى ، و لن نستطيع أن ننسبهم أو ننسب الأحرار الدستوريين الخارجين من معظهم إلى نظرية اجتماعية بعينها إلا ما يزعمونه من الليبرالية أو التمسك بالدستور ، أما الوفد فقد كان سعد زغول منصرفا تمام الانصراف عن القضية الاجتماعية ، فلم تؤهله ثقافته الأولى التي حصلها في الأزهر و المحاماة و صحبته الأولى من الأفغاني إلى محمد عبده إلى حزب الأمة ، لم تؤهله هذه الثقافة لكي يفتن إلى أن للحرية و الاستقلال جانبا اجتماعيا ، كما لم تمهله سنوات قيادته القصيرة للحركة الوطنية مع ما ازدحمت به هذه السنوات من أحداث لأن يتبصر في الواقع الاقتصادي و الاجتماعي لمصر " (١)

و إلى جانب ما ورثه المجتمع المصري عن أسرة محمد علي من سلبيات في المجال الاجتماعي و الاقتصادي كان لها أثرها البين في اضطراب المستوى المعيشي ، بل في اهتزاز الكثير من القيم الاجتماعية نفسها ، فإنه ينبغي عدم إغفال آثار الاحتلال البريطاني على هذا الصعيد ، الذي سيطر على الاقتصاد المصري و حاول توجيهه لمصالح بريطانيا و الحلفاء لتسديد خسائر الحرب ، كما مكن الاحتلال للنفوذ الأجنبي خاصة في البنوك و الشركات و قطاعات الاستثمار ، فأفرز هذا الوضع انحذارا هائلا في القدرات الشرائية ، و انتشرت البطالة لا سيما بين طبقات العمال و الفلاحين و انخفضت أسعار القطن حتى اضطر صغار الملاك إلى تسديد ما عليهم من مستحقات ببيع ما يملكون من عقار و حلي (٢) .. إلى درجة أن بعض المتفقين دعوا -تداركا للوضع- إلى تكوين " حزب الفلاح المصري " قصد تحسين الحالة الصحية بين الفلاحين و العمال و تحديد ملكية الأراضي الزراعية و زيادة نسب الملاك الصغار و إلزام أصحاب الأطميان و العقارات ببناء مساكن تتوافر فيها الشروط الصحية للفلاحين و تنظيم القرى المملوكة لصغار الملاك على القواعد الصحية ، و سن قوانين لمنع بيع الأراضي لغير المصريين ... الخ (٣) و صفوة القول هنا أن الاحتلال البريطاني استطاع نخر البنى التحتية للإقتصاد المصري كما ألحق أضرارا فادحة في جوانب الحياة الاجتماعية لعلاقتها الوطيدة بالعوامل الاقتصادية .

و عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي حاولت تحسين الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية عن طريق تصفية الإقطاع و إعادة توزيع الأراضي الزراعية و تكريس مبادئ العدالة الاجتماعية و تكافؤ الفرص ؛ غير أن تلك الآمال لم تدم طويلا بسبب صراع القوى و اختلال الموازين الدولية التي تؤدي باستمرار إلى تغيير توجهات الأنظمة و برامج الثورات ، فضلا عن كون هذه الثورة لم تكن تحمل رؤية شاملة أو منهجا واضحا في التغيير و البناء الاجتماعي ، لهذه الأسباب و غيرها فقد استمر تدهور الأوضاع

(١) صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصري الحديث (بيروت : دار اقرأ ، د.ت) ، ص ١٤٢ - ١٤٣

(٢) عبد العزيز رفاعي ، الديمقراطية و الأحزاب السياسية في مصر الحديثة و المعاصرة (القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ط١ ،

١٩٧٧ م) ، ص ١٢٧

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

الاجتماعية خلال هذا العهد بالرغم من الاصلاحات المعلنة، وعن أحد مظاهر هذا التدهور يقول سيد قطب " لم يعد أحد يجادل في أن توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع المصري توزيع سيء مختل ، يجب العمل على تعديله فوراً ، وليس الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة إنما الاختلاف على الطريقة التي يعالج بها وضع لايقبل البقاء ، وحين يصل الأمر إلى أن يملك ألف و مئتان و أربعة و تسعون فرداً ... مليونين من الأقدنة الصالحة للزراعة في بلد يصل تعداده إلى عشرين مليوناً من الأقدنة فإنه لا يبقى مجال للاختلاف على سوء التوزيع و اختلاله و فساده ؛ و الأمر في الثروات المنقولة أشد سوءاً ، فإن من لا يزيدون على ألفين يملكون أكثر من ثلث الثروة الممثلة في البنوك و الشركات " (١)

المهم أن الاقتصاد المصري بقي تابعا للاقتصاديات العالمية المهيمنة ، كما بقيت الظروف الاجتماعية و المعيشية لمعظم المصريين سيئة بل كارثية في حالات كثيرة ، و قد أدى تدهور الإنتاج و سوء توزيع الأراضي و الفشل في استقطاب الطاقات المعطلة إلى زيادة وتيرة الهجرة من القرى و الأرياف إلى المدن الكبرى ، إلى درجة أن كثيراً من الناس سكنوا المقابر و سطوح العمارات ، وبالرغم من الجهود التي تقوم بها الدولة إلا أن كثيراً من مناحي الحياة الاجتماعية لم تتغير بصورة كافية عما كانت عليه إبان العهد الملكي ، فكثرت هجرة الإطارات و الكفاءات العلمية باتجاه الخارج خاصة إلى الدول العربية و الخليجية منها بشكل أخص وكذا أوروبا وأمريكا .

كل هذه الأوضاع بالإضافة إلى نقص الخدمات الصحية التي أصبحت بأثمانها المرهقة ليست في متناول الجميع بسبب قلة الموارد وضعف الدخل الفردي وارتفاع تكاليف المعيشة جعلت الكثير من المصلحين و المفكرين الاجتماعيين يطلقون صيحات التحذير لشدة ارتباط هذا الأوضاع بمنظومة قيم المجتمع ومن بين هؤلاء الشهيد سيد قطب الذي نجده يعلن هذه الاحتجاجات الصارخة " إنني أتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل و الإنتاج وتشيع فيها البطالة و التعطل و تقعدها عن استخدام مواردها الطبيعية و البشرية ، وتؤدي بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية و الأخطار الخارجية التي تتزايد وتبرز على مر الأيام .. إن أرضنا تملك أن تنتج ما تنتج من غلات ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لأن هذه الأرض لاتزال موزعة كما كانت موزعة في أظلم عهود الاقطاع ، فهي محتكرة في أيدي قليلة لا تستغلها استغلالاً كاملاً ، ولاتدعها للقادرين على استغلالها ممن لا يملكون شيئاً .. دع هذه الأرض تخرج من هذا الاحتكار وتداولها الأيدي المتعطلة التي لاتجد ما تعمل ، حينئذ تتبدل الحال غير الحال " (٢) ثم يضيف حديثه عن آثار هذه الأوضاع فيقول : " لقد انتهينا في مصر إلى مجتمع منحل مستهتر مريض بفعل جميع العوامل السيئة الناشئة عن الاختلال الاجتماعي .. و الناشئة كذلك من التيار العالمي المنحدر بين الحربين العالميتين الكبيرتين (...) وأيا ما كانت الأسباب فقد انتهينا

(١) سيد قطب ، معركة الإسلام و الرأسمالية (بيروت : دار الشروق ، ط٧ ، ١٩٨٠ م) ، ص ٣٨

(٢) المرجع السابق ص ٨

إلى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ويطفو على سطحه الاستهتار ، ويبدو الانحلال في كل جوانبه ، سواء ما يتعلق بالجنس وما يتعلق بالمخدرات وما يتعلق بالذمة و الضمير و الخلق في العمل و السلوك " (١) ولعل مثل هذه الأوضاع هي التي أدت في أواخر الخمسينيات بعد حرب السويس إلى ظهور شعار "المجتمع الاشتراكي الديمقراطي التعاوني" الذي بدأ يأخذ تنفيذه مع قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١م (٢)

ب- الأوضاع الثقافية و التربوية :

على الرغم من محاولات و جهود الاحتلال البريطاني طمس المعالم الحضارية و الفكرية للشخصية المصرية غير أنها لم تصل في نتائجها إلى ما وصلتته جهود الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ومع ذلك فإن الشخصية المصرية تأثرت إلى حدود بعيدة باتجاهات غريبة عن أصولها التاريخية العريقة ، وبتقصي التاريخ نجد أنه ومنذ دخول الاحتلال سنة ١٨٨٢ م بدأت الجهود تتلاحق للإنحراف بتوجه مصر الحضاري الطبيعي : العربي الإسلامي ، وكانت الساحات الثقافية و التربوية هي المجال الأول الذي تم رصدته واستغلاله للنفوذ وتحقيق تلك الأهداف .

ففي مجال اللغة العربية وهي لغة الدين و الثقافة و الفكر ، فقد عمل الاحتلال منذ البدء على إزالتها من التعامل الرسمي و دحرجة مكانتها من المشاعر و الأحاسيس لكي تزول قداستها إلى الأبد ، و قد كان التعليم و مجال التربية " هو الوسيلة الأولى للقضاء على اللغة العربية بتغليب لغة المحتل ، ثم امتدت إلى الدواوين و الشركات و المحاكم و في الفترة الأولى عمد (دنلوب) إلى تصفية المناهج الدراسية من آثار الفصاحة و البيان و من مفاهيم الإسلام و آثاره في كتب المطالعة ، فلما تقدم الاستعمار خطوة نحو احتواء المصريين أنفسهم ليكونوا يده العاملة عين سعد زغلول (ناظرا) للمعارف في أكتوبر ١٩٠٦ فمضى في تنفيذ مخطط الاستعمار الذي كان (دوفرن) قد وضعه عام ١٨٨٢ (...) و لما ارتفعت الأصوات بالمطالبة بإقرار اللغة العربية لغة أولى للتعليم عارض ذلك ناظر المعارف " (٣)

و استمرت اللغة الانجليزية كلغة للتدريس بالمدارس الحكومية و كوسيلة للمعاملات الرسمية في المكاتب و الادارات و الوثائق فترة طويلة في عهد الاحتلال ، و لم يسلم من هذا الاستعجاب المقيت سوى دار العلوم و الأزهر الشريف ، ثم بدأت جهود النضال الوطني المخلص تثمر و أخذت اللغة العربية تستعيد مكانتها الطبيعية ، غير أن ما بذره المستعمر في هذا الميدان بقي له قطاف حيث ظهرت الدعوة لإحياء اللهجات العامية بقوة على صفحات الجرائد و تبني ذلك علنا أدباء و زعماء كبار بارزون (٤) و لا شك أن هذا من مظاهر الصراع الحضاري و الفكري في أي بلد أبتلي بفتنة الاستعمار .

(١) نفسه ، ص ١٠٧

(٢) مصطفى الفقي ، حوار الأجيال (بيروت و القاهرة : دار الشروق ، ط١ ، ١٩٩٤ م) ، ص ٢٩

(٣) أنور الجندي ، الفصحى لغة القرآن (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ م) ، ص ١٦١

(٤) عبد الله عبد الجبار ، الغزو الفكري في العالم العربي (مكة المكرمة : منشورات الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، د.ت) ،

و الحق أن التحديات الثقافية في مصر خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين قد أثمرت نهضة هائلة في الحركة الأدبية و الفكرية و الفلسفية ، و كان الإسلام و بواعث تجديده يمثل روح هذه الحركة ، و قد ساعد على ذلك نزوع الشعب المصري الطبيعي الفطري إزاء الإسلام و إخلاصه العميق لتعاليمه و قيمه ، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال أثر رد الفعل الطبيعي أيضا ضد مشروع الاستعمار ؛ كما كان لصيحات جمال الدين الأفغاني و تلميذه محمد عبده في اليقظة و الصحوة و أفكار الشيخ محمد رشيد رضا و حسن البنا - بعد ذلك - أثرها الفاعل على مسار الاستنهاض العلمي و الفكري و الأدبي ؛ إلا أن اشتباك الثقافة الأصيلة مع الفكر الوافد مع الاحتلال البريطاني استنزف طاقة هائلة من الجهود التي كان يمكن استغلالها في عملية البناء الاجتماعي و التأسيس الثقافي ، ولئن أفلحت هذه الجهود في تقريب الكثير من الآراء و التوجهات التي كانت سائدة إلا أن الطرفين الرئيسيين - التوجه الأصيل و التوجه الدخيل - بقيا على طرفي نقيض و السبب الأول في ذلك إنما هو شدة تطرف التوجه العلماني .. وقد أشار زكي نجيب محمود إلى شيء من ذلك ضمن بحثه (تيارات الفكر و الأدب في مصر المعاصرة) و (حركة المقاومة في الأدب العربي الحديث) (١) ؛ ففي الأدب و الشعر ظهر العقاد و طه حسين و المازني و محمد حسين هيكل و مصطفى صادق الرافعي و أحمد شوقي و حافظ إبراهيم ، و الزيات و زكي مبارك و أحمد زكي أبو شادي و غيرهم كثير ، وفي الفلسفة و الفكر برز منصور فهمي و مصطفى عبد الرزاق و أحمد أمين ... وفي الدراسات الدينية و الفكر الإسلامي ظهر الشيخ المراغي و محمود شلتوت و محمد البهي و محمد يوسف موسى و الشيخ محمد أبو زهرة .. و غيرهم كثير جدا .

وظل الاستعمار الثقافي يرصد عن كثب هذه النهضة الأدبية و الفكرية التي جعلت الأدب العربي يستعيد مكانته و ازدهاره الذي كان عليه خلال العصر العباسي الأول ، فلم يحدث منذ وقت طويل في تاريخنا الأدبي أن تعاصر مثل هذا الجمع من العمالة كما حدث خلال هذه النهضة الحديثة (٢) وكان الأقدار العليا كانت على موعد لرد كيد الاستعمار الثقافي و محاولات الاستلاب الفكري و الحضاري ، إن هذه النهضة الأدبية بلغت أوج قوتها على وجه أخص بين الحربين الكونيتين، أي قبل إنهاء العهد الملكي في مصر بسبع سنوات ، غير أن شيئا من وهجها استمر بعد هذا العهد ، أما الصراع الفكري فقد ازداد ضراوة و عنفوانا مع اندياح الصحوة الإسلامية و تجاوب الجماهير مع طروحاتها و رموزها و قاداتها الفكرية .

أما على الصعيد التربوي و التعليمي فيمكن اعتبار بدايات القرن العشرين هي الانطلاقة المنظمة في هذا المجال حيث ظهرت أول جامعة حديثة في مصر سنة ١٩٠٨ م و كانت تسمى الجامعة الأهلية ، كما ظهرت أول جامعة حكومية سنة ١٩٢٥ م هي الجامعة المصرية (٣) لكن المؤسسات التربوية

(١) زكي نجيب محمود ، في حياتنا العقلية (بيروت : دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٧٩ م) من ص ٥ إلى ص ٦٤

(٢) محمد الفزالي ، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (الدوحة : المحاكم الشرعية بدولة قطر ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ) ، ص ٩٣

(٣) يوجد بمصر حاليا ١٤ جامعة بما في ذلك جامعة الأزهر الشريف

و التعليمية المصرية لم تستطع التخلص من آثار الحملة الفرنسية و الاحتلال البريطاني ربما إلى اليوم بسبب عدة عوامل داخلية و خارجية ، ويشير صلاح عبد الصبور إلى هذا الاضطراب التربوي و الفشل في تحديد الوجهة المرغوبة و الهوية المأمولة من هذا التعليم بقوله : " و تمضي الأمور بمصر و ينهض جيل من أبنائها يتولى مقاليد التعليم فيها ، و لكن بقية من الأثرين القديمين لا تزال تتغلغل في ثنايا النظام التعليمي المصري ، فتظل الانجليزية أو الفرنسية هي اللغة الثانية في التعليم سنوات طوالا ، و تظل البعوث العلمية موجهة إلى فرنسا أو إنجلترا ليعود المبعوثون و في ذهنهم صورة للمدرسة الانجليزية أو المدرسة الفرنسية " (١) .

و قد انعكست هذه التوجهات بالضرورة على أصحاب الرأي و القرار و النفوذ السياسي و الاجتماعي ، كما كان لها أثرها الجلي في الساحة الثقافية و الفكرية ، إلى درجة أن الجدل أصبح يثور حول هوية مصر الحضارية ، علما أن اشكالية الهوية أكثر تعقيدا و أثرا و حساسية من معضلة الاستقلال الناقص ، بل إنها تمثل الصورة المختزلة لثنى أبعاد و تجليات هذا النقص ... و بات ذوو الإتجاهات يتساءلون : هل هوية مصر الحقيقية تكمن في تاريخها القديم أي في صورتها الفرعونية ، أم هي تكمن في بعدها المتوسطي أي في اتصالها عبر البحر الأبيض المتوسط بأوروبا و الغرب ، أم أن هويتها الحقيقية تتمثل في عروبتها و انتمائها العضوي إلى الشعوب العربية المحيطة بها شرقا و غربا و التي تجمع بينها روابط اللغة و التاريخ المشترك و المصير الواحد ، أو هي ذات هوية إسلامية باعتبار أن هذا البعد يجعل منها بلدا فاعلا داخل نطاق نسيج عريض لأمة كبيرة مرتبطة برباط عقيدة مقدسة و قسامات ثقافية و حضارية متناغمة (٢)

و الواقع الذي ينبغي إثباته هنا أن هذه الصورة الجدالية الساخنة التي كثيرا ما كانت تأخذ مظاهر و أشكال الصراع و التناقض الحاد بين العديد من الإتجاهات و التيارات الفكرية و الثقافية قد استمرت بأساليب مختلفة إبان عهد الجمهورية بعد أقول النظام الملكي ، و على الرغم أن كل نظام حاول -بطريقته الخاصة- احتواءها و استغلالها لدعم وجهته ، إلا أن هذه الحركية الثقافية هي من جهة المنبع و المنطلق تعتبر ثمرة من ثمرات ثورة ١٩١٩ الشعبية ، تلك الثورة التي أطلقت العنان لحرية الرأي و التعبير و المعارضة و دعت إلى الانفتاح الثقافي و الحضاري على الغرب و شجعت حركة الترجمة في الفكر و الأدب العالمي و المحلي ... إلخ ؛ و مع كل هذا التجاذب فإن الجبهة الثقافية في مصر ظلت إلى اليوم تعيش الازدواج الثقافي و تناقض دوائر الولاء و الانتماء بسبب -كما يذكر الشاعر أمل دنقل- وجود ثقافة شعبية و أخرى رسمية كنتيجة حتمية لفترات الاحتلال المتوالية في مصر و تغير القوى و الفئات الحاكمة

(١) صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصري الحديث (مرجع سابق) ، ص ١٦١

(٢) محمد حسنين هيكل ، السلام المستحيل و الديمقراطية الغائبة (بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع و النشر ، ط٦ ، ١٩٨٨ م) ،

و كذلك لاتجاهات مصر الثقافية المختلفة (١) ؛ و يلاحظ أنه و منذ عدة عقود و بسبب انتشار الأمية و انخفاض مستوى العيش و اختلال الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية قل الاهتمام بالثقافة و العلم ، كما بقيت قضايا الثقافة تعاني من حالات الجذب الحادة نتيجة الاستغلال السياسي و استمرار حركية الصراع الفكري داخل مؤسسات المجتمع و بين دوائر الاتجاهات الثقافية .

جـ- الأوضاع السياسية و الأيديولوجية :

لم تكن الأوضاع السياسية في مصر كأى بلد آخر - خاصة بلدان العالم الذي يعرف بالنامي - بمنأى عن حراك بقية العوامل التي تتفاعل معها في بوتقة المشهد الإجتماعي ، فإن نظرية الضغوط تؤكد وجود علاقة وثيقة بين الاختلافات الحياتية و الاجتماعية و الاقتصادية و بين ظهور و ذيوع الأيديولوجيا ، و تشير هذه النظرية بوجه أخص إلى كون " الأيديولوجيا تظهر في أوقات الأزمات و في قطاعات من المجتمع لاتقبل بماتراه ، إنها تظهر لإشباع حاجات مطلوبة بقوة من هذه الشرائح ، وهي تظهر لشرح تجارب و تأطير تصرفات و تأكيد قيم لأولئك الناس الذين يشعرون بتلك الحاجة عندما يغادر المجتمع ثوابته التي عرفها من قيم و ثقافة و تراث " (٢) ، و هذه الحالة بالذات قد لازمت الإحساس المصري منذ الحملة الفرنسية و الاحتلال البريطاني مروراً بالثورة العربية التي مثلت أول انعكاس لتلك الأحاسيس في صورة عمل ثوري احتجاجي مرتكز على عمق شعبي و مبررات موضوعية و منطقية .

غير أنه يمكن اعتبار ثورة ١٩١٩ الترجمة الأكثر تبلورا و الأعمق تعبيرا عن جيشان تلك المنظومة الهائلة من الأحاسيس و التطلعات و الرغبات إزاء التغيير و إضفاء ديناميكية جديدة على مسار الحياة السياسية ، و لم يلبث هذا الشعور حتى تحول إلى صور من النضال الدائم و النشاط الثابت الذي انبثقت عنه عدة اتجاهات أيديولوجية اتخذت من الأطار الحزبي و العمل المنظم المهيكل مجالا للإستقطاب و شرح مرجعياتها العامة و دلالات نضالها السياسي ، و أهم هذه الاتجاهات هي :

١- التيار الوطني : ركز التيار الوطني المصري في نضاله السياسي على تحقيق الاستقلال و إجلاء الاحتلال العسكري عن مصر ، لأن هذا الإتجاه سيطرت عليه رغبة أن يؤول إليه حكم مصر في الوظائف الكبرى و أن يجلي عن هذه الوظائف أبناء الترك و الألبان و الشركس ، وقد كان هذا التيار قد نشأ أول مرة في أحضان طبقة الأعيان المصريين التي تجمعت في الحزب الوطني الأول بحلول سنة ١٨٨١ م و شاركت الجيش في رفع شعار (مصر للمصريين) و اعتمدت على المناورات السياسية في تحقيق نفوذها قبل أن تحظى بقسط محترم من الثقافة و التعليم (٣) و من أبرز الأحزاب التي يمكن إدراجها تحت هذا التيار أو في موقع قريب منه : حزب الأمة برئاسة حسن عبد الرزاق ، و حزب الأحرار برئاسة محمد

(١) إبراهيم منصور ، الأزدواج الثقافي و أزمة المعارضة المصرية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨١ م) ، ص ١٢٥

(٢) محمد الرمحي " الميراث المر : الأيديولوجيا العربية إلى أين ؟ " مجلة العربي الكويتية ، العدد (٤٤٨) - (مارس ١٩٩٦م) .

ص ١٧

(٣) صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصري (مرجع سابق) ، ص ١٢٣

وحيد الأيوبي ، وهيئة الوفد المصري برئاسة سعد زغلول ، وحزب الاتحاد برئاسة يحيى إبراهيم ، وحزب مصر الفتاة برئاسة أحمد حسين (١) وغيرها من الأحزاب التي دعت إلى الفكرة القومية وبناء الوطن بتضافر جهود الجماعة الوطنية .

٢- التيار الليبرالي الديمقراطي : تشكلت أحزاب هذا الاتجاه من عناصر أحزاب التيار الوطني ومن الوجوه والعناصر التي درست في الغرب وتأثرت بالحياة الدستورية والبرلمانية والفكر السياسي في أوروبا ، وبعض هؤلاء دعا إلى العلمانية وناضل من أجل ترسيخ الكثير من القيم الغربية ، وقد حاولت أحزاب هذا التيار الجمع في صيغة توافقية بين مصالح الاحتلال والتعاون معه وتحقيق الاستقلال غير الكامل وبصورة تدريجية مع مراعاة ما تقرره السلطة الرمزية الموجودة في ظل الاحتلال المتمثلة في الخديوية ثم الملكية بعد ذلك ، ومن أهم أحزاب هذا التيار : الحزب الوطني الحر ومعظم المنخرطين في هذا الحزب من الأقباط المسيحيين وبعض الأثرياء المسلمين وبعض الموالين للاحتلال البريطاني ، والحزب الوطني جناح مصطفى كامل (و هو أقرب إلى التيار الوطني من حيث المطالب والبرنامج)* و جناح حافظ عوض ، و حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية برئاسة الشيخ علي يوسف وقد نشأ هذا الحزب كنتيجة للصراع السياسي بين الخديوي والحزب الوطني (مصطفى كامل) ، والحزب المصري الذي نشأ كرد فعل على زيادة انعطاف الحزب الوطني نحو الاتجاه الإسلامي خاصة بعد وفاة مصطفى كامل ومجيء محمد فريد وتولي الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير اللواء لسان حال هذا الحزب ، وقد انخرط في الحزب المصري على وجه أخص كبار أعيان الصعيد من طائفة الأقباط وبعض الأثرياء وقد كان هذا الحزب ترجمة للفكر السياسي القبطي ، ومن أحزاب هذا التيار أيضا حزب النبلاء برئاسة حسن حلمي .

و حزب الشباب المصري برئاسة إدريس بك راغب (٢) و أحزاب أخرى أيضا لا يتسع المقام لذكرها ومنها ما ظهر قبل سنوات قليلة من عام ١٩٥٤ تاريخ إلغاء الأحزاب القائمة وإعادة تنظيم الحياة السياسية.

(١) سامح كريمة ، العقاد في معاركه السياسية (بيروت : دار القلم ، ط١ ، د.ت) ، ص ٥٣

* ظهر لي من خلال الاطلاع على بعض المؤلفات في التاريخ المصري أن بعض مؤرخي الحركة الوطنية المصرية متعاملون على بعض الأشخاص والاتجاهات ، ومن هؤلاء الذين تحومل عليهم : مصطفى كامل الذي لم يكن في واقع الأمر ليبراليا ، وإن تعامل مع الانجليز ورأى عدم ضرورة التخلي عن العثمانيين ... ولكنه كان يمثل فكر الطلبة والوطنية الأصيلة التي كانت حريصة على ضرورة التكامل بين التيار الوطني وتيار الجامعة الإسلامية ؛ ثم إن الحزب الوطني لمصطفى كامل غير الحزب الوطني لحافظ عوض ، فهما حزبان مختلفان من حيث الأهداف والتوجه وليست المسألة مسألة أجنحة كما يعتقد البعض .

(٢) عبد العزيز رفاعي ، الديمقراطية والأحزاب السياسية في مصر (مرجع سابق) ص ٦٠-٦٦

٣- التيار اليساري : يرجع بعض المؤرخين للحركة الوطنية المصرية بدايات ظهور هذا الاتجاه السياسي إلى ثورة ١٩١٩ حيث نادى عدد من الكتاب و المفكرين بضرورة التوجه الاشتراكي و منهم الدكتور منصور فهمي و عزيز مرهم و إبراهيم الشواربي المحامي و أمين عامر المحامي و محمد سامي كامل و غيرهم ، إلا أنه و من الناحية التنظيمية فإن أول حزب في هذا الاتجاه تشكل من عناصر أجنبية ، هو الحزب الاشتراكي الذي نشأ سنة ١٩٢٠ في الاسكندرية برئاسة جوزيف روزنتال ، ويبدو أن ذلك كان بسبب خلو الساحة من الوطنيين المتحمسين لهذا التوجه ، فقد " شكل روزنتال أول حزب اشتراكي في مصر في الاسكندرية سنة ١٩٢٠ و أول استجابة له كانت بين الموظفين و الصناع الأجانب من النمساويين و اليونانيين و الروس الذين كانت غالبيتهم من اليهود ثم من العمال المصريين و بعض شباب الطلبة ، وقد كفل قيام الحزب على العناصر الأجنبية إبراز نشاطه دون ما تدخل من السلطات المصرية في ظل الامتيازات الأجنبية و في ظل هذه الحماية مضى روزنتال ينتزع النقابات التي كانت تشكل في ظل ثورة ١٩١٩ " (١) و قد توجس كثير من الوطنيين خيفة من هذا الاتجاه أثناء بداياته الأولى ، و من بينهم زعيم الوفد سعد زغلول الذي سمع بهذا التنظيم و هو في باريس ، فقرر التصدي له و أوعز إلى الوفد بضرورة السيطرة على النقابات العمالية كي لا تستغل من قبل هذا الاتجاه ، و تحت ضغط الحكومة عقد الحزب جلسة في شهر ديسمبر ١٩٢٢ قرر فيها إخراج روزنتال منه نهائيا و تغيير اسم الحزب إلى الحزب الشيوعي المصري " و قد حدث عقب تحول الحزب إلى حزب شيوعي أن اشتد النشاط الشيوعي و مضى يحرض العمال على الاضراب و على العمل المباشر ، و في ذلك الحين كانت الحياة السياسية في مصر تجتاز دور انتقال كبير ... كان دستور ١٩٢٣ قد صدر و عاد سعد من منفاه و قاد الوفد و أعلن نزوله في المعركة الانتخابية و تولى سعد زعامة الحكومة الدستورية ؛ و في تلك الفترة قرر الحزب القيام بعمل سريع لنشر النشاط الشيوعي . فأوعز إلى العمال بأن يخلوا بالمصانع إخلالا مستمرا فاعتبرت هذه الحركة في نظر حكومة سعد إشارة لبدء تنفيذ الفكرة الشيوعية فهبت لمقاومة الحركة بكل قواها بالقوة المسلحة و تابعت دعاء الشيوعية حتى استأصلت جذورها " (٢)

و من ينظر إلى الجذور التاريخية لنشأة هذا التيار يعرف سبب تأييد و تعاطف الكثير من الأدياء و المثقفين و مؤرخي الحركة الوطنية في مصر مع مواقف سعد زغلول و تصرفاته إزاء هذا التوجه الإيديولوجي و السياسي الذي كان دائما يتدثر بالمطالب الاجتماعية و العمالية، يقول صلاح عبد الصبور : " إن سعد زغلول استعمل بعض وسائل القمع ضد من كونوا أحزابا و تكتلات شيوعية في مصر في الفترة ما بين عام ١٩٢٢ و عام ١٩٢٤ ، و لكننا لا نريد أن نغلو في مؤاخنته على هذه التهمة ، بل لا نريد أن نواخذة إطلاقا ، فقد كانت معظم هذه القيادات من يهود فلسطين و كانت تتستر برداء الشيوعية إخفاء لحقيقتها الصهيونية ، فضلا عن احتمائها بمظلة الامتيازات الأجنبية ، و يكفي أنه كان بين الأسماء اللامعة

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٣

في هذه الحركات شارلوت و جوزيف روزنتال و شالوم بولاك ، و هارون و اينبرج ، و ريدل هارسلينك و ليون الكونين و قسطنطين قايس و غيرهم " (١) ... و من أحزاب هذا التيار كذلك : حزب العمال برئاسة عباس حليم الذي ظهر في يونيو ١٩٣١ غير أنه ركز نشاطه على العمل النقابي و قد تمكنت الأسرة المالكة من تكييف نشاط هذا الحزب و توجيهه بما يخدم أهدافها و مصالحها ، و من هذا التيار كذلك حزب الفلاح الذي دعا لإنشائه اسماعيل مظهر ، و حزب جبهة مصر برئاسة علي ماهر .. الخ (٢)

(٤) الإخوان المسلمون : كان لتيار الإصلاح و الإحياء الإسلامي في مصر أثره الواضح في الحركة الوطنية من خلال خطابه الفكري و السياسي و التربوي الداعي -بمنأى عن أي غموض- إلى ضرورة الانعتاق الكامل من سيطرة الاحتلال و التبعية للغرب و تحقيق الاستقلال بمفهومه الواسع الدقيق ضمانا لحفظ خصوصيات الهوية الإسلامية ... و قد لعبت أفكار جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] و محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ - ١٨٤٩-١٩٠٥م] و محمد رشيد رضا [١٢٨٢-١٣٥٤هـ - ١٨٦٥-١٩٣٥م] و الأمير شكيب أرسلان [١٢٨٦-١٣٦٦هـ - ١٨٦٩-١٩٤٦م] و السيد محب الدين الخطيب [١٣٠٣-١٣٨٩هـ - ١٨٨٦-١٩٦٩م] و آخرون غيرهم من أعلام هذا التيار من المجددين .. لعبت أفكارهم دورا بالغ الأهمية في بلورة الدعوة إلى اليقظة و إحياء الوحدة الإسلامية العظمى ؛ و قد تمكن الشيخ الإمام حسن البنا [١٣٢٤-١٣٦٨هـ - ١٩٠٦-١٩٤٩م] من صياغة تلك الرؤى و الآمال و التطلعات التي عبر عنها هؤلاء الأعلام من دعاة الإحياء الإسلامي و الجامعة الإسلامية ، في شكل عمل جماعي تربوي سياسي شامل و منظم هو نكتل جماعة الإخوان المسلمين .

أسس حسن البنا مع ستة أعضاء مؤسسين جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٣٤٧هـ/مارس (أذار) ١٩٢٨ بالإسماعيلية ، و قد نشأ حسن البنا على حب الإصلاح و الدعوة و أخذ عن والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا - و هو أحد علماء الأزهر زمن الشيخ محمد عبده- صاحب كتاب (تحقيق الفتح الرباني في مسند الإمام أحمد بن حنبل) ، كما استفاد منه في كيفية الأخذ عن السلف ، و قد تأثر البنا بالطريقة الحرفية و عرف كيف يتعلم منها أسلوب تهذيب النفس و التربية الروحية و الوجدانية ، و كان البنا قبل أن يتخرج من دار العلوم عام ١٩٢٧ قد شكل مع بعض الشباب عدة جمعيات صغيرة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... و بعد تأسيس جماعة الإخوان و تهيئتهم فكريا و روحيا و رياضيا حدد البنا هذه المراحل لعمل الجماعة :

أ- مرحلة الاتصال بكافة فئات الشعب من عمال و فلاحين و طلاب و موظفين و أساتذة جامعات و رجال أعمال ... الخ ، و قد تأثر الكثيرون بهذه الدعوة و احتضنها أبناء الشعب المصري من مختلف طبقاته و فئاته ، و في هذه المرحلة ظهرت جريدة (الإخوان المسلمون) الناطقة باسم الجماعة و التي تعبر عن رأيهم في المسائل الاجتماعية و الوطنية و نحوها .

(١) صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصري (مرجع سابق) ، ص ١٤٣

(٢) عبد العزيز رفاعي ، الديمقراطية و الأحزاب السياسية في مصر (مرجع سابق) ص ٢٠٤-٢٠٦-٢١٥

ب- أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تبليغ الدعوة للملك و رؤساء الحكومات و رؤساء الأحزاب ، و قد دعاهم البنا للحكم بما أنزل الله ، و رسم لهم طريق الإصلاح الإسلامي في السياسة و الاقتصاد و الاجتماع بكل وضوح ، و قد سجل البنا ذلك في رسالة (نحو النور) .

ج- في المرحلة الثالثة حدد الإخوان رأيهم في القضايا المعاصرة ، ففي السنة العاشرة استكمل الشكل التنظيمي للجماعة ، و اتضحت حقيقة الإخوان و مفهومهم للإسلام ، و رأيهم في القومية و الوطنية و الوحدة و الأحزاب ... الخ ، و أحداث هذه المرحلة مسجلة في رسالة المؤتمر الخامس .

د- مرحلة النشاط الوطني و السياسي : و في هذه المرحلة انخرط الإخوان في الساحة السياسية و أسفروا عن منهجهم في التغيير الاجتماعي و البناء الوطني ، و بينوا أن منهجهم يتجاوز الحدود الوطنية و الإقليمية إلى الإهتمام بكل قضايا الأمة الإسلامية و ذلك من خلال اشتراكهم في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ و وقوفهم إلى جانب كل قضايا و مشكلات العالم الإسلامي (١)

و بالرغم من أن منهج الإخوان كان منهاجا شاملا من حيث خصائصه و منطلقاته غير أن ما جعلهم يتعطفون بعد عقدين من نشاطهم باتجاه العمل السياسي -بل و التركيز عليه أحيانا- إنما هو خلو الساحة السياسية و الحزبية في مصر ممن يرفع لواء الإسلام و الدعوة لمبادئه ، و ما زاد الأمر سوءا انتشار الجهل بالإسلام و عجز خطباء المساجد و العلماء التقليديين و الفقهاء الرسميين عن التغيير ، و قد كان هم الكثيرين منهم إصدار الفتاوى الجاهزة ، حتى أن بعضهم أفتى عقب سقوط الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك بصلاحيه الملك فؤاد -ثم نجله الملك فاروق بعد ذلك- لارتياح هذا المنصب الخطير ، و ذلك رغم ما عرفه القاصي و الداني عنهما من فساد و انحراف و خيانة ! و أمام هذا الوضع و رغبة في تغييره فقد كانت " الشجاعة لدى البنا و مؤديه و حدهم للوقوف و الإعلان عن إيمانهم بصراحة بأن الإسلام هو الحل الوحيد لكل الشرور التي أفلقت الأمة ، و كان هدف الإخوان الأول هو إنشاء المجتمع الإسلامي بحكومة تكون الشريعة فيها هي دستور البلاد ، يقول البنا : (إننا لن نهدأ أبدا و لن نستريح أو نسكت حتى نرى القرآن الكريم شريعة نافذة و سنجيا لهذه الغاية أو نموت في سبيلها) و لم يقع الإخوان المسلمون بمجرد نص الدستور على أن دين الدولة هو الإسلام لقد كانوا يصرون على أن التشريعات بكاملها يجب أن تكون متفقة مع الشريعة و أن تسير الحكومة و المجتمع حسب الشرع الإسلامي " (٢) ؛ و نظرا لأهمية دور المرأة في عملية البناء الاجتماعي فقد أسس الشيخ البنا بالإسماعيلية " فرقة الأخوات المسلمات و عين السيدة لبيبة أحمد هانم رئيسة لفرق الأخوات المسلمات و كانت مهمة هذه الفرق هي النشاط النسائي للأخوات " (٣) .

(١) محمد الحسن ، المذاهب و الأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي (النوحة : دار الثقافة ، ط١ ، ١٩٨٦م) ، ص ١٤٧-١٥٣

(٢) مريم جمانة ، الإسلام في النظرية و التطبيق ، ترجمة س. محمد (الكويت : مكتبة الفلاح ، ط١ ، ١٩٧٨م) ، ص ١٢٧

(٣) عبد العزيز رفاعي ، الديمقراطية و الأحزاب السياسية في مصر (مرجع سابق) ، ص ٢١١

و قد أدرك البنا بذكائه الخارق أن الإصلاح سبيله الصحيح إنما هو الدين خاصة في مجتمع مسلم فيه إلى أن " أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعها فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت و يضيع تعب و يخفق سعيه ، و أكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا- و إن قيل إن لهم شيئا من المعلومات-فما لم تكن معارفهم و آدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثرت في نفوسهم ... إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب و الحكمة العارفة عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء، و لا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا، و إذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق و صلاح الأعمال و حمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاجز لديهم... والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به فلم العدول عنه إلى غيره؟! " (١) ، ولقد تشربت جماعة الإخوان هذه الرؤية و آمنت بفكرة التغيير من منطلقات و أصول منسجمة مع طبيعة البيئة و المجتمع الذي تتحرك في أوساطه، وهذا سر امتدادها الجماهيري حتى باتت رقما يحسب له ألف حساب في المعادلة السياسية فقد ربا نشاط الجماعة على نشاط بقية الأحزاب فلفت إليها جميع الأنظار، وكان نجاحها اجتماعيا وسياسيا سببا في إيغار القلوب العليلة و الصدور الحاقدة على الإسلام ضدها وهو ما كان له أثره البالغ في المواقف السياسية و غيرها ليس فقط على مستوى هذه الجماعة و معها كل التيار الإسلامي و إنما على مستوى الحياة السياسية في مصر و المجتمع المصري كله بصفة عامة .

و أمام هذا الوضع تأمر الانجليز و الملك فاروق على الجماعة و كان للحكومة السعودية ضلوع واضح في هذا التآمر خاصة من خلال رئيسي حزب السعديين أحمد ماهر و محمود فهمي النقراشي . فبدأت محنة الإخوان الأولى بإلقاء القبض على حسن البنا في ٢٨ نوفمبر ١٩٤٨م فور عودته من الحج ثم أغلقت صحيفة الجماعة ، و في ٨ ديسمبر من العام ذاته صدر قرار حل الجماعة بكل فروعها ، و قد علقت حينئذ مجلة آخر ساعة الناطقة بلسان الحكومة السعودية على هذا القرار بقولها " لقد تخلصت الحكومة من جماعة يمكن اعتبارها أقوى خصومها و هذه الجماعة لم تكن مجرد حزب بل كانت تشبه دولة كاملة بأسلحتها و مستشفياتها و مدارسها و مصانعها و شركاتها " (٢) و لكي ندرك دلالات و أبعاد هذا التآمر يكفي أن نستحضر هذه العبارات التي خطها الشهيد سيد قطب ضمن وثيقة قصته مع الإخوان قبيل استشهاده و التي يقول فيها : " لم أكن أعرف إلا القليل عن الإخوان المسلمين إلى أن سافرت إلى أمريكا ١٩٤٨ في بعثة لوزارة المعارف - كما كان اسمها في ذلك الحين- و قد قتل الشهيد حسن البنا و أنا هناك في عام ١٩٤٩م، و قد لفت نظري بشدة ما أبدته الصحف الأمريكية وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان و من شماتة و راحة واضحة في حل جماعتهم و ضربها

(١) محمد عمارة " الامام المقتور ... و التجديد بالإسلام " مجلة العربي الكويتية ، العدد (٤٥٤) (سبتمبر ١٩٩٧م) ص ٤٠

(٢) نبيه زكريا عبد ربه ، الحركات الإسلامية (الدوحة : دار الثقافة / ط١ ، ١٩٨٦م) ، ص ١٣١-١٣٢

و في قتل مرشدها، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها، و صدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠، أنكر منها كتابا لجيمس هيوارث دن بعنوان (التيارات السياسية والدينية في مصر الحديثة)... كل هذا لفت نظري إلى أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية و الاستعمار الغربي " (١) .

هذه هي إذن أهم التيارات السياسية التي ظهرت في مصر خلال العقود الأولى من القرن العشرين ثم تعاضمت دورها وانتشارها وقت العهد الملكي، أما بعد قيام ثورة يوليو ٥٢ و مجيء العهد الجمهوري، فقد بادر قادة الثورة إلى إلغاء الأحزاب سنة ٥٤ وذلك بدعوى إعادة تنظيم الساحة والحياة السياسية، ثم سمح بعد ذلك بظهور بعض الأحزاب و من اتجاهات مختلفة، بيد أنه لم يفتح الباب و في عهود الرؤساء الثلاثة عبد الناصر و السادات و مبارك، لأي تداول حقيقي ديمقراطي على السلطة، و في ظل حالات الغموض و التوتر السياسي انقسمت المعارضة إلى قسمين، قسم همش و تم عزله و هو القسم الذي يناضل من أجل تغيير حقيقي في آليات العمل السياسي، و قسم آخر تم تدجينه و بات لا يعبر بصدق عن هموم الجماهير و لا يعكس في خطابه أو في ممارسته آمالها وطموحاتها المختلفة، و بسبب غياب مشروع واضح و كامل لهذه الثورة فإن الأوضاع العامة في مصر - و في معظم جوانبها - ظلت على النحو الذي كانت عليه إبان الملكية، كما ظلت مصر تنقلب في توجهاتها بين قوى الشرق والغرب، أما التيار الإسلامي فقد تم إبعاده عن أي مشاركة سياسية قانونية، رغم أنه ما فتئ يعلن و يصرح بأنه يريد تحقيق ما يصبو إليه عن طريق اختيار الشعب كغيره من التيارات و التوجهات السياسية؛ و بقي - كنتيجة لذلك كله - الصراع السياسي و الإيديولوجي و الفكري مستمرا، وإن كانت آثاره و انعكاساته تظهر بسبب غياب الحريات و تكافؤ الفرص عبر المجالات و الفضاءات الثقافية و الفكرية و الفنية أكثر مما تظهر من خلال الأطر و القنوات السياسية كما يفترض في المناخ الطبيعي الديمقراطي الصحيح. و سيزل هذا الاختلال الناتج عن احتكار السلطة و اغتصاب إرادة الأمة الحرة و السيدة في اختيار ممثليها و قادتها و مسؤوليها في شتى المواقع له آثاره السلبية الخطيرة المدمرة، و سيزل هذا الاختلال أيضا عقبة حقيقية أمام التنمية الحقيقية الفاعلة و البناء الوطني و الاجتماعي الصحيح؛ إن سيرورة التاريخ و التجارب الحديثة و المعاصرة في بناء الدولة يخطر اننا بأن الطريق الصحيح لاختصار مسافة أعباء و تكاليف التنمية و التغيير الاجتماعي و الاستنهاض الحضاري و المدني، إنما هو حل هذه الإشكالية و حسم الموقف مع هذا الداء الذي يلتهم الطاقة و القوة المذخورة في كيان أمة أصيبت به، فليست هناك تنمية أوبناء اجتماعي أو تطور حضاري في ظل الاستبداد السياسي و القهر الاجتماعي و الحرمان الاقتصادي و اغتصاب حق الأمة و الجماهير في الاختيار الحر و النزاهة لأهل الكفاءة و الصدق و الإخلاص و بواسطة الانتخابات العامة بعيدا عن أي إكراه أو ضغط أو تفكير في السطو و التغلب .

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٧-١٤٨

نشأته ومراحل حياته

يتناول هذا المبحث مراحل حياة الشيخ الغزالي بما يتناسب و يستجيب لطبيعة هذه الأطروحة ، أي دون تركيز على أدق تفاصيل هذه الحياة ، فإن التأريخ الكامل الدقيق لحياة هذه الشخصية الغدة الحافل بالأحداث و الوقائع يتطلب عملا مستقلا ليس هاهنا مكانه .

مراحل حياة الغزالي :

المرحلة الأولى : النشأة و التعلم [١٩١٧ - ١٩٤٣ م]

ولد الشيخ محمد الغزالي في ٣٠ محرم ١٣٤١ هـ الموافق لـ ٢٢ سبتمبر (أيلول) ١٩١٧ م بقرية صغيرة تسمى (نكلا العنب) مركز إيتاي البارود التابع لمحافظة البحيرة إحدى أكبر المحافظات بالوجه البحري الغربي بمصر ، وكانت هذه المنطقة - إيتاي البارود وقرى محافظة البحيرة- قد انجبت الكثير من الأدباء و الشعراء و العلماء المشهورين مثل : الشيخ محمد عبده و الشيخ عبد العزيز عيسى ، و الشاعر المجدد محمود سامي البارودي و الشيخ عبد الله المشد ، و ثلاثة من أئمة الأزهر في العصر الحديث هم : الشيخ سليم البشري و الشيخ إبراهيم خروش ، و الشيخ محمود شلتوت ، و من هؤلاء أيضا الشيخ الدكتور محمد البهي، و الإمام المجدد حسن البنا الذي ولد بالمحمودية التابعة أيضا لمحافظة البحيرة ، و غيرهم من أفاض و عظماء هذه الأمة المعطاء (١) .

كان الشيخ التاجر البسيط أحمد السقا -والد الغزالي- رجلا صالحا يحب العبادة و التقرب إلى الله تعالى و الصلاح في الأرض ، و كان صوفيا محبا معجبا بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م] و في إحدى الليالي رأى هذا الرجل الصالح -قبل أن يتزوج- أبا حامد - رضي الله عنه- في الرؤيا يبشره بسلام اسمه (محمد الغزالي) ففرح كثيرا بهذه الرؤيا و عاش أملا في تحقيقها رغم دهشته و ذهوله بهذه الرؤيا غير العادية -لعل تعلقه بهذه البشرية كان ^{بينما} بقصة امرأة عمران التي وردت في القرآن الكريم- و شاء الله العلي التقدير أن يحقق له هذا الأمل الطيب فجاءته البشرية و أصبحت تلك الرؤيا واقعا ، حيث وهبه الله تعالى صبيا فسارع إلى تسميته بالإسم الذي سمعه في الرؤيا : محمد الغزالي (٢)

(١)-قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع (الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت) ، ص ١٧-١٨ - و انظر أيضا : عبد الحليم عويس و آخرون ، الشيخ محمد الغزالي : صور من حياة مجاهد عظيم (القاهرة : دار الصوة ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٤ م) ، ص ١٥

(٢)- علاء محمد الغزالي " السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي " العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (حلقة دراسية) - (عمان : المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن و مؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات والبحوث ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م)

قرر التاجر الصالح أحمد السقا أن يهب هذا الغلام لخدمة الدين و الدعوة إنفاذا للعهد الذي قطعه على نفسه بعد أن جاءته تلك الرؤيا ، فما أن أخذ الغلام يترعرع حتى أدخله كتاب القرية لحفظ القرآن الكريم تمهيدا للوجهة التي نواها له في الحياة و وضعها بأمل متدفق غامر في تصوره و خياله ، و لقد حرص الأب الصالح على أن يحفظ نجله كتاب الله تعالى خلال سنوات محددة فلا معنى إذن و لا مجال لتضييع الوقت ، لذلك فقد كان يتعهد بنفسه و يراجع معه الحصائل الجديدة على الدوام ليتأكد من حسن حفظه و نطقه للقرآن ، لأنه كان من حفاظ كتاب الله ... و يحكي الغزالي - بعد رسوخه في العلم- عن تلك البدايات الأولى قائلا : " أشهد أن أبي كان عابدا قواما و مكافحا جلدا ، و قد سماني محمد الغزالي لأن أبا حامد رضي الله عنه أوصاه بذلك في رؤيا سالحة رأها و هو أعزب ... و عندما ولدت شرع يهتم بي ، فما بلغت الخامسة حتى كنت في الكتاب أحفظ القرآن مع غيري من الصبية ، و لما كان هو من الحفاظ فقد تعاون مع فقهاء الكتاب على ألا أضيع الوقت سدى ، يجب أن أستظهر القرآن الكريم في أقصر مدة ! " (١) ، و يبدو أن هذه المرحلة كانت ثقيلة بوقوعها على نفسية الغلام الناشيء و لكنها كانت حاسمة في رسم وجهته و تحديد مستقبله ، و من أسباب ثقلها - كما يظهر - المناهج التقليدية البعيدة عن التنظيم و عدم مراعاة الوضع النفسي للمتعلم : " إن الكتاب شيء مقلق ، قاعة واحدة واسعة مليئة بعشرات المستويات ، تضم قريبا من مائة صبي بين السادسة و السادسة عشر ، كل منهم عاكف على اللوح الذي يكتب فيه أو يقرأ منه ، و هناك من يقرؤون في المصاحف بعدما انتهوا من مرحلة الكتابة ، و على بعد مائة ذراع تسمع هدير التلاوة ، تقطعه بين الحين و الحين استغاثة مضروب لم يحسن الأداء يتوجع من لذع العصا و الآباء يوصون المعلمين بالألا تأخذهم شفقة في التعليم و التأديب ، فعصا الفقيه من الجنة كما يقولون !! " (٢) و قد ظل الغزالي يختلف على كتاب القرية حتى تمكن من حفظ القرآن الكريم كاملا و هو في سن العاشرة ، كما تلقى بعض مبادئ الحساب و الخط و الإملاء .

تعليمه الإبتدائي و الثالثوي : كان الناس في قرية نكلا العنب و منطقة إيتاي البارود في ذلك الوقت يتنافسون على تعليم أبنائهم و تحفيظهم القرآن ، أما التاجر الصالح أحمد السقا فهدفه كان أكبر من ذلك بكثير ، فقد كان يريد بصدق و إخلاص أن يفى بعهده مع الله ، فعزم على ترك القرية و الانتقال إلى الإسكندرية كي ينتظم ابنه الغزالي في المعهد الأزهري الذي كان مخصصا حينئذ لمحافظة البحيرة ، لا سيما و أن طفلا - كما يذكر الغزالي- «في العاشرة من عمره لا يقدر أن يعيش وحده ، لا بد إذن أن تنتقل الأسرة معه ، فباع دكانه الذي كان يرتزق منه ، و اشترى في الاسكندرية مكتبة بحري (كرموز)

(١) - محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " ، مجلة إسلامية المعرفة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي / ، ماليزيا .
العدد السابع (رمضان ١٤١٧ هـ / يناير ١٩٩٧ م) ، ص ١٥٧

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها

كانت تباع الأوراق و الكراريس و الروايات المترجمة و الكتب المدرسية و العلمية و القصص الشعبية و الأسفار الدينية المختلفة ، و نقل الأسرة التي أصبحت تضم معي شخصين آخرين غير من ماتوا ، و استقبل مرحلة شاقة من مراحل السعي و اللغوب! لم أكن أدري يومئذ مغارم هذا التحول من القرية الهادئة إلى المدينة المانجة، و يظهر أن أبي واجه أزمات و ضوائق فلم ينهزم ، و خفف عنه آلام الحياة ، أني نجحت في امتحان القبول الذي عقده مشيخة معهد الإسكندرية الديني وكان الناجحون نحو مائتي طالب كُلفوا بارتداء العمامة و الجبة المقررة ، و يظهر أن منظري و انا في هذه السن الصغيرة كان مثيرا للضحك ! مما جعلني أنتكر لهذا الزي المفروض أمدا طويلا ... أصبحت الشيخ محمد و أنا لم أبلغ الحلم ! كنت أحب اللعب و لكن كيف يلعب شيخ ؟ و كنت كثير الضحك و جزائي على ذلك طول الزجر و التوبيخ ... و تطلعت إلى المكتبة التي ترتقق منها و كنت منهوما بالقراءة فتركني أبي أقرأ ، و إن كان قد لاحظ في أسف أني آبي القراءة في الكتب الدينية و أوتر مطالعة الروايات الأجنبية ، و ربما فضلت قراءة ألف ليلة على ما يختار لي هو من كتب ... (١) «

و إذا كان العقد الأول من عمر الغزالي قد هيمن عليه حفظ القرآن و إجادة تلاوته ، فإن عقد عمره الثاني كان مخصصا للدراسة الابتدائية و الثانوية بمعهد الاسكندرية الديني الأزهرى ، حيث بدأ المرحلة الابتدائية سنة ١٩٢٨ م و هو في بدايات العام الحادي عشر من عمره ، و يظهر أيضا أن هذه المرحلة مثلت بالنسبة له مرتكزات القاعدة العلمية الصحيحة التي كان لها ثمارها فيما بعد في مساره الفكري ، و هو يشير إلى ذلك بقوله : " دخلت معهد الإسكندرية الديني لأقضي فيه تسع سنين من أعلى أيام العمر ، كانت الدراسة وفق نظام اليوم الكامل تبدأ صباحا و تنتهي في الأصيل ، و هي دراسة حسنة لا يجوز وصفها بأنها دينية خالصة ، فإن العلوم المدنية كانت لها أنصبة محترمة ، و لم يكن مستوانا فيها دون مستوى ألداننا من طلاب التعليم العام ، إلا في اللغات الأجنبية فقد حرمانا منها ، و كنا نستطيع -لو قررت علينا- أن ننجح فيها ... و المنهج الذي ارتبطنا به كان من وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي ، و هو من مدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية ، و لذلك لم يبق طويلا حتى عصف القصر الملكي به و أتى بالشيخ الأحمدى الظواهرى ، و قد نفذ الشيخ الجديد برنامج سلفه بدقة ، و أعتقد أن هذه الفترة من أزمى فترات التآلق العلمي في الأزهر ، لأن دراسة الطبيعة و الكيمياء و الأحياء و علوم الحساب و الجبر و الهندسة ، و التوسع في دراسة التاريخ المحلي و الإسلامى و العالمى و دراسة جغرافية العالم كله ... إن هذا كله يصقل فكر الطالب و يعينه على تكوين حكم صائب ، بل إن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة (٢) "

(١) - المصدر نفسه ص ١٥٨-١٥٩

(٢) - المرجع نفسه ص ١٦٠

و خلال هذه المرحلة أخذ وعي الغزالي يتفتق سواء عن طريق قراءاته الكثيرة المتنوعة أو مشاهداته الشخصية أو انتظامه في الدراسة الأزهرية ، و لاشك أن انتقاله من القرية إلى المدينة كان له أثره البالغ في ذلك ، ففي مدينة عريقة مثل الإسكندرية توجد صحف و مجلات كثيرة و توجد مكتبات متنوعة و حركية إعلامية و علمية و جمعيات أدبية و فكرية ، هذا المناخ الجديد أسهم أيضا في بدء تشكّل الوعي السياسي عند الغزالي و هو دون العشرين من عمره ، حتى أنه لما تولى إسماعيل صدقي باشا الحكم ، و أصدر الملك فؤاد يوم ٢٠ يونيو ١٩٣٠ م قرار تكليفه بتشكيل الحكومة إثر استقالة وزارة النحاس ، وسط عواصف و أعاصير من الغضب و الغليان الشعبي بعد أن ألغت هذه الحكومة الدستور و عازمت على إدارة شؤون البلاد بالإرهاب و الاستبداد (١) انخرط الغزالي مباشرة في حركة التمرد الطلابي التي شارك فيها معهد الإسكندرية الديني ، بل كان من قادة هذه الحركة ، و سبب هذا التمرد أن الشعور العام كان سائدا بأن القصر الملكي و أجزائه يعملون لمصلحة الاحتلال البريطاني ضد المصالح العامة للشعب المصري ، و يعلق الغزالي على هذه الملابسات فيقول : " و قد دفعت ثمن ذلك غالبا ، قدت إحدى المظاهرات العنيفة و حقق معي ثم أفرجت النيابة عني بكفالة مالية قدرها جنيهان ، دفعها أبي و هو يلهث من الإعياء ، و مضت القضية في طريقها العتيد ، و ما كنت أدري ما يفعل بي لولا أن قانونا بالعمو العام شملها فيما شمل من أمثالها و نجوت من السجن ، و قدت أخرى داخل المعهد ، و بعد التحقيق رني فصلي سنة من الدراسة ، أو بعبارة أخرى رني منعي من دخول امتحان آخر العام و كنت في السنة الثانية الثانوية ، فعز علي أن أتخلف سنة عن زملائي فتركت الدراسة نهائيا و انفصلت من المعهد و قلت أتقدم لامتحان (الشهادة الثانوية-القسم الأول) من الخارج ، و كانت مغامرة لا يقدم عليها أحد ، و رأيت أبي -رحمه الله- يكاد يقتله الحزن لخيبة أمله في مستقبلي و في الرؤيا التي سيطرت عليه (٢) "

و شاء الله أمرا آخر و حدثت المفاجأة فقد تقدم الغزالي للإمتحان - خارج نظام التمدرس أي مع الأحرار - و كان الأول في ترتيبه على مستوى معهد الإسكندرية الديني الأزهرية ، و من الأوائل على مستوى القطر (المملكة المصرية) و لم يضع العام الذي توقع ضياعه ... و في هذا الوقت مر العالم بأزمة اقتصادية رهيبه تأثرت بها كل دول و شعوب المعمورة ، و مست هذه الضائقة أسرة أحمد السقا التي حاولت بعد مغادرة القرية إلى الاسكندرية تحسين ظروفها المعيشية و الاقتصادية ، إلا أنها لم تفلح خاصة مع مداهمة الأزمة العالمية و اندياحها الواسع ، لا سيما أن الأسرة أصبحت تتكون من سبعة إخوة - أكبرهم الغزالي - إضافة إلى الأبوين ، و كان نتيجة لذلك أن بقاء الغزالي في المعهد منتظما في الدراسة بات مهددا .

(١) - عبد الرحمن الرفاعي ، في أعقاب الثورة المصرية ، ج ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٣٩م) ، ص ١١٠-١١١

(٢) - محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " (مصدر سابق) ص ١٦١

على الرغم من اجتهاد الأب الصالح في كفالة الأسرة و تحسين أوضاعها " و ازدادت أزمات أبي فأخذت أدرس لبعض الأطفال نظير أجر تافه ، و أحتال على البقاء في المعهد بما أتكسبه من قرشيات قليلة ... حتى أحرزت الشهادة الثانوية الأخيرة " (١) ؛ كانت هذه المرحلة من حياة الغزالي تمثل على الصعيد الفكري النظري تشكل الخلفية و المرجعية المعرفية و التصورية التي سيكون لها فيما بعد انعكاساتها و آثارها في انطباع مساره و انصباح توجهه بصيغة معينة ، و قد لعبت دراسته بمعهد الإسكندرية الديني الأزهرى بعد حفظه للقرآن بقرية نكلا العنب دورا رئيسيا في تشكل هذه الخلفية ، خاصة و أن برنامج المعهد لمواد الدراسة كان مركزا و ثريا ، قبل تعديله الذي كان سلبيا كما يشير الغزالي إلى ذلك بقوله : " إن هذه الشهادة كانت تمثل آخر تطبيق للنظام الإصلاحي الذي وضعه رجل تتلمذ على الشيخ محمد عبده ، و كانت فرقتنا آخر من حصل على هذا النوع من الشهادات ، و عدلت البرامج بعد ذلك تعديلا حذف كثيرا من المواد الرياضية و العلمية و الإنسانية العظيمة النفع ، و كنا نتحدث فيما بيننا أن الشيخ المراغي سئم تكاليف الجهاد العلمي و أثر الراحة بالتعاون مع الأحزاب المتعاونة مع القصر ، و ترك الأزهر حبله على غاربه ، فأخذ التعليم الديني ينحدر رويدا رويدا ... لقد استفدت كثيرا من دراستي في المعهد بين عامي ١٩٢٨-١٩٣٧م " (٢)

و قبل هذا العام ١٩٣٧ الذي أتم فيه الغزالي -و على مدى تسع سنوات- المرحلتين الابتدائية و الثانوية حصل له حادث هز حياته كلها و كان له شأن أي شأن في بلورة اتجاهه الفكري و الفقهي و التربوي ، هذا الحادث هو لقاء الإمام الشهيد حسن البنا -و هو من أبناء إقليمه (محافظة البحيرة) كما ذكرنا سابقا- فقد كان الغزالي معتادا على الصلاة في مسجد (عبد الرحمن بن هرمز) الراوي التابعي بالإسكندرية ، يصلي صلاة المغرب ثم يبقى يذاكر دروسه أو يقرأ القرآن ، و في يوم من أيام سنة ١٩٣٥م و بعد انقضاء صلاة المغرب نهض شاب ذو سمت إسلامي أنيق و ألقى موعظة قصيرة على جمهور المصلين ، كانت شرحا للحديث النبوي الشريف (أتق الله حيثما كنت، و اتبع السيئة الحسنة تمحها ، و خالق الناس بخلق حسن) و يذكر الغزالي بأن هذه الموعظة البليغة كانت حديثا مؤثرا متصلا بأعماق القلب " فما أن فرغ منه حتى وجدت نفسي مشدود القلب إليه ، و منذ تلك الساعة توقفت علاقتي به و مضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة ، ثم استمر عملي في ميدان الكفاح الإسلامي مع هذا الداعية العملاق إلى أن استشهد سنة ١٩٤٩م " (٣)

(١)- المصدر نفسه ص ١٦٣

(٢)- المصدر نفسه و الصفحة نفسها

(٣)- إبراهيم نويري " الشيخ محمد الغزالي أديب الدعوة و داعية الاعتدال " ، المجلة العربية السعودية ، العدد (٢١٥) - (ذو الحجة

١٤١٥هـ / مايو ١٩٩٥م) ص ٨٧

بعد أن أكمل الغزالي هذه الفترة بنجاح و حصل على الشهادة الابتدائية و شهادة الكفاءة - و هي ثلاث سنوات بعد الابتدائي- ثم الشهادة الثانوية- و هي سنتان بعد الكفاءة- و بات بمقدوره الاعتماد على نفسه صفى والده -التاجر البسيط أحمد السقا- مكتبته بالإسكندرية ، و رجع بأسرته إلى قريته الوداعة نكلا العنب ، بعد أن بعث بابنه -الغزالي- إلى القاهرة ، فالشهادات التي بحوزته- و هي من معهد أزهرى- تؤهله للإلتحاق بإحدى الكليات التي كان يتوفر عليها الأزهر الشريف حينئذ ، عندما وصل الغزالي إلى القاهرة اختار الانضمام إلى كلية أصول الدين و ربما كان ذلك لميوله الدعوية و الفكرية و كذلك لوجود عدد من أصدقاء الدراسة الذين كانوا معه بمعهد الإسكندرية الديني بهذه الكلية و قد بدأت هذه السنة الدراسية عام ١٩٢٨م ، لكن هذه البداية كانت أيضا بطرفة دلت على روح الغزالي الثائرة على كل ما كان يراه انحرافا أو اعوجاجا ، و قد بدا ذلك جليا عندما قاد بعض المظاهرات و اشترك في أخرى بالإسكندرية و هو في سن صغيرة لا تساعد على بروز مثل هذه المسالك ، إبان الغليان الشعبي الذي كان سائدا عندما كلف الملك أحمد فؤاد : اسماعيل صدقي باشا بتشكيل وزارة جديدة ، و الطرفة التي كانت بداية لهذا العام الدراسي كانت أيضا نابعة من تلك الروح ذاتها ، و هي كما رواها الغزالي في قصة حياته بقوله : " جمعنا عميد الكلية -أي كلية أصول الدين- في مسجد (الخانندارة) في حفل عام للتعارف و استقبال العام الجديد ، و توثيق العرى بين الطلاب و هيئة التدريس ، و حدث في هذا الحفل أمر ذوبال ، فقد كان بين من تحدثوا الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة و الأخلاق بالكلية ، و جرى على لسانه ثناء حار على المجتمع الفرنسي و تنويه بما يسوده من أمانة و نظام ، و أهاب بنا أن نتمسك بهذه الخلال !! و غاظني ما سمعت فانتفضت قائما أصيح : أي خلال يا أستاذ ؟ هؤلاء تقدموا في اللصوصية ... اللص عندنا يسرق آنية من بيت أو حافظة من جيب أو ثمرة من حقل و هؤلاء يسرقون الشعوب تحت الشمس ، و يختلسون العقائد من القلوب !! أي خلال تعني يا أستاذ نلتمسها من هؤلاء المعتدين على إخواننا في أقطار المغرب-و كانت كلها محتلة- ؟ و لماذا لم تذكرنا بسلفنا العظيم ؟ و انطلقت بطريقة همجية اضطرب بها نظام الحفل ، ثم أمسك بي بعض المشرفين و قادوني إلى عميد الكلية الشيخ عبد المجيد اللبان فرأى شابا في العشرين أفقده الحماس و عيه ، فقال لي بصوت وديع : أعد يا ولد !! فجلست أمامه ، و كلف شيئا آخر بالتحدث إلى الطلاب الذين بدا أنهم متعاطفون معي ، بل بدا أن أكثر المدرسين لم يستريحوا إلى توجيه الدكتور محمد يوسف ، و أنهم يؤيدون موقفي ... لم يعاقبني عميد الكلية مكتفيا بإسداء بعض النصائح و صرفني بعد انتهاء الحفل ... و الغريب أن علاقتي بالأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى توطدت ، و كنت فيما بعد أثيرا عنده ، و طيلة مدة الدراسة بالكلية لم أستغن عن توجيهه و إرشاده ، و بعد التخرج نمت بيننا صداقة عميقة و تعاون في خدمة الدعوة الإسلامية (١) "

(١)- محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " (مصدر سابق) ١٦٥-١٦٦

في القاهرة و خلال هذه السنة الدراسية كان الغزالي يتردد على المركز العام للإخوان المسلمين و يكثر من اللقاء بالإمام حسن البنا الرجل الذي قرر الغزالي منذ أول لقاء معه بمسجد عبد الرحمن بن هرمز بحي رأس التين بمدينة الإسكندرية - قبل ثلاث سنوات - أن يتبعه و يسير معه على درب واحد لخدمة الإسلام ، و جدير بالذكر أن حسن البنا كان قد سبق إلى القاهرة في شهر أكتوبر ١٩٣٢ م و انتقل معه المركز العام للجماعة (١) و أصبح الغزالي من أبرز أعضاء الجماعة ، و كان أحد ثلاثة أشرفوا على فتح شعبة للجماعة بكلية أصول الدين الأزهرية ، و هذا له دلالة في هذا السياق ، إذ تحول الغزالي إلى شعلة من النشاط و الحيوية خلال هذه الفترة نتيجة لعدة عوامل و أسباب منها المستوى الرفيع للتلقي العلمي حيث كان بكلية أصول الدين علماء و مفكرون بارزون تتلمذ عليهم الغزالي ، منهم الشيخ محمد عرفة و الشيخ محمود شلتوت و الشيخ عبد العظيم الزرقاني و محمد أبو زهرة و الشيخ عبد العزيز بلال و إبراهيم الغرباوي و محمد الريان و عبد الوهاب عزام و محمد الخضر حسين و محمد الأودن و عبد الوهاب خلاف و أمين الخولي و محمد عبد الله ماضي و الدكتور محمد أحمد الغمراوي و الدكتور محمد البهي و الدكتور محمد عبد الله دراز و الدكتور محمد يوسف موسى و غيرهم ، و منها أيضا تررده اليومي على المركز العام للإخوان المسلمين عندما كان مقره (العنبة الخضراء) و لما انتقل إلى (الحمية الجديدة) و لقاءه بالمرشد العام الذي أعجب الغزالي كثيرا بمواهبه الشخصية و عمق تربيته و اكتمال سيرته ، و منها أيضا أجواء القاهرة الثقافية حيث الحركة الإعلامية و الفكرية المتميزة خاصة في تلك الفترة التي احتدم فيها الصراع الفكري و الأيديولوجي و السياسي ؛ كل هذه العوامل و الظروف أسهمت إلى حد كبير في تعاظم تفق الوعي عند الغزالي ، و في هذه المرحلة بدأ الكتابة و هو على مقاعد كلية أصول الدين ، و لبداية الكتابة قصة يرويها الغزالي في مذكراته " و في أثناء الدراسة وقع لي مع الأستاذ المرشد شيء سار كان له وقع عظيم في حياتي ... كتبت يوما مقالا و أرسلته إلى مجلة الإخوان و ارتقت نشره ، فلم ينشر و ساء ظني بنفسي فتركت الكتابة ... و بغتة تلقيت بالبريد رسالة من المرشد العام ، عرفت فيما بعد نبأها ... لقد دخل إدارة المجلة و سأل الأستاذ صالح عشموي رئيس التحرير : لماذا لا أقرأ للإخوان مقالات جيدة ؟ و ما السبب في ضعف المجلة ؟ و مذيده - غير متعمد - إلى ملف المحفوظات المنتفخ بالمقالات التي رئي عدم نشرها ، و وقع بصره على مقالي و غضب غضبا شديدا لإهماله ، و أمر بجعله افتتاحية العدد المقبل ، و بعث إلي برسالة شخصية هذا نصها " أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته - قرأت مقالك " الإخوان المسلمون و الأحزاب " فطربت لعبارته الجزلة و معانيه الدقيقة و أدبه العف الرصين ، هكذا يجب ان تكتبوا أيها الإخوان المسلمون اكتب دائما و روح القدس يؤيدك و الله معك ... أخوك حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين " ... كدت أطيير من الفرح بهذا التقدير و ذلك الدعاء ،

(١) - محسن محمد ، من قتل حسن البنا ؟ (القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ط١ ، ١٩٨٧م) ، ص ١٦

لعله الثناء الأول و الدعاء الأول الذي ظفرت به من رجل كبير ، و أصبحت بعد هذه الرسالة من كتاب الجماعة الأوائل ، و استبشرت بأن الله سيلهمني الرشد فيما أكتب (١) "

ظل الغزالي بهذه الحيوية و التألق طيلة فترة الدراسة بالكلية و كان لا يخرج من القاهرة إلا للدعوة في بعض الأقاليم المجاورة حيث كان الإخوان ينظمون بعض الأنشطة الدعوية ، أو لزيارة أسرته و أقاربه و أصدقائه بقريته نكلا العنب لا سيما أثناء الإجازة الصيفية ، و كثيرا ما كان أثناء هذه الإجازة يعين والده في تجارته البسيطة و البيع في الدكان ؛ و في سنة ١٩٤١م أنهى دراسته بالكلية و بقي عليه أن يضيف سنتين أخريين لاستكمال الدراسات العليا ، و في سنة ١٩٤٣م حصل الغزالي على العالمية (*) مع إجازة الدعوة و الإرشاد ، و رغم حالات الإملاق التي عاناها خلال هذه المرحلة إلا أنه يعتبر هذه الفترة من أخصب أيام عمره و أنفعها لقربه من الإمام البنا و جودة التحصيل العلمي و مسرته الغامرة بالجمع بين الدراسة المنتظمة و القيام بمقتضيات انتمائه لجماعة الإخوان و المشاركة المبكرة في بعض الأنشطة الدعوية و الفكرية و الخيرية و الاجتماعية و نحوها .

المرحلة الثانية : الدعوة في مصر [١٩٤٣-١٩٧٤م]

بعد الحصول على شهادة العالمية و نظرا للظروف الاجتماعية الصعبة التي كان يعيشها كان لابد أن يخرج الغزالي للحياة العملية ، فراح يبحث له عن عمل ، و قد كان حصول الأزهرى - حينئذ - على عمل مطلباً دونه عوائق جمة ، و لاشك أن ذلك كان جزءاً من خطة للتطويع بالأزهر و التعليم الديني كله ، غير أن أملاً لاح في هذه الأجواء عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف و مناصب الإمامة و الخطابة و التدريس ؛ شارك الغزالي في هذه المسابقة التي كان يرأس لجنتها أحمد حسين - شقيق الدكتور طه حسين - كما أطر هذه المسابقة أيضا بعض علماء الأزهر من بينهم الشيخ سيد زهران و الشيخ أمين الخولي ، و على الرغم من العراقيل التي ظهرت في هذه المسابقة و اعترضت الغزالي خاصة من قبل أحمد حسين - الذي يبدو أنه كان يريد إسقاط الغزالي - إلا أنه نجح و كان ترتيبه الخامس بين الناجحين ، و نحن نجد الغزالي يعلق على هذا النجاح بقوله : " و تم ذلك بما يشبه خوارق العادات ، و عينت إماما و خطيبا و مدرسا بمسجد (عزيان) بالعتبة الخضراء ، و لم يلق هذا الحظ أحد من زملائي معي ! الإمامة و الخطابة و التدريس ، هذه الوظيفة المثلثة هي التي كلفت بها و رزقت منها صدر شبابي ، لقد كان عملي في مسجد محدود المساحة ، لكن موقعه في قلب القاهرة و في سوق تزدهم بالناس سحابة النهار و زلفا من الليل ... و المصريين شعب له حسن مرفه من الناحية

(١) - محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " (مصدر سابق) ص ١٦٩-١٧٠

(*) - تعادل درجة الماجستير [عبد الحليم عويس " الشيخ محمد الغزالي : قصة داعية جاهد بقلمه و لسانه نصف قرن "] مجلة

النبيصل السعودية (العدد : ١٤٧) ، ص ٣٩

الدينية عندما يجد واعظا جادا يدرس موضوعه و يحسن شرحه يلتف حوله و يعمر مسجده ، و من ثم لم يمض شهر حتى كان جزء كبير من ميدان العتبة يفرش بالحصر و تنقل له الخطبة بالمكبرات " (١) و مما يجدر ذكره هنا أن مواهب و قدرات الغزالي في الخطابة و الأداء و العرض ظهرت بمجرد استلامه لعمله بمسجد عزبان إلى درجة أن الشيخ سيد زهران مدير المساجد -و كان قد اكتشف قدرات و مواهب الغزالي أثناء المسابقة المشار إليها- استدعى الغزالي إلى مكتبه و كلفه بإلقاء خطبة الجمعة بمناسبة حضور الملك فاروق لافتتاح مسجد بحي (المنيل) ... و يحكي الغزالي لنا هذه الحادثة بقوله : " و في يوم الخميس كنت بوزارة الأوقاف و أخذ الرجل الخطبة و راجعها ، و ذهب بها إلى قصر عابدين فأقرت ، و اتصل بي من القصر تليفونيا يطلب مني الاستعداد لإلقاء الخطبة غدا ، ثم قال : و للحظيرة تعال إلي في البيت نذهب إلى المسجد معا و في الصباح كنت عنده جالسا في حجرة الاستقبال أنتظر دخوله بعدما فتح الخادم لي ؛ و دخل المدير و نظر إلي فكاد يصعق ، و أخذ يجمع بكلمات لم أتبينها و هو يتميز من الغيظ : يا أستاذ تجيء للصلاة بجلالة الملك في هذه الجبة البالية و هذا الجلباب الرخيص ؟! و شعرت بحرج بالغ و تملكني الخجل ، ثم غلبتني طبيعتي الضاحكة فقلت ، الجبة حسنة ، أما الجلباب فأنا لا ألبس ما يرتديه الشيوخ من نسيج براق لامع ، ثم لا تنس أنني ألقاك بهذه الثياب و أنت و الملك سواء ... فقال الرسميات يا و أخذ الرجل يفكر بسرعة ليخرج من هذه الورطة و أرسل إلى مفتش مساجد قريب في مثل جسمي ، و استعار منه ملابس أخرى فاخرة ، و أكرهني الرجل على ارتدائها ، و كانت أطول مني قليلا ، فعلمني كيف أحافظ على سمتي داخلها ... و انتهت الصلاة بخير ، و كان شديد القلق إلى أن انصرف صاحب الجلالة ، فافتادني إلى البيت و هو يسب الظروف التي عرفته بي ! و يحمد الله أن تم الأمر بستر و أنا أواجه هذا كله بالضحك و أقول أما من وسيلة للهرب بهذه الملابس ؟ و مع هذه الحادثة الطريفة فإن الصداقة ربطت بيني و بين المدير و كنت أعاونه في بعض القضايا العلمية حتى مات رحمه الله (٢) "

و في غمرة هذه الظروف التي تسلم فيها الغزالي العمل الحكومي شعر بالحاجة إلى الزواج ، فخطب فتاة من قريته (نكلا العنب) و تزوجها بعد أن تدخل في المسألة الأستاذ المرشد حسن البنا ، و كان والد الفتاة صديقا للتاجر الشيخ أحمد السقا -والد الغزالي- و كان يعمل موظفا بوزارة العدل في القاهرة (٣) ، بعد زواجه ازداد الغزالي نشاطا في ساحات الدعوة ، و كان يجمع بين الوظيف الرسمي و النشاط مع جماعة الإخوان ، ثم أخذ يكثر من الكتابة مرة بتوقيعه و مرات أخرى بتوقيعات مستعارة خاصة بعد أن عينه حسن البنا سكرتيرا لمجلة الإخوان المسلمين (٤)

(١)- المصدر السابق ١٧٨

(٢)- المصدر نفسه ص ١٧٩-١٨٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠

(٤)- المصدر نفسه ص ١٨٣

و الغزالي يعترف بأن تشجيع حسن البناء و إقبال الإخوان عليه كانا من أقوى الأسباب في عكوفه على التأليف و ميله للكتابة و الجهاد بالقلم و الكلمة (١) .

و في هذه الأثناء أيضا اشتدت وطأة الصراع السياسي و طففت على السطح ظواهر الفتن التي زرع بذورها القصر الملكي بالتواطؤ مع القوى النافذة للمحتلين و من حذا حذوهم من دوائر الكيد الحاكمة على مصر و كل الأمة الإسلامية ، حيث ظهرت مشكلة الاغتيالات السياسية ، فاغتيل من حكومة الوفد أحمد ماهر و محمود فهمي النقراشي ؛ و كان لابد أن تعمل دوائر الكيد القوية النافذة على إحداث الواقعة و تأجيج العداوة و سوء الظن بين الإتجاهات السياسية ، و لما كان الإتجاه الإسلامي هو المقصود تحديداً بذلك الكيد ، فقد تم اتهام الإخوان بضلوعهم في هذه الاغتيالات ، و العجيب أن مؤرخين بارزين و كتابا كبارا انسقوا خلف هذه الاتهامات ، و منهم الأديب الكبير عباس محمود العقاد - و كان صديقا للنقراشي - و منهم أيضا المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي ؛ و قد تزامنت هذه الأحداث مع ارتفاع معنويات التصدي للإحتلال في أوساط الشعب المصري ، و كذا المشاركة في حرب فلسطين سنة ٤٨ ضد الصهيونية و الغطرسة اليهودية ؛ و نحن عندما نحاول ربط خيوط هذه الأحداث نستطيع فهم دوافع القرار (الملكي-البريطاني) الذي صدر بحل جماعة الإخوان و مصادرة ممتلكاتها و الزج برجالاتها و قادتها في المعتقلات و اغتيال مرشدها ، و الواقع أن هذا القرار كان من ورائه الكيد الصهيوني ممثلا في كل القوة الغربية خاصة منها بريطانيا و أمريكا

يقول الشيخ الجليل محمد المجذوب : " لقد خضت حركة الإخوان طاقات الشعب المصري لتفتح أعينه على طريق جديد من الجهاد و العمل لم يكن له بمثله عهد منذ حروب الصليبيين و التتار ... و كانت زحوف مجاهديهم لتحرير فلسطين صدمة هائلة لعملاء الغرب ، أدخلت الخلل على خططهم الموجهة للقضاء على حيوية الإسلام و قدراته التي لا تنتهي على تحريك الخامد من همم المسلمين . و ما هي إلا أيام مشحونة بالجد و الصبر حتى زلزلت الأرض بأقدام يهود ، و حتى بات الإخوان المسلمون هم البلاء الأكبر الذي لا يقف في وجهه شيء ... و لم يكن بد من تدخل أميركا و روسيا و دول أوروبا لتدارك المصير المحتوم الذي سينسف إسرائيل من أساسها إذا استمرت دققات الإيمان في طريقها المنظور " (٢) .

(١) - المصدر نفسه ص ١٧٢

(٢) - قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع (الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت) ،

و قد كان طبيعياً أن يكون الغزالي خلال محنة سنة ٤٨ من بين المعتقلين باعتباره عضواً مؤسساً للجماعة و من البارزين من أعضاء مكتب الإرشاد فيها ، و قد قضى سنة ٤٩ -إلا قليلاً منها- في سجن الطور ، و في بدايات هذا العام تم اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا ، تنفيذاً للخطة التي وضعتها قوى الغرب للملك فاروق ... و في سجن الطور كان الغزالي إماماً و مرشداً للمعتقلين و قد ازدادت مسؤوليته عنهم خاصة عندما استدعي الأستاذ البهي الخولي إلى القاهرة لاستنطاقه في قضية تتعلق بالنظام الخاص ، و في ذلك يقول الغزالي : " اعتقلت و بت مسؤولاً عن المعتقلين من الناحية الروحية و الثقافية و الفكرية و أحياناً المادية لأنني كنت إمامهم (...). الله كرمنا بالإسلام فلا يجوز لنا أن نفرط في هذا التكريم الإلهي ، و إنه من الإخلاص لهذا التكريم أن نبذل نحن الدعاة مزيداً من الجهود لشرح الجوانب الحسنى في الإسلام الحنيف لأنه دين التوحيد الخالص و ليس دين تأليه البشر ، و لأنه دين العدالة الاجتماعية التي لا تتغير قواعدها بمرور الزمن و اختلاف الأحوال ، بينما نرى المذاهب الاقتصادية و الاجتماعية التي صنعتها البشر لا تصمد أمام التغيرات التي تطرأ على الحياة و يقوم أصحابها بأنفسهم بالحكم على فشلها ، بينما شريعة الله ثابتة و صالحة لكل زمان و مكان ، و تستوعب بشمولها كل تغيير يحدث على مر العصور و أنه يجب علينا أن نكافح من أجل الانتفاع بهذه الشريعة و نفع البشر بها (١) "

و خلال هذه المرحلة بدأ الغزالي رحلة الكتابة و التأليف و كان سنة ٤٧ قبل اعتقاله قد أخرج للناس كتابه (الإسلام و الأوضاع الاقتصادية) ثم أعقبه كتاب (الإسلام و المناهج الاشتراكية) و بعد الخروج من المعتقل أصدر كتابه الثالث (الإسلام و الاستبداد السياسي) و هو ثمرة الدروس و المحاضرات التي كان قد ألقاها على إخوانه في معتقل الطور ؛ ثم جاءت الإصدارات الأخرى و التي تمثل المقالات و الدراسات التي نشرت في الصحف و المجلات الإسلامية في هذه الفترة ، و هذه الإصدارات هي (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين) و (تأملات في الدين و الحياة) أما كتاباه (خلق المسلم) و (عقيدة المسلم) فهما أيضاً ثمرة الخطب و المحاضرات المسجدية ، ثم جاء كتابه (من هنا نعلم) في الرد على صديقه الكاتب الإسلامي الكبير خالد محمد خالد -رحمه الله- حين غالطه كاتب ضال منحرف يدعى عبد الله القصيمي بإنكار الدولة في الإسلام ، ففاجأ الناس بكتابين الأول هو : " هذا أو الطوفان " (*) و الثاني " من هنا نبدأ " ، و هو الكتاب الذي تناوله الغزالي بالرد العلمي الهادي حتى أعاد مؤلفه إلى الصواب .

(١)- مجلة المجلة " شخصية عام ٨٩ الإسلامية " مجلة المجلة السعودية ، لندن (العدد : ٥١٦) - (يناير ١٩٩٠م) ص ٤٠

(*)- ذكر الأستاذ فهمي هو يدي أن هذا الكتاب في حقيقته لعبد الله القصيمي و أن الشيخ الغزالي قد رد عليه بكتاب أسماه (الطوفان

ولاهذا) [مجلة النور الكويتية ، العدد ١٣٧-يونيو ١٩٩٦م] ص ٤٢

قرار الفصل من الجماعة : بعد اغتيال الشهيد حسن البنا و خروج الغزالي من المعتقل مع من تم الإفراج عنهم استأنفت جماعة الإخوان نشاطها في مجالات الدعوة و الترشيد و التربية بيد أن رحيل مرشدها -في وقت مبكر من حياته و حياة الجماعة- كان صدمة من الصعب تجاوزها فإن هذا الرحيل ترك ثغرة هائلة في التنظيم استغلها خصوم الجماعة ، فقد أصبح المرحوم حسن الهضيبي المرشد الثاني للجماعة و حاول بعزمته القوية و إخلاصه للدعوة أن يعيد التماسك للجماعة و يدعم نفوذها و دورها داخل مؤسسات المجتمع ، غير أن مجيء ثورة يوليو ٥٢ بات رقما جديدا في المعادلة ، حيث أسفرت هذه الثورة بعد وقت قصير من نجاحها في الإطاحة بالملكية عن بعض ما تود فعله بجماعة الإخوان ... و قد كانت علاقة الغزالي بالمرشد الثاني الإمام الهضيبي حسنة في بداية الأمر حتى بدأ قادة ثورة يوليو يبثون الارتياح و الظنون قصد الإيقاع بين قادة الإخوان إلى أن تمكنوا فعلا من ذلك و حققوا بعض ما أرادوا ، يقول الشيخ يوسف القرضاوي : " كانت علاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي -المرشد الثاني للإخوان المسلمين- علاقة طيبة ، منذ اختاره الإخوان قائدا لمسيرتهم ، و رضوا به إماما لجماعتهم ، و كان يصطحبه معه في رحلاته الدعوية إلى الأقاليم و يكلفه ببعض الكتابات الدعوية ، التي يراه أفدر عليها من غيره، كما رأينا ذلك في الرد على ذلك القبطي الذي تناول على الإسلام و شريعته و حضارته و تاريخه ، و ظهر ذلك في كتاب (التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام) ، و ظلت هذه العلاقة حسنة حتى ظهرت على المسرح السياسي ثورة ٢٣ يوليو ، و عجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها و شدوا أزرها ، و حموا ظهرها فلجأت إلى أسلوب أخبث و أمكر و هو : محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة حتى يسوء ظن بعضهم ببعض ، و استطاع جمال عبد الناصر أن يستغل بعض المواقف للإصطياد في الماء العكر ؛ و هكذا استطاع أن يوقع بين قيادة النظام الخاص و قيادة الجماعة ، حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام ، و التمرد على قرارات القيادة المبايعه ، كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى ، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته ، و كان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهادا و سابقة و خدمة للدعوة ، و محبة لدى جماهير الإخوان ، كان منهم الشيخ الغزالي وفي هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة (*) من الجماعة ، و بهذا بلغت الفتنة هدفها و حققت مأربها " (١) .

(*)- هؤلاء الأربعة هم /: صالح عشاوي و كيل الإخوان ، و الدكتور محمد سليمان ، و أحمد عبد العزيز جلال ، و الشيخ الغزالي ، و كلهم من أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان .

(١)- يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (القاهرة : دار الوفاء ، ط ١ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ، ص ٣٧

و لئن كان الخلاف بين الشيخ الغزالي و الأستاذ حسن الهضيبي قد ظهر جليا و عرفه القاصي و الداني أثناء ظهور ثورة ٢٣ يوليو -كما يؤكد الشيخ القرضاوي- فإبني أثبت للحقيقة و التاريخ بأن الكثير من نقاط و جوانب الخلاف قد ظهرت فعلا قبل الثورة ، فقد كان الشيخ الغزالي يرى بأن المرشد الجديد متساهل مع فاروق و السعديين -قتلة الإمام حسن البنا- و أنه بدأ يغير في بعض الجوانب المنهجية للجماعة دون شوري كاملة بسبب تهميش الكثير من الكفايات العلمية ، و قد أرخ الغزالي لهذا الخلاف في فصل " السمع و الطاعة " من كتابه " من معالم الحق " و ذلك للإعتبار و استخلاص الدروس -كما أشار- يقول : " إن أول ما نشب الخلاف بيننا و بين الأستاذ الهضيبي كان على أسلوب الحكم في مصر هل تكفل الحريات العامة و يسان الدستور القائم و تتخذ البلاد من استبداد فرد أو أفراد ؟؟ أم نتجاهل هذا الموضوع كله و نطوي حكم الإسلام فيه و تستغل جماعة الإخوان بشؤون أخرى ؟ كان الرجل شديد الحرص على مرضاة رجال القصر قليل الاكتراث بحقوق الأفراد و الطوائف و قد ألقت كتابي الإسلام و الاستبداد السياسي استكارا لهذه السياسة القاصرة و دفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة " (١) ثم يقول في موضع آخر : " كان شرف الدعوة التي قادها الإخوان المسلمون أنها خطر على الاقطاع الزراعي و الاقتيات الرأسمالي و الاستبداد السياسي ، لأنها صدى الإسلام الصحيح ؛ و الإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود و تتوغل هذه المفاسد الشائنة .. غير أن حفنة من الملتحقين بالركب الإسلامي شاعت أن تعكر هذا كله ، و أن تجعل حصاد ربع قرن هشيما تذروه الرياح " (٢)

و الحقيقة أن غضب الشيخ الغزالي الذي أظهره في ذلك الوقت و صدور قرار الجماعة القاضي بفصله مع عدد آخر من أعضاء الهيئة التأسيسية نفسها و سوء العلاقة بالقيادة الجديدة للجماعة ، كل ذلك لم يحل بينه و بين التعاون مع كل العاملين للإسلام و الدعوة ، سواء من داخل الجماعة أو من خارجها ، كما أنه سعى لإصلاح ما بينه و بين المرشد الثاني قبل وفاة الهضيبي بنحو عامين ، و قد هزت الغزالي صلابة الهضيبي في الحق و صبره العجيب على تحمل المصائب ، كما رجته بعد ذلك و صية المستشار بأن يدفن في " مقابر الصدقة " (*)

(١)- محمد الغزالي ، من معالم الحق في كفاحننا الإسلامي الحديث (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ص ٢١٢

(٢)- المصدر نفسه ، ص ٢٢٣

(*)- هذه الوصية تركت أثرها في نفسية الشيخ الغزالي فكتب يقول (من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان و بلغت وصيته لقد أوصى أن يدفن خفية ، لا إعلان و لا مواكب ، و طلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة ، و عقدت لساني دهشة و أنا أسمع العبارة الأخيرة في مقابر الصدقة ... قلت لم مقابر الصدقة ؟ و لم يغيب عني الجواب ... لقد كان مستشارا راسخ المكانة رفيع الهامة ، لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التشجيعية التي نالها غيره ، و لو خدم الغزو الثقافي لعاش في شيخوخته موفور الراحة مكفول الرزق ، و لكنه خدم الإسلام فتجرع الصاب و العلقم ... طعن مع الدين الجريح و أمين مع الدين المهان فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى الله !! فليدفن في مقابر الصدقة مع النكرات التي لا يباليها المجتمع ... فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي و هو رازحون تحت وطأة عذاب تتوء به الجبال ... الحق يقال : إن الأمة المصرية خاصة و الأمة الإسلامية جمعاء يجب أن تراجع نفسها طويلا قبل يوم الحساب ...) [قدائف الحق :

فقال عنه : " ... إنه ما ادعى لنفسه العصمة ، بل من حق الرجل أن أقول عنه : إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان ، و لكن الإخوان هم الذين سعوا إليه ، و أن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات و الأهواء ، و من حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلافة و بأس كل ما نزل به ، فلم يضرع و لم يتراجع ، و بقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان واسع الأمل حتى خرج من السجن ... الحق يقال : إن صبره الذي أعز الإيمان رفعه في نفسي ، و أن المآسي التي نزلت به و بأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور و لم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا ... على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلا ، و قد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته و أصلحت ما بيني و بينه و يغفر الله لنا أجمعين " (١)

و في هذه الفترة أصدر الشيخ الغزالي كتيبه الآتية : (التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام) و (من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث) و (في موكب الدعوة) و (ظلام من الغرب) ، و لعل الشيخ بعد فصله من الجماعة وجد فسحة أوسع للتأليف وخدمة الدعوة، فأخذ يضاعف جهوده في الميدان ، و لم يؤثر في مضاعفة هذه الجهود سوى تقليص الحريات العامة بعد الثورة مع بدايات عهد جمال عبد الناصر الذي جعل مصر كلها سجنا كبيرا و استباح أحرارها بصورة مخزية همجية ينذر مثلها في تاريخ البشرية الطويل ، فهذا الرجل المستبد الظالم كان -كما يذكر الأستاذ أحمد أبو الفتوح- " يملك التصرف في كل أمر و في كل إنسان ، أية ورقة يضع عليها بضع كلمات ثم يوقعها تصبح أمرا جمهوريا ، أي إنسان يأمر باعتقاله يتم اعتقاله ، أي مال في الدولة يمكن أن ينتزعه من صاحبه دون أن يستطيع صاحب المال مقاومة ذلك ، أية سيده يمكن انتزاعها من دارها و التصرف فيها حسبما يريد الدكتاتور !! استهدف الدكتاتور جماعة الإخوان المسلمين بجانب كبير من الحقد و الانتقام ، مما أخاف الناس من المجاهرة ببدء العبادات و من تربية النشء تربية دينية ؛ و قال عبد الناصر " أتمنى أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أضغط على زر كزر الكهرباء فينام شعب مصر ، ثم أضغط عليه مرة أخرى فيستيقظ " ؛ الثورة -أي حكم عبد الناصر- قد أذلت شعب مصر ، و يكفي أن نقرأ الكتب التي كتبها مستشارون و محامون لنعرف إلى أية درجة من الوحشية تعرض الناس أثناء تلك الثورة " (٢) .

و سعيا منه لإيجاد فضاءات يسمع من خلالها الحق فقد دخل الشيخ الغزالي الإتحاد الاشتراكي ، و هو تنظيم حكومي يحمل الصفة الشعبية ، و قد لامه بعض الطبيعيين على قبوله عضوية هذا الإتحاد ، و في ذلك يقول : " لقد لامني بعض الصالحين على قبول عضوية الإتحاد الاشتراكي و العمل في هذا الوسط الرديء ، فقلت له : أنبقى مكتوفي الأيدي و الغير يصنع القرارات و يفاجئنا بما يهوى ؟

(١)- المصدر السابق نفسه ، ص ٢٣٦

(٢)- محمد شلبي ، الشيخ الغزالي و معركة المصحف في العالم الإسلامي (القاهرة : دار الصحوة ، ط١ ، ١٩٨٧م) ص ٥٤-٥٥

إن السلبية لا تفيد ، قال : و ماذا صنعت أنت ؟ قلت : أنا وحدي لا أعني ، إن الجبن في هذه التنظيمات هو سيد الأخلاق ! عندما وقفت أعترض المقرر كان جاري الأيمن وكيل وزارة و الجار الأيسر من كبار الشيوخ في الأزهر ، و مع ذلك فإن كليهما فزع و كأنه لعن الظروف التي قاربتة مني ، إنهما يفقدان شجاعة الإيمان ؛ و قد فهمت لماذا كان حسن البنا حريصا على التربية الدينية الصحيحة " (١) و شاء الله أن ينعقد في هذه الأثناء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية لمناقشة " الميثاق الوطني " و في هذا المؤتمر يظهر أسلوب جديد للشيخ الغزالي في النضال - كما سنرى - و في الوقت ذاته يتبين للنظام الحاكم أثر الشيخ الغزالي في سامعيه ، و حدود قيمته و مكانته داخل المجتمع المصري .

الشيخ الغزالي ومعركة التغيير الاجتماعي و النضال السياسي :

في هذا الوقت كان الشيخ الغزالي يخطب الجمعة في الجامع الأزهر و كانت شهرته قبل ذلك قد طبقت الآفاق فهو صاحب المؤلفات المتميزة التي وقفت إلى جانب المستضعفين في المجال الاجتماعي و الاقتصادي و هو عضو مؤسس في جماعة الإخوان ، و زاد من تلك الشهرة قرار فصله من الجماعة ، غير أن هذا المؤتمر جعل جماهير المساجد - بل جماهير الشوارع أيضا - تتبنى طروحات الشيخ الغزالي و تقف إلى جانبه ضد الشيوعيين الذين حاولوا الإساءة إليه و إهانته منطلقين من الزوبعة التي أحدثها في هذا المؤتمر الذي بدأ أشغاله في مايو ١٩٦٢م ؛ و أجدني هنا مضطرا لنقل هذه الفقرات من مذكرات الشيخ الغزالي : انعقد المؤتمر الكبير و افتتحه الرئيس جمال عبد الناصر و كان يعاونه السيد كمال الدين حسين و ينوب عنه في غيابه ، و كان الأمين العام السيد أنور السادات ... و بعد الأعمال التمهيدية أخذ الأعضاء يسجلون أسماءهم طالبين التحدث إلى الحضور ليشرحوا وجهات نظرهم ، و كنت من أوائل الذين طلبوا الكلمة ، و قد حددت موضوعي بأناة ، و قررت البعد عن التحدي و الإسهاب ... قلت أيها الإخوة ، إن الشعار الذي رفعناه هو تحرير الوطن و المواطن ، فهل يتحقق هذا الشعار إذا أخرجنا الإنجليز من أرضنا و بقيت قوانينهم ، و تقاليدهم و لغتهم تحتل مجتمعنا و تسيره ؟ فيم كان الجهاد إذن ؟ إذا كانت تبعيتنا لهم ظاهرة و ولاؤنا لمخالفتهم قائما؟ إن التحرير الحق هو أن نحيا تراثنا و نقدم لغتنا و أدبنا و ننفذ شريعتنا ، و ننبذ هذه القوانين التي وضعها المستعمرون لنا و سلخونا بها عن ديننا و تاريخنا ... و لننظر إلى مصلحتنا الاجتماعية موازنين بين الربح و الخسارة ، آلاف من جرائم القتل تقع ، و الذين يعاقبون بالإعدام نفر قليل ، و يحكم على الأكثرين بالسجن ، ثم تمر الأعوام و يخرج السجين القاتل ، و يرى الإنسان قاتل أبيه أو أخيه في الطريق فيقتله أخذا بالثأر ... أيكفي في علاج هذه الحال تكليف بعض الوعاظ بمحاربة عادة الأخذ بالثأر ؟ ما الذي يمنع من القصاص الذي كتبه الله لصيانة الحياة و تحقيق العدالة ؟ فنرضي ربنا و نحسن مجتمعنا ... و إنني واحد من الذين يأبون قتل جائع يسرق ليقوت نفسه أو أهله ، و الشريعة يستحيل أن تقطع هؤلاء البائسين .

(١) محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " (مصدر سابق) ص ٢٠٤ .

لكن إذا وجدنا من يسرق مثلي و ثلاث و رباع و ينفق عن سفه ذات اليمين و ذات الشمال، كيف نتركه ؟ لماذا لا نحمي أصحاب الكسب الحلال من عدوان أولئك المجرمين ؟ إن يدا واحدة تقطع ستقتضي على العصابات التي احترفت اللصوصية (١) .

و كان من بين المسائل التي تطرق إليها الشيخ الغزالي أيضا في هذه المداخلة مشكلة اللباس و الزي الوطني و خاصة لباس النساء ، و هو ما جعل اليساريين يتهمون من الشيخ و يسعون لإيغار الصدور ضده و تأليب آراء المؤتمرين لمواجهته ، غير أنهم فشلوا فشلا ذريعا داخل المؤتمر و خارجه و قد أفزعهم خروج الجماهير في مظاهرة عارمة لمناصرتة ، يقول الغزالي يصف هذا الموقف : " و يظهر أن الله استجاب لي فإن كلمتي -و إن عدها البعض شرحا ماكرا لدعوة الإخوان المسلمين- بلغت أعماق النفوس و لقيت ترحابا واضحا و تصفيقا شديدا ؛ و كان بين أعضاء المؤتمر سبعون شيوعيا أفزعهم هذا الجو الإسلامي و زاد من ضيقهم أن جماعات ضخمة كانت تؤدي الصلوات في الأوقات و تتحدث عن ضرورة التمسك بالإسلام ، و قد اتفقت كلمتهم على توجيه ضربة سيئة لي تقف نشاطي ، فأعزوا إلى الرسام الهزلي صلاح جاهين ألا يدع الكلمة التي ألقيتها تمر دون تعليق ساخر يفقدها قيمتها ! و ظهرت صحيفة الأهرام في اليوم التالي ، و قد صورتني عاري الرأس ساقط العمامة على الأرض ، لأن قوانين الجاذبية شدتها وفق التطور العلمي !! و نظرت إلى الصورة و قد تملكني الغضب ، فإن العمامة ليست لباسا خاصا بي ، و إنما هي رمز العلماء المسلمين ! و الرسام الشيوعي يريد الإيحاء بأن القوانين العلمية ستعصف بالإسلام .. !! ... قلت في نفسي : بدأ الهجوم ! إنه بدأ في الأهرام و استمر في الكلمات التي تتابعت بالرد علي من شيوعيين آخرين داخل المؤتمر نفسه (٢) " .

و في اليوم الثالث للمؤتمر طلب الشيخ الغزالي الكلمة مرة ثانية و رد على جميع ناقديه و شائنيه بمنطقه و حكمته المعهودة فازدادت شعبيته داخل المؤتمر ، حتى نائب رئيس الجمهورية أظهر ميله و تعاطفه مع طروحاته و آرائه ، أما وسائل الإعلام -و كانت المرحلة مرحلة المد اليساري- فقد واصلت حملتها العنيفة ضد ما عرضه الغزالي على المؤتمرين ، يقول الشيخ : " و لا بد أن أقول هنا : إنني وجدت تجاوبا و ترحابا من السيد كمال الدين حسين ، على حين كان غيره من المسؤولين يكاد يتميز من الغيظ..!! لكنني طالعت الصحف في اليوم التالي ، فوجدت عدوى الضلال قد انتقلت إلى بقية الجرائد و المجلات و أن الحملة عليّ اتسمت بالحدة و القسوة !! " (٣) ؛ و مع كل ما حدث فإن الشيوعيين سيظهر أنهم كانوا مدعومين من عبد الناصر - واصلوا شهرتهم و هجاءهم للشيخ الغزالي داخل قاعة المؤتمر .

(١)- المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٥-٢٠٦

(٢)- المصدر نفسه ، ص ٢٠٦-٢٠٧

(٣)- المصدر نفسه ، ص ٢٠٧

و يبدو أنهم نسفوا جهودهم القذرة مع رفاقهم خارج المؤتمر في شتى قنوات الصحافة و الإعلام ، بيد أن الغزالي لم يفوت الفرصة فقد أقام الحجة على الجميع مستغلا تاريخه المشرق و مواقفه النبيلة في محاربة الإقطاع و الانتصار للفقراء و المستضعفين و مواجهة تجاوزات و مظالم الملك فاروق و القصر الملكي ، يقول الشيخ : " و شاء الله أن يشعر أعضاء المؤتمر بأنهم أهينوا في شخصي ، فكتبوا طلبا للرئيس عبد الناصر أن أعطى الكلمة مرة ثالثة لأسكت هذا الضجيج ؛ حمل الطلب بعض الأعضاء من الصعيد و مروا به بين الصفوف ليأخذوا إمضاء أكبر عدد من الحضور ، فإذا العنات يوافقون ، و أحس الرئيس جمال عبد الناصر بالحركة ، و كان متيقظا لكل ما يحدث و جاءه الطلب ، و لم أعرف الرأي في قبوله ! و أخذ الأعضاء استراحة نصف ساعة ثم عادوا إلى مقاعدهم ، و كنت يائسا من أن أتكلم مرة ثالثة ، فاخترت أن أجلس في مؤخرة الصفوف ... و عندما التأم شمل الجلسة لاحظت أن الرئيس انصرف ! .. كنت استرجع الماضي القريب ! إنه من بضع سنين فقط كان رؤساء التحرير الذين سخروا صحفهم لشتي من رجال القصر الملكي ، و بغتة ركبوا عربة هذا الانقلاب المشؤوم و زعموا أنفسهم طلائع الحرية !! و افتتح أنور السادات الجلسة و قال : هناك طلب وقعته كثيرون بأن يعود الشيخ الغزالي إلى المنصة فتعالى التصفيق و غلبت صيحات الموافقة كل شيء ! فقال السادات في هدوء : ليحضر العضو المحترم و ليتكلم ! (١) " .

و يظهر أن الشيخ الغزالي قد فوجيء بهذه الموافقة فتذكر إخلاصه لله و طلب منه تعالى التوفيق في نصرته الحق ثم قال مخاطبا المؤتمرين : " أهي جريمة لا تغتفر أن أقف إلى جانب الإسلام و أن أشرح بعض تعاليمه ؟ هل الحرية تكفل لكل من أراد نصرته مبدأ ما ، فإذا انتهى الأمر إلى الإسلام فلا حرية ... أين كانت أصوات الشاعبين علي و أنا أحامي عن المستضعفين أنشد لهم الكرامة ، و عن الفقراء أتطلب لهم القوت ، أين كان هؤلاء يوم ألفت كتابي : " الإسلام و الاستبداد السياسي " في ظل أزمات عصيبة أوقعها القصر بالشعب ... ! إنني لم أسمع لواحد من هؤلاء الشجعان صوتا و لم أر لهم أثرا ... لقد اعتقلت عاما في الطور و هم يلهون و يلعبون !! الآن نعتبر رجعيين و يعتبرون تقديمين ؟!! الألفنا نتحدث عن الإسلام نستباح بهذا الأسلوب ؟!! يا عجبا إنه عندما كان الملك فاروق يبحث عن الشهوات كان أولئك المهاجمون لي من رجال الصحافة يشتغلون قوادين للملك الماجن و انطلقت بعد ذلك أتناول موضوع النزاع (*) و لا ادري ماذا قلت بدقة ... و إنما الذي أذكره أن السادات حاول تني زمامي و تذكيري بأنني تجاوزت الوقت ، فرفضت السماع له ، و شفيت مما نالني و نال المؤمنين معي ... (٢) " .

(١) - المصدر نفسه ، ص ٢٠٨

(*) - كان موضوع النزاع الرئيس حول لباس النساء و قضايا الأسرة ، و قد راجع الشيخ الغزالي نفسه - رغم أهمية الموضوع - منتقدا ذاته ، و اعتبر نفسه أخطأ في اختيار الموضوع ، و رأى بأنه لو اختار موضوع الحريات العامة لكان أفضل [تحدث الشيخ عن ذلك بأسهاب في كتابه معركة المصحف في العالم الإسلامي] .

(٢) - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٩

انتهت أشغال المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في أواخر شهر مايو (أيار) ١٩٦٢م ، أما تداعياتها في الساحة الإسلامية فقد انداحت في صور غاضبة كثيرة ، كان أبرزها خروج الجماهير في مظاهرة عارمة يوم (١ يونيو ١٩٦٢م) أي في أول جمعة تلت ذلك المؤتمر ، و يتحدث الغزالي عن ذلك اليوم فيقول : " ألقيت خطبة الجمعة في الأزهر مختاراً لها موضوعاً أبعد ما يكون عن قضية الساعة - [أي ما حدث في المؤتمر] - و أحسست أن الزحام شديد جداً ، و بعد الصلاة سكنت مكاني دقيقة واحدة ، انفجر المسجد المكتظ بعدها بصياح اختلط فيه التكبير بالبكاء و بالهتاف ، و رأيتي محمولا فوق الرؤوس لا أعرف ما أصنع و حاولت الإمساك بأي عمود يلقاني من أعمدة المسجد و هيهات ! فلما اقتربنا بعد لأي من الباب بذلت جهد اليأس في الإمساك به ، و أعانني رجال الشرطة على النزول بالأرض و الاحتماء بإدارة الأزهر ، و كان المصلون في المسجد يزيدون على عشرين ألفاً ، انضم إليهم مثلهم من مسجد الحسين و المساجد القريبة ، و انطلقت المظاهرة إلى جريدة الأهرام لتتحرقها و كلما قاربت هدفها تضاعف عددها ، و لكن رجال الشرطة استدعوا نجدات كثيفة لحماية الجريدة ، فدار الجمهور حول نفسه في غضب رهيب ، و قال كبير في الداخلية : لو كانت هذه المظاهرة منظمة أو مدبرة لأحرقت القاهرة !! ... عندما أقبل صباح الغد علمنا أن المظاهرات لم تكن مقصورة على القاهرة وحدها ، بل إن بعض عواصم الأقاليم تحركت فيها الجماهير مناصرة للإسلام ، و ناقمة على النيل من علمانه (١) "

و قد لاحظ الشيخ الغزالي بعد تشكيل لجان تقرير الميثاق الوطني -بعد تلك المظاهرة- ضيقاً مكتوماً -له ملامح بادية- على وجهي عبد الناصر و السادات ، بيد أنه لم يكثر ذلك و طلب من صديقه الشيخ سيد سابق الاستماتة في صبغ التقرير المطلوب بالصبغة الإسلامية ، و تم ذلك بالفعل بفضل المواقف المشرفة للسيد كمال الدين حسين ، الذي كانت مواقفه في هذا المؤتمر بداية لخلافة مع عبد الناصر و الذي انتهى به إلى تهميشه سياسياً و تدمير حياته المادية و الأدبية (٢) ... أما وسائل الإعلام الغربية فلم تفوت الفرصة كعادتها فقد استثمرت هذا الحدث في الإساءة للإسلام و الوقيعة بين المسلمين ، و من ذلك أن راديو " باريس " قال في خبر له أذاعه يوم السبت ١٩٦٢/٦/٢ : جرت في شوارع القاهرة أمس (الجمعة ١ يونيو) و لأول مرة منذ زمن طويل مظاهرة ضخمة قام بها آلاف من طلاب جامعة الأزهر مما اضطر رجال الشرطة إلى التدخل ، و يعود سبب المظاهرة إلى أنه منذ عدة أيام حصل خلاف في الرأي بين الشيخ محمد الغزالي أحد أساتذة الأزهر ، و بين الرئيس جمال عبد الناصر حول حرية المرأة و مساواتها بالرجل ، و كان الرئيس المصري قد ألقى خطاباً في الحادي و العشرين من مايو ١٩٦٢ أمام المؤتمر القومي للقوى الشعبية تعرض فيه لهذه القضية و أعرب عن تأييده لمبدأ المساواة بين الرجل و المرأة .

(١)- المصدر نفسه ، ص ٢٠٩-٢١٠

(٢)- المصدر نفسه ، ص ٢١٠-٢١١

فقام الشيخ الغزالي - وهو عضو في المؤتمر- و أبدى معارضته لمبدأ المساواة و طلب العودة إلى التقاليد القديمة التي تحرم على المرأة الاشتغال بالحياة العامة و الشؤون السياسية و تفرض عليها عدم الاختلاط بالرجال ... و قد تعرضت صحيفة الأهرام المصرية لهذا الجدل ف اتخذت موقفا لصالح الميثاق و مؤيدا للرئيس جمال عبد الناصر ، و على إثر هذه الحملات التي شنتها الصحيفة ضد الشيخ الغزالي و جامعة الأزهر ، تأثر الطلاب و قاموا أمس بمظاهرة و لكن لم ينتج عنها حادث يذكر ، إلا أن النقاش لا يزال محتدما في البلاد حول هذا الموضوع (١) .

لقد وقف الشيخ الغزالي في هذا المؤتمر وقفة العالم الشجاع المؤمن المحتسب و انتصب كالطود الشامخ في وجه التحديات و رد الكيل كيلين للشيوخ الذين سخروا منه و من علماء المسلمين ، و كان مما قاله في الرد على الرسام الساخر الشيوعي " صلاح جاهين " : إن تحت هذه العمامة دماغا مفكرا كان يحارب الظلم و الإقطاع أيام كان أمثال هذا الكاتب " قوادا " لفاروق ... حتى أن السادات تدمر و طرقت بالمطربة - و كان رئيس المؤتمر- و قال : كفى ... كفاية يا شيخ غزالي ا فرد الغزالي ساخطا : دعني أتكنم (٢) ؛ و مما يؤكد أن الشيخ الغزالي كان صاحب رأي فحسب و أنه يريد الإقناع بالعقل وحده و أنه لم يوافق على تلك المظاهرة التي قال عنها محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام -يومئذ- (إن الشيخ الغزالي سير لفيغا من تلامذته لتهاجم الأهرام) (*) مما يؤكد ذلك أن الشيخ الغزالي -و كان يومئذ مديرا للمساجد- أرسل بيانا بتاريخ ٣١ مايو ١٩٦٢ لإدارات الأوقاف عبر الجمهورية هذا نصه : يرجو مدير المساجد السادة أئمة المساجد أن يبتعدوا بالمنبر عن الجدل الشخصي و أن يتجردوا به للرسالة الدينية المحضة ، و ذلك حرصا على رسالة المساجد و ارتفاعا بها عن مستوى المهاترة ... و قد أمر السيد وكيل الوزارة المساعد بتبليغها و تم ذلك فورا ... و لما كنت خطيبا للجامع الأزهر منذ سنين طويلة فقد تساءلت : ترى هل أخطب الجمعة كالعادة أم أمتنع هذا الأسبوع ؟ ثم رأيت أن الامتناع قد يؤوله المغرضون على أن أحدا من الكلام ففكرت أن أخطب كالعادة في موضوع بعيد عن المناقشات الصحفية ... موضوع خطبتي سجله بعض الأصدقاء على آلة تسجيل ، و يمكن سماع هذا التسجيل أو الاكتفاء بمعرفة موضوع الخطبة و هو أن الإسلام دين النبوة كلها ، و لم أتعرض فيه لشخص أو لصحيفة ... بعد صلاة الجمعة حاول بعض الحاضرين حملي على الأعناق ، فاحتميت بالمحراب وراء سور من الأصدقاء و لما انكسر هذا السور تحت ضغط الزحام ، و تمكن بعض أفراد الحاضرين من حملي تشبثت بباب الأزهر .

(١) - محمد شلبي ، الشيخ الغزالي و معركة المصحف في العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٧٦

(٢) - المرجع نفسه ، ص ٢٩-٨٠

(*) - علق الشيخ الغزالي على كلام هيكل بقوله : (إن الحشود التي سارت صوب الصحيفة المتجنبة فوق المائة الف ، فهل أولئك جميعا تلامذتي الذين أو عزت إليهم بما حدث ؟ إن أمتا تحب دينها و تريد أن تحيا و تحكم و توجه به وحده) [مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي ، مصدر سابق ، ص ٢١٠]

فقام الشيخ الغزالي - و هو عضو في المؤتمر - و أبدى معارضته لمبدأ المساواة و طلب العودة إلى التقاليد القديمة التي تحرم على المرأة الاشتغال بالحياة العامة و الشؤون السياسية و تفرض عليها عدم الاختلاط بالرجال ... و قد تعرضت صحيفة الأهرام المصرية لهذا الجدل ف اتخذت موقفا لصالح الميثاق و مؤيدا للرئيس جمال عبد الناصر ، و على إثر هذه الحملات التي شنتها الصحيفة ضد الشيخ الغزالي و جامعة الأزهر ، تأثر الطلاب و قاموا أمس بمظاهرة و لكن لم ينتج عنها حادث يذكر ، إلا أن النقاش لا يزال محتدما في البلاد حول هذا الموضوع (١) .

لقد وقف الشيخ الغزالي في هذا المؤتمر وقفة العالم الشجاع المؤمن المحتسب و انتصب كالطود الشامخ في وجه التحديات و رد الكيل كيلين للشيوخ الذين سخروا منه و من علماء المسلمين ، و كان مما قاله في الرد على الرسام الساخر الشيوعي " صلاح جاهين " : إن تحت هذه العمامة دماغا مفكرا كان يحارب الظلم و الإقطاع أيام كان أمثال هذا الكاتب " قوادا " لفاروق ... حتى أن السادات تذر و طرق بالمطرفة - و كان رئيس المؤتمر - و قال : كفى ... كفاية يا شيخ غزالي ا فرد الغزالي ساخطا : دعني أتكلم (٢) ؛ و مما يؤكد أن الشيخ الغزالي كان صاحب رأي فحسب و أنه يريد الإقناع بالعقل وحده و أنه لم يوافق على تلك المظاهرة التي قال عنها محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام -يومئذ- (إن الشيخ الغزالي سير ليفيغا من تلامذته لتهاجم الأهرام) (*) مما يؤكد ذلك أن الشيخ الغزالي - و كان يومئذ مديرا للمساجد - أرسل بيانا بتاريخ ٣١ مايو ١٩٦٢ لإدارات الأوقاف عبر الجمهورية هذا نصه : يرجو مدير المساجد السادة أئمة المساجد أن يبتعدوا بالمنبر عن الجدل الشخصي و أن يتجردوا به للرسالة الدينية المحضة ، و ذلك حرصا على رسالة المساجد و ارتفاعا بها عن مستوى المهاترة ... و قد أمر السيد وكيل الوزارة المساعد بتبليغها و تم ذلك فورا ... و لما كنت خطيبا للجامع الأزهر منذ سنين طويلة فقد تساءلت : ترى هل أخطب الجمعة كالعادة أم أمتنع هذا الأسبوع ؟ ثم رأيت أن الامتناع قد يؤونه المغرضون على أن أحدا من الكلام فقررت أن أخطب كالعادة في موضوع بعيد عن المناقشات الصحفية ... موضوع خطبتي سجله بعض الأصدقاء على آلة تسجيل ، و يمكن سماع هذا التسجيل أو الاكتفاء بمعرفة موضوع الخطبة و هو أن الإسلام دين النبوة كلها ، و لم أتعرض فيه لشخص أو لصحيفة ... بعد صلاة الجمعة حاول بعض الحاضرين حملي على الأعناق ، فاحتميت بالمحراب وراء سور من الأصدقاء و لما انكسر هذا السور تحت ضغط الزحام ، و تمكن بعض أفراد الحاضرين من حملي تشببت بباب الأزهر .

(١) - محمد شليبي ، الشيخ الغزالي و معركة المصحف في العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٧٦

(٢) - المرجع نفسه ، ص ٧٩-٨٠

(*) - علق الشيخ الغزالي على كلام هيكل بقوله : (إن الحشود التي سارت صوب الصحيفة المتجنبة فوق المائة الف ، فهل أولئك جميعا تلامذتي الذين أوعزت إليهم بما حدث ؟ إن أمنا تحب دينها و تريد أن نحيا و نحكم و نترجم به وحده) [مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي ، مصدر سابق ، ص ٢١٠]

و من ثمة فإن نظام عبد الناصر سعى مرة أخرى إلى وضع ولاء الشيخ الغزالي على المحك و تعريضه إلى الاختبار الحاسم الذي انتهى بالشيخ إلى سجن " طرة " و عن ذلك يقول الغزالي : " طلبت إلى الإذاعة ، فلما ذهبت وجدت عددا من الشيوخ و الإخوان الأقدمين ، و كانت التعليقات محددة إن الرئيس أمر بنشر مساوئ الإرهابيين و تحذير الأمة من الثقة بهم أو التعاون معهم ، و يجب أن تقوم بهذا الواجب الوطني على عجل ، و تملكت فوق كرسي ضائقا و لاحظت ذلك المشرفون على البرنامج فتجاهلوني ، ثم كلفوني -بوصفي مفصولا من الإخوان- أن أبدأ التسجيل ، كان جوابي حاسما : أنا على استعداد للحديث عن الإسلام و ضرورة إحياء ما مات من أحكامه ، و مستعد لإرشاد المخطئين حكاما كانوا أو محكومين لإصلاح ما يكون قد بدر منهم من خطأ ، أما شتم الإخوان و حدهم فليس من خلقي أن أجهز على جريح .. !! قيل : إنهم فصلوك من جماعتهم فلماذا تبقى عليهم ؟ قلت : إذا استضعفوني أيام قوتهم فلن أستضعفهم أيام حريتي ... و ما هي إلا ساعات حتى كانت القيود في يدي ! " (١) ... و هكذا أخذ الغزالي لسجن طرة ، غير أنه لم يمكث في غيابه إلا عشرة أيام ثم أفرج عنه بعد ذلك ، و كان قد تبين للشيخ الغزالي قبل هذا الوقت سوء طوية عبد الناصر و كيدته للإسلام و العاملين له ، رغم الود و القرب اللذين كان يبيدهما لدعاة الإسلام عقب قيام الثورة و احتضان الإخوان لها و مناصرتهم لخطها و رجالها في بداية الأمر ، يقول الشيخ الغزالي معلقا على خطورة التغيير و الانحراف الذي وقع لعبد الناصر : " و الحق أنني حائر في فهم جمال عبد الناصر لقد كنت - كما يعلم الناس - من جماعة الإخوان المسلمين ، و أقرر أن جمال عبد الناصر و كمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام و رفع لوائه ، و قد كنت قريبا من مشهد مثير وقف فيه جمال عبد الناصر أمام قبر حسن البنا يقول : نحن على العهد و سنستأنف المسيرة ؛ كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل ... لا أدري ما حدث بعد ذلك ؟ إنه تغير رهيب في فكر الرجل و مسيرته ، جعله في كل نزاع بين الإسلام و طرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر !! " (٢) .

الشيخ الغزالي و الرئيس السادات :

بعد عامين من هزيمة ١٩٦٧ أمام " إسرائيل " توفي جمال عبد الناصر ، و جيء بالسادات إلى رئاسة الدولة ، و مما هي إلا أشهر معدودة حتى أعلن السادات الحرب على القوى المتنفذة في عهد عبد الناصر ، و استتبشر الشيخ الغزالي -كأغلبية الشعب المصري- خيرا لا سيما أن العهد الجديد أعطى الضوء الأخضر للصحافة و أصحاب الأقلام بأن يكشفوا عن جرائم و مثالب نظام عبد الناصر ؛ و في هذه الأجواء التي بدأت تنتفس فيها الحرية أخذ الشيخ الغزالي يتحرك بالدعوة في كل مكان ؛ و من الأقدار الحسنة في هذه الفترة أن السادات عين الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود وزيرا للأوقاف ، و هو رجل صالح يحب خدمة الدعوة ، و كان يرغب في أن يبدأ عمله بخدمة القرآن و إعمار المساجد .

(١)- المصدر نفسه ص ٢١٦

(٢)- يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص ٤٩

و لما كان الشيخ الغزالي موظفاً بالوزارة ذاتها فقد وقع اختيار الوزير عليه لإعادة إحياء و بعث مسجد " عمرو بن العاص " أول مسجد في مصر و في إفريقيا كلها يقول الشيخ الغزالي : " أرسل إلي الدكتور عبد الحلیم محمود بعد ذلك يخبرني أنه قد وقع اختياره علي لأخطب الجمعة في مسجد عمرو بن العاص فقلت له : إنه ليس بمسجد ! لقد تغيرت معالمه ، فأصبح أرضاً فضاء بين جدران بالية ، و كثيراً ما تطفح مياه المجاري في صحنه ! قال : و لهذا اخترتك ! قلت : لماذا لا أعود إلى إلقاء خطبة الجمعة بالأزهر ، و قد ظللت بضع سنين أتطوع بذلك ؟ قال : اليوم الإربعاء ، بعد غد سأصلي وراءك في مسجد عمرو بن العاص فاستعد ... و جاء يوم الجمعة ، و كنت في المسجد مبكراً لأشرف على تهيئة مكان للصلاة ! كانت أكوام القمامة حول المسجد تصل السقف بالأرض ، و كانت هناك سحب من الدخان تغطي المسجد من " الفواخير " المبعثرة إلى جواره ، و كان صحن المسجد قطعة من صحراء مهجورة ، يشيع فيها التعرج و الالتواء ، و نظرت إلى المساحة الشاسعة التي تقع بين أجنحة المسجد المتداعية ، ثم قلت : ماذا أصنع في هذا المكان الذي تعوي فيه الرياح و صليت مع الدكتور و أقيت خطبة عادية و دعائي هو بخير ! و بدأنا الكفاح الصعب ، فإذا المسجد يتضاعف رواده ، و بعد أن كانوا بضع عشرات لا تصح صلاة الجمعة بهم -في بعض المذاهب- أصبحوا مئات ، ثم آلاف ، و قدرت وزارة الداخلية المصلين في بعض الجمع بثلاثين ألفاً (١) . "

و هكذا أصبح مرتادو مسجد عمرو يشكلون أضخم عدد للمصلين في مصر كلها ، لأنهم كانوا يتقاطرون على خطب الشيخ الغزالي التي طبقت شهرتها الآفاق ، و كانت الجماهير قد عرفت قيمة هذه الخطب و تميزها عندما كان الشيخ الغزالي خطيباً للجامع الأزهر في عهد عبد الناصر ، و قبل ذلك أيضاً في العديد من المساجد و المنتديات التي كان الشيخ يخطب أو يحاضر فيها ... و لا شك أن الخطابة في مسجد عمرو أنست الغزالي العزلة الشديدة التي عاشها بعد الخلاف مع نظام حكم عبد الناصر ؛ و نظراً للمكانة التي كان يحظى بها الشيخ الغزالي لدى الشيخ الوزير عبد الحلیم محمود فقد أقتع الدكتور زكرياء البري الرئيس السادات بضرورة ترقية الشيخ الغزالي إلى منصب وكيل وزارة الأوقاف ، و صدر الأمر بالتعيين فعلاً ، بيد أن الشيخ وقع في خلاف مرة أخرى مع النظام الحاكم ، اضطر معه إلى الاستقالة من هذا المنصب بعد يومين اثنين -لا ثالث لهما !! - و يعلق الشيخ الغزالي على ذلك بقوله : " و لما بدأت تسلم عملي كان الأمر أعجل مما أتصور ، فقد واجهني اختبار لم أر معه بدا من ترك منصبني مع حرصني على أن أبقى فيه لأخدم ربي و ديني ، لقد تركته بعد يومين اثنين على طريقة " ما سلم حتى ودع " !! إن الرؤساء في أمتنا المحرومة يحسبون أنهم اشتروا رجلاً عندما أسندوا إليه منصباً .

و قد نظرت إلى ميدان الأعمال الدينية و الأنشطة الإسلامية فوجدت أن الذي تخير الرجال في هذا الميدان كان حاذقاً في رمي الإسلام بكل مصيبة ... قال لي أحد العارفين بالسياسة : كان لابد أن يقع هذا الدمار في دوائر العمل الديني فإن الرئيس السادات عاد من أمريكا بغير الوجه الذي ذهب به ، قلت :

(١) - محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " (مصدر سابق) ص ٢٢٧-٢٢٨

كيف؟ قال: إن اليهود يطلبون أن تكون العلاقات بينهم وبين مصر طبيعية، لا عداً ولا جفاء! و يقضي هذا بتغيير مفاهيم دينية و تاريخية و تحوير أوضاع اجتماعية و اقتصادية (١) "

إن خلاف الغزالي مع السادات كان مثل خلافه مع عبد الناصر، أي بسبب دفاعه عن قضايا الأسرة المسلمة، فقد استمر نقد الشيخ للأوضاع الاجتماعية و للسياسات المرسومة في معالجة شؤون و مشكلات الأسرة، و قد تصدى الغزالي بشجاعة نادرة لقوانين الأسرة التي سميت قوانين " جيهان السادات " و هي قوانين كانت تهدف إلى إقراغ تشريعات الأحوال الشخصية في مصر من مضمونها الإسلامي، و قد عرضت هذه القوانين للمناقشة سنة ١٩٧٣م؛ و قد نصح الدكتور عبد العزيز كامل بوصفه نائب رئيس الوزراء للأوقاف و الشؤون الدينية الشيخ الغزالي بالتخلي عن هذا الهجوم و الانتقادات للمشروع الذي ترعاه حرم الرئيس، بيد أن الشيخ لم يصغ إلى هذه الأوامر التي تلبس لبوس النصيحة، فكان لا بد أن يتفاهم الخلاف مع السادات، فصدرت تعليمات جائزة تقضي بعزل الشيخ الغزالي عن الخطابة في مسجد عمرو و وضع اسمه ضمن " القائمة السوداء " و في هذه الأجواء القائمة أحس الغزالي بأن الدولة أضحت تضيق به ذرعاً و لا تقوى على تقبل أفكاره و آرائه؛ فرحب بعرض كريم من المملكة العربية السعودية ليعمل أستاذاً بجامعة "أم القرى" بمكة المكرمة (٢) غير أن مواقفه الصلبة كان لها أثرها البالغ في الرأي العام المصري، فقد أخذ كثير من خطباء المساجد ينتقدون قوانين جيهان السادات المتعلقة بالأسرة و الأحوال الشخصية، ثم إن المشروع لم ينفذ و ظل عرضه على مجلس الشعب يؤجل، إلى درجة أن الدكتور عبد الحليم محمود بعد أن أصبح شيخاً للأزهر زاره ممدوح سالم - أحد وزراء الداخلية- و ناقش معه مسألة عرض قانون الأحوال الشخصية (مشروع جيهان) على مجلس الشعب في دورته لسنة ١٩٧٨ فقال له شيخ الأزهر: لا يتم ذلك حتى تحضروا شيخاً للأزهر غيري ليوافق لكم على هذا القانون الذي لن يمر إلا على جنتي (٣)؛ و قبل مغادرة الشيخ الغزالي مصر - و هذا دائماً في سياق الحديث عن تأثيرات موقف الغزالي- كانت جريدة الأهرام في عددها ليوم السبت ٢٧ أبريل ١٩٧٤ قد نشرت هذا الخبر: " نظم عدد من الذين تعودوا صلاة الجمعة في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة، مسيرة من المسجد بعد صلاة الجمعة (أمس) اتجهت إلى مجلس الشعب؛ و كان الشيخ الغزالي قد تعود إلقاء خطبة الجمعة في هذا المسجد، و لكنه تغيب عن إلقائها (أمس) مما جعل بعض المصلين يتصورون أنه قد ألقى القبض عليه فنظموا مظاهراتهم... و الواقع أن الشيخ الغزالي ليس مقبوضاً عليه، و لهذا نصح رجال الشرطة المتظاهرين بالتفرق، و طلبوا إليهم عدم الإتيان وراء الشائعات الكاذبة التي تستهدف إثارة الجماهير، و قد استجابت أغلبية المتظاهرين لنداء الشرطة فيما عدا عدداً محدوداً تم تفريقهم (١) .

(١)- المصدر نفسه ص ٢٢٩

(٢)- يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص ٥٢

(٣)- محمد شلبي، الشيخ الغزالي ومعرفة المصحف (مرجع سابق) ص ١٥٦

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥

المرحلة الثالثة : الفترة الخليجية [١٩٧٤-١٩٨٣م]

وصل الشيخ الغزالي إلى المملكة العربية السعودية فرحبت بقدمه الأوساط العلمية و السياسية و تم تعيينه رئيسا لقسم الدعوة و أصول الدين بكلية الشريعة و الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، و استأنف الشيخ نشاطه العلمي خلال العام الدراسي : ١٣٩٤-١٣٩٥هـ/١٩٧٤-١٩٧٥م ؛ و ما ينبغي ذكره هنا أن مغادرة الشيخ الغزالي لمصر كان أمرا شاقا للأوساط العلمية و الدينية فيها كما هو بالنسبة للشيخ الغزالي نفسه ، يقول الشيخ يوسف القرضاوي : " و في أحد اجتماعات الرئيس السادات سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة " د.عبد المنعم أبو الفتوح " عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصر و يحرم جمهوره منه، و تقريب الضعفاء أو المنافقين ، و هنا ثارت ثائرة السادات و هاجم الشيخ الغزالي ، و اتهمه بأنه من دعاة الفتنة الطائفية ، و ما كان الشيخ يوما من هؤلاء و لا يكون ، و لكنه رجل صريح شجاع يدق ناقوس الخطر إذا لاح له ما يهدد الأمة ، فلا يمكن أن يغمض عينه أو يصم أذنه و الخطر من حوله يرى و يسمع " (١) .

و قد سمع الشيخ الغزالي -في مكة المكرمة- بما رماه به السادات من قذف و اتهام و افتراء فغاضه هذا الأمر و شق عليه ثقل هذه الاتهامات ، و أراد أن يقيم الحجة و الدليل على السادات من موقع العالم و الداعية المسؤول المخلص لدعوته ، فأرسل له هذا الخطاب المفتوح الذي يطفح أديبا و إخلاصا و عقلانية و شجاعة (٢) :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد / محمد أنور السادات (حفظه الله) رئيس جمهورية مصر العربية

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ... و بعد :

فقد استمعت إلى العبارات التي تناولتُموني بها في مؤتمر "الطلاب" كانت عبارات قاسية فيها أنني مستغل للدين و طالب زعامة و مثير فتنة و مستجد لعواطف المؤمنين ... و قد استغرب الناس في "مكة المكرمة" هذا الذي حدث كله و رأوا أن الأمر يحتاج إلى استجلاء و مراجعة فرأيت أن أتوجه إلى سيادتكم بهذا الخطاب المفتوح :

(١)- إنني أعمل في ميدان الدعوة من عشرات السنين ، فقد التحقت بوزارة الأوقاف في ميدان الدعوة سنة ١٩٤٢ إماما و خطيبا و مدرسا ، و قبل ذلك بوضع سنين كنت أدعو إلى الله على بصيرة مع أنشط الجماعات الإسلامية ، أي أنني أشتغل بالدعوة من أربعين سنة تقريبا كنت خلالها -علم الله- صادق النية و الوجهة .

(١)- يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص ٥٢

(٢)- محمد شلبي ، الشيخ الغزالي و معركة المصحف (مرجع سابق) ص ٨٣-٨٦

٢- آخر ما قمت به في القاهرة دفاعي عن قوانين الأسرة الإسلامية في كلمة مسجلة عامرة بالإقناع والإحصاءات والأدلة الدامغة ، و لكنكم قبل أن تستمعوا إليها تناولتموني بالسوء في مؤتمر طلابي بالإسكندرية و اعتبرتموني مسؤولا عن المظاهرة التي خرجت من الأزهر إلى مجلس الشعب لإجهاض القانون المقترح من وزارة الشؤون الاجتماعية بهذا الصدد ، و نسبتم إليّ عبارات لم أتقوه بها ، و كتبت إليكم أستحث ضميركم كي تتعرفوا الموضوع بدقة ، و لكنكم لم تفعلوا بل تماديتم في إهانتني .

٣- ظهر الآن من الذي أوعز إلى الوزارة أن تبعدني عن منصبني (المدير العام للدعوة) و عن إلقاءي الخطبة في مسجد عمرو بن العاص ، و من رأى أن أرمى في (سندرة) مسجد صلاح الدين بلا عمل و لا كرامة ، ثم قال للصحف : إن ما حدث يرجع إلى صلتني بقضية الكلية الفنية العسكرية ؛ و بديهي أنه لا يوجد هناك ما يربطني بهذه القضايا و أمثالها ، و لكن إيعادي عن الدعوة كان غرضا مبيتا ، لا لشيء إلا لأنني رفضت التفريط في حقائق الإسلام و شرائعه .

٤- إن عملي للدعوة الإسلامية خلال أربعين سنة مسجل في عشرات الكتب التي ألفتها ، و مئات البحوث و الدروس التي تذاغ في عواصم العالم العربي ، و آلاف الخطب التي ألقيتها في المساجد و الجامعات العامة ، و هو عمل يتسم بالوضوح و التجرد و الفكر النقي و الشعور الصادق ... أما وظائفني التي قمت بها في الجهاز الحكومي فهي معروفة ، و لم يقع أني رقيت استثناء أو منحني وزير شيئا ، بل كان إخلاصي للإسلام سبب الإزورار عني إلى أن شعرت آخر الأمر بأن وجودي في القاهرة سوف ينتهي بكارثة ، فاستجبت للعرض الكريم الذي جاءني من السعودية ، و عملت أستاذا بكلية الشريعة بمكة المكرمة .

٥- في سنة ١٩٧٥ م أفضيت بحديث إلى مجلة " الاعتصام " قلت فيه : إنني مستعد للتضحية بمرتبي الكبير في الجامعة و منصبني العلمي بها إذا عدت للعمل و إلى توجيه الدعوة بوزارة الأوقاف -أي إلى عملي الأول- و نشر الحديث ، و رفضت الوزارة أن تتصل بي لأعود إلى عملي ... و الواقع أنني عرضت هذه التضحية لأن رعاية الإسلام في القاهرة جهد يهتم به المخلصون في العالم الإسلامي كله ، و في طليعتهم المسؤولون عن التعليم العالي بالسعودية ... و قد كتبت إلى الوزيرين الشيخين : الذهبي و الشعراوي ، أنني مستعد للعمل بالوزارة في منصب الوكالة الذي يخلو ببلوغ السن القانونية ، و هذا تنازل مني لا بد من شرحه لإخراص المتهمين (بقضية الفلوس) و الحصول عليها .

٦- إنني أتقاضى مرتبا يساوي مرتبات خمس عشر "وكيل وزارة" في مصر ، و منصبني رئيس قسم الدعوة و أصول الدين ، هو أحظى عندي من منصب وزير في مصر ، و مع ذلك فقد عرضت التنازل عن هذا كله لأخدم الدعوة الإسلامية في مسجد "عمرو" و في مساجد الوزارة التي عملت بها أكثر من ثلاث قرن ، لكن المبهورين بقضية الفلوس و الحصول عليها أرادوا إظهارني و كأنني ذهبت إلى السعودية جريا وراء المال و زهدا في حراسة الإسلام بالقاهرة ... فنشروا في الصحف كلاما سقيما عن المال الذي آخذه

في السعودية ، و هم يعلمون أنني عرضت التنازل كتابة ، و أن البحث عن المال لم يشغلني في شبابي ، فكيف يشغلني الآن عن واجباتي ؟ و ردي عليهم : " حسبنا الله و نعم الوكيل " (٧)- لقد منعتني يا سيادة الرئيس من الخطابة في مسجد " عمرو " و كان يصلي معي في هذا المسجد ثلاثون ألفا على الأقل ، فماذا كانت نتيجة هذا المنع ؟؟ استطاع الشيوعيون في الفراغ الديني السائد أن يفعلوا ما فعلوا ، و عجيب يا سيادة الرئيس أن تحارب الشيوعية ، و تخاصم في الوقت نفسه التجمع الديني الذي يقضي عليها ، ثم تريد القضاء على أدبيا بهذه الطريقة التي تناولتني بها و التي لا أواجهها إلا بـ (حسبنا الله و نعم الوكيل) .

(٨)- إنني أصارحك بأن الحفاظ على الشريعة الإسلامية هدف لا تتساه جماهير المؤمنين ، و منها شرانع الأسرة التي يحاول بعض الناس اقتلاعها ، و التي أثاروك علي من أجل دفاعي الشديد عنها ، و لكني أمل أن تغير موقفك بما يرضي الله و رسوله .
و أخيرا أعلن أنني سأنسى الشتم الذي وجه إلي داعيا لك أن توفق في جعل مصر الإسلامية تؤدي دورها التاريخي في رد العدوان و حماية الإيمان .

رئيس قسم الدعوة و أصول الدين بكلية الشريعة
و الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
محمد الغزالي

إن هذا الخطاب المفتوح يبين بجلاء أحزان الشيخ الغزالي الدفينة في قلبه بسبب اضطراره للخروج من مصر ، كما يكشف عن جزء من طبيعة الضغوط التي كان الشيخ يعاني وطأتها قبل تنقله إلى السعودية ؛ و نجد الشيخ -في مورد آخر من كتاباته- يتحدث عن ملابس قبول العرض الذي جاءه من المملكة العربية السعودية قائلا : " لقيني الدكتور محمد الرشيد عميد كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز الذي تفاهم معي على العمل في مكة المكرمة و كنت يومئذ مهزوما مظلوما ضائقا لما أصابني و أنا أحمل علم الدفاع عن بقايا الإسلام في علم التشريع ، كان يراد بتصير قوانين الأسرة فاستمنا في رد هذه الفتنة و أصابنا من ذلك ما أصابنا ... قال لي الدكتور محمد الرشيد : لا عليك أن تخدم أبناء المسلمين في دولة تقوم على الدين و ترفعه لها شعارا ؛ و كان الانتقال إلى المملكة العربية السعودية مباغته لي ، و كنت قد نقلت في أول كتاب ألفته كلاما عن الملك عبد العزيز يصف صرامته في تأديب البدو و القبائل التي مرت على إيذاء الحجيج ... و يظهر أن الكاتب الذي نقلت عنه جار في حكمه و اشتط في اتهامه ، و أنا على كل حال مسؤول عن الكلام الذي نقلته و إن وصف خطأ بأني قلته ... و سافرت إلى مكة

و بدأت العمل في الجامعة و بدأت كذلك أدرس تاريخ الملك عبد العزيز أدرسه سرا و أتعرف على معالمه وحدي ... و كان أول ما استوقفتني كتيب فيه الأدعية المأثورة التي كان الملك يتلوها تقربا إلى الله و تطلعا إلى فضله قلت : ملك عابد ؟ هذا غريب !! و بدأت أجمع المعلومات و أنا بعيد عن أي حاكم في المملكة فعلت ما لم أكن أعلم ... عرفت أن الرجل كان صواما قواما مقبلا على ربه راغبا في نصرته دينه يتحرى الحق و يسأل عنه أهل الذكر ، و يريد أن يقيم دولة للإسلام تجمع ما تفرق من أمره و تحميه من الخرافات و الأباطيل ... و عرفت أنه كان متواضعا للناس ، يبعثر فيهم ما يجيئه من مال ، و كان المال يومئذ قليلا ، لما يستكشف النفط بعد و تغزر موارده (....) إنني أكتب هذه الكلمات إنصافا للحقيقة العلمية ، لا رغبة و لا رهبة ، أكتبها بعد خمس سنين قضيتها في السعودية كأبي أستاذ يشتغل بالتعليم و التربية ، ما قال لي مسؤول لماذا كتبت عنا كذا أو لعلك تستدرك ما ذكرت قديما عنا (١) .

و ليس من شك أن ما أفضى به الشيخ الغزالي في هذه الكلمات التي كتبها بعد إنهاء عمله في السعودية ، يشير إلى الأجواء الفكرية و الحرية العلمية التي عاشها خلال هذه الفترة من عمره ، فقد احتفت به السلطات السياسية و العلمية ، و عرف الجميع قدره و منزلته ، و كتب الأستاذ محمد رجب البيومي -وقئتذ- مقالا بصحيفة الرياض تحت عنوان " مرحبا بالشيخ الغزالي " قال فيه : " محمد الغزالي من أكبر دعاة الإسلام في هذا العصر إن لم يكن أكبرهم جميعا ، فإنه يملك مع روعة البرهان و قوة الإيمان و صلابة العقيدة ، أسلوبا حارا يتوهج حمية و يلتهب غيرة ، أسلوبا يملك مشاعر المستمع حين يكون الغزالي خطيبا ، و يأسر عواطفه حين يكون الغزالي كاتبا ، و هو من الأستاذ حسن البنا رضي الله عنه بمنزلة محمد عبده من جمال الدين الأفغاني ، إذا شرح أصول فكرته و حلل عناصر دعوته ، و أيد مسعاه بالفكر المستنير و الرأي الصائب ، و قد رزق الله مؤلفاته حظوة بالغة لدى الخاصة و العامة فكانت مكتبة إسلامية تقف في وجه الطوفان الزاحف من بلاد العداة الصارخ ، فتكتسح الباطل و تنصر الحق (....) إن المصريين جميعا يعرفون مواقف الغزالي الجبارة على منابر الجامع الأزهر بالقاهرة و عمرو بن العاص بالفسطاط و غيرها من منابر عواصم المحافظات ؛ و هي مواقف ردت للمنابر الإسلامية اعتبارها ؛، إذ جعلها الأستاذ ذات رسالة اعلامية ساطعة ، و ما شرعت الخطب يوم الجمعة في الإسلام إلا لتؤدي ما أداه الأستاذ من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ... " (٢) .

(١)- محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (عين مليلة / الجزائر : دار الهدى ١٩٨٨م) ص ١٢٩-١٣٠

(٢)- محمد رجب البيومي " الشيخ محمد الغزالي " مجلة المنهل العدد (٥٢٣) - محرم ١٤١٦هـ/يونيو ١٩٩٥م ، ص ٩٠-٩٣

و خلال هذه الفترة أيضا قدم الشيخ الغزالي للمكتبة الإسلامية بعض مؤلفاته ، و هي (علل و أدوية) و (مائة سؤال في الإسلام) و (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) و (ركائز الإيمان بين العقل و القلب) ... و حقق كتابين للإمام ابن الجوزي ، هما : " ذم الهوى " و " صيد الخاطر " ... و بعد خمس سنوات (*) حافلة بالعطاء العلمي و الخصوبة الفكرية قضاها الشيخ الغزالي بأمر القرى و إلى جوار بيت الله الحرام بالمملكة العربية السعودية التحق بكلية الشريعة بدولة قطر ، و كان الشيخ يقضي أكثر من نصف العام بالدوحة أستاذا بالكلية و محاضرا بالمساجد و الملتقيات ، كما كان يمد الصحافة المكتوبة - خاصة السعودية و القطرية- بفيض علمه و وافر فكره ، و في قطر كتب الشيخ مؤلفات كثيرة ، منها : (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) -الذي كتبه خصيصا لسلسلة كتاب مجلة الأمة القطرية- و (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) و (فن الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء) و (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (هموم داعية) و (واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري) ... و في هذه المرحلة أيضا زار الشيخ الغزالي كل أو معظم مناطق و دول الخليج العربي ، و كان يقضي شهر رمضان من كل عام بدولة الكويت حيث دأبت وزارة الأوقاف على استضافته لإلقاء المحاضرات في المساجد و الإسهام في بعث الوعي الإسلامي الصحيح و تذليل العقبات التي تعترض واقع و سير الدعوة الإسلامية (١) .

و مما هو جدير بالذكر هنا أن حدثا كنييا ألم بالشيخ الغزالي -أثناء هذه المرحلة- كان له وقع و أثره العميق في نفسية و حياة الشيخ ، هذا الحدث هو وفاة زوجته و رفيقة عمره سنة ١٩٨٠م ، تقول صغرى كريمات الشيخ الغزالي " منى محمد الغزالي " : " تعرض والدي لمواقف صعبة في حياته ، لعل أقساها وفاة والدتي في العام ١٩٨٠ بعد عشرة عمر طويلة رافقته أينما ذهب في بلدان العالم الإسلامي ، و بعدها عانى الشعور بالوحدة " (٢) .. غير أن الشيخ الغزالي تغلب بفضل قوة إيمانه بالله و صلابته إرادته و عمق صبره ، على مثل هذه الابتلاءات ، و واصل باحتساب و رباطة جأش مشوار الدعوة و العمل للإسلام حيث زار عدة دول مثل كندا و أمريكا و فرنسا و ألمانيا ، بدعوة من رابطات الطلبة المسلمين و الجمعيات و المؤسسات الإسلامية في هذه الدول ... و كانت معظم هذه الأنشطة يقوم بها الشيخ و يتجاوب معها خارج أوقات عمله بكلية الشريعة بدولة قطر ؛ و كان الشيخ الغزالي في هذه الفترة أيضا يدعى سنويا للمشاركة في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر ، و في عام ١٩٨٣ عرض عليه الرئيس الشاذلي بن جديد فكرة الإقامة بالجزائر للإشراف على افتتاح الجامعة الإسلامية و إعداد المقررات الدراسية بها .

(*) ذكر الدكتور عبد الحليم عويس بأن الشيخ مكث سبع سنوات في السعودية (صور من حياة مجاهد عظيم) (مرجع سابق) ص ١٨

(١)- عبد الحليم عويس و آخرون ، صور من حياة مجاهد عظيم (مرجع سابق) ص ١٩

(٢)- منى محمد الغزالي " والدي طبيب جدا " مجلة المجلة السعودية ل لندن (العدد ٥١٦) - ص ٤٢

و لما كلم الشيخ الغزالي الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر في هذا الموضوع وافقه وحفزته على خدمة الدعوة في الجزائر ، على الرغم من حاجة قطر و حرصها على إبقاء الشيخ الغزالي قريبا منها لتوجيه الثقافة و الفكر و ترشيد الصحوة و تنوير المجتمع و تذليل بعض المعضلات العلمية .

المرحلة الرابعة : التدريس و الدعوة بالجزائر [١٩٨٤-١٩٨٩م]

شاء الله أن ينتقل الشيخ الغزالي إلى الجزائر ليبدأ فيها مرحلة أخرى من مراحل حياته العامرة بالجد و الجهاد و الموقف ، و يظهر أن الأقدار العليا قد لعبت دورها في هذا الانتقال الذي كان بشري علمية ذات مذاق خاص في الجزائر ، و الله تعالى إذا أراد شيئا فإنه يأذن بتمهيد أسبابه ... و يحكي الدكتور عمار الطالبي ظروف هذا الانتقال المبارك فيقول : " مضت سنوات على استقلال الجزائر ... و كان أن دعي الشيخ محمد الغزالي لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تتعقد سنويا في الجزائر فكانت له صولات و جولات فيما يليه من كلمات بليغة و فيما يناقشه من قضايا المسلمين ، و في أحد الملتقيات أبرق إليه ابنه بالألا يعود إلى مصر لأن الرئيس السادات سيلقي به في السجن ، و كان قد حضر الرئيس ابن جديد زائرا ذلك الملتقى في ختام أعماله ، فأبلغه وزير الشؤون الدينية في ذلك العهد الشيخ عبد الرحمان شيبان بهذا الخبر ، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالي و قال له : الجزائر بلدك ، فمرحبا بك داعية إلى الإسلام فيها ... و كانت إذ ذاك المساعي حثيثة لإنشاء جامعة للعلوم الإسلامية في الجزائر ؛ و على الرغم مما وجدناه من صدود و عراقيل من عناصر ماركسية ماكرة و يساريه كائنة ، فإن ابن جديد آتاه الله رشده فأصدر مرسوما بإنشاء هذه الجامعة ، و كان حريصا أشد الحرص على أن يكون الشيخ الغزالي من مؤسسيها ، و كان الشيخ الغزالي في ذلك الوقت أستاذا زائرا في جامعة قطر بالدوحة ، فخطب أمير قطر بذلك ، فوافق على انتقال الشيخ إلى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ؛ و قدم وفد من الجزائر لهذا الغرض -كنت من بين أعضائه مع الأخوين : عبد الوهاب حمودة و ابن عبو- إلى قطر ؛ و شاء الله أن يحضر الشيخ محمد الغزالي حفل افتتاح الجامعة بمدينة قسنطينة سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م و كان حفلا كبيرا حضره رئيس الدولة و عدد كبير من الوزراء و كبار المسؤولين و والي قسنطينة و سفراء الدول الإسلامية ، و كان الشيخ الغزالي أول المستقبليين " (١)

و هكذا بدأ الشيخ الغزالي عمله بجامعة الأمير عبد القادر خلال عامها الدراسي الأول ١٤٠٤-١٤٠٥هـ/١٩٨٤-١٩٨٥م ، و اختار لنفسه تقديم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم و السيرة التحليلية .

(١)- عمار الطالبي "الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر" مجلة اسلامية المعرفة (مصدر سابق) ص ٤٩-٥٠

و أذكر أن أول محاضرة ألقاها علينا -نحن طلبة الدفعة الأولى- كانت مساء يوم الأحد ٩ نوفمبر ١٩٨٤م وكانت تحت عنوان " مدخل إلى شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم و طبيعة رسالته " كما أذكر أن الشيخ لم يكمل هذه المحاضرة لأن الدموع قد غلبته و هو يستشهد بقول شوقي عن صاحب الرسالة العظمى :

أتيت و الناس فوضى لا تمر بهم * إلا على صنم قد هام في صنم

و يعقب بقوله " و لن تسعد الدنيا إلا إذا عادت تسير وراء محمد عليه الصلاة و السلام تأخذ عنه و تتعلم منه ، و إني لآت إلى هذه المحاضرة و أنا أفكر في ماذا أقول عن هذا الرجل " (١) ؛ و استمر الشيخ يلقي محاضرتين كل أسبوع الأولى صبيحة السبت و الثانية صبيحة الأربعاء ، إلى جانب ترأسه لمجلس الجامعة العلمي ، و ذلك غير المحاضرات و المداخلات التي كان يلقيها إبان المناسبات و الندوات و الملتقيات التي تعقد داخل الجامعة ، أما خارج العمل الرسمي في الجامعة فقد كان الشيخ الغزالي يدعو إلى الله و يرشد شباب الصحوة بما آتاه الله من علم و حكمة و نور ، كما بذل -يرحمه الله- جهودا مضنية في نصح الغالين و مداواة المتطعنين و أصحاب التدين الفاسد ، و قد زار معظم ولايات و مدن الجزائر ، من أجل خدمة الدعوة و نشر الفكر الإسلامي الصحيح .

أما وسائل الإعلام الجزائرية بمختلف أنواعها المقروء منها و المسموع و المرئي فقد عرفت مع الشيخ الغزالي حركية خاصة و أصبح لها متابعوها من مختلف المستويات و الاتجاهات أيضا ، فقد كتب الشيخ في الصحافة المكتوبة و أذاع مئات الأحاديث في الإذاعة الوطنية ، و كان له كذلك في التلفزيون "حديث الإثنين" و هو موعد أسبوعي للأسرة الجزائرية ، و قد ظل هذا الحديث -البرنامج مستمر لعدة سنوات حتى كسب ملايين المشاهدين المعجبين بأسلوب الشيخ في الشرح و العرض ؛ لقد أرهق الشيخ نفسه في الجزائر إرهاقا أحس بوقعه الجميع ، على الرغم من تقدمه في السن و إصابته بجلطة في الدم و أمراض أخرى ؛ و قد سمعته مرة يقول بأنه لم يتعب في أي بلد آخر مثلما تعب في الجزائر ، و لم ينس الشيخ الغزالي التأليف في هذه المرحلة الشاقة المليئة بالأعمال و الواجبات ، فقد كتب بإقامته في قسنطينة العديد من مؤلفاته الهامة و الشهيرة ، و هي : (السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث) و (الطريق من هنا) و (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة و الوافدة) و (جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج) و (سر تأخر العرب و المسلمين) و (المحاور الخمسة في القرآن) و الجزء الأول من (الحق المر) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه : كيف تفكر فيه) و (صيحة تحذير من دعاة التصير) ...

(١) - دفتر خاص كنت أدون عليه تاريخ المحاضرات و عناوينها و أهم فقراتها و أنكارها

و هناك خدمة أخرى قدمها الشيخ الغزالي للدعوة في الجزائر جديرة بالتبويه و هي السماح بإعادة طبع مؤلفاته و التنازل عن أخذ حقوقه المادية لصالح القاريء في الجزائر المتعطش للثقافة الإسلامية ، بحيث يقترب الناشر من بيع هذه المؤلفات بثمن التكلفة ، أما عوائد الأحاديث المسموعة و المرئية التي تم إفراغها في أشرطة سمعية بصرية فقد تبرع بها الشيخ للمعاقين بالجزائر (١)

إن حب الشيخ الغزالي للجزائر و شعبها نابع من حب الشيخ للأمة الإسلامية القطب التي انتمى إليها و نافح عنها و عاش في سبيل نصره و دعم هويتها الفكرية و مقوماتها الحضارية ، و إن من يطلع على بعض مؤلفات الشيخ التي كتبها إبان ثورة التحرير المباركة -مثل كتابه : الإستعمار أحقاد و أطماع- ليلمس بعمق حب الغزالي و صدق مشاعره إزاء الجزائر ، لذلك فقد أعطى كل ما عنده و هو يقيم في هذا البلد الطيب المعطاء ؛ و قد ظل الشيخ قرابة خمس سنوات في الجزائر شعلة متقدة من الحيوية و النشاط و العطاء المتواصل حتى لكان شبابه قد بعث من أخايد الزمن الغابر و هو بالجزائر ، و توسع بالجامعة حتى أصبحت عدة معاهد و ملاحق عبر مختلف أنحاء القطر ، و رعى الصحوة الناشئة بالفكر الصحيح و المنهج الأرشد و النموذج الأقوم ؛ حقا لقد صدق من وصف الشيخ الغزالي بالغيث الفكري "الذي ساقه الله إلى العقل الجزائري حينما بدأ الجذب يدب إليه ، فحول قحطه إلى خصوبة و جفافه إلى نماء ... و قل عنه إنه حلقة الوصل المفقودة التي انقطعت بين حركة ابن باديس و ميلاد جيل الصحوة الإسلامية التي هي من غرس علماء هذه الحركة ، فكان المنهج الحقيقي للمد الإسلامي المتنامي في الجزائر ، تحت تأثير مدرسة التعليم الأصلي و ملتقيات الفكر الإسلامي ؛ لقد أطل محمد الغزالي على الجزائر و هي تموج وسط صراع فكري مصيري دائر بين التعريب و التغريب ، و بين الأصالة و التفسخ فألقى بتقله الفكري داعيا و مرشدا و مدرسا (...) و لنن كان أبو حامد الغزالي قد استحق لقب حجة الإسلام قديما بما قدم من جهد في إحياء علوم الدين ، فإن محمد الغزالي يستحق أن يلقب في عصرنا بحجة الصحوة الإسلامية ، بما قدم للعمل المسلم من فقه و فكر مستنير و منهج تجديدي وفير" (٢) .

(١)- كان هذا التبرع عندما عرض الصحفي عبد القادر نور على الشيخ الغزالي فكرة إفراغ أحاديثه في أشرطة سمعية بصرية و تسويقها بعد استئناسها ، و هذا نص التبرع : " بسم الله الرحمن الرحيم : أقرر أنا الشيخ محمد الغزالي أنني تنازلت عن حقوق المادية في الأحاديث التي سجلتها لي إذاعة الجزائر المرئية و المسموعة للمعوقين عن الحركة بالجزائر ، و قد كلفت السيد عبد القادر نور بطبع و نشر الأحاديث على أشرطة مرئية و مسموعة (كاسيت سمع بصر) مع دبلجتها و نقل محتواها لطبع في كتيبات تكون مصاحبة لها و ترجمتها إلى لغات أجنبية ... و كلفته أيضا برعاية و حفظ المستحقات المادية المذكورة التي ستجمع من مبيعات الكتب و الأشرطة المختلفة حتى تسلم إلى أهلها... كما أرجو من مديري المؤسسات تسليم الأشرطة للسيد المذكور مع جزيل الشكر سلفا ... و تحرر هذا العمل بمقتضاه و الله ولي التوفيق ... الجزائر في ٢٤ محرم ١٤٠٩هـ الموافق لـ ٥ سبتمبر ١٩٨٨م .. الامضاء : محمد الغزالي " [مجلة المجاهد الأسبوعي ، العدد رقم (١٤٨١)-الصادر يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٨٨]

(٢)- عبد الرزاق قسوم ، نزيف قلم جزائري (الجزائر : دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر ، ط١ ، ١٩٩٦م) ، ص ١٥١-١٥٢

و قد ظل الشيخ الغزالي يترجم عن ارتباطه بالشعب الجزائري و حبه للجزائر حتى بعد اضطراره لمغادرتها بسبب أوضاعه الصحية ، و من ذلك هذه الرسالة التي أرسلها لوزير التعليم العالي الجزائري من بيته بالقاهرة يقول فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم : الأخ الكريم وزير التعليم العالي : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته / أدعو الله لكم أن يمنحكم التوفيق في إعلاء كلمته و رفع منار الثقافة الراشدة في الجزائر الحبيبة ... إنني الآن في فترة نقاهة بعد مرضين شديدين عافاني الله سبحانه منهما و عندما أستطيع العمل فلن يكون لي عمل دائم إلا بالجزائر ، و سأظل ويا للشعب العظيم و حكومته و رئيسه المؤمن ... لقد كان لرسالتكم وقع جميل في نفسي و أمل إن شاء الله أن أظفر بلقائكم في وقت قريب ، و اقبلوا تقديري و احترامي / و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته / محمد الغزالي ... في ١٠ رجب ١٤٠٩ هـ / ١٦ فبراير ١٩٨٩ م " (١) .

و لعل هذه الرسالة التي بعث بها الشيخ الغزالي كانت ردا منه على شائعات انتشرت هنا و هناك خاصة في الصحافة المصرية مفادها أن الشيخ غادر الجزائر بسبب أحداث أكتوبر ٨٨ لا بسبب حالته الصحية كما روجت مجلة مصرية مشبوهة ؛ الأمر الذي دفع بالدكتور عمار الطالبي رئيس جامعة الأمير عبد القادر - حينئذ - إلى تكذيب هذه الأخبار (٢) إن الشيخ الغزالي اضطر فعلا لمغادرة الجزائر نتيجة الإرهاق البالغ الذي كابده في عمله بالجزائر ، أما حبه للجزائر نفسها فقد ظل يترجم عنه أبدا حتى توفاه الله إليه ، و عندما حدثت الفتنة المرة و شب الحريق في الكيان الجزائري بعث الشيخ الغزالي بخطاب نشرته معظم الصحف الجزائرية و كان تحت عنوان (الشعب الجزائري لن يضل الطريق) ... و مما قاله الشيخ في هذا الخطاب : " عندما يتصدع بناء قائم فإن إعادته إلى قوته و تماسكه تحتاج إلى مهندس خبير يعرف الدعائم و الشرفات في أصل البناء و يعرف ما عراها من عطب ، و يعرف كيف يعود بالبناء إلى حالته الأولى و نحن واثقون من أن الشعب الجزائري لن يضل الطريق و لن يخطيء الهدف ، سيبقى يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، و يتشبث بلغته العربية و أدبه العريق ، و سيتغلب على العقبات التي اعترضته و يجمع صفوفه لصنع مستقبل أفضل و أخوة أوثق ... و النجاة من المحن تحتاج إلى أمرين : صدق الإيمان و صلاح الرأي ؛ و اعتقادي أن شعب الجزائر الذي عرفناه يتوفر لديه الأمران معا ، و سوف يخرج من الفتن التي تتازعه ليستأنف مسيرته في خدمة الإسلام مع سائر الشعوب الإسلامية التي ترفع راية التوحيد " (٣) .

(١) - جريدة النصر ، العدد الصادر يوم ٨ مارس (آذار) ١٩٨٩ م

(٢) - جريدة المساء ، العدد (١٠٦٥) الصادر يوم ١ مارس (آذار) ١٩٨٩ م

(٣) - جريدة البصائر ، السلسلة الثالثة ، العدد (٢٦) الصادر يوم ١٠ مايو (أيار) ١٩٩٣ م

المرحلة الخامسة : العودة إلى مصر [١٩٨٩ - ١٩٩٦]

بعدما يقرب من خمس سنوات قضاهما الشيخ الغزالي بالجزائر نصحه أطباؤه بالقاهرة - و قد أجريت له فحوصات دورية- بأن يتعد عن الأعمال المضنية و يخضع لمراحل متفاوتة من الراحة و الاستجمام ؛ و كان بعض الغيورين من مفكري هذه الأمة قد فكر بأن لا يعود الشيخ الغزالي من الجزائر إلى مصر إلا شيخاً للأزهر أو مرشداً للإخوان المسلمين ، خاصة في ظل الاضطراب الفكري الذي يجري في مصر و العالم العربي بسبب الفراغ المنهجي و فقدان المرجعية الرشيدة ذات الثقل العلمي و التجربة الثرة (١) بيد أن المساعي التي بذلت في هذا المنحى باءت بالفشل نتيجة تعليلات و حسابات واهية و غير مؤسسة ، مما حدا برجال المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، إلى التفاهم مع الشيخ ليكون رئيس المجلس العلمي لمكتب المعهد بالقاهرة (*) لا سيما أن علاقة الغزالي بمؤسسي المعهد العالمي علاقة قديمة تعود إلى وقت ما قبل التأسيس الرسمي للمعهد و كان الشهيد اسماعيل راجي الفاروقي أول من قدم الشيخ الغزالي لقراء الإنجليزية من خلال ترجمة كتابه "من هنا نعلم" إلى اللغة الإنجليزية ، ثم إن الشيخ الغزالي كان يرى بأن البرنامج الفكري للمعهد يمثل امتداداً متقدماً لطروحات و أفكار رواد الحركة الإصلاحية و رموز التجديد الإسلامي ؛ و كانت خطوة القائمين على أمر المعهد تهدف إلى الاستفادة المنهجية من فكر و علم الشيخ الغزالي من خلال استخلاص خبرات جهوده المتنوعة و مشروعته الفكري ، و هو ما يشير إليه الدكتور طه جابر العلواني بقوله : " و في تلك المرحلة المباركة من عمر الشيخ أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء ، فقد قرر المعهد تنفيذ مشروع لتسجيل خبرات جملة من أعلام العصر و خلاصة تجاربهم في الحياة بالصوت و الصورة ، على أن يتم استخلاص تلك الخبرات و التجارب بحوارات علمية مكثفة يقوم بها أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث من يجري الحوار معه و إنتاجه العلمي ، و تقرر البدء بكل من الشيخ الغزالي و الدكتور زكي نجيب محمود " (٢) .

(١)- طه جابر العلواني "شيخنا محمد الغزالي و صفحات من حياته" مجلة إسلامية المعرفة (مصدر سابق) ص ٧

(*)- كان المجلس العلمي لهذا المكتب يضم نخبة من المفكرين المسلمين ذائعي الصيت منهم الذكاترة : محمد عمارة و جمال الدين عطية و محمد سليم العوا و أحمد كمال أبو المجد و محمد عثمان نجاتي و سيد نسوقي حسن و علي جمعة و عبد الوهاب المسيري ، و المستشار طارق البشري و الدكتورة زهيرة عابدين و صافيناز كاظم ... إلخ

(٢)- طه جابر العلواني ، المصدر السابق نفسه ، ص ١١

و في هذه الفترة الأخيرة من عمره المبارك قدم الشيخ الغزالي للفكر الإسلامي مؤلفاته الآتية :

(تراثا الفكري في ميزان الشرع و العقل) و (كيف نتعامل مع القرآن) و (التفسير الموضوعي للقرآن) و بقية أجزاء كتاب (الحق المر) و (أزمة الشورى في المجتمعات العربية و الإسلامية) و (من كنوز السنة) ... أما كتابه (قصة حياة) فقد كان الشيخ يضيف إليه فصولا جديدة كل عام و لم يصدر إلا بعد وفاته في صورة مذكرات شخصية لكنها مليئة بالدلالات العميقة القمينة بالإعتبار و التأمل ؛ و من غير المستبعد أن تكون هناك كتب أخرى للشيخ قد تظهر خلال السنوات القادمة ، فإن كبار الكتاب و المفكرين كثيرا ما يتركون بعض كتاباتهم لتبرز للوجود فجأة بعد رحيلهم عن الدنيا ؛ و في هذه الفترة أيضا تم تكريم الشيخ الغزالي في عدة دول إسلامية مثل ماليزيا و السودان و قطر و السعودية و الجزائر و موريتانيا كما حصل على جائزة الدولة التقديرية في مصر سنة ١٩٩٢م في العلوم الاجتماعية ، و كان قبل ذلك قد حصل على أعلى وسام جزائري ، و على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى في مصر سنة ١٩٨٨م ، كما نال جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام سنة ١٩٨٩م ، و حصل في أواخر سنة ١٩٩٠م على جائزة الدولة في باكستان ، و قبل وفاته بأيام قليلة منحه ماليزيا و سامها الأول ، كما رشحته المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة (إيسيسكو) لنيل جائزة السلطان حسن البلقية العالمية ، سلطان بروناي دار السلام للدراسات الإسلامية ، و لئن كان الشيخ الغزالي قد حصل في السنوات الأخيرة من حياته على أفخر النياشين و أعلى الأوسمة فإنه ظل يعتقد بأن ما عند الله تعالى دوما خير و أبقى ؛ كما استمر الشيخ في العطاء و التفاعل الكامل مع قضايا الأمة المركزية ولم يضع القلم حتى اللحظات الأخيرة من عمره الحافل بالبدل و التضحية و العطاء ؛ و شاء الله تعالى أن يسقط الشيخ الغزالي شهيدا على أديم الأرض التي احبها ، فقد صرح الشيخ بأنه يود لو يقبل الثرى الذي مشى فوقه رسول الله -صلى الله عليه و سلم- ففي مساء يوم السبت ٢٠ من شوال ١٤١٦هـ الموافق لـ ٩ مارس (آذار) ١٩٩٦م توقف القلب الكبير الذي حمل هموم الأمة الإسلامية طويلا ، و ذلك فوق المنصة التي كان الشيخ يعقب منها على بعض ما أثير في ندوة (الإسلام و الغرب ... الجذور التاريخية) و بعد أن توقف نبض قلبه نقل على الفور إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض حيث أجريت له الإسعافات الأولية و لم يلبث أن وافاه الأجل الحتم ؛ و سارع الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي ، باعتباره رمزا للحكومة السعودية و رئيسا للحرس الوطني -المؤسسة الثقافية و العسكرية و الحضارية العظيمة التي نزل الشيخ الغزالي ضيفا عليها للمشاركة في مهرجانها السنوي الحادي عشر (الجنادرية) و الذي تناول في تلك السنة موضوع الإسلام و الغرب -إلى إرسال طائرة خاصة إلى القاهرة قصد تقديم تعازي الحكومة السعودية لأسرة الشيخ الغزالي و نقل أفرادها للسعودية لحضور وداع و دفن العالم الجليل و فقيد الأمة الإسلامية و الفكر الإسلامي ، الذي ووري تراب مقبرة البقيع بالمدينة المنورة إلى جوار الصحابة الكرام -الجيل الفريد- و قريبا من صاحب الرسالة العظمى -صلى الله عليه و سلم- و ذلك يوم الأحد ٢١ من شوال ١٤١٦هـ/ ١٠ مارس ١٩٩٦م ، و كان ذلك بناء على وصيته الخاصة ؛ و في صبيحة هذا

اليوم ذاته تفاقلت وكالات الأنباء العالمية و وسائل الإعلام المختلفة هذا الخبر الأليم الذي نزل كالصاعقة على أسماع مريدي و محبي الشيخ الغزالي و كذا على العلماء و المفكرين المسلمين و الدعاة و الباحثين و المهتمين بقضايا الفكر الإسلامي في كل مكان من المعمورة .

لقد كان رحيل الشيخ الغزالي عن هذه الدنيا حدثا جلا هز كل الأوساط العلمية و الفكرية و الدعوية و الإصلاحية خاصة في العالم العربي و الإسلامي ، و صلى كثير من المسلمين في المراكز الإسلامية و الجامعات و المؤسسات الفكرية و العلمية صلاة الغائب على روح الشيخ الفقيه الطاهرة ، كما قرنت على روحه آلاف الكلمات التأبينية و القصائد و المداخلات التذكارية ؛ و في الجزائر -البلد الذي أحبه الغزالي فبادلته أهله تلك المشاعر الرقيقة الحانية و تجاوزوا مع علمه و فكره و خلقه على النحو الذي كان مع الشيخ عبد الحميد بن باديس- فقد دعت جمعية نادي الشيخ محمد الغزالي للدعوة و الإعلام و الجمعية الدينية لمركب الأمير عبد القادر ، إلى أداء صلاة الغائب على روح فقيه الأمة الإسلامية ، و تم ذلك يوم الثلاثاء ١٢ مارس ١٩٩٦ م بعد صلاة الظهر بمسجد الأمير عبد القادر و عقب الصلاة انتظمت تأبينية الشيخ الغزالي بقاعة المحاضرات الكبرى بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية ، و من بين ماجاء في هذه الكلمات التي قدمها نادي الشيخ الغزالي للدعوة و الإعلام : " إن خبر وفاة الشيخ محمد الغزالي المفاجئ كان وقعه عظيما على أمة الإسلام و المسلمين .. لأنه فقدان لعالم قل أن وجود الزمان بمثله ، عالم صال و جال و سخر حياته كلها لخدمة الإسلام في كل بقاع المعمورة معايشا كل الظروف التي يمر بها المسلمون في كل شبر من الأراضي الإسلامية ، عالم ترك وراءه من الآثار و المبادئ و الأعمال ما يجعله حيا رغم فناء البدن و الجسد " (١) أما الأستاذ أحمد مراني وزير الشؤون الدينية الجزائرية حينئذ فقد أرسل بهذه البرقية لعائلة الشيخ الفقيه : " ببالغ الحزن و الأسى تلقيت نبأ وفاة أمير العلماء ، قدوة الأفاضل و فخر الأمثال الشيخ العلامة محمد الغزالي يرحمه الله الذي أحيانا دانما بعلمه دارس العلم ، و محا بفضلله الجهل المظلم ، مجدد بنيان الهدى و المكفكف عن جانب الشرع الشريف أيدي الردى ، جامع شتات العلم و محرز قصب السبق في المنشور و المخطوط ، حاملا رايات الفضل لأمتة الإسلامية ، أدامه الله بهجة الزمان و مصدر العرفان .. و الله تعالى نسأل أن يتغمد روحه الزكية برحمته الواسعة و أن يسكنه فسيح جنانه و يلهم أسرته الكريمة و ذويه الصبر و السلوان " (٢)

كما نشرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كلمة احتسبت فيها مصابها في فقدان الإمام الغزالي و قدمت تعازيها للأمة الإسلامية كافة باعتبار الشيخ الغزالي إمام الأمة و قطب العلماء الدعاة و أستاذ الأجيال رمزا يعيش في قلب و ضمير الكيان الجمعي للأمة الإسلامية ، كما نشر فريق من الأساتذة و الدعاة (*) الذين عملوا مع الإمام الفقيه في ملتقيات الفكر الإسلامي و الجامعة وساحات الدعوة ، كلمة

(١)- جريدة النصر ، العدد الصادر يوم الثلاثاء ١٢ مارس ١٩٩٦ م

(٢)- جريدة الشعب ، العدد الصادر يوم ١٢ مارس ١٩٩٦ م

(*)- هم الشيخ عبد الرحمان شيبان و الدكتور عبد الرزاق قسوم و الدكتور سعيد شيبان ، و الأستاذ عبد الوهاب حمودة و الأستاذ محمد الهادي الحسني .

بليغة حزينه ومما جاء فيها : " لقد توطدت علاقة الجزائريين بالإمام الغزالي فطلبوا منه أن يساكنهم أرضهم وديارهم ، ففضل طلبهم على كثير من الطلبات واستقر حيناً من الدهر في قسنطينة - مدينة أحب رجل إليهم : الإمام عبد الحميد بن باديس - فشهد فيها افتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية وأشرف على إعداد برامجها ورأس مجلسها العلمي وعلم طلابها العلم الذي ينمي العقل ويزكي النفس ويهذب السلوك ، وأفاد أساتذتها بخبرته العميقة وتجربته الواسعة ، ولو أنطق الله هذه الجامعة لشهدت قاعاتها وأروقها وساحاتها بالمجهود العلمي الكبير الذي بذله الإمام الغزالي طيلة وجوده فيها (...). إن الجزائر لفي حيرة من أمرها ، أتزل عند العرف وتراعي الاعتبارات فتقدم التعازي إلى آل الغزالي ، أم تطالب بما تعتبره حقاً من حقوقها وهو أن تعزى فيه ؟ وإنما لفي حيرة من أمرها كيف تصبر أسرة الإمام الصغيرة وهي التي لم تستطع عليه صبراً لأنها تؤمن أن على مثل الغزالي قلبك البواكي .. إننا نستمطر شآبيب الرحمة من الرحمن على الإمام محمد الغزالي وندعو الله البر الكريم أن ينزله منازل المكرمين من عباده ويجزيه الجزاء الأوفى ، فشهادتنا عليه أنه أدى أمانة العلم وبلغ رسالة الإسلام في المشارق والمغرب ونصح لأئمة المسلمين وعامتهم .. فسلام على الغزالي يوم ولد على دين محمد ويوم مات داعياً إلى دين محمد ويوم يلتقي بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنا لله وإن إليه راجعون " (١) رحم الله الشيخ الغزالي وعزاؤنا أنه خالد لأنه عاش لرسالة الخلود وأنه ممن يصدق فيهم قول الشاعر :

المرء بعد الموت أحوثة	•••	يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ	•••	تطيب بعد الموت أخباره

(١) - جريدة الشروق العربي (العدد ٢٥٥) من ٢٦ مارس إلى ٢ أبريل ١٩٩٦ م ، ص ٧

خصائص شخصيته وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه

تمهيد :

سوف يحاول هذا المبحث - وهو ضميمه لا بد منها للبحث السابق - إجلاء أبرز وأهم خصائص شخصية الشيخ الغزالي ، وكذا التعرض لأهم العوامل و المؤثرات التي أسهمت بشكل أو بآخر في تكوينه الفكري وفي صياغة قواعد خلفيته العلمية - وهو ماله صلة وثيقة أيضا بالمبحث الأول من هذا الفصل - وهذه كلها حلقات تروم إلى تقديم فهم عميق لشخصية الشيخ الغزالي واستبطان روح هذه الشخصية الفذة باستخلاص خصائصها في أبعادها المختلفة ، حتى يسهل علينا بعد ذلك وضع التحليل الفكري داخل حدود وقضاءات هذا الإطار ، اعتقادا منا بوجود الكثير من الانعكاسات و التأثيرات الخفية المتداخلة بين طبيعة الصياغات الاجتهادية و التوجهات الفكرية و المعرفية وبين طبيعة السمات العميقة و الخصائص المركزية التي انطبعت بها هذه الشخصية .

أولا: أهم سمات شخصية الغزالي

اجتمعت في شخصية الشيخ الغزالي العديد من الخلال و السمائل و الخصائص نادرا ما تتوافر جميعها في كيان واحد ، وإن كنا نجدها موزعة متفرقة في نماذج إنسانية كثيرة ، خاصة عند العلماء و المفكرين و المصلحين ، ولاشك أن بعض تلك الخصائص تنداعى إلى الذهن بمجرد ذكر اسم الشيخ الغزالي ، ومن أهم تلك الخصائص ما يأتي :

(١) قوة الاعتزاز بالله وشفافية الإيمان : شخصية الشيخ الغزالي شخصية إيمانية ربانية في المقام الأول ، فهي تذكر بالله تعالى وبلقائه الحق ، وتظهر هذه الخاصية من خلال حرارة حديث الغزالي عن الله واعتزازه به على الدوام في أي وضع وحال، وهو لا ينسى ذلك مطلقا في أي موضوع يتصدى لمعالجته، ونحن نجده يعبر عن هذه الفضيلة النفسية الإيمانية الرائعة وهو في البدايات الأولى لتلقي العلم فيقول : " ولقد مرت بي لحظات استوحشت فيها من كل شيء واستبان لي عجز الخلائق أجمعين ، ولم يأخذ بيدي إلا الواحد القهار " (١) ؛ وحديث الغزالي عن الله يسنده إيمان عميق بعيد الغور في تركيبه النفسي والروحي ، مما أعطى هذه السمة ألقا خاصا ضمن جملة الخلال و السمائل التي تتحلى بها شخصية الشيخ الغزالي ، بل إنه يمكن الذهاب إلى أن هذا البعد هو الذي منح هذه الشخصية صورتها الشمولية المتناسقة مع شتى القيم والصفات الإنسانية العظيمة ، وفي رأبي أن هذه الصفة تحديدا هي ثمرة من ثمرات علاقة الشيخ بالقرآن الكريم وإدمان النظر في سياقاته ودلالاته ، إلى جانب استدامة التأمل في الكون وآيات الله في الأنفس والآفاق ، فبات من الحتم أن تتطبع هذه الشخصية بإيمان شفاف بللوري ، ولنتأمل هذه العبارة الدالة على الكثير من المعاني التي ذكرناها أو ألمحنا إليها ، يقول " أنا رجل شرفي الأول و الأخير أني

(١) محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " مجلة إسلامية المعرفة (مصدر سابق) ص ١٦٣

أقول وراء محمد : " إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له " (١) .. أنا أشعر حين أكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي وحين أفكر بأن الله هو الذي أسرج مصباح عقلي " (٢) .

(٢) الشجاعة و الإقدام : وهذه صفة أخرى بارزة في شخصية الشيخ الغزالي ، وهي وليدة التربية التي نشأ عليها الغزالي ، فقد ألزم نفسه منذ يفاعته بالتحلي بفضيلة الشجاعة والتخلي عن رذيلة الخوف و الاضطراب ، ومن ذلك ما حكاه عن سيره منفردا في المقابر ليلا - وإن عرف بعد ذلك أن هذا المسلك منهي عنه في السنة - قال : " حدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن اجتأح قريبتنا حديث عن الأسباب التي تظهر بالليل ، وشعرت بوجل يملكني وأنا أستمع إلى أنباء هذه الكائنات الخفية ، ثم أنكرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمنا ، فإن المؤمن يخشى الله وحده .. إذن فلأؤدب هذه النفس الهلوع ، وبم ؟ بإكراهها على مواجهة ما تخاف ، وبعد العشاء اخترقت وحدي أعماء الليل المخيم على البلاد والحقول ، ودلفت إلى المقابر الموحشة الواقعة بعيدا عن العمران !! وأخذت أنقل خطوي بين دروبها الضيقة ، وعيناي تستشfan كل شيء حولي ، وقلبي لا يفتأ يدق ، وكانت رحلة شعرت من أعماقي بكرهي لها ، ولكن ما منها في نظري بد .. لقد قررت أن أدخل هذه المقابر من طريق وأخرج من طريق آخر ، وأن أكرر هذه الجولة في ليال عدة لأغالب في نفسي هذا الخوف الذي لا يليق بي " (٣) ، ويظهر أن هذه التربية كان لها أثرها البعيد في نسيح الغزالي الروحي والنفسي ، فقد شارك وقاد عدة مظاهرات احتجاجية ضد الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي ، وعندما كان في معتقل الطور ورأى أن العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعتقل يأكلون حق السجناء خطب الجمعة داخل المعتقل فألهب العواطف وفجر روح الثورة على هذا الظلم ، وبعد انقضاء الصلاة قاد الشيخ مظاهرة أجبرت أولئك المشرفين على الرضوخ لمطالب المعتقلين فباتوا منذ ذلك اليوم يتسلمون ما تقرر لهم من الأطعمة الجافة والمعلبات ليقوموا بأنفسهم بطبخها وتوزيعها (٤) ، وعلى هذا النحو من المواقف الشجاعة والتصرفات الجسورة انطبعت شخصية الغزالي .

(٣) نقد الذات و الرجوع عن الخطأ متى تبين الصواب : هذه الصفة من ألزم وأوضح خصائص شخصية الغزالي ، فهو دائم المراجعة لنفسه وفكره وعلاقاته وتصرفاته ، ويمكن إثبات هذه الخاصية ببعض الأمثلة ، فعندما اختلف مع الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان ، راجع الغزالي موقفه بشكل عام وتبين له بأن هناك حدة في طبعه كثيرا ما تتسبب في إبعاده عن الموضوعية ، وقد أصلح الغزالي ما وقع بينه وبين الهضيبي-قبل رحيل الأخير بنحو عامين-وأثبت ذلك في الطبعة الجديدة لكتابه (من معالم الحق في كفاحننا الإسلامي الحديث)والتي صدرت سنة ١٩٨٤ م ، وعندما سادت موجة الاشتراكية العالم العربي ،

(١) سورة الأتعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٢) محمد الغزالي " الإسلام و الثقافة العربية في عالمنا المعاصر " مجلة إسلامية المعرفة (مصدر سابق) ص ١٥٠

(٣) محمد الغزالي ، جدد حياتك (قسنطينة / الجزائر : دار البعث ، ط٣ ، ١٩٨٦ م) ص ٢٣٢

(٤) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص ١٦

تصدى لها الشيخ الغزالي ، وقد اضطره الأمر إلى استعمال بعض المصطلحات مثل الاشتراكية الإسلامية و الديمقراطية ونحوها ، وكان ذلك بمثابة خطة لرد المعجبين بالشيوعية والمد اليساري إلى الإسلام ونظمه العظيمة - ظاهر الشيخ الغزالي في هذه الخطة الكثير من المفكرين الإسلاميين و منهم مصطفى السباعي وسيد قطب ومالك بن نبي وعبد العزيز البدري وأحمد الشرباصي وغيرهم - لكن الشيخ الغزالي وبعد تراجع المد اليساري راجع منهجه في محاربة هذا التوجه ، وفي الكثير من موارد كتاباته نجده يتحدث عن هذه المراجعة ، وهو يعتذر أحيانا عن هذا المنهج رغم جدواه الهائلة في تلك المرحلة التاريخية ، ومن ذلك قوله " .. و الكتب الأولى التي ألفتها في شبابي كانت دفاعا عن الإسلام وتقديما للبدائل التي تغني عن الشيوعية ، وهناك نقد موجه لهذه الكتب يتلخص في هذه النقاط : أن حقائقها العلمية مبعثرة ينقصها التماسك الفني ، وأن العاطفة الحادة تسودها ، وأنتي قبلت مصطلحات الديمقراطية و الاشتراكية وذلك لايحوز ، وهذه التهم فيها قدر من الصواب ، وفيها أيضا بخس لجهد كبير ، وعذري أنني كنت أرتاد ميدانا لم أسبق إليه ، والرائد يستكشف ويدع لغيره التنظيم وهذا ماحدث (...). أما قبول المصطلحات الحديثة فمازلت مترددا في حكمه ، ولاريب أنني سأهجر هذه المصطلحات الدخيلة بعد مايتحرك الفقه الإسلامي ويضع مايعني عنها " (١) .

إن هذه الخاصية في شخصية للشيخ الغزالي تركت أثرها الطيب في العديد من رجالات العلم و الفكر ، ومنهم الدكتور محمد عمارة الذي علق على مراجعة الغزالي لما كتبه عن الملك عبد العزيز آل سعود في أول مؤلفاته نقلا عن مصدر كثير الشطط حيث قال : " وهو هنا يضرب نموذجا آخر من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس ونقد الذات ، ومراجعة الفكر والعودة لما يراه حقا .. وتلك لعمري شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأواب " (٢) ، وعندما كان الشيخ الغزالي أستاذا بجامعة قطر بدأ عبد الرحمن الشرفاوي ينشر بصحيفة الأهرام سلسلة مقالات تحت عنوان (علي إمام المتقين) .. وكانت هذه المقالات تعرض أحداث التاريخ الإسلامي بروية يسارية ، فألقى للشيخ الغزالي محاضرة بالدوحة هاجم فيها مقالات الشرفاوي كما انتقد بشدة تيار مايسمى باليسار الإسلامي ، وكان أن ذكر اسم محمد عمارة في جملة من ذكر من كتاب هذا التيار ، إلا أن شابا قطريا - كان يتولى إدارة الشؤون الثقافية بجامعة قطر - أبلغ الشيخ الغزالي - وكان من مريدي فكره - بحقيقة فكر الدكتور محمد عمارة - وكان من القراء المعجبين بهذا الفكر - فسارع الشيخ الغزالي إلى مراجعة مابدر منه وأخذ يقرأ بعض كتابات الدكتور عمارة ثم كتب له يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم : أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد : فإن القليل الذي قرأته لك أخيرا ردني إلى الصواب في أمرك ، وجعطني أندم على تعجلي في عنك من كتاب " اليسار الإسلامي " .. لقد كنت في ضيق شديد للحرج الذي وقع

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (الجزائر : دار الكتب ، ط١ ، ١٩٨٧ م) ص ١٣٨ - ١٣٩

(٢) محمد عمارة ، الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري و المعارك الفكرية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، ١٩٩٢ م)

الفكر الاسلامي فيه عندنا هنا في الخليج الذي يمرح فيه الغزو الثقافي غير خجل ولا قلق .. وتناولت ناسا قرأت لهم ما لايسر ، ولكني ماكنت قرأت لك وإنما حدثني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء وتتبنى النظرة المادية إلى الفلسفة الإسلامية .. وماكان يليق بي أن أعتد السماع في تقدير الرجال ، ومن ثم كنت - بعد وصفي لك باليسار الاسلامي - قلقا في عدالة الحكم الذي صدر مني بالنسبة لكم خاصة .. والآن ، وبعد قراءات قليلة لآثارك الأدبية أيها الأخ العزيز رجعت إلى من حدثوني وقلت لهم : إن الطبيعة العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرة ودقة الحكم وسعة العلم ، والتجرد للحق .. وإذا مضى في هذا الطريق فأحسبه سيكون نموذجا للأستاذ العقاد وعبقرياته الإسلامية .. معذرة عما قلته وعند أول فرصة لكتابة عامة سأنشر رأيي ، فهذا حقك الذي يفرضه علي ديني ، و السلام عليكم ورحمة الله / ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٤ هـ ، أخوك : محمد الغزالي " (١) وعلق الدكتور عمارة على هذا الخطاب فيقول: " قرأت خطاب الشيخ الغزالي..وكانت المفاجأة التي هزت كياني من الأعماق .. لقد وجدتي أمام وثيقة لا يكتبها إلا واحد من عظماء الرجال .. فهذا الشيخ الجليل الذي يقع مني موقع الأستاذ من التلميذ يجلس في موقعه هذا ليراجع نفسه ويحاسبها ولينقد ذاته وليعلن لي عن تصحيحه لموقفه مني ، لا في إطار هذه الرسالة فقط ، وإنما علنا وعلى رؤوس الأشهاد .. حقا إنه رجل أواب " (٢) .

والذي ظهر لي أن هذا الجانب في أخلاق الشيخ الغزالي وشخصيته إنما كان نتيجة حمل نفسه على أخلاق القرآن وتعهده لسلوكه بالتقويم والإصلاح والرعاية ، وهو يصرح فعلا بذلك بقوله " في صدر شبابي الأول كنت دقيقا في محاسبة نفسي ، وكنت أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهر مما أحقره من خلال وأعمال ، وأذكر أنني استعنت بإحدى المفكرات السنوية لإثبات الأطوار التي انتقل بينها من الناحيتين الذهنية و النفسية ، وإن كنت فشلت آخر الأمر في استدامة هذا الأسلوب ، ويرجع فشلي إلى أنني أطلب النتائج المستحبة بسرعة ، على حين أكون محاصرا بظروف لا تسمح بذلك أبدا " (٣) .

٤) الإحسان و التذكر الدائم للأخرة : الإحسان عند الشيخ الغزالي خلق فطري في طبيعه وسجيته ، فقد ولد وعاش طفولته في بيئة تجور على الفلاحين والبسطاء من الناس ، ولاشك أن الاحساس بما كان يرى حوله من مظاهر الغبن والبؤس قد عمق في روحه هذا الخلق ، فكان عطوفا محسنا مقيلا للعثرات ، وفي أي بلد أقام فيه له بصمات لخلقه هذا ، وله آياد بيضاء على الفقراء وذوي الحاجة والعوز ، وقد سمعته مرة يقول : إنه لايجوز لمن وسع الله عليه أن ينسى المحرومين الذين يعيشون في ضيق شديد من العيش وليتذكر يوم كان حاله كحالهم ، وإلى جانب هذا الخلق العالي فإن الشيخ الغزالي دائم الارتباط بالملأ الأعلى لاينسى مطلقا الدار الآخرة ، بل إنه ينفعل إلى حدود بعيدة إذا كان الحديث عن هذا الأفق الرحب من آفاق الإيمان ، وربما أخرج جلساءه بهذا الانفعال دون قصد منه ، يقول الدكتور عبد الحلیم عويس

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٧

(٣) محمد الغزالي ، جدد حياتك (مصدر سابق) ص ٢٣١

عن هذه الصفة في شخصية الشيخ الغزالي : " إن هذا الداعية لم يتعصب قط لنفسه ، ولم يشعر بأنه فوق الخطأ البشري ، وبأنه - لجهوده - فوق الناس ، بل عاش مع الناس في مشكلاتهم .. يتحدث عن أيام الفقر والضراء ، كما يتحدث عن أيام السراء .. يداعب ويمزح حتى يظن محدثه أنه خال من الهموم ، فإذا جاء ذكر الله والآخرة بكى حتى أخرج جلساءه ومحدثيه ، وقد كنت أصلي به إماما - في بعض الظروف وبإصرار منه - فيبكي وأنا أقرأ القرآن بعد الفاتحة فأضطر إلى اختصار القراءة !! وكنا يوما في الجزائر نقرأ عليه أنا ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بعض حكم ابن عطاء الله السكندري فأخذ يبكي ويتأوه ونحن في سكون ووجوم لاندري مانفعل " (١) .

وهذا كله إنما يدل على مدى شفافية الروح التي تسكن كيان الشيخ الغزالي ، والانفعالات التي تحاصره ولايستطيع التحكم فيها ليست تلك التي تغشاه وهو يتحدث عن الآخرة فحسب وإنما هي انفعالات متدفقة كثيرا ماتظهر عند حديثه أو كتابته عن الجانب العاطفي في الإسلام ، ومما رواه الشيخ عن نفسه " أنه حين يؤلف عن الجانب العاطفي في الإسلام وعن فن الذكر والدعاء ، فإنه لم يستطع أن يتحكم في انفعالاته ، وظلت دموعه تختلط بمداد قلمه الذي يكتب به ، حتى اضطر إلى إعادة كتابة صفحات كثيرة بللها الدمع وطمس معالمها " (٢) .

٥) خفض الجناح والتواضع لأهل الإيمان : ومن السمات البارزة أيضا لأخلاقيات شخصية الغزالي اللين والتودد والتواضع وتجاوز العثرات مع أهل الإيمان جميعا ، ولاشك أن هذه الخاصية ثمرة طبيعية لبعض الخصائص أنفة الذكر ، وإن كانت في عمقها بالنسبة لأخلاقيات الغزالي تبدو وكأنها نحيزة وأصل وفطرة زادها الإيمان ألقا وإشعاعا ، وهو يشير إلى هذه السمة بقوله : " ثم إني شعبي في تصرفي ، لو كنت ملكا لأبيت الا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا ، أخدمهم ويخدمونني على السواء ! وقد فكر أحد الفراشين أن يزوجني ابنته ، يحسبني غير مستزوج ! وضحكت مسرورا ، لأن الرجل لم يلمح في نفسي أثارة من كبرياء تصده عني أو تصدني عنه ، برغم مايفرضه الناس بيننا من تفاوت شاسع في الطبقات !! " (٣) ، ويعلق الشيخ على مايقول قد طرأ من تغيرات على أصول هذه السمة فيقول : " وقد تكون الأيام غيرت مني و التجارب القاسية علمتني ، فجعلتني - وأنا الضحوك للمبتهج - أغوص في بحار من الأكدار ، أو أتحرى موضع قدمي وأنا أسير بين الناس ، كأنما أحاذر شراكا منصوبة ، أو أصعر خدي - علم الله لا عن كبر بل إحجاما عن قبول الدنية ورفضاً لهضم الحقوق ! وما اضطررت إليه من عمل يناقني طبعي ، فإن مرده طبيعة الأحوال التي أحيا فيها ، وليس البتة من طبيعة الرسالة التي أوديتها بعدما صرت إلى ماخطه القدر لي ، أي رجلا من الدعاة إلى الله وهمزة وصل بين الأرض و السماء " (٤) .

(١) عبد الحليم عويس وآخرون ، الشيخ محمد الغزالي : صور من حياة مجاهد عظيم (القاهرة : دار المصنوعة ، ط١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١٢

(٢) فهمي هويدي " الفارس الذي ترحل " مجلة النور الكويتية ، العدد (١٣٧) - يونيو ١٩٩٦ م ، ص ٤٢

(٣) محمد الغزالي ، تأملات في الدين و الحياة (الاسكندرية : دار الدعوة ، ط٢ ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م) ص ٥

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦

إن خلق التواضع خلق أصيل في سلوك وسجية الشيخ الغزالي لا يشوبه تصنع أو تكلف كما هو الحال عند بعض الناس ، ومن ثمة فهو من أهم العوامل التي جعلت أخلاقيات الغزالي ذات عمق تأثيري يحس بألقه كل شخص له جهاز عاطفي سليم كتب له التعامل مع الشيخ الغزالي ، وقد أصغيت مرة لحدث الدكتور زكريا مطر وهو يروي تأثره البالغ بهذا الخلق المتأصل في سلوك الغزالي ، فقد حدث أن ذهب ذات يوم يزور الشيخ الغزالي في بيته بقسنطينة - وكان الدكتور مطر حينئذ يعمل أستاذاً بجامعة قسنطينة - ولما دخل البيت بالدر بخلع حذائه وجواربه عند المدخل ، وعندما هم بالانصراف تفاجأ بالشيخ الغزالي يحمل له بنفسه حذاءه ، ويتاوله إياه في تواضع هو بحد ذاته آية من آيات انتصار المؤمن على كبرياء النفس ، وشارة من شارات خفض الجناح لأهل الإيمان و التبسط مع الناس (*).

هذه أبرز وأهم الصفات الخلقية والنفسية في شخصية الشيخ الغزالي ، وليس من شك أن الاستقصاء هنا انصب أساساً على الخصال والمواصفات التي قد يلاحظها أو يتلمسها كل من أتبع له التعرف المباشر أو التعامل مع الشيخ الغزالي ، أما الإحاطة الكاملة بجوانب هذا الموضوع فتتطلب صفحات كثيرة لا يتسع لها هذا البحث ، ولعله من المهم في هذا المقام - استكمالاً لصورة الموضوع - استجلاء أهم العوامل والمؤثرات التي أسهمت أو أثرت في البناء الروحي والفكري والصلب العام لشخصية الشيخ الغزالي .

ثانياً: أهم العوامل المؤثرة في تكوينه

هناك مجموعة عوامل تضافرت فكان لها أثر وتأثير في الجوانب والأبعاد العامة لسلوك وأخلاق الشيخ الغزالي ، وكذلك في مناحي تفكيره وتوجهه العلمي ، ومن أهمها - فيما نعتقد - ما يأتي :

(أ) تدين الأسرة وتكفل والده بتربيته: نشأ الغزالي وسط أسرة قروية بسيطة - بين إخوة سبعة هو أكبرهم - وكانت هذه الأسرة عميقة التدين مستقيمة النهج والخلق ، فكان لهذه النشأة أثرها في تحديد المعالم الأولى لشخصيته ، ثم إن والده كان حريصاً حرصاً كاملاً على رعايته وتربيته التربية الصالحة ، خاصة فيما يتعلق بأمر تحفيظ القرآن الكريم وتلقيح الأخلاق السامية والمبادئ الرائدة ، وكان ذلك حينئذ مما تشتهر به وتتنافس فيه القرية المصرية ، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في المرحلة الأولى من أطوار حياة الغزالي ، ولا يمكن أيضاً إغفال دور وأثر والدته التي كانت سيدة بارة محسنة صالحة تحب الخير والإحسان للناس ، وقد كانت تحث الغزالي على أن يحسن للجميع ، وتطلب منه - في كل مرة يعود فيها من القاهرة إلى قريته الصغيرة - أن يعد أكبر مبلغ من المال لإتفاقه في أوجه الخير والبر ، وكانت غالباً ماتكلفه أكثر مما أعد لهذا الغرض (١).

(*) سمعت هذه القصة شخصياً من فم الدكتور زكريا مطر ، عندما زرته في بيته بقسنطينة في أواخر الثمانينات ، عندما كان يعمل أستاذاً بجامعة عين الباي بقسنطينة .

(١) محمد شلبي ، الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٢٥

ب) حب القراءة والشغف بالمعرفة : ومما له أثره الكبير كذلك في التكوين الفكري للشيخ الغزالي حبه المبكر للقراءة والمطالعة والمتابعة الثقافية ، وهو يتحدث عن تميز مرحلة الطفولة بهذا البعد فيقول : " وطفولتي كانت عادية ليس فيها شيء مثير وإن كان يميزها حب القراءة .. فقد كنت أقرأ كل شيء ولم يكن هناك علم معين يغلب علي ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك وأقرأ وأنا أتناول الطعام " (١) ، وقد أسهمت القراءة في تشكيل وعيه المبكر والتعرف الدقيق على تفاصيل الواقع الذي يعيشه المجتمع المصري ، كما أكسبته حسا نقديا وارتباطا بالمسائل التي يصخب بها واقع الناس والمجتمع ، وهو ما تبثت انعكاساته بوضوح - فيما بعد - في عطائه الفكري وفي أسلوب معالجته وتناوله للمسائل التي يتعرض لها واقع المسلمين والحياة الإسلامية .

ج) التلقي عن كبار العلماء والبيئة التربوية التي نشأ في محيطها : من أهم العوامل التي كان لها أثرها وبصماتها في صياغة التوجه العلمي والخلفية الفكرية عند الشيخ الغزالي أخذه العلم والمعرفة عن ثلثة من كبار علماء وفقهاء ومفكري الإسلام في هذا العصر ، ونحن نجد الغزالي يذكر من مشايخه وأساتذته الأكثر تأثيرا في نفسه " الشيخ عبد العزيز بلال ، والشيخ إبراهيم الغريباوي ، والشيخ محمد الريان .. ويعمل ذلك التأثير بماتميز به هؤلاء - ومن في طبقتهم أيامئذ - من السلوك العالي والإخلاص الذي يريهم العلم والتعليم وسيلتهم المفضلة إلى مرضاة الله ، وبذلك كانوا المعلمين والأسوة في آن واحد ، ومن أمثلة ذلك التي لا ينساها ما يرويها من أن شيخه الريان قد كلفه ذات يوم إعراب الجملة التالية (عبدت الله) وعلى دأب ذلك الجيل الملتزم أجاب أن اسم الجلالة منصوب على التعظيم ، فما تمالك الشيخ أن بكى .. وحق لإنسان مشغول القلب بحب الله أن يبكي وهو يستمع إلى ذكر مولاه معظما على لسان تلميذه ، ولا جرم أن مجرد اختزان الشيخ الغزالي لهذه الذكرى منذ ذلك العهد إنما يصور مدى تأثره بموحيات ذلك الجو المتوهج بالإشراق " (٢) .

ومن الواضح أن الغزالي تأثر بالبيئة التي ترعرع بين جنباتها ، وهي بيئة تربوية يطبعها الإقبال على العلم والانخراط في الحركات والجمعيات التربوية والفكرية والثقافية ونحوها ، لذلك فهو في فكره وكتاباته ممن يؤمنون ويعولون على أهمية عامل البيئة في إصلاح المسالك والحفاظ على سلامة النفوس من الأوضار التي من شأنها افساد الفطرة وإيذاء الروح ، ونراه يشير إلى ذلك بقوله " أنا لم أرث الدين عن والدي كما ورثت قصر القامة وبياض البشرة ، بل لقد مرت علي أيام فرغت نفسي من كل اعتقاد ، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار ، والذي أعانني على إثارة الإسلام : أن لغتي هي لغة القرآن ، وأن الدراسة الناقدة له ولغيره كانت ميسرة لي ، أي أن ظروف البيئة التي احتوتني هي التي جعلتني مسلما على حين حرم غيري هذه المنحة الطيبة ، لأن ظروف بيئته باعدت بينه وبين الاهتداء ، بل لعلها زينت

(١) حوار مع الشيخ محمد الغزالي ، إعداد دار المختار الإسلامي (القاهرة : ط١٩٩٦ م) ص ٥٥

(٢) قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في اصلاح الفرد و المجتمع (مرجع سابق) ص ١٩

له الأخذ بضده ، وملأت نفسه ثقة ورضا بما عنده ، وليس ما عنده إلا الضلال الخادع ، إن آثار البيئته في الخلق والسلوك ونوع الدين لا يمكن نكرانها " (١) .

ومن العلماء أيضا الذين أسهموا في تشكيل البيئته العلمية والتربوية والثقافية التي تركت أثرها في البناء العقلي والفكري للشيخ الغزالي : الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ محمد عرفة والشيخ عبد الوهاب خلاف والدكتور محمد عبد الله دراز والدكتور محمد أحمد الخمرأوي ، ولئن كان الغزالي قد أخذ وتأثر بكل هؤلاء - وهو يعترف لهم بالفضل العظيم - فإن تأثيره الأكبر ، والذي ظل يذكره ويكرره طوال حياته ، إنما كان بمجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام الشهيد حسن البنا ، فهو بالنسبة إليه ولي نعمته ، وسبب انطلاقه ونشاطه لفهم الإسلام وخدمة تعاليمه ، وإذا فهمنا بعمق دلالة هذه الرابطة فإننا لا نعجب ونحن نجد الغزالي يذكر الإمام البنا في موارد كثيرة من كتاباته ، بل إن بعض مؤلفاته - مثل دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين - كان شرحا وتأصيلا لأفكار هذا الإمام المجدد ، وفي الذكرى الأولى لاغتياله كتب الغزالي مقالا تحت عنوان (غصن باسق في شجرة الخلود) جاء فيه : " لقد قتل حسن البنا يوم قتل والعالم كله أهون شيء في ناظره ! ماذا خرقت الرصاصات الأثيمة من بدن هذا الرجل ؟ خرقت جسدا أضنته العبادة الخاشعة ، وبراه طول القيام والسجود ، خرقت جسدا غبرته الأسفار المتواصلة في سبيل الله وغضنت جبينه الرحلات المتلاحقة إلى أقاصي البلاد ، رحلات طالما عرفت المنابر فيها وهو يسوق الجماهير بصوته الرهيب إلى الله ، ويحشدهم ألوفا ألوفا في ساحة الإسلام ! لقد عاد القرآن غضا طريا على لسانه ، وبدت وراثته النبوة ظاهرة في شمائله ، ووقف هذا الرجل الفذ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية ، وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حبا للإسلام واستمسكا به (...) لقد عرفت التجرد للمبدأ في حياة هذا الرجل ، وعرفت التمسك به إلى الرمق الأخير في مماته (...) عجا لهذا الدنيا وتبا لكبرائها ! وارحمته لضحايا الإيمان في كل عصر ومصر ، أذكلك يقتل الراشد المرشد " (٢) .

(د) الصراعات السياسية وظاهرة الاستعمار : عرفت مصر مع البدايات الأولى للقرن العشرين الميلادي الصراعات السياسية والأيدولوجية ، وكان لحركة الاستعمار الغربي دور ظاهر في توجيه الكثير من التيارات والاتجاهات السياسية قصد تحقيق أغراضه ، وتعويق نضال التوجهات الإسلامية والوطنية ، وليس من شك أن الكثير من انعكاسات ذلك الصراع كان لها انطباعها ونضجها في نفس الغزالي ووجدانه وفكره ، خاصة أن ذاكرته - كما جاء في مذكراته - قد التصق على شريطها العديد من صور الظلم الاستعماري وأساليب كيد المرصودة لتدويخ وواد محاولات النهضة الإسلامية في مصر .

(١) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ١٨

(٢) محمد الغزالي ، تأملات في الدين والحياة (مصدر سابق) ، ص ٥٠ - ٥١

ولعل وعي الغزالي وإدراكه المبكر لأهداف ومرامي هذه الصراعات ساقه للإبصار لحركة الإخوان المسلمين وهي في بدايات ظهورها - بل إنه يعتبر من بين مؤسسيها - وذلك لإيمانه بقدرة الإسلام في الوقوف أمام محاولات الاستعمار الغربي والخونة ممن وكلهم على رعاية مصالحه وخدمة أهدافه ، ومن هنا فإننا نفهم دواعي وبواعث تلك المواقف الشجاعة التي وقفها الغزالي في وجه القصر الملكي - ممثلاً الهيمنة الاستعمارية والمصالح الغربية - وإفرازاته الاجتماعية والاقتصادية المختلفة المتمثلة بشكل أخص في مظاهر الإقطاع والفروق الهائلة في مستوى العيش والكرامة الإنسانية ، وتداعيات الظلم الاجتماعي والغبن الاقتصادي ، وقد عبر الشيخ الغزالي - فيما بعد - عن كل هذه الصور والمظالم التي تركت أثرها الغائر في عميق وجدانه ، من خلال مؤلفاته (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإستعمار أحقاد وأطماع) و (الإسلام والاستبداد السياسي) ... الخ ، كما أن استبطان الغزالي منذ طفولته وبواكير شبابه للعديد من صور الامتهان والاستكبار التي ألحقها الغرب المتعجرف بالعالم الإسلامي ، إلى جانب اعتزازه بالإسلام - نتيجة ثقافته - جعله في موقع المدافع الغيور والمناضل الباسل ، خاصة أنه يتذكر هجوم الإنجليز المحتلين على قريته الصغيرة سنة ١٩٢٠ م وهو ما يزال في الثالثة من عمره ، كما يعلق بذاكرته - وهو ابن سبع سنوات - خبر سقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية المرتد مصطفى كمال أتاتورك ، وقد ترجم عن كل تلك الترسبات والتأثرات فكان مراساً ذا شدة في حملته الواعية ضد الزحف الأحمر (الشيوعي) والزحف الأحمر (العلماني و الرأسمالي) .. حيث أصدر في مقابلة واعتراض هذه الزحوف مؤلفات عديدة منها : (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) و (ظلام من الغرب) و (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (حصار الغرور) و (قذائف الحق) ... الخ ، ولم يغفل الشيخ الغزالي أيضاً عن ملاحقة التيارات التي فرختها زحوف الغزو الخسيس ، وقد تجلّى ذلك بصورة واضحة من خلال كتبه (حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي) و (معركة المصحف في العالم الإسلامي) و (علل وأدوية) و (كفاح دين) ، ولعله من المهم هنا الإشارة إلى أن الأوضاع السياسية التي عاشتها مصر والعالم الإسلامي منذ مطلع القرن العشرين الميلادي كانت من أهم المؤثرات في صياغة وتوجيه البناء الفكري عند الشيخ الغزالي ، فكان لا بد أن يكون لانعكاساتها المختلفة المتناقضة صدى واضح وقوي في عطاء الشيخ الفكري والثقافي والمعرفي .

(هـ) الثقافة الإنسانية الواسعة : ومن العوامل التي يجب أن تذكر كذلك في هذا المقام لأثرها البارز في التكوين الفكري للشيخ الغزالي شغفه بمطالعة عطاءات العقل الإنساني وإبداعاته المختلفة ، ومتابعة ما يجري في العالم على كل صعيد ، إن القارئ لمؤلفات الشيخ الغزالي يلاحظ بيسر تام أثر هذا التعامل وصداه في عطاءه الفكري - رغم أنه لا يتقن من اللغات سوى العربية - ومن أقرب الأمثلة على ذلك قراءة الشيخ لكتاب المؤلف الأمريكي ديل كارنيجي (دع القلق وابدأ الحياة) وقيامه بجهد أسلمته ،

أي إعادة أفكار الكتاب إلى جذورها وأصولها الإسلامية ، وكذلك رده على المستشرق اليهودي المجري جولد تسيهر صاحب كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) بكتابه النفيس (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين) ، فضلا عما يظهر من أثر هذا البعد أو العامل في كتابات كثيرة ضمنها الشيخ بعض مؤلفاته ، ويبدو لي أن هذا التوجه في فكر الشيخ إنما هو ثمرة من ثمرات تأثره بالقرآن الكريم ، فالبعد الإنساني في القرآن ظاهر بقوة في شتى المسائل التي تعرض لها والقضايا التي عالجها ، إنني أميل إلى هذا الإستنتاج لأن الشيخ الغزالي يؤثر الأدب العربي والدراسات النفسية على غيرهما من العلوم ومجالات التنقيف (١) ؛ ولعل ذلك بعض سر إعجابه واحتفائه بالعقاد والرافعي والزيات والمنفلوطي ، والمتنبي وأبي تمام وابن الجوزي وابن القيم ونحوهم ...

ونخلص مما تقدم إلى أن أنساق العوامل والمعطيات التي كان لها تأثيرها وبصماتها في التكوين الفكري للشيخ الغزالي في عمومها عوامل تربوية ثقافية واجتماعية سياسية ، وأيديولوجية إنسانية ، بيد أنه يمكن القول أن المؤثرات الإسلامية ، خاصة منها الوعي بالقرآن هي التي كان لها أثرها الحاسم في تشكيل وبلورة فكر الغزالي الإسلامي ، وهي التي منحتة كذلك تلك المسحة الجمالية البديعة والخصائص المتميزة .

(١) قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (مرجع سابق) ، ٢١

الفصل الثاني

الفكر السنني والمواجهة الثقافية

عند الغزالي

فقه السنن الإلهية ومشكلة تأثر المسلمين

تمهيد :

الحقائق المستخلصة من كتاب الله تعالى : المنظور والمسطور ، أي الكون الهائل الكبير ، والوحي الكريم ، كلها تتبع من مشكاة واحدة ، وكلها أيضا ينطبع بها ويتسق معها العقل البشري في حركة استيعاب وتفاعل متناغمة مع طبيعة واطراد هذه الحقائق ذاتها ، فلا يحس هذا العقل أو الإدراك البشري بأي شكل من أشكال التناقض أو الضغط على حركته وهو يؤدي وظيفته في استكناه تلك الحقائق وتحويل ثمارها الكريمة إلى عوائد يسخرها في بناء حياته الحسية ، أو إلى هدايات نفسية وروحية تدعم سيره وكدحه الموصول تجاه الصراط المستقيم ، ومعنى ذلك أن الله تعالى كما حكم - بقدرته القاهرة - الآفاق الرحبة والكون المادي بقوانين وسنن نافذة ثابتة ، فإنه سبحانه أن بان تحكم حركة النفس وحركة المجتمعات الإنسانية بجملة أخرى من القوانين والسنن المطردة ، وبداهة فإن العلم والتفقه بحقائق ومكونات هذه القوانين والنواميس إنما هو سر كل تغيير أو تطور أو استنهاض على مستوى الأنفس أو الآفاق ، أي على الصعيد الروحي والحسي على سواء ، فقد شاعت الإرادة العليا - خالقه هذه النواميس - أن تجعل الربط بين هذين الأمرين قضية مجردة ، لاصلة لها بإيمان أو كفر ، بطاعة أو عصيان ، وإنما الأمر كله يكمن في حسن الكشف والاستيعاب والتفقه لتلك النواميس ، مع الاستجابة الواعية لمقاصدها ، وجعلها مرجعية ضابطة لحركة الإنسان وسعيه في الأرض ... وعليه فمن تفاعل بما وهبه الله تعالى من قوى عقلية وإدراكية وروحية مع هذه الحقيقة العجيبة بلغ مراده ونال هدفه ، ومن جهلها أو تعامى عنها خذل نفسه وهزم معتقده وعاش عالة على غيره .

ونحن نجد في تعبير الإسلام عن هذه الحقيقة الكبرى منهاجا بارز المعالم من حيث تبين المداخل الصحيحة لتغيير ما بالحال والنفس، ومن حيث الأمثلة التي أوردها القرآن عن الأمم الغابرة، وكذلك من حيث وضوح صور وأشكال هذه التعابير وتأكيداتها على أهمية هذه القضية المركزية بالنسبة للوجود كله ، باعتبارها إرادة الله تعالى النافذة في كائناته ومخلوقاته.. ومن ثمة وعلى هذا الأساس ، فإننا نلاحظ - إضافة لما تقدم ذكره - بأن مسألة السنن الإلهية والكونية وفق المعاني والدلالات التي أبرزتها بعض آيات القرآن الكريم، والفهم العملي في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تمثل إحدى أهم الدلائل والأمارات المجسدة لصفة العدل الإلهي ، فهذه السنن إنما هي قوانين عامة نافذة في سيرورة الحياة والأحياء، وقد ورد ذكرها في الكثير من الموارد القرآنية ، منها قوله تعالى في سياق أحكام القتال بمناسبة غزوة بدر: (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) (١) وقوله في سياق أحوال الأمم مع أنبيائهم: (وقد خلت سنة الأولين) (٢) ، وقوله أيضا في سياق الدعوة إلى الإسلام:

(١) سورة الأنفال ، آية : ٢٨

(٢) سورة الحجر ، آية : ١٣

(ومانع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيتهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) (١) ، وقوله في السياق ذاته : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) (٢) .

كما ورد ذكر هذه السنن في مواضع أخرى عديدة من الكتاب الكريم (٣) ، كما أننا نرى بعض العلماء والمفكرين المسلمين يطلقون عليها اسم : السنن الإلهية ، أو السنن الاجتماعية ، أو السنن الحضارية ، أو النواميس الكونية .. الخ ، غير أننا بالاستقراء لتلك المصطلحات والصيغ التعبيرية نصل إلى أن المراد عندهم جميعا واحد : وهو مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون وترتفعها الحياة في سيرورتها ، ويستفيد منها في عمومها - أو من الفقه بأسرارها - الكائن البشري بما يحقق شروط إنسانيته ويؤهله لرسالة الاستخلاف عن الله والإعمار في الأرض والإبداع في عالم الآفاق ، أي أن هذه السنن هي نظم هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه المسيرة له وفق ما أراد الخالق المبدع جل شأنه ، مجالها الواسع : سيرورة الحياة وأفعال الإنسان وحركة المجتمعات وانجازات الحضارات ، ومن ثمة فهي لا تتعلق بمعتقدات أو مواريث الإنسان الروحية والدينية ، إنها سنن عامة مبنوثة في الكون سارية في الحياة والأحياء (٤) .

أولا: موقع هذه المسألة في فكر الغزالي ومقارنته مع غيره من العلماء

تعتبر مسألة الفقه بالسنن الإلهية وصلتها بأزمة تخلف المسلمين وتراجع إشعاعهم الحضاري والإنساني ، نقطة محورية في تفكير الشيخ الغزالي ، بل إن معظم نتاجه الفكري يدور حول هذا المحور ، ويروم تشخيص ومعالجة هذه المعضلة المفزعة (٥) ، وقد انتبه إلى ذلك بعض المقربين من الشيخ ودارسي فكره وعلمه ، حتى أن أحد هؤلاء ذهب إلى أن تخلف المسلمين ظل " شاغلا أساسيا للشيخ الغزالي في كل ماكتب ، حتى اعتبره أخطر المشكلات التي تواجه الحياة الإسلامية " (٦) ، ومما يمكن ملاحظته بهذا الخصوص أن هذا الهاجس هيمن على تفكير المفكرين الإسلاميين ممن اهتموا بقضايا التغيير الاجتماعي والإصلاح الحضاري للأمة والبحث عن أنجع الوسائل والمناهج لاستئناف الدور الإسلامي بشتى أبعاده وتداعياته ، وتحصيل أسباب العافية من جديد للأمة وفكرها ومؤسساتها ، وقد غدا

(١) سورة الكهف ، آية : ٥٤

(٢) سورة فاطر : ٤٣ - ٤٤

(٣) مثلا الآيات الكريمة التالية : (آل عمران : ١٣٧) (النساء : ٢٦) (الإسراء : ٧٧) (غافر : ٨٥) (الفتح : ٢٣) ... الخ

(٤) إبراهيم الوزير ، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٩ م) ص ٧ - ٩

(٥) يمكن الرجوع خاصة لمؤلفاته: سر تأخر العرب والمسلمين ، واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر ، علل وأدوية ، هموم داعية ، جميع أجزاء الحق المر ، كيف نفهم الإسلام ، الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، حقيقة القومية العربية ، من معالم الحق، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، كيف نتعامل مع القرآن ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، الطريق من هنا .. الخ..

(٦) فهمي هويدي " الفارس الذي ترجل " مجلة النور الكويتية ، العدد : ١٣٧ (مرجع سابق) ص ٤٣

العطاء الفكري لهؤلاء العلماء والمفكرين يشكل تيارا أو مدرسة لها خصوصياتها وبصماتها المتفردة ضمن مدارس الفكر الإسلامي وتيارات البناء الحضاري الإسلامي (١) ، والشيخ الغزالي فيما أرى أحد رواد هذه المدرسة ، التي ركزت على استقصاء هذه القضية وعالجت مختلف علل الجسم الإسلامي على ضوئها، ويلاحظ أيضا تشابه كبير" بين رواد هذه المدرسة في كيفية وأسلوب الاهتمام بمسألة السنن الإلهية وإسقاط خلاصاتها وحقائقها على واقع الأمة الإسلامية ، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى : (قدخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (٢) .. يقول صاحب تفسير المنار : " هذا إرشاد إلهي، لم يعهد في كتاب سماوي ، ولعله أرجىء إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعدادة الاجتماعي ، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان، لقد جاء القرآن عكس معتقدات الأجيال السابقة عليه - يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة ، فمن سار على سننه ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تكبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا، وعلى هذا يتخرج إنهزام المسلمين في وقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فشحوا رأسه .. " (٣) .

وفي النصف الأول من القرن العشرين الميلادي أجاب الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - على هذا السؤال الرهيب المثير للتوتر في النفسية الإسلامية : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟! وكان مما خلص إليه بإجابته تلك - بعد تفاصيل ضافية أن المسلمين المعاصرين لا يمكنهم أن ينهضوا إلا بما نهض به سلفهم ، فالتقدم المادي وغيره بالنسبة للمسلمين هو من الفروع ، أي أنه يأتي بعد التمسك بالأصل وفهمه فهما صحيحا ، وهو الإسلام ، واستشهد الأمير شكيب بما قاله له ذات يوم السيد المصلح جمال الدين الأفغاني من أن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فإذا مرض ابنه اختار له أخص الأطباء ، وعلم أن هناك شيئا نافعا هو العلم ، لا يعلم هو شيئا منه ، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه انه ضروري ، ومن ثمة فإن المسلمين يمكنهم إذا أرادوا حقا الإنطلاق وعملوا بما دعاهم وحرصهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ومعتقداتهم (٤) .

لقد أرق هذا الموضوع - خلال العصور الأخيرة - المخلصين من علماء الإسلام ومفكره وأقضى مضاجع الغيورين على الأمة الإسلامية والمهتمين بحاضرها ومستقبلها ، وما ذلك إلا لكون التساؤل الذي أجاب عليه شكيب أرسلان لم يكن مطروحا في قرون الإسلام الأولى ، لأن العقل الإسلامي كان عقلا

(١) شخصا اعتبر مالك بن نبي والشيخ الغزالي رائدين لهذه المدرسة أو التيار، الذي له رموز فكرية كثيرة، منهم على سبيل المثال : محمد رشيد رضا ، المودودي ، علي شريعتي ، طه جابر العلواني ، محمود سفر ، محمد عمارة ، سيد دسوقي حسن ، عبد المجيد النجار ، جودت سعيد ، راشد الغنوشي ، الطيب برغوث ، محسن عبد الحميد ... الخ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٣٧

(٣) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، المجلد الرابع (بيروت : دار المعرفة ، ط٢ ، د.ت) ص ١٤٠ - ١٤١

(٤) شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (بيروت : مكتبة الحياة ، ١٩٧٥ م) ص ١٦٤

مبدعا خلافا منطلقا عبر شتى الأفاق وكانت الحضارة الإسلامية مهيمنة بنموذجها المتميز، ومن معين عطاءاتها ومنجزاتها ونبوغها تأخذ وتستهدي بقية الأمم والشعوب، وكان العرب والمسلمون - برسالتهم الجديدة التي عرفتهم الدنيا بها - إبان تلك القرون المشرقة مثالا يحتذى في الجد والنبوغ، ونفع الإنسانية، أما في فترات انحطاط المسلمين وبعدهم عن مشاركة القافلة البشرية سيرها ومنجزاتها، فإن هذا التساؤل سيظل يعنف بقوة الضمير المسلم، وسيبقى فارضا نفسه على تفكير وتنظير واهتمام كل غيور من أبناء أمتنا الكبيرة .. ولذلك فإن الأستاذ جودت سعيد يربط - في صورة حتمية - بين السنن الإلهية واستيعاب حقائقها الصارمة وبين القواعد والمناهج في بناء وتأسيس الحضارات والمجتمعات الإنسانية فيقول في معرض حديثه عن موقف مجتمع المدينة من المنافقين والمرجفين ممن يعملون على إشاعة الهزيمة داخل المجتمع المسلم الناشئ: " إن للصراع في المجتمع سننا، ومن لا يتبع السنن يخسر صريعا .. ولهذا يعقب الله على وصف حال مجتمع المدينة بقوله: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) (١)، يذكر النموذج الحاضر في المدينة، ويشير إلى الذين خلوا من قبل، ثم يضع القاعدة بأن هذا الحدث تابع لسنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ إن الله تعالى حين يعرض نموذج المجتمع المدني لا يعرضه كحدث خاص بمجتمع المدينة المنورة، بل إن هذا الذي حدث في المدينة نموذج من النماذج التي تتبع لقاعدة (لن تجد لسنة الله تبديلا) فكل من يريد أن يبني مجتمعا، أيا كان هذا المجتمع، وأيا كان مثله الأعلى إن لم يسر على السنة وإن لم يعرف عوامل الهدم والبناء، فلن يتمكن من إقامة مجتمع (...). وفي العصر الحاضر نماذج من المجتمعات التي تقام حديثا بصرف النظر عن قيمة مثلها الأعلى، ولكن حتى هذا المجتمع لا يقوم إن لم يملك الفهم والعمل الكافي لحماية نفسه وتطهيرها من عناصر التخريب ... وحين يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع السنن يستطيع أن يستفيد من أخطاء ومن صواب الكافرين، فضلا عن المؤمنين، وذلك إذا تمكن أن يصل إلى درجة التعامل مع السنن مباشرة دون أن تتدخل عداوة أو صداقة من سخر هذه السنن " (٢).

والشيخ الغزالي كغيره من علماء ومفكري هذه المدرسة فهو لا يفصل بين منظومة السنن الإلهية وبين حال وواقع الأمة الإسلامية، ومن هذا المنطلق نراه يعزو المستويات العامة التي تحيط وتتحكم في المجتمعات الإسلامية كالتردي الحضاري والانحطاط الاجتماعي والجمود الفكري، إلى عاملين كبيرين يعتبرهما الشيخ من الأسرار التي تقف خلف هذه الظاهرة التي طال ليلها، وهما:

(أ) البعد عن الله ومنهجه الأقوم: الإسلام - كما يعتقد الشيخ الغزالي - منهج كامل ودستور شامل، لا يصح أبدا لمن ينشد النهوض والتقدم وفق مبادئه وهداياته وأحكامه، أن يأخذ ببعضه وينبذ - بل يعادي - بعضه الآخر، أو يحرف مقاصده العامة كما تعلى عليه أهواؤه، فهو دين الله الذي ختم به رسالات

(١) سورة الأحزاب آية: ٦٢

(٢) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم (الجزائر: المطبعة العربية، ١٩٩٠ م) ص ١٣٢-١٣٣

السماء وهدايات العالمين ، وإذا كانت بعض الشعوب والأمم بمقدورها أن تعيش بفسفات وأفكار ومناهج من صنعها وتجاربها الخاصة ، أو هي خليط فح من أفكار البشر وبقايا الأديان السابقة .. فإن العرب والمسلمين ليس بمقدورهم ذلك مطلقا ، وليس بإمكانهم أن يذلقوا إلى عالم الحضارة وتقديم الخير والنفع للبشرية إلا عن طريق هذا الدين وتوطيد العلاقة بالله ومنهجه الحق ، وهو ما حدث أول مرة فعلا كما يشهد على ذلك التاريخ ودورات الحضارة الإنسانية ، وبرأي الشيخ الغزالي أنه ليس أمام الأجيال المسلمة المعاصرة - كي تتجه الوجهة الصحيحة ولاتزيغ في دروب المناهات - سوى التيقن من حقيقة وجدوى هذا السبيل ، وذلك بالاستقراء الواعي وإمعان النظر في حركة التاريخ ، فما قيمة الإنسان العربي - كما يشير الواقع نفسه - " يوم ينسلخ عن الإسلام ويستعصي على توجيهه ويمضي وفق هوه ؟ كم يساوي محليا ودوليا من الناحيتين المادية والأدبية ؟ ... إن الإسلام بالنسبة للعرب كتيار الكهرباء بالنسبة إلى المصابيح التي تعتمد عليه وتضيء به وحده ، فإذا انقطع التيار أمست زجاجات فارغة لا توقد بزيت ولا يشعلها عود ثقاب (...). إن الأجناس الأخرى قد تتحرك بفسفات شتى وقد تعلق وتهبط بتيارات أخرى ، أما العرب فما يمسك خصائصهم العليا إلا دين ، فإذا فقدوه عادوا قبائل متفانية ، بل عادوا سقط متاع ، أو أصفارا في عالم الأرقام .. " (١) .. وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة باتت واضحة بل من المسلمات ، إلا أن قطاعا عريضا من أبناء الأمة الإسلامية - كما لاحظ الغزالي بحق - ما يزال يصر على إنكارها أو حجبها بأهوائه وأطماعه ، إما بفعل المصالح الشخصية والمآرب الخاصة ، وإما بأثر الغزو الثقافي الذي حرصت الدوائر المعادية للإسلام على غرسه ورعاية نتائجه في فكر النخبة الثقافية والسياسية في العالم الإسلامي ... بيد أن طلائع الصحوة الإسلامية المعاصرة والعلماء الدعاة وقادة الفكر في هذه الأمة أبلوا بلاء حسنا وهم يدعمون التوجه الصحيح ويدفعون العوادي عن انتماء الأمة الفكري والحضاري ، ويلحون بإصرار وقوة على إثبات وتركيز المنظور الإسلامي في مختلف جوانب الحياة والانتصار للنهج الأقوم الذي لا تفلح هذه الأمة أبدا بغيره .

(ب) الجهل بالسنن الإلهية: يؤمن الشيخ الغزالي بعمق بأن السنن الكونية لاتحابي أحدا من الخلق لأنها نواميس الله ولمسات عدله في الحياة والأحياء ، وهذه السنن - كما القوانين القرآنية - لها دقة القوانين العلمية التي تسمح بجري السفن في البحار ودوران الآلات في المصانع (٢) ، ودراسة هذه السنن - كما يرى الغزالي - هو دون شك مما يكفل الحضارات ويحصن الأمم ، بل إن تعلمها حياة ونماء للعقائد والأخلاق ، ومهما يكن وزن فروع الفقه فإن استيعاب هذه السنن يعتبر من الأصول ، وعليه فإن دراستها أسبق ، والعكوف عليها أجدى ، فالعلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعطوه إلا العلم بالله وصفاته وأفعاله بل هو منه أو من طرقه ووسائله (٣) .

(١) محمد الغزالي ، الحق المر ، الجزء الأول (باتة / الجزائر : دار الشهاب ، ١٩٨٧ م) ص ١٢٨

(٢) محمد الغزالي ، سر تأخر العرب والمسلمين (القاهرة : دار الصحوة ، ط١ ، ١٩٨٥ م) ص ١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١ - ١٢

وعظفا على هذه الحقيقة الساطعة فإن الشيخ الغزالي كما يفهم من تفكيره يعتقد بأن تحقيق تلك الانتصارات الباهرة للإسلام ومنهجه الحضاري والإنساني إبان فجر الدعوة وانسيابات الفتح المبارك لم يكن سوى نتيجة وثمره منطقية لحسن فقه الجيل الأول من حملة الرسالة الجديدة لسنن الله الكونية وجميل التدبير لأحوال الأمم الغابرة فالله تعالى - وقتئذ - كما لاحظ الغزالي - لم ينصر العرب لأنه حابى جنسا على جنس آخر ، وإنما لأن عدل عمر أجدى وأنفع للإنسانية من جبروت كسرى ، ولأن ضوابط الوحي عند الصحابة الكرام أفضل للإنسانية من تحريف أهل الكتاب .. إن انتصار الجيل الأول من المسلمين على الفرس والروم يعني انتصار حضارة متفوقة على حضارات تعفنت ووجب دفنها ، فليس ذلك محاباة أبدا ، وإنما هو اطراد السنن الكونية التي وضعها الله للمجتمع البشري وطبقت بصرامة في الأنبياء والصدّيقين كما طبقت على العتاة والمفسدين (١) فالجهل بهذه السنن لايقود إلا إلى الانحطاط أو حتف الأمم والحضارات ، كما أن العلم بها والتفقه في أسرارها طريق الإنطلاق والتفوق وتحقيق الغايات وفق المشيئة الإلهية ، وهذا أمر منظور في أصول العمران وسنن الاجتماع وتاريخ البشر .

ثانياً: أسباب تخلف المسلمين في منظور الغزالي

إن استقراء نتائج الشيخ الغزالي الفكري يشير إلى أن الشيخ ينظر إلى العاملين أنفي الذكر - أو السابقين - على أنهما الأصل الأول الذي يقف وراء أزمة وإشكالية تخلف المسلمين وانحطاط إمكاناتهم الحضارية ، فالبعد عن المنهج الأقوم وكذا الجهل بسنن الله الكونية ، إنما يمثلان - برأي الغزالي - السر الحقيقي المستتر خلف هذه الأزمة المتشعبة الأغوار والأبعاد ... وماصور التأخر والتردي والانحطاط التي لا يصعب على الدارسين والخبراء حصرها وتصنيفها إلا فروع نابغة عن الأصل المذكور ، أو هي انعكاسات طبيعية موضوعية انحدرت مع واقع حال المسلمين بما تقتضيه قواعد وحتميات سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ، ويمكن تتبع تلك الأسباب في كتابات الغزالي وعرضها فيمايلي :

(١) التصوير الجزئي للإسلام وتغليب الفروع على الأصول

يعتقد الشيخ الغزالي بأن الإسلام كل لايتجزأ ولايتفرق ، بل لا يمكن مطلقا الفصل بين أحكامه وتشريعاته كجملة واحدة متناسقة ، وبين الروح العامة السارية في جنباتها - مقاصدها وجزئياتها - لأن طبيعة هذا الدين لاتقبل أخذ بعضه والعمل به وإحياءه ، وترك بعضه الآخر ونبذّه وإماتته ، فهذا المسلك المريب ، الذي أزرى بواقع حياة المسلمين ، فضلا عن أنه ينقض عرى الإيمان ، فإنه لايمكن أبدا سالكه من الانتفاع بالدين والارتقاء بهديته والتقدم بمقاصده وتعاليمه .. ومن ثمة - كما يرى الغزالي - فإن " العدوان على الدين بالانتقاص من معالمه كالعدوان على الدين بالافتراء والتزيّد ، كلاهما بعد عن الحق وضلال عن الغاية ، ليس في المصحف سورة تؤثر وأخرى تُهدر .. إن الوحي كله نظام إلهي متكامل يتسم بالقداسة والعصمة في جملته وتفصيله فلا مكان لاطراح جانب منه ، واصطحاب جانب آخر ، للإهتداء

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ص ١٥٨

على درب الحياة والتغلب على وعورة الطريق ، إن الطبيب عندما يركب دواءً من عدة عناصر بمقادير معينة فإن هذا الدواء يمسي عديم الجدوى إذا ذهب منه بعض العناصر أو اضطربت فيه نسب المقادير ، والآلة التي تتكون من مجموعة قطع يقف دولابها ويتعطل إنتاجها عندما تضيع أجزاء منها ، ولا يغني وجود الباقي وإن كان مهماً وعظيم القيمة " (١) .

إن سر نهوض الجيل الأول بهذا الدين - كما يفهم من تفكير الغزالي - إنما يكمن أساساً في تمكينه - بوعي وفقه - كمنهج واقعي متكامل في تغيير حركة الواقع وإعادة تشكيل الأنفس والوجدانات والأفكار والتصورات ، والإهداء بروحه السامية ومقاصده الجليلة في الترشيد والبناء والهداية العامة والاستخلاف الأمثل في الأرض .. فقد غيرت الروح السارية في أعماق تعاليمه - كما جاءت إثباتات التاريخ - طبيعة البداوة العربية ، ومكنتها من الاكتساب التدريجي لسمات الحضارة والارتقاء بمفاهيم العيش ورسالة الحياة على ظهر البسيطة .. فما هي إلا مدة من الزمن تسربت فيها النفس العربية روح القرآن وهدايات الوحي الخاتم حتى انطلقت بقوة كالتيار الخاطف تغير مائرسب في كيان الإنسانية من جاهلية وضلال وزيف ، وتبشر ببلوغ القافلة البشرية سن الرشد ، ووصولها المرحلة المناسبة التي ينبغي أن يتعاقب فيها العقل مع هذه الروح الجديدة المنبثقة عن عمق الكينونة الأصيلة وفطرة الإنسان الأولى .. أما الأجيال اللاحقة فقد تتكبت الطريق - بفعل فهمها المبتور للإسلام - وأعرضت عن رسالة وهمة السلف الصالح ، ولم تأخذ من منهج الدين غير الفروع ، ولم تفقه من شريعة الله إلا الشكل مجرداً عن الموضوع ، بل وأخلطت ذلك كله بالعبادات والتقاليد البالية المنافية للمعقول والمنقول ، فأحاط بها الضعف والهوان من كل جانب ، وتقهقرت - نتيجة ذلك - وتوارت جهودها المعهودة التي ارتبطت بحركة النبوغ والإسهام في بناء صروح الإنسانية ومنجزات العقل وثمار الحضارة .

(٢) الاستبداد السياسي وغياب الحرية والشورى :

أثبتت التجارب المختلفة والمراحل التاريخية المطردة أن المواهب الإنسانية لا تنطلق من كمونها وأن العقول لا تتفتح عن إبداعاتها وأن النفوس والإرادات لا تتشرح بالحياة ولا تتفاعل مع حركتها ، إلا إذا أمكن إيجاد جوٍّ من الحرية ، يسمح بالعمل الطبيعي السوي لهذه الأصول الكبرى التي لا بد منها لكل نهضة أو إقلاع حضاري ، لذلك فإن الشيخ الغزالي يعتقد بأن تخلف العالم الإسلامي وضمور إرادة الانتفاض على السلبات المستحكمة في الواقع المعيش ، وضعف حركية التغيير وإعادة البناء ، له صلة وثيقة بفقد عامل الحرية ومبدأ المشورة وسريان أو هيمنة روح الاستبداد السياسي ، ثم إننا نجد في غير ما موضع من كتاباته يشبه الذين لا يربطون بين الحرية والتقدم والتغيير ، بالذين لا يربطون بين الهواء واستمرار الحياة بالنسبة للكائن الحي ، فضلاً عن كونهم - كما يرى - بعداء عن إدراك واستيعاب الأسرار والعوامل الحقيقية الفاعلة ، التي تقف وراء النهضات والمدنيات ، تمدها بعناصر ومقومات البقاء وتدفعها

(١) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت) ص ١١٦ - ١١٧

نحو الأمام ، وهذه حقيقة ترتقي إلى مستوى السنة الكونية أو هي تجري مجراها وتعمل عملها ، فإن البيانات التي " تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية هي التي تتضح فيها الملكات وتتمو المواهب العظيمة ، وهي السناد الإنساني الممتد لكل رسالة جليلة أو حضارة نافعة " (١) .

وبالنسبة لواقع العالم الإسلامي فما أكثر الشواهد والإثباتات التي تؤكد هذه الرؤية ، لأن واقع الحال أقوى من أي تنظير أو ملاحظة ، ويعطي الشيخ الغزالي مثالا على ما ذهب إليه بصناعة الطيران ، التي بدأت في كل من مصر و الهند في سنة واحدة ، كما بدأت بحوث الذرة تقريبا في العام ذاته ، ثم أكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم وتجاربهم والاستفادة بذكاء من تقدم الحضارة الغربية الملحوظ في هذا الميدان .. غير أن ما حصل بثير الدهشة ويبعث على الريبة، فبعد ربع قرن من العمل والجهد المتواصل ، نجح الهنود في صنع طائرة هندية ، كما نجحوا كذلك في الوصول إلى صنع قنبلة ذرية ، أما في مصر فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات عديدة من العمل - وذهبت تلك الجهود والطاقات هدرا - كما تجمد العمل أيضا في وكالة الطاقة الذرية !! فهل سبب هذا الفشل يعود إلى كون العقل الهندي أنكى من العقل المصري؟! إن الشيخ الغزالي يجزم بأن ذلك لم يخطر على بال أحد من الناس ، ولا يمكن على الإطلاق أن يقال شيء من ذلك .. إذن فالسبب المباشر واضح - عنده - وهو أن استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاية أن يعمل ويبدع ، وأن ينجح دون عقبات أو مضايقات .. إن النظام القائم - وهو نظام ديمقراطي حر يمنع تزوير الانتخابات - أقام سباقا لاجواز فيه بين أصحاب المواهب من الكفاءات العلمية ، فانطلقوا بين عوامل التشجيع والحفاوة و التقدير يخدمون أمتهم ، ويتبارون - عن رغبة وإخلاص - في إعلاء شأنها ورفع مكانتها ، أما عندنا نحن فإن أصحاب المواهب والقدرات العلمية ما أن يشرعوا في أعمالهم أو يفكروا في مشروعاتهم حتى يحاطون من كل جانب بقيود وسدود لاحصر لها .. وليس هناك من شك أبدا - كما يعتقد الغزالي - أنه في حال استمرار هذه الوضعية المزرية ، والتي ماتزال للأسف سارية في ربوع وجناب العالم الإسلامي ، فإن مساحات التفاؤل والأمل في القضاء على التخلف وتحقيق التنمية الشاملة والإقلاع الحضاري المناسب للمجتمعات الإسلامية ، ستضعف وتتقلص ، وسينجم عن ذلك جملة مضاعفات وسلبيات تزيد الوضع سوءا وتسهم في تعقيد هذه الإشكالية (٢) .

(٣) الفهم المغلوط للعلاقة بين الدين والدنيا :

يذهب الشيخ الغزالي إلى أنه قد تسربت إلى العقل الإسلامي والفكر الإسلامي عبر مختلف مراحل ومنعطفات التاريخ أمراض خطيرة وعلل عويصة ، كان من شأنها أن ألحقت أضرارا فادحة بخاصية فهم رسالة العمل والإعمار ومقصد الاستخلاف عن الله في الأرض ، ومن بين تلك العلل المتسرية المفهوم الخاطئ للعلاقة بين الدين والدنيا فالاسلام - كما هو واضح من نصوصه وتعاليمه - يجعل إعمار

(١) محمد الغزالي ، قذائف الحق (بيروت : المكتبة العصرية للطباعة ، د.ت) ص ١٩١

(٢) محمد الغزالي ، علل وأدوية (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، ط٢ ، ١٩٨٦ م) ص ١٧٨

الأرض والإصلاح في جنباتها مطية وطريقا للفوز بالأخرة ونيل الرضوان الأعلى ، إلا أن الكثيرين من أهل الإسلام - في حقب مختلفة من تاريخنا بل وإلى يوم الناس هذا !!- جائفوا للأسف التصور الإسلامي الصحيح ، وفهموا خطأ أن الدين عدوٌ للعالم ، وأن أحدا من الخلق لا يبلغ حقيقة التقوى ودرجة القبول والرضوان إلا إذا عاش وهو يعاني الإملاق وكآبة المنظر في الأهل والمال ، أو وهو جاهل بحقائق الحياة وقوانين المادة وسنن الله تعالى في الكون والكائنات ، ولاريب أن اختلال الميزان العقلي وسوء التقدير والفهم لهذه المعادلة الحيوية المتعلقة بارتفاق الأرض وحسن الاستخلاف عن الله - كما لاحظ الغزالي - قد أنشأ أجيالا من المسلمين تعيش - دون شعور - حالة التطفل على الغير والاستقالة العقلية بآتم وأعمق معانيها، فهي لا تملك دنيا ولا تقفه دينا ، ولما كان هذا الموقف يسلك ويعد من أخطر الأسباب والعوامل التي تقف وراء أزمة انحطاط المسلمين الحضاري والإنساني، فإننا نجد الشيخ الغزالي يسارع إلى تصويب خلفية هذا الفهم أو التصور الخاطيء المنحرف، إذ يذهب إلى كون النصوص الإسلامية-من الكتاب والسنة-عندما أطالت الحديث وأسهب الشرح عن الدار الآخرة وحتمية الأوبة إلى الله الملك الحق بعد أمد انقضاء الحياة الدنيا، فإن المقصود من ذلك إنما هو تهذيب الغرائز وتربية الضمائر ونشدان الخير والصلاح في الأرض وإخراج أو انتشال الإنسان من القوقعة الحسية التي يحتبس داخلها... أما العجز في فهم الدنيا والازورار عن ارتفاق خيراتها وكشف ذخائرها، والجهل بأساليب وطرائق تطويع ثمرات ونتائج تلك الجهود لدعم الحق ونصرة الدين والقيم والمثل الرفيعة.. فلا يدل على تقوى أو رشاد في فهم الإسلام وتشريف منهجه ورسالته أو التمكين لهما في هذه الحياة الأرضية، ولكنه في حقيقته موقف وتصور يدل على طفولة فكرية يضار بها الدين وتتكسب بها ألويته وتتفقر بها تعاليمه ، ولاشك أن نسبة كبيرة من زهد الناس في الدين وضعف تجاوبهم مع نظمه وهداياته تعود لموقف هؤلاء وسوء فقههم بالدنيا (١) .

إن نعي الشيخ الغزالي على أصحاب هذا الفهم المعوج للعلاقة بين الدين والدنيا له حقا ما يبرره ، خاصة أن العقل المسلم - كما هو معروف - هو الذي أبدع المنهج التجريبي - ركيزة العلم الحديث - وقد كان يمكن له فعلا - داخل البيئة الإسلامية " أن يترعرع ويؤتي ثماره إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتفقر فيما وراء المادة ، ولولا انطلاق بعض المخربين بصرفون الناس عن الدنيا ويضعون على حواسهم حجبا ، فلا يدركون من قوتها ولا من جمالها شيئا .. ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوي على الطريق ، والثقافات الإسلامية المبتدعة والمنحرفة سر هذا العوج ، وفي مقدمتها التصوف الدخيل .. إن الله جل شأنه لما خلق البشر خلق لهم كل ما في الأرض ليستمتعوا به ماداموا على ظهرها أحياء ومعنى ذلك أن يعرفوا ما هي ألهم معرفة شاملة ، إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمکان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها ، ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة ، بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها ... وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم ، وتأييد مبادئهم وقيمهم .. فالكف العزلاء تخذل الحق ، والسلاح

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨

التأفة يجز الهزيمة (١) " ، ولقد كان من فضائل الإسلام كذلك في هذا المجال أن العمل للدنيا - وإن كان في الواقع ومقتضى الضرورة و الحال نزوعاً مفروغاً منه مسلماً به - قد ورد الخطاب والكلام بشأنه بأسلوب واضح وسياق صريح ، ومن استقرأ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة بهذا الخصوص يوقن أي مطلع أن الدنيا - وفق التصور الإسلامي الحق - ما دُمَّتْ بَتَّةً إلا حيث يكون معناها الغرور أو العصيان ، أو الشهوة الجامحة المنحرفة ، أو التحكم في رقاب الناس وأرزاقهم ، وأنه ما هون شأنها إلا حيث يكون القصد - أو الترجيح - التويه بالأخرة وخلودها الأبدي العجيب إلى جانب انصرام الحياة العاجلة وسرعة انقضائها (٢) .

ثم إن الفهم العملي والواقع التطبيقي المأثور في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذا جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، لمسألة العمل والموقف من الدنيا ، يقف في قوة دليلاً صارخاً - كما يرى الشيخ الغزالي - في تقويض وهدم الفهم المغلوط لعلاقة الدين بالدنيا ، ويبين بجلاء ما ينبغي أن يكون عليه التصور الإسلامي في هذا المقام الحساس ، الجدير بالبلورة العلمية والفكرية لعلاقته الشديدة بنهضة المسلمين وتجديدهم الملح لاتباعهم الحضاري والإنساني .. فنبى الإسلام قد احترف العمل الذي كان يؤديه سواد الناس على عهده - دون أي تجهّم أو غضاضة - وفي البادية الخشنة قام برعي الغنم أجيراً لأهل مكة على قراريط زهيدة من الأرض ، وهذا غير مستغرب على الإطلاق ، فإن إخوانه الأنبياء السابقين كانوا أصحاب حرف وأعمال عادية يرتزقون منها ويحفظون كرامتهم من عوائدها ، فكان منهم النجار والحذاد والبناء .. الخ ، أما أصحابه الكرام - الرهط البديع من الرجال - الذين شرفوا بحمل راية تبليغ ورعاية رسالته المقدسة من بعده ، فقد كانوا جميعاً - أو في معظمهم - ذوي جلد ملحوظ ويسار ظاهر من نشاطهم وكدهم الموصول في ميادين المال والأعمال المتنوعة ، إلى درجة أن نبوغ المسلمين الإقتصادي هو الذي عكر على اليهود مستقرهم بالمدينة وجعل الأسواق تفيض بعزمهم وخبرتهم - وقصة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه خير مثال على ذلك - ولا نعتبر قط أنفسنا مبالغين لو ذهبنا في القول إلى أن ذلك الجيل الفريد لو كان موجوداً بين ظهرائنا الآن في هذا العصر لما تجاوزت أزمة الحياة الصناعية والتجارية والحرفية والاقتصادية أيديهم اللبقة ، بل ولرأيانهم في المدائن والأرياف والقرى آيات من الدأب والتفوق والنجاح ، إذ لم تكن تقوى الله ولم يكن الورع الصحيح في عصر الفهم والادراك السليم لهذا الدين الجليل ومقاصده العظمى علامة على السذاجة والفراغ أو التبطل والعجز ، كما هي الآن للأسف في عصر أومرحة اختلطت فيها الأمور وتشعبت التصورات والمفاهيم على المسلمين وأجيالهم الناشئة (٣) وذلك بفعل عوامل كثيرة ، منها ثقل وطأة الغزو الثقافي والهجمة الفكرية على الهوية الإسلامية ، ومنها كذلك الخلط الذي انبثق عن مفاهيم التصوف ، وهو خلط توارثته الثقافة الإسلامية بالانتقال عبر قنواتها

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (عين مليلة / الجزائر : دار الهدى ، ١٩٨٨م) ص ٦٤-٦٥

(٢) محمد الغزالي ، الإسلام والمناهج الاشتراكية (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط ٤ ، ١٩٦٠ م) ص ٦٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٦ - ٨٧

ومطاتها المختلفة ، مما أربك العقل المسلم ، وغشيت بالتالي التفكير الإسلامي الكثير من العاهات والعلل التي ماتزال تنخر أجهزته بالرغم من براءة وسلامة مرجعيته المعصومة مما أصابه وعلق به .

٤) انبعاث وسيادة تقاليد الرياء الاجتماعي :

ومن بين أخطر الأسباب التي يعتقد الشيخ الغزالي بجنابيتها وتسببها في تأخر المسلمين مشكلة إحياء التقاليد الاجتماعية المريضة في مجتمعات المسلمين ، والأخطر من أمر إحيائها تقديمها للناس على أنها صورة وفية لتعاليم الإسلام وهدية في الترشيد الإنساني والبناء الاجتماعي !! ويتعجب الغزالي لهذه المفارقة وبعث هذا السلوك مرة أخرى لأن الكل يعلم بأنه عندما جاء الإسلام وأشرقت على العالمين رسالته ، فإن الجيل الأول من المسلمين ماأن اهتدى بهدي الله وخضع لتعاليم الإسلام وتذوق أريجها الطيب وسعد بها ، حتى اختفت التقاليد الاجتماعية البائدة من تلقاء نفسها ، لأن الفطرة السليمة لذلك الجيل الفذ كانت أحرص على تمكين الإسلام وتأخير خصوصيات البيئة وأعراف الناس وتقاليدهم ، ومن هنا فإن الغزالي ينعى على مسلمي القرون الأخيرة مااستحدثوه من تقاليد الرياء الاجتماعي في كل نواحي حياتهم ، لاسيما فيما يتعلق بالمرأة والأسرة وتقاليد الأعراس و الأفراح والمناسبات ، وهو يصف الرياء الاجتماعي - بالاستناد إلى ما جاء في السنة المطهرة - بالشرك ، خاصة وأن هذا الشرك قد " سيطر على أعراف وعادات ، جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضا ويتقي بعضهم بعضا ، وجعلت الرجل - باسم كرامته الخاصة أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها - يعيش طول عمره وفق أوضاع وقبود من صنع الاستعلاء والتزمت (...) إن الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة جمعت الكثير من الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامية ، في نفاقاتها في صداقاتها ، في أحزانها وأفراحها ، في علاقاتها بحكامها .. ولم تكن تفسيراً عملياً لأحكام الإسلام وحدوده وفطرته وسماحته .. علماء لهم سميت الكهنة ، وحكام لهم سطوة الجبايرة ، ودهماء محصورون في طلب القوت ، ومساجد سامقة البناء يعمرها من لاهمة لهم ولاطموح .. وكان المسلمين إخوة لمن وجدهم ذو القرنين دون السدين (لايكادون يفقهون قولاً ..) (١) " (٢) .

إن تربية الغزالي القرآنية العميقة جعلته - وهذا مانستنتجه من تفكيره - يعتقد بأن أمر الخلط بين قيم الدين وثوابته الجوهرية وبين ما هو خصوصيات بيئية أو تقاليد خاصة ، يبعث على اضطراب السلوك والعلاقات الاجتماعية وبلبلة أو اهتزاز الأفكار وتوزع التصورات ، وهذا يعني أن الغزالي يدعو إلى تكوين خلفية صلبة في البناء الاجتماعي تمثل قاسماً مشتركاً بين كل المجتمعات الإسلامية ، تتحدد الأخلاقيات الأصلية المنبثقة عن الانتماء والولاء للمرجعية المعصومة ، من خلالها ، وهو مايكسب هذه المجتمعات قوة في البناء الاجتماعي الداخلي ، وهو مايقنضي جعل هذا المنظور جزءاً من برنامج العملية التربوية في العالم الإسلامي ، حتى يتأسس الوعي الخاص بهذه المسألة ويتعمق وفق مرتكزات ومبررات نابعة من الذات ومن الحاجيات التوجيهية التي يتطلبها التصور الإسلامي .

(١) سورة الكهف ، آية : ٩٣

(٢) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ص ٧٣

ثم إن الغزالي يحذر على الدعوة الإسلامية ويخشى على مستقبلها الانعكاسات المشينة لهذا الخلط ، فإن الغربيين - كما يتصوّر - ليسوا عباقرة كي يفرقوا بين أخلاقيات الإسلام الأساسية وبين عادات وأعراف الشعوب الإسلامية ، فهذا الخلط يجعل صورة الحياة الإسلامية أمام المعمورة شائهة مشوّهة ، ليس فيها ما يغري بفضول الاقتراب والتعرف على الإسلام من أصوله الأولى ، ثم إن شعوب العالم في الوقت الراهن - بحكم جهلها الموروث بالإسلام وتفاني أجهزة الإعلام الغربي في الإساءة للإسلام والشخصية المسلمة والهوية الحضارية الإسلامية - ترى الإسلام في مرآة السلوكيات المريضة و التقاليد الشائهة الزائفة عن البساطة و الفطرة السليمة ، المنتشرة في شتى مناحي العالم الإسلامي ؛ و علاج ذلك -برأي الغزالي- أن تحاكم الأمة الإسلامية تقاليدهما و اعرافها المختلفة إلى معيار الإسلام و حسب " فما وافقه بقي و ما خالفه ترك ، أما أن تطرق عواصم العالم الكبرى بتقاليد مزورة و تزعم أنها تعرض الإسلام (١) فهذا ضرب من التزييف أخطر كثيرا من تزييف النقود " (١) لذلك نراه يدعو و يلح على ضرورة مناقشة التقاليد العامة في المجتمعات الإسلامية " بين الحين و الحين ليعرف مدى توافقها أو تفاوتها مع أصول العقيدة و الفضيلة ، فإن العرف السائد قد يبدأ حسنا ثم تتحرف به تيارات محدثة فلا يصل إلى غايته ، و كم من تقاليد لو أعيد وزنها لرجع الناس عنها كلا أو جزءا ، و المعيار الثابت كتاب الله و سنة رسوله -صلى الله عليه و سلم- (...) و معنى هذا أن الدولة أمسى لها دور كبير في مجال التربية و أنها تملك من وسائل المحو و الإثبات ما يجعل تصرفها بعيد الأثر " (٢) إن القيام بهذا الجهد - في نظر الغزالي - ضرورة يفرضها واجب تبرئة الإسلام نفسه من أمراضنا و شهواتنا و أسماننا العقلية التي تغلف إشعاعه و حقائقه و تحجب نوره و هداياته عن الامتداد و السطوع في الأنفس و الضمائر و المسالك ، كما يحتمها كذلك واجب ومبادرة الإسهام في تجديد الدور الإنساني للمسلمين وإعادة بعث قيمهم الحضارية الأصيلة .

(٥) الجفوة بين العلم والحكم :

يلتقي تحليل الشيخ الغزالي المنصب على الاستقصاء والمعالجة المعرفية لجذور هذه الإشكالية المعروفة في المسار التاريخي لأمتنا مع الرأي الذي يذهب إلى أنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تعيش في كنف الاطمئنان والانسجام النفسي والروحي والفكري ، كما لا يقبل أي مجتمع - بفعالية ذاتية - على جهود الانهماك في عملية التنمية والبناء والإعمار في ظلال أجواء تبعث على التحفيز والإبداع والتقدم واستفراغ الطاقات والقدرات الكاملة ، إلا إذا كان هناك اللحام عضوي وانسجام تام في التصورات والأهداف والتطلعات والأمال - القريبة والبعيدة - بين مؤسستي العلم والحكم .. إن ما يعتقد الغزالي هنا - إزاء هذه المسألة - مقرر في الدلالة التاريخية لهذه العلاقة الجدلية كما يشير إليها الخط البياني لوقائع ومراحل

(١) محمد الغزالي ، مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ص ٢٧

(٢) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ص ١٨٦ - ١٨٧

حركة التاريخ الإسلامي ، فإن العالم الإسلامي قد عانى مرارة العلقم جزاء الانفصام بين العلماء والحكام ، أو بين " أمانة " الرأي الراجح ، و" عزيمة " التنفيذ المتبصر .. وقد ظلت دوائر الارتياب والانفصام والتنافي - طوال حلقات التاريخ المشار إليها - بين هاتين المؤسستين لاتضيق إلا لتتسع ، ولاتسكن إلا لتزداد حركة تململها شدة وضراوة ، ومن ثمة فإن الغزالي يصنف الآثار الناتجة أو المترتبة عن هذه العلاقة القلقة المتوترة - غير الطبيعية - والتي كانت نكسة و وبالآ على نهضة العالم الإسلامي ، ضمن أسباب تأخر المسلمين وتراجع دورهم في حركة الحضارة الإنسانية (١) .

لذلك فإن الغزالي يعتقد بأن الجهد والتتظير الإسلامي الأول - احترازا من التوقعات السلبية التي حدثت فعلا بعد ذلك في مسار المسلمين التاريخي - كان مكرسًا ومنصبًا على هدف إقامة وتأسيس المجتمع القوي المتماسك في منظومة مؤسساته مطلقا ، بحيث تكون صورته العامة تشبه أو تمثل الوحدة العضوية المتألفة المتسقة في بنائها ونسيجها العام ، وليس ذلك - كما سبقت الإشارة - إلا لإدراك وتصوير مساحة ومبلغ المفساد والمخاطر التي تتجرّ حتما ، أو تستتبع كارثة تفكك أو تشتت مؤسسات المجتمع وقواه الحيّة الفاعلة البنائية وتباين أهدافها وغاياتها في البناء الاجتماعي ومنهج العيش والتطور الحضاري ، فما أعظم إذن أن تكون " الدولة هي التي تشرف على سياسة التربية والتعليم والقضاء والتشريع ، بيد أن ذلك لا يتم على خير وجه إلا عندما تكون الدولة وليدة الدعوة ، والحكومة ثمرة الرسالة " (٢) وهذا يعني بدهاءة أن تكون هناك رسالة واحدة مشتركة يعمل الجميع - من شتى المواقع والمسؤوليات - لأجل بلوغ وإنجاح غاياتها وتحقيق مقاصدها ، فإن وهت علاقة طرف مابنك الغاية أو الرسالة اضطرب العمل وتبددت النتائج والآمال المتعلقة بالتنمية ومنجزات البناء الاجتماعي بشتى أبعادهما ... ومن ثمة ندرك مغزى تعظيم الخطاب الإلهي ونصوص الإسلام عامة لرسالة ومسؤولية ودور العلماء والحكام ، إذ بصلاحيهما ورشدهما تسعد الأمة وتأخذ طريقها نحو العلا والمجد والنهوض والإقلاع الحضاري .

٦) التردد والذهول عن الأخذ بالأسباب :

بالرغم من أن المنهج الإسلامي - كما هو مستخلص من التأمل في القرآن - يقيم البناء الفكري والعقلي والاستدلالي للإنسان المسلم على أسس علمية منطقية تجعل النتائج في أي فضاء أو مجال هي حصيلة أسبابها الذاتية الطبيعية ، بيد أن قطاعا عريضا من المسلمين - كما لاحظ الشيخ الغزالي - جراء عوامل الغزو الثقافي المبكر والجهل بفقده وحقيقة السنن الإلهية والكونية والخلط الموروث أحيانا في بعض المسائل العقديّة ، ظل يعتقد ويؤمن بعمق تام ، بكون الوصول إلى نتائج معينة في أي ميدان من ميادين

(١) ينظر على سبيل المثال فصل : الانفصال التاريخي بين العلم والحكم في كتاب الشيخ الغزالي (كيف نفهم الإسلام) وفصول : فساد قديم ، وسلطة روحية وزمنية ، وعلماء الدين ورجال الحكم في كتابه (من هنا نعلم) وفصل : أسباب انهيار الحضارة العربية ، في كتابه (حقيقة القومية العربية) ... الخ .

(٢) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ص ٩٧

النشاط الإنساني والإبداع العلمي ، ليس بالضرورة وليد مقدمات وأسباب مهّدت لها وأذنت - وفق سنن الله ونواميسه في الحياة والأحياء - بأن تظهر للوجود وتبرز للعيان ، قال تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (١) .. إن هذا الفكر المعتل المنحرف - الذي تسبب في تراجع المسلمين الحضاري - ليس نتاجا لمنهج التفكير والنظر الإسلامي ، بل هو حصيلة اهتزاز وخلل في المفاهيم والتصورات واضطراب في إدراك مقومات ومقتضيات البناء العقلي السليم .

ويذهب الغزالي في سعيه لتشخيص هذه المعضلة الفكرية ، إلى كون الجهود التربوية والعلمية غير المستندة إلى أسس وضوابط المنهج الإسلامي ، والتي قامت هنا وهناك في شتى ربوع ومناحي العالم الإسلامي ، تعتبر مسؤولة في المقام الأول عن هذه الفوضى الشائنة المعكرة لصفاء التصور الإسلامي ، فإن عددا كبيرا " من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق ، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري ، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع .. وأن الواجبات العادية قد تتخلف ، وأن قانون السببية - على الإجمال - غير ملزم ولا مطرد .. " (٢) .. إن هذا الهوس العقلي - إن صح معه العقل - المناقض لحقائق الكون والسنن العامة الصارمة قد لوى جهود النهوض الإسلامي وأزرى بالقدرات والاستعدادات الخلاقة الكامنة في العقل المسلم ، وجعل مراحل محاولات تخطي عقبات التأخر والانحطاط الحضاري والإنساني لدى المسلمين أرقاما على الماء وبذرا في الهواء ، فكيف لأمة أن تنهض وهي تقوم بهذا الخبال وبهذا الافتتات على العقل ؟ إن المؤمنين بهذا الهوس أو الجنون " جعلوا الدنيا لاتضبطها قاعدة ولا يحكمها قانون ، ومن المقبول عقلا وشرعا أن يتزوج رجل في المشرق بامرأة في المغرب وأن تلد منه على بعد الشقة ، لأنه قد يكون من أهل الخطوة ، أي ربما انتقل من المحيط الهندي إلى الأطلسي في لحظة ما من ليل أو نهار !! وهذا التصور المخبول لا ينضج معه علم ، ولا يصح فيه بحث ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحا عمليا في هذه الحياة .. والمقرر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون " (٣) .

إن هذه الآراء التي أفصح عنها تفكير الشيخ الغزالي تعد ثمرة من ثمرات وعيه بالقرآن ، وحسن فقهه لمقاصد وأصول الاعتقاد الإسلامي الحق ، ومن ثمة فهو يرى بأن هذه الجبرية الغريبة على منطق العقل المسلم ، لضررها في إلغاء إرادة وجدوى الفعل الإنساني وتوهين المسؤولية الفردية ، إنما هي مسلك في التفكير ظهر أثناء جدل الفكر الإسلامي مع الفلسفة اليونانية الإغريقية ثم ما لبث أن تسرب إلى معتقدات بعض المسلمين عن طريق بعض علماء الكلام والتصوف ، وحتى بواسطة بعض مفسري القرآن وشرّاح السنن (٤) إن هذا التوجه في الاعتقاد داء فادح الخطورة فهو يفتك بقيمة الوقت اعتمادا على بسط

(١) سورة القمر : آية ٤٩

(٢) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ص ٧٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠

روح التواكل و الخضوع ، كما يخذ أشواق الإرادة والمسؤولية الفردية استنادا إلى عنصر التوهم المغالي في جبرية الأفعال والأقدار المنسوبة أو المكتوبة على الإنسان ، وليس من شك أن هذا التصور ساهم في اهتزاز البناء المتوازن للشخصية الإسلامية ، فإتنا بقدر إدراكنا للقدر المطلوب واللازم من قوة الإرادة وسلامة التفكير لإحداث التغيير - على مستوى النفس والحياة والمجتمع - والقيام بمقتضيات التكليف ورسالة الاستخلاف عن الله والإعمار في الأرض والدعوة إلى الخير ونفع الناس بثمرات هذا المنهج ، بقدر إدراكنا لحجم تجني وافتنات مبدأ الجبرية على العقل المسلم والحضارة الإسلامية .. وهكذا نجد الغزالي لايفصل بين حركة التطور الحضاري وآلياتها وبين المناخ الفكري والعقدي الذي يمثل الخلفية الموجهة للإنسان باعتباره القائم والمسؤول عن صيغة وصورة التطور المرغوب في الواقع ، ومن ثمة فهو يتعجب في مرارة من كون الكثير من الكتابات الدينية الشائعة " جعلت (الولاية) مقرونة بخرق العادة ولما كان في كل قرية شيخ مشهور بالصلاح، ولما كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأسيخ العظام (!) ولما كان خرق العادة يقع منهم أحياء وأمواتا بطريقة يعتبر إنكارها جرما ، فإن سيلان الخوارق زحم العالم الإسلامي وجعل قانون السببية لغوا ، وكان لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا واختلال ثقافتنا .. والشيء الذي نقف عنده قليلا هو هوس بعض الكاتيبين في إثبات الولايات وخوارقها وكان الرسالة الإسلامية ماجامت إلا لإثبات هذه القضية !! والذي بدا لي أن هذا الهوس يرجع إلى التعلق بغير الله تعالى ودعاء المقبورين لعمل العجائب ! فإذا قلت : رجل مات ماتنتظرون منه ؟ قيل : إنه - حيا أو ميتا - يفعل بقدر الله .. فالتعلق به لاينكر ، فإذا اعترضت جاء الاتهام السريع : أنتكر كرامات الأولياء؟! .. وأمة يدور تفكيرها في هذه القوقعة كان لا بد أن تنهار أمام أعدائها " (١) ففي يقين الغزالي إذن كما نلاحظ أن هذا اللون من الفكر الديني المنحط والوعي الموميائي المتكلس - بتضافره مع عوامل أخرى ، وتسببه في توهين إشعاع الاعتقاد والتصوير الإسلامي الصحيح الناضج - قاد المسلمين إلى التأخر في شتى الميادين ، وعطل وتيرة وقوة الدفع التتموي والحضاري في مسيرتهم التاريخية ، وذلك حكم عدل وسنة إلهية نافذة .

(٧) اختراق المعرفة الدينية والتراث الثقافي الإسلامي :

المناخ الثقافي والمعرفي السليم المعافى من الخرافات السمجة وطفرات اللامعقول له مردوده الطيب على تقدم الأمة وتطورها الحضاري والإنساني ، لذلك فإن وعي الشيخ الغزالي بهذا الموضوع واعتقاده بعدم صفاء ونقاوة تراث الثقافة الإسلامية ومدى إسهام وانعكاس هذا الخلل في تأخر المسلمين ، ساقه إلى إنشاء عدة أبحاث وتأليف مجموعة مؤلفات لمعالجة هذه القضية وكشف بواعثها واستقصاء تداعياتها ، منها بشكل أخص - فضلا عن الأفكار المتعلقة بالموضوع المبتوثة في أطواء كتاباته الثرة - كتبه : (ركائز الإيمان بين العقل والقلب) و (الجانب العاطفي من الإسلام) و (كيف نفهم الإسلام) و (تراثا الفكري في ميزان الشرع والعقل) و(ليس من الإسلام) و(علل وأدوية) ...

ولقد ناقوس خطر التغاضي عن صوغ الحلول الملائمة النابعة لهذه الاشكالية وأثر ذلك على نهضة المسلمين ، وتعميق مستويات الوعي والاستيعاب الخاصة بهذا الموضوع تحديدا نرى الغزالي يلجأ إلى استعمال أسلوب قياس الحقائق المعنوية على الظواهر الحسية المرئية وذلك كما في قوله مثلا : " من المشاهد أن للأجواء الرديئة أثرا في صحة الأبدان ، فإذا ركذ الهواء و انتشر الغبار و تطايرت الأدخنة و الأكدار و طال الأمد على هذه الحال فإن السقام يتخلل الأجسام و الشحوب يكسو الوجوه ... و من المشاهد أن للأغذية المنقوصة أو المضطربة مثل هذا الأثر أو أشد ، فقد يتغضن الجلد و تملؤه البثور ، و قد يلين العظم و يتعرض للكسر ، و قد تعتل الحواس و تختل وظائفها ؛ و لن تعود للأجسام المريضة صحتها إلا إذا استكمل الغذاء المفقود و توفرت العناصر المطلوبة .. و إذا كانت هذه المشاهدات موضع تسليم في حياة الناس المادية فيجب أن تكون كذلك موضع تسليم في حياتهم المعنوية ، فإن للقلوب و العقول أمدادا تصح بها و تنمو ، و لها أغذية تقوى بها و تسمو فإذا عرا هذه الرواقد الماسة كدر أو طرأ عليها نقص ، فلا محالة تمرض معنويات الأمم ، و إذا استمر هذا العوج فلا تنتظر إلا ضمورا فكريا أسوأ من ضمور الأبدان المسلولة ، و عجزا أنكى من عجز الحواس المشلولة . و قد نظرت إلى الأمة الإسلامية فوجدت أوضاعها العامة تدعو إلى الرثاء . إن الخدر سرى في كيانها حتى لتحسبه أعراض موت ، و الأعداء تجمعوا حولها و ما في نية أحد منهم إلا أن يسلب أو يغصب ، و كأنهم أمام تركة مفلس قرر الإنسحاب من ميدان العمل و الزحام ، و الذي يغفل النظر في علل هذه الأمة يلحظ على عجل أنها تتنفس في جو فكري خائق ، و أن تغذيتها النفسية و الاجتماعية و العقلية و العاطفية رديئة أشد الرداءة ، و هي تغذية لاتفقد فحسب عناصر حيوية مهمة ، بل إن في بعض أجزائها عفونة و في البعض الآخر سموم !!! (١) . "

إن تشخيص و تحليل الشيخ الغزالي هنا يشير إلى نتيجة واقعة و قائمة بالفعل هي الدخن و ألوان العلل التي أصابت قنوات و مظان التراث الثقافي الإسلامي ، أما العوامل و الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة فكثيرة و متداخلة أحيانا إلى حد التعقيد ، و إن كان الغزالي يضع في مقدمتها الانحراف بالنشاط العقلي و الذهني إلى دراسة و استكناه ما وراء المادة ، بالرغم من أن التكليف في الإسلام أساسها الآيات المحكمة ، و أن العقل البشري ليس سبيله البحث و الاستغراق في المتشابه مما هو فوق طاقته أو ما يتناقض و خواصه المودعة في خلقته ، و منها كذلك الشروح النظرية المطولة - دونما سبب واضح أو معقول - للعقائد و العبادات الإسلامية ، الأمر الذي أظهر خلاقات هامشية لم يفد منها الإسلام شيئا ، فقد وجد في تاريخنا العلمي - كما يشير الغزالي - من يؤلف مجلدات في غسل الأطراف ! و يذهل عن معالجة قضايا الحكم و المال و ضبط التقاليد و مشكلات المجتمع المستجدة بأحكام الإسلام و فكريته و تصوره الحضاري و الإنساني ، و منها أيضا توجيه الفقراء و ذري العاهات و أصحاب الكفايات الدنيا و الضعيفة إلى التعليم

(١) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (مصدر سابق) ص ٧ - ٨

الديني والثقافة الذاتية ، ومنها تسرب الإسرائيليات والخرافات والنصرانيات وغيرها إلى معارف المسلمين الدينية (*) بالإضافة إلى وجود الأحاديث والآثار والمرويات الضعيفة والموضوعة في ثيابا وأطواء هذه المعارف ، ناهيك عن الاضطراب الموروث وغياب منهج قرآني استدلالي في التعامل مع السنة النبوية المطهرة يجعل نص الحديث بدلالته وسياقه يدور في فلك معاني القرآن ومقاصد شرعته العامة وينهي تناقض الآراء والفهوم التي يعتقد كل منها أنه يمثل مراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؛ ومنها كذلك القصور العقلي والفكري لدى الكثيرين ممن يشتغلون بالمعارف الدينية ، مما أوجد في ميدان الثقافة الإسلامية أنصاف وأشباه متعلمين نشروا التدين المغشوش إلى جوار أسمال تتم عن تصورات وأفهام موغلة في الرداءة والانحطاط ، واستطاعوا جعل الفروع أصولا ، والأصول فروعاً ، فأصبح الإسلام عندهم " يحد من جهاته الأربع بلحية في وجه الرجل ونقاب على وجه المرأة ، ورفض للتصوير ولو على ورقة ، ورفض للغناء والموسيقى ولو في مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة .. " (١) بل إن هذه الأمور الفرعية قد تعد عندهم ذروة الدين وسنامه ومعقد الإيمان الصحيح ، ودلالة الصلاح والاستخلاف عن الله في الأرض ، ولاريب أن ثقافة سرى في أوصالها أمثال ونظائر هذه العلل والأدواء - كما يعتقد الغزالي - كفيلة بأن تحيل الأمة التي تقف من معيها وتصوغ أفكارها ونظمها في الحياة على ضوء من هديها ومعطياتها ، إلى رميم هامد أو كيان خامد ، وبأن تجعل منها أمة تابعة هشة تتخبط في عقابيل الانحطاط والانهازم الحضاري والإنساني ، وتلك سنة من سنن الله الكونية والاجتماعية ، فالله تعالى لم يكلف الكواكب بأن تدور حول حصة ، ونظام الحضارات والعلاقات بين البشر يشبهه أو يناظر نظام الأفلاك الذي يقضي بأن تدور الكواكب الصغيرة - طوعاً أو كرهاً - حول الكواكب الكبيرة ، فهي محورها العتيد لاتحيد عنه ، حتى تتغير الموازين وتآذن بالتداول وفق السنن والقوانين ذاتها (٢) .

٨ الميل بالفكر إلى التجريد على حساب البحث في المادة:

لم يغيب عن الشيخ الغزالي الانتباه إلى الاختلال الذي وقع فيه العقل المسلم وفقده للموازنة بين المعقول والمنقول وعالم الغيب وعالم الشهادة ، وهو ما كان له أثره السلبي على نهضة المسلمين المدنية وإفلاصهم الحضاري ، ويظهر تأثير الشيخ واضحا بهذا الخلل في كتاباته ومقولاته ، فقد كانت بعض

(*) يرى الغزالي أن هناك غزوا ثقافيا مبكرا تسلل إلى تراث المسلمين الثقافي ، وأن هذا الغزو لم يجد المواجهة العلمية المنهجية حتى الآن (يمكن قراءة مقدمة كتابه : ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، وكذا فصل : ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة ، وفصل : الإيمان بالغيب ليس إيمانا بالوهم ولا إيدانا بالفوضى ، في هذا الكتاب) (كما مراجعة فصل : أغلفة تغطي الحقيقة العظمى ، وفصل : توضيح الصورة ومنع الغيب ، في كتابه : تراثنا الفكري..)

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ص ٦١

(٢) للتوسع هنا يمكن النظر في فصل : مساوى التعليم الديني في كتاب الشيخ (كيف نفهم الإسلام) وفصل : أسباب انهيار الحضارة الإسلامية في كتابه (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر من ص (٦٠) إلى ص (٦٣) ، وفصل : العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الاستعمار ، في كتابه (سر تأخر العرب والمسلمين) .

العبارات مثل " المسلمون ثرثارون في عالم الغيب خرس" في علم الشهادة " .. الإيمان بالغيب ليس إيماننا بالوهم ولا إيذانا بالفوضى" .. "يستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال إن في الإسلام ما يناقضها" .. "الإسلام دين يقوم على احترام العقل ونبذ التخمين والأحساس ، وعلى إعظام الكون ولفنت النظر إلى ما في بنائه من روعة وجلال " .. الخ ، تتردد على لسانه وتجري على قلمه ، وهو ما يعكس هموم الشيخ التي نشوي بمرارتها في أعماق نفسه جرأء تأخر المسلمين بسبب انحراف العقل المسلم عن المنهج القرآني في الاستدلال والنظر والاستقراء ، لذلك فإن الغزالي وهو يروم معالجة هذه العلة يشدد على أن هذا الخطأ الجسيم في تفكيرنا الإسلامي ينبغي تداركه على الفور ، لأنه مع الأسف قد " وقع فيه القدامى ووقع فيه المحدثون ، وكان له أثر وخيم على وحدتنا الأولى ويوشك أن يكون له نفس الأثر على نهضتنا الحديثة ، هذا الخطأ يرجع إلى قلة التفكير أو انعدامه في حقائق الكون وخصائص مادته وأحوال المخلوقات المختلفة، مما جعل قسما كبيرا من ميراثنا الثقافي الإسلامي بحثا لاهوتية نظرية خاض فيها المتصوفة والمعتزلة وساهم فيها علماء الكلام من سلف وخلف ، على حين قلت العلوم الطبيعية والمعارف الكونية العلمانية .. مع أن منهج القرآن الكريم يقوم على عكس هذا الاتجاه تماما (...) والعجب أن عوام المسلمين الآن يعتقدون كثيرا من هذه الأفكار ، فمنهم من لا يحسن كسب قروش يفتات بها ويريد أن يكلمني عن وحدة الوجود ، ومنهم من لا يحسن أن يخط الألف ويريد الكلام في حقيقة الصفات العليا ، ومنهم من لا يميز بين تصرفه وتصرف الحيوان ، ومع ذلك يخوض في فلسفة الجبر والاختيار أو فلسفة المعرفة والعمل ؛ ماذا كان يحدث لو اتجه التفكير الإسلامي اتجاها عمليا منتجا ؟ أما كان يجند هؤلاء وأمثالهم لخدمة الدولة ونفع المجتمع ، بدلا من هذا الهذر البعيد عن نصوص الإسلام وعن روح الإسلام ، والذي يعتبر أصلا هاما من أصول تأخرنا المعيب ؟ (١) .

إن الغزالي حين يشدد النكير على هذا الخلل ، وحين يرصد أثره في تأخر نهضة المسلمين ، فإنه يحاول وضع البلسم على الجراح وإنهاء آلام هذه العلة داخل الكيان الإسلامي ، ويدعم جهود مفكري الحضارة الإسلامية في هذه السبيل ، من أمثال مالك بن نبي ، فالغزالي ممن يعتقدون بأننا باستدراكنا على أخطائنا التاريخية ، وبتصحيحنا لمزلقنا ومثالبنا المنهجية ، فإننا نعتبر بذلك حقا - شرط تطبيق نتائج هذا الاستدراك والتصحيح في الممارسة والواقع - " نؤدي رسالة الإسلام ونستحيي حضارتنا الأولى ... ونعقد الصلح الواجب بين الإيمان والعلم ، ونقطع الطريق على التكتين للمغشوش حين يحاول فرض نفسه على العالم بالكهانة والتهويم " (٢) .

(١) محمد الغزالي ، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) محمد الغزالي ، علل وأدوية (مصدر سابق) ص ٢٤٦

٩) الجمود الفكري وتعثر مسار حركة التجديد والاجتهاد:

يفهم من خلال تتبع كتابات الشيخ الغزالي أنه يعتبر الجمود العقلي الذي توارثه المسلمون واختلاق العقبات والسدود في طريق حركة التجديد والاجتهاد وملاحقة المستجدات الطارئة بالتنظير والمعالجة والترتيب ، من أسباب تأخر المسلمين وتراجع دورهم في حركة ووتيرة تراكم الإسهامات والإبداعات الحضارية والإنسانية ، ولعله يكفي للوقوف على حماس الغزالي وميله الشديد لبعث وإحياء حركة التجديد الفكري والحضاري والاجتهاد والتنظير والتفاعل الواعي في حياة المسلمين ، التأمّل في بعض مقولاته من مثل : " لم هذا الخس من قيمة الثمار التي وصل إليها غيرنا في أفق المصالح المرسلّة ؟ وما معنى الركون إلى آباءنا وحدهم إذا كانوا قد قصّروا في ناحية فاقهم فيها غيرهم ؟؟ " (١) أو قوله في المعترضين على مبدأ التفاعل والتلاقي الحضاري فيما هو مشترك إنساني عام : " إن حضارة الغرب لم تكن جهد أهله وحدهم ، فلولا ماقدّمته حضارة الإسلام لأوروبا ما انتعشت أوروبا ولا سادت ، فلماذا يعزّ علينا أن نستردّ ما وهبنا ؟! أحسب أن إهمال النشاط الإنساني في الميدان العقلي بعدّ عن الإسلام يضارع الابتداع في ميدان العبادات .. إن الغلوّ بالزيادة في المنقول ، كالغلوّ بالنقص من المعقول .. كلاهما شطط عن الحق وجور عن الصراط " (٢) أو قوله في السياق ذاته : " علينا نحن المسلمين أن نحصد مع الحاصدين أينع ما أثمره الاجتهاد الحر " (٣) .

إن غلق باب الاجتهاد خلال القرن الخامس الهجري له بواعت وأسباب معقدة ، ينبغي لمن رغب في معرفتها حق المعرفة أن يعود لتقصي ملبساتها بدراسة الأحوال العامة التي اكتفت الأمة الإسلامية إبان تلك الحقبة من تاريخها ، والغزالي يعتقد بأن حدوث هذا الأمر يستحيل أن يكون لأسباب وغايات علمية بحثة ارتأها العلماء وقادة الفكر في جو تسوده الحرية والاستقلال في النظر والترجيح ، وأياما كانت البواعث و الأسباب الحقيقية ، فإن الغزالي يرى بأن وقوع هذا الخلل منذ القرن الخامس الهجري ، قد فوّت على الأمة الإسلامية الكثير من المصالح ، وأفضى بالأمة إلى حالة من الاضطراب الشديد في ألوان تفكيرها وأنماط مؤسساتها ، أي إلى تأخر حضاري إنساني بعيد الغور ، ومن أجل توضيح الصورة وتقريبها من المدارك يعطي الغزالي مثالا عن آثار جمود حركة الاجتهاد والتجديد على المؤسسات السياسية للأمة والفكر السياسي الإسلامي ، مما جعل أمما أخرى تسبق في هذا المضمار سبقا بعيدا، يقول : " .. لكن الحفاظ على الدم والمال والعرض ليس اختراعا إسلاميا ، بل هو مبدأ إنساني عام تتواصى به الأجناس والأجيال ، فإذا وجدنا قبيلة من الأرض ، أيّا كان لونه ودينه ، علمته آلام الطغاة أن يحكم السدود أمام مظالمهم ، وأن يضاعف الحيطة ضد عدوانهم ، وأن يبتكر لذلك من القوانين ، ويصوغ من المواد

(١) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (مصدر سابق) ص ٢٤٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ما يوفر بين الناس مزيداً من الأمن والعدالة ، فأى حرج في أن ننقل أو نقتبس بعض أو كل هذه الوسائل التي نراها أجدى في تحقيق غايات جاء بها ديننا ووصانا بها نبينا ؟؟ إن الظلم من شيم النفوس .. وهو في سياسة الحكم والمال آفة البشر منذ درجوا على ظهر الأرض ، ومهما بلغت زواجر الدين فهي لا تحمي الشعوب نزوات الجبارة إذا خلا لهم الجو ومالت بهم نشوة السلطة (...). إن الإسلام استهدف العدالة السياسية والاجتماعية يقينا ، وترك وسائل تحقيق هذه العدالة وفق أطوار الزمان ومصالح الناس ، وإنه لمن معصية الله أن نغلق باب الاجتهاد منذ عشرة قرون فإذا صحونا بعد رقاد مشنوم حسبنا أن العالم نام كما نمنا، وسد منافذ الاجتهاد كما سدنا ، ثم قررنا أن نستأنف السير عندما وقفنا .. أي من ألف عام !! دون اكتراث لآثار اليقظة الفكرية والاجتماعية التي شملت الدنيا كلها في هذه السنين الألف !! (١) .

فالشيخ الغزالي بهذه الرؤية يحاكم تأخر المسلمين إلى العوامل الزمنية ، فإن غير المسلمين تمكنوا بحسن استغلالهم لعدة عوامل ، وتجمع بعض الظروف المناسبة في واقعهم ، من إحداث النهوض الحضاري ، بينما فقد المسلمون الإحساس بقيمة الوقت بسبب الخدر الذي سرى في أوصالهم وكيانهم ، وباتوا لا يشعرون بتقدم غيرهم ونهوضهم من كبوتهم ، أما العقل المسلم فقد كان يعيش حالة من الترنح والتحرك العشوائي بعيدا عن التفاعل المنهجي مع قضايا الأمة الحقيقية وواقع مؤسساتها الحيوية ، فلا غرو بعد ذلك إذا وجدنا الغزالي يلح على ضرورة أن يتحرك الفقه الإسلامي والاجتهاد الإسلامي لمعالجة المسائل الحيوية والاستراتيجية للأمة خدمة لمصالحها المركزية وتفعيلا لبعث دورها الحضاري من جديد مستقبلا، لاسيما أن البواعث الحساسة والضرورات القصوى - كما يرى الغزالي - صارخة بأن " الإسلام اليوم يحتاج إلى جهود ذكية دعوب في الفقه الدولي والفقه الدستوري والفقه الإداري ، وإلى ملاحقة ما تجدد في عالم المال والتجارة وشئون العمل والعمال .. الخ ، وقد تغيظت لأن بعض المنسويين إلى العلم الديني حاول الاجتهاد فذهب إلى دورات المياه ودور العبادة يستعرض عضلاته العلمية هناك .. مسكينة أمتنا " (٢) .

١٠ الهزيمة النفسية وضعف الولاء لهوية الإسلام الحضارية :

يذهب الغزالي إلى أن الإسلام تمكن - في فجر البعثة المباركة - من صهر كل الأجناس البشرية في بوتقة واحدة وحضارة واحدة متسقة الوجهة والغاية وإن كانت في مضمونها تقوم على التعدد والثراء والإبداع ، وقد عرفت تلك الأجناس والشعوب الخصائص الأولى للإسلام ، ومن ثمة فقد استقبلته استقبال المقرور للدفع ، أو استقبال العليل للدواء الناجع ، وكان هذا الإخلاص المطرد مع رسالة الدين الجديد عامل نصر لقيم الإسلام ومنظوره الحضاري والإنساني ، بيد أن هذه الانطلاقة البديعة لم تلبث أن اعترها خلل فظيع ، ربما كانت جرثومته كامنة في أعماق الكيان القوي الهائل ، تتحين الفرصة الملائمة

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩

(٢) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٨ م) ص ١٤٧

للظهور؛ هذا الخلل هو المنازع العصبية ، أو تقديم الولاء للدم والجنس واللون على الولاء للدين والعقيدة ، فظهرت الشعوبية ، وظهرت الدعوة للقومية ، وكادت رابطة الإسلام التي جمعت في تآلف عجيب العرب والروم والفرس والترک وشعوب الملايا والهنود والزنج وسائر أجناس البشر من أصفر وأحمر وأبيض ، أن تنسى في غمار ضجيج هذه الجاهلية المقيتة ، وإن كان بصر الغزالي بالتاريخ الإسلامي ساقه إلى أن تسمية مزاحمة الفرس مثلا أو بعض الأجناس الأخرى للعرب من أجل تحصيل القيادة أو الإدارة أو الوظائف المرموقة ، شعوبية هو خطأ ديني وتاريخي ، فالشعوبية عنده هي أن يزهد قبيل من الناس في ولائه ونسبه الإسلامي مؤثرا عليه معينه القومي ونسبه الخاص ، وإنه من " حق المسلمين في عصرنا هذا وقبله بألف سنة ألا يفكروا في تولية أمورهم قرشياً بل يتحرون الكفاية حيث كانت ، ثم يسرون وراءها .. خصوصا بعدما رسخت أصول الإسلام في أجناس شتى ، وواتت الفرص شعوبا كثيرة في الشرق والغرب لتخدم هذا الدين بأمانة وشرف ، إن قرشياً لم تحتكر قيادة الإسلام إلى قيام الساعة ، وما يكون لها هذا ، وما ينبغي لأحد ما أن يحسب ولاية المسلمين حكرا في بيته أو في بني جلدته " (١) .

وفي يقين الشيخ الغزالي أن الكثير من المزالق والعثرات والأخطاء التاريخية التي اقترفها المسلمون إبان قرونهم الأولى لو تم تفاديها لكان ذلك أجدى على الإسلام وحضارته ، والشيخ حريص على إنصاف الحقيقة وحدها ، فذلك ما يوجب الإسلام على علمائه وبنيه ، ومن ثمة فهو يعتقد بأن العرب هم الذين بدأوا بالخطأ ، فإن الأمجاد لاتورث ، وإن الأمم والشعوب لاتعلو ولاتسفل خبط عشواء ، وليس هناك دم أشرف من دم ولا جنس أفضل من جنس ، وليس هناك شعب مختار حبه العناية العليا بميزات وخصائص ليشراف بها إلى آخر الدهر .. وقد " ذهب العرب بأنفسهم وفاخروا بآبائهم ، والمدل بنفسه لن يعدم من يلقاه بالعاطفة نفسها ، بل من يكن له الضيق ويتمنى له العثار .. ولم تصب مكانة الإسلام الرئيسية أول الأمر بخدش عند هؤلاء وأولئك ممن يتيهون بالآباء ، لكن إذا كان العرب يتحدثون عن أصولهم ، فهل يسكت الفرس ؟ (...) ونحن نكره هذا الخلط فليس من حق العرب أو الفرس أن ينوّهوا بقوميتهم ، أو يثوروا إليها في جد أو هزل ، لأن الإسلام رفض هذه النزعات جميعا وقضى عليها ، وهذه العصبية المقيتة كانت ولاتزال مصدر بلاء فادح الضرر على المسلمين ووجدتهم وعلى الإسلام وتعاليمه ... نعم إن النزاع بين هذه العصبية قطع أو اصر أمر الله أن توصل ، وأحيا مطامع أمر الله أن توبق ، وقدم رجالا ماكان لهم أن يتصدروا وأخر أئمة ماكان يليق أن يهدروا ، وشغل المسلمين بعضهم ببعض ، وكان حقا عليهم أن يشتغلوا بكفاح عدوهم لابتكافح أهوانهم (٢) " .

إن مسألة العصبية والقوميات كما يرى الغزالي أسهمت بشكل واضح - كما يبدو في حركة التاريخ الإسلامي - في إضعاف الولاء والانتماء للإسلام ، وقد انعكس أثر ذلك - مع الأسف -

(١) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية (القاهرة : دار مكتبة العروبة ، د.ت) ص ١٧٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ - ١٧٥

على صورة الحكم أو الخلافة والممارسات السياسية وبعض التفاعلات الاجتماعية ، مما أزرى في كثير من الأحيان بقيمة ووزن هذا الحكم ، ويذهب الغزالي إلى أن تلك النقائص والأخطاء قد حسبت تاريخيا على الإسلام نفسه ، وهو ما ينبغي تجلية حقيقته إنصافا لهذا الدين فإن " الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل قد اقتصرت أخطاء اجتماعية وسياسية خرجت بها على نصوص الكتاب والسنة ، وهذه الأخطاء لم تحسب على أنها سياسة ملوك جوررة ، بل حسبت على أنها هدى الإسلام نفسه ، وذلك مثار سخطنا نحن الذين نعرف الإسلام من أصوله القائمة لا من أعمال الذين انتسبوا إليه وجاروا عليه ، والحقيقة التي نضحت بها أقوال الأئمة الراسخين في العلم ، أن الطريقة التي سار عليها جمهرة ملوك بني أمية والعباس وعثمان لم تكن تعبيراً دقيقاً ولأميناً عن الحكم الإسلامي لافي الداخل ولافي الخارج ... وأن هذه الطريقة اختلط فيها الحق بالباطل والهوى بالإخلاص والنصح بالغش على نسب متفاوتة أشد التفاوت " (١) .

وفي الوقت الحديث والراهن يعتقد الغزالي بأن الهجمة الإيديولوجية العنيفة التي قادها الغرب ووظف فيها قواه وإمكاناته المادية والفكرية والتبشيرية والاستشراقية ونحوها ، أوجدت وأنبئت في العالم العربي والإسلامي طلائع غزو خسيس ، تمثلت في بعض حملة الأعلام والساسة ورجال الفكر والصحافة والفن والاقتصاد والأعمال وغيرهم .. تقوم معتقدات تلك الجحافل الممسوخة على أن المبدأ الذي يستحق التضحية والبذل والنضال في سبيله إنما هو الانتصار للجنس والدم والأرومة وليس للدين والعقيدة والمثل العليا ، وقد تصدى الغزالي بشدة وحزم لاتجاههما لدى مفكري الإسلام المعاصرين ، للفصيل العربي من هذا التيار وأظهر فيه كتابه الشهير " الخديعة : حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي " ، كما أنه ينعى ويصف المؤمنين بأفكار هذا التيار وطروحاته في كل العالم الإسلامي ، بالمرتدين (٢) ؛ وذلك لجدهم الولاء للإسلام أو اعتباره في أحسن الحالات أحد مقومات الشخصية الوطنية ، أو أحد العوامل المؤثرة في تاريخية الثقافة القومية وتراكماتها المتنوعة !! ويذهب الغزالي إلى أن روافد القوة التي تمد هؤلاء من الخارج قوية ثرية ، لأن الغرب لا يريد للعالم الإسلامي أن ينهض ويتقدم ، ومن ثمة فهو يقوم بحملة ماهرة لوضع العقابيل والأوهاق في طريق إقلاص العالم الإسلامي الحضاري ، بالرغم أن الغرب قد مرّ بفترة انحطاط قاسية وأن العالم الإسلامي تركه ينهض في هدوء ، ولم يتم التفكير أصلا في إحباط وإعاقة محاولات نهضته ، وصفوة القول هنا أن الغزالي يعتقد في رسوخ بكون إضعاف ورجّ الولاء والانتماء للإسلام وعقيدته ، وزحزحتهما عن مكانهما العتيد في فكرية الإسلام ومذهبيته العقديّة والحضارية ، يمثل أحد أخطر العوامل في تأخر المسلمين وتغلب تيار الجزر على تيار المد في رحلة وحركة تاريخهم الإنساني والحضاري .

(١) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (مصدر سابق) ص ١٩٤ - ١٩٥

(٢) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (مصدر سابق) ص ٢٠٨ - ٢١٠

ثالثاً: رؤية الغزالي لعلاج مشكلة تأخر المسلمين

ظلت مشكلة تأخر المسلمين تؤرق الغزالي منذ وعيه بالقرآن ورسالة الإسلام الحضارية إلى آخر لحظات عمره ، وقد انعكس ذلك وبدا جلياً من خلال مشروعه الفكري ، إذ عمل الغزالي بجدية تامة على فتح عقول قرائه ومتابعي عطائه الفكري ، وتمكينهم من الوقوف على فلسفة الإسلام ومنهجه في بناء الأمة وتأسيس الحضارة وتأهيل الإنسان ، باعتباره خليفة لله في أرضه ، فالحضارة الحقّة التي تسعد الإنسانية والعمران الصحيح الذي يساعد على تحقيق الغاية من الوجود لا يكونان إلا باستشعار وتقدير مسؤولية وروح هذا الاستخلاف والإصلاح في الأرض ، ويتضاعف ألم الغزالي ويزداد توتره كلما لاحظ اتساع البون واندياح الفوارق الحضارية والاجتماعية بين الأمة الإسلامية وبقية الأمم ، بما في ذلك الأمم الوثنية والتي ماتزال تقدس وتعبّد العجول والأبقار والأوثان .. يقول " لقد تدبرّت أحوال دول ماتزال تعبّد الأصنام فوجدتها وصلت إلى حد الاكتفاء الزراعي ، وقفزت إلى الصناعات الالكترونية وفجرت القنبلة الذرية ، واستقرت فيها الأنظمة الديمقراطية .. ورجعت البصر إلى أمّتي فوجدتها دون ذلك كله، فازداد حسي بخطورة ماالنتهينا إليه ابل لقد تأكد لدي أن الحضارة الغربية .. قد تبقى عصراً آخر لايعلم إلا الله مداه ، مابقي المسلمون رسمياً وشعبياً على هذا المستوى من الإسفاف في نواحي حياتهم الفردية والاجتماعية لأنهم لن يصلحوا بديلاً لوراثة الأرض " (١) .

إن هموم الغزالي توطنت أعماقه وأحاسيسه وهو كالتبيب الماهر الوفي يشخص الداء ويفكر في تركيب الدواء واستيفاء أدوات ووسائل العلاج ، والذي يلاحظ أن ماعمق تلك الهموم والتوترات في نفسية الغزالي وشعوره ، ظهور تلك المفارقة العجيبة التي تتجلى فصولها أمام أنظار أمم المعمورة ، إذ يبدو المشهد لغير الفاقهين وكأن الإسلام هو الذي أضر المسلمين ، بينما الحقيقة صارخة بأن المسلمين ماتأخروا إلا لبعدهم عن الإسلام وتعاليمه ومقاصده ، هذه المفارقة العجيبة هي التي جعلت أحد الحكماء يقول : (الدنيا اليوم رجلان رجل نام في النور ، ورجل استيقظ في الظلام !!) .. ومن ثمة فإن جهود الغزالي انصبت على تيرئة ساحة الإسلام مما حلّ بالأمة من انحطاط إنساني وإحباط حضاري ، بقدر العناية بمحاولات الاستنهاض والترشيد للمداخل الصحيحة لتحقيق الإقلاع الحضاري والتغلب على العطل والفتوق التي يعاني منها الجسم والكيان الإسلامي ، لذلك فنحن نجد الغزالي يشير إلى تلك المفارقة العجيبة فيقول مستخدماً الأسلوب الذي ألمحنا إليه : " ليسأل المسلمون أنفسهم : مامأتى هذا التخلف الشائن ، في فقه الطبيعة واستكناه قوانينها واستخراج دفائنها ؟ أجاى هذا التخلف من اتباع القرآن ؟ كيف وهو الكتاب الذي يؤسس اليقين على ركائز التفكير والبحث ، ويسخر لبني آدم فجاج البر والبحر والأرض والسماء ومابينهما ، إن من التخلق بالقرآن أن يكون رقي المسلمين العلمي مكافئاً لحديث كتابهم عن الكون وآياته والحياة وروائعها، إنهم بهذا التقدم العلمي يحيون على مستوى كتابهم ، ويقدرّون على خدمة رسالته بما يتّجه التفوق العلمي من إبداع صناعي وتنظيم عمراني .. ولنعترف بأن هناك مسلمين يتدحرجون على

(١) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٦ م) ص ١٣٤

السفوح لا يدرون من أسرار الكون الكبير شيئا ، على حين استطاع أقوام لا يؤمنون بالله ، أو يؤمنون به على غموض وشرك ، استطاع هؤلاء وأولئك أن يقتربوا من فطرة القرآن بيقظتهم العقلية العارمة ، وأن يحرزوا من التقدم المادي المجرد ، ما أثار في الحياة الفتنة والحيرة !! (١) .

وبمقدورنا بعد مراجعة تراث الغزالي الفكري استنتاج عناصر ومقومات علاج تأخر المسلمين الحضاري والإنساني ، والتي نقدر أن الشيخ يراها تكمن أو تتمثل - حسب فهمنا وفقهنا لتراثه الفكري - فيما يأتي :

أ- دراسة واقع الأمة على ضوء هدايات الوحي الكريم وسنن الله الكونية ونواميسه في حركة الحياة والأحياء وسير المجتمعات والحضارات ، والاعتراف من هذا المنطلق بالمعاصي التي اقترفت في مناحي العالم الإسلامي ، سواء أكانت هذه المعاصي والأخطاء سياسية أو اجتماعية أو خلقية أو فكرية أو اقتصادية أو عسكرية .. الخ ، لأن هذه الخطوة - مع الاخلاص والشجاعة - كفيلة بأن تحقق التوبة والانعطاف الصحيح نحو الحياة الإسلامية والمنهج الأرشد ونهضة الواقع الإسلامي .

ب- القيام بجهد جماعي مؤسسي منظم وشامل لمراجعة وغربلة المعارف الدينية والتراث الثقافي والفلسفي الإسلامي ، قصد محاكمته ووزنه بمعايير الوحي المعصوم وردة إلى فطرة الإسلام السائغة وعقلانيته المشعة ووسطيته المتألقة ، كي لا تتوارث ولا تنتقل الخرافات والعلل إلى العقل المسلم في أطواء الموروث الثقافي الإسلامي وقنوات الثقافة والمعرفة الإسلامية ، وحتى تستطيع الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بناء الشخصية المسلمة المتوازنة المؤهلة لإبداع الفعل والسلوك الحضاري وأداء رسالة الإعمار والاستخلاف عن الله في الأرض .

ج- تجديد الحياة الإسلامية وإثراء الفكر الإسلامي والمعرفة الإسلامية ، وذلك ببرد مكانة الاجتهاد لموقعها العتيق وإعادة بعث وتفعيل قيم العقلانية والواقعية والأسلمة والتجديد والمبادرة داخل منظومة إحياء وإصلاح المشروع الحضاري الإسلامي .

د- إعادة تقييم قدرات وموارد العالم الإسلامي الاقتصادية والمالية ، ورسم المناهج والخطط العلمية المحكمة لاستثمارها وجعلها في خدمة تنمية وتحديث واقع المجتمعات الإسلامية والنهوض بالبنى التحتية لهياكل ومشروعات اقتصاديات العالم الإسلامي ، وجعل المال العام والثروة العامة ، أداة لخدمة المصالح العليا للأمة ، ووسيلة تغيير ونفع وإسعاد إنساني شامل .

هـ- تحقيق الوحدة الإسلامية وإصلاح منظومة الفقه السياسي الإسلامي ، كي يكون للمسلمين إطار جامع يحفظ مكانتهم الدولية ويكفل حقوقهم الإنسانية كأفراد وجماعات ومجتمعات ، وحتى تستأصل ظاهرة الاستبداد السياسي والحكم الفردي من تاريخ المسلمين ، ويعود انتلاف وتعاون العلماء والحكام لخدمة الإسلام والتمكين لرسالته وحضارته ، ونصرة قيم الحق والعدل والخير في هذه الدنيا .

(١) محمد الغزالي ، ركائز الإيمان بين العقل والقلب (الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٨٨ م) ص ٢٥٨ - ٢٥٩

و- إيجاد وبلورة أسلوب للتعامل مع انجازات العقل الإنساني ، فهناك صناعات مدنية وعسكرية كثيرة في البر والبحر والجو تفوقت فيها الحضارة الغربية الحديثة ، وينبغي على العالم الإسلامي الاستفادة الواعية منها ، فهي مشترك إنساني عام وليست خصوصية حضارية ، لاسيما وأن علماء الأمة الإسلامية لهم إسهام و ضلوع في هذه المنجزات ، وأن أثر الحضارة الإسلامية فيها لا ينكر علميًا وتاريخيًا .
ومما تقدم يصح لنا كذلك ملاحظة واستنتاج الآتي :

١- إن أطروحة الشيخ الغزالي في تشخيص وتوصيف مشكلة تأخر المسلمين ، تُظهر في جلاء بأنه يُسلّكها في سياق السنن الإلهية والاجتماعية الصارمة ، أي أن تأخر الأمة الإسلامية كان عن جدارة تامة ولم يكن فيه أي مقدار من ظلم الأقدار - كما يقال - فقد ظلت العلة تفتك بكيان الأمة وتتخرق قواها من الداخل في غفلة تامة وذهول عجيب عن تدارك الأمر وتوفير العلاج اللازم والمناسب .

٢- لا يعطي الشيخ الغزالي أهمية كبيرة للعوامل الخارجية -بالرغم من إقراره بضلوعها في هذه المشكلة- ومدى إسهامها في انحطاط الحضارة الإسلامية ، أي أنه يشدد على الأسباب الداخلية الذاتية ويقلل من شأن ووزن النظرية التأميرية ، كما في قوله مثلاً " فنحن المسلمين الآن في العالم الثالث على حين أمسك بزمام الحضارة من ينكرون الألوهية أو من يتخلونها (عائلة مقدسة) .. وهم لم يعوقونا عن الانطلاق في أغلب مراحل تخلفنا ، بل نحن الذين فرطنا وتكاسلنا وتركنا المجال فسيحا أمام غيرنا فملأه لما أخليناه ..."(١) .

٣- يعتقد الغزالي بأن عجزنا الآن لاحتياج إلى عزاء ، كما أن قدرات غيرنا لا ينفع معها تهوين ، ومن ثمة فإن واقع الأمة الإسلامية يتطلب - إذا أردنا فعلاً تحقيق الإقلاع الحضاري والخروج من دوامة النذل واندياح الهزيمة - قوة وفعالية الإرادة ، وعافية وسلامة الإدارة ، أي حسن تقييم وتوظيف واستغلال موارد وقدرات هذه الأمة .

٤- يستفاد من تفكير الشيخ الغزالي في هذا المضمار أو القضية المطروقة ، أن هناك طريقاً طويلاً أمام العقل المسنم ، وأن هذا العقل عليه أن يخرج عن سكونيته وتقليديته ، وأن يتخلى عن سلبياته الموروثة المحبطة ، ومعنى ذلك أن يفقه ويستوعب سنن الله في الكون والأنفس والمجتمعات ، وأن يرتبط عن وعي بالمداخل الصحيحة للتغيير والتقدم والاستنهاض ، فإن الأمم والحضارات لا تُبأغت بها الدنيا ، ولا تسفل أو تصعد خبط عشواء دون قوانين وسنن صارمة نافذة فالعدل الإلهي الذي أقام الله عليه السماوات والأرض لم يأذن بذلك ، كي لا تشذ حركة الحضارات والمجتمعات الإنسانية عن تلك الهندسة البديعة المستحكمة في سيرورة الحياة والأحياء والكون .

(١) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (مصدر سابق) ص ٢٨ - ٢٩

مركبات الوحدة الثقافية بين المسلمين في فكره

تمهيد :

يحاول هذا المبحث الوقوف على رأي وتحليل الشيخ الغزالي إزاء دور وإسهام الجوانب الثقافية من المنظومة الحضارية للمسلمين في تأسيس وصياغة مشروع الوحدة العامة و الشاملة بين المسلمين، باعتبار الجهد الثقافي و الفكري يمثل أساس عملية التغيير الاجتماعي، إذ إن إعداد أي مجتمع أو أمة لحمل رسالة حضارية معينة يقتضي أن يشمل في البدء إحداث التغيير و التجديد الضروريين في منظومة التصورات الثقافية والفكرية وبهذا المعنى تتحول الثقافة إلى صياغة منهجية لأسس ومقومات بناء الأمة .. من هنا فإننا لن نكون مضطرين لأن نعود لتقصي الاشتقاقات و المفردات اللغوية لكلمة : ثقافة ، أو لأن نخرج على مراحل تطور هذه الكلمة أو الوقوف عند التعريفات المختلفة التي وردت بشأنها ، ومعنى ذلك أننا نروم المعنى العام للثقافة ذاك المعنى الدال على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم و العالم جمعا توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة (١) ؛ ولاشك أن الخصائص العامة التي تنتظم إطارا واحدا يكون علامة على نوع معين من التفكير وأسلوب خاص في الحياة ، ملحوظة في معظم الثقافات العريقة و الحضارات الكبرى كما هو شائع .

وبداهة فإن الثقافة الإسلامية هي واحدة من تلك الثقافات العريقة التي تفاعلت مع الأطر و المرجعيات الحضارية لثقافات مختلفة ، بما تضمنته من قيم روحية وإنسانية مؤثرة وحساسة ، وبما اتصفت به من خصائص وسمات متميزة أهلتها لأداء دورها الفاعل في صياغة المنجزات الحضارية المشتركة للإنسانية ، فكانت بهذه المواصفات و القسمات الجامعة ثقافة خصبة وحيوية من جهة عمق قدراتها ومؤهلاتها الذاتية في صناعة الإنسان النموذج المسكون بروح المبادرة و الفعل الحضاري ، وبناء الأمم و الجماعات و الشعوب المؤهلة لنفع الإنسانية وبعث الحضارة الراشدة .. ومن باب أولى فإن العناصر و الأبعاد المكونة لهذه الثقافة تشكل لحمة وسدى الوحدة بين المسلمين و الصياغة الصلبة للكيان الحضاري الإسلامي .

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة (دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٤ م) ، ص ٧٧

أولا : مرجعية وحدة التصور بين المسلمين عند الغزالي:

إن المقومات الثقافية لأية أمة ينبغي أن تستند في وجودها إلى مرجعية ضابطة و مهيمنة تتحكم في الحراك الذهني الفردي و الجمعي ، و تحدد الأطر العامة للتصورات الفكرية التي تتبع منها المفاهيم و السلوكيات و المواقف ، و في نظر الشيخ الغزالي فإن هذه المرجعية بالنسبة للأمة الإسلامية تتمثل فيما يأتي :

(أ) - القرآن الكريم : يؤمن الشيخ الغزالي -ككل المسلمين- بأن القرآن الكريم هو المنبع الأول للتلقي والاستمداد عند المسلمين، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو الشريعة أو الأخلاق أو المعاملات أو نحو ذلك ، غير أنه يجعل من القرآن إطارا عاما يهيمن على كل شيء ، و معيارا ثابتا يحاكم إلى قواعده و مقاييسه كل الأفعال و الظواهر و المعارف و الموارد ؛ و تحليل الغزالي هنا ليس تعليلا عقليا محضاً بل هو مستنبط من الدلالة العامة لمعنى أو مفهوم الدين الذي بُعث لإنفاذه كل الأنبياء و الرسل ، فإن الوحي الإلهي في المسيرة الزمنية التي قطعها " قد انتهى إلى هذا الكتاب و ان ما بين دفتيه كلمة السماء إلى الأرض دون تحريف ، و أن مراد الله من خلقه قد خُلد في هذه الصحائف فلا تعقيب لأحد بعده . و هذه الصفات لا يمكن البتة إضفاؤها على كتاب آخر ... إن العالم كله لا يحوي في جنباته الآن إلا خطابا واحدا من الله لعباده ، هذا الخطاب هو الكلم المسطور في القرآن الكريم ... و القرآن الكريم قد تضمن جملة الحقائق التي تتأدى بها موسى و عيسى ، و تتأدى بها من قبلهم نوح و إبراهيم ... فلو أن أحدهم بعث الآن حيا لرأى ملامح رسالته مصقولة في مرآة هذا الوحي الخاتم ، و لكان أول من يحتفي بها و يدعو لاعتناقها » (١) ؛ فالقرآن الكريم -في منظور الشيخ الغزالي- أساس حضارة إنسانية راشدة، و مبعث ثورة نفسية و عقلية شاملة نقلت تاريخ العالم كله من وضع إلى وضع و من طور إلى طور فالنهضة التي اقترنت بالقرآن الكريم وجدت أسباب الحياة و الانبعاث و الازدهار في المناخ الذي نسجته تعاليمه و وصاياه و هداياته . و يمكن التأكيد بأن هذا الكتاب منح الوجود الإسلامي الأول أثناء فترة ميلاد الكيان الإسلامي من عناصر القوة و التحدي و التماسك الذاتي ما تعجز عن صنعه ألف وزارة للدعاية تجند آلاف الأقلام الواعية و الألسنة الحادة لاستثارة العواطف و توضيح الآراء و صقل العزائم ؛ إن القرآن الكريم كان بالنسبة للحركة الإسلامية الأولى يمثل صحافتها و إذاعتها و كتابتها و خطابتها ، و من هداياته العامة وحدها اهتزت الأجيال الهامدة اهتزاز الحياة ، و استطاعت في وقت قصير أن تتخلص من أوهاق الجاهلية الأولى ، و ما كان ذلك ليحدث بمثل تلك المواصفات العجيبة لولا قوة القرآن و شدة سلطانه على النفوس و العقول و الأفئدة (٢) ؛ من هنا رأينا الشيخ الغزالي يتجه بهذه المسألة اتجاها تأصيليا فيجعل من آيات القرآن إطارا منهجيا ضابطا لغيره من الأطر و حاكما على موضوعاتها

(١) محمد الغزالي ، هذا ديننا (ط٢ ؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) ، ص ١٩٥

(٢) محمد الغزالي ، نظرات في القرآن (باتنة / الجزائر: دار الشهاب ، ١٩٨٦ م) ، ص ١٤ - ١٦

و مضامينها و مناهجها ، و لعل ذلك ما يفسر شدة تعلق و اهتمام الشيخ الغزالي بالدراسات القرآنية (١) رغم ما تلزمه به هموم الحياة الإسلامية المعاصرة باعتباره مفكرا و داعية من واجبات ، و ما تأخذه منه تلك الواجبات من وقت و جهد و معاناة .

(ب) - السنة النبوية المطهرة : يعتقد الشيخ الغزالي أن السنة النبوية الشريفة هي المرجعية التي تلي القرآن مباشرة من حيث الأهمية و ضبط تصورات و مفاهيم العقل المسلم و تأسيس المنهجية الإسلامية ، و من ثمة فإن ما صح عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- لزم قبوله و الاستدلال به على الأحكام كما هو الشأن بالنسبة للقرآن الكريم ؛ و يرى الشيخ الغزالي أن الأحكام المتضمنة في الأحاديث الصحيحة إنما هي مأخوذة أو مستنبطة من القرآن نفسه .. أي أن النبي -صلى الله عليه و سلم- هو الذي استنبطها بتأييد إلهي ، و هذا الفهم أو الاستنباط يسمى في الاصطلاح القرآني (تبيينا) أو (إراءة) دل على ذلك قوله تعالى : (و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون) (٢) و قوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) (٣) ؛ فالسنة المطهرة في فهم الشيخ الغزالي مستنبطة من روح القرآن الذي ثوى في سويداء قلب النبي -صلى الله عليه و سلم- غير أن هذا التشخيص لا ينطبق على عموم السنة ، و إنما على الجانب الذي لا يعد وحيا مباشرا من الله . فقد كان القرآن الكريم هو الدعامة الأولى و المعيار المهيمن في حياة و واقع النبي -صلى الله عليه و سلم- " استقرت آياته في سويداء قلبه ، و امتدت معانيها و غاياتها في مشاعره و أفكاره ، و استتار بأشعة الوحي باطنه كله ، فهيهات أن يصدر عنه إلا ما يوافق القرآن و يسعى بين يدي هداياته المقررة ؛ و حديث الرسول الكريم إلى الناس فيما يتصل بشئون دينهم إذا لم يكن وحيا مباشرا من الله ، فهو مولد من حقائق القرآن التي أوحيت إليه ، و اختلطت بفؤاده و عقله ، و التي ينبعث عنها و يوجه غيره إليها ، و من السذاجة تصور النبوة ترديدا مجردا لأخبار الملأ الأعلى ، أو تصور الرسول شخصا لا يتكلم و لا يحكم و لا يفتي و لا ينصح إلا إذا همس في آذانه الملك بما يقول و بما يفعل ... إن الرسالة أجل من ذلك و أخطر . و الرسول بعد أن أفعمت أقطار نفسه بهذا القرآن العظيم و تشربت روحه ما أودع فيه من هدي و خير أصبح -من ذاته- ينطق بالحكمة و يفسر القرآن ، يفسره بألوف من الأقوال و الأعمال و التقريرات و الإجابات التي نشأت عنه و نمت في حرارته و سناه « (٤) .

(١) للشيخ عدة مؤلفات و جهود تتعلق بالقرآن و علومه و دراساته وهي : (نظرات في القرآن) و (المحاور الخمسة في القرآن) (كيف نتعامل مع القرآن) (نحو تفسير موضوعي) فضلا عن المحاضرات العديدة و الدروس المختلفة التي قدمها في هذا الموضوع ، و المقالات و الخواطر المتعلقة بهذا الشأن و التي أودعها بعض مؤلفاته الأخرى .

(٢) سورة النحل آية : ٤٤

(٣) سورة النساء آية : ١٠٥

(٤) محمد الغزالي ، هذا ديننا (مصدر سابق) ، ص ١٩٨

و نفهم نحن أن الشيخ الغزالي - وإن أبدع في التفريق بين السنة حين تكون وحياً مباشراً من الله و حين تكون نضحاً قرآنياً - مع إجماع الأمة في اعتبار السنة تمثل المرجعية الثانية في معيار النظر الإسلامي و المنهجية الإسلامية ، فقد كتب تحت عنوان (السنة حق) يقول : " و المسلمون متفقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم ، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتاً و دلالة تفاوتاً لا محل هنا لذكره ، و قد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة ، يرجع إليها في مظانها من شاء (٠٠٠) و تكذيب السنة على طول الخط احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر ، فإن الله عز و جل ترك لرسوله السنن العملية يبينها و يوضحها ، و قد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تُجدد ؟ بل كيف تجدد وحدها و يعترف بالقرآن ؟ و كيف نصلي و نصوم ونحج و نزكي و نقيم الحدود ، و هذه كلها ما أدركت تفاصيلها إلا من السنة ؟ إن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام » (١) و من ثمة فقد رأينا الشيخ الغزالي مهتماً بالسنة (٢) لهذه المنزلة التي تعتقدها ضمن سيق المرجعية الإسلامية الموجهة للنظر المنهجي و صياغة المقاييس الحاكمة على الأشياء و الأفكار و الوقائع و الظواهر .

(ج) - الإجتهد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلامي : يرى الشيخ الغزالي أن الإجتهد أو مبدأ الحركة في الفكر الإسلامي - كما يسميه - هو ضميمية طبيعية لأبد من وجودها ، لأن هذا الإطار يمثل حلقة التفاعل بين العقل و النقل و تنزيل الأحكام و المعايير النقلية على الواقع و الأفعال و المستجدات ، فأثر الفهم و التقدير الفكري و العقلي ملحوظ في كل هذه المراحل من أقسام هذه المعادلة ، و من جهة أخرى فإن هذه الحركية المستديمة في الفكر الإسلامي القائمة على آلية القياس و الموازنة بين الأشباه و النظائر و رد ما لا تعلم إلى ما تعلم .. تضحى وفقاً لهذا التحديد ضماناً منهجية و واقعية لخلود الشريعة الإسلامية وشمولية و عالمية المذهبية الإسلامية ، و في نظر الشيخ الغزالي فإن الإجتهد بما يتضمنه من سمات اليسر و التسامح و الحرية و التفاعل مع المبدأ و الولاء للمنهج يمكن أن يشكل مساحة هامة و فاعلة من المرجعية الإسلامية، و تعلق ذلك عنده أن الاجتهاد " كما يعبر عن حيوية المسلم بإزاء الإسلام و الحياة معا ، أو كما يعبر عن طاقة الملاءمة التي يحملها المسلم ليوفق يوماً بين الحياة التي يعيشها الآن و بعد الآن ، و بين الإسلام الذي يؤمن به .. يعبر من جانب آخر عما يصاحبه من روح اليسر و روح الحرية في التفكير ، و إن كانت حرية محدودة ، فمبدأ الاجتهاد الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي الأصيل ، مبدأ بناء و مبدأ حركة

(١) محمد الغزالي ، ليس من الإسلام (ط٦) ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ٣٨ - ٣٩

(٢) لا يعتبر الشيخ الغزالي من علماء الحديث بالمعنى الفني أو الاصطلاحي ، لكن لكونه مفكراً و داعية و عالماً إسلامياً ، فهو من أكثر المهتمين بهذا المجال ، وله الكثير من الآراء و الكتابات حول السنة و مناهجها ، و منها كتبه : السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث ، و فن الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء ، و خلق المسلم ، و من كنوز السنة ، بالإضافة إلى العديد من المقالات المنتشرة في بعض كتبه ، منها خاصة : تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل ، و هموم داعية ، و ليس من الإسلام ، و مستقبل الإسلام خارج أرضه ، و دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين و فقه السيرة ، و كيف نفهم الإسلام .

ومبدأ حرية وبالتالي مبدأ تيسير ، وفي الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح ، لأن الخصومة النفسية التي تتبع الخصومة الفكرية الحادة لا يمكن لها بين أرباب الاجتهاد الإسلامي ، و إنما تقع عندما يفرض على البعض الإلزام و الإلتباع أو يحكم على بعض المذاهب بالتخلف و عدم المساواة ، و هكذا عندما ابتدأ الفكر الإسلامي الأصيل على أساس من الاجتهاد الخالص الحر ، نجد طابع هذا الفكر الصدق و الإنطلاق إلى الأمام ، و لا نكاد نلمس فيه تنازلاً و لا خصومة خارجة عن روح النظر السليم بين المختلفين في موضوعاته و قضاياها ، و نجد المسلمين يومئذ أصحاب رأي ، و أصحاب حجة و أصحاب علم فيما يشره من ضروب التفكير المختلفة (١) "

و يظهر أن الشيخ الغزالي وفق هذا التشخيص يعترف بكون حجية الاجتهاد إنما هي متضمنة في طبيعة العلاقة بين طرفي معادلة التكامل و التفاعل بين العقل و النقل ، و أنه بهذا التأويل و التوجه ينحو منحى الشيخ الفقيه محمود شلتوت الذي يؤكد على كون حجية الرأي في التشريع أو التقويم ثابتة بالأدلة النقلية ذاتها لأنها تعود إلى عدة أمور منها : تقرير القرآن لمبدأ الشورى ، و أمر القرآن برد المتنازع فيه إلى أولي الأمر و هم الذين أوتوا الفهم و الحكمة و القدرة على الاستنباط ، ثم ثبوت إقرار النبي -صلى الله عليه و سلم- لأصحابه الذين كان يعيّنهم إلى الأقاليم و الجهات النائية على الاجتهاد و أعمال العقل و الأخذ بالرأي (٢) ؛ و بهذا الفهم يضحى الاجتهاد مساحة إضافية مرنة تسهم في ترسيخ القسّمات المشتركة لوحدّة الفكر و التصور عند المسلمين لأن هذه الأداة مشدودة في حركتها إلى فلك نصوص الوحي و الأدلة المعصومة ، إذ يرى الشيخ الغزالي أن " الرجل الذي يعيش في جو الوحي ، خبيراً بحكمته و أحكامه ، متأنقاً في تلاوته و تدبره ، بصيراً بسياقاته و مغازيه ، و الذي يصحب رسول الله -صلى الله عليه و سلم- في سيرته و يستبطن سنته من أقوال و أفعال، ويتأسى به في تقواه و عبادته و خلقه ، هذا الرجل -مادام يملك ذلكم القلب النقي و البصر القوي - يستطيع أن يصرف أحوال الحياة التي تلقاه تصرّيفاً يطبعها بطابع الدين ، و يضيف عليها صبغة الحق ، لأنه سيجتهد في إلحاقها بما علم من كتاب الله و سنة رسوله ، و في ردها إلى ماوعى من بواعث الإسلام و أهدافه .. و السير في الحياة بهذه النية .. و الأمة مطالبة بالترام هذا الصراط فيما تفد به العصور من أحداث " (٣) .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٦ - ١٤٧

(٢) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة (ط١ ؛ ١٠ ، القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) ، ص ٥٤٣

(٣) محمد الغزالي ، هذا ديننا (مصدر سابق) ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

هذا هو الاطار المرجعي الضابط لمنهجية الفكر و التصور عند المسلمين في منظور الشيخ الغزالي ، ويمكن الاستدلال على مشروعية هذا الاطار المنهجي بقوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر " (١) ، كما أن أهمية هذه المرجعية تكمن في كونها تعصم من أي خلل في تراتبية النظر و تقييم حركة الأولويات و الكليات و الجزئيات و تنظيم أفق الحركة الذهنية و معمار البناء الفكري ، كما تكمن أيضا في مدى إسهامها في جعل الفكر الإسلامي و نشاط العقل المسلم - في قضايا الاختلاف - بمنأى عن حالات الولاء و التبعية لمركزيات الجذب الأخرى ، باعتبار أن حالة تذبذب الولاء أو التماهي مع مرجعيات أخرى مغايرة يمثل خطورة حقيقية على سلامة و عافية المذهبية الإسلامية و مرجعيتها المنهجية .

ثانيا : أسس الوحدة الثقافية بين المسلمين عند الغزالي :

يعتقد الشيخ الغزالي أن وحدة الأمة الإسلامية في أبعادها الحضارية و المذهبية الشاملة لايمكن أن تتحقق فاعليتها في الفعل و الأداء و الشعور المخلص تجاه واجبات الرسالة ، إذ ضعف ولاء المسلمين للمرجعية المهيمنة و الضابطة لحركة الفكر و التصور و التي سبق بيانها ، وكذلك إذا وهدت بواعت الاهتمام و العناية بأسس و مقومات هذه الوحدة .. و حسب تتبع أفكار و كتابات الشيخ الغزالي يمكن استنتاج أن الشيخ يجعل من العناصر الآتية أسسا و مقومات لتلك الغاية الجليلة :

(١) تحديد المكانة العلمية للثقافة الذاتية و العناية بمكوناتها : يرى الشيخ الغزالي أن لكل أمة من أمم الدنيا ثقافة تصور ملامح شخصيتها التي تعرف بها بين الناس في العالم ، و تحدد بدقة أبعاد هويتها الحضارية و سماتها النفسية و العقلية و تشرح بأمانة و إخلاص عقائدها التي تؤمن بها و تنطلق منها ، و تبين الأهداف و الغايات التي تصبو إليها و ترنو لإنجازها ، و تبشر بأخلاقها و قيمها و تقاليدها و شرائعها على كافة المستويات بدءا من إطار الأسرة إلى العلاقات الدولية و الإنسانية العامة ؛ و تحدد مكانة هذه الثقافة في ممارسة دور الإشراف و الوصاية على توجيه المنجزات الحضارية للأمة و جعلها في خدمة منهجها و أهدافها الكبرى في الحياة ؛ و بالنسبة لنا نحن المسلمين فإن الثقافة الذاتية تتمثل لدينا بشكل أساس في العلوم الإسلامية بشتى تخصصاتها و معارفها و فروعها و مناهجها ، ولما كانت هذه الثقافة تمثل روح الأمة و شخصيتها الفكرية و الحضارية فإن القوى الاستعمارية و التنصيرية و التهودية و الإلحادية و نحوها عملت و ما زالت و بدأت حديثا على هدم مؤسسات و معالم و قسما ت هذه الثقافة ، و إضعاف و تحييد آثارها العملية على صعيد صياغة الشخصية الإسلامية ، و صعيد التأسيس الاجتماعي و البناء الثقافي و تجديد أمل الانبعاث الحضاري لأمتنا .

ويدرك الشيخ الغزالي أهمية هذه القوى الدافعة في كيان الأمة و التي تتشعبها هذه الثقافة فيقول :

" إن هذه الثقافة الذاتية هي إكسير الحياة للأمة و المجدد الدائب لطاقتها الأدبية و المادية ، ومن هنا اتجه الاستعمار العالمي إلى ضرب هذه الثقافة و توهين معاهدها ، فإما أجهز عليها وإما شل حراكها وأبقاها صورة هامدة أو اسما بلا مضمون ، وذلك ما حدث لجامعة القرويين و الزيتونة والأزهر و الجامعات الإسلامية في ليبيا والسودان وأقطار أخرى .. ونتج عن ذلك أمران خطيران : اضمحلال العقل الإسلامي وضعف الدراسات الدينية .. ثم اضمحلال اللغة العربية وآدابها وانكماشها أمام التقدم الحضاري وقلة المجيدين لها وكثرة اللآخنين فيها دون أدنى حياء .. ولما كان ساسة العرب وقادتهم من خريجي التعليم المدني - أكثر من 99% منهم بعيد الذهن عن ثقافتنا الذاتية - فإن النهضة الإسلامية تتعثر حيناً وتتقهقر حيناً ، وإذا تقدمت خطوة ففي وجه صعوبات دامية .. وقد شعرت بالخزي وأنا أسمع هؤلاء يخطبون! إنهم يتحدثون عادة بلغة الدهماء ، وإذا جرت على ألسنتهم كلمات عربية فإن (بدء) تتطق بكسر الباء! و(من ثم) تتطق بضم الثاء! أما قواعد النحو فحدث ولا حرج عما يعترها من إهانة! و الأغرب من ذلك أن محطات الإذاعة تنشر دراسة متصلة عن (الخصائص البلاغية) لصاحب هذه الخطابة العامية ، ولم يبق إلا أن ننشر بحثاً أخرى عن مظاهر البديع و البيان و المعاني في بغام الدواب و نقيق الضفادع!! أما الدين نفسه فحديث مملول وتذكير بما مات أو بما ينبغي أن يموت ، ولكن هذا الشعور يغلف ببعض عبارات المجاملة أو التوقير المصنوع اتقاء لغضب الجمهور .. فإذا أمن ذلك الغضب في مجتمع ذليل أو منحل ، فالدين رجعية و الصلاة مشغلة للوقت و الصيام معطل للإنتاج .. (١) " ؛ ويؤمن الشيخ الغزالي أن وصل ما انقطع من صفحات ماضينا التليد ، وأن حل الكثير من جوانب مشكلاتنا الراهنة في واقعنا المعاصر إنما هو رهن وفائنا لهذه الثقافة وتهيئة المناخ من جديد لإعادة بعثها وإحياء معارفها وتجديد مناهجها ، ولذلك فلا غرو إذا وجدنا الشيخ الغزالي يصف هذه الثقافة بأنها " جزء مشرق من تاريخنا وجانب مثمر جليل من حضارتنا ورسالتنا الكبرى ، بل هي الأساس لوحدة أمتنا على اتساع رقعتها المكانية و الزمانية ، فإن ما قدمته من زاد روحي وفكري ربط الخلف بالسلف وربط شرق الأمة بغربها و امحت الفروق بين الأعصار و الأمصار فإذا المسلمون جميعاً يلتفون حول كتاب ربهم و سنة نبيهم ، و يحكمون الارتباط بأخلاقهم و تقاليدهم و أهدافهم ، و يحسنون التفاهم و التعبير العالي بلغتهم و آدابهم ، و يثبتون الملامح الوسيمة لأمتهم ، فهي واضحة الشخصية معروفة الغاية ، مأنوسة الصورة للصديق و العدو على سواء (...). و لنقل في صراحة : إن الاستعمار العالمي لا يسوءه أن ينبغ في القاهرة طبيب يسبق زملاءه في مستشفيات لندن أو موسكو ما دام هذا الطبيب ملحداً أو مقطوع الصلة بالإسلام ، فالعقري الملحد يمكن أن يعمل تحت أي راية، وأن يستأجر في أي ميدان ، إنه كالجندي المرتزق يشتري بالثمن الغالي أوبالبخس ...

(١) محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، (سلسلة كتاب الأمة رقم ١)، (قسنطينة : دار البعث ، ١٤٠٢ هـ) ،

و من ثم فالجامعات المدنية البحتة لا تخيف الاستعمار ، بل قد يعينها و يشجعها ! إن الاستعمار يخاصم بعنف كل عمل له صبغة إسلامية و يشتد غضبه إذا رأى الثقافة الإسلامية تملك زمام التوجيه (...). و هذا الموقف الحقود يفرض علينا مزيدا من الحذر في حماية أنفسنا و تحصين قلاعنا و اكتشاف ما يبيت لحاضرنا و مستقبلنا ، و يفرض علينا قبل ذلك كله أن نصحح أخطاءنا و نسد الثغور التي اقتحمتنا منها و تسلل العدو منها إلى حمانا (١) .

و صفوة القول هنا - كما يظهر لنا - أن الشيخ الغزالي ممن يعولون على دور الثقافة الذاتية في تماسك الخصائص المشتركة لهوية المسلمين الفكرية و الحضارية . و من ثمة فهو يدعو عبر الكثير من كتاباته و أحاديثه إلى ضرورة اعتناء كل المسلمين بهذه الثقافة و تأسيس معاهدها و تقريب الناشئة و طلاب العلم و المعرفة من منابعها و رجالاتها ، و يرى ذلك واجبا دينيا يفرضه علينا و لاؤنا لرسالتنا ، كما تحتمه سنن التدافع بين الحضارات و الأديان و المذاهب ، فضلا عن كونه ضرورة واقعية ملزمة لحماية و صون قسما و مميزات هوية أمتنا و شخصيتها الحضارية ، إن الثقافة الذاتية وفق هذا التشخيص تمثل الدرع الواقي و السياج الحافظ لخصائص الأمة ، كما تمثل قوة دفع حقيقية لعوامل الغزو ، و محاولات التبديل الثقافي و الفكري و الوجداني التي تبذل على مختلف الأصعدة للانحراف بالتوجه الحضاري الفطري لأمتنا الإسلامية ، و ما ذلك إلا لكون هذه الثقافة ترمز بأبعادها و مضامينها الوظيفية إلى وحدة هذه الأمة في مزاجها الفكري و النفسي المشترك ، و إلى عمق انجذاب أمتنا الفطري إلى روح أصالتها و قوة انسجامها الطبيعي مع تجلياتها المذهبية و الحضارية ؛ إن تقييم الشيخ الغزالي و تحديده لدور الثقافة الذاتية و مكانتها في معمار الأمة الفكري و الحضاري ، يلتقي إلى حد التطابق و التماهي مع تقييمات و تحديدات معظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، و كذا المعاصرين منهم جدا من أمثال محسن عبد الحميد الذي يجزم بان الثقافة الذاتية لأمتنا هي علة بقاء و تماسك خصائص هذه الأمة الفكرية و الحضارية و إنقاذ سمات هويتها و مذهبيتها من الذوبان و التلاشي ، و ذلك على الرغم من فقدان عنصر التكافؤ و التوازن في معادلة الصراع و التدافع ... لكن و مع ذلك كله - كما يؤكد - فإن تاريخ صراع الأفكار و المذاهب و الولاءات الثقافية و الحضارية قد أثبت لنا خلال القرن الأخير - قرن التدافع الحاد - حقيقة أن " الأمة الإسلامية رفضت محاولات إسقاطها النهائي أمام الأمم الأخرى و حضاراتها لأن نمطها يختلف عن النمط الحضاري الإسلامي في جذوره و خصائصه و تطوره . و هي لا تزال تحتفظ بجوانب من القوة في مقوماتها الإسلامية و خصائصها الذاتية المستقلة ، على الرغم من غزو الحضارة الغربية لقيمها و حياتها و سلوك أفرادها ، كنتيجة طبيعية لعوامل الإعاقة و التأخر في القرون الأخيرة من حياتها ، تلك التي أسلمتها إلى الأعداء المستعمرين الذين خططوا للقضاء على وجودها و خصائصها

(١) محمد الغزالي ، علل و أدوية (ط٢ بائنة) (الجزء ١) ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، ١٩٨٦ م) ، ص ١٦٨ - ١٦٩

و تحريفها عن طريقها الحضاري المستقل ، زد على ذلك الاحتكاك الطبيعي بين الحضارات الذي هو سنة من السنن الاجتماعية في المجتمع الإنساني " (١) .

(٢) - تحديد الوظيفة العالمية للأمة : يذهب الشيخ الغزالي في رؤيته الفكرية إلى كون الدعوة الإسلامية تمثل قاسما مشتركا و إطارا جامعا بين المسلمين كافة في المشارق و المغرب ، و ذلك لما توحى به العقيدة الإسلامية و ما تلزم به كل مسلم من واجبات تجاه هذه الدعوة ، بل إن هذه الوظيفة مسلمة معروفة في أدبيات الثقافة الإسلامية و تاريخ حضارتنا ، و قد رسخ القرآن الكريم و أكد على المكانة المركزية لهذه الوظيفة في منظومة أولويات و واجبات الأمة الإسلامية ، كما جاء في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله) (٢) ؛ ثم إن تحليل و دراسة مسار و مراحل هذه الدعوة و تتبع خطها البياني يكشف حقيقة كيف كانت هذه الوظيفة الجليلة بحق عامل وحدة و توحيد داخل الكيان الإسلامي الكبير رغم اختلاف الألسنة و العادات و الظروف الاجتماعية و البيانات الجغرافية و نحو ذلك من التغيرات الفطرية و الطبيعية ، و بعض الدراسات المتخصصة تشير إلى أن أواصر القربى و وشائج المناصرة و الالتحام و الدعم تزداد قوة و متانة و فعالية بين المسلمين كلما ازداد جهاز الدعوة نشاطا و كلما ازداد الدعاة خبرة و مهارة و كفاءة بأساليب نشر نور هذه الرسالة و هداياتها في شتى آفاق المعمورة ؛ و معنى ذلك أو ما يستفاد من هذا الاستنتاج انه يجب على المسلمين في كل مرحلة و في أي منعطف من تاريخهم أن يجددوا أشكال و موانيق التحامهم بوظيفتهم العالمية و أن يعملوا باطراد و إخلاص على إقامة و إيجاد فضاءات الوفاء لمقتضيات هذه الرسالة و خدمة شؤونها و قضاياها ، فهي من مقومات وحدتهم و انسجام خصائصهم الحضارية و شخصيتهم الفكرية ؛ و في منظور الشيخ الغزالي أن الوظيفة العالمية للمسلمين لن تتبلور صورة فعليتها على صعيد التوحيد العاطفي و الثقافي بين المسلمين إلا إذا كانت العلاقة بين الأمة و الرسالة في المستوى الذي أراده الله تعالى و بين تبعاته في محكم التنزيل ، و في ذلك يقول الشيخ الغزالي : " الإسلام أمة و رسالة .. أما الرسالة فهي الهدى الإلهي الذي يخط لنا الصراط المستقيم و يدعونا إلى السير فيه ، و أما الأمة فهي الجماعة التي تنقل التوجيه الإلهي من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق أي تفهم الوحي و تنفذه و تدعو الآخرين إلى اعتناقه . و المفروض أن تكون الأمة صورة حسنة لرسالتها ، صورة لا تفاوت فيها و لا تشويه (...) و تعميم الخير و حراسة المعروف و مقاومة المنكر ليست وظائف محلية ينهض بها

(١) محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية و التغير الحضاري (سلسلة كتاب الأمة رقم ٦) ، (ط٢) بيروت : مؤسسة الرسالة ،

١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ، ص ٤١

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠

المسلمون داخل بلادهم فقط ، و لكنها واجبات عالمية يتصايح بها المسلمون شرقا وغربا ليعرف الناس : من هم و ماذا يريدون ؟ .. على أن صلاحية الداخل رصيد لابد منه للدعاية الناجحة في الخارج ، و لا يقبل من امرئ رث الملابس أن يدعو إلى الأناقة ، ثم إن القضية الأولى - قبل نجاح دعاية ما - هي أن تكون الأمة صورة لرسالتها ووعاء نقيا طهورا لما تحمل من تعاليم وقيم ، وواضح أن جهاز الدعوة و الأمر و النهي هو الخاصة الأولى للرسالة الخاتمة ، ولعله سر خلودها إلى آخر الدهر ، فهو يجدد كيانها و يبصون حقائقها و يغني عن رسالات أخرى تحل محلها (١) .

ويدلل الشيخ الغزالي على كون هذه الوظيفة المشتركة بين أبناء و شعوب الأمة الإسلامية ، هي من دعائم الشعور الواحد في الأمة ، و من أسباب المناعة الذاتية داخل كيان و مؤسسات الأمة بمثلين من التاريخ الإسلامي، الأول عندما سقطت الخلافة العباسية و تهاوت صروح دولتها تحت مطارق غزو التتار ، فسرعان ما استيقظت أسباب المناعة الكامنة في العمق الحضاري من كيان الأمة ، و تحرك جهاز الدعوة بسرعة وفعالية حتى وقع حدث من أعجب الأحداث في تاريخ الدنيا ، فقد أسلم غزاة التتار بعد تحقيقهم الانتصار العسكري ، و نجح جهاز الدعوة في استيعابهم بينما فشلت الأجهزة الرسمية للكنيسة في اجتذابهم إلى دائرتها و عاد المندوب البيابوي إلى روما منكسر الخاطر يجر أذيال الفشل و مرارة الهزيمة ، و المثل الثاني عندما اشتبكت الأمة الإسلامية مع صليبيي العصور الوسطى فإن الدعاة هم الذين اعترضوا بحق روح الهزيمة عند بعض الحكام ، وظلوا مستميتين بقوة وصلاح و ثقة في الدفاع عن الأمة و استطاعوا بما توارثوه من إنكاء نار المقاومة و الندية الإيمانية تزويد القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي بجيش من الفدائيين الشجعان ينشدون الشهادة في البر و البحر ، و بهذه الروح المؤمنة الواثقة في الله و نصر جنده تحررت القدس بعد تسعين سنة من الاستيلاء ، و بعد قرن آخر كان كل شبر من أرض الإسلام قد غسل غسلا من آثار الهمج المغيرين من الصليبيين أتباع بطرس الناسك ؛ إن هناك رجالا لم نعرف أسماءهم و إنما رأينا آثارهم و شواهد أعمالهم هم الذين أقالوا العالم الإسلامي من عثرته و أنهضوه من كبوته ، إنهم جنود مجهولون في هذه الدنيا ولكنهم غدا أعلام شامخة في ربي الخلد، إن هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين حافظوا على تماسك الخصائص العامة في الأمة و وحدتها الشعورية و العاطفية إنما هم ثمرة من ثمار الوظيفة العالمية لهذه الأمة (٢) ، و لعله من الواجب أيضا في التلليل على دور مضمون و منهج هذه الوظيفة في تحقيق الوحدة الفكرية و الثقافية بين المسلمين ، ذكر الجهود الطيبة الكريمة التي أسداها المستعربون - أو المسلمون من غير الجنس العربي-

(١) محمد الغزالي ، علل و أدوية (مصدر سابق) ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤

للحضارة المشتركة ، وسر ذلك - كما يرى الشيخ الغزالي - أن الإسلام لم يجعل من العروبة قومية خاصة و إنما جعل منها " دائرة عالمية فسيحة الأرجاء و سعت شتى الدماء و الألوان ، و انضوى تحت لوانها سيل موار من المؤمنين الذين تركوا بني جلدتهم ، و آثروا هذه الجنسية الجديدة ، و أسدوا إليها من الخدمات العلمية و الأدبية و السياسية و العسكرية ما يعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد و ثمود أو عدنان و قحطان ؛ إن النزعة الإنسانية العريقة في مجتمعنا العربي تعود إلى عالمية الرسالة الإسلامية و تطلعها الدائم إلى استيعاب عناصر بشرية مختلفة النسب و اللون ؛ و وفاء العرب الأولين بمطالب هذه الرسالة و انفساح صدورهم لكل وافد على الإسلام داخل في العروبة ... و لذلك يرفض العربي المؤمن أي تعصب جنسي و أي استعلاء عنصري (...) و لا ريب أن المجتمع العربي (*) قد ازدهر بهذه النزعة الإنسانية النبيلة، و أفاد منها أجل فائدة ، و ما من نشاط مادي أو أدبي أو علمي برز في هذا المجتمع و علا به قدره إلا كان المستعربون من ورائه ... تلمح ذلك جليا في علوم الشريعة و فنون الأدب و آفاق العمران و مناحي الفلسفة ، و في أرجاء حضارتنا التي نملأ أفواها بها فخرا ... لقد كنت في مكة أرى أغلب الملامح البشرية حول البيت العتيق ، و نظرت يوما إلى مئات المساجد في القاهرة -عاصمة العروبة و الإسلام- فرأيت جل بناتها من الأعاجم بمعاندهم الأولى . و غلغت البصر في مواريتنا العقلية و العقلية فرأيت سدنتها من أولئك الرجال الذين دخلوا العروبة من أبواب الإسلام ، و جعلوا العروبة بهذا المدخل الكريم ملتقى ساميا لأنضرم ما عرفت الحياة من جهد و أشرف ما وعت من غاية (1) ؛ و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن هذه الخاصية أو الدعامة الموحدة للأمة الإسلامية في المشارق و المغرب هي من الأسباب الرئيسية التي أوغرت صدر القوى الاستعمارية الحاقدة على الإسلام ، و جعلتها تعمل على تفتيت أرجائه و تمزيق وحدته ، لأن تلك القوى لا تعرف مثل هذه الروابط و الخصائص ، فما يجمع بينها إنما هو المصلحة الجشعة و التناول على الإسلام فحسب ، أما العالم الإسلامي فقد كانت بقاعه المترامية الأطراف و الجنبات الفسيحة " ت عمرها أمة واحدة و تحكمها دولة واحدة و تخفق في أجوائها راية واحدة و تسري في أوصالها عاطفة مشتركة ، فكان المرء -حيثما طرحته النوى- يمشي بين ذوي رحمه و ينتقل بين أقرانه و أحبابه (...) إن الوحدة الروحية و السياسية التي ربطت بين أسلافنا إلى سنوات معدودة حقيقة لا شك فيها ، حتى جاء هذا الاستعمار الملعون فمزقها شر ممزق ، و أهال عليها أكواما من التراب ليخفي معالمها و يحو صلاتها بالأذهان و الأفئدة ، و يخلق شعوبا متناكرة متدابرة لا يحفظ أحدهما للآخر نسبا و لا يرعى له ودا... إنها بضع و ثلاثون دولة أو إقليما ، أو شعبا يكافح لنيل حريته ،

(*) يستخدم الشيخ الغزالي أحيانا مصطلح المجتمع العربي بدل المجتمع الإسلامي ، ولعل علة ذلك غلبة اللسان العربي على حركة الحضارة الإسلامية إبان عصور و أطوار ازدهارها .

(1) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية (القاهرة : مكتبة دار العروبة ، د.ت) ، ص ١١١ - ١١٢ - ١١٣

ففي إفريقيا : مراکش و تونس و الجزائر و تشاد و غانا و غينيا ، و نيجيريا و أوغندا و صوماليا و ايرتريا - و الحبشة المسلمة- و السودان و مصر و ليبيا ... و في آسيا : اليمن و السعودية و الكويت و العراق و لبنان و سوريا و الأردن و فلسطين، و إيران و أفغانستان و باكستان - و الهند المسلمة- و اندونيسيا ، و المحميات العشر و أوزبكستان و تركستان ، و مسلمي القوقاز و سائر روسيا و مسلمي الصين و تركيا ... و في أوروبا : ألبانيا و مسلمو يوغسلافيا و قبرص و سائر البلقان ... أي أن أكثر من ثلث المؤسسة المعروفة الآن بمؤسسة الأمم المتحدة يتكون من أجزاء الأمة الإسلامية التي قطع الاستعمار أوصالها و بعثرها على هذا النحو المؤسف و حظر عليها أن تتواصى بدين أو تتعارف على إيمان (١) .

(٣) - تحديد علاقة العرب بغيرهم من المسلمين : يعتقد كل علماء الإسلام المحققين بحقيقة كون الإسلام هو الذي رفع شأن العرب و عرف بهم أمم المعمورة، باصطفاء الله تعالى للنبي الخاتم من بين ظهرانيهم ، و تخليد لسانهم في كتابه المعجز الخالد ، حتى غدا اللسان العربي جزءا من الوحي و دينا مع الدين الذي لا يقبل الله سواه ... و الشيخ الغزالي ممن يرون هذا الرأي من علماء الأمة و مفكرها ، و ممن يؤمنون به أشد ما يكون الإيمان و أرسخه ، و في ذلك نراه يقول : " العرب- بالإسلام وحده- دخلوا التاريخ و عرفتهم القارات المعمورة، و لولا الإسلام ما جاوزوا جزيرتهم ، و لما كان لديهم شيء يقدمونه للناس ! فضل الإسلام على العرب لا ينكره إلا أفاك جريء . أما الرومان مثلا فقد دخلوا النصرانية في القرن الرابع الميلادي، ماذا حدث لهم ؟ لا جديد ! كان حكمهم من قبل و من بعد مكينا و سلطانهم واسعا ؛ و اعتنق اليونان النصرانية فما حدث لهم ؟ كانوا أصحاب فلسفة مرموقة و فكر نابِه ما زادوا شيئا بمعتقدهم الجديد ! و العرب قبل محمد أو من غير محمد لا يزيدون عن قبائل أو شعوب تبحث عن رزقها فتجده بسهولة أو بصعوبة .. أما بعد بعثته فقد تبدلوا خلقا آخر ، لقد خرجوا من الظلمات إلى النور و أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور (...) و من الخير أن تعرف على عجل أن الإسلام هو طوق النجاة في هذا البحر اللجّي و أن الابتعاد عنه أخطر الطرق إلى الغرق ... كان الانتماء الإسلامي هو السياج الذي نجت به ثورة الجزائر من شتى المؤامرات و نجحت به في الوصول إلى بر الأمان ، ثم هو الآن وراء برامج التعريب التي تعمل حثيثة لترد الأمة إلى لغتها و ثقافتها و شخصيتها المتميزة ... هذا الانتماء قهر دواعي الفرقة و استبقى حرارة الإيمان و حدد جبهة الأعداء و أربب المنافقين و المتخالفين فلم يفلح لهم كيد .. و إني لمشفق على ثورات أخرى أبعدت شارات الإسلام و طوت أعلامه ، فلم تجن بعد السنين الطوال إلا فداحة المغارم و قلة الثمرات (٢) . "

(١) محمد الغزالي ، مع الله (القاهرة : المكتبة الإسلامية ط٥، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م) ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣

(٢) محمد الغزالي ، مستقبل الإسلام خارج أرضه (الطبعة الجزائرية الأولى : الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ،

لكن حديث الشيخ الغزالي عن حقيقة فضل الإسلام على العرب و ثقافتهم لا يعني بالمقابل غمط حق العرب ، فهو من المفكرين الإسلاميين الذين صاغوا ما يصح أن يطلق عليه نظرية في العلاقة الصحيحة بين العروبة و الإسلام ، إذ يرى الشيخ أنه لا يصلح لقيادة المسلمين إلا من أشرب قلبه روح العربية وتفقه في تراثها وخصائصها ، وعلّة ذلك عنده " أن الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين هما : الكتاب الكريم و السنة المطهرة ؛ و الكتاب الكريم - كما رأينا - نزل بلغة العرب ، و الرسول عربي الحياة و التراث .. وما يفقه حقيقة الوحي و منهج الرسالة إلا خبير بأدب العروبة راسخ القدم في بيانها ، ذواقة لطبيعة البلاغة العربية ، بصير بدلالات الكلام القريبة و البعيدة و بمعانيه الأصلية و الثانوية .. ولا نعني بالعروبة هنا الجنس ، بل نعني اللسان ، لا نعني النسب القريب أو البعيد و لا الدم النقي أو المختلط ، بل نعني العرب جميعا سواء فيهم الصريح الأصل أو المستعرب الذي كان ينتمي إلى أي جنس آخر في أي قارة من قارات الدنيا ، فما دام قد انسلخ من جلده الأولى ، ودخل في هذه الأمة الجديدة مذيبا نفسه في كيانها ، مندمجا بأفكاره و مشاعره فيها فقد أصبح منها نون نكير و لا غرابة .. ونحن نرى أبا حنيفة فقيها عربيا وصلاح الدين قائدا عربيا وسيبويه و الزمخشري و الرازي علماء عربا ، و الألوّف المؤلفة من الرجال الذين خدموا الإسلام في شتى آفاق السياسة و الثقافة و الأدب و التشريع مهما كانت منابئهم الأولى هم عرب ، لا يفترقون في قليل أو كثير عن العرب الأصلاء من بيت النبوة نفسه (...)

و نحن العرب ما نعطي أنفسنا الحق في قيادة روحية أو سياسية لأحد من الناس إلا لأن الله اصطفى لغتنا للحق الذي أوحاه ، و بعث منا النبي الذي ارتضاه ، و يوم نفخر بأننا عرب و حسب ، فإننا نسقط عن المكانة التي رشحنا لها ، و نعطي الآخرين الحق في الابتعاد عنا ، و نخون بذلك الأمانة التي وكلها الله إلينا .. إن مطالبتنا بحق العروبة في قيادة العالم الإسلامي كله و بحقها في إرشاد الجنس البشري أجمع يعود إلى تلك الموارد المقدسة التي آلت إلينا ، فخلدنا بها و سميت بسموها مكانتنا (1) ؛ إن إدراك العرب لواجباتهم تجاه إخوان العقيدة و المصير و التقرب إلى ظروفهم و أوضاعهم هو - برأي الشيخ الغزالي - جزء من الإحساس المقدس إزاء مقتضيات رسالتهم و ماناته بهم الأقدار العليا من تكاليف و أعباء ؛ و كأن فهم الشيخ الغزالي هنا لهذه المعادلة يشترط لصياغة المعنى الصحيح للأخوة الإسلامية - والتي تعتبر من المرتكزات الروحية و الثقافية و السياسية بين المسلمين - أن توضع قضية العروبة في إطارها الحضاري السليم لتلافي أي حساسيات سلبية مؤثرة في وحدة الكيان الإسلامي ، ولعل الشيخ الغزالي بهذا الفهم المتقدم قد استشف العبرة من بعض مراحل التاريخ الإسلامي ، والتي منها ظهور الحركة الشعبية في القديم ، و بروز بعض الاتجاهات المنحرفة للقومية العربية في العصر الحديث ، و من هنا فإن الشيخ الغزالي و لتجنب هذه المحاذير التي حدثت فعلا في تاريخ الأمة و أساءت يقينا لوحدتها الشعبية و الفكرية يصرح بأن القيام بهذا الواجب المقدس إنما هو عام و معلق بذمة الأمة كلها ،

(1) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية (مصدر سابق) ، ص ١٤ - ١٥ - ١٦

حيث يقول في صيغة تساؤل احتجاجي : " أريد أن أسأل العرب - و هم أمسي الكبيرة و عشريني الأقبون - هل درسوا علاقتهم بالعالم الإسلامي خلال هذا القرن ، أو خلال القرون الماضية ؟ إن هذه الدراسة مطلوبة و إن الغفلة عن عبرها جريمة دينية و تاريخية ضخمة ، إن هذه الدراسة ليست عمل الساسة و الحكام ، بل هي شغل الدعاة و الفقهاء و الأدباء ، و تكاد تكون في هذا العصر فريضة كذلك على الاجتماعيين و الاقتصاديين ... لقد أفزعني أن هناك نزعة مجنونة تشغل العرب بقضاياهم الخاصة و تصرفهم عن مشكلات العالم الإسلامي الواسع و تحبس التفكير و الاهتمام فيما يمس المصلحة العربية وحدها ، أما ما وراء ذلك فالاشتغال به من فضول البحث أو لغو الكلام ، و ظهرت هذه النزعة دميمة الوجه محقورة الفكر عندما أغارت الشيوعية على أفغانستان المسلمة ، فإن دولا و جماعات عربية رأَت أن هذه الغارة لا تقلق الضمير !! و لا ينبغي أن تشغلنا عن قضية فلسطين مثلا ... الحق أن هذا الموقف يجعلني أميط اللثام عن خيانات فاجرة اقترفها عرب كثيرون ضد الإسلام و ضد المنتمين إليه في شتى القارات فإن السكوت عن ذلك طعنة نافذة تصيب الإسلام في يومه و غده و تهدد أمنا الإسلامية الكبرى بأفدح التمزق و الخسران (١) . "

و يرى الشيخ الغزالي أن من واجبات العرب الحضارية إزاء إخوان العقيدة و المصير القيام بجهد خاص لخدمة لغة الوحي ، لكن الشيخ الغزالي لا يعتقد بأن الإسلام جاء لتعريب الشعوب التي تعتقه فهو رسالة هدايات عامة قبل كل شيء ، غير أن القيام بواجب تيسير هذه الهدايات قد يتطلب شيئا من المعرفة بالعربية ، خاصة أنه ثبت بالتجربة أن اللغة العربية هي الوسيلة المثلى لاستيعاب الإسلام وفهمه فهما صحيحا ، فالقرآن عربي و السنة عربية و الفقه عربي .. يضاف إلى ذلك أن اللغة العربية بما تحدثه من مؤثرات في الوجدان و الفكر و التصور تعتبر - من هذه الزاوية - من أهم عناصر التوحيد الثقافي بين المسلمين ، فقد ثبت أن للحرف الذي ندون به تأثيرا نفسيا و شعوريا عميقا له صلة وثيقة بوحدة الناطقين بهذه اللغة من حيث ارتباطهم بتراث هذا الحرف ومخزونه الحضاري ، فهو في كل لغة يمثل جزءا من التراث الشعبي المشترك للمتكلمين باللغة ، كما يمثل جزءا من شخصيتهم الحضارية وهويتهم الثقافية وأمزجتهم النفسية ؛ وعليه فإن ارتباط الإنسان بالحرف الذي تكتب به لغته ارتباط قوي تمتد جذوره ومؤثراته إلى أعماق نفسية بعيدة الغور ؛ وبالنسبة للغة العربية فقد امتزجت بروح العقيدة الإسلامية والتراث الإسلامي إلى درجة يصعب معها للفصل الكامل بينهما ، حتى أن أكثر من ثلاثين لغة في إفريقيا وحدها - وبتأثير من هذه العقيدة - قد كتبت بالحرف العربي ، منها لغة الهوسا و الفلاني والسواحلية و الصومالية و المورو و النوبية .. الخ (٢) ، فمن المسلمات القطعية التي هي من ثوابت الثقافة المشتركة بين المسلمين امتزاج الإسلام و الوحي باللغة العربية ، و علة ذلك أن الطور الذي دخل

(١) محمد الغزالي ، علل وأدوية (مصدر سابق) ، ص ٢٢٤

(٢) يوسف الخليفة أبو بكر " الحرف العربي و اللغات الإفريقية " مجلة رسالة الجهاد الليبية ، مالطا (ديسمبر

فيه العرب باحتضانهم رسالة الإسلام قد أنشأهم خلفا آخر ، وأفضى بهم إلى ميلاد جديد ، وأدخلهم التاريخ من أبواب شتى لامن باب واحد " مع استحکمت الوشائج بين العرب و الإسلام ، فأصبح يعرف بهم ويعرفون به ، لا يغض من ذلك أن بقية ضنيلة من العرب ظلوا على دياناتهم الأولى هودا أو نصارى ، نعم اقترنت العروبة و الإسلام من أمد بعيد في حضارة واحدة وتاريخ مشترك ، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوي الجامع ، فهو إذا تصور الإسلام لا يستطيع أن ينسى العرب الذين آمنوا به وطوفوا أرجاء العالمين برسالته ؛ وهو إذا تصور العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذي أعلى شأنها وخلق أديها وجمع من شتاتها دولة قدمت للإنسانية أركى المثل وأرجح القيم ، إن الإسلام لا ينفك عن العروبة أبدا ، ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة ينزل بها وتكون وعاء لهدياته وهي العربية (١) ؛ وهكذا فإن تحديد علاقة العرب بغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية الكبيرة وفق هذه الصياغة التي يقدمها الشيخ الغزالي ، وهي صياغة مستتبطة من مفاهيم الوحي وتصورات النصوص المعصومة ، تضحى أكثر من ضرورة لبناء وتأسيس المنظومة الحضارية المتكاملة للوحدة بين المسلمين على أسس ومرتكزات فاعلة قوية وبعيدة عن شتى الحساسيات السياسية و المذهبية التي أساءت تاريخيا لهذه الرابطة.

(٤) - العمل بمبدأ التقريب المذهبي وتجميد الخلافات : يصل الغضب بالشيخ الغزالي مبلغه وهو يحلل ويناقش المواقف المتباينة للثقافة الإسلامية من مسألة الخلاف الفقهي و المذهبي عند المسلمين ، لكن الشيخ مع ذلك يقدم رؤية في الموضوع بالغة الأهمية خاصة في صلتها بأركان الفقه الحضاري وفلسفة الوحدة و التوحيد و التضامن بين المسلمين ؛ إن مذاهب الفقه الإسلامي - كما يرى الشيخ الغزالي - بالرغم من أنها وضعت أساسا لغرض التيسير على المكلفين و إدراك مراد الله تعالى بسهولة من أفعالهم، و فهم بعض المقاصد و الحكم من التكاليف ، بيد أن الكثير من العقول الكليّة و النفوس المعتلة استطاعت تحويل هذا الموضوع عن مجراه الطبيعي و نهجه العتيد محدثة بذلك جانبا من الانحراف بالطبيعة و الخصائص التجميعية للثقافة الإسلامية ، و ذلك بتصورها المغلوط و فهمها للرأي الفقهي على أساس أنه وجهة نظر الدين الوحيدة و الأخيرة ، و التثبث بهذا المنظور كان له آثاره و عواقبه الوخيمة على وحدة المسلمين الفكرية و الثقافية ؛ فكلمة مذهب -برأي الشيخ الغزالي- لا تعني إلا وجهة نظر فقيه ما في فهم النص السماوي .. و وجهة النظر هذه -من ثمة- لا عصمة لها و لا قداسة لأنها محاولة تفكير بشري لفهم الوحي الإلهي أو النص المعصوم ... فالتحويل من جهة الأصل على الوحي و الكرامة في الانتماء إليه و التلقي عنه وحده (٢) .

فالشيخ الغزالي ينظر إلى الخلاف الفقهي من زاوية أنه تباين طبيعي في وجهات النظر اقتضته طبيعة العلاقة بين العقل و النقل فضلا عن بقية العوامل الموضوعية الأخرى كالدلالات الظنية للنص و وجود كلمات في العربية تفيد الشيء و ضده و التقديرات المتباينة بين الفقهاء في شروط الاستدلال

(١) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية (مصدر سابق) ، ص ٩ - ١٠

(٢) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (الطبعة الجزائرية الأولى : الجزائر : دار الكتب ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨) ، ص ٦٣

بأحاديث الأحاد... الخ و عليه فإن هذا الخلاف قد يكون مصدر ثراء فكري و تشريعي يدعم رصيد العقل الإسلامي العلمي و المعرفي ، إذا كان ناشئا عن تجرد و إخلاص و روح اجتهادية مبدعة بعيدا عن أمراض القلوب و علل النفوس و أهواء الدنيا ؛ و وفق هذا التشخيص الفكري لهذه القضية فإن الخلاف الفقهي يستحيل أن يكون معصية ، و إنما يكون معصية إذا كانت بواعثه مضادة للطبيعة الموضوعية التي أوجدها في الواقع ، و قد سارع الشيخ الغزالي إلى التصريح بذلك بعد تحقيقه العلمي في خلفيات هذه المسألة ، وعلاقتها - خاصة في حالة مؤثراتها السلبية - بالإطار العام للوحدة الفكرية بين المسلمين ، حيث نجده يقول بأسلوب العالم و المفكر الحريص على وحدة أمته الداخلية وانسجام الطبيعة الفكرية فيها مع الغايات البعيدة لرسالة الأمة : " لقد لاحظت - واستغفري واستعذب به - أن عددا من قادة الثقافة ورجال السياسة ، مبتلون بهذا السرطان ، وأن عبادة الذات و التوقع في مطامعها يسيطران عليهم .. و يشاركون في هذا البلاء أذنان يطنون حول مآربهم و مجالسهم ظنين الذباب .. أمراض القلوب لا الخلاف الفقهي أخطر شيء على الدنيا و الدين معا ، ما الخلاف الفقهي ؟ إنه كالخلاف بين المحافظين و العمال في إنجلترا ، أو كالخلاف بين الجمهوريين و الديمقراطيين في أميركا .. هؤلاء الناس متفقون على الأصول الرئيسية و الأهداف العامة ، وربما تفاوتت أنظارتهم في الترتيبات الداخلية لنظام البيت.. أما في أممنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلكي على هذا الخلاف و يخرجون منه بنتائج مدمرة ، لنفرض أن رجلا يتبع أبا حنيفة و لا يتبع ابن حزم أو بالعكس، ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه ؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوى ؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو الصواب ، إنه خلاف عقلي في نطاق محدد ، و من السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحدة الأمة .. فلو تصورت أن مخالفا لابن حزم - أيام سلطانه - و شى به إلى الصليبيين كي يبطشوا به ، فأنا أعد الواشي مرتدا ، أو هو من سلالة أبي لؤلؤة أو ابن ملجم .. ومثله في الزيف من يفضلون أن تحكم أفغانستان الشيوعية و لا يحكمها أبو حنيفة أو من يسوون بين الشيوعيين و الأحناف .. و يوجد متدينون في عصرنا ينحدرون إلى هذا الدرك من الغباء أو الحقد ، و قد آذوا الله ورسوله بهذا الفكر الوضيع ، وذاك سر حملتي عليهم وضيقي بهم .. إن الخلاف الفقهي في ديننا - إذا استوفى شرائطه العلمية و الخلقية - لا يسمى معصية أبدا ، بل كل مجتهد ماجور بإجماع الأمة .. و الذين يتذرعون بالخلاف في الفروع للغمز و اللمز و التمزيق و التفريق جديرون بالتأديب .. و لا أصدق أن رجلا مؤمنا استجمع الأخلاق الربانية يسف إلى هذا المستوى (...). و قد أدت ظهري لمتدينين قصرُوا ثيابهم و تمنوا الموت الزوام لمن يخالفهم في أن لحم الجزور ينقض الوضوء ، و أن شهادة المرأة لا تقبل في الحدود و القصاص ... الخ ؛ من الأخلاق الربانية و الإنسانية بنيت الأمة الإسلامية ، و البناء باق ما بقيت هذه الأخلاق ، فإذا هت تصدع الصرح كله و تعرض للضياع (١) " .

(١) محمد الغزالي ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل (هيرندن : أميركا : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤١٢هـ -

فمنظور الشيخ الغزالي الفكري إذن - الذي يرى بأن الحصيلة العلمية لمذاهب الفقه الإسلامي إنما هي زاد معرفي و ثروة فكرية و تشريعية و تنظيمية تمنح العقل المسلم إذا ما أحسن التعامل مع معطياتها و زخمها الأخاذ و المتنوع في النظر المتدفق و الإبداع المتوهج ، صفة الحركية الدائمة و التفاعل المعطاء و القدرة على الاستيعاب و الهضم و التجاوز و التجدد المتوالي - لا يسمح على الإطلاق أن يقود الخلاف الفقهي إلى مثلبة فصم عرى الوحدة الثقافية و العاطفية بين المسلمين ، و من هذا المنطلق فقد رأينا الشيخ الغزالي يحمل بشدة على ظاهرة التقليد بمعناها السلبي المسيء لوشائج القربى الروحية و الشعورية بين المسلمين ، لأنه يريد حصر الآراء و الاجتهادات الفقهية في مجال دائرتها الطبيعية و فضاءاتها العلمية و المنهجية ، إذ إنه ممن يرون أن " للرأي الفقهي مكانته العلمية ، و لمن شاء أن يأخذ به و أن يدعو إليه غيره ، و نحن قد نؤثر رأياً على رأي لأن اقتناعنا بهذا أكثر من اقتناعنا بذلك أو لأن هذا الرأي أدنى إلى تحقيق المصلحة العامة و أرفق بعباد الله ، والشئ الذي نرفضه و يرفضه جمهور العقلاء أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين و أن ماعداه ليس دين ، و أن يجمد على ما عنده جموداً قد يضر بالإسلام كله و يصدع وحدته (...). و قد قرأت و رأيت من أمراض التعصب المذهبي ما يثير الاشمئزاز و يدعو إلى الدهشة ، و كان الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصداً إلى تمزيق المسلمين و إهانة معارضيتهم في الفكر بعقل مختلفة " (١) .

وسعياً لجعل قضية التقارب المذهبي و تجميد الخلافات التاريخية و الفقهية من بنود مرتكزات الوحدة الفكرية و الثقافية بين أبناء أمتنا الإسلامية الكبيرة ، فقد اجتهد الشيخ الغزالي و قدم رؤية في الموضوع نحسب أنها موضع احترام و تقدير كل المذاهب و الإتجاهات الإسلامية ، ، و قد شملت هذه الرؤية العلاقة بين السنة و الشيعة و شتى مدارس و مشارب الفقه الإسلامي ، و من الأغراض و المقاصد التي تهدف إليها هذه الرؤية تجفيف مواطن الخلاف بين المسلمين خاصة بعد أن أوهن الزمن دواعيها و تجميد بعضها الآخر الذي ما يزال يبعث على الجدل ، لفسح هذا الأفق أمام جهود تجميع هذه الأمة و تكتلها كي تستكمل شروط مجابتهها للتحديات الضخمة و الخطيرة التي تتهدد كل مقوماتها بما ذلك وجودها ذاته ، ولعل ما يدعم هذه الرؤية أكثر أن قوى الاستكبار العالمي باتت يستفزها بعنف أمر استرجاع الشعوب الإسلامية لهويتها التاريخية و الفكرية و تناغمها مع مقومات و خصائص شخصيتها الحضارية ذات المضمون الإسلامي ؛ لهذه الأسباب جاء جهاد الشيخ الغزالي على هذا الصعيد مفعماً بالتوتر و الإشفاق على حاضر و مستقبل هذه الأمة ، و كان من أشد الأمور تأثيراً في نفسه و أنكرها إلى قلبه و ضميره " افتعال الأسباب لتفريق الكلمة و تمزيق الأمة ... ربما اختلفت جهات النظر في قضية ما و انشعب الناس حولها مذاهب .. لكن حيث لا تختلف الأفهام و لا تتعدد الأنظار كيف يستبيح بعض

(١) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ، ص ١٠٧

الناس لأنفسهم أن يخلقوا الفرقة خلقا و أن يقحموها على الواقع اقحاما ، لا لشيء إلا لرؤية الناس أحزابا متناحرة و طوائف متدابرة . إنني آسف لأن بعض من يرسلون الكلام على عواهنه . لا بل بعض من يسوقون التهم جزافا غير مباليين بعواقبها دخلوا في ميدان الفكر الإسلامي بهذه الأخلاق المعلومة فأساءوا إلى الإسلام وأمنته شر إساءة .. سمعت واحدا من هؤلاء يقول في مجلس علم : إن للشيعة قرآنا آخر يزيد وينقص عن قرآنا المعروف ، فقلت له : أين هذا القرآن ؟ إن العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظل من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرنا لا يعرف إلا مصحفا واحدا مضبوط البداية و النهاية معدود السور و الآيات و الألفاظ ، فأين هذا القرآن الآخر ؟! ولماذا لم يطلع الإنس و الجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل ؟ لماذا يساق هذا الافتراء ؟! ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات و تلقى بين الأغرار ليسوء ظنهم بإخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم إن المصحف واحد يطبع في القاهرة فيقدسه الشيعة في النجف أو في طهران ويتداولون نسخة بين أيديهم وفي بيوتهم دون أن يخطر ببالهم شيء بثة إلا توقيير الكتاب ومنزله -جل شأنه - ومبلغه -صلى الله عليه وسلم- فلم الكذب على الناس و على الوحي ؟ و من هؤلاء الأفاكين من روج أن الشيعة أتباع علي ، و أن السنيين أتباع محمد ، و أن الشيعة يرون عليا أحق برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- و يرون شرف علي في انتمائه إلى هذا الرسول و في استمساكه بسنته ، و هم كسانر المسلمين لا يرون بشرا في الأولين و الآخرين أعظم من الصادق الأمين و لا أحق منه بالإتباع ، فكيف ينسب لهم هذا الهذر ؟ الواقع أن الذين يرغبون في تقسيم الأمة طوائف متعادلة لما لم يجدوا لهذا التقسيم سببا معقولا لجأوا إلى افتعال أسباب الفرقة ، فأتسع لهم ميدان الكذب حين ضاق ميدان الصدق .. لست أنفي أن هناك خلافات فقهية و نظرية بين الشيعة و السنة ، بعضها قريب الغور و بعضها بعيد الغور ، بيد أن هذه الخلافات لا تستلزم معشار الجفاء الذي وقع بين الفريقين ، و قد نشب خلاف فقهي و نظري بين مذاهب السنة نفسها بل بين أتباع المذهب الواحد منها ، و مع ذلك فقد حال العقلاء دون تحول هذا الخلاف إلى خصام بارد أو ساخن ... و كان خيرا للشيعة أن يفهموا أن أهل السنة يضمرون أعماق الود لأهل البيت و ينفرون أشد النفرة مما يسوءهم ، و كان خيرا للسنيين أن يفهموا أن الشيعة يلزمون أنفسهم سنن صاحب هذه الرسالة و يعدون الانحراف عنه زيفا ، أما ما وقع من اختلاف فقهي أو نظري فلا يعدو أن يكون وجهات نظر لها مصادرهما العلمية و نية أصحابها إلى الله و هم -أصابوا أم أخطأوا- مثابون ماجورون (...). ليكن هناك خطأ حقيقي وقع فيه هذا أو ذاك فهو خطأ لا أقبل الاعتراف به ، فلماذا لا يترك البت في هذه الأمور للزمان المتطاوول يحل المشكلات الفقهية و النظرية بدل أن تحل في معارك الجدل الذي يفقد فيه المجادلون ضمائرهم و صفاءها أو تحل في معارك القتال الذي تتحل فيه عروة الإيمان و يزرأ فيه صوت الشيطان .. إن الخلاف الفقهي أو النظري في كثير من الأمور ليس خبزا نتناوله كل يوم ،

و القضايا التي دار فيها هذا النزاع يمكن للمسلمين اطراحها جانبا و نسيانها أمدا يشتغلون خلاله بالبناء لا بالهدم ، بالعمل لله في المحاريب المخبئة أو في الميادين المنتجة ، أما شغل الناس حتما بخلافات لها أصل - و ما أقلها- أو بخلافات مفتعلة -وما أكثرها- فليس من الدين في قليل و لا كثير ، و الذين يحرصون على ذلك ليسوا من الله في شيء (١) .

و على الرغم من أن الشيخ الغزالي و هو يعالج قضية التقريب المذهبي في المنظومة الإسلامية الفقهية و النظرية ، يذكر بعض الأحداث و المعطيات الدولية ، غير أن من يعن النظر بعمق في فكره يجد أن طرحه لمسألة إعادة ترتيب المكونات الرئيسة لأنساق الفكر و الثقافة عند المسلمين وجعلها خادمة في سيرورتها و تطوراتها وتجدداتها لوحدة المسلمين وتكلمهم وعزتهم ، من ثوابت وخصائص مشروع الشيخ الغزالي الفكري ، وعليه فإن المعطيات الدولية وإن لم يتغافل عنها الشيخ ، لاتمثل منطلقات أو بواعث مركزية لمواقفة واجتهاداته في مجال التقريب المذهبي وضرورة السعي وبذل الجهد لردم أسباب الفتنة بين المسلمين في مظانها التاريخية - حسب منظور الشيخ - فنحن نراه يبلغ درجة متقدمة من التفاعل مع هذا الموضوع و التجاوب مع مدلولاته فيقول : " منذ ربع قرن عرفت قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية ونصرتها بقلبي وعقلي جميعا وقلت : إن اليهود و النصارى طووا مسافة الخلف بينهم وتجمعوا علينا ، واغتصبوا أرض فلسطين ، وهم الآن يعدون لجعل المسجد الأقصى هيكل سليمان ، ومحو شارات الإسلام في تلك الأرضين كلها .. هل الخلاف بين أهل السنة و الشيعة أعظم من الخلاف بين اليهود و النصارى ؟ هل يتعاون هؤلاء وأولئك في الهجوم علينا ونقتل نحن في الدفاع عن أنفسنا و التساند لرد المعتدين ؟ من أجل ذلك أيدت قضية التقريب واقترحت لها أسسا فقهية و علمية ، وما فهمت ولا فهم غيري من رجال الشيعة أن التقريب تذويب للفوارق المذهبية وادماج لهذا في ذلك ! إنه تجميد لأسباب الفتنة القديمة وحبس لآثارها في الماضي البعيد ، وتعاون فيما اتفق عليه وتلطف فيما اختلف فيه ، وجعل موازين الأمور تقع بين أهل الذكر من الخاصة ونزعها من أيدي العيابين و الشتامين من الدهماء .. و التقريب اعتبار بأحداث التاريخ وتعرف على ما أصاب الأمة كلها من مد وجزر وتجنب لأسباب الهزيمة والزيغ .. إن ساسة اليهود لما غاظهم تجمع الأوس و الخزرج في ظل الأخوة الإسلامية أرسلوا إليهم من ينشد أشعارا تضمنت أخبار المعارك القديمة و الخصومات الغابرة فكادوا يشعلون الحرب بين الفريقين لولا تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عجبت لما رأيت الأستاذ الشرفاوي (٢) يقص أخبار الفتنة الكبرى على نحو يحرك الحزازات ويهيج جمهور أهل السنة !

(١) محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين (القاهرة : دار نهضة مصر، ط٥ ، ١٩٩٦ م) ، ص٢٠٧-٢٠٩
(٢) هو الكاتب اليساري الراحل عبد الرحمان الشرفاوي صاحب كتاب (محمد رسول الحرية)، وكتاب (علي إمام المتقين) الذي نشرته جريدة الأهرام في حلقات متسلسلة ، ، وقد رد الشيخ الغزالي على هذه الحلقات في محاضرة بجامعة قطر بعنوان : (الأمانة في نقل التراث) ثم ضمنها كتابه (علل وأدوية) .

لقد جعل العشرة المبشرين بالجنة مبشرين بالنار ماعدا علي بن أبي طالب ! (...) و التحصن بعلي بن أبي طالب لضرب بقية الأصحاب خطة قديمة لضرب الإسلام ذاته و تقويض قواعده الأولى ... و إذا كانت هذه الخطة قد نجحت قديماً فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين (١) " ؛ و قد لاحظ الشيخ الغزالي بهذا الصدد حجم المآسي التي يخلفها سرطان الاختلاف في واقع المسلمين و يعطي مثلاً على ذلك بالمسلمين الهنود ، فهم بعد معاناة أليمة نجحوا في تكوين دولة باكستان إلا أن القضايا المذهبية و الخلافات التافهة التي لا معنى لها بددت قواهم و أضعفت هذا الكيان من الداخل منذ البدايات الأولى لميلاده ، و قد قرأ الشيخ الغزالي ما كتبه بعض الفقهاء في عصره عن مآسي الخلافات الفقهية و المذهبية ، و منهم الشيخ عبد الجليل عيسى خاصة كتابه (ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين) و تأثر بما قرأ فانتبه إلى كون الخلاف بين الأحزاب في الدول الغربية لا يفضي إلى مثل النتائج المرة و الظواهر المرعبة التي يتركها الخلاف المذهبي بين المسلمين ، فالخوف بين تلك الأحزاب في الغرب قد يكون حول نظام الجمارك أو نظام المقابر أو نظام تأمين المرافق الكبرى أو بعض جزئيات نظام الحكم ، أما الثوابت عندهم فهي ليست موضع مساومة أو نقاش فولاء الجميع لها واحد و غيرتهم عليها متكافئة ، بينما كان يجب أن تكون هذه الصورة من ثمرات الطبيعة الفطرية للخلاف المذهبي في الفقه الإسلامي ، لأن الآراء و الفهوم في هذا الفقه هي فروع فحسب معتكزة على أصول (٢) ، و من ثمة فقد استخلص الشيخ الغزالي أن أكثر مساحات الخلاف بين المسلمين تسببت في بروزها الأهواء و العلل الدفينة ، لأن الخلاف العلمي و تباين وجهات النظر العقلي بتجرد -برأيه- لا يصح أن تثير " الحفائظ إلا لدى الرعاع ! و لعله يكون متنفساً لمآرب و أهواء عند من لا يتقون الله . أما العلماء الكبار فلهم شأن آخر ، ألا ترى مالكا رضي الله عنه يرفض عرض الخليفة (*) أن يجمع الناس على كتابه الموطأ لماذا ؟ لأن لدى الناس علماً آخر قد يؤثرونه على موطنه فلا يجوز حملهم بالقسر ... لو كان رجل آخر دون مالك لفرح بتجميع الناس على رأيه أو على روايته ، و لكن مالكا هو مالك ... أما في هذه الأيام العجاف فقد رأيت حرائق تندلع إثر خلافات مستصعرة ، و رأيت دين الله يتسع لوجهات نظر لها وزنها المتقارب و لكن دنيا الناس تضيق بما وسعه دين الله ، إن الفقه مظلوم عندما نحمله اشتجار الآراء و احتدام العصبية و تجريح الرجال ، لعل المسؤول قلة الفقه ، أو لعل المسؤول ضعف التربية الخلقية و الآداب النفسية فمتى نبرأ من هذه العلل ؟ (٣) .

(١) محمد الغزالي ، علل وأدوية (مصدر سابق) ، ص ٢٦٣ - ٢٧٤

(٢) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ، ص ١٠٧ - ١١٤

(*) هو الخليفة العباسي : (أبو جعفر المنصور)

(٣) محمد الغزالي ، الحق المر (باتتة / الجزائر : دار الشهاب ، ١٩٧٨ م) الجزء الأول ، ص ٩١

إن جهود و تأملات الشيخ الغزالي في هذا المجال لا تتوقف عند حد التشخيص المجرد بل تذهب أيضا في منحنى محاولة تلمس الحلول الناجعة للإشكالات القائمة أو العالقة تاريخيا لهذه المسألة ، من منطلقات إيمانه بضرورة دعم و خدمة المراكز الأساسية للوحدة الفكرية و الثقافية بين المسلمين و التي تمثل -من وجهة نظره- الرصيد الحقيقي و الطاقة الأكثر قوة و فعالية و صلابة في وجه الرجاسات و الهزات المرعبة التي تتهدد الكيان الإسلامي و حاضر المسلمين بوسائل مختلفة و متفاوتة بين التشكيك في الذات و إضعاف عوامل الولاء و الانتماء لتلك الأسس و المقومات المشتركة ، أو البطش و السطو بالعنف ، و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن الأخطاء التاريخية السابقة التي ارتكبتها المسلمون و كان لها تأثير سلبي على وحدة جماعتهم و انسجام صفهم لا يجوز أن تستمر أو أن يبقى لها أثر في واقعهم الراهن ، و لاحظ أن الصليبيين حين دخلوا الأندلس فإنهم لم ينشروا سوى الكتلثة ، بينما حين دخل المسلمون الشرق الأوسط فإن طوائفهم و مذاهبهم ما تزال إلى اليوم تكون (عصبة أمم) !! و إذا كان الشيخ يعزو ذلك إلى طبيعة الإسلام العجيبة في السماحة و نبذ التعصب ، فإنه لا يستسيغ بحال تحويل هذه الروح و هذه الطبيعة إلى فتوق و ثغرات تآذن للخianات و الانحرافات أن تتدل من وحدة الجماعة المسلمة و تهدد وجودها أو تبعثر العقابيل و العوائق في طريقها (١) و من ثمة فإن الشيخ الغزالي يضع هذه المبادئ في صورة مقترحات قد تدفع إلى طريق التصالح و الإخاء و التناصر بين الفريقين (٢) :

أ- يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد ، و المصدر الأول للتشريع و أن الله حفظه من الزيادة و النقص و كل أنواع التحريف ، و أن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه ، و أنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف .

ب- السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ، و الرسول أسوة لأتباعه إلى قيام الساعة ، و الاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية .

ج- ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي و العبرة التاريخية و لا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين و مستقبلهم ، بل يجمد من الناحية العلمية تجميدا تاما و يترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم و لا تسألون عما كانوا يعملون) (٣)

د- يواجه المسلمون جميعا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة ، و هي كثيرة جدا و على مرونة و تسامح في شتى الفروع الفقهية و وجهات النظر المذهبية الأخرى .

(١) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ، ص ١٥٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٠

(٣) سورة البقرة آية : ١٣٤

ثم نرى الشيخ الغزالي يصرح بأن له إخوة و أصدقاء من الشيعة يعزهم و يحبهم ، و يعترف بأن الذي أضرى أو أقرى الخلافات بين الفريقين مطالب الحكم و بعض المنازاع السياسية ، و زاد الطين بلة الافتراء و البهتان و الإشاعة ؛ و من أجل جمع الأمة على الصراط المستقيم فإن الشيخ يلفت الأنظار بأسلوب احتجاجي واضح إلى الأهواء و الأوهام التي ما تزال حتى الآن " تملأ الجو بين الشيعة و جماعة المسلمين لا يسبغ العقلاء بقاءها .. ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي و أغلقت الأفواه التي تستمرى الوقيعة و الإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساع لوجودها . و إنني إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخواني في كل قطر ، استشعر الخطر الذي يكتنف المسلمين هنا أو هناك ، و كثافة القوى التي تتجمع في هذه الأيام للإجهاز عليهم و استئصال شأفتهم ؛ لقد اتفقت أحزاب أهل الكتاب و أحزاب الوثنية و أحزاب الماديين جميعا على استئصال شأفتنا فإلى متى نتفرق ؟ لماذا يتباعد أتباع المذاهب الفرعية ؟ لماذا تجتر خلافات بين السلف و تمنح القدرة على الحياة و الأذى ؟ " (١) و في موضع آخر من كتاباته في هذا الموضوع يستمر الشيخ في طرح تساؤلاته التي تتضمن مقترحات عملية " لماذا لا يدرس في الأزهر فقه الزيدية مثلا مع فقه المذاهب الأربعة ؟ لماذا لا توضع أمام الطلاب في الصفوف العليا أو الدنيا صورة صادقة لتفكير الإمامية في الأصول و الفروع و السنن المختلفة ؟ (...) فنحن كبعض الأسر التي يرث الأحماد فيها تراث الأجداد فتكلف الأجيال الجديدة أن تخاصم -تو وعي أو عدالة- من لم يسيء إليها قط ؛ لتكن الخطوة الأولى من جانب الأزهر ، و أنا موطن أنه إذا مد يده للشيعة فإن أكثر عوامل الوقيعة سوف تذوب من تلقاء نفسها كما تذوب كتل الجليد تحت أشعة الشمس " (٢) ؛ و مما لاحظته الشيخ الغزالي أيضا في هذا السياق و كان له أثره في نفسه أن المسلم الآن في لبنان يكتب على وثائقه أنه (سني) أو (شيعي) ! و على هذا الأساس الغريب عذّ النصارى في هذا البلد أكبر الطوائف ، و كان لابد أن يكون رئيس الدولة منهم -و كذلك الوظائف الحساسة- مع أن المسلمين أكبر عددا و أربى نسبة ، بيد أنهم وفق هذا الاعتبار العجيب طائفتان متناكرتان تفصل بينهما المسافة ذاتها التي تفصل عادة بين أتباع دينين مختلفين (٣) و في سبيل وضع حد لهذه المشكلة فإن الشيخ الغزالي يعتقد بأن الاتفاق على إطار للوحدة يتيح فرصة و إمكانية مناقشة كل وجهات النظر المطروحة هو السبيل الأرشد لأن مآتي الخطر ليس في اختلاف الأفهام و التأويلات و لكنه في رد هذا الإطار الجامع أو نبذ و تجاهل المقومات الموحدة فيقول : " و عندي لو أن أهل السنة و الشيعة و الخوارج ضمهم مجلس نواب واحد ،

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) محمد الغزالي، ظلام من الغرب (باتنة/الجزائر: دارالشهاب، ١٩٨٦م) ص ٢٥٢ - للوقوف على آراء الشيخ الغزالي في هذا الموضوع ينظر مؤلفاته الآتية: كيف نفهم الإسلام فصل (وحدة الجماعة الإسلامية)، دستور الوحدة الثقافية فصل (المذاهب الفقهية وسلطات الدولة) وفصل (الخلافات الفقهية الموروثة قيمتها وأثرها) وظلام من الغرب فصل (نحو وحدة إسلامية تكريمة) و دفاع عن العقيدة والشريعة فصل (الفرق) وفصل (حول الوحدة الإسلامية) ومستقبل الإسلام خارج أرضه فصل (خطوات نحو توثيق الإخاء وتصحيح الانتماء) الخ..

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٩

على أنهم أبناء دين واحد ثم تضاربوا -في حمى الخلاف- بالكراسي كما يفعل الذين يستحقون أحيانا ... لكأنوا أدنى إلى الإسلام من تلاقهم في الميدان بالسيوف ، و توريثهم الأجيال -بعد- خصومات و ثارات لا عقل لها و لا إيمان " (١) ؛ و في معرض دفاع و استمساك الشيخ الغزالي بهذا الاطار الجامع نراه يقتطف هذه الكلمات من الشيخ محمد تقي القمي -وهو أحد رموز التقارب المذهبي ، و قد زار القاهرة في منتصف هذا القرن الميلادي و تعاون مع بعض العلماء و الفقهاء على مبدأ التقريب ، منهم حسن البنا و محمود شلتوت و الشيخ الغزالي- " لو أن التعارف بين المسلمين تم على أساس توحيد الثقافة بما في ذلك تيسير التبادل الثقافي و تأليف كتب عن كل طائفة لإعطاء صورة صحيحة عنها و تعليم اللغات الإسلامية في الجامعات و ترجمة الآثار و الرجال لعرف المسلمون أنفسهم و علموا قوتهم و مقدرتهم و أنهم مسلمون قبل كل شيء ، مسلمون في كتابتهم و تأليفهم ، مسلمون في قصصهم و أشعارهم ... لا بد أن يلتقي المسلمون بعضهم ببعض الآخر ، و هل ينكر أحد أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة البعيدة عن كل تعصب أعمى؟ (...) وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين ، فأسهل منه شأن الفقه و علوم الدين و تراث العلماء كلهم من أي مذهب من المذاهب الإسلامية ، فقد استمدوا علومهم من الكتاب و السنة و من اللغة العربية التي هي لغة الدين ، وبما أن المصدر واحد و اللغة واحدة ، فإن أقل تبادل ثقافي يكفي لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى " (٢) ؛ ويمكن لنا هنا تسجيل أنه من العسير جدا فصل تفكير الشيخ الغزالي في قضايا التقريب المذهبي و محاولة بلورة رؤية منهجية لتوحيد المسلمين ، عن تأثره الواضح في ذلك بفكر الإمام حسن البنا ، فهو يذكر في مقدمة كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) أن صاحب موضوع هذا الكتاب و ملهمه هو مجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام حسن البنا (٣) و من ثمة فإننا نراه يقتبس من الأصول العشرين لهذا الإمام المجدد ما يخدم هذه الغاية العظيمة ، و من ذلك قوله في الأصل السادس (كل أحد يؤخذ من كلامه و يترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، و كل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب و السنة قبلناه و إلا فكتاب الله و سنة رسوله أولى بالاتباع ، و لكننا لانعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح ، و نكلهم إلى نياتهم و قد أفضوا إلى ما قدموا) و قوله في الأصل الثامن (الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا في التفرق في الدين ، و لا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء ، و لكل مجتهد أجره ، و لا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله و التعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم أو التعصب) (٤) ؛

(١) محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة و الشريعة (مصدر سابق) ، ص ١٦٩

(٢) محمد الغزالي ، ظلام من الغرب (مصدر سابق) ، ص ٢٧٣

(٣) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ، ص ٧

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٠-١٦١ = و لزيادة التوسع في ذلك تراجع رسالة التعاليم، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (باتنة

/الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ص ٣٥٣ - ٣٧٠

ويصل الشيخ الغزالي في تحليله إلى ثمرة جوهرية وهي أن التنوع في الرأي و الخلاف المذهبي إنما شرفه الأوحى في انتمائه إلى الله و رسوله ، فإذا حدث أن وهت هذه الصلة الكريمة ، وأصبح الاستمداد و الاهتداء بغير الكتاب و السنة ، فإن حصيلة ذلك لا تعدو كونها سوادًا في بياض ، بل ستكون وقتئذ كورق النقد الذي لا رصيد له (١) أي أنه لا قيمة لرأي أو نظر -برأي الشيخ الغزالي- إذا ما كان لا يستمد في منطلقاته العامة من مرجعية وحدة التصور و التلقي عند المسلمين و هو النبع الخالد المعصوم.

٥- -مراجعة تراث الأمة الفكري : يلح الشيخ الغزالي في الكثير من مواطن كتاباته الثرة على ضرورة صياغة فكر إسلامي نقدي توكل إليه مهمة مراجعة تراث العقل المسلم الفكري و المعرفي ، على أساس تنقيته نهائيا من الاسرائليات و النصرانيات و الخرافات و الشوائب التي تم وضعها في أحشائه خلال بعض المراحل و الأعصار بهدف تشتيت هذه الأمة من الداخل وتمزيق وحدتها وإغراقها في بحر مظلم متلاطم الموج من الوهن و الخيبة و التخلف ، حيث يقول : " لا أزال ألح على مراجعة تفكيرنا الديني و أساليب حكمنا على الأشياء و الأشخاص . لقد سقطت الخلافة العثمانية ... و انفرط عقد الأمة الكبيرة على الصعيد العالمي و كانت خسائر (الرجل المريض) قد تلاحقت قبل وفاته ثم تقاسم الأقوياء تركته ، و أمست الأمة الإسلامية بلا أبوة روحية و لا ثقافية و لا سياسية ، فهل وقفت الأمة اليتيمة وقفة تأمل و اعتبار فيما أصابها ؟ و هل تساعل العقلاء عن أسرار نكبتها ؟ كم كتابا ألف في تشريح العوج السياسي و القصور العلمي و الانهيار اللغوي الذي عرا هذه الأمة ؟ كم كتابا ألف في طبيعة التركيب الجنسي و الخلافات العرقية التي كانت تكون الدولة الغاربية ؟ كم كتابا ألف في تطور العلاقات الدولية مع جمود الفقه عندنا ، أو في تطور النهضات الإنسانية مع عكوفنا على الصور و الأشكال الجوفاء ؟ بم شغلنا ؟ وبماذا نشغل الآن ؟ إن مراجعة تفكيرنا الديني ضرورة ماسة ، ولا أعني بتاتا رجوعا عن أصل قائم أو فرع ثابت فهذا و العياد بالله ارتداد مقبوح .. هناك فرق بين الرجوع و المراجعة ، إنني أعني بالمراجعة الحساب العقلي الشديد على مواقفنا من أنفسنا وديننا وماذا فعلنا وماذا تركنا وماذا قدمنا وماذا أخرنا ؟ .. وكل محاولة للنهوض - دون هذه المراجعة الواجبة - قد تكون تكرارا للمأساة ، وهذه المراجعة سهلة مادامنا ننطلق من قواعد معصومة أساسها الكتاب و السنة ، على أنه لا بد من إبعاد العقول الملتأنة عن علم الكتاب و السنة ، ولا بد من تنقية منابعنا الثقافية حتى تروج أقوال الأئمة و العباقرة و أهل الفكر ، وتستخفي أقوال المعلولين و أذئاب السلطات و أشباه العوام (٢) " ؛ إن عملية المراجعة المطلوبة كما يفهم من تفكير الشيخ الغزالي لا تعني مجرد القيام بجهد علمي يستهدف غربلة تراث هذه الأمة من الأوضار و الشوائب التي تسربت للكثير من مظانه أثناء بعض مراحل الغفلة و الانحطاط ، أو خلال محاولة إستقالة العقل المسلم عن الإسهام المبدع و الحركة الخلافة ، وإنما تعني إلى جانب ذلك كيفية

وأسلوب إيجاد منهج يحسن استغلال توظيف الخصائص الحية الفاعلة في هذا التراث باتجاه توحيد الأمة والتمكّن الصحيح من وضع مجمل قواها وطاقاتها - بعيدا عن أي استنزاف داخلي قد تتبعت دواعيه وتتقوى أسبابه جراء الاشتغال بالخلافات الموروثة وسفاسف الأمور - في بؤرة خدمة إقلاعها الحضاري واستنهاضها الحقيقي النابع من خصوصياتها الذاتية ، والمواكب في الوقت نفسه لشروط المرحلة ومتطلبات العصر ومقتضيات التغيير الإنساني والزمني والمكاني ؛ ويظهر لي في غمرة هذا التحليل " أن الأمر كله اليوم متوقف على مدى فعالية ما يبذل من جهد في هذا الاتجاه ، و كذلك على مدى الإحساس الثقافي و النفسي بخطورة التفتت و التجزئة ... أما العالم الإسلامي كمجموع فلا بد أن يدرك أنه إن لم ينتهج طريق الوحدة و التكتل فإنه سيستمر في التآكل و التفتت " (١) ؛ فإذا تم الربط على هذا النحو بين مشروع مراجعة المنتج الفكري و الثقافي و بين مطمح و هدف رص صفوف الأمة و تجميع أجنحتها حول كيائها العتيد ، فإن تقديرنا لا ريب و احتفاءنا بهذه المراجعة سينضاعف ، و لعل إدراك الشيخ الغزالي لأبعاد هذه المعادلة و أثرها في رهانات نهضة أمتنا و إمكانات تخطيها عقابيل و مشكلات واقعها المعاصر ، جعله يستصرخ الهمم و أولى الغيرة و المقدرة و البصيرة من أجل تأسيس (جهاز) فكري للمسلمين يحسب أرباح الأمة و خسائرها مع سير القرون و اطراد الزمان ، و يشخص العلل و يقوم برصد التجارب و مواطن النجاح و التآلق في كل مكان ، سعيا لعلاج الخلل الداخلي و سد الثغرات الطارئة (٢) بل جعله يعتقد في جزم بأن العالم الإسلامي الآن " أشبه ما يكون بشخص أصيب بفقدان الذاكرة ، فهو لا يدري شيئا عن ماضيه الرائع ... (٣) ... إن هناك مئات الكتب في التفسير و الحديث و الفقه و الأدب و التاريخ مخلوطة بسموم ناقعة و خرافات سمجة ، تتداولها ألوف الأيدي و يقرؤها من يعي و من لا يعي ... أما كان هناك (جهاز) غير حصيف يتتبع هذه الأباطيل بالمحو ، فإن لم يستطع إزالتها من مواضعها وضع ألف علامة حمراء للتحذير منها و التنبيه إلى دخلها و فسادها ؟ لقد كثرت هذه الكتب السفهية الزائفة حتى غابت الثقافة الدينية الصحيحة ، فلا عجب إذا وجدنا الأجيال المتأخرة من المسلمين خلال القرون الأخيرة - أعني مئات السنين - يسرون متعثرين لا تشدهم وجهة و لا تدفعهم قوة ، لأن الثقافة التي صنعتهم لا تنتج إلا نفوسا خاملة و عقولا سائها " (٣) ؛ إن يتبع أثر الوضع في الثقافة الإسلامية بالإزالة و التعليق و الرد و ترقية تراث هذه الثقافة من شتى ضروب الاختلافات ، هو في رأي الشيخ الغزالي من المرتكزات المهمة لخدمة التماسك الوجداني و العاطفي بين المسلمين ، لأن تلك العناصر الغريبة و الزوائد الداخلية إنما تم وضعها لغرض تفريق الأمة الإسلامية بتكسير الدعامات الحقيقية

(١) إبراهيم نويري " خواطر في الوحدة الإسلامية " مجلة الحرس الوطني ، السعودية ، العدد (١٣٢) (صفر ١٤١٤ هـ/أغسطس

١٩٩٣ م) ، ص ٣٠

(٢) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب(ط، الجزائرية الأولى، الجزائر: مكتبة رحاب ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م) ، ص ٨

(٣) المصدر نفسه و الصفحة نفسها

لوحدها و تدويخ العقل الإسلامي ، فأقرب حل إذن لهذه المشكلة يتمثل في وضع منهجية مضادة لهذه الحركة ، مهمتها الأولى رصد كل مواطن و منافذ اختراقات مظان و حصائل الثقافة الإسلامية و معالجة كل قضية بالطريقة و الأسلوب المناسب لها ، إما بالإزالة و إما بالرد المباشر و إما بالتعليق و إما بالتحذير منها .. الخ ، غير أن الشيخ الغزالي و إن كان يشدد على هذا الأمر فهو يعتقد بضرورة المراجعة الشاملة ، و هو ما يقتضي القراءة النقدية الواعية لماضي هذه الأمة ، إذ لا بد -برأيه- " من نقد عليم بريء للطريقة التي سار بها العالم الإسلامي من قرون خلت في المعترك العالمي و محاكمة لهذه الطريقة من الناحيتين العلمية و العملية دون تهيب للسلاسة أو للعوام . فإن الحق أكبر من هؤلاء و أولئك و وجه الله أبقي على كل حال ... لقد مرت بالإسلام أربعة عشر قرناً حافلة بالشدة و الرخاء و الانتصارات و الهزائم ، و هو الآن بعد هذا التاريخ الطويل يواجه أياماً حاسمة ، فإما اجتازها و مضى مسدداً الخطو نبيل المقصد ، يهب للدنيا رشدها و خيرها ، و إما انتكس به أهله و خانوا أمانته ، فكانت الأخرى لا قدر الله ، و في مثل هذه الأيام العصبية نهيب مرة ثالثة بأولي الألباب أن يهتموا بدور الثقافة في إبراء الأكمه و الأبرص " (١) ؛ و من جهة أخرى فإن عملية إخضاع تراث هذه الأمة الفكري للقراءة النقدية الفاحصة و تنقية مظانها و مصادرها الكبرى من الزوائد و الأوضار الدخيلة ينبغي أن يتصدى لها متخصصون مخلصون في الانتماء الحضاري لهذه الأمة و هوية فكرها و ثقافتها ، و يعتبر الشيخ الغزالي من أوائل المفكرين الإسلاميين في هذا القرن الذين تبادلوا بهذه الدعوة في نطاق الحركة الشاملة للإحياء الثقافي ، و جعل الوحدة بين المسلمين من الأهداف الرئيسية الثابتة لمسار الثقافة الإسلامية في أي مرحلة من مراحل حركتنا الزمنية ، و يظهر أن هذه الدعوة باتت مطلباً ملحا في نتاج العقل الإسلامي المعاصر الثقافي و المعرفي و اهتماماته ذات الأولوية البالغة ، و إذا كان التراث هو أحد أهم جوانب هذه الحركة ، فإن البعض يؤكد بأن عملية تيسيره و تقريبه للأجيال المعاصرة ليست سهلة -خاصة في هذه المرحلة- " فإن احتمال التحريف المتعمد للقيم التراثية يعتبر من أبرز الأخطار التي اقترنت بما تم في هذا المجال ، بسبب الغزو الثقافي الذي تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية ، و الذي أدى إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية و لا تركز إطلاقاً على جذورنا الثقافية . إن التيسير المطلوب و التوطئة المقصودة تحتاج إلى أقلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية ، و تقر بجذوى تجديد روح الأمة و قيمها بالارتكاز على جذورها الحضارية و الثقافية ، و من دون ذلك لن يكون التيسير إلا تشويهاً منظماً و تخريباً مقصوداً ، و لن يثمر في تعميق الوحدة الثقافية للأمة بل سيزيد في الفصام و يقوي التشتت و الإحساس بالضيق و فقدان الهوية " (٢) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) أكرم ضياء العمري ، التراث و المعاصرة (سلسلة كتاب الأمة رقم ١٠) (لدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية ، ط ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م) ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٦) - صياغة منهج معرفي جديد لفهم التاريخ الإسلامي و الاعتبار بأحداثه : من الثابت أن المؤرخين المسلمين قد ركزوا على تدوين التاريخ السياسي على حساب تاريخ العلم و الفكر و الاجتماع الإسلامي ، فكان لابد أن تكون الثقافة التاريخية السائدة بين الأجيال الإسلامية المختلفة عامل افتراق و تشتت و إيغار للصدور و النفوس ، عوض أن تكون ركيزة وحدة و مناصرة و تأييد ، و ذلك بسبب ما ساد هذا الجانب من تاريخنا من هزات و انحرافات و أخطاء غريبة تماما عن طبيعة الإسلام ؛ من هنا رأينا الشيخ الغزالي في الكثير من مواطن كتاباته يدعو لإيجاد منهج معرفي إسلامي جديد يجعل من خلفية الثقافة التاريخية لمنحنيات وقائع التاريخ الإسلامي و فصول أحداثه و منعطفاته المختلفة ، سندا ثقافيا و معرفيا يسهم مع غيره من المرتكزات و الدعامات في خدمة و تقوية النسيج العاطفي و الثقافي المشترك بين جميع أبناء الولاء و الانتماء الإسلامي ؛ لذلك فهو يؤمن بأن " كل معنى بتجديد الإسلام ... لابد أن يديم النظر في ماضيه الطويل و هو يمتد مع الزمان و المكان . لقد بدأت هذه الرسالة مسيرها من أربعة عشر قرنا ، و جعل مدها العريض يشتمل أقطارا فيحاء و اجناسا مختلفة ... و تنقل بها الليل و النهار ، فالأسلاف يولون و الأخلاف يعقبونهم في الإيمان بها و الدفاع عنها (...). هذا التاريخ الطويل كيف ينسى ؟ و عبره الغائرة الدفينة كيف لا تستخرج و تدرس و ينتفع بها ؟ إن الرجل الذي لا يعي تجاربه الخاصة ، و يتعلم منها كيف يجتنب المزالق و يتقي الخصوم رجل قصير النظر ضعيف الإيمان ... و الأمة الإسلامية التي سلخت من عمرها المديد هذه القرون و خرجت بثروة هائلة من الأحداث الجسام و الوقعات العظام ، يجب أن تضع أمام عينيها الدروس التي تلقتها خلال هذه الآماد ، حتى لا تقع في ذات الحفر التي وقعت فيها من قبل أو تلدغ من الحجر القديم نفسه (١) "

إن طبيعة السيرورة التاريخية لحركة المبادرة و الفعل في التاريخ الإسلامي و انعكاساتها العميقة من جهة تأثيرها على محددات الولاء للإسلام و الإخلاص لمرجعيته الحضارية ، هي التي أملت هذه الرؤية على الشيخ الغزالي ، و هو مفكر شغوف بقراءة التاريخ الإسلامي ، لكنها قراءة متملية ناقدة ، قراءة مراجعة راصدة و اعتبار هادف باني ، لذلك فنحن نجد في خضم دعوته لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، قد لاحظ أن الطريقة السردية غير المنضبطة برواية منهجية واضحة إزاء عملية البناء الاجتماعي الإسلامي و مسؤولية الوفاء بواجبات الاستخلاف و الشهود الحضاري ، وهي الطريقة التي دون بها هذا التاريخ ، لاتخدم الأهداف التربوية و السياسية للشخصية الإسلامية ، لأن السرد في هذه الطريقة غير معني سوى بتدوين اللحظة الآتية من الفعل التاريخي دون أي اعتبار بالعوامل و الدوافع المستخفية التي أنتجت ذلك الفعل ، وبالتالي دون اهتمام أو تقدير للتأثيرات السلبية كتوقعات مستقبلية ، فإن العديد من الوقائع التاريخية قد لا يكون لها تأثيرات سلبية في اللحظة الراهنة ، أو يكون لها تأثيرات محدودة الضرر

(١) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (الطبعة الجزائرية الأولى ، الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت)

في منعطف ما .. قد تكون لها تأثيرات حاسمة أو قاتلة في مرحلة أخرى ؛ كما لفت انتباه الشيخ الغزالي نقص التاريخ الإسلامي من حيث الكم ، فإن التاريخ المدون و الذي يدرس جله أو معظمه عن منطقة الشرق الأوسط ، و المسلمون يشكلون خمس العالم تقريبا ، فالمعروف أن شعوبا وأجناسا كثيرة قد أسلمت إلى جانب العرب كالفرس و الترك و الأكراد و الهنود و الزنوج وأجبال من الصين و المغول وأندونيسيا وماليزيا وجماعات غفيرة وأقليات أخرى في القارات الخمس ، فأين التاريخ الإسلامي لهذه الشعوب و الأقليات ومن أين يمكن للدارس الوقوف على معرفة أسباب وظروف اعتناق هؤلاء للإسلام إلى جانب إحصاء الخدمات المختلفة التي قدمتها هذه الأجناس للحضارة الإسلامية؟ من هذه المنطلقات ونحوها يقتنع الشيخ الغزالي بمشروعية البواعث التي تحتم إعادة تدوين التاريخ الإسلامي من البدايات وإلى غاية القرن الخامس عشر الهجري ؛ بيد أن هذا الخلل العلمي و المنهجي في منظور الشيخ الغزالي وإن كان متولدا عن أسباب داخلية أساسا ، فالعامل الخارجي أيضا له حضوره ، فإن الغارة على العالم الإسلامي وموجات الغزو الفكري و الثقافي المتلاحقة ساهمت في عدم تحقيق هذا الجهد و الاتجاه بمنحاه صوب الغايات المنشودة و التطلعات المأمولة (١) و الذي نلاحظه هنا أن تحليل الشيخ الغزالي الذي يقترب من حيث الاهتمام بدراسة بواعث الفعل التاريخي من منهج فلسفة التاريخ ، له ما يدعمه من واقع السيرورة التاريخية و الحضارية للأمة الإسلامية ، ودونما حاجة للإلتجاء لأي إسقاطات أو معايير خارج نمط هذه السيرورة فإن " الأمة الإسلامية لم يتكون تاريخها بعد أن صارت أمة تحمل صفة الإسلامية إلا بمجيء الإسلام وانتظامه لشعوبها ضمن إطاره العقدي و الحضاري ، لهذا فإن أي تفسير لتاريخها يستبعد الدين بوصفه منهجا للتفسير أو إطارا حاويا لها محكوم عليه بالقصور الفاحش و الفشل الذريع " (٢) ؛ لكن الحاجة القصوى لهذا المنهج عند الشيخ الغزالي لاتبررها أو تدفع إليها مقتضيات الدراسة النظرية فحسب ، وإنما الأولى والأهم من ذلك عنده هو كيفية تحقيق الاستفادة العملية من وراء هذا المنهج بتطويع الثقافة التاريخية لخدمة ودعم وتمية الأواصر و الوشائج العاطفية و الفكرية المشتركة بين المسلمين ، وهكذا يضحى تركيز الشيخ على الدعوة لهذا المنهج وكذلك اهتمامه بمشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي وحملته النقدية اللادعة لمختلف الانحرافات الفكرية و النفسية و السلوكية وأفعال حركة تاريخ المسلمين لها معناها العملي و تفسيرها المليء بدلالات رعاية المصلحة الإسلامية ، فالمنهج الذي يدعو إليه الشيخ الغزالي في هذا الصعيد ينبغي أن يصل حاضر هذه الأمة بماضيها و أن يستفيد رسالتها و يرعى خصائصها و في مقدمة تلك الخصائص تحقيق مبدأ الوحدة الثقافية و العاطفية و ما يتفرع عنه من قيم المناصرة و الأخوة و الولاء (٣) .

(١) محمد الغزالي ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل (مصدر سابق) ، ص ١٠٥ - ١٠٦

(٢) محمد مراح "الدين و فلسفة التاريخ" مجلة الحرس الوطني السعودية ، العدد (١٦١) (شعبان ١٤١٦ هـ/يناير ١٩٩٦ م) ، ص ٦٦ - ٦٧

(٣) محمد الغزالي ، هموم داعية (باتة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ١٦

ثالثا : ملاحظات و استنتاجات :

إن ما يمكن ملاحظته أو استنتاجه من التحليل و التشخيص و المتابعة النقاط الآتية :

(١) أن الشيخ الغزالي يجعل من المرتكزات الثقافية للأمة الإسلامية قاعدة خلقية تضمن استمرار تماسك البنى الجوهريّة للكيان الإسلامي ، و دليل ذلك عنده أن المجتمع الإسلامي ظل صامدا مؤديا رسالته إبان المنعطفات الحرجة و العصبية التي تهاوت فيها الوحدة السياسية المتمثلة في الخلافة أو بعض الأنظمة السياسية ؛ أي أن الجهود العلمية و الفكرية و التربوية هي التي حفظت الإسلام و مجتمعاته من المخاطر و المهالك المرصودة (١) .

(٢) يسعى تفكير الشيخ الغزالي إلى تجاوز عقبة الشعارية إزاء المقومات الثقافية للأمة ، فإن النظر إلى هذه المقومات من زاوية كونها شعارا لا مكونات لحقيقة موضوعية قائمة ، قد أضر كثيرا بهذه المسألة الحساسة بما لذلك من انعكاسات سلبية فادحة على مستقبل العلاقات بين المسلمين ، ويمكن تصور مدى وحجم المخاطر المتوقعة من درجة الاهتمام بهذه المقومات من بؤرة الشعور الإسلامي إلى حاشية هذا الشعور أو إلى خارجه .

(٣) على العرب واجب الاقتراب من تفهم ظروف إخوانهم في العقيدة و الهوية الفكرية و الحضارية المشتركة ، وهذا يقتضي منهم الاجتهاد في فهم و تعلم لغاتهم الأصلية و محاولة وضع برامج علمية لتعليمهم اللغة العربية .. فتلك هي السبيل لمتابعة همومهم و الاستماع إليهم و تفعيل مواقعهم و أدوارهم داخل الكيان الإسلامي .

(٤) إن حديث الشيخ الغزالي عن المرتكزات الثقافية للوحدة بين المسلمين جاء في سياق سنني ، أي أن تخلف المسلمين ما هو إلا جانب من صورة تفریط المسلمين في هذه المرتكزات و المقومات و عدم احلالها في الواقع العملي مكانها اللائق بها ، لأن هذه المرتكزات هي بمثابة الأعصاب المناسبة داخل الكيان الإسلامي ، فهي تظهر ملامح شخصيته المعنوية بقدر ما تجعل أجزاءه متماسكة و جنباته مترابطة .

(٥) ينبغي على المسلمين كافة و العلماء و الدعاة خاصة الاهتمام الفاعل بخدمة الدعوة الإسلامية و تطوير وسائلها و أدواتها بما في ذلك رعاية الأقليات المسلمة في كل مكان ، و عدم التفریط و لو في مسلم واحد ، فقد تأكد أن هذه الدعوة أحد أقوى عوامل الوحدة العاطفية و الشعورية بين المسلمين .

(٦) ضرورة العناية المستمرة بالثقافة الذاتية في أي مجتمع إسلامي و تفعيل مكانتها و دورها في عملية الاستنهاض الفكري و الاجتماعي ، و العمل على التمكن من صياغة منهج إسلامي لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي و جعل الثقافة التاريخية في خدمة المصالح العليا للأمة و صون مبدأ التناصر و التعاون في المتفق عليه ، و التسامح أو العذر و التجاوز بالنسبة لما هو مواطن اختلاف .

(١) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ؛ ص ٢٦٢

٧) إن ما يفهم من الجهود العلمية و الفكرية التي قدمها الشيخ الغزالي في هذا المجال ، أنه يدعو إلى الإلتزام بتقنين المرتكزات الثقافية للأمة ، و دعمها بضمانات مشتركة ثابتة من خلال ميثاق شرف يتعهد الجميع بإنفاذه بحماس و إخلاص .

٨) يؤمن الشيخ الغزالي بأن الفقه الإسلامي ثروة عقلية و تشريعية ليس لها نظير في الإبداعات العقلية و التنظيرية للحضارات الأخرى ، و أن من واجب كل المسلمين توقيير و احترام هؤلاء الفقهاء المبدعين ، غير أن التقليد و الجمود على مذهب واحد لا يخدم الوحدة الثقافية للمسلمين ، و الأصوب هو الاستفادة من هذه الثروة الاجتهادية البديعة و تطويع ثمراتها لمواجهة التحديات و حل مشكلات العصر (١) .

٩) - ضرورة تقيد الفكر الإسلامي المعاصر بمرجعية التصور و التلقي المجمع عليها بين المسلمين ، مع إيجاد منهج للإنتفاع بالوقائع و التجارب الإنسانية عن طريق التبنّي و الاستنباط و الاستلهام على ضوء هذه المرجعية و إبداع منهجية عملية تضع هذه الحصائل و النتائج في خدمة المقومات الثقافية للأمة المحددة لقسمات شخصيتها الفكرية و هويتها الحضارية .

١٠) - إن فكر الشيخ الغزالي فكر تجميعي وحدوي فاعل ، و لاشك أن ذلك من نضح القرآن في روحه و عقله و حسه ، فالتوحيد الخالص الرائق هو عمق شخصيته ، مما جعل تفكيره ترجمة متماهية مع هذا العمق ، بالإضافة لفقهه المتميز لمقاصد الإسلام و استفادته من رموز الاجتهاد و الإصلاح المحدثين و المعاصرين كالشيخ محمد عبده و محمد رشيد رضا و حسن البنا و عبد الله دراز و محمد المدني و محمد تقي القمي و محمد أبو زهرة ... و غيرهم من الأعلام و المجتهدين الذين خدموا الإسلام و أمته و حضارته ، و تركوا بصماتهم على صفحات تراثه العلمي و الفكري و الثقافي و المعرفي و الإنساني .

(١) يرى الشيخ الغزالي أن المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة لما في ذلك من مخاطر على وحدة المسلمين (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) - (مصدر سابق) - ص ١١٨ - ١٤١

جهوده الفكرية ومنهجها في مواجهة الغزو الثقافي

تمهيد :

ليس بمقدور أية ثقافة أن تعيش في قوقعة ، أو في برج عاجي بمعزل عن ثقافات الأمم الأخرى ، فالعزلة و التفوق طبيعة مغايرة و بعيدة تماما عن الطبيعة الحقيقية للمسألة الثقافية ، المتمثلة بالأساس في عملية الفعل و التفاعل ؛ فما من منظومة ثقافية نابغة عن روح حضارية أو رؤية كونية معينة ، إلا وعاشت في نطاق معادلة التأثير و التأثير ، والأخذ و العطاء ، و الفعل ورد الفعل ، ذلك أن خاصية التدافع بين الحضارات و الثقافات المختلفة سنة إلهية يشهد بها واقع الحياة المنظور ، ويؤكدها تاريخ البشرية الطويل ، وشتى مراحل الحضارة الإنسانية .

والإسلام كروية كونية شاملة فإنه يقر هذه الحقيقة الخالدة ، ولا يتحدث عن أصالة الفعل الإنساني إلا داخل هذا النطاق الراسخ باعتباره سنة كونية لامحيص عنه ، ولامجال مطلقا للتمرد عليه .. بل إن مجرد محاولة إعمال الفكر بعيدا عن حدود هذه الحقيقة لايعني - وفق المنظور القرآني - إلا الانتحار و العمى عن الحق الذي أقام الله عليه السماوات و الأرض . واستنادا إلى حقائق هذه المعادلة الصارمة و بناء على مقرراتها فإن الثقافة الإسلامية تأسست في منهجيتها العامة وفق هذا المنظور ، وبما يتسق مع مقررات تلك المعادلة الكبرى .

وربما لانجد صعوبة تذكر في إثبات هذه الحقيقة البارزة ؛ فالقرآن الكريم - وهو المصباح الذي يستضيئ ويستهدي به العقل المسلم - قد أسس لمنهج الجدل مع الآخر الثقافي و الحضاري ، ودعا إلى ضرورة محاجة أهل الكتاب ، ومقارعة الفكرة بالفكرة و الدليل بالدليل ، توخيا لنصرة الحق عن طريق العقل وإعمال الفكر و النظر ، كما أنه نبذ التقليد و التفوق و الإعزاز ، واعتبر ذلك خذلانا للحق و الزج به في سبيل يأباه له الله سبحانه و تعالى .

كما أن الحياة العملية - كما تثبت تجربة الواقع التاريخي - للنبي صلى الله عليه وسلم ، و الصحابة الكرام ، وجيل السلف الصالح ، تقوم ليللا آخر في دعم وتأكيد هذا المنهج ؛ إذ لم يكن هؤلاء جميعا منعزلين عما يحيط بهم أو يوجد في بيئتهم ، بل إنسه كان هناك نقاش و حوار بين الرسول عليه الصلاة و السلام و بين أتباع الأديان الأخرى من أهل الكتاب ، وفي الغالب فإن هذا الحوار كان يجري أمام الملأ ، وليس بعيدا عن أفهام الناس و أنظارهم ، ومما يروى كذلك في هذا المقام - وهو أيضا ما ينطبق على الصحابة الكرام - انه صلى الله عليه وسلم - كان له آراء في بعض عادات و تقاليد الأمم التي كانت تحيط بجزيرة العرب ؛ حتى الشعر الجاهلي و الأدب الجاهلي بما يتضمنه من سلوكات و تجليات ثقافية - فقد كان له فيه بعض النظرات و الأقوال و الآراء .

هذه هي الرؤية التي انطبعت بها الثقافة الإسلامية منذ مراحل النشأة و التأسيس ، وقد تجلت هذه الرؤية في صورها العملية عبر مختلف مراحل تاريخ هذه الثقافة ، وخلال بعض عهودها كالعهد العباسي مثلا - وبفعل عوامل ذاتية- فإن الثقافة الإسلامية استطاعت بحسن استيعابها لقاعدة (الفعل و التفاعل) هضم وتحويل الكثير من المعارف - وأبرزها الفكر و المعرفة اليونانية - وجعلها جزءا أصيلا منها ، وماحدث من أخطاء أو عثرات منهجية في هذا التحويل لم يكن في الحقيقة هو القاعدة أو الأصل ، وقد كان للفكر الإسلامي موقف مشهود منه ، وماذلك إلا لكون التصور الإسلامي كان قادرا بعبقريته المتميزة على الهضم و التحويل و الاستيعاب و الإبداع ، وكان ذلك يتم برعاية المنهج القرآني المستتب في طرق وأساليب التعامل الفكري للعقل المسلم .

إذن لم تكن الثقافة الإسلامية - وفق هذا المنهج - ثقافة إنعزالية بعيدة عن واقع الناس واهتماماتهم، أو منطوية على كنوز الحق الذي شرفت به بعد نزول الكتاب الخاتم ، وإنما كانت ثقافة متفتحة على الآخرين ، متفاعلة بإيجابية مع مختلف المعطيات الإنسانية المتسقة مع الفطرة الصحيحة و الفكر الراشد، وفق التحديد النبوي الكريم الوارد في الحديث النبوي الشريف : " الحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحق بها " (١) .

هذه هي آفاق المنظور الإسلامي لمعادلة الأثر و التأثير في المجال الثقافي وحوار الأفكار و الحضارات ؛ أما إذا اختل التوازن داخل هذه المعادلة ، وظهر البون شاسعا بين طرفيها ، إلى حد يصبح معه الجانب الغالب هو المهيمن المؤثر ، و الجانب المغلوب يتأثر ولايؤثر أو يستهلك ولا يبدع ، فإن الأمر يختلف دون شك ؛ وهذه مسألة تُعرف في أدبيات تدافع أنساق الفكر المعاصر بظاهرة الغزو الثقافي أو الغزو الفكري .. وهذا المبحث يحاول جعل فكر الشيخ محمد الغزالي نموذجا للتعرف على موقف الفكر الإسلامي المعاصر من هذه الظاهرة الحضارية و الإنسانية .

لكن قبل بسط ماله صلة ببعض جوانب هذه المعادلة و إيضاح أهم تجلياتها يحسن بنا أولاً تعريف هذه الظاهرة - المشكلة ، حتى نستطيع بعد ذلك استقصاء جهود الشيخ الغزالي الفكرية و المعرفية التي تصدى بها لأساليب الغزو الفكري و الثقافي ، وكشف بواسطتها عن أبعاد الهجمة الحضارية و الإعلامية و الثقافية التي استهدفت ومانزل - بعنف - هوية المسلمين الفكرية و شخصيتهم الحضارية ؛ وحتى نتمكن كذلك في الأخير من الوقوف على أهم معالم منهجه في مناقحة وخصامة الأنساق الثقافية و السلوكية التي تروم تدويخ العقل المسلم و إذابة خصائص الشخصية المسلمة .

(١) رواء الترمذي وابن ماجه

أولاً : تعريف مصطلح الغزو الثقافي :

الغزو الثقافي هو مجموعة الأفكار و المعلومات و المناهج و البرامج التي تستهدف بشكل مباشر أو غير مباشر تحطيم مقومات الآخر الحضاري و الفكري ؛ وفي مقدمة هذا الآخر الأمة الإسلامية التي يستهدف هذا الغزو القضاء على بنيتها العقديّة و الفكرية و الثقافية و الحضارية ، أو يشكك في مدى ملاءمتها للعصر وأنماطه الحيّاتيّة المختلفة ، و الحط من قيمتها و تفضيل غيرها عليها ، وإحلال سواها محلها ، في القوانين و مناهج التعليم و برامج الإعلام و التثقيف ، أو الأدب و الفن ، أو النظرة الكلية للدين و الإنسان و الحياة .. وهذه الإشكالية المشكلة تقف وراءها عدة أسباب منها مايلي :

- لم يواكب النضال السياسي و المواجهة العسكرية ضد الإستعمار في البلاد الإسلامية ، رؤية فكرية واضحة في محو آثار المستعمر ، خاصة نفوذه الثقافي و بنيته الفكرية و الأيديولوجية.

- تأثر الأنماط و البدائل الثقافية التي تقررت كثقافة قومية بعد أفول الإستعمار العسكري ، بأفكار الغازي و تطلعاته المذهبية و الثقافية و السياسية و غيرها .

- حصول خلط بين العلوم التجريبية التي لاوطن لها " المشترك الإنساني العام " وبين العلوم الإنسانية و الإجتماعية ذات الصلة الوثيقة بمكونات الشخصية الحضارية للأمة " الخصوصية الحضارية " .

- بطء حركية برامج التجديد الثقافي و الحضاري في معظم أقطار العالم الإسلامي ، وتأجيل تنفيذها في بعض الأقطار الأخرى .

- شراسة الهجمة الإعلامية الغربية التي يديرها خبراء في مجال الصراع الفكري ، وانعدام أطر الإنتاج الإعلامي البديل في العالم الإسلامي الذي من شأنه تحصين الذات الفكرية و الحضارية للأمة الإسلامية (١) .

ومن الغريب ، بل من مصائب العصر الذي نعيش أنه يوجد من أبناء أمتنا من ينكر وجود الغزو الثقافي و الفكري ، ولايقر إلا بحقيقة الغزو العسكري (٢) ؛ وهذه الصورة بحد ذاتها - دون شك - هي مظهر من مظاهر الغزو الفكري ، وأثر من آثار الإلحاق الحضاري ! .

(١) أنظر محاضرة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي - (تحديد مفهوم الغزو الثقافي) التي ألقاها بملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر (الغزو الثقافي و المجتمع الإسلامي المعاصر) المنعقد بمدينة بجاية " الجزائر" من ١٩ إلى ٢٦ ثوال ١٤٠٥ هـ ، الموافق ل : ٨ إلى ١٥ يوليو ١٩٨٥ م ، وقد نشرتها وزارة الشؤون الدينية بالجزائر وتم توزيعها بالملتقى وقت إلقائه محاضرته .

(٢) وعن منكري الغزو الثقافي يقول الشيخ الغزالي في كتابه (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) فصل: (تجاهل المعارف أم تجاهل الماكر): (من الإصرار على الذنب و الإيغال في المخادعة أن يتحدث البعض إلى شبابنا و طلابنا منكرين الغزو الثقافي ، ورافضين الاعتراف بآثاره المنمرة، فما هذا الذي يقع بين ظهرانينا فيغير الحقائق و العناوين؟ وينصل حاضرنا عن ماضينا؟ ويضع قلبا مكان قلب و عقلا مكان عقل؟.. أليس هذا الغزو الثقافي أنكى من الغزو العسكري؟ إنه غزو بادي النجاح فهو بدل أن يقتل خصمه بغريه بالانتحار! إنهم يحيون من الدكاترة المتحدثين في الفلسفة و الأدب و التاريخ فيقولون: الغزو الثقافي شبح يتخيله الواهمون! أو هو تلاحج فكري لابأس به ، أو هو حق الحضارة الغالبة في فرض نفسها!!)

بينما الواقع المؤكد يشير إلى أن الغزو الفكري إنما هو حقيقة كاملة وليس وهما من الأوهام ، أو حساسية مفرطة ومرضية مبعثها التخوف من افتقاد (الذات) خصوصياتها ومميزاتها النفسية و الفكرية و الحضارية ؛ فنحن " إذا تصورنا وطننا من الأوطان بحدوده (الجغرافية - السياسية) وشهدنا تحرك جيش هذا الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود ، فلن يكون ثمة مجال لحديث عن (غزو) لهذا الوطن .. لأن الحركة طبيعية ، في الاطار الطبيعي للحدود الطبيعية . كذلك إذا نحن تصورنا الخريطة السياسية لـ (الدول) التي تقسم أرض الكوكب الذي عليه نعيش ... ثم نظرنا إلى حركة (الهواء) و تيارات الرياح التي تعبر (حدود) هذه الدول ... و كذلك التيارات المائية التي تأتي إلى (المياه الإقليمية) من (المياه الدولية) ... فلن يتسنى لقائل أن يصف عبور (الهواء و الماء) لهذه (الحدود) بأنه (غزو) يستدعي المنع و الإنكار و الاستنكار ! ...

لكن هل (الفكر) - على هذا الكوكب الذي نعيش فيه - بمثابة الهواء و الماء لا يعرف و لا يعترف بالحدود ، و من ثم فإن عبوره - سواء أكان بالهدوء أو بالإقحام - لحدود الدول و الأوطان لا يحمل شيئا من سمات (الغزو) التي تستدعي المقاومة ؟ ... أم أن هذا الفكر هو بمثابة (الجيش) لابد و أن يلزم إطار وطنه و حدوده ، فإن تعدى (الحدود) كان (غزوا) يستحق المقاومة و الاجلاء ؟ ... إن التمايز الحضاري و التعددية الحضارية لا تنفي واقع (المشترك الإنساني العام) ، فتقع في وهم الاختلاف الكامل و الانغلاق التام ، كما أننا ننكر تصور العالم وطننا حضاريا واحدا لحضارة واحدة ... و هو تصور الذين ينكرون (الغزو الفكري) ويرونه مجرد وهم من الأوهام .. فالواقع الموضوعي أن من (الفكر) ما هو بمثابة (الجيش) لابد و أن تلتزم حركته (الحدود) و إلا كانت هذه الحركة (غزوا فكريا) تستوجب الرفض و الصد و المقاومة و التحصين .. و من هذا (الفكر) ما هو بمثابة (الهواء) لن يؤدي منعه من عبور (الحدود) - على افتراض تصور إمكانية هذا المنع - إلا إلى الإختناق (١) .

فهذه المقررات الموضوعية تؤكد بالأدلة المشهودة حقيقة الغزو الثقافي و الفكري ، ومدى إمكانية تصور محاولات الإحتواء التي تمارسها الثقافات المهيمنة إزاء ثقافات الأخر الحضاري ، دعما لمواقفها الحضارية و الأيديولوجية ، وتعزيزا لإمتداداتها النفسية و الذهنية و الجمالية ، ولا يخلو فعل الإحتواء الذي تمارسه هذه الثقافات المهيمنة الغازية من الروح الإستفزازية بل و من مشاعر الإنتقام العدوانية أيضا تحت ضغوطات دوافع عقدية و تاريخية في الغالب ، أو بدوافع مكاسب مادية ظرفية ، وهذه تكون عرضية عادة أو كنتيجة مقترنة بتحصيل ثمار الدوافع الأولى .

(١) محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة دار الشروق الأولى (القاهرة و بيروت : دار الشروق ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م)،

ص: ٦-٧-١٢-١٣ ، بتصريف بسيط .

أ - الإحتلال العسكري :

استخدمت تلك الدوائر الغازية وسيلة الإحتلال للبلاد الإسلامية ، إدراكا منها بأن الإحتلال العسكري يمكنها - بإستغلال عامل الوقت استغلالا كاملا - من تحقيق بعض الأهداف ، و هي ترى بأن هذه الوسيلة ما هي إلا تمهيد فحسب للوصول إلى الأفكار و العقائد و العقول ، و لم ينقطع سيل هذا التربص في فترة من فترات التاريخ ، بل بقي هذا " الغل يتنقل خلال القرون ، يحمله الأخلاف عن الأسلاف و تتواصى به الأفراد و الجماعات .. و قد اشتعلت الحروب الصليبية و لما يسلم الإسلام خمسة قرون من تاريخه ، و ظلت قرنين و نصف دائرة الرحي تهلك فيها أجيال و تدمر قرى و مدن ... و منذ قرنين كانت أوروبا تفرض سيادتها العسكرية و السياسية على العالم ، و تختطف من أطراف العالم الإسلامي و قلبه ما تيسر ، و قد استغلت الفوضى الضاربة في أرجائه فكسبت من الحروب الباردة أضعاف ما تكسب من الحروب الساخنة ، و رسمت خططها كي تصرف المسلمين بالعنف أو بالحيلة عن عقائدهم و شرائعهم و أخلاقهم و لغاتهم ، و وكلت إلى الإستعمار الثقافي أن يحقق أضعاف ما يحققه التفوق العسكري و الصناعي (١) " ، و من ثمة يتضح بأن الغزو الغربي الحديث أفلح إلى أبعد الحدود في التمكين لنفسه بيننا منذ حول هزيمتنا العسكرية إلى كفران مطلق بما لدينا، وإيمان مطلق بما لديه (٢).

ب- إبعاد الناشئة عن منابع الثقافة الذاتية :

ليس القصد من الغزو العسكري - كما يعتقد الغزالي - إلا تهيئة الأجواء المناسبة للإنقراض على منابع الثقافة الذاتية ، وإبعاد الناشئة من الأجيال الإسلامية عن التربية الإسلامية و الفكر و التراث الإسلامي ، وفي الوقت ذاته تيسير ظروف الأخذ و التلقي عن الفكر الغربي و الحضارة الغربية ؛ و يدهي أن هذا المسلك - الذي درج عليه الغزو الثقافي الغربي - إنما يهدف إلى صناعة جيل يحمل اسما مسلما وليس له قلب مسلم ولا عقل مسلم ، و من ثم فلا مكان في حياته لصلاة أو صيام أو جهاد ... إلخ .

و الغزو الثقافي - في الغارة التي شنتها أوروبا على بلاد الإسلام - يقوم - فيما يقوم - على تجهيل المسلمين في دينهم و شحن أذهانهم بمعارف محدودة ثم ترك أفئدتهم هواء (٣) ؛ و بذلك يتحقق له عنصر التبعية و غرض الإلحاق الفكري و الحضاري وهو أساس العملية - عملية الغزو الفكري - التي بها يضمن مصالحه و بها يطمئن على استمراريتها وديمومتها في المجال العربي و الإسلامي .

ج- محاولة الفصل بين العقيدة و العلم :

حاولت الثقافة الغازية أيضا - و من المنطلق ذاته - الإيحاء للأجيال المسلمة بأن لاصلة مطلقا بين عقيدتهم الإسلامية و العلم ؛ و لا يخفى على ذوي الرشد و الفهم أن القصد من ذلك إنما هو توهين العنصر

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، (الطبعة الجزائرية الأولى) ، ص ١٣٦ بتصرف بسيط .

(٢) محمد الغزالي ، من معالم الحق في كفاحننا الإسلامي الحديث ، (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ص ٦٢

(٣) محمد الغزالي (المصدر السابق نفسه) ، ص ١٦٠

أ - الإحتلال العسكري :

استخدمت تلك الدوائر الغازية وسيلة الإحتلال للبلاد الإسلامية ، إدراكا منها بأن الإحتلال العسكري يمكنها - بإستغلال عامل الوقت إستغلالا كاملا - من تحقيق بعض الأهداف ، و هي ترى بأن هذه الوسيلة ما هي إلا تمهيد فحسب للوصول إلى الأفكار و العقائد و العقول ، و لم ينقطع سيل هذا التربص في فترة من فترات التاريخ ، بل بقي هذا " الغل يتقل خلال القرون ، يحمله الأخلاف عن الأسلاف و تتواصى به الأفراد و الجماعات .. و قد اشتعلت الحروب الصليبية و لما يسلم الإسلام خمسة قرون من تاريخه ، و ظلت قرنين و نصف دائرة الرحى تهلك فيها أجيال و تدمر قرى و مدن ... و منذ قرنين كانت أوروبا تفرض سيادتها العسكرية و السياسية على العالم ، و تختطف من أطراف العالم الإسلامي و قلبه ما تيسر ، و قد استغلت الفوضى الضاربة في أرجائه فكسبت من الحروب الباردة أضعاف ما تكسب من الحروب الساخنة ، و رسمت خططها كي تصرف المسلمين بالعنف أو بالحيلة عن عقائدهم و شرائعهم و أخلاقهم و لغاتهم ، و وكلت إلى الإستعمار الثقافي أن يحقق أضعاف ما يحققه التفوق العسكري و الصناعي (١) " ، و من ثمة يتضح بأن الغزو الغربي الحديث أفلح إلى أبعد الحدود في التمكين لنفسه بيننا منذ حول هزيمتنا العسكرية إلى كفران مطلق بما لدينا، وإيمان مطلق بما لديه (٢).

ب- إبعاد الناشئة عن منابع الثقافة الذاتية :

ليس القصد من الغزو العسكري - كما يعتقد الغزالي - إلا تهينة الأجواء المناسبة للإنقضااض على منابع الثقافة الذاتية ، وإبعاد الناشئة من الأجيال الإسلامية عن التربية الإسلامية و الفكر و التراث الإسلامي ، وفي الوقت ذاته تيسير ظروف الأخذ و التلقي عن الفكر الغربي و الحضارة الغربية ؛ و يدهي أن هذا المسلك - الذي درج عليه الغزو الثقافي الغربي - إنما يهدف إلى صناعة جيل يحمل اسما مسلما وليس له قلب مسلم ولا عقل مسلم ، و من ثم فلا مكان في حياته لصلاة أو صيام أو جهاد ... إلخ .

والغزو الثقافي - في الغارة التي شنتها أوروبا على بلاد الإسلام - يقوم - فيما يقوم - على تجهيل المسلمين في دينهم و شحن أذهانهم بمعارف محدودة ثم ترك أفئدتهم هواء (٣) ؛ و بذلك يتحقق له عنصر التبعية و غرض الإلحاق الفكري و الحضاري وهو أساس العملية - عملية الغزو الفكري - التي بها يضمن مصالحه و بها يطمئن على استمراريتها وديمومتها في المجال العربي و الإسلامي .

ج- محاولة الفصل بين العقيدة و العلم :

حاولت الثقافة الغازية أيضا - و من المنطلق ذاته - الإيحاء للأجيال المسلمة بأن لاصلة مطلقا بين عقيدتهم الإسلامية و العلم ؛ و لا يخفى على ذوي الرشد و الفهم أن القصد من ذلك إنما هو توهين العنصر

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، (الطبعة الجزائرية الأولى) ، ص ١٢٦ بتصرف بسيط .

(٢) محمد الغزالي ، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث ، (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ص ٦٢

(٣) محمد الغزالي (المصدر السابق نفسه) ، ص ١٦٠

العقدي لدى المسلمين في عملية دفع التخلف و الجهل و العبودية ، بل إن أيديولوجيات الغزو الفكري الغربي حاولت التشكيك في الألوهية ذاتها ، وزرع بذور الكفر و الإلحاد في ذهن المسلم ؛ بيد أنها لم تصل إلى مبتغاها في هذا الجانب على النحو الذي رسمته في بادئ الأمر ، فإن " عطاء الله تبارك و تعالی في مجال العلوم و الكشوف الجديدة في آفاق السماء و الكواكب هو الذي سيحطم هذا الحجاب الأسود المظلم الذي يحجب أضواء السماء ، لقد أعطيت الأيديولوجيات المادية الفرصة خلال أربعة قرون أو تزيد لتثبت أنها قادرة على العطاء فعجزت ، ولعل أبرز ما عجزت فيه هو فهم النفس الإنسانية " (١) ، ويذهب الغزالي إلى أن دوائر الغزو الثقافي و الإستلاب الحضاري حريصة على عرض التقدم العلمي الذي بلغته البشرية بعيدا عن دوافع العقيدة ، ودور الخلفية الدينية فيه ، كي ترسب تلك الدوائر في ذهنية الأجيال المسلمة مفهوم الفصل بين العقيدة الدينية و العلم ، وربما أدى بها ذلك - مع مرور الأيام - إلى إبعاد العقيدة ذاتها في سبيل الإنخراط في موكب التقدم العلمي .

ولتحقيق هذا الهدف التحسيس فإن تلك الدوائر المغرضة لا تكل عن اختلاق الأسباب و السبل المؤدية أو المساعدة على بلوغ غايتها ، خاصة وهي تدرك بأن الفتح العلمي الحديث بنتائج و كشافاته المبهرة هو في خدمة العقيدة الصحيحة و الإيمان الحق .. وما ذلك إلا موازنة ربانية للإسلام و منظوره الكوني المبهج العجيب .

(٢) إختراق الأسرة المسلمة :

يؤكد الغزالي بأن تعاليم الإسلام في مجملها ترسخ في ذهن بأن الأسرة هي المحضن الطبيعي الفطري لتربية الناشئة و تخريج الأجيال وفق المنظور القيمي لتلك التربية و مضمونها الفكري و الحضاري ؛ وسماسرة الغزو الثقافي الغربي على علم كامل بهذه الرؤية الموضوعية كما يعرضها الفكر الإسلامي ؛ ومن ثم فقد دأبوا في مخططاتهم المتلاحقة على الإنحراف برسالة الأسرة المسلمة ، و الذهاب بها بعيدا عن أهدافها المرسومة ؛ حتى عدت هذه الخلية الأساسية في المجتمع استقرارها - المعهود في قرون الإسلام الأولى - وانتشر في جنباتها الإختلاط غير المشروع ، ولم تعد محكمة في تقاليدها و أساليب عيشها بضوابط الوحي الإلهي ، وإرشادات السنة النبوية الشريفة ، وانتشر فيها الطلاق على نحو لم يعهد إبان العصور الإسلامية المشرقة ؛ وذلك كله بفعل تسالل جرائم الحضارة الغازية و ضعف المقاومة الداخلية و غباء المدافعين (٢) ؛ وهكذا زاغت الأسرة المسلمة و أصبحت فاشلة في إخراج و صناعة الأجيال المشرقة للإسلام و المنشئة لحضارته و الحارسة لقيمه و تعاليمه و منهجه .

(١) أنور الجندي، القرن الخامس عشر الهجري (التحديات في وجه الدعوة الإسلامية و العالم الإسلامي) (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت)،

ص : ٣١٤

(٢) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة و الوافدة (الجزائر : دار الانتفاضة ، ١٩٩٢ م) ص ٢٢

ولإحاطة الدوائر الغازية علما بأهمية الأسرة الصالحة في عملية بناء وتوطيد أركان المجتمع المسلم ، وإدراكها بأن المرأة هي العمود الفقري الحقيقي ، والركن الركين ، في ذلك البناء و التأسيس ، إذ بدونها يستحيل أن يقوم البناء أو تتدعم اللبنة و الأركان .. فقد عملت تلك الدوائر ما بوسعها من أجل إفساد المرأة في المجتمعات الإسلامية و الإنحراف بها عن منحى رسالتها الجليلة في صناعة الحياة ببناء الأجيال و تعهد النشء بالتربية الصحيحة و التوجيه الراشد السليم .

وليس هذا الذي نقول إدعاء لا يستند على حقائق أو لا يقوم على مرتكزات ؛ إن نظرة سريعة على بعض بنود مخططات بروتوكولات حكماء صهيون تؤكد لدينا هذه الحقيقة الراسخة ؛ ثم إن الدعوات المتلاحقة في العالم العربي و الإسلامي و التي تلبس لبوس مختلف الشعارات البراقة المغربية ، مثل " تحرير المرأة " و " الدفاع عن حقوق المرأة " و " المساواة بين الجنسين " ... إلخ ، هي في واقع الأمر - في معظمها - رجع صدى لجانب من بنود بروتوكولات حكماء صهيون ، واستجابة غير واعية لأفكار سيطرة الغزو الثقافي و الدوائر الحاكمة على أمتنا و حضارتها المجيدة .

و كثيرا ما نجد تلك الدعوات منتظمة في شكل جمعيات أو منظمات فنية و رياضية و أدبية... إلخ، بل و نجد أيضا بعض المتواجدين في تلك المواقع - بسبب التغابي أو نقص الوعي و النباهة - لا يعلمون شيئا عن الخلفيات الحقيقية لتلك الأفكار و الدعوات - المتخفية بدثار الحرية و المساواة و غير ذلك من الشعارات - التي يعرضونها على الناس و يتبنون مهمة الدفاع عنها و التمكين لها في الامتدادات و المناحي الاجتماعية و الفكرية و الثقافية لمجتمعاتهم !!

إن هذا التوجه الداعي إلى طي صفحات حضارتنا الإسلامية لنبدأ في قضية " تحرير المرأة " من حيث انتهى فكر الحضارة الغربية ، بدعوى أن إنجاز الغرب هذا في تحرير المرأة هو من " المشترك الانساني العام " و ليس من " الخصوصية الحضارية " التي تتميز فيها الحضارات و تتباين ، هو توجه أنصار الغزو التغريبي ، و هو توجه لا يفقه حقيقة الموقع الذي أولاه الإسلام للمرأة المسلمة ، كما هو بعيد عن إدراك خلفيات و أبعاد الفلسفة الغربية في التحرير ؛ إن الإسلام منهج حياة متكامل ، و موقع المرأة في هذا المنهج بارز و بالغ الأهمية ، بل إنه يمثل جانبه الحيوي لصلته الوثيقة بالتربية و بناء الانسان المراد بناؤه في هذا المنهج (١) ... بيد أن سيطرة الغزو الثقافي - و هم يدركون إدراكا كاملا الكثير من حقائق هذا المنهج - يعمل على مسخ أو نسخ مميزات الهوية الحضارية الإسلامية ، و قد ساقطتهم خبرتهم الطويلة إلى أن أضمن و أقرب طريق لتحقيق تلك الغاية إنما هي إفساد الأسرة المسلمة و بعثرة برنامجها التربوي ، و تبديد جهودها في البناء و الإعداد ، و إبعادها نهائيا عن الطريق الذي رسمه لها الإسلام ، و ذلك يعني في الصميم البدء بتوجيه جهود التبديل الثقافي إزاء المرأة المسلمة ، إذ من المستعصي - إن لم يكن من المستحيل - على تلك الجهود أن تفلح في الإنحراف برسالة الأسرة

(١) محمد عمارة ، الغزو الفكري و هم أم حقيقة (مرجع سابق) ، ص ١٩٤ - ١٩٥

المسلمة إن هي عجزت عن حمل المرأة المسلمة أولاً كي تتخلى عن دورها الطبيعي التربوي المعهود المتسق مع أشواق الأمومة في كيانها و مع طبيعة تكوينها و جبلتها الإنسانية و النفسية و هو دور لا تكتمل إنسانية الإنسان بدونه ، و لا يصح بناء اجتماعي ناضج و مقتدر على التفاعل الإيجابي مع معطيات الحياة و الإنسان بمنأى عنه

هذه هي بداية الطريق التي كانت دوائر الغزو الفكري و الإلحاق الحضاري ، و طلائع الإستعمار قد سلكتها و هي ترسم خطط و برامج الانقراض على مؤسسة الأسرة المسلمة ، وفق مراحل و خطوات مدروسة ، و معدة بمهارة بالاستناد على مقررات ثابتة و نتائج علمية دقيقة و معارف نفسية محكمة .

إن إختراق الأسرة المسلمة و إيعادها جزئياً أو كلياً عن مسارها الفكري و التربوي و رسالتها الهادفة النبيلة في بناء الإنسان الصالح ، و الحضارة المتوازنة ، إنما يمثل حلقة من الحلقات الرئيسة في بروز دوائر الكيد الثقافي و الغزو الفكري و استلاب الذات ، و مسح خصائص و مميزات الهوية الحضارية الإسلامية و هو - كما جلينا بعض معالمه - هدف بارز و ملموس - و معيش كذلك في مرثيات الحياة اليومية لإنسان حضارتنا - في الجهود المتتابعة لتلك الدوائر عبر مختلف مراحل الصراع الفكري و منعطفات التدافع الحضاري .

٣) التشكيك في التراث الإسلامي :

و هذا مدخل آخر - كما يؤكد مشروع الغزالي الفكري - من المداخل التي بذل على صعيدها الغزو الفكري جهوداً كبيرة متلاحقة و موصولة إلى يومنا هذا ، و ذلك بغية الوصول إلى إنجاز الهدف المركزي للغزو و هو تأييد تبعية العالم الإسلامي للغرب و للحضارة الغربية بتغيير الذهنية الفكرية و الوجدان الروحي و النفسي للإنسان المسلم ، لأن مصالح الغرب لا تتحقق في هدوء و لا تحاط بالضمانات الكافية إلا بتعزيز مناخ الإلحاق الحضاري - بأبعاده الشاملة المحيطة - و إضعاف عناصر المقاومة الذاتية - " الكريات البيضاء " - في الكيان الإسلامي .

و لقد تطفنت تلك الدوائر الكارهة للإسلام و حضارته لأهمية التراث و دوره في بلورة الوجدان الإسلامي و صقل العقل المسلم و شحذ الطاقة الذاتية ، فسخرت إمكانات هائلة منها : وضع و إنجاز دوائر معارف تعتمد في منهجيتها على زرع بذور الشك في حقائق التراث الإسلامي و الفكر الإسلامي ، و الاستجداد في ذلك ببعض فرق المستشرقين و الصحف المأجورة و الكتاب المرتزقة ، و كذا ببعض مراكز البحوث و الدراسات ... و كان من أثر تلك الجهود العنيدة الموصولة و المدعمة بإمكانات أكثرها عصي على الكشف و التمهيص أن عميد الأدب العربي ! الدكتور طه حسين كتب يقول : " إن الدين الإسلامي يجب أن يُعلم فقط كجزء من التاريخ القومي ، لا كدين إلهي نزل يبين الشرائع للبشر ، فالتقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق و الأحكام ، و لذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام

في صميم الحياة السياسية (!) أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين (١) .
و من صور الاستجابة لتلك الجهود كذلك ما خطه عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه " محمد رسول الحرية "
زعم فيه بأن الإسلام هو مظهر للصراع بين الطبقات (!) و أن الأصنام تم نصبها حول الكعبة لأسباب
مادية و تم هدمها كذلك لأسباب اقتصادية !! (٢) .

و ينخرط في المسلك ذاته و في الدائرة نفسها طروحات الكثير من الكتاب و المفكرين كمحمد
أركون في جل مؤلفاته الفكرية و التنظيرية ، و الطيب تيزيني في عمله الفكري : " مشروع رؤية جديدة
للفكر العربي منذ بدايته حتى المرحلة المعاصرة " و الدكتور حسين مروة في بحثه " النزعات المادية في
الفلسفة الإسلامية " ، و ربما يقترب من تلك الطروحات كذلك - مع فروقات غير جوهرية - مشروع
الدكتور حسن حنفي : " التراث و التجديد " لا سيما في القسم الأول منه و الذي يشمل ثمانية أجزاء تحت
عنوان : " موقفنا من التراث القديم " .. إلى آخر تلك الطروحات التي نحت هذا المنحى و دعمت هذا
المسار في منطلقاته و أهدافه .

إن دوائر التغريب و التبديل الثقافي تدرك بمنهجية و وعي شاملين قيمة التراث و عطاءات
الماضي في تشكيل معالم الهوية القومية لأية أمة ، و ذلك بعض سر تشديدها على تشويه ، أو تسميم
العناصر و المعطيات الثرة للذاكرة في التراث الإسلامي ، و تعكير صفو منابع ... و هذه مسلمة لا
تقبل الشك و الطعن ، فالمسلمون " من غير التراث كالمحارة فقدت غطاءها الصدفى " (٣) و من هذا
المنطلق تحديدا خاض الشيخ الغزالي الكثير من المعارك الفكرية دفاعا عن أصالة التراث الإسلامي
و الفكر الإسلامي ، فدخل في مناظرات من أجل ذلك مع بعض وجوه العلمانيين و التغريبين المتطرفين
معتبرا التراث و الموارث الفكرية و الحضارية بالنسبة للمسلمين ليس مجرد وسام يوضع على الصدر أو
حلية يزين بها المعصم و إنما هو وجودهم المادي و الأدبي و الواجهه التي يعرفون و يتميزون بها عن
غيرهم من أمم الإنسانية ... فالشخصية الإسلامية لا تستكمل معالمها ، و لا تتجذر خصوصياتها ، إلا
بقدر إنصهارها و تفاعلها الواعي مع جذورها التاريخية و موروثات تراثها الحضاري .. و هذه الخاصية
الكبيرة هي التي جعلت أعداء المذهبية الإسلامية ينهمكون في أعمال و جهود متلاحقة موصولة لإبعاد
المسلمين عن منابع تراثهم و سر حيويتهم و تألقهم الفكري و الحضاري ، و جعلهم في تخبط مظلم
يتجهون كل و جهة دون هدف أو غاية (٤) .

(١) محمد الغزالي ، علل وأدوية ، منشورات دار الشهاب للطباعة و النشر ، مطبعة (الجزائر) ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص ٧٢ ، ومثل تلك
العبارات مطرد في كتاب د.طه حسين ((مستقبل الثقافة في مصر)) الذي لقي معارضة حين صدوره ، فظهرت عدة كتابات في نقضه و الرد
عليه وكشف زيغته و انحرافاته ، منها مقالات الأستاذ الشهيد حسن البنا التي نشرت حينئذ في بعض الصحف السيارة بكتاب الشهيد سيد قطب
((نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر)) .. إلخ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٤٩

(٣) أنور الجندي، القرن الخامس عشر الهجري ، مرجع سابق ، ص ٢١٧

(٤) أنظر محمد الغزالي ، علل وأدوية ، (مرجع سابق) ص ٢٤٧

إن موقع التراث و تأثيره في منظومة الأفكار و القوانين التي تستمد منها الأمة و تضبط وفقها معاييرها في الحكم و أنماطها في السلوك و المعاملات ، و أنساقها في الفكر و الممارسة و الحياة و العلاقات .. لابد أن يكون له علاقة و ثقة و تأثير ظاهر بالمكانة التي تكون عليها الأمة نفسها ، و مستوى قوتها ، و سلامتها و حصانتها ، و مدى تمكنها أو فلاحها على صعيد وجودها و عيشها برسالتها و منهجها الخاص ، و هو ما ينطبق علينا نحن تمام الانطباق في العالم الإسلامي ، فتراث الأمم التي تواجه التحديات الكبرى و العنيفة كأمتنا المسلمة هو " معركة بينها و بين أعدائها الذين يفرضون عليها التحديات .. و من ثم فنحن نريد - بل ملزمون - أن نستلهم من تراثنا عوامل القوة و روح المقاومة ، و السمات التي تحفظ لنا ذاتيتنا الحضارية المتميزة ، و ذلك حتى نستعصي على الذوبان و الاحتواء .. أما هؤلاء الأعداء فإنهم يريدون لتراثنا أن يستل من عقولنا و قلوبنا الإحساس بالقدرة على الخلق و الإبداع ، و ذلك بزعمهم أن أسلافنا - الذين نفخر بهم - لم يكونوا سوى نقلة و حفظة لموارث الآخرين ، من أجل أن يترسب في عقولنا العجز عن الإبداع المعاصر كما عجز الأسلاف !! .. فالتراث مثله مثل الحاضر و المستقبل موطن من موطن النزاع و الصراع بيننا و بين الأعداء (١) " .

و يرى الشيخ الغزالي بأن تلك الدوائر المناهضة للإسلام ، الكارهة لحضارته و منهجه الإنساني عملت بدأب و إصرار على تهوين و شاتج القريبى و المودة بين حاضر أمتنا و تراثنا و قد وجهت بعض جهودها - و هي ترمق تلك الغاية التعيسة - إلى تحقير التعليم الديني في النفوس و وصفه بشئى النعوت و الصفات ، و ما ذلك إلا لإدراكها الكامل بدور و أهمية هذا التعليم في ربط الأمة و أجيالها الناشئة بتراثها و مقومات شخصيتها الفكرية و الحضارية ، و جعلها وجودا له قسامته و خصوصياته المتميزة .

إن تلك الدوائر التي ابتلي بها الإسلام جعلت التعليم الديني " ثقافة تحيا على هامش المجتمع ، تفوح منها رائحة البلى ، و يضطرب أصحابها في عالم يتكرر لهم و يضيق بمرآهم ... إن التعليم الديني في بلاد الاسلام وصل إلى قعر الهاوية التي هياها له الإستعمار و دفعه في طريقها من عشرات السنين ... فهو ينحدر إليها كما تنحدر الشيوخوخة إلى الموت لا تغني عنها مقومات و لا منشطات (٢) " .

٤) تجميد العمل بالكتاب و السنة و محاولة الإجهاز عليهما :

يرى الشيخ الغزالي أن الهدف الكبير و الغاية العظمى التي يستهدفها الغزو الثقافي و التبديل الفكري ، عبر الجهود المتلاحقة المضنية إنما هي تزويد المسلمين في كتاب ربهم و سنة نبيهم ، و فصل المجتمع الإسلامي عن الاستمداد و التلقى عن المنابع الأصلية التي لا يكون إسلام امرئ ما إسلاما صحيحا دونها ، ناهيك عن أن بناء الأمم بمنأى عن عقائدها و ثقافتها غير ذي جدوى ، فهو لا يحقق

(١) محمد عمارة ، التراث في ضوء العقل ، (بيروت : دار الوحدة ، ط ١ ، ١٩٨٠ م) ، ص ١٩٦

(٢) محمد الغزالي ، كفاح دين (الجزائر : مكتبة رحاب ، ط ٦ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ، ص ٢٣٤

تهضة و لا يحسن حاضرا أو مستقبلا ، و لاشك أن هذا الهدف كان بالغ الوضوح في شعور و لا شعور المهاجمين للإسلام و المناوئين لحضارته في الأزمنة الحديثة و المعاصرة . فعندما " أشار الإستعمار الحديث على العالم الإسلامي كان عقله الباطن و الواعي طافحا بالحد على الإسلام و أمته المترامية الأطراف ، كان عقله الباطن و الواعي مستغرقا في المكر بهذا الدين و القضاء عليه ، و كان اتجاهه إلى الإغتيال شاملا للعقيدة و الشريعة على سواء أو للقلب النابض و المظاهر المتحركة جميعا . إلا أن عمله لتعب الصدور و تفرغ الأيمان منها و إبقائها جوفاء فارغة كان أحظى و أسرع لإبلاغه مآربه من أي تغيير آخر لأنماط الحياة و أشكالها ، و من ثم استمات في محاربة الإيمان و إنشاء أجيال جاهلة بربها و رسولها أي بكتابها و سنتها ... و الحقيقة أن الإستعمار جرد أيدي المسلمين من الذكر الحكيم و السنة المطهرة ، و بنى الثقافات التي احتضنها و النهضات التي أقرها على أن تكون بعيدة كل البعد عن الكتاب و السنة ؛ و بناء الأمم على غير عقيدة لا يساوي شيئا ... إن العقيدة في الكيان الاجتماعي كالقلب في الجسد الانساني ، و كالتيار في المصباح الكهربائي و كالوقود في الآلة الدوارة ... و اجتياح عقيدة في أمة ما ، معناه إبقاؤها على الأرض مجموعة من الناس لا تصلح في سلم و لا حرب و لا تكثرث إلا لمذاتها الفردية ، و لا تصير في الأسرة الدولية إلا عضوا زريا يحسن الأكل و السفاد فحسب ... و قد اجتهد الإستعمار أن يوقع بالمسلمين هذه النكبة الماحقة عندما هبط أرضهم ، و استباح عرضهم و قرر سرا و علنا أن يفتنهم عن دينهم و ألا يسمح لهم بالعيش في ظله (١) .

ثالثا : مجالات و وسائل الغزو الثقافي في منظور الغزالي :

و لما كانت هذه الغاية - مع الغايات المرصودة آنفا - مركز جهود الإستعمار و مشروعاته المختلفة الكثيرة في التغيير الفكري و التبديل الثقافي للإنسان المسلم و حضارته و أنماط حياته و سلوكاته ، فإن الشيخ الغزالي رصد - عبر كتاباته المسهبة و نشاطاته المتنوعة المتصلة بهذا الموضوع - الكثير من المجالات و الوسائل التي اعتمدها تلك القوى المغيرة قصد وصولها لتلك الغايات و إدراك نتائجها بأقصر الطرق و أقل التكاليف و أيسر المناهج .. و من أهمها و أبرزها ما يأتي :

(١) محاربة اللغة العربية :

يذهب الغزالي إلى أنه لا توجد لغة على ظهر الأرض عانت وبلات التضييق و السخرية و محاولات الكيد و الإماتة ، كما هو الأمر بالنسبة للغة العربية ، و لا يخفى على أحد أن هذه المعاناة الطافحة بالأحقاد التي اعترضت سبيلها ، ليس لكونها أداة تواصل و تفاهم - فهذا في الواقع هو شأن وظائف كل اللغات - و إنما لأنها لغة القرآن الكريم و السنة المطهرة و الفقه الإسلامي ، و وسيلة فهم الإسلام و تمثل المقاصد القريبة و البعيدة للوحي الإلهي و الإهداء بهديه ... من أجل ذلك اتجه الغزو

(١) محمد الغزالي ، قذائف الحق ، (بيروت : المكتبة العصرية ط٢، د.ت، ص ٨٥)

التقافي إلى هذه اللغة فأصابها إصابات قاتلة، حيث عزلها عزلاً تاماً عن تدريس العلوم، حتى ظهر أنه لا وجود للغة القرآن في كليات الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو العلوم أو غيرها من الكليات التي تدرس الكون والحياة، و باتت اللغة الإنجليزية هي لغة العلم في البلاد التي خضعت للإستعمار الإنجليزي، واللغة الفرنسية هي لغة العلم في البلاد التي خضعت للإستعمار الفرنسي، واللغة الروسية هي لغة العلم لملايين المسلمين الذين عاشوا أو ذابوا في الاتحاد السوفياتي، وكما ألمات الإستعمار الثقافي والغزو الفكري للغة العربية في هذه الميادين، فإنه اجتهد أيضاً في إمانتها أو إقصائها في ميدان التقدم الحضاري على اختلاف أبعاده المدنية والعسكرية والمنزلية والاجتماعية، فالألفاظ الأجنبية وحدها التي تستخدم لألوف الأجهزة والسلع والمصطلحات الحديثة، وزاد الطين بلة أن لغة التخاطب والحوار أخذت تتجه بقوة إلى اللهجات العامية، واستطاع الغزو الثقافي في كثير من الأذاعات والصحف أن يبعد العربية الفصحى وأن يحول دون رفع المستوى الثقافي واللغوي للجماهير عن طريقها، كما أن بعض الزعماء أخذ يخطب بالعامية المحلية لبلده، ويدع الحديث بالعربية الفصحى، وإذا تحدث بها فبعد إعلان حرب شعواء على قواعد اللغة وضوابطها، إنه يستحي من أي خطأ يقع فيه لو تكلم بالانجليزية أو الفرنسية ويرى ذلك نقصاً شائناً، أما اللغة العربية فإن الخطأ فيها لا حرج فيه لأنه لا مكانة لها (١)، فهذه بعض نتائج الإستعمار الثقافي التي سعى إليها سعياً حثيثاً مخططاً، دون كلل أو شعور بالضعف والخيبة.

و مما لا شك فيه أن المرء بعد فقدانه الإيمان واللسان أو بعد فقدانه أصوله الروحية واللغوية، يمكن حسبانه مؤقتاً في عداد المفقودين، بيد أن الإستعمار لا ينتهي به إلى هذه النتيجة ثم يتوقف، كلا إنه يعده سماداً لجيل آخر، له عقيدة أخرى ورطانة أخرى، كما تتحول الفضلات الحيوانية إلى تربة جديدة لكيان آخر مقطوع الصلات بالماضي القريب والبعيد على سواء؛ فمن البدهي أن الذوبان المنشود في الآخر الحضاري يعني اطراح الإسلام واللغة العربية وإيجاد نابتة مهجنة تستخف بتكاليف الإيمان وأواصر الفصحى، ويلاحظ أن هذه الدوائر قد اتسعت، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادي وأدبي، وأزاحت من أمامها العوائق، بل كثرت من ورائها الدوافع، حتى كادت تستولي على مقاليد الأمة في كل ميدان، وهكذا هي جهود ومحاولات الإستعمار الثقافي لاتكاد تعرف الخيبة والفشل في كل صعيد أو مجال (٢).

(١) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، (باتنة الجزائر): دار الشهاب، الطبعة الجزائرية الأولى، ١٩٨٦م، ص ١٥٨ - وعن هذا الموضوع يقول الشيخ الغزالي في كتابه (الطريق من هنا) فصل (دعوات تائهة في أمة مهتدة بالصياح): ((ماذا صنع الاستعمار لتحقيق هذه الغاية؟ لقد فرض أولاً لغته وجعلها لغة المكاتبات في التواوين، ولغة الدراسة في جميع المراحل التعليمية، ولغة التخاطب المحترم في البيوت والشوارع، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين، ولكنه يعلن مقته للغة العربية، ويتجاوزها في كل محفل بويؤخر رجالها عن عمد إلا سيما إذا كان المسلمون فوق تسعة أعشار السكان، ومن هنا كانت الفرنسية لغة السنغال، والإنجليزية لغة نيجيريا، أما لغة القرآن فهي منبوذة أو مهملة! وقد نشأ عن ذلك أن المسلم في هذه الأقطار محجوب عن التراث الإسلامي لأنه مدون باللغة العربية، وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئاً عن الإسلام فعن طريق الإلح الذي سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين، الإنكليزية والفرنسية...!!!)).

(٢) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (سلسلة إسلامية المعرفة)، (هرندن: الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، ص ١٨٣، ١٨٤.

يدرك الإستعمار الثقافي إدراكا كاملا مبلغ الأثر الذي يحدثه صناع الفكر و الثقافة و الرأي في مجتمعاتهم ، الأمر الذي فرض عليه توجيه بعض جهوده لاستقطاب الكثير من هؤلاء وجعلهم أدوات طبيعة لخدمة أغراضه وإدراك مآربه ، وليس يخفى ما في ذلك من ضرر على الأمة وإرهاق كاهلها بالانتقال و العوائق في كل ميدان أو صعيد أو مجال ...

من أجل ذلك فإن سدنة الغزو الثقافي - كما يلاحظ الشيخ الغزالي - حريصون على رعاية هذه الطلائع ودعمها بشتى الوسائل وفي كل مكان ونطاق .. وعن هذه الطلائع المدعومة يقول : " هناك مستشرقون مصريون ، ولدوا في بلادنا هذه ، و لكن عقولهم و قلوبهم تربت في الغرب ، و نمت أعوادهم مائلة إليه ، فهم أبدأ تبع لما جاء به ... إنهم من جلدتنا و يتكلمون بألسنتنا بيد أنهم خطر على كياننا ، لأنهم كفار بالعروبة و الاسلام ، أعوان - عن اقتناع أو مصلحة - للحرب الباردة التي يشنها الإستعمار علينا ، بعد الحرب التي مزق به أمنا الكبيرة خلال قرن مضى .. و هم سفراء فوق العادة : لـ " انجلترا ، و فرنسا ، و أمريكا " دول التصريح الثلاثي الذي خلق إسرائيل و حماها و الفرق بينهم و بين السفراء الرسميين أن هؤلاء لهم تقاليد تفرض عليهم الصمت ، و تصبغ حركاتهم بالأدب ، أما أولئك المستشرقون السفراء فوظيفتهم الأولى أن يثرثروا في الصحف و المجالس ، و أن يخلقوا كل يوم مشكلة موهومة ليسقطوا من بناء الإسلام لبنة ، و ليذهبوا بجزء من مهابته في النفوس ... إن هذا نفر من حملة الأقالم الملوثة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين ، فإن النفاق الذي برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم ، وقد يقولون كلمات من الحق تمهدا لألف كلمة من الباطل تجيب عقيبها ، فلنحذر هذا العدو المقنع ، ولنؤمن طريق نهضتنا بتجلية هذا الظلام الوافد من الغرب (١) ."

إن هذه الطلائع التي صنعها الإستعمار الثقافي أو استتبها على عينه في ربوع العالم الإسلامي هي التي تهاجم الإسلام من الداخل وتجتهد في إقصاء العمل بمنهاجه و شريعته ، و الإستمداد من تراثه و مرجعيته ، وهي التي تثير في وجهه الشبهات و تسم أحكامه بالجمود و حدوده بالقسوة و عدم ملاءمتها لطبيعة عصر الذرة و غزو الفضاء ؛ فقد أعلن الكاتب السفير حسين أحمد أمين بأن شريعة قطع يد السارق إنما كانت تناسب الإنسان العربي البدوي في الصحراء فحسب ، لأن ملكيته كانت بسيطة و بدائية ، أما وقد تطور الزمان ، و وصلت البشرية سن الرشد و أصبحت الملكيات غير متنقلة و بالغة الأهمية و القيمة في عمومها ، فإن هذا التشريع لم يعد ملائما لهذا الوقت ، و أن الفقهاء و المجتهدين لم يغيروا باجتهادهم هذا الحكم بما يتماشى و طبيعة الحضارة المعاصرة و الوقت الراهن لجمود توارثوه عبر العصور .. قال :

" كان الشكل الغالب للملكية في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وفي زمن الرسول عليه الصلاة و السلام هو الملكية المنقولة دون العقارية و كان يمكن للبدوي أن يحمل على راحته كسل ما يملك و ينتقل به من

(١) محمد الغزالي ، ظلام من الغرب ، (مصدر سابق) - من مقدمة الكتاب ٣ - ٤

موطن إلى موطن ... و بالتالي كان الاعتداء الساري في الصحراء بسرقة ناقته بما تحمل من ماء و غذاء و خيمة و سلاح في مصاف قتله وكان لابد لعلاج هذا الشر المستطير من عقوبة حازمة رادعة في مثل حجمه وخطورته ، فكان أن فرض القرآن حد القطع ليد السارق ... فما مات النبي حتى شرعت جيوش الإسلام تمد سلطانه شرقا و غربا و نجم عن هذه الفتوح ثراء لم يعرفه العرب من قبل ، و دخلت في الإسلام مجتمعات تعرف للملكية شكلا أهم من الملكية المنقولة و تملك الفاتحون العرب الضياع و الدور ، و أصبح سلب الرجل ناقة أو قرية ماء لا يعني أمرا هاما ، و نظر الفقهاء و المجتهدون فإذا الآية القرآنية لا تزال قائمة ، و الحكم بقطع يد السارق و السارقة لا يزال قائما ... و كان المنطقي و المفروض أن يعلنوا صراحة أن بعض أحكام القرآن و السنة قد قصد التصدي لعلاج شرور وثيقة الصلة بالمجتمع الجاهلي في شبه الجزيرة العربية و في زمان النبي عليه الصلاة و السلام ... و من حق المجتمعات الأخرى و الأجيال التالية أن تطور هذه الأحكام ، و كان بوسعهم أن يقولوا : من واجب المجتمع الاسلامي في صورته الجديدة أن يجد عقوبة لجريمة السرقة غير العقوبة التي قصد بها المجتمع البدوي أو الجاهلي (١) .

إن الإستعمار الثقافي هو الذي صنع هذه الأقلام الجريئة على الله و رسوله و أوكل لها مهمة التهديم الداخلي للإسلام و تشويه حضارته و قيمه ، و ذلك بتبني أصحابها العلني و الحماسي أيضا لقيم الحضارة الغربية و نمطها الحياتي على صعيد الفكر و الأخلاق و السلوك و العلاقات و المعاملات ، و التقدم بذلك كبديل وحيد للمجتمعات الإسلامية ، لا مناص لها عن تمثله إذا شاعت الاندماج مع روح العصر و طبيعة الحداثة ... إن هذه الاحتوائية الغربية الشمولية هي التي دفعت بأدباء و فنانيين و أصحاب أقلام بارزة إلى إعلان الحرب على الإنتماء الإسلامي و ضرب القيم و الأخلاق الإسلامية نونما حياء أو تحفظ ، و عن هذا الصنف الماجور يقول الشيخ الغزالي : " .. و قد استغربت من بين هؤلاء مسلك الصحافي الكبير توفيق الحكيم ، فقد حاول أن ينشر " حوار مع الله " ، فلما علت موجة سخط و منعت الماضي في هذه المهزلة أخذ الفنان الشيخ ينشر حديثا آخر في مجلة الوطن العربي التي تصدر بباريس موضوعه " نساء في حياتي " ، و يفتتح الكاتب حديثه بأنه لا يذكر اسم الشخص القواد الذي رافقه إلى فتاة رومية دفع لها خمسة قروش ثمنا لدقائق معدودات ، و كذلك لا يذكر أفراد الزمرة التي شجعت على الذهاب إلى حي البغاء العلني " كلوت بك " لأول مرة في حياته ... !! و لا أبيع لنفسي متابعة الكاتب الماجن و هو يصف سقوطه ، و إنما أعلن دهشتي من البعد بين الموضوعين اللذين تناولهما بقلمه (٢) .

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (مصدر سابق) ، ص ٢١٨ - ٢١٩

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٩

و هذه الاحتوائية الجريئة نفسها ، المضللة عن قصد و علم و تخطيط و دراية هي التي دفعت بالكتاب الروائي إحسان عبد القدوس إلى التهجم على أخلاقيات الإسلام و شريعته و الدعاية دون حياء إلى الانحلال و التغريب و طمس القيم الاجتماعية و الانسانية العالية ، فقد كتب يقول : " إنه لم يعد من حق رجل الدين أن يأمر بتحريم الرقص على المرأة، لم يعد من حقه أن يدع الطلاق معلقا بإرادة الزوج، و لم يعد من حقه أن يحرم إرتداء " المايوه " ، فالمايوه أصبح حقيقة أقوى من هيئة كبار العلماء !! ... يا رجال التشريع إن بيت الطاعة نظام فاسد لا يتفق و ملائمتا حياتنا الاجتماعية الجديدة .. فلنستبدل به نظاما آخر أكثر اتقا و ملاءمة لهذه الحياة .. و إلا فلتمنح المرأة هذا الحق الذي يتمتع به الرجل و حده .. و ليغرب الرجال كيف يعيشون تحت سقف واحد مع امرأة لا يحبونها عندما تجبرهم الشريعة على الدخول في بيت الطاعة !! لا إنه نظام عقيم .. فما أوجنا إلى تغييره " (١) ، و لا شك أيضا أن نضح الغزو الثقافي و الاستلاب الفكري هو السبب الأول الحاسم الذي جعل أحد الكتاب المصريين يزمر مغتاضا لأن طائرات الخطوط الجوية المصرية امتنعت عن تقديم الخمر لبعض الركاب الذين يشربون الخمر ، فيحس بأن هذا بتأثير من بعض علماء الإسلام فيلزمهم برد فعله الناقم .. فيقول - و هو في حالة هستيرية و روح ممتعضة شديد التوتر - : " هل تعلمهم الفضيلة ؟ هل نلقنهم مبادئ الشرف و نجرعهم مكارم الأخلاق ؟ و كيف نقنع الركاب الخواجات و هم لم يقتنعوا بعد بفوائد العرقسوس و التمر هندي ؟ ليس من المعقول و لا من المقبول أن نقع فريسة لبعض تجار الوعظ .. إن وعاظ المناسبات يسكتون على ما يغضب الله ، و يدعون إلى جلد شباب في عمر الربيع يحب فتاة رقيقة كالعصفور، شاحبة كضوء الفجر" (٢) ، و يبدو هنا جليا أن الغزو الثقافي وضع عقلا مكان عقل و وجدانا مكان وجدان ، و فسح المجال و اسعا أمام هذه العقول و الوجدانات لتؤدي المهمة الموكلة إليها ، و الرسالة المنوطة بها ، وبالإمكان ملاحظة أن الغزو الثقافي بهذه الطريقة يحول مواقع الصراع الحضاري من مجالات التدافع الطبيعية إلى مواقع متقدمة داخل المجتمعات المستهدفة بمجهوداته و مشروعاته الاحتوائية القهرية ، أي إنه بإختصار احتلال من الداخل و الأعماق ، و استيلاء على المداخل الحساسة لتغيير الإنسان و إعادة تشكيله وجدانا و عقلا وسلوكا و موقفا و رسالة .

و لخطورة هذا المجال - و صلته بصناعة الأجيال الجديدة - فإن الشيخ الغزالي و عبر مساحات واسعة من كتاباته و مناظراته و دروسه أخذ يكشف الغطاء المزيف عن الكتاب و أصحاب الأقلام المأجورة الذين يقفون ضد أمتهم و أوطانهم ، و يؤازرون الغرب و دوائره و مؤسساته الحاكمة على الإسلام و حضارته . و كان دائما يدعو إلى الحذر من مسالكهم و أعمالهم ، إشفاقا منه على الأمة الإسلامية و دينها و نهضتها و مستقبل أجيالها .

(١) محمد الغزالي ، ظلام من الغرب ، (مصدر سابق) ، ص ١٩٨

(٢) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (مصدر سابق) ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، و الكتاب الناقد على تحريم الخمر هو الصحافي (محمود السعدني)

و المتأمل في مؤلفات الشيخ الغزالي يقف على حقيقة أنه كان دائما في خندق المناصرة عن الإسلام و الحق، وفي سبيل ذلك فقد رد على صديقه الشيخ خالد محمد خالد - رحمه الله - عندما أصدر (من هنا نبدأ) وذلك بكتابه (من هنا نعلم) الذي جعل الشيخ خالد يعود إلى الصواب وينخرط مع الشيخ الغزالي من جديد في خدمة الإسلام والدفاع عنه... كما تصدى الشيخ الغزالي أيضا- في هذا السياق- إلى الكثير من الكتاب المناوئين والمتحاملين على التوجه الإسلامي للمجتمع والنهضة الإسلامية، ومنهم على سبيل المثال: صلاح جاهين وغالي شكري ومحمد التابعي وإحسان عبد القدوس وأنيس منصور وكامل زهيرى ولويس عوض ، وسلامة موسى وعبد الرحمان الشرقاوي ومحمد أركون وفرج فودة وطه حسين وزكي مبارك وفؤاد زكريا وحسين أحمد أمين... إلى غير ذلك من كتاب اليسار واليمين ودعاة العلمانية وإقصاء المذهبية الإسلامية عن حكم المجتمعات الإسلامية، في مصر والعالم الإسلامي .

(٣) استغلال وسائل الاعلام و الدعاية :

تدرك القوى المعادية للإسلام وحضارته وأمتة، خطورة وأهمية آثار وسائل الإعلام والدعاية في تغيير العقول وصياغة النفوس والوجدانات وتهيئة البيئات والظروف والملابسات لتقبل أنماطها وطروحاتها ونماذجها الحضارية والفكرية والسلوكية وغيرها، ولما كان التغريب فرعا من الغزو الاستعماري، بإعتباره تشويهاً فكرياً و ثقافياً يقوم على انتقاء المستعمر لنواح فكرية وجوانب سلوكية منحضلة من حضارته، وعرضها أو تقديمها للأخر الثقافي والحضاري ، بغية تحقيق هدفه الأساس وهو استمرار التخلف واستمرار حالة التبعية والإلحاق الحضاري الشامل أطول فترة ممكنة، وهو دائما يختار ما يهدم لا ما يبني، وإن كان لابد من قدر من البناء فهو محدود أيضا ومرتبطة بالهدف نفسه والذي هو تمكين تلك القوى الغازية من تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب داخل البلاد المستعمرة (١)؛ لما كان الأمر كذلك فإن تلك الدوائر تولى أهمية خاصة لوسائل الإعلام والدعاية، و العناية الفائقة بدراسة الجوانب المصدرة، و توفير المعلومات والدراسات الضرورية لذلك، و يرى الشيخ الغزالي أنه يجب على المفكرين والدعاة الإسلاميين تجديد وعيهم إزاء هذا الموضوع بالذات، و تعميق فكرهم وثقافتهم، ومتابعة ما يحدث فيه من مستجدات أو إنجازات، فنحن نعيش عصر المتغيرات السريعة، وكما تغيرت أدوات القتال تغيرا بعيد المدى، فقد تغيرت كذلك " وسائل الإعلام وصناعة المشاعر والأفكار، وأضحت الكلمة والصورة والخبر والتعليق والكتاب والصحيفة والراديو والتلفاز، بل الأغاني والفكاهات، أضحت كل ذلك موجها ببراعة إلى غايات مرسومة ووفق خطط موضوعة.. و قد نجح خصومنا في غاراتهم على الأمة الإسلامية واستعانوا بآخر ما بلغه العقل الإنساني من إبداع كي يفتوننا عن ديننا ويسرقوا أرضنا منا.. فماذا أعددنا للدفاع عن مقدساتنا؟ و الذود من مواريتنا؟ " (٢) .

(١) عبدالحميد محمد أحمد "حواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر"، مجلة المسلم المعاصر (العدد الإقتحائي -شوال ١٣٩٤هـ/نوفمبر ١٩٧٤م)، ص ٢٧

(٢) محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه: كيف تفكر فيه ، (الجزائر : دار الكتاب ، ١٩٨٧ م) ، ص ١٧٧

إن الغزو الثقافي بترسانته الإعلامية و سحر وسائله يستهدف - كما يلاحظ الشيخ الغزالي - خلق أجيال-بما في ذلك السياسة والنخب الثقافية- تقاد من أهوائها ورغائبها ، كما تقاد الدواب من أرسائها(١)؛ و من ثمة فإنه يرى بأن أثر وسائل الإعلام السلبي لا يمكن دفعه إلا بحسن الاستخدام لتلك الوسائل ذاتها، بمعنى أن يكون هناك إعلام إسلامي فاعل قادر على تحصين الذات الإسلامية و الهوية الإسلامية من الداخل ، و وضع العقل الإسلامي على نهجه الطبيعي لمعايشة مشكلات العصر و متغيراته، وممارسة دوره الرسالي من أجل تأسيس بنى و أطر ثقافية قادرة على إدارة الصراع الفكري و الوقوف الواعي في وجه التحديات الإعلامية و الثقافية و الحضارية التي بانت تستفز بعنفوان غريب الذات الإسلامية و الواقع الثقافي الإسلامي في العالم المعاصر .

و إذا كان الاعلام الغربي " يدعو الناس قاطبة في إغراء واضح ولباقة ساحرة إلى الارتقاء في أحضان عالمه المثالي (٢) بحيث لا يدع أية فسحة للمفاضلة بين نموذجه الخاص و نماذج الآخرين ، بل يهزأ بكل شيء خارج من رحم التيارات الفكرية للشعوب الأخرى و ينطلق من إحباطات الآخرين ليبلغ مقاصده " (٢)، فإن سر المعادلة في هذه المسألة-بفهم الشيخ الغزالي-إنما هو قوة الذات وحصانة الأعماق ، و الشيخ يدلل على ذلك بفترة الإستعمار البريطاني في مصر حيث كان الناس مترفعين عن المستعمر و معتزين بهويتهم و انتمائهم الحضاري ، و هذا الموقف النابع من أعماق الذات حال دون توغل الثقافة الوافدة و امتداداتها داخل الفكر و المجتمع ... هذا الموقف ينتظر الغزالي يعد ضروريا اليوم أيضا في زحمة سباق المواقع الحضارية و المجابهات الثقافية .. و يزيد الشيخ الغزالي هذا الأمر وضوحا فيقول : " لقد سمعت عن القنوات الفضائية التي تدغدغ غرائز الشباب ، و سمعت عن التيارات الفكرية التي تزين الأهواء و الأوهام ، و رأيت صحفا و مجلات تزين الباطل و تمكن له في النفوس ! و الحق أنني لم أرهب هذا الإعداد المبطل المقتحم ، و إنما ساءني أنني لم أجد مواجهة قوية له و وعيا ذكيا بوسائله و أسلحته .. إنني عايشة عهدا شتى ، و رأيت الانجليز بعيني في مدننا الكبرى يجوسون خلال الديار ، كانوا يسرون في الشوارع و لكن القلوب كانت خالية منهم .. كان هناك احتلال رسمي ، و لكن الصدور كانت تغلي بالحق و تتواصى بالمقاومة و تعلن بالغضب ، كان الهتاف للإسلام قويا و الحنين إلى شرائعه و شعائره جياشا ، كانت المساجد معمورة بالشباب و الشيوخ من قبل صلاة الفجر و حتى انتهاء صلاة العشاء ، كنا نجد على الخير أعوانا ، و كانت أمواج من الحق و الصبر تصل المستقبل بالماضي و تفرش الطريق بالإيمان و الرجاء .. لكن الإستعمار الثقافي الآن استطاع بخبث هائل أن يلوي الزمان و أن يبعثر المسيرة الواحدة ، فسمعنا عن (أصوليين) و عن (تتويريين) و عن (عصريين) و (رجعيين) و الاسلام لا يعرف

(١) محمد الغزالي ، كفاح دين (مصدر سابق) ، ص ٣٣٦

(٢) نور الدين بليبيل، ((جيل..في عاصفة))، مجلة الخيرية، الكويت، العدد (٧٠)، (رمضان ١٤١٦هـ فبراير ١٩٩٦م)، ص ٦٢

هذه العناوين .. إننا نوصي الشباب المسلم أن يعتصم بكتابه و تراشه و منهجه و غايته ، إن هناك أهل كتاب نسوا ما لديهم و يريدون أن ننسى ما لدينا (١) .

و بما أن وسائل الإعلام الغربي الآن و معه الإعلام الدائر في فلكه الموجه بنظريته و توجيهه ، تركز على تحريك الغريزة الجنسية لدى فئة الشباب لإفساد قلوبهم و جرهم من ثمة إلى أهداف و مخططات هذا الإعلام و خلفيته الفكرية و الحضارية بيسر .. فقد دعا الشيخ الغزالي إلى محاربة تقاليد تعسير الزواج في المجتمع الإسلامي ، و سعى فكريا و عمليا لاعادة المجتمع الإسلامي المعاصر إلى نهج السلف الصالح في تقاليد الزواج و العلاقة بين الجنسين ، قصد مواجهة وطأة تحديات الإعلام الغربي الدائبة على تغريب الذات الحضارية للمسلمين .. كما يرى الشيخ الغزالي أن التعامل مع وسائل الاعلام الحديثة يقتضي - إلى جانب العمل على تقديم البدائل الإسلامية الهادفة الواعية - الاستعانة بكتب الغرائز (٢) و عدم الاقتراب من المثبرات ، و بالامكان أيضا انتقاء المواد المفيدة في هذا الاعلام مما لا يعارض قيمنا و أخلاقيات حضارتنا .. و في رده على سؤال وجهه له أحد الشباب عن هذه القضية ، قال الشيخ الغزالي بعد تمهيد للموضوع : " من الناحية العملية - كما يقول علم النفس - الغرائز تهدأ مع قلة المثبرات ، و تنشط مع كثرة المثبرات ، فمثلا إذا كان هناك شخص جانع بيننا فلا شك أن جوعه سيظل مكبوتا داخله ، أما إذا أخذناه و مررنا به أمام محل "كبابجي" فلا شك أن غريزة الجوع ستتحرك و ستنشط بداخله .. لذلك فأنا لا أريد أن يكون المجتمع فاسدا و الاغراء فيه مفتوحا على البابين ... و هذا ما يفعله الإعلام الآن للأسف الشديد .. فأحيانا أريد أن أشاهد و أسمع فقرات في الاذاعة و التلفزيون و لكن الرقص و الخلاعة لا تنتهي ، و هذا ما يفسد قلوب الشباب ، لأن الغريزة تحتاج إلى مسكنات و ليس مثبرات حتى يتحقق الزواج .. إذن على أولياء الأمور أن يخففوا تقاليد الزواج ، فليس من الضروري أن يبدأ الشباب حياته بثلاث غرف ، بل تكفي غرفة واحدة ، و قد بدأت أنا حياتي بغرفة واحدة و أتذكر أنني اشتريتها بالتقسيط (٣) . "

و يتضح هنا جليا أن الشيخ الغزالي - في علاقة المسلم المعاصر بالتحديات الإعلامية القائمة - يعول بشكل خاص على سلامة الذات الإسلامية و حصانة الأعماق الوجدانية و الفكرية و عدم قابليتها الذاتية الداخلية لتحمل بصمات الآخر الحضاري و ما تستبطنه هذه البصمات من عناصر اجتياحية تفكيرية مشوهة ، خاصة أنها حالة لا تنفك عن طبيعة الثقافات و الحضارات المهيمنة في علاقاتها و صلاتها بالأنساق الثقافية و المعرفية و الوجدانية للحضارات و الخصوصيات الأخرى .

(١) أنظر جريدة العالم الإسلامي ، العدد الصادر بتاريخ : ٢٠ ذوالقعدة ١٤١٦هـ / ٨ أبريل ١٩٩٦م ، ملف خاص برحيل الإمام محمد الغزالي يرحمه الله تعالى ، ص ١١

(٢) للوقوف على رأي الشيخ الغزالي في موضوع العلاقة بين الأخلاق و الكبت ،يراجع فصل ((كيف تصان الأخلاق))في كتابه (ظلام من الغرب)وفصل((الكبت بين التربية ومناهج الإحلال))في كتابه(كفاح دين)

(٣) هشام زكي محمود "زيارة إلى فضيلة الشيخ الغزالي" مجلة الشباب المصرية، العدد(٢١٠)(يناير ١٩٩٥م)، ندوة خاصة بقاء مجلة الشباب نظمتهما المجلة في بيت الشيخ الغزالي، والسؤال المجاب عنه هنا للقرئ:((محمود عبد الصمد))، ص ٣٩

كما يعطي الغزالي أهمية بالغة لمعرفة طبيعة العصر و التفقه في جزئيات و مميزات هذه الطبيعة، و التسلح بالوعي الصحيح القائم على الاستبحار العلمي و الثقافي ، و الاستيعاب الذكي لخلفيات و أهداف الأنساق الفكرية و الثقافية و الإعلامية للإتجاهات الحضارية و الأيديولوجية التي تروم بجهودها الموصولة و خططها المدروسة إذابة الهوية الإسلامية بالقضاء التدريجي على معالمها و خصوصياتها و ثوابتها ... فإن فهم العصر و الواقع بات جزءا من منهج المحافظة على الذات الحضارية .

٤) التسلل عن طريق مناهج التربية و التعليم :

يعتقد الغزالي بأن مجال التربية و التعليم مجال حاسم في صناعة العقول و ترسيخ معالم الخصوصيات الفكرية و الحضارية لأية أمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب ، و لأجل هذه الحقيقة لتي لامراء فيها ، فإن القائمين على شؤون برمجة الغزو الثقافي الغربي و أساليب و كفيات نشره و تيسير قنوات إمتداده في مؤسسات العالم الإسلامي و المجتمعات الإسلامية ، اتجهوا إلى وضع الخطط و المناهج التربوية لمراحل التعليم المختلفة في البلاد الإسلامية و الإشراف على مراقبة محتوياتها و اتجاهاتها ، و كان من نتائج تلك الجهود أن ظهرت في الكثير من الأقطار العربية و الإسلامية بدعة ازواج التعليم أو انقسامه إلى تعليم ديني و تعليم مدني ، و أصبح التعليم الديني يقوم على اجترار مخلفات بالية أو قشور من الفكر الإسلامي و اللغة العربية ، بمنأى عن الاستفادة من علوم الكون و الحياة و عطاءات العلوم الانسانية و الاجتماعية و التجارب البشرية الصحيحة ، أما التعليم المدني فتتوافر فيه أنصبه لابس بها من علوم الحياة و الطبيعة و الكون و الدراسات الانسانية المجردة و المعارف المحترمة ، إلا أنه يخلو من المعرفة الإسلامية و علوم اللغة العربية ، و إذا وجد فيه شيء من ذلك - تحت ضغط ظروف معينة - فهو فقط ذر للرماد في العيون و إخفاء للحقيقة بحجاب التلفيق .. و كان من ثمار هذا المنهج الغربي أن المهندسين و الأطباء و الضباط و السياسيين يتخرجون و هم لا يدرون عن عقيدتهم و دينهم إلا بعض القشور التي قد يكون ضررها أكثر من نفعها ، بل إن المتخرج في الحقوق و الدراسات القانونية - المفترض فيه القرب أكثر من غيره من الفقه الإسلامي و الدراسات الإسلامية - لا يعرف عن الشريعة الإسلامية إلا مثل ما يعرف عن القانون الروماني البائد ، أو أقل من ذلك ... و هكذا أصبح قادة المسلمين و أصحاب المواقع و المراكز المؤثرة منهم - و معظمهم من هؤلاء الخريجين - يعيشون بمنأى عن توجيهات دينهم ، بل قد يضيقون به و يعملون ضده ، و ما ذلك إلا أثر من آثار و ثمرة من ثمار المناهج التربوية الغربية التي أشرفت على وضعها و رعايتها دوائر الغزو الثقافي و الإلحاق الحضاري في العالم الإسلامي (١) .

(١) محمد الغزالي ، ظلام من الغرب (مصدر سابق) ص ١٥٧- وانظر أيضا كتابه (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) (مصدر سابق)- ص ٥٨- وانظر كذلك للتعرف أكثر على الآثار المدمرة لمناهج التغريب التربوية وغيرها فصلي : ((تحقير الإسلام في بلادنا)) و ((إضعاف الوازع الديني)) في كتابه ((كفاح دين)) - وانظر أيضا كتابه : ((كيف نتعامل مع القرآن)) ، (مصدر سابق) ، ص ١٨٨

و يرى الشيخ الغزالي أن حل هذه المشكلة لن يكون إلا بإلغاء بدعة ازدواج التعليم ، وأن يكون كل المتعلمين و المتخرجين من الجامعات و المعاهد العليا على حظ وافر من إعزاز عقيدتهم و انتمائهم الحضاري و معرفة دينهم و لغتهم ، كما تفعل بقية الشعوب و الأمم الأخرى التي تقدر عناصر و معالم هويتها الفكرية و القومية و الحضارية .

و لكي يمكن ملاحقة جهود التغريب في المجالات التربوية و التعليمية ، و وضع السدود و المعوقات في طريقها ، يقترح الشيخ الغزالي التركيز - في العملية التربوية - على هذه النقاط (١) :

١- تجلية تاريخنا القديم و عرض صفحاته الحافلة بالكفاح عرضا يستهدف إحياء الحاضر و حل مشكلاته و معالجة أدوائه .

٢- تربية الأخلاق الشخصية و ترقية التقاليد العامة ، و الاستعانة بتعاليم العقيدة و الدين و أنواع الآداب و الفلسفات المتسقة معه لصناعة أجيال رفيعة السيرة ، زاكية القلوب و السلوك ، ناضجة التفكير .

٣- نفخ روح الحياة في تراثنا ، و الحفاوة بآثار شعراء و كتاب حضارتنا ، و التعريف بعلمائنا و عظمائنا ، و غرس القداسة في نفوس النشء نحو اللغة العربية و آدابها .

٤- ربط الحياة العامة بالدين عن طريق دروس أملا بالعلم و أدنى إلى الجد ، و العناية بالذكريات و الأحفال الدينية ، بحيث تتكون في النفوس عواطف الإجلال للدين و الوقوف عند حدوده ، و ما يكون ذلك إلا بتقاسم الأعباء التربوية بين المدرسة و المسجد و البيت و الشارع و وسائل الإعلام .

٥- حسن الاستفادة الواعية من التجارب الانسانية الحية في ميادين الصناعة و التجارة و الزراعة و غيرها ، و عدم التخلف عن الإسهام في النشاط الإنساني الذي تتلاحق و تيرته بسرعة في الحياة .

و يلاحظ هنا - من خلال هذه المقترحات - أن الشيخ الغزالي يركز دائما في المواجهة الثقافية - في المجال التربوي أو الإعلامي أو غير ذلك من المجالات - على عملية التحصين الذاتي و دعم الوجدان الروحي و الثقافي و السلامة الفكرية و العقلية للإنسان المسلم ، و هو دون شك تحليل سليم ، يعكس نظرة ذات أبعاد جوهرية أو مفصلية لهذه الإشكالية ؛ ذلك أن الغزو الثقافي أو الاجتياح الفكري إذا تغلغل في أعماق و أخاديد ذات حضارية ما فإنه يشل قدراتها على العمل و الخلق و الإبداع ، لأنه يقضي على فعالية إنسانها ، فيكتفي - فحسب - بحياة التأمل و القناعة و الإستسلام للواقع و لوطأة الأحداث و الظروف من حوله و لا يكتثر من ثمة بمدى إتساق و توافق هذا الواقع مع مكونات هويته العقدية و الفكرية و اتجاه شخصيته الحضارية و الإنسانية .

(١) محمد الغزالي ، كفاح دين (مصدر سابق) ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥

و هذه أداة أخرى استعان بها هؤلاء أيضا على تحقيق مآربهم و الوصول لأهدافهم ، ذلك أن الإستعمار الثقافي و مهندسي سياسات و مخططات الإستلاب الفكري و الحضاري على و عي بحقيقة كون تواصل الأجيال بتفاعل و ايجابية مع قادة الفكر و رموز اليقظة و النهضة في الأمة إنما هو عامل مساعد في عملية الإحياء الفكري و البعث الحضاري و الإصلاح المنهجي مواجهة المعضلات ... و من ثمة فقد دأبت تلك القوى على نشر الأوهام و الأباطيل عن قادة الإصلاح و الفكر و للتجديد في أمتنا للحيلولة دون استفادة الأجيال الناشئة و الجديدة من مجهوداتهم العلمية و خبراتهم في كفاحهم و تصديهم لأعداء الإسلام و المناوئين لسيادته التشريعية و الحضارية . وفي هذا السياق يقول الشيخ الغزالي : " في هذه الأيام المهزولة من تاريخنا العلمي و السياسي تتعرض سيرة جمال الدين الأفغاني لمطاعن شديدة من صنفين متباعدين جدا ؛ فالدكتور " لويس عوض " يصب جام غضبه على الثائر الإسلامي الحر و يصفه بكل موبقة ، فهو مغامر مجهول كافر مجنون ، مخاطر مغمور ، زنديق مخبول ، ملحد ماجور أفاك دساس دجال متلون ... إلخ ... ومع أنني لا أتوقع أن يقول الدكتور " لويس " كلمة طيبة في جمال الدين أو في محمود شاكر إلا أنني فوجئت بهذا الضغن الشديد على زعيم من زعماء الإصلاح الإسلامي " (١) ؛ بيد أنه إذا كان الدكتور لويس عوض من المتعصبين لأوروبا و الداعين للثقافة الغربية و الحاقدين على تاريخ الإسلام و حضارته ، فإن هذا الموقف من رجالات الإصلاح الإسلامي لا يستغرب منه ولا ممن هم على شاكلته ؛ وتظل المشكلة الحقيقية تكمن في بعض العقول المسلمة وفي بعض الأفهام السقيمة الملتاثرة بأراء و آثار مناهج الإستعمار الثقافي الكائنة لأمتنا وأصالتها الفكرية و الحضارية ، وعن هذا الصنف العجيب ، والنايبة الغربية يقول الشيخ الغزالي مغتاظا مستنكرا : " قال لي صديق يعمل مفتشا للوعظ و الإرشاد بالقاهرة : إنه ذهب لإلقاء محاضرة عن أحمد بن حنبل بناد لجماعة تنتسب إلى السنة ، وبعد أن أتم كلامه قام متحدث آخر ليلقي محاضرة موضوعها (أبو حامد الغزالي الكافر) (!) .. و فزعت لشناعة التهمة الموجهة إلى إمام ضخم من قادة الفكر الإسلامي ، لقد كان أبو حامد عالما أدبيا وفقهيا أصوليا ، و مربيا فيلسوفا ، و هو أذكى من أرسطو و أفلاطون و سقراط الذين تشمخ بهم اليونان و تعتز بهم أوربا " (٢) .

(١) محمد الغزالي ، علل وأدوية (مصدر سابق) ، ص ٩٠ - ٩١

(٢) المصدر نفسه ص ٩٧- وأنظر أيضا قوله في كتابه : ((سر تخلف العرب و المسلمين)) ص ٥٩- : ((ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشرعي و الرازي و الغزالي و القرطبي و بقية علماء المسلمين ٢٢ طوال عشرة قرون !! أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف و يجنبوا الأمة بلاءه الآن... كنا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صفار نعرض رأبي السلف و الخلف ، و ندرس مواقف الجانبين دون حساسيات ، وقد ألقت كتابي ((عقيدة المسلم)) مؤثرا مذهب السلف لإقتاعي بعجز العقل البشري عن اكتناه الغيبات.. بيد أنني ما فكرت في تأليف فرقة لشم الأشرعي وسائر الخلف ، وشغل المسلمين بمحاربة الموتى ، وإلقاء محاضرة في تكفير الغزالي باسم السلف !!))

إن جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و محمد رشيد رضا - كما يعتقد الغزالي - هم قادة الفكر الواعي الذكي في القرن الرابع عشر الهجري ، و النفيق العالي الذي يثور ضدهم هو من أشخاص علمهم بالإسلام سطحي ، و دفاعهم عنه يشبه الدبة التي قتلت صاحبها (١) ، و لا شك أن هذا المسلك مضر بالإسلام ، نافع لأعدائه ، مفر لأعين زبانية الإستعمار الثقافي القائمين على مجهودات التبديل الفكري بين المسلمين .. إن الجهود المجنونة التي تستبيح قادتنا و كبراعنا في ميدان العلم و الأدب و السياسة لها غاية يجب فضحها و التحذير من مغبتها ، إنها تريد بإختصار القضاء على تاريخ أمة ، و تشويه مكانتها الحضارية ، و التشغيب بدهاء و مكر على منطلقات نهضتها ، و عندما تكون أمة بلا تاريخ فلن تكون أمة ، فما قيمة أمة ليس لها رجال ؟ و ما قيمة دين لم يصنع رجالا على تراخي العصور و امتدادها ؟ إنه لابد من استنقاذ تراثنا من أيدي المسعورين و الهدامين ، فقد أمست مسالك هذه الأفهام المعتلة من مظاهر غبطة الاتجاهات الكارهة لنهضة الفكر الاسلامي و الحضارة الإسلامية (٢) .

و نرى الشيخ الغزالي ينكر بشدة الاتجاهات الإسلامية نفسها التي تجهمت لبعض قادة الفكر الاسلامي (٣) ممن أخلصوا لأمتهم و أبلوا في خدمتها بلاء حسنا ، و يعد تلك الإتجاهات مؤازرة - شعرت أم لم تشعر - لمخططات الإستعمار الثقافي و الغزو الفكري ، يقول " أذكر أن (بابا روما) الأسبق مات عقب مرض ألم به فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة ، فصودرت الرسالة ، و فصل الطبيب من النقابة ، و انتهت حياته الاجتماعية ، كما أنفت عشرات الكتب عن (نابليون) تتوه بأمجاده ، و تتواصى بالسكوت عن صدره و شئونه و خسته ... فالقوم إن رأوا من عظمتهم خيرا أذاعوه و إن رأوا شرا دفنوه ! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت ، واختلاقها إن لم يكن لها وجود ، و النتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ ، وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغاني بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الإستعمار الشرقي أو الغربي .. إن الهيبين لا يجوز لهم أن يشتموا الشجعان (٤) " .

(١) المصدر السابق . ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٦

(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال حوار مع محمد حسين في (علل و أدوية) ، ص ٩٨ - ٩٩ ، و فصل ((وجهة نظر في أقدار الرجال)) من هذا الكتاب ، و قوله في الكتاب ذاته ص (٧٨) : ((بني لأجعل عيبا ما يغطي مواهب العبقري ، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأنبي و الديني ؟ .. ومن يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبي بكر و عمر من أفواه غلاة الشيعة ، و تاريخ علي بن أبي طالب من أفواه الخوارج ، و تاريخ أبي حنيفة من أفواه الإخباريين ، و تاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة و ابن خلدون ، و تاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك .. إلخ ؟ .. وددت لو اعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف ((إلجام العوام عن علم الكلام)) فألفت كتابا عنوانه ((إلجام الزعاع و الأغمار عن دقائق الفقه و مشكل الآثار)) لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار و أشغفهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم ، و تنفع أممهم بهم)) .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٨٥

إن جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و محمد رشيد رضا - كما يعتقد الغزالي - هم قادة الفكر الواعي الذكي في القرن الرابع عشر الهجري ، و النقيض العالي الذي يثور ضدهم هو من أشخاص علمهم بالإسلام سطحي ، و دفاعهم عنه يشبه الدبة التي قتلت صاحبها (١) ، و لاشك أن هذا المسلك مضر بالإسلام ، نافع لأعدائه ، مقر لأعين زبانية الإستعمار الثقافي القائمين على مجهودات التبديل الفكري بين المسلمين .. إن الجهود المجنونة التي تستبيح قادتنا و كبراءنا في ميدان العلم و الأدب و السياسة لها غاية يجب فضحها و التحذير من مغبتها ، إنها تريد بإختصار القضاء على تاريخ أمة ، و تشويه مكانتها الحضارية ، و التشغيب بدهاء و مكر على منطلقات نهضتها ، و عندما تكون أمة بلا تاريخ فلن تكون أمة ، فما قيمة أمة ليس لها رجال ؟ و ما قيمة دين لم يصنع رجالا على تراخي العصور و امتدادها ؟ إنه لا بد من استنقاذ تراثنا من أيدي المسعورين و الهدامين ، فقد أسست مسالك هذه الأفهام المعتلة من مظاهر غبطة الاتجاهات الكارهة لنهضة الفكر الاسلامي و الحضارة الإسلامية (٢) .

و نرى الشيخ الغزالي ينكر بشدة الاتجاهات الإسلامية نفسها التي تجهمت لبعض قادة الفكر الاسلامي (٣) ممن أخلصوا لأمتهم و أبلوا في خدمتها بلاء حسنا ، و يُعد تلك الإتجاهات مؤازرة - شعرت أم لم تشعر - لمخططات الإستعمار الثقافي و الغزو الفكري ، يقول " أذكر أن (بابا روما) الأسبق مات عقب مرض ألم به فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة ، فصودرت الرسالة ، و فصل الطبيب من النقابة ، و انتهت حياته الاجتماعية ، كما ألفت عشرات الكتب عن (نابليون) تنوه بأمجاده ، و تتواصى بالسكوت عن غدره و شذوذه و خسته ... فالقوم إن رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه و إن رأوا شرا دفنوه ! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت ، واختلاقها إن لم يكن لها وجود ، و النتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ ، وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغاني بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الإستعمار الشرقي أو الغربي .. إن الهيايين لا يجوز لهم أن يشتموا الشجعان (٤) " .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٦

(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال حوارهم مع محمد حسين في (علل و أدوية) ، ص ٩٨ - ٩٩ ، و فصل ((وجهة نظر في أقدار الرجال)) من هذا الكتاب ، و قوله في الكتاب ذاته ص (٧٨) : ((بني لأجعل عيبا ما يغطي مواهب العبقري ، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي و الديني ؟ .. و من يبقى من رجالنا إذا أخذت تاريخ الشيخين أبي بكر و عمر من أفواه غلاة الشيعة ، و تاريخ علي بن أبي طالب من أفواه الخوارج ، و تاريخ أبي حنيفة من أفواه الإخباريين ، و تاريخ ابن تيمية من ابن بطوطة و ابن قلان ، و تاريخ محمد بن عبد الوهاب من أفواه الأتراك .. إلخ ؟ .. و ددت لو اعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف ((إلجام العوام عن علم الكلام)) فألفت كتابا عنوانه ((إلجام الرعاع و الأغصان عن دقائق الفقه و مشكل الآثار)) لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار و أشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم ، و تنفع أممهم بهم)) .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٨٥

٦) الدعوة إلى التشبث بالحياة و العيش دون رسالة :

إن غرس حب الدنيا و التعلق بأسبابها في نفوس و أرواح الأجيال الإسلامية - كما يفهم من تفكير الغزالي - أداة خطيرة في يد الإستعمار الثقافي و مشروعات المسخ الفكري ، ذلك أن إفراغ صدر الإنسان المسلم من إيمانه بعقيدته و رسالته معناه الإزورار عن الإسلام جملة و التجهم في وجهه و إقصائه نهائيا عن حقه في توجيه الأفراد و الهيمنة على حياة المجتمعات الإسلامية . و هذا منعطف حاسم بعيد الغور في الصراع الحضاري المرصود عالميا لحرب الإسلام و تفتيت القوى العاملة له ، المشفقة على حاضره و مستقبله ؛ ولذلك يقول الشيخ الغزالي محذرا من مخاطر الجهود المتلاحقة المبذولة على هذا الصعيد ، المنظوية على ضغائن و سخائم لم يتوقف لها مد في كافة مراحل الصراع : " من أخلاق الضعة التي رمانا بها الإستعمار ، الشره في طلب اللذائذ ، و الرغبة في الراحة دون عمل ، و نيل المغنم القريب من غير مغرم يبذل ، و قعود الهمم من الآمال العراض و المطامح العظام ، مع إدمان غريب للشهوات الدنيا ، و تتبع للعورات ... إلى غير ذلك من ذرائع الهزيمة التي لا تتاح معها نهضة ، و لا ينجح في ظلها سعي ... و في مصر يسر الإحتلال البريطاني - للعوام و للمتقنين على السواء - أن يرتعوا في هذه الدنيا ، و أن يحيوا داخل نطاقها كما يحيا بعض الحيوان داخل القواقع ... فانتشرت الحانات في قرى الريف و أحياء المدن ، و أبيع البغاء و الوقاع الحيواني ، و احمرت الليالي أكثر العام بالسهر النجس و ألوان الإثم ... و انضم إلى ذلك - بل سبق ذلك - إخلاء الحياة العامة من رسالة تنتظم فيها المشاعر و تجند لها الجوارح، و ينشغل الجميع بأعبائها ، يفرحون لما يصيبها من نصر ، و يكتئبون لما يلحقها من انهزام (١) " .

ويؤكد الغزالي على أن الإستعمار الثقافي يدرك بأن خلق هذه الأجواء بأية وسيلة أو كيفية ، شرط لا بد منه لطمس معالم الدين الحق ، و حتى تكون الجماهير المسلمة و الأجيال الإسلامية أدوات في يده يستخدمها متى يشاء ، و يرميها أو يكسرها إذا أحب ، لأنهم أصبحوا - بهذه الحال - عبيد شهواتهم أولا و أخيرا، وهي وضعية: "يشجعها الإستعمار الذي غزا الشرق بعقلية اللص!! فليس يهمله إلا أن يعامل مغفلين ذوي شهوات نزقة!! أتري الإستعمار يألم لأن (الخدوي إسماعيل) أسس دار (الأوبرا) في القاهرة، وأن تفكيره جرى إلى ذلك قبل أن يجري إلى تأسيس مصنع نافع؟ كلا إنه يهتم بمعاملة مثل هذا الحاكم، ويريد أن تسري روحه إلى كل فرد في الشعب! بل إنه سلط سمارته و زبانيته لدفع الشعوب العربية في هذه السبيل الوسخة . و حالف في هذه السبيل الكتاب و الصحافيين و المبشرين كي يبنوا له المجتمع الإسلامي على هذه الدعائم المنهارة، و كي يصوغوا أفكار الشباب و أماله، فإذا هي لا تعدو ذلك العبث الصبياني في اصطيد امرأة و إجابة نزوة.. هذه هي الأهداف المعنية التي يسعى الإستعمار لبثها (٢) " .

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٠

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٢ - ٢٨٣

إن الهيمنة الحقيقية على الأمم ليست انتهاب مقدراتها المادية - وإن كانت قاسية - ولا استغلال أفرادها وجماعاتها و استنزاف جهودها وطاقاتها لتحقيق مآرب خاصة - وإن كانت جائرة - وإنما هي في معناها الأعمق إهدار الروح المعنوية لأمة ما ، واستباحة موروثاتها الفكرية والروحية و الثقافية ، وفصل حاضرها و مستقبلها عن ماضيها الحضاري بكل دلالاته و تداعياته التاريخية .. وهذا هو المنهج الذي تتبناه قوى الغرب الثقافية و غيرها في النزال مع الإسلام و الكيد لأمته و حضارته .. وقد انتبه الشيخ الغزالي لهذا المنهج كما يتبدى في قوله عن بعض ما ينطوي عليه ذلك المنهج من توغلات غائرة في النفس الإسلامية قصد انشطارها و إلحاقها من ثمة حضاريا بالقوى المغيرة : " فأمراض الرجولة و إسقاط مستواها و إهانة الغرائز السافلة ، و تنمية الحيوان الرابض في الدماء و إضعاف الروح الإنساني المخنوق ، و تمريغ الإسلام في الوحل إن هو هم بكلمة إعتراض، أو بدت عليه علامة إمتعاض ، و تجرىء الأجراء من بنين و بنات على سلقه بلسان حاد ... كل ذلك جزء من خطة الإستعمار لخلق أمة تلين في يده و تخلو من أصحاب الأخلاق القوية و السير القويمة و الهمم البعيدة ... و كثيرا ما أرمق الرجال و النساء في ميادين القاهرة الكبرى كما يرمق الطبيب أعراض مرض انتشر في كل فج ... إن إتهيار الرجولة في الشرق الإسلامي أمام طوفان اللذة الحيوانية التي يبعث بها الغرب ، ويسخر أدوات لاحتصى في نشرها ، هذا الإتهيار هو تأمين الحياة للإستعمار ، وبذر الجراثيم التي تدعوه للعودة إن هو ذهب . وما لم نستكبر على هذه الرغبات ونطرحها وراء ظهرنا ، و نتبع في شأنها تعاليم ديننا فلن تصح لنا حياة و لا حرية ، ولن نسلم لنا كرامة أو عزة (١) " .

إن الشيخ الغزالي يدرك كل الإدراك أساليب ومناهج التبديل الثقافي الغربي ، هذه الأساليب التي تركز في مجهوداتها على المداخل الصحيحة لتغيير الإنسان . وهل يبقى شيء من هوية إنسان ما إذا تغير فيه اعتقاده ووجدانه وفكره ؟! إنه يصبح نسخة مشوهة للأخر الثقافي و الحضاري ، أو يتحول إلى خلية غريبة لذلك الأخر داخل كيان أمته . لذلك فنحن نرى الشيخ الغزالي ينبه إلى خطورة هذه المناهج و الأساليب ويفتح العيون و المدارك على نتائجها الوخيمة ، وهي نتائج متعلقة أساسا بمستقبل الأمة الإسلامية ومستقبل أجيالها ، ففي كتابه " سر تأخر العرب و المسلمين " يكشف عن بعض الجهود المدسوسة لهذه المناهج وطريقتها في عملية الإحتواء و الإلحاق و التبديل الثقافي فيقول : " بين يدي كتاب مدرسي مقرر على طلاب الثانوية العامة في دولة إسلامية عريقة ، وثابت على غلاف الكتاب أنه لجميع الشعب التي تريد نيل البكالوريا .. طالعت في هذا الكتاب الموضوع الذي يهمني ويهم كل مسلم ، موضوع " الإيمان بالله و اليوم الآخر " وشعرت بغصة و المؤلف ينقض أسس هذا الإيمان ، ويجعل منه حكاية أسطورية من مخلفات ماض قليل الوعي .. ! وتساءلت : هل تضليل الألوفا من أبنائنا على هذا

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٣

النحو جريمة فردية ؟ أعني هل هذا المؤلف ملحد نشر فكرة لرغبة خاصة لديه وحده ؟ أم أنه يخدم جهات تريد تخريج نشء خرب القلب ، جامع الهوى فتقرر هذا الكتاب على كل شاب يريد الإلتحاق بالجامعة ، ليضمن الإستعمار بشقيه الشيوعي و الصليبي على مستقبله في بلادنا ؟ " (١) ؛ إن جهود الغزو الفكري في تقب الصدور وإفراغها من عقائدها وإيمانها بالله وجعل أصحابها يعيشون بلا رسالة ولاهدف كبير في الحياة ، هي التي أفلحت في جعل المال الإسلامي يسهم في تجديد وترميم المعبد البوذي الضخم " يورد بودر " في أندونيسيا و الذي يحتوي على (٤٢٢ صنما) لبوذا (٢) ، و الذي تكلف ترميمه (١٧،٥) مليون دولار في وقت تعاني فيه أندونيسيا من أزمة في توفير المياه الكافية الصالحة للشرب (٣) ؛ و هذه الجهود ذاتها هي التي جعلت بعض المتقنين و حملة الأقلام في أمتنا يقولون بإمكانية التسليم بنصوص العقيدة الإسلامية ، مع تبني مناهج أخرى في الحياة ، و اختلاق ما يسمى باليسار الإسلامي ، و يتجاهلون حقيقة أن الإسلام كل لا يتجزأ لأنه منهج شامل للحياة و الفكر (٤) ؛ و هذه الجهود المتلاحقة نفسها هي التي دفعت أحد وزراء العدل القدامى في مصر إلى إصدار أمر بإنشاء " متحف " للمحاكم الشرعية يضم الإشهادات و الأحكام و الحجج الشرعية المنبثقة بين أدرج المحاكم للمحافظة عليها ، لما لها من القيمة التاريخية ، و للوقوف على تطورات القضاء الشرعي في مصر . و يعلق الشيخ الغزالي بمرارة على صدور هذا الأمر قائلا : " قرأت هذا النبأ ثم طويت الصحيفة عاجبا ساخطا ... إن عهدنا بالمتاحف أن تضم بين جدرانها آثارا مما ترك الأقدمون الذين طال عليهم الأمد ، و نفهم الموت في أكفانه ، و لكننا الآن أمام متحف تاريخي من نوع آخر ، هو متحف المحاكم الشرعية المليء بالوثائق الخطيرة ! أليس هذا اكتشافا عظيما ، و مفاجأة تستحق التسجيل ؟ بلى ، فقد بعث من القدم ذكريات اختفت ٦٠ سنة ! و ليست ٦٠ سنة قبل الميلاد أو بعده ، و لكنها ٦٠ سنة من يوم الناس هذا ؛ كانت قبلها المحاكم الشرعية هي كل شيء ثم جاء بعد ذلك الغزو الثقافي و الحربي فأصبحت القوانين الوضعية هي التي تعمل ، وأصبح التشريع الإسلامي في (متحف) يضارع متاحف الفراعنة البائدين !! (٥) ،" ثم يضيف الشيخ في تعليقه الطافح بالمرارة والأسى : " ... و تمشيا مع الفكرة التي أوحى بهذا المتحف الفذ ، و إنصافا لماضي هذه المحاكم ، كان ينبغي أن يعرض الفقه الإسلامي كله و دعائمه الأولى من كتاب و سنة ثم يقال في ذلك ... إنه للذكرى و التاريخ !! " (٦) ؛ و ليس من شك أيضا أن آثار الغزو

(١) محمد الغزالي ، سر تأخر العرب و المسلمين ، دار الصموة للنشر و التوزيع ، القاهرة مط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ ، ص ٨٥

(٢) بوذا : حكيم وفيلسوف وك بنحو ٥٦٠ سنة قبل الميلاد ، على حدود نيبال بين الهند و الصين ، واسمه ((سداتنا)) أما بوذا فلقب له معناه ((العالم)) ، فلسفته مثالية ، تقوم على عيشة الأكم و الزهد و التجرد من الأكانية و الشهوات للوصول إلى الفناء التام أو ((النير فانا)) ينتشر اتباع

البوذية في الصين و اليابان و الهند وكوريا و التبت و نيبال

(٣) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (مصدر سابق) ص ١٣١

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٩

(٥) محمد الغزالي ، تأملات في الدين و الحياة ، (الاسكندرية: دار الدعوة ، مط ٢ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م) ص ١٣٨

(٦) المصدر نفسه ص ١٤٠

الفكري و التدمير العقدي هي التي نضحت على عقل الدكتور " عبد الرحمن بدوي " حجة الفلسفة الوجودية في العالم العربي حين قال في رسالة له صدرت بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م : " ... إما أن تقول بالأخلاق فتفقد ذاتك ، وإما أن تقول بأن لا أخلاق فتخاطر بوجودك . لكن " الوجودي " الحق هو الذي يفضل أن يخاطر بوجوده على أن يفقد ذاته ... الوجودي الحق ... أعدى أعدائه القانون ، إنه الحرية نفسها ، فلا معنى للواجب في عالمها ، و لا تقييد لمدى انطباقها و انطلاقها ، إنه الفعل الدائم أيا كان نوعه و نتاجه ، فإن معاني الإثم و الصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب .إننا معشر الوجوديين لا نريد أن ننساق في أحلام البراءة و البكارة و الطهارة ، بل نصيح ملء فينا : افعلوا ... افعلوا ... حتى لو أدى ذلك إلى الخطأ ... " (١) !! و تلك الآثار كذلك هي التي جعلت الأستاذ " فكري أباطة " يصرح لبرنامج إذاعي اسمه (الشباب يريد أن يعرف) بأن أعظم رجل في التاريخ الحديث هو " مصطفى كمال " في تركيا !! و لما سئل لماذا لم يتزوج ، شرع يعرض على أذان الشباب رموزا للنساء التي عرفها و كان لها أثر كبير في حياته ، ثم أخذ دون حياء يذكر عهده و تسوله الجنسي للشباب ، و يعرب عن غيظه إزاء مقترحات " مجلس الأمة " المتعلقة بمشروع قانون ، الأول لتحريم تداول الخمر ، و الثاني لفرض الزكاة ، وذلك رغم علمه بأنه بهذه التصريحات يجرح مشاعر و مسامع كل مسلم يلتقط إرسال البرنامج الذي استضافه (٢) و من هذه العينات و الأمثلة وحدها - على قلتها - تتبين جليا لكل عين مستويات النجاح التي بلغها الإستعمار الثقافي عبر برامجه ومخططاته المرصودة لإرتداد المسلمين عن دينهم ، وجعلهم مسخا من البشر ، أو عبيدا يأترون بأوامر ونواهي الأسياد المتغلبين ، يتعلقون تعلقا كاملا بمتاع الدنيا وحطامها الرخيص فحسب ، بعد أن تكون قلوبهم وصدورهم قد خوت من الإيمان الحق ، وهانت عليهم رسالتهم التي كانت وحدها ملاذهم في كل شدة ، وسبيلهم لكل نصر ، وتاجهم الفريد في تجسيد الشرف و العزة ، وتعلم المعنى الصحيح للحياة الجديرة حقا بالعيش مهما تضاعفت التكاليف ومهما انتصب في طريقها من السدود و العوائق .

لقد بذل الشيخ الغزالي جهودا مضيئة في ملاحقة مظاهر و آثار التبديل الثقافي الغربي ، وعبر عشرات الصفحات نراه يترصد أقوال وتصريحات الكثير من الشخصيات ومتابعة أعمال الهيئات ، فيقوم بالتصويب ، ويسلط الأضواء على الأخطاء و الإنحرافات ، من منطلق رغبة المفكر المصلح في تصحيح الأوضاع و الانتصار للحق ودفع الإساءات عن رسالة الإسلام ، و التذكير بالمخاطر التي تهدد الأمة الإسلامية في حاضرها و مستقبلها.

(١) محمد الغزالي ، ظلام من الغرب (مصدر سابق) ص ١٤٧

(٢) محمد الغزالي ، كفاح دين (مصدر سابق) ص ٢٠١ - ٢٠٢

ويمتاز الشيخ الغزالي بمتابعة منهجية إعلامية وفكرية لما يقال عن الإسلام و الحياة الإسلامية ، جعلت منه كاتباً ومفكراً واسع الإطلاع و المعرفة ، ومما يحسب له في هذا المقام استيعابه لخلاصات متنوعة لحقول علمية ومعرفية متباينة ، وهي ميزة أهلته بحق للوقوف في وجه محاولات وجهود تشويه المنهج الإسلامي ، و الانتصار للحقائق الإسلامية أمام هجمة دوائر الغزو الثقافي الغربي ومؤسسات التبديل الثقافي و الفكري الكائنة للإسلام أمة و فكراً ومنهجاً وحضارة .

٧- إستغلال التقدم العلمي وتطويعه للتضليل :

تحاول الدوائر و القوى المعادية للإسلام بمناهج وأساليب مختلفة تقديم التفوق العلمي الحديث على أنه ثمرة من ثمرات صراع العقول الحرة مع الدين ومقرراته و القائمين على شؤونه ؛ ولئن كان هذا الحكم حقيقة علمية وتاريخية تصور فصولا قائمة لصراع العقل المستتير و العلم التجريبي مع الكنيسة النصرانية وأوهامها وضلالاتها المأساوية .. فإن تلك الدوائر و القوى تعمل - عن قصد ودراية - على سحب وإسقاط هذا الحكم وتداعياته على الإسلام ومنهجه الرباني ، وذلك بتصوير شريعته وعقيدته على أنها ليستا متسقيتين مع مقررات ومآلات العلم الحديث ، ومع الآفاق الهائلة التي ارتادها العلماء بتجاربههم وعقولهم الحرة فحسب ؛ وهم بهذا العرض المشوه - كما يذهب الغزالي - يقصدون إلى تزهد الأجيال المسلمة في عقائدها وموروثاتها الحضارية و الفكرية ، بل إلى استدراجها لإعلان الصدود عنها وتركها إلى الأبد .. إن هذه الدوائر تود أن تقول للمسلمين بمنتهى الصراحة و الوضوح " كيف تبقون على الإسلام وقد اكتشف الغرب الكهرباء ؟! لماذا لا تتخلون عن تاريخكم وتقاليدكم وأنتم تستوردون حاجاتكم كلها من بلادنا ؟ [...] وقد ينضم إلى هذا التساؤل السمج وسواس آخر يدلف إلى نفس الشباب في مكر ودهاء ، يقول له : افتح ذراعيك لهذا الجديد الغالب ، ودع عنك ربك ونبيك وقومك .. إن المستقبل الدافئ السخي المأمون لا تكفله إلا هذه الحياة الوافدة ولا ينمو إلا في ظل أصحابها المنتصرين (١) " .

و الشيخ الغزالي يرى بأن تلك الدوائر الكارهة لديننا وحضارتنا تريد بهذه الحيلة مضاعفة التردّي و التخلف في أوطاننا ، ودليل ذلك أنها تضمن علينا بسبل الإحاطة بالأسرار العلمية المختلفة حتى وإن كانت من صنع جهود أبنائنا ، في الوقت الذي تحرص فيه على إشاعة وتصدير أنساقها الثقافية و السلوكية و الذوقية وربط ذلك على الدوام بالعلم وفتوحات البحث العلمي الحديث ، يقول : " ولو أن ما يجيئنا من الغرب هو العلم وحده لعددنا من يعترض طريقه خائناً أو كافراً .. إن التقدم العلمي ما يجيئنا منه إلا النزر اليسر ، أما الطفح الحيواني و الشنات الإجتماعي فسيل دافق ، وهنا مكنم الخطر ؛ بل إنني أعرف من أبناء أمتنا من تفوق في بحوث الذرة ، فقتله اليهود قبل أن يجيئ إلينا ، أو من استبقي حيث هو عن شراء العقول مهما غلا السعر، ترى أكان يلقي هذا المصير لو كان فنانا خليعاً ؟ أو كان أديباً يحمل جراثيم التبشير و الإستشراق ؟ فالمأساة التي نشكو منها أن القوى المعادية للإسلام استغلت التفوق الحضاري

(١) المصدر نفسه ص ١٥٩ - ١٦٠

الحديث كي تتال منا ، أو تجهز علينا إن استطاعت ... و العبرة السريعة من هذا الوضع أن التخلف الحضاري جريمة عانينا منها الكثير ومانزال وأن هذا التخلف يشمل للأسف ميادين شتى مادية وأدبية ، وأن المتدينين الذين لايعون هذه الحقيقة هم بقية من عصور الإنحطاط ، أو من هزائم الماضي ، وأن على قادة الصحوة الإسلامية أن يكونوا منهم على حذر ، فليسوا أقل خطرا من قادة الغزو الثقافي المصمم على إهانتنا وإضاعتنا (١) .

ولاشك أن هذا الأسلوب المعتمد في عملية الإلحاق الحضاري و الإستلاب الفكري و النفسي - كما لاحظ الغزالي بحق - قد أفلح إلى حد بعيد في تحقيق بعض أهدافه ، ودليل ذلك أن الكثيرين ممن غير الغزو الثقافي عقولهم وأفكارهم ونظراتهم وأذواقهم يتذرعون في إطراح المرجعية الإسلامية وعزلها عن الحكم على الناس والأشياء و العلاقات و الأفكار بالتقدم العلمي الهائل العجيب الذي بلغته الحضارة المعاصرة، وكان هذا الشاؤ المحقق الآن في ميدان العلم هو ثمرة جهد ومعاونة العقل الغربي بمفرده (٢) ، أو كان تحصيل هذا الجانب لا يجوز إلا إذا واكبه أو سبقه الجانب الآخر ، جانب تمثل فكر الحضارة الغربية واعتماد نهجها و طريقته في الحياة سلوكا وثقافة وذوقا .. وماذلك - برأي الشيخ الغزالي - إلا لكون ما " استحدثه الغزو الثقافي من أباطيل ، ينطلق في مهرجان من التقدم العلمي والتفوق الحضاري ، وتنهض لأخطائه أعداء ، ولعوجه حجج " (٣) ولاشك أن هذا الخلط و البعثرة المتعمدة للحقائق هو أيضا منحى أو وجه يستهدفه الغزو الثقافي و الدوائر القائمة على تنفيذ مخططاته وبرامجه ، وذلك قصد إفساد معايير المنطق في التمييز بين الأشياء ، فتضيق الحقيقة وسط وطأة ركامات التضليل والانحراف المدروسة ، بل والمعدة بعناية لهذا الغرض.

٨- الإستعانة بمؤسسات التبشير و الإستشراق :

إن الصراع الحضاري الذي فرضته القوى الغربية على الإسلام ، له طبيعة خاصة ، فهو لا يستهدف بجهوده انعطاف الآخرين تجاه خلفيته الفكرية ونظراته الإنسانية و الحضارية للحياة و الوجود والإنسان بالأساليب المشروعة ، ولايجعل هذه الغاية الهدف الأوحد الذي يسعى لتحقيقه بدافع من عقيدته ومرجعيته ، وإنما كثيرا ما يمزج هذه الغاية بهدف آخر ، فإن تعذر عليه تحقيق الأول فلا أقل من بلوغ الثاني .. وهذا الأسلوب سار عليه القائمون برسالة التبشير و الإستشراق في العالم الإسلامي ، فهم إذا عجزوا عن تصيير الإنسان المسلم ، فلا أقل من تزيده في الإسلام ، وقتل حرارة العلاقة بعقيدته و شريعته ومنهجه في الحياة ، كي يغدو في اضطراب وحيرة من أمره وواقعه فلا يجد سبيلا يطمئن إليه

(١) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (مصدر سابق) ص ١٢٨ - ١٢٩

(٢) يرى الكثير من المفكرين -منهم الشيخ الغزالي - بأن الحضارة هي بناء تراكمي ، وإضافات متتالية ، أو هي نتيجة من نتائج الجهود الإنسانية المشتركة ، عبر الزمن ، وهذا ينطبق - طبعا - على الإنجازات التي تمثل مشتركا إنسانيا عاما .. ومن ثمة فإن الإدعاء بكون منجزات العلم الحديث هو حصيلة جهد العقلية الغربية وحدها لتسويغ أخذ ما هو من خصوصيات الحضارة الغربية ، إنما هو مغالطة واضحة الفسد والغاية

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٥

ومرجعية يستمد منها ويتلقى عنها إلا فكر الحضارة الغربية وثقافتها و منهجها ، وقد حذر الشيخ الغزالي من هذا الأسلوب في كثير من مؤلفاته لاسيما منها : " الإستعمار أحقاد و أطماع " و " دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين " و " وصيحة تحذير من دعاة التصيير " و " وقذائف الحق " و " كفاح دين .. " وفي مقدمة كتابه " دفاع عن العقيدة و الشريعة " الذي خصصه لرد على المستشرق المجري " جولد تسهير " (١) ، نراه يقول : " و المستشرق المجري ألف كتابه عن الإسلام إسهاما منه في النشاط الأمريكي لخدمة المسيحية وإجابة لرغبة إحدى اللجان العاملة في هذا الميدان ، والأمريكيون منذ دخلوا ميدان التبشير و الإستشراق ، زادوا القوى المناوئة للإسلام شراسة و إصرارا ، و أمدها بسيل موصول من المال و الرجال ، فهي لا تتي تواصل هجومها العلمي ، و دعايتها الماهرة ، ونحن نعرف أن من حق غيرنا التمسك بدينه و الدعوة إليه ، و استقبال الداخلين فيه بمسرة و بشر ، إلا أننا نقيد هذا الحق بشرط واحد ، أن يكون بوسائل شريفة و صريحة . أما اختلاس عقائد الآخرين بالرغبة أو الرهبة ، و استباحة الغش و الكذب ، و المكر و الرشوة ، فذلك ما نقف له بالمرصاد . قد يقال . إن الحرب خدعة و هؤلاء المستشرقون و المبشرون محاربون عن دينهم ، و محاربون لغيره من الأديان ، فلهم أن يخدموا مبادئهم بكل وسيلة . و نجيب : ليكن ذلك ما صنعوا ... فتركونا إذن نفضح طواياهم ، و نلقي عليها الأضواء الكاشفة ، اتركونا نحذر من المستشفي الذي ينتهز فرصة ضعف المريض و اضطراب أعصابه ليلقته مبادئ دين ينأى عنه ، و نحارب المعهد الذي يتظاهر بأنه يرفع المستوى العلمي ، و يخدم الثقافة الإنسانية ، و هو يخرس مبادئ دين لا يقره طلاب المعهد و لا يقبلون اعتناقه ، و اتركونا نعرف الجماهير بكتب و صحف يزعم أصحابها أنهم فوق التعصب المذهبي و أن غايتهم البحث عن الحقيقة فإذا تابعت أقوالهم و أعمالهم و جدتهم صرعى التعصب الحاد ، و أن غايتهم الأولى والأخيرة فتنة المسلمين عن دينهم بأروع وسائل الختل و المداينة ... إننا نعد الثعابين الزاحفة أخف شرا من ثعابين البشر ، أولئك الذين يخفون طبائعهم اللادغة وراء بسمات الوجوه و نعمة اللقاء فإذا استمكنوا أفرغوا سمومهم كلها في أجساد الضحايا المذهولة ، و قد بلونا عشرات و مئات من المبشرين و المستشرقين ، و ألؤفا من الأتباع الذين سحروا بهم .. و رأينا أنه لا بد من تجسيم المآرب التي يسعى لها هؤلاء و أولئك ... و وضعها أمام الأعين حتى يتبين القاصرون و الأغرار أنهم أمام حملة صليبية أخطر ، و لا نقول أشبه بالحملات الصليبية التي استهدفت من ألف سنة اجتياح الإسلام و ذلك عواصمه وفض الجماهير عنه (٢) .

(١) المستشرق المجري ((جولد تسهير)) (١٨٥٠ - ١٩٢٠م) يهودي مجري درس اللغات السامية على يد كبار أساتذتها في بودابست وبرلين ولندن . زار الكثير من البلاد العربية والإسلامية ، منها سورية وإيران وفلسطين ومصر حيث درس اللغة العربية بالأزهر الشريف ، وارتدى لباس شيوخ الأزهر . تصف مجلة الأوبزرفر البريطانية بأنه أكبر العلماء اليهود على الإطلاق ، ومكتبته تضم ٢٨ ألف مجلد ، هي الآن في ((إسرائيل)) ، له مؤلفات غزيرة طافحة بالكيد و التعصب ضد الإسلام .

(٢) محمد الغزالي ، من مقدمة كتاب : دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر و التوزيع ،

و في فهم الشيخ الغزالي فإن مهمة الغزو الثقافي لا تفرق عن رسالة التبشير و رسالة الاستشراق، قد يكون هناك شيء من المفارقة ، إلا أن ذلك في الشكل لا في الموضوع ، فإن الهدف واحد ، و هو التثقيب على المسلمين في دينهم و بلبلة أفكارهم و سلوكياتهم ، و دمجهم بأي طريق ضمن دائرة الاحتوائية الغربية ، فالإستعمار - كما يؤكد الغزالي - يبارك الصليبية و يؤيد نهجها و يؤازره ، و الصليبية تمهد للإستعمار و تفتح له النفوس و القلوب ... الإستعمار يريد هدم الإسلام و إذابة عقائده ، ليخلو الجو للتثقيب على أنقاض التوحيد ، و لمبدأ الفداء بدل الجزاء ، و هكذا تتآزر الضغينة و المنفعة على بلوغ الغاية في الأمة المنهزمة المنهكة ، و بذلك أيضا يلتقي شقا المقرض على كيانها ليجذبه جدا، وليودي بوجوده إلى غير رجعة (١) .

إن هذه القوى المتآزرة على حرب الإسلام و حضارته - كما يذهب الغزالي في تحليله - هي التي أوحى تقسم الدراسات الإسلامية بالسريون و رئيسه الدكتور محمد أركون بالتنسيق مع المجلس الأعلى للعلوم و الفنون بالقاهرة ، قصد إعادة إخراج كتاب " الفتوحات المكية " لابن عربي (٢) في بضعة و ثلاثين سفرا في نسخ أنيقة فاخرة ، فهل هذا الكتاب تحتاج له أوروبا الآن ؟ ثم ما علاقة المجلس الأعلى للعلوم و الفنون بهذا العمل ؟ إن الهدف واضح ، فالغزو الثقافي - كما يستغل الأقمار الصناعية و الارسال الفضائي لتسميم فكر الأمة الإسلامية و تدويحها - يستغل كذلك نشر الثقافة المغشوشة و يبسر تداولها بين الناس ، إسهاما في اعتراض سير الثقافة الصحيحة و الفكر المستقيم ، إن تلك القوى ما أعادت إخراج هذا الكتاب إلا لأن ابن عربي جزء من تضليل أمتنا و تعتيم الرؤية أمامها و إفساد تصوراتها و عقائدها ، فهذا الرجل يعرض الدين جمعا بين المتناقضات، و تسوية بين التوحيد و التثليث، فهو القائل بأن قلبه دير لرهبان، و بيت لنيران، و كعبة لأوثان! (٣) .

و يعلق الشيخ الغزالي على هذه الحادثة مجليا لخلفياتها و دوافعها المستترة فيقول: "واليوم - مع اشتداد وطأة الغزو الثقافي- يراد إحياء ابن عربي، وليكن هذه المرة عن طريق المؤسسات العربية بالقاهرة... إن فرنسا تمكربنا وإن الدور التبشيري لجامعاتها مستمر وإن بدا في صور شتى، وقد بلغني أن ساستها الجدد- وإن كانوا اشتراكيين(*)- قالوا: إن ما أعطاه "ديغول" للعرب عقب هزيمته في الجزائر ، سوف نسترده بطريق الغزو الثقافي اللين الخادع... ثم ماذا تقول إذا قرأت في دائرة المعارف الفرنسية للعلامة " لاروس " : "إن محمدا كان كاردينا لا يطمح إلى تولي منصب البابوية، فلما عجز عن تحقيق رغبته اختلق دينا جديدا ليثبع به أطماعه في الرياسة..) وإذا كان هذا كلام علمائهم فماذا تنتظر من الجهال؟" (٤).

(١) محمد الغزالي ، الإستعمار أحقاد و أطماع ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ط ٣ ، ص ٢٢٥

(٢) ابن عربي (محي الدين : ت سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م) صوفي أندلسي لقب بالشيخ الأكبر ، ولد في مرسية ونشأ في إشبيلية ، رحل إلى المشرق العربي واستقر في دمشق وتوفي فيها ، قال ببدعة وحدة الوجود ، له مؤلفات كثيرة جدا ، يقال إن عددها ٤٠٠ كتابا، أشهرها : الفتوحات المكية ، و فصوص الحكيم ، و مفاتيح الغيب ، و التعريفات ، و حاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار .. الخ ..

(٣) محمد الغزالي ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل (مصدر سابق) ص ٧٢ - ٧٣

(٤) كان ذلك في عهد الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل فرانسوا ميتران (١٩١٦ - ١٩٩٦م)

(٤) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ص ٧٤

ويفهم من ذلك جيدا وبدقة أن نزرعة بطرس الناسك الصليبية يستحيل أن تختفي أو تزول في تعامل الغرب مع الإسلام ، فهي جزء أصيل من نفسيته التاريخية و الحضارية الموعلة في أعماقه وجذوره البعيدة ، وكل تفاصيل هذا التعامل تدل على حقيقة هذا الإتجاه السيكلوجي ، حتى أنه عندما أسقط البريطانيون دولة الإسلام في الهند سلموا السلطة للهندوك على أساس أن الوثنية أولى وأحق بالبقاء من الإسلام ! وهو الرأي ذاته الذي شهد به اليهود قديما عندما سنلوا : هل الوثنية أفضل من دين محمد ؟ فقالوا لعباد الأصنام من الوثنيين : دينكم أفضل ، فنزل قوله تعالى تعقبا على هذه الضغينة المعلنة ضد الإسلام : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجيب و الطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (١) ؛ إنه موقف يكشف عما تتطوي عليه قلوب القوم من حقد ، ومدى توغله في خبايا الأنفس و الأفئدة ، ويؤكد حقيقة كونهم ليسوا من دين الله في شيء وأنهم لا تربطهم صلة بالنبوات و مواريث السماء (٢) .

إن الشيخ الغزالي يؤكد - بفعل وعيه لمقررات القرآن - بأن الروح الصليبية بالغة الحساسية إزاء الإسلام ، من أجل ذلك فهي لاتني تعمل و تنشط باتجاه الوقوف في سبيله و الكيد له على كل صعيد . و في سبيل ذلك لا يهمها إن هي تناقضت مع نفسها ، أو حالفت مبادئ لا تؤمن بها . يقول : " أوروبا و أمريكا تكرهان الإسلام ، ما قصرت إحداهما في هضم قضاياه و تجاوز حقوقه ! و في سباق الأحقاد التي يواجهها ديننا الصامد نرى فرنسا تمتاز بتبشير واسع الحيلة ، و استشراف خبيث القصد ، و سياسة شديدة الفتك ! في الحرب العالمية الأولى سلخت لواء الاسكندرونة من سوريا ، و منحته لتركيا الحديثة مكافأة لها على علمانيتها ، و سلخت محافظتين أخريين من الجنوب و منحتهما جبل لبنان الصغير ليتكون لبنان كبير تحت سلطة اختيرت بعناية كي تمحو العروبة و الإسلام ، و تجعل الكثرة الإسلامية تافهة ضائعة ... و قد استنقلت الجزائر المسلمة بعد حرب زهقت فيها أرواح مليون و نصف من البشر ، و قناطر من الأموال التي ضاعت في قتال قذر ... و مع ذلك فإن ناسا كثيرين في فرنسا يريدون استئناف المعارك و استبقاء الإجرام ، و يمهدون لذلك نفسيا و اجتماعيا ؛ و قد انفجر الغضب على الإسلام و أتباعه يوم ارتدت ثلاث فتيات زيا إسلاميا محتشما ، و قال كثير من المسؤولين : هذا تحد للحضارة الفرنسية! وكان غليان الرأي العام مثيرا للعجب (٣) .. و لا ريب أن هناك حساسية بالغة ضد كل

(١) سورة النساء آية رقم : ١١٨

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) وعن هذا الموقف من الحجاب الإسلامي يقول المفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي : إن ماحدث هو في رأي لحظة جنون جماعي ! لو رآها أحد سكان المريخ لشعر بالدهشة ! بل إن (فيليب جوانزاليس) رئيس وزراء إسبانيا صرح في التلفاز بأنه مندهش لما يجري في فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامي ، إذ كيف تستطيع ثلاث فتيات يرتدين الحجاب أن يعرضن للخطر الهوية الثقافية لفرنسا ، والحقيقة أن الهوية الثقافية الفرنسية تتعرض للخطر من الأقدام الأمريكية الهابطة المستوردة ، أما الشيخ الغزالي فقد علق على هذه الحادثة بقوله : أنا شخصا أساءل : إن الشبه قريب جدا بين الحجاب الإسلامي وملابس الراهبات المسيحيات،فما الذي أثار الذعر و التوجس لأن تلميذات أترن الاحتمام و التقوى ،وارتدين مايرد عنهن الأعين الجريئة والخائنة؟[انظر المصدر السابق من ص ١٢٠]

ما يقترب من الإسلام أو يقترب من معالمه و شعائره ... و لفرساً عدة إذاعات تشتغل بالتبشير و تغزو أجواء المغرب الكبير ، و تبذل جهود الجبارة لضرب الإسلام في مقاتله ! و الغزو الثقافي الجديد يقوم على شعبتين : إحياء النزعة البربرية كي تقاوم الإسلام و تمنع صحوته ، و كذلك إنشاء نزعة جديدة عنوانها : ثقافة البحر المتوسط ، كي تقطع الشعوب المطللة على هذا البحر من عالمها الإسلامي الرحب إلى عالم آخر تنتهي روابطه بالإسلام تاريخياً و اجتماعياً ... (١) .

و من حقد قوى التبشير و الاستشراق على الإسلام أنهم أو عزوا إلى الاستعمار أن يصنع نبوات جديدة في العالم الإسلامي ، لتتولى مهمة القيام بجهود التشكيك من الداخل في عصمة الرسالة الخاتمة ، و عظمة صاحبها - صلى الله عليه و سلم - فظهرت القاديانية و البهائية (٢) ، لتكون ظهيراً للاستعمار في تحقيق مآربه و بلوغ أهدافه . و الشيخ الغزالي يسمي هذه النحل الضالة بالأديان الاستعمارية ، لأن القوى المعادية للإسلام هي التي أوجدتها و رسمت لها الأهداف التي يجب عليها أن تبلغها ، و منحتها الوسائل و الخطط التي تعينها على ذلك . كما أنه يعتبر هذه الأديان الاستعمارية امتداداً لمسيمة الكذاب الذي ادعى النبوة و أراد فتنة الناس و زعزعة معتقداتهم ، فطواه الردى مع الهالكين ، و بقي مثالا في التاريخ و عبرة للإعتبار ... و عن علاقة هذه النحل و المعتقدات المنحرفة بمخططات الاستعمار الثقافي يقول الشيخ الغزالي : " قديماً رأى مسيمة أن يكون شيئاً (١) فما وضع فلسفة كارسطو ، و لا اخترع جهازاً كاديسون ، بل زعم أنه نبي يوحى إليه ، و ظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل ، فلم يدرك إلا القاع ، و بقي اسمه إلى الأبد رمزاً للكذب ... و تتابع الكذابين في عصور مضت ، فإذا أتاس لا أثر لهم في ميادين الفلسفة و لا أثر لهم في مجالات العلم ، و لا ثقة بعقولهم في شيء طائل يقتحمون ميدان الدين ، ثم يزعم هذا أنه نبي بعد محمد !! و يزعم ذلك أن الله قد حل فيه ، و أنه مجلى لبهائه ! ! و ظاهر أن الاستعمار العالمي أراد الكيد للإسلام ، و النيل من تعاليمه ، فاستغل هذه " المانيخوليا " عند أصحابها ، و روج لها ، و اعتبر أصحابها مؤسسي أديان و محدثين عن الله ، و ساندتهم بدهاء و إجحاح ، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد ... و عندما شرع المسلمون يفتقون من غفلتهم و يتوبون إلى رشدهم ، و يدمغون الكهان الجدد، لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة في العصور السابقة ؛ يفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام ، بغية الإجهاز عليه من داخله، لا شيء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيمة و غلام أحمد و بهاء الله، و مزيج من المانيخوليا، و الجراءة و الكهانة و الادعاء... هذا دجال ظهر في السودان يأخذ القرآن المكي و يرفض القرآن المدني، و هذا دجال ظهر في مصر يقبل الكتاب و لا يقبل السنة ... إلخ ... !! (٣) . "

(١) انظر المصدر السابق نفسه ص ١١٩ - ١٢٠

(٢) لقد حمل الشيخ الغزالي بشدة على الملل الضالة و المذاهب المنحرفة التي يسميها بالأديان الاستعمارية في كتابه : دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، انظر للتوسع فصل (الفرق) من ص ١٨١ إلى ص ٢٠١

(٣) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (مصدر سابق) ص ٢١١ - ٢١٢ ، و الإشارة هنا إلى كل من محمود محمد طه الذي قضت المحكمة العليا في السودان برده ، و حسين أحمد أمين المعروف بالتجنس على الشريعة الإسلامية

و ظاهر من فلسفة هذه الجهود و خلفياتها الاعتقادية و الأيديولوجية - كما يعتقد الشيخ الغزالي - و هو على حق في ذلك - أن الإستعمار الثقافي الغربي لن يرضى بغير اجتثاث الإسلام عقيدة و شريعة و فكريا و حضارة ، و ذلك لسبب بسيط لكنه بالغ الوضوح و الدلالة ، و هو أن المبشرين و المستشرقين لو كانوا حقا من رجال الإصلاح ، و لو كان يعينهم أمر الدين و تقريب الناس من هداياته فعلا ، لما استهدفوا بجهودهم الكبيرة الموصولة المسلمين و العالم الإسلامي ، بل لظلوا حيث هم في بلادهم ، و في بيئاتهم ، فهي مسرح لشتى الجرائم التي ينتهك فيها العرض و ينهب المال ، و تضيع الحقوق ؛ ولوجهوا بعض تلك الجهود لحماية شبابهم من المخدرات و الإيدز و فنون الإلحاد و الإنحرافات المختلفة التي تشيع بين أوساطه و صفوفه (١) .

بيد أن تلك الدوائر و الاتجاهات لا تعنيها - و هذا هو الظاهر للعيان - معرفة الحقيقة و لا الدين الحق ؛ إن ما يشغلها و يملأ أوقاتها و يستنزف طاقاتها ، هو أمر واحد فقط إنه أمر إنهاء الإسلام من الوجود ، و طي صفحة أمته و حضارته من تاريخ الإنسانية ... إن ما يعينها و تحشد له كل الطاقات و كل الجهود و الإمكانيات إنما هو كيفية الانتقام من محمد بن عبد الله - صلى الله عليه و سلم - و تفرغ الضغائن و السخائم المشتعلة في نفوسهم و أفندتهم أبد الدهر ، في كيان أمته و كيان الدين الحق الذي بعث به هداية عامة للعالمين ... من أجل ذلك حالفت قوى التبشير و الاستشراق الاستعمار الثقافي و الاستعمار العسكري ، بل حالفت الوثنية و الإلحاد ، و كانت أداة طبيعة و وسيلة متحفزة في خدمة أية جهة تلقى معها في هدفها الكبير : استئصال الإسلام و التوحيد و نف أمته و أتباعه في أكفان التاريخ و النسيان .

٩) تقديم ولاء الوطنية على ولاء العقيدة :

و لمحاصرة الإسلام من الداخل و الخارج ؛ و من كل الجهات ، فقد اختلقت الدوائر الحاكمة على الإسلام و حضارته و تاريخه فكرة القومية و تقديم الولاء للتراث و العصبية المذهبية على الولاء للعقيدة و الدين و الرسالة ، و قد اعتمدوا في ذلك في البداية على النصارى العرب مستغلين عروبة لسانهم و مواطنتهم العربية ، و ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان أول من نادى بهذه الدعوة (بطرس البستاني : ١٨١٩ - ١٨٨٣ م) و ذلك على إثر اتصالاته المتعددة بالإرساليات الإنجيلية البروتستانتية المبتعثة إلى لبنان ، حتى أنه تولى منصب الترجمة في قنصلية أمريكا ببيروت ثم دعم هذا التوجه معظم الكتاب من النصارى العرب في ذلك الوقت ، و منهم : (فارس الشدياق : ١٨٠١ - ١٨٨٧ م) - قبل اسلامه على يد باي تونس " أحمد باشا " و تسميه : أحمد فارس الشدياق - و منهم : (جرجي زيدان ١٨٦١ - ١٩١٤ م) - مؤسس مجلة الهلال المصرية - و (سليم تقلا : ١٨٤٩ - ١٨٩٢ م) - مؤسس صحيفة الأهرام المصرية - ... إلخ (٢) .

(١) محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التصدير، (الجزائر: دار الانتفاضة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٩

(٢) لمزيد من التوسع ينظر كتاب الدكتور محمد محمد حسن (الإسلام و الحضارة الغربية) مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م / ط ٤، فصل ((الإسلام و القومية العربية)) من ص ١٩٥ إلى ص ٢٢١/كما ينظر كتابه الآخر (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) مؤسسة الرسالة (جزءان) بيروت ١٩٨٤م، ط ٧، خاصة الفصول : (الجامعة المصرية) - (تيارات سياسية) - (الجامعة العربية) - (دعوات هدامة) .

وجوه هذه الدعوة - برأي الغزالي - التكتل على أساس الوطن و الجنس ونبذ الدين (الإسلام) كقاعدة للوحدة والتضامن والتآزر، وقد أفلحت هذه الفكرة في خلق تيار يناوى الإسلام ويستهن قيمه وتعاليمه، في العالم العربي والعالم الإسلامي، وهذه الفكرة التي غزت عقولا وأفئدة كثيرة، هدفها الأول والأخير إنما هو تفتيت الأمة الإسلامية إلى وحدات صغيرة ضعيفة معزولة، والحيلولة دون نهضتها على أساس منطلق الفكر الإسلامي والمرجعية الإسلامية، بل والسعي بجديّة إلى ردة العرب عن دينهم، إذا كانت هذه الردة هي سبيل وحدتهم، كما قال شاعر من هذا التيار الدخيل على بلاد العروبة والإسلام:

هبوني عيدا يجعل العرب أمة * و سيروا بجثمانى على دين برهم !

سلام على كفر يوجد بيننا * و أهلا و سهلا بعده بجهنم !

والعجيب أن (ساطع الحصري: 1879-1968م) يصف صاحب هذين البيتين بأنه "عقري من المسيحيين العرب" (١)؛ و يقف ساطع الحصري في وجه الجامعة الإسلامية، و يشكك في قدرة الإسلام إزاء عملية الوحدة بمعناها السياسي فيقول: "و يجدر بنا أن نتساءل: هل يمكن أن تبنى السياسة على أساس العواطف الدينية؟ و هل يجوز لمصر أن تتخذ "الرابطة الإسلامية" محورا لسياستها الداخلية والخارجية، أولا من وجهة السياسة الداخلية، يجب أن نلاحظ- قبل كل شيء- أن الإسلام لم يكن دين جميع المصريين، وإن كان دين الأكثرية منهم، لأنه يقطن في مصر ما يقرب من مليون ونصف مليون نسمة تدين بالديانة المسيحية؛ ومن المعلوم أن هؤلاء لم يكونوا أجانب أودخلاء، إنما هم من أهل البلاد مثل المسلمين، فلهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، فلا بد لمصر من رابطة تجمع أبنائها سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين، ومن الطبيعي أن تكون هذه الرابطة من العواطف الوطنية والقومية التي يشترك فيها جميع المصريين، ولهذا السبب، نستطيع أن نؤكد أن الرابطة الوطنية والقومية يجب أن تتقدم- بهذا الاعتبار- على الرابطة الدينية في الشؤون السياسية" ثم يدعم الحصري ما ذهب إليه فيقول: "...وأما عن وجهة السياسة الخارجية، فيجب أن نلاحظ- قبل كل شيء- بأننا نعيش في عصر انفصلت فيه العلاقات السياسية على العلائق الدينية، واختلفت عنها اختلافا كليا، منذ مدة طويلة، فإن العصور الحديثة شهدت كثيرا من الحروب التي نشبت بين دول تنتسب إلى دين واحد، و بعكس ذلك سجلت كثيرا من الاتفاقات والمحالفات التي عقدت بين دول تنتسب إلى ديانات مختلفة: فإن وحدة الدين لم تستطع أن تمنع نشوب الخصومات والحروب بين بعض الدول والشعوب، كما أن اختلاف الدين لم يحل دون تحالف بعض الدول، واشترآكها في حروب ضد ما تعتبره: العدو المشترك" (٢).

(١) أبو خلدون ساطع الحصري، في اللغة و الأدب و علاقتهما بالقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥م، ط٢، ص ١٥٨
(٢) أبو خلدون ساطع الحصري، العروبة أولا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ط٢، ص ٧٤-٧٥ [ونحن نقب على ماذهب إليه ساطع الحصري فنقول: إن الإدعاء بكون الرابطة الدينية لاتصلح للتجمع والاحتماد و الوحدة، لايقوم على دليل أو برهان، فإن التاريخ الإنساني وتاريخ الحضارات، يحدثنا بأن الدين والمعقيدة هما أقوى عوامل المناصرة والموازرة... أما دعوته لفكرة القومية كرابطة وحيدة بين العرب-بغض النظر عن معتقداتهم- فدعوى باطلة من الأساس، فقد كان العرب متقاتلين متخاصمين لأتفه الأسباب، حتى جاء الإسلام فوحد بين القلوب وصاغ من عواطف العرب دولة وحضارة لها مكانة أثرية في تاريخ الإنسانية، ثم لو كانت القومية تصلح فعلا لهذا الغرض الجليل، فلماذا يغزو صدام حسين دولة الكويت، الجارة الصغيرة، ويقوم بتلك الأعمال المخزية، وهو أحد أبرز الداعين بحماس للتكتل القومي العربي؟!] (المؤلف)

و يتضح من هذه الآراء أن الاستعمار الثقافي و الغزو الفكري قد أفلحا في تحقيق نتائج هائلة على هذا الصعيد ، و أن الجهود الموصولة في هذه السبيل تستهدف بشكل سافر تقديم الولاء الوطني و التعلق بالتراب على الولاء الرسالي و التثبيت بالعقيدة و تعاليم الدين . و ما ذلك إلا قصد إبعاد الإسلام عن ساحات الصراع الحضاري ، و عدم السماح له بأن يكون منطلقا و أساسا لنهضة العرب و المسلمين و تجديد حياتهم و وحدتهم على ضوء إرشاده و توجيهه .

و قد تصدى الشيخ الغزالي لهذا التيار الذي تبنى مفهوما للعروبة على النحو الذي سطره الاستعمار الثقافي و دوائر التبشير و الاستشراق الغربي ، و كشف عنه الحجب في كتابه " حقيقة القومية العربية و أسطورة البعث العربي " فضلا عن المقالات المتعددة التي كتبها في الموضوع، و هي مبنوثة في العديد من مؤلفاته (١) ؛ و في هذا الإطار المقترح على حضارتنا و أصالتها الفكرية و المذهبية نراه يقول : " ... و لكن العصور الحديثة طورت هذا المعنى الساذج ، و جعلت الوطنية ولاء للتراب ، و عبادة له ، و قياما بحقوقه ، و تفانيا فيه ، و العمل به ، أي جعلت الوطن إلها و التعلق به عبادة ، و ضخمت المشاعر الانسانية حول هذا المحور المسحور بحيث ابتلعت علاقات الناس بدينهم ، فإذا لم تفلح في إزالتها أفلحت في تأخير رتبته و إخفات الكلام عنها ، و إماتة أحكامها و وصاياها ؛ و هذا الضرب من الوثنية ينكره الإسلام أشد الإنكار ؛ إن ارتفاع البشر من مكان ما لا يطوع لهم عبادة هذا المكان ، و قد كان قدماء المصريين غافلين عندما عبدوا نهر النيل لطول ما ينتفعون منه ، و المعروف عند أولي الأبواب أن الأرض ملك الإنسان و ليس الإنسان ملك الأرض ، و أن المرء قد يخسر هذه الأرض التي يعيش عليها في ظروف حرب و ساعات هزيمة ، و لكنه يستعيد لها لحييا فوقها كما تشاء له مثله العليا ، لا كما تشاء الصخور و الرمال ، أو المياه والأزهار (٢) " .

ولعل سر استماتة الاستعمار الثقافي في خلق ودعم التيارات القومية و الوطنية في العالم العربي و الإسلامي ، ربح المزيد من الوقت للانحراف بطبيعة الصراع مع الإسلام عن وجهته العميقة ، و بذلك تكون كل أطراف هذا الصراع و التدافع مستندة على ركائز مرجعياتها العقدية و الحضارية باستثناء العرب و المسلمين ، و من ثمة يتضح و يستخلص أنه لو كان حقا لدى " أولئك العروبيين قدر من إخلاص لعروبتهما ما تواصلوا بجحد الإسلام ... أتراهم يجهلون أن السرطان الذي نشب بأرضهم - حين أنشئت إسرائيل - يعتمد في استئصالهم على سلاح مزدوج ، معنوي أساسه الدين اليهودي ، و مادي قوامه الدمار الصليبي؟! إن الدين عميق الآثار في تعبئة القوى و شحذ العزائم ، فلمصلحة من يزداد سلطان الدين في إسرائيل ، و تتنادى الجماهير بإسمه بين آسيا و أمريكا ، على حين يخفت صوت الإسلام بين العرب ،

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتابه : "مع الله" فصل "لا مكان للإلحاد بيننا ص ٢٦٧" و فصل "الهدم الروحي - ص ٣٦١" - وانظر كتابه : "التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام" فصل "الإسلام و الوطنية - ص ٢١" - وانظر كذلك كتابه "من هنا نعلم" فصل "بين الحكم الديني و الحكم القومي ص ٥٤"

(٢) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية ، (القاهرة : دار العروبة ، د.ت) ، ص ١٠٨ - ١٠٩

ويقال لهم : قوميتكم دم لادين ، وجنس لا شريعة ؟؟ ويوم يلتقي الجمعان ، هذا مزلزل اليقين نتيجة كتابات المنافقين ، وهذا مدعوم الإيمان نتيجة توجيهات اليهود ، فعن أي عقبى سوف تتمخض المعركة ؟ إنها عقبى يعمل لها اليهود ، وتؤتيهم أطيب الثمر ، ولذلك ما أشك في أن هؤلاء العروبيين الحانقين على الإسلام أجراء لأعداء العروبة و الإسلام (١) .

إن نجاح تلك القوى في تغييب الإسلام عن المعركة بسبب الامتدادات الغائرة للغزو الثقافي داخل الذات الحضارية للأمة الإسلامية و تحييد فعالية عناصر القوة المعنوية لهذه الذات ... جعل هذه الأمة أشناتا وأوزاعا مفترقة لا يكاد يعلم بعضها عن البعض الآخر شيئا ، بل قد تبتز الأطراف من هذا الكيان دون أن يحس القلب ، أو أن يصاب القلب دون إحساس من الأطراف و بقية الأعضاء ... و يعترف الشيخ الغزالي في ألم و مرارة بعمق الطعنات التي أصابت هذا الكيان من الداخل ، حتى عدم الإحساس بنفسه ووجوده و كينونته ، لكنه مع ذلك يحذر من خطورة وازع جحود أو تجاهل العلاج المطلوب فيقول : " و مع نجاح الغزو الثقافي في تمزيق أوصال الإسلام و تشتيت أمته ، أمسى المسلم في مصر مثلا لا يدري أو لا يكثرث بما يقع لإخوانه المؤمنين بعيدا عن أرضه ... و قد رأيت ألبانيا - و أكثر من تسعة أعشارها مسلمون - يفترسها الإلحاد و لا يسمع لشكاياتها أحد ... و رأيت المسلمين في الفلبين - و عددهم أكثر من بضع دول عربية - تستهلكهم الفتن و لا يهب لنجدتهم أحد ... لقد أضحى أمر الأمة فرطا ، و أضحى تقاصرهم المكتوب حلما ... على العرب الذين حملوا راية الإسلام أن يدركوا أن العروبة ليست دما ، و إنما هي لسان ، و أن الولاء ليس لأنسابهم ، و إنما هو للدين الجامع ، و أن التاريخ الإسلامي إذا بدأ بالجزيرة حيث هبط الوحي ، فإن دائرته تمتد مع خطوط الطول و العرض إلى ما شاء الله ، و أنه مع اندياح هذه الدائرة تذوب عصبية كثيرة فلا يبقى التفاف إلا حول الوحي و لا تبقى راية إلا راية التوحيد ... (٢) " .

فالشيخ الغزالي - كجل العلماء و المفكرين الإسلاميين - قوي التوجس و الحساسية من مخاطر هذا التيار ، و من مصطلح القومية بالمفهوم الدخيل ، فهذا المفهوم أداة فعالة في عملية التآكل الداخلي للذات الحضارية للأمة ، بل ولخصائصها القومية الأصيلة ، وقد استغلها الإستعمار العسكري و الإستعمار الثقافي استغلالا خطيرا نايها وفق التوجه المرسوم سلفا لهذا المصطلح .. يقول الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز في كتابه الناقد للقومية العربية : " ومن خبر أحوال القوميين وتدبر مقالاتهم و أخلاقهم وأعمالهم ، عرف أن غرض الكثيرين منهم من الدعوة إلى القومية أمور أخرى يعرفها من له أدنى بصيرة بالواقع

(١) المصدر نفسه ص ١٤٦

(٢) محمد الغزالي ، تراثا الفكري في ميزان الشرع و العقل (مصدر سابق) ، ص ١٠٥ - ١٠٦

وأحوال المجتمع ، ومن تلك الأمور : فصل الدين عن الدولة ، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع ، والإعتياض عنها بقوانين وضعية ملفقة من قوانين شتى ، وإطلاق الحرية للنزعات الجنسية و المذاهب الهدامة ، ولا ريب أن دعوة تقضي إلى هذه الغايات يرقص لها الإستعمار طربا ، ويساعد على وجودها ورفع مستواها - وإن تظاهر بخلاف ذلك - تخريرا للعرب عن دينهم ، وتشجيعا لهم على الاشتغال بقوميتهم ، و الدعوة إليها و الإعراض عن دينهم " (١) .

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه " اسمعوها صريحة أيها العرب " : " فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة و الرسالة ، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان ، وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم ، وعن أمّتن رابطة روحية تجمع بين الأمم و الأفراد و الأشتات ، إنها جريمة قومية تبرز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدم و تخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وإنها خطوة حاسمة مشروومة في سبيل الدمار القومي و الإنتحار الإجتماعي " (٢) .

ويؤكد الدكتور محمد عمارة على أن المفهوم المستورد لمصطلح القومية و الوطنية هو رافد هام في عملية الغزو الفكري و الاستلاب الحضاري بقوله : " والذين يعون أن القومية ليست " مذهبا " ولا " أيديولوجية " حتى توضع موضع النقيض من فكرية الإسلام ، التي هي " أيديولوجية " الأمة .. ويعون أن هذا المفهوم المتميز للقومية إنما هو ثمرة إسلامية متميزة ، عن مفهومها الجاهلي ، وعن مفهومها الغربي - الذي هو جاهلي كذلك !؟ - الذين يعون هذه الحقائق لن يجدوا تناقضا بين وطنيتهم و قوميتهم وإسلاميتهم و إنسانيتهم أيضا .. أما الذين يتبنون مفاهيم الغرب في القومية ، فيقيمونها على العرق و العصبية الجنسية .. ويجردونها من مضمونها الإسلامي المتميز ، ويستبعدون منها - بالعلمانية - علاقتها العضوية بالإسلام .. ويقفون باهتماماتهم عند حدود الدائرة القومية ، مسقطين - في الحالة العربية مثلا - ما وراء الخليج و المحيط .. فإنهم ولا شك ، رافد تخريبي في " المسألة القومية " يمثلون نموذجا " للغزو الفكري " في هذا الميدان " (٣) .

(١) عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام و الواقع (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ص ١٠

(٢) نقلا عن كتاب الشيخ عبد العزيز بن باز أنف الذكر ، ص ١٨ - ١٩

(٣) محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة (مرجع سابق) ص ٨٨ - وانظر في ذلك أيضا كتابه (الإسلام و العروبة و العلمانية) - دار الوحدة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١ م ، خاصة فصل ((الإسلام المعاصر و العروبة)) و فصل ((نصوص في الإسلام و العروبة و العلمانية)) و فصل ((موقف الإخوان المسلمون من الوحدة : القومية و العربية و الإسلامية)) .

ومن ثمة - ومن هذا المنطلق تحديداً - فإن الشيخ الغزالي يرى بأن مصطلح القومية العربية وفق مفهومه الدلالي الغربي ، خاصة في أبعاده السياسية الحضارية ، هو مظهر بارز في أدبيات الغزو الثقافي الغربي ، مرتبط بأشد الارتباط وأوثقه ببقية أدوات تغريب الذات الحضارية لأمتنا ، ذلك أن العرب - كما تؤكد سيرورة تاريخهم - لم يكونوا أمة ولا أصحاب دولة وبنية حضارة إلا بنزول القرآن ومجيئ الإسلام .. وعلى هذا الأساس الواضح نراه ينكر جلب هذا المفهوم ، أو استدخاله في بنية العقل العربي و الفكر الإسلامي ، يقول : " أما إطلاقها [القومية العربية] على المصطلح السياسي المعاصر ، فليس إطلاقاً عربياً ، بل الإسلام هو الذي خلق من العرب في جزيرتهم أمة تخضع لحكم منظم ، وتقوم بينهم دولة يصح أن تحسب في المجال الدولي ، أما قبل الإسلام فإن العرب أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذا المصطلح في حياتهم الإجتماعية ، كما أنهم لم يعرفوه في مدلولاتهم اللغوية .. ومن حقنا أن نقول : إن الأمة العربية بشارتها الجديدة ، واجتماعها لأول مرة في تاريخها ، ثم بروزها في الصعيد العالمي لم تولد إلا مع الإسلام .. وتصور الأمة العربية بدون رسالتها العظمى كتصور قصب السكر بدون سكر . ماذا تكون عيدان القصب بعد اعتصارها وإفراغ ما فيها ؟ هشيما تذروه للرياح ، أو وقوداً تأكله النيران !! فالرسالة التي شرفت بها العروبة ليست زعماً بنقاوة الدم ، أو وهماً بكرامة العنصر ، كلا ، إنها رسالة إنسانية تجعل الأمة العربية حارسة للأخلاق و المثل العليا ، أمينة على تراث السماء ، وصيانة الوحي ، والدفاع عن قضاياها وأحكامه ضد المنحطين و المكذابين (١) . "

وإلى جانب تأكيده على هذه الحقائق التاريخية على هذه الحقائق التاريخية التي لا تقبل النقض أو حتى الإرتياب ، فإن الشيخ الغزالي شديد الريبة من هذا التيار لعلاقته الواضحة البيئة بخدمة أغراض الإستعمار ، بل ولتجرده الصارخ من شمائل العروبة الحقّة ومواصفاتها الأصيلة العالية ، وإحاطته نفسه بشبهات لا نهاية لها ، أغلبها مناقض لقيم الإسلام ودعوته العالمية واتجاهاته الإنسانية .. ومن ثمة فقد وجب - برأي الشيخ الغزالي - كشف الخطأ الوهمي عنه لتظهر للناس حقيقة ، وحقيقة العاملين و المنضويين تحت لوائه : " إن هؤلاء الناس الذين برزوا فجأة ، وملأت ضجبتهم الأودية كما تملأ الضفادع بنقيتها أكناف الليل ، يجب أن يمزق النقاب عن سريرتهم ، وأن تعرفهم هذه الأمة على حقيقتهم ، حتى لا يروج لهم خداع ولا ينطلي لهم زور .. إن هؤلاء الذين يلبسون مسوح العروبة ويندسون خلال صفوف المجاهدين ، ويزعمون أنهم مبشرون بالقومية العربية ، ورافعون لألويتها ، وفي الوقت نفسه ينسحبون من تقاليد العروبة ، وبهاجمون أجل ما عرفت به ، ويبعثرون العواثق في طريق الإيمان ورسالته ، إن هؤلاء الناس ينبغي أن يماط اللثام عن وجوههم الكالحة ، وأن تلقى الأضواء على وظيفتهم التي يسرها الإستعمار لهم ، ووقف يرقب نتائجها المرة ، وما نتاجها إلا الدمار المنشود لرسالة القرآن وصاحبها العظيم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. لقد قرأنا ما يكتبون وسمعنا ما يقولون ،

(١) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية ، (مصدر سابق) ص ٥١

ولم يعوزنا الذكاء لاستنباط غاياتهم ، فهم ملحدون مجاهرون بالكفر (١) يقولون في صراحة : إن الإسلام ليس إلا نهضة عربية فار بها هذا الجنس العظيم في القرون الوسطى ، واستطاع في فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقرى هو الزعيم الكبير محمد !! أي أن هذا الدين الجليل نبت من الأرض و لم ينزل من السماء !! و أنه انطلاقاً من شعب طامح فاتح ، و ليس هداية مثالية فدائية جاءت من عند الله ، لتتخذ العرب من جاهلية طامسة كانوا بها في مؤخرة البشر إلى حنيفة سمحة رفعت خسيستهم ، ثم انتشر شعاعها بعد في أنحاء الأرض ، كما تنتشر الأضواء في عرض الأفق لدى الشروق (٢) .

وفي يقين الشيخ الغزالي فإن هذا التيار المغالي بالدم و التراب و الجنس على حساب عقائد الإسلام و قيمه العليا ، إنما تم استحداثه في واقع أمتنا و مسرح أحداثها السياسية و التاريخية قصد مخاصمة المذهبية الإسلامية ، و إبعادها - بشتى الوسائل - عن الممارسة الطبيعية و الفطرية في بناء الإنسان المسلم و توجيه العلاقات و الارتباطات الحيوية للمجتمع الإسلامي ؛ و هذه الحقيقة تتبدى جليا في وجهة و طبيعة طروحات هذا التيار الفكرية و المذهبية ذات المنحى المتماهي مع مقاصد و غايات جهود التبديل الثقافي و الفكري الموجه لتغريب الذات الإسلامية و توهين الروح المعنوية بين المسلمين ؛ و من ثمة فإن أهداف الإستعمار تتضح إلى حد البروز و التبلور في أنساق هذه الطروحات الغربية على شعور الإنسان العربي العارم و الراسخ بكرامته و عزته الذاتية ، و شدة طموحه الفكري في التمسك بالقيم و المثل العليا ، التي وجدها بدالاتها الإنسانية الفريدة في منهج الإسلام ؛ و مما يؤكد انخراط و تورط هذا التوجه في مسلك الإخلاص لرسالة الإستعمار الثقافي و الإلحاق الأيديولوجي و الفكري ؛ " أن هؤلاء الناس يخاصمون الإسلام بعنف ، و يحاربون أمته بجبروت ، و يهادنون الأديان الأخرى من سماوية و أرضية !! كأن الإسلام هو العدو الذي كلفوا باستتصاليه وحده ... و هل للإستعمار عدو في هذه البلاد إلا الإسلام ؟ إنه مصدر المقاومة العنيدة ، و روح الكفاح الباسل الذي أعيا المهاجمين و أحبط مؤامرتهم ... و من ثم فعلى الإستعمار أن ينسج خيوطه حوله ليقتله و يحول بينه و بين الحياة الكريمة ، و قد ابتدع القوميات الضيقة ، و استجباها بشتى الأساليب لينال من كيان هذا الدين ، فلما سقطت أمام الإسلام في المعركة ، دس أتباعه تحت لواء " القومية العربية " و زودهم بضروب من الإدعاء ليزحموا العرب المخلصين في هذا الميدان و لينالوا من الإسلام بطريقة أخرى ؛ و تفسير " القومية العربية " هذا التفسير الكفور الكنود ، هو حرب أخرى ضد الإسلام ، و إنه لجدير أن يسمى هؤلاء بأتباع " القومية العبرية " لا العربية أليسوا يعملون لمصلحة الاستعمار و إسرائيل ؟ (٣) .

(١) واضح هنا أن الشيخ الغزالي لا يقصد جميع التيارات و التوجهات القومية، وإنما يعني الفصيل المغالي الذي لا يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما تلقاه من وحي كريم. لهذا الفصيل يصفه الشيخ الغزالي بأنه غارة تبشيرية جنيدة ضد الإسلام و المخلصين في الإنتماء له (انظر كتابه: معركة المصحف في العالم الإسلامي ص ٢١٧) - أما بقية التوجهات فلا يعنينا الشيخ بهذه العبارة، وقد دخل مع الكثيرين منهم في مناقشات و حوارات كان لها أثرها النافع (انظر في تلك نثرة الحوار القومي الديني التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة من ٢٥ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩ م) و نشر المركز في بيروت أعمالها و فعايلاتها في كتاب بالعنوان ذاته ، انظر مداخلة الشيخ الغزالي ص ١١٨ - ١١٩

(٢) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ص ٢٦٧ - ٢٦٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٩

لقد استطاع الإستعمار الثقافي و العسكري استغلال فكرة القومية و الوطنية و تحويلها داخل نطاق العلاقات بين العرب و المسلمين إلى ما يشبه التوجه الأيديولوجي المتكامل بشتى مضامينه السياسية و الفكرية و الثقافية ، و بذلك - كما يعتقد الشيخ الغزالي - أفلح في تمزيق هذه الأمة أوزاعا و أشتاتا متفرقة، حتى أضحي الإنسان العربي المسلم لا يتابع أخبار أخيه المسلم في إفريقيا - ما وراء الصحراء - الذي يتعرض لحمالات التصير و حروب الإبادة الدينية و العرقية ، و لا أوضاع أخيه المسلم في جنوب شرق آسيا و شبه القارة الهندية و الملايو و الصين و ميانمار (بورما) و الفلبين و غيرها ، الذي يعاني الأمرين جراء ضغوط التصير و غيره من النحل التي تساومه في عقيدته الإسلامية ، مستغلة ظروفه الاجتماعية و أحواله المعيشية و الاقتصادية و غيرها ... بل إن الضرر أصاب العروبة ذاتها سياسيا و ثقافيا ، و أصبح كل قطر عربي كيانا مستقلا عن غيره ، عليه أن يواجه مصيره بمفرده إذا أحيط بضائقة أو تعرض لمكروه ، و ما فتئت الأحداث و الأيام تؤكد هذه الحقيقة كأمر واقع ، و ما يزال الوعي العربي في تعامله العام و تصرفاته المختلفة خاضعا لهذا التوجه و خلفياته المؤثرة وفق ما رسمته احتوائية الإستعمار الثقافي العربي و أنساقه القهرية المستعديّة .

إن الشيخ الغزالي يدرك بعمق و بصيرة نافذة حدود المكر المرصود للإسلام و أبنائه و مستقبله ، بفضل القدم الراسخة لديه في الوعي القرآني و أحداث التاريخ ، و هو ما جعله يحارب بصلابة و ثبات التيارات و الأفكار الدخيلة على أرض الإسلام و أمته، ومنها تيار القومية و الوطنية ، وفق مضامينه الفكرية و الأيديولوجية التي حددتها و ضبطت أغراضها دوائر الإستعمار الثقافي الكائنة لديننا و حضارتنا ... و يوحى الدافع و المنطلق ذاته أخذ الشيخ الغزالي في الكثير من مؤلفاته و محاضراته و دروسه ينصح العرب و يحذرهم من مخاطر هذه المنازاع التي تترصد لهم و تبين لهم الشر ، و تعمل على إضعافهم و تهوين عزائمهم ... و قد حاول بهذه الجهود إقناع المنتمين لهذه الأمة ، بأن الإسلام هو وحده سبيل و نهج عزة و مجد الجميع ، وأنه دون غيره من العناوين و التوجهات يصلح به واقعا و تتجدد هممنا و ينطلق تغييرنا و نهوضنا ... إن ارتباط مجد العرب و مكانتهم الدولية بالإسلام و رسالته الإنسانية النبيلة هو في فهم الشيخ الغزالي بمثابة السنة الاجتماعية و التاريخية التي لامندوحة أبدا من نكران نتائجها المقررة ، أو اعتراض حقيقتها الصارخة ؛ وهذا حق لامراء فيه فإن الواقع القائم - ومعنا منعطفات التاريخ مجتمعة - يثبت صدق و سلامة هذا المركب من حسن الوعي بالقرآن و حسن الفقه بحركة التاريخ و السنن الحضارية و الاجتماعية المتسقة الإيقاع و الإتجاه و الغاية .

منهج في مواجهة الغزو الثقافي

إن معاشة الشيخ الغزالي لمرحلة الإستعمار الغازي، وتعمقه في فهم نوايا وأغراض حركة الإستعمار وسيطرتها العنيفة على العالم العربي والإسلامي ومختلف الأقطار والشعوب المستضعفة، إلى جانب خبرته وتضلعه في ميدان الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، وكذا استيعابه ووعيه لطبيعة صراع وتدافع الأنساق الفكرية والمرجعيات الحضارية.. كل ذلك جعل منه صاحب رؤية متميزة في مجال المواجهة الثقافية في ساحات الصراع الفكري والتدافع الحضاري، وجهوده كلها في هذا الصعيد مرتبطة بمبدئه الكبير، ورسالته الأولى، أي الانتصار للإسلام، والتمكين له في الحياة، وفي فكر الإنسان المسلم ونفسه وسلوكه وعيشه.. وتظهر جهود الشيخ الغزالي في هذا النطاق موزعة على جبهتين أو خطين متوازيين يشكلان رؤية عقلية أو منهجية فكرية متوازنة، رغم ما بين هذين الخطين من تباينات جوهرية من جهة الدوافع والخلفيات، ويمكن إيضاح ذلك فيما يأتي :

١- صعيد الجبهة الداخلية :

يؤمن الشيخ الغزالي إيماناً جازماً بأن النفس البشرية هي مناط كل تغيير، ومعقد التحول الحقيقي في الكيان الإنساني، وكلما كانت هذه النفس محصنة تحصيناً ذاتياً، فإن المؤثرات الخارجية تتضاءل أو تنعدم فعاليتها الموجهة لها، وقد تنبه لخطورة هذه المسألة وصلتها العميقة بالصراع الفكري والثقافي في أول كتاب أخرج للناس، ونعني بذلك فصل " الإستعمار الداخلي يمهد للإستعمار الخارجي " (١) في كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٤٧ م.. وبهذه الرؤية ومن هذا المنطلق فقد ركز الشيخ الغزالي جهوده على معالجة علل وأدواء أنساق الثقافة الإسلامية من الداخل، ذلك أنه لو كتب لهذه الثقافة المحافظة على خصوصياتها الذاتية، كما كانت عليه إبان القرون الأولى لمسيرة الإسلام، لظلت الشخصية الإسلامية - ثمرة هذه الثقافة - متميزة بهويتها الحضارية وقسماتها الفكرية الفريدة في صناعة الإنسان الصالح النموذج، لكن هذه الثقافة تعرضت لإهتزازات خطيرة، بفعل الآثار السلبية للغزو الثقافي المبكر، المتمثل تحديداً في عدم الإنتقاء الواعي لترجمات وأبحاث الفلسفة اليونانية والفكر الإغريقي، وكذا بفعل تسرب بعض المؤثرات الباطنية والغنوصية للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، فضلاً عن بعض المظاهر والعلل الذاتية في مسار هذه الثقافة ذاتها، وفي حدود الوعي والاستيعاب لتداعيات هذه المسألة، نجد الشيخ الغزالي يلح على ضرورة غرلة الثقافة الإسلامية، ومراجعة مظان تراكمات هذه الثقافة ومصادرها وتراثها الثر، ويعطي مثلاً لذلك بكتاب الفتوحات المكية لابن عربي، ليدلل على المستويات الخطيرة التي بلغها أمر اختراق الثقافة الإسلامية، يقول: " لقد اطلعت على مقتطفات من الفتوحات المكية لابن عربي، فقلت: كان ينبغي أن تسمى الفتوحات الرومية! فإن الفاتيكان لا يطمع أن يدس بيننا أكثر شراً من هذا اللغو.. يقول ابن عربي في الباب (٣٣٣) بعد تمهيد طويل " إن الأصل الساري في بروز أعيان

(١) اشتهرت هذه المسألة في فكر المفكر الإسلامي مالك بن نبي رحمه الله تعالى (١٩٠٥ - ١٩٧٣ م) باسم : روح القابلية للإستعمار

الممكنات هو التثليث، والأحد لا يكون عنه شيئ البتة، وأول الأعداد الإثنان ولا يكون عن الإثنتين شيء أصلاً ما لم يكن ثالث يربط بعضهما ببعض، فحينئذ يتكون عنهما ما يتكون، ولا يتكون، فالإيجاد عن الثلاثة، والثلاثة أول الأفراد ... " .. لم أقرأ في حياتي أقبح من هذا السخف، ولا ريب أن الكلام تسويغ ممجوج لفكرة الثالوث المسيحي، وابن عربي مع عصابات الباطنية و الحشاشين الذين بذرتهم أوروبا في دار الإسلام أيام الحروب الصليبية الأولى، كانوا طلائع هذا الغزو الخسيس " (١) .

ويقترَب من هذا المنحى أيضا في الثقافة الإسلامية العتيقة - برأي الشيخ الغزالي - بعض المقولات و الطروحات التي قال بها نفر أو تيارات انتمت تاريخيا و عقديا إلى بعض الفرق الإسلامية الكلامية كالخوارج و المعتزلة و الجهمية و المرجئة و غيرها ؛ إذ إن الكثير من طروحات هؤلاء لا تنفي عنهم جزءا من مسؤولية الإنحراف بمنهج التفكير الإسلامي القويم ، القائم على العقل و التعامل مع المادة و العمران و عالم الشهادة ؛ وهي الحقيقة المستخلصة من معطيات وخصائص هذا المنهج أثناء بداياته و منطلقاته الأولى ، و كفيات النظر المنهجي عند مسلمي السلف الصالح ، قبل مرحلة الاستغلال السلبي لمبدأ أو قيمة الحرية في الإسلام ، وفتح المجال لتسرب الأفكار و المعتقدات الوثنية و المنحرفة للعقل المسلم، فنحن حين " نتأمل الحصيلة العلمية لرجال الإسلام نجد العقل الإسلامي تحرك ببصر وقوة حيث يجب أن يعمل ، و قنع بثمرات الوحي حيث يجب أن يستريح من عناء البحث العقيم ... إلى أن جاء عصر الترجمة و دخلت أقطار الإسلام أفكار يهودية و نصرانية و إغريقية و هندية و فارسية إلخ ، و ليس مستغربا أن يتعرف المرء على مالدي الآخرين ؛ و لكن الذي حدث للأسف الشديد أن التفكير الإسلامي أصيب بصداخ هائل من أثر ليونة المسلمين في قبول الغث و السمين ! ثم من أثر انكبابهم بجهد شديد على دراسة ما وراء المادة و الافتتان بأساطير الأولين في تصوير ما هنالك ! و كان هذا الانكباب على حساب التفات هذا العقل الذكي إلى المادة نفسها ، و إلى الحياة و قيادة الدين بها " (٢) ..

إن الشيخ الغزالي ينظر إلى الكثير من تراكمات و معطيات الثقافة الإسلامية التقليدية - و من ذلك التصوف الدخيل و بعض النزعات الفلسفية و الكلامية - على أساس أنها مظهر من مظاهر الغزو الثقافي المبكر ، الذي تعرض له العقل المسلم في مرحلة متقدمة نوعا ما من تاريخه الفكري و الحضاري ، إلا أنني أرى أن الشيخ الغزالي هنا كان ينبغي أن يشدد على حقيقة تبدو موضوعية ، و هي أن اتصال العقل المسلم بالفكر اليوناني و غيره من المرجعيات في عصر الترجمة ، كان بمثابة استدعاء إرادي من العقل المسلم بغرض الاطلاع على نتاجات و معطيات الفكر و العقل لدى الآخرين ، و منهم الإغريق و الهنود و الفرس ... و ليس بهدف البحث عن ضرورة إرواء لجفاف ثقافي ذاتي أو إشباع لتقص في الفكر و مناهجه ، خاصة فيما يتعلق بالمسائل العقديّة و الفلسفية التي حسم القول فيها الوحي الكريم و مصادر النقل المعصوم ... فبدا ذاك الاتصال - في كثير من جوانبه و معطياته - و كأنه لون من

(١) محمد الغزالي ، تراثا الفكري في ميزان الشرع و العقل (مصدر سابق) ص ٦٠

(٢) محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة و الشريعة (مصدر سابق) ص ٩٤ - ٩٥

ألوان الترف العقلي المغاير لطبيعة المنهج الإسلامي في التفكير و النظر و التأسيس ، و ليس تحركا فطريا ذاتيا لملء فراغ منظور ، أو استدراك نقص قائم ، و ربما يشهد لما ذهبنا إليه أن الرجل " المصري الذي أرسله ابن العاص إلى عمر بن الخطاب و وجده يتكلم في شيء يشبه علم الكلام ، و ذلك بسؤاله عن معنى الاستواء و أمثال ذلك من المتشابه ، ضربه و نفاه و أمر الناس بمقاطعته " (١) إلا أننا نرى الشيخ الغزالي في موضع آخر من كتاباته يعزو الانحراف الذي وقع في فترة مبكرة من تاريخنا الثقافي و الفكري إلى ظاهرة الغرور - اللامبرر بطبيعة الحال - بقوة و صعود الدولة الإسلامية و هيمنة النموذج الإسلامي ، و تطلعات الآخرين لمبدأ الاستفادة منه و التلقي عنه ، إلى أن وصل البعد و الميل عن منهج التفكير الإسلامي الأصيل إلى حد التلاعب بقضايا العقيدة ، و الولوع بالجدل العقيم المتأثر بمنطق أرسطو و ثقافة الإغريق ، و من " الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم في مجلس مناظرة ، تتصيد فيها النصوص ، و ينشد فيها الغلب ، و يلعب فيها بالألفاظ و يستغل منطق " أرسطو " في المخاطلة و إيقاع الخصم أمام العامة ! ... و عفا الله عن أجدادنا ، فقد أولعوا بذلك ، و أعانهم عليه أن الدولة الإسلامية كانت سيدة العالم . فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالتurf العقلي ، و أن يحولوا فراغهم من الجهاد في سبيل الله إلى الجهاد في هذا الميدان الخطر ، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، ثم ذهب الرجال و بقي الجدل ... بقي إلى اليوم يهدد وحدة الأمة و يهز كيائها ! . " (٢) .

و للحد من آثار الجوانب السلبية في الثقافة الإسلامية التقليدية و التاريخية دعا الشيخ الغزالي إلى انتهاج أسلوب القطيعة المعرفية مع تلك الجوانب ، و ذلك بالاعتماد على منهج تجميد الخلافات التي ذهبت مع التاريخ ، و عدم السماح للثقافة الإسلامية المعاصرة بإحياء تلك الجوانب و تداعياتها المضرة ببنية العقل المسلم و نسيجه الأصيل المبدع في النظر و التفكير ، و في هذا السياق نراه يطرح هذا السؤال الاحتجاجي مدعما به اقتراحه الداعي إلى ضرورة إحداث قطيعة ثقافية و معرفية مع كل العناصر و التداعيات العقلية التي أسهمت تاريخيا في جر العقل المسلم إلى التخبط في المتاهات و الزيغ به عن منهجه القرآني الفذ: "فهل على وجه الأرض أمة تجتر ماضيها السحيق لتلوك منه خلاقات قاسية كهذه الأمة " (٣) ، كما نجد الشيخ الغزالي يخصص كتابه " ركائز الإيمان بين العقل و القلب " لهذا الغرض و يدعو صراحة الكتاب و المفكرين و العقلاء - و غيرهم من الطاقات الإسلامية المفكرة - إلى مشاركته جهوده لإحداث القطيعة المعرفية مع الجوانب السلبية الضارة المشوهة في الثقافة الإسلامية ، و ذلك لإنقاذ الفكر الإسلامي من آثارها الوخيمة ، و العودة بالعقل المسلم إلى منهجه الراسخ الأصيل الذي أبدعه و صاغه تاريخيا ضمن معادلة الموازنة بين المعقول و المنقول ، يوم كان هذا العقل ملتزما مساره الحيوي الخلاق وفق محددات المنهج القرآني ؛ ذلك أن تلك الثقافة " لا تزال تحمل في أطوائها صورة مجتمعات إسلامية معتلة ،

(١) المصدر نفسه ص ٨ = و انظر أيضا : كيف نفهم الإسلام (مصدر سابق) ص ١٣٩

(٢) محمد الغزالي ، عقيدة المسلم ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، بائنة (الطبعة الجزائرية الأولى) - ١٩٨٥ م ، ص ٦ - ٧

(٣) المصدر نفسه ص ٨

و قضايا فكرية و عاطفية جديرة بأن تودع المتاحف ، لا أن تدفع إلى دنيا الناس " (١)؛ و من ثمة فقد وجب-كما يقترح الشيخ الغزالي-استحداث "جهاز" يضطلع بمهمة غربلة مظان تلك الثقافة والتعليق على مضامينها، خدمة لبناء العقل المسلم المعاصر وجعله متناغما مع منهجه القرآني ومساره الأول؛ إذ إن هناك " مئات الكتب في التفسير والحديث والفقه والأدب والتاريخ مخلوطة بسموم ناقعة، وخرافات سمجة، تتناولها ألوف الأيدي، ويقرؤها من يعي ومن لا يعي.. أما كان هناك "جهاز" غيور حصيف يتتبع هذه الأباطيل بالمحو، فإن لم يستطع إزالتها من مواضعها، وضع ألف علامة حمراء للتحذير منها، والتنبية إلى دخلها وفسادها؛ لقد كثرت هذه الكتب السفهية الزائغة حتى غلبت الثقافة الدينية الصحيحة، فلا عجب إذا وجدنا الأجيال المتأخرة من المسلمين، خلال القرون الأخيرة- أعني من مئات السنين- يسكرون متعثرين لا تشدهم وجهة ولا تدفعهم قوة، لأن الثقافة التي صنعتم لا تنتج إلا نفوسا خاملة وعقولا شائهة " (٢) .

وهكذا يمكن لنا أن نستنتج بأن الشيخ الغزالي بخصوص المسألة الثقافية يركز على العلاج الداخلي، وهو يروم تصحيح وضع عملية البناء الثقافي الإسلامي ، وهذا في نظرنا منهج صائب موفق يعضده العلم و الواقع ، فالجسم الذي ينهار فيه جهاز المناعة الداخلية و الحصانة الذاتية ، يعجز حتما عن المقاومة و التصدي للأجسام الهاجمة و الكائنات الغريبة الغازية الدخيلة .

٢- صعيد الجبهة الخارجية :

أما فيما يتعلق بالفكر الوافد والأنماط الثقافية الغربية وطروحات الحضارة الغازية المهيمنة، فإن الشيخ الغزالي له موقف من ذلك يتسم بالإنزان و العقلانية ؛ يدل على اطلاع واسع ، وإدراك فاعل لمعطيات واقعية متنوعة ، ومقدرة مشهودة ، في كسب مداخل ثقافة العصر وأدوات التحليل و النظر و المقارنة .. و الشيخ الغزالي لا ينظر إلى الغزو الثقافي على أنه انتشار فن العمارة الغربية ، وعدم انتشار فن العمارة الإسلامية ، أو أن يشيع نظام المائدة الأوروبية ، ويختفي نظام المائدة المحلية أو البدوية (٣) ؛ بل إنه - شخصيا - يفضل نظام المائدة الغربي على النظام الشرقي ، ويرى كثرة الأطباق و الأكواب و الملاعق أفضل من طبق واحد وكوب واحد (٤) ؛ لكن الغزو الثقافي - برأيه - يعني تغيير الحقائق و العناوين وفصل حاضرنا عن مستقبلنا ، ووضع قلب مكان قلب و عقل مكان عقل ، إنه ذلك " البنج " الذي يعطل الاحساس بالمأساة التي تباشر ضد ديننا و أدبنا وتراثنا ، وهو أيضا إضعاف العقائد و الأخلاق ، ومحو تشريعات الإسلام في الحدود و المعاملات و السلوكات ، و الانقراض على معالم الإسلام ومحو شخصيته المادية و الأدبية ، إنه باختصار خطة ذكية لإغراء الضحية بالانتحار أو استسلامها في ذهول للذبح وعدم مقاومة جزايرها (٥) .

(١) محمد الغزالي ركائز الإيمان بين العقل و القلب، مكتبة رحاب (الطبعة الجزائرية الأولى) - الجزائر ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٥

(٢) المصدر نفسه ص ٨

(٣) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (مصدر سابق) ص ١٣٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٢

(٥) ت انظر المصدر نفسه ، صفحات : ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣

وبوعى نادر نابه ذكي سعى الشيخ الغزالي عبر كتابات غزيرة وأنشطة متنوعة إلى كشف المجالات و المداخل التي يركز عليها الغزو الثقافي - كما بينا في هذا المبحث - فنبه إلى خطورة منهج الإستعمار في توزيع الأدوار وتغيير المظاهر و الأدوات مع تمسكه بهدفه الأساس و غايته الرئيسية ، أي الخلاص من الإسلام وإنهاء حضارته و تاريخه .. وللحيلولة دون تلك الغاية فقد تقدم الشيخ الغزالي إلى مسرح الصراع الفكري و حلبة المواجهة الحضارية ، منافحا عن أمته ، ذائدا عن دينه و موارثه الحضارية المشرقة ، وهو يرى بأن الغزو الثقافي الغربي يمكن إضعاف آثاره أو تحديد نتائجه إذا أمكننا النجاح في الالتزام بهذه المبادئ و المداخل :

أ) التسلح بالعقيدة الصحيحة الحية :

إن تحصين الجيل المسلم بعقيدته الحية الخلاقة - كما يعتقد الغزالي - يكسبه مناعة ذاتية فاعلة ضد أفكار و سلوكيات الأنماط الدخيلة و الأخلاقيات الوافدة ، ودليل ذلك أن الإستعمار الثقافي سعى أول أمره إلى زعزعة العقيدة في النفوس ، وإفراغ الأفتدة من الإيمان ، وخلق شباب و أجيال تضيع الصلاة و تتبع الشهوات ، تستثيرها الغرائز الدنيا ، وتذهل عن واجباتها و رسالتها و أدوارها المنوطة بها في الحياة (١) .

ب) التفريق بين ما هو دين و ما هو عادات أو تقاليد :

و مما يساهم أيضا في تخفيف وطأة تحديات الحضارة المعاصرة و فكرها الوافد ، الحرص على تقديم السلوك الإسلامي الواعي بطبيعة العصر و تأهيله لأداء دوره المطلوب في عملية المواجهة الثقافية و التدافع الحضاري ، لأن الأجيال الناشئة ستمثل سلوكيات الحضارة المهيمنة بقدر انتكاسة و إخفاق السلوك الإسلامي و توغله في الرداءة و السلبية ، و يقتضي ذلك - برأي الشيخ الغزالي - التفريق بين ما هو جوهر في تعاليم الإسلام و ما هو عادات أو تقاليد بيئية أو خاصة ، و أي خلط بين الجانبين هو ظلم للإسلام مؤكدا ، بل هو ظلم بآثار مزدوجة ، إذ إنه يزهد الأجيال في موارثها و قيمها الفكرية ، و في الوقت ذاته يشوه حقيقة الإسلام للشعوب الأخرى خارج بلاده .. ويعطي الشيخ الغزالي مثالا بخبر بلغه عبر خطاب أرسله له أحد طلابه يستزيد من المعرفة في الولايات المتحدة الأمريكية ، يقول فيه : " كنت في مكتبة عامة لجامعة (...) فإذا طالب عربي يلبس جلبابا أقرب إلى أن يكون قميصا ، وفي فمه سواك يديره أحيانا و يتبته أحيانا ، ووددت لو كانت لحينه مهذبة ! لقد كان منظره العام رسما كاريكاتيريا للإسلام يثير السخرية " وعلق الشيخ الغزالي على ذلك بقوله " إن هذه المناظر المؤذية كثيرة ، و ما أرتاب في أن وراءها أصابع خفية تعمل ضد الإسلام " (٢) .

(١) محمد الغزالي ، كفاح دين (مصدر سابق) ص ١٦٦

(٢) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (مصدر سابق) ص ١٦٩

وعن هذه الظاهرة ذاتها المؤذية للإسلام - كما يعنيتها - نراه يقول " يوجد متدينون من المسلمين النازحين إلى أوروبا وأمريكا ، وفيهم بلا ريب من هزم تيارات الإنحراف التي تجره إلى السقوط ، غير أن كثيرا من هؤلاء يحمل جرائم العلل التي شاعت في بلاده الأصلية .. فهناك من حلق رأسه وشواربه بالموسى وأطلق شعر لحيته على نحو يشعر بأن كل شعرة أعلنت حربا على جارتها ، فهناك امتداد وتناثر يثيران الدهشة .. قلت في نفسي : لم يبق إلا أن يحلق حاجبه بالموسى هي الأخرى لتكتمل الدمامة في وجهه . ولم أر مساءلته لم فعل ذلك؟! لأنني أعلم إجابته : سيقول هذه هي السنة ! .. ما عليه لو ترك شعر رأسه مرجلا معطرا ، وهذب لحيته لتكون أبهى من لحي أهل الفن كما يقولون أو كما يفعلون " (١).

ويتألم الشيخ الغزالي من قضية خلط تعاليم الإسلام بالعبادات البيئية و التقاليد المحلية ، فذلك في نظره ما جعل حجبا كثيفة تحول دون معرفة الإسلام و تعاليمه الإلهية فيطلق هذه الصرخة لكل شعوب المعمورة : " أكاد أقول لسكان القارات : إن ماترون في شؤوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدم رسوله من أسوة ، إن ماترون هو عوج أمة نسيت مآلديها ومضت على هواها " (٢) ، ونحن نلاحظ ونستنتج هنا بأن الشيخ الغزالي يوقن بأن الكثير من العادات و التقاليد في بلاد المسلمين كانت سببا في انعطاف أجيال كثيرة إلى ثقافة الغرب و حضارته ، إلى جانب تقديم الإسلام ذاته كرسالة في صورة مشوهة لا ترغب في اعتناق حقائقه و الحفاوة بأحكامه ونظمه ، لذلك فهو يؤكد باستمرار بأن " مأساة الإسلام تكمن في أن ناسا يتقدمون بتقاليد الشعوب على أنها تعاليم الوحي ، بل إنهم يتقدمون بالأخطاء التاريخية على أنها توجيهات سماوية .. وستبقى الحضارة الحديثة حاكمة ما بقي هؤلاء يدعون ويكابرون ، ولن تصح مسيرة العالم إلا بعودة الإسلام ذاته على أيدي أولي الألباب ومن لهم قلوب " (٣) ؛ ولعل الشيخ الغزالي في هذا الطرح - كما أشار ملمحا إلى ذلك - متأثر بأسلوب أستاذه الإمام حسن البنا الذي كان يواجه الغزو الفكري بمحاربة التقاليد الغريبة، دون تفريق بين مخاطر الأضرار الموروثة والأهواء الوافدة (٤)؛ وهذا حق فإن عوامل تشويه حقيقة الإسلام واحدة ، بل إن الموروث منها قد تكون مخاطره أعمق أثرا ، وآثاره أفدح ضررا ، وهذا أحد أسرار كون الهزائم تبدأ في حقيقتها من داخل الذات لا من خارجها ، فالعامل الداخلي في معادلة النصر أو الهزيمة وميدان المغالبة والصراع هو الأصل. أما العامل الخارجي فأثره غالبا مرتبط بأحوال و مستويات وفعالية العامل الأول (٥) .

(١) محمد الغزالي ، مستقبل الإسلام خارج أرضه (مصدر سابق) ص ٧٤ - ٧٥

(٢) محمد الغزالي ، سر تأخر العرب و المسلمين (مصدر سابق) ص ٥

(٣) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (مصدر سابق) ص ٤٧

(٤) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، (مصدر سابق)

(٥) المصدر نفسه ص ١٥ - وانظر كذلك خاتمة كتابه : ظلام من الغرب .

ج) ضرورة الخبرة بأحوال الآخر الحضاري :

إن دراسة أحوال وأوضاع الآخر الحضاري أمر لا بد منه ، بل هو من مقتضيات المحافظة على ذاتنا الحضارية و خصوصيات شخصيتنا ؛ ومن ثمة فإن الشيخ الغزالي يرجع بعض جوانب انتكاسة الوجود الإسلامي ومستواه الحضاري والإنساني إلى هذا العامل ذلك أن " دراستنا للآخرين كانت صفرا ، مع أن الآخرين كانت تغلي مراحلهم ولا يفتنون يفكرون في النيل منا و الإتيان على ديننا من القواعد . أكننا نتدبر الآية الكريمة : { ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا } (١) وإذا كنا نسينا هذا النذير الإلهي ، فكيف ننسى أحداث تاريخ طويل ، ترادفت مآسيه علينا ، ولا تزال تتذر بالويل و الثبور ؟ إنا جزء من عالم موار بالحركة ، وقد تحولت خطاه إلى وثبات فسيحة في هذا العصر ، وأعداؤنا يصارحون بكرهيتهم العميقة للإسلام ، وتخطيطهم للإتيان عليه . فحتى متى نجعل ما حولنا ؟ يجب أن نندم على هذا الخطأ ونحترز بعد من الوقوع فيه " (٢) ؛ إن عدم الاكتراث بمعرفة الآخر يعني في تفكير الشيخ الغزالي تفریطنا في رسالتنا و انفصالنا عما كلفتنا به الأقدار من واجبات ، إلا أنه ينبه إلى أن معرفة هذا الآخر تقتضي التفريق بين ما يجب أن نأخذ منه ، و ما يجب أن ندع ، و ما ينبغي استغلاله في هذه المعرفة من روافد لدعم كياننا و حاضرنا و مستقبلنا ؛ لذا نراه يدعو إلى ضرورة تأسيس جهاز راصد كشف مهمته الأولى مراقبة العالم الإسلامي و العالم الذي حوله ، من أجل حراسة الرسالة الخاتمة و معالجة ما يعترض سبيلها من عوائق أو ما يهددها من كيد (٣) .

د- شحن القدرات للوقوف أمام تحديات العصر : مما لا شك فيه أن الوقوف في وجه تحديات الحضارة المعاصرة يقتضي - كما يرى الشيخ الغزالي - تفقها متجددا لمنهج الإسلام و فكره ، قوامه الاستيعاب الذكي للإسلام جملة مع الاستفادة المتبصرة لاجتهادات جميع العصور ، لمواجهة مشكلات العصر و تحديات الفكر الوافد ، ذلك أن الاعتماد على قفه و اجتهادات مذهب واحد من مذاهب الفقه الإسلامي أمر تجاوزه الزمن فضلا عن كونه غير مؤهل كنموذج فكري يمكن أن تكون له قدرة الوقوف أمام خصوصيات و سحر تحديات الحضارة المعاصرة (٤) ؛ و في نظر الشيخ الغزالي فإن الكفاءة الإسلامية في كافة الميادين مطلوب منها الآن الارتفاع إلى مستوى العصر و مشكلاته كي تفلح في تخطي المخاطر المهددة للوجود الإسلامي حاضرا و مستقبلا ، و إنقاذ الهوية الفكرية و الحضارية للمسلمين من جهود و محاولات و أساليب الحضارة الغربية التي تروم بوسائل مختلفة و متجددة احتواءها و إلحاقها ، و بالتالي تأبيد تبعيتها ، بواسطة فصلها النهائي عن مكوناتها العقدية و التاريخية المتأصلة الراسخة .

(١) سورة البقرة آية : ٢١٧

(٢) محمد الغزالي ، تراثا الفكري (مصدر سابق) ص ٣٦ - ٣٧

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨= وانظر أيضا (نستور الوحدة الثقافية) (مصدر سابق) ص ١٦ - ١٧

(٤) انظر مثلا على ذلك : محمد الغزالي ، ظلام من الغرب (مصدر سابق) ص ١٦٢ - (في هذا المضمار يمكن مراجعة مبحث : مشروع

الغزالي الفكري : مراجعة وتقويم من هذه الأطروحة) .

إن المواجهة الثقافية في فكر الشيخ الغزالي تمثل أحد أبرز المحاور و الخطوط العريضة في مؤلفاته و نشاطاته العلمية و الفكرية و الدعوية ، فقد وقف بعزم و ثبات في وجه التحديات المختلفة التي واجهت بعنفوان الأمة الإسلامية - و ما تزال حلقاته ممتدة - و استطاع مجابهة كل مرحلة بما تستحقه من جهود و مقتضيات ، ففي مطلع حياته العلمية كان الاقطاع يمزق حياة الفلاحين و يسطو على أملاك و أرزاق المقيمين من ضعفاء الشعب المصري ، كما أخذت الرأسمالية المتوحشة تجد لها أنصارا و مؤيدين على حساب الطبقات الكادحة المستضعفة و أغلب هؤلاء الأنصار و المؤيدين الذين انتفخت أجوافهم بالسحت ، هم ممن كانوا يفقون إلى جانب الاحتلال ، و يتزلفون النظام الملكي و أسرة قصر عابدين ، في هذه الأجواء المصبوغة بصبغة المظالم الاجتماعية و الحيف الاقتصادي و المعاشي ، كتب الشيخ الغزالي كتابه النفيس (الإسلام و الأوضاع الاقتصادية) ثم (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين) ؛ و حين حدثت بعض المتغيرات و اشتدت وطأة التوجهات اليسارية في العالم العربي و الإسلامي ، و فتن الناس بطروحاتها السرابية ، خاصة في مصر ، و طففت هذه التوجهات - مستغلة فرص و مساحات التمكين السياسي و الأيديولوجي لها - تقدم نفسها كبديل للمنهج الإسلامي لاسيما على الصعيد الاجتماعي و الاقتصادي ، أخرج الشيخ للناس (الإسلام و المناهج الاشتراكية) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) ؛ كما تصدى الشيخ الغزالي بمنهجية و وعي لحركات و مذاهب تغريب الذات الإسلامية ، و إلحاق الأجيال المسلمة بأطروحات و مرجعيات الحضارة الغربية و الفكر الوافد ، فكتب : (ظلام من الغرب) و (كفاح دين) و (علل و أدوية) و (الاستعمار أحقاد و أطماع) و (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين) و (صيحة تحذير من دعاة التصيير) و (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة) ... إلخ ، و بدافع الانتصار للإسلام و خدمة رسالته و إنصافه من خصومه ، جادل الشيخ الغزالي العلمانيين و دعاة التغريب بالحجج العقلية ، و بما يقتضيه منطق العصر من أدوات معرفية و عمق ثقافي و منهجية في تناول و المحاججة ، و الانطلاق من قاعدة البديهيات و المسلمات العقلية باعتبارها قاسما مشتركا بين الأذهان و المدارك ، لاختصار الجهد و تحقيق المقاصد و الأهداف من أقصر الطرق و أيسر المناهج ؛ وفي محاضراته الشهيرة (التحدي الثقافي و آخر خط للدفاع عن العرب و المسلمين) (١) دعا الشيخ الغزالي إلى ضرورة التعجيل بمعالجة مشكلات الإسلام الثقافية ، ووضع المجتمعات المسلمة في منظومة موحدة ، لتلقي المعارف المشبعة بنضح غايات و مقاصد المرجعية الإسلامية ، في بناء عالم الأمة الثقافي و الفكري و المعرفي ؛ و المسارعة أيضا إلى وضع الأطر و المناهج الكفيلة بتخفيف وطأة التحديات التي تجابه واقع المسلمين في هذا العصر المتميز بالمتغيرات العميقة على كافة المستويات المرتبطة بكيونة الإنسان ، قصد تجاوز عوائق العصر و تحقيق هدف انعتاق الذات الفكرية و الحضارية للمسلمين .

(١) أودع الشيخ الغزالي هذه المحاضرة كتابه ((الغزو الثقافي يمتد في فراغنا)) -الملتقى الذي ألقى هذه المحاضرة البيعة انعقد بمدينة بجاية (الجزائر) بين ١٩ - ٢٦ شوال ١٤٠٥ هـ / ٨ - ١٥ يوليو ١٩٨٥ م (الغزو الثقافي و المجتمع الإسلامي المعاصر) .

وما يمكن كذلك ملاحظته في جهود الشيخ الغزالي الفكرية - خاصة منها تلك التي اقتضتها مواقف و الردود اللازمة في وجه التحديات الغربية للفكر الإسلامي - أنها لم تكن مجرد ردود أفعال متسجبة كما لم تأت في شكل كتابات اعتذارية ، بفعل حدة وطأة الضغوطات المتلاحقة لتلك التحديات ... ولكنها جاءت منظمة و منضبطة بمنطق أخلاقيات الحوار العلمي ، الذي يتخذ من عوامل الإقناع العقلي و الاستمالة المنطقية أسسا و مرتكزات ، يستند عليها في عمله و تفاعله مع الرأي الآخر و الطروحات المغايرة ؛ كما جاءت صورة عاكسة لما ينطوي عليه الفكر الإسلامي من عناصر الحيوية و القوة و الثراء التي تؤهله لاستيعاب مستجدات كل العصور ، عبر منهج أسلمة خصائص كل عصر ، و جعلها جزءا من منظومته المتفردة ؛ كما قصدت تلك الجهود - و هذا أحد أكبر وأهم أهدافها - إلى تثبيت الفئات و التجمعات المسلمة المعترزة بانتسابها الإسلامي و انتمائها الحضاري ... و من هذه المنطلقات و الأسباب يمكن عد الشيخ الغزالي نموذجا عمليا متميزا لما يتطلبه هذا العصر من المسلم المعاصر من مواقف و جهود و حضور و فاعلية ، و لو أن كل الجهود الفكرية الإسلامية المعاصرة تمثلت في تفاعلها مع خصوصيات هذا العصر معطيات هذا النموذج ، لأمكن التغلب على الكثير من الإشكالات ، و الحد من آثار العوائق و العقبات التي ما تزال في طريق المجتمعات الإسلامية ، كما أن الفكر الإسلامي ما يزال يكابد أثقاليها ، و يعاني وطأتها في واقعه المعاصر ، من هذه الفترة الحرجة من تاريخه .

ولعل أهم ما يصح استنتاجه أيضا هنا في ختام هذا المبحث أن منهج الشيخ الغزالي في مواجهة تحديات العصر ومدافعة الأنساق المختلفة للغزو الثقافي و الفكري و الوجداني للحضارة الغربية يركز بوجه خاص على الالتفات و العناية المنهجية الجادة بمعالجة العلل الداخلية التي تفكك برصيد القوة الذاتية للجسم و الكيان الإسلامي ، إلى جانب التفاعل الإيجابي مع التحديات و الانفتاح الواعي على مقتضيات العصر و طبيعته ، و عدم الجنوح إلى القعود و السكون و التكلس ، حتى يتمكن المسلمون و العالم الإسلامي من تحصيل المعاني الحركية اللازمة و الأسباب الناجعة التي تسعفهم فعلا من التجدد بمقتضى التدين و موحيات الإرث الروحي الثابت دونما وجل أو تهيب أو ضجر من حركة متغيرات الزمان و المكان .

جامعة الأمير

الفصل الثالث

الفكر الاجتماعي والسياسي

عند الغزالي

الإسلامية

اجتهاده وفقهه في قضايا وشؤون المرأة المسلمة

تمهيد :

تحتل قضية المرأة في فكر الشيخ الغزالي مساحة مهمة ، تترجم عند التأمل العميق و القراءة الفاحصة عن دوافع هذا الاهتمام و أبعاده الشرعية و الانسانية و الدعوية و الاجتماعية و غيرها ... ذلك أن الكيان الإنساني الأدمي واحد لا يتجزأ . و الخطاب الإلهي في الوحي الكريم - كما هو ثابت - موجه لمناط التكليف في هذا الكيان ، بغض النظر عن نوع الجنس ، و معنى ذلك أن مراد الله من الخلق واحد ، و هذا ما تنص عليه بوضوح كليات الخطاب و عموم الرسالة ، و من ثمة فإن ما يفهم من بعض سياقات نصوص الوحي أن انقسام هذا الجنس من الكيان الإنساني إلى ذكورة و أنوثة ، قد ترتبت عنه فروقات في الأدوار أو الوظائف ، لكنها لا تتباين لتتأفر أو تتصادم ، و إنما للتكامل و تتوافق ، لأجل تحقيق الصورة المثلى و الغاية المرادة لاستخلاف الانسان عن الله في الأرض ... و من منطلقات الشعور بأهمية و خطورة دور المرأة في مؤسسة البناء الاجتماعي و التأهيل الحضاري ، ومدى تميز هذا الدور و خصوصيته في تربية و إعداد الإنسان الصالح النموذج ، المقدر و المؤهل لحمل مقتضيات و أمانات هذا الاستخلاف و هذا التكليف ، كان اهتمام الشيخ الغزالي بالمرأة .. فقد شغلت قضاياها المتنوعة حينها هاما في تفكيره و أنشطته العلمية و الاجتماعية ، يجبر كل دارس أو متابع لفكره ، على ملاحظة هذه المساحة و حدودها ، و التوقف بإزاء خلفياتها و مراميها في سياق البحث عن ترجمات منهجية و تأويلات عميقة لدلالاتها المتنوعة بشئى أبعادها في سياق مشروعته الفكري .

وفي اعتقادات الشيخ الغزالي الراسخة أن المرأة لم تتل حقوقها و حرمتها ، ولم تسترجع كرامتها المهذرة و إنسانيتها المسلوبة إلا بمجيء الإسلام ، فهذا الدين جعل طفولتها - مرحلة التربية و التنشئة - سترا من النار و طريقا إلى الجنة ، و أوجب بلغة التكليف و الإلزام إكرامها و حسن معاشرتها وهي زوجة ، و استوصى بها خيرا ، على كافة المستويات ، حيث جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، و لم يمنعها من خدمة الجيش ، و المشاركة في الجهاد إذا أطاقته ، و قدرت على تحمل أعبائه و مشاقه ، و فتح أمامها باب المساهمة في خدمة المجتمع ، و سبل ترقية الحياة العامة ، كما سوى الإسلام بين الجنسين في أعمال البر كلها ، فأرجحها عند الله تعالى ميزانا و مكانة أخلصهما نية و أكثرهما سعيا ، و يمكن دون تردد أو مظنة ما اعتبر شخصية المرأة ولدت مع بزوغ شمس الرسالة الخاتمة و نفاذ التعاليم القرآنية و مقاصدها الإنسانية العظمى في هذا الشأن (١) ؛ وقد بلغ من تدليل النبي - صلى الله عليه وسلم - لزوجاته الكريمات - وهذا أمر له دلالاته البالغة - أن حرم على نفسه ارتفاق بعض المباحات إرضاء لهن ،

(١) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة (باتنة / الجزائر : الزيتونة للنشر و الإعلام ، ١٩٨٨ م) ، ص ١٠٣

حتى نزل في ذلك قول الله تعالى: " ياأيها النبي لم تحرم ماأحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك .. " (١) ؛ ولم يكن مثل هذا الأمر التابع من مشاعر قلب كبير ، مألوف بل ولا معروفا في نطاق العلاقة بين الجنسين قبل الإسلام ، وهو ما يجعل الإتجاه إلى إقرار البعث الجديد لشخصية المرأة اجتماعيا و إنسانيا مع نزول الوحي الخاتم ، من باب وصف وإرساخ حقائق التاريخ الإنساني فحسب (٢) ؛ فلم يميز الإسلام بينها وبين شقها الآخر في الأدمية ، من جهة الإقرار المطلق بكمال إنسانيتها ، فالمرأة في لغة خطاب الرسالة الخاتمة لها فرادة خاصة في المعاملة و التكريم ، فهي وإن كانت في مصطلح الحياة أنثى (بنتا كانت أم أما أم زوجة) إلا أنها في منطلق القرآن إنسان لا إنسانة ، وعلامة التأنيث الصريحة لا تلحقها في حالاتها الثلاث ، فهي عندما تولد تسمى (ولدا) قبل أن تسمى (بنتا) ، وهي عندما تلد تدعى (أما) قبل أن تدعى (والدة) ، وهي (زوج) في عقد النكاح الشرعي ، ولا يصرح بأنها (زوجة) إلا رفعا للإلتباس ، أو رغبة في الإيضاح ، حتى يحصل القصد كاملا من العقد (٣) ، ومن ثمة فإن ازدياد الأنوثة أو التجهم لها ، لاثنى إلا لأنها أنوثة - كما يرى الشيخ الغزالي - جريمة وبعد عن الصراط المستقيم ، وتبرم بالفطرة ، مضاد ومغاير لتعاليم الإسلام وفقهه المشرق كما دلت عليه أحكام الشرع الحنيف ومقاصده الجليلة (٤) .

إن الشيخ الغزالي من مبعث فهمه للقرآن يؤمن بأن الأنوثة و الذكورة صفتان يستحيل أن تمدحان أو تدمان لذاتهما ، لأن مصدرهما واحد هو هذه النفس التي خلقها بارئها العظيم ، قال تعالى : " ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " (٥) ؛ ومن هذه المنطلقات و الحقائق المقررة في نصوص وأدلة الوحي الكريم ، والتي دلت عليها أيضا استدعاءات القراءة و الفهم لصورة الحياة الإسلامية في الفترة النبوية والعهد الراشد، تجيء رؤية الشيخ الغزالي في فقه شؤون المرأة المسلمة وقضاياها المختلفة ، داعية إلى نفض ركامات قرون التخلف و الإنحطاط عن هذا الكيان ، وهذه الشؤون، وضرورة الإعراض عن الأفهام السقيمة التي اضطربت بها الحياة الإسلامية ، إبان حقب مختلفة من التاريخ الإسلامي ، فكانت عامل تشويه لحقائق الإسلام ، وسبب تراجع وتردي لواقع المجتمعات الإسلامية وانحطاط إنسانها وشبكة علاقاتها الإجتماعية و الإنسانية .

فالمرأة إذن مرتكز أساس و هام في أي مشروع تنموي أو تبيعات حضاري و تغيير اجتماعي ؛ و لا يمكن فصل رؤية الشيخ الغزالي و فقهه في شؤون و قضايا المرأة المسلمة عن سياق مشروعه

(١) سورة التحريم آية : ١

(٢) محمد الغزالي ، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، سلسلة كتاب الأمة ، دار البعث ، تونسية (للطبعة الجزائرية الأولى) - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٣) صبحي الصالح، الإسلام و مستقبل الحضارة، (بيروت : دارالشورى، ط١، ١٩٨٢ م) ، ص ١٥٣

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث (بيروت : دار الشروق ، ط١، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ص ٤٤

(٥) سورة النساء آية : ١

الفكري ، الذي ظهرت بعض قسّماته في بداية حياته العلمية مغايرة في الكثير من الجوانب والأبعاد لما درج عليه الناس و ألقوه، في المواقف الفكرية و الاجتماعية و العلمية لعلماء الدين التقليديين ... و هذا المبحث يحاول تجميع عناصر منظور الشيخ الغزالي للمرأة المسلمة وقضاياها المختلفة ، من خلال جملة من المسائل الحساسة ، التي تمثل جوانب رئيسة من مواصفات التميز و الأصالة ، و كذا عمق الإستيعاب الحي للفقّه الإسلامي ، و روح التجديد البعيد عن أهواء البشر ، و ضغوطات الحضارة المعاصرة ؛ و هي مواصفات قد تلحظ بيسر في مختلف مناحي هذا المنظور ، لاصطبائه الواضح بمنطلقات و غايات تلك الرؤية الجامعة بين طرفي معادلة الأصالة و المعاصرة ، عبر محددات منهجية شاملة ، و هو الإطار الذي انطلق منه التميز و التجديد في مشروع الشيخ الغزالي الفكري ... و هذه المسائل هي :

أولا : المرأة المسلمة و مسألة العمل :

تباينت الكثير من الآراء الفقهية إزاء موضوع عمل المرأة المسلمة ، إلا أن مساحة هذا التباين و إن اتسع مداها أحيانا في النشاط العلمي لدى بعض الفقهاء و العلماء المسلمين ، فهي تنبوع عن إصااق صفة التحريم المطلق لعمل المرأة ، لكن الجدل الفقهي تركّز بشكل ظاهر حول العمل الذي قد لا يناسب جزئيا أو كليا طبيعة المرأة ، أو لا يتسق و خصوصياتها النفسية و العضوية و الجمالية و نحوها ، أما الآراء و النظرات الشاذة ، فليس لها في واقع الأمر اعتبار جدير بالذكر أو التويه في مساحات هذا التباين أو المفارقة في الرأي و الاجتهاد و الاستنباط ، و مرد ذلك دون شك عدم طواعية الأدلة و النصوص الشرعية ، و واقع المرأة المسلمة في القرن الأول من عمر الإسلام ، لمثل تلك الاستنباطات و الفهوم و الأنتظار !!.

و في كتابات الشيخ الغزالي، خاصة في تكوين و بلورة فهم الجوانب الشرعية ، من شؤون المرأة ، يلاحظ بأن رأيه في الغالب الأعم يجيء مدعوما بأراء و نظرات بعض الفقهاء ، سواء منهم أصحاب المدارس الكبرى في الفقّه الإسلامي ، أو غيرهم من الفقهاء المنتميين لمذاهب و مدارس التشريع الإسلامي، أو المستقلين باجتهاداتهم و آرائهم الفقهية و التشريعية ؛ و بخصوص عمل المرأة المسلمة ، فإن الشيخ الغزالي يعتبر أن قيامها على شؤون بيتها و حسن تبعلها لزوجها و رعاية أولادها ، من أشرف و أقدس أعمال المرأة المسلمة ، و أن هذا هو الأصل من الناحية الشرعية و الاجتماعية و الإنسانية ، وهذا الرأي عرف به فكر الشيخ الغزالي في مؤلفاته المبكرة نسبيا بشكل أخص (١) ؛

(١) من تلك المؤلفات خاصة: (الإسلام و الطاقات المعطلة) - (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة) - (هذا ديننا) - (معركة المصحف في العالم الإسلامي) - وعن رأيه المشار إليه يقول: [ونحن إذ نستذكر وضع المرأة بيننا في القرن الماضي مثلا، فلننمنا ذلك بالنسبة إلى حال المرأة في تاريخنا الأول... أما بالنسبة إلى حياة المرأة في أوروبا و أمريكا الآن، فنحن نعتقد أن المرأة العاطلة أفضل من المرأة الفاسدة ، و أن النساء المحبتسات في المخادع و البيوت، المقصورات على خدمة الولد و الزوج ، أشرف من النساء اللواتي يتكشفن لكل عين ، و لا يرددن يد لاس .. إن التمثل عن العمل شر ، ولكن الاشتغال بالأعمال الدينية شر أكثر] (الإسلام و الطاقات المعطلة - مصدر سابق - ص ١٠٠ / ١٠١) .

و لما كان احتدام النقاش و الجدل الفقهي حول عمل المرأة خارج إطار واجباتها المنزلية و الأسرية ، فإن الشيخ الغزالي يرى أن ذلك جائز في أربع حالات هي (١) :

الحالة الأولى : أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال و النساء معا ، و المصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام ، و لا نخمده بإخمالها ، فتذهب قوة عاملة هي من القوى النادرة . و المرأة في هذا تترك جزءا من أمومتها في سبيل المصلحة العامة .

الحالة الثانية : أن تتولى عملا هو أليق بالنساء ، كتربية الأطفال في سنينهم الأولى و تعليمهم ، و ذلك إلى سن التاسعة أو الحادية عشرة ، و هي السن التي قررتها الشريعة لحضانة الأطفال ، فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت ، و في عطف المرأة و رعايتها بالمدرسة . و مثل تعليم الأطفال ... تطيب النساء ؛ و لقد قرر الفقهاء أن بعض هذه الأعمال فرض كفاية ، كالقابلات فإن عملهن من فروض الكفاية ؛ و قد قرر كمال الدين بن الهمام - من فقهاء الحنفية - أن الزوج ليس له منع امرأته من الخروج إذا كانت تحترف عملا هو من فروض الكفاية الخاصة بالمرأة ، و لكنه نصح هذه المحترفة ألا تخرج متبرجة غير كاملة في تصرفاتها .

الحالة الثالثة : أن تعين زوجها في ذات عمله ، و هذا كثير في الريف ، فالمرأة الريفية إذا كان زوجها عاملا زراعيا أو مالكا صغيرا ، أو مستأجرا لمساحة ضئيلة تعاونه امرأته في عمله معاونة كاملة . فهو يخرج من داره حاملا فأسه ، و هي معه حاملة وعاء البذر ، و حولهما أولادهما يتعلقون بئابيهما و يحملان بعضهم على أذرعهما ، و لو كان للمرأة صورة مثالية في مجتمعنا لكانت صورة تلك المرأة الكادحة العاملة العاطفة ، لا هؤلاء النساء اللاتي يغشين الأندية و الملاهي و دور الغناء ... و يلبطن في مجالسهن بالحلال و الحرام !! .

الحالة الرابعة : أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها و قوت عيالها إذا فقدت العائل هي و هم ، فكان لابد حينئذ أن تعمل لهذه الضرورة أو تلك الحاجة الملحة ؛ و نقرر هنا أن المبادئ الإسلامية ما كانت لتجعل مثل هذه المرأة في حاجة لأن تعمل ، لأن بيت المال كان يتولى الإنفاق عليها ، و يجري لها رزقا منتظما من بيت مال الزكوات و الضوائع إن كانت مسلمة ، أو بيت مال الخراج و الجزية إن لم تكن مسلمة ، و ذلك تطبيقا لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " من ترك مالا فلورثته ، و من ترك عيالا فإلي و علي " (٢) .

(١) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ، منشورات المكتبة التجارية ، ط ١ ، القاهرة ١٣٨٣ هـ /

١٩٦٣ م ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) رواه البخاري .

إن هذا الإطار الفقهي الذي وضعه الشيخ الغزالي لقضية عمل المرأة ، ظلت رؤيته متأثرة به ، لاسيما في مؤلفاته المبكرة و المتوسطة في حياته العلمية ، فقد ظل يذكر بأن " البيت هو المستقبل الطبيعي للمرأة ، و المجال المهيأ لها كي تنشيء الحياة و تعد الرجال ؛ و عمل المرأة فيه بعيد المدى ، فإن أوثقتها هي وحدها التي تشيع فيه السكينة و الرضا ، و هذا الجو الصافي هو الذي يستكمل فيه الطفل نماءه النفسي و البدني " (١) ، و مثل قوله كذلك " إن العمل الأول للمرأة ، هو حسن تبعل الزوج ، أو بتعبير العصر الحاضر حسن القيام على شئون البيت ، و أحوال الأسرة ، و رعاية الرجل و الأولاد . و إجابة المرأة لهذا الواجب بغنيها عن سائر الواجبات العامة من اجتماعية أو سياسية . إن الجهد المبذول في هذه الأثناء ثانوي بالنسبة إلى الوظيفة الأولى للمرأة، و هي الإشراف على الأحوال الداخلية للأمة .. " (٢) .

و الحق أن هذه المفاضلة أو هذا الترجيح في فكر الشيخ الغزالي إزاء عمل المرأة له ما يبرره و يدعمه ، ليس فقط من حيث تقديمه العين على الكفاية ، و لكن أيضا من حيث ضرورة رد الاعتبار الشرعي الحقيقي لأمر الوظيفة المنزلية للمرأة المسلمة . فهو يعتقد بأن " وظيفة (ربة البيت) من أشرف الوظائف في الوجود ، و ما يحسنها إلا من استكمل لها أركى الأخلاق و أنقى الأفكار أليست هي حضنة الأجيال الجديدة و شق الطريق أمامها حتى تثبت ، نباتا حسنا ؟ إن تصور المرأة في البيت إنسانا قاعدا لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأسرة .. و تصور ربة البيت إنسانا يجيد الطهي و الخدمة فقط ضارب من السلوك الحيواني عرفته الأمم إبان انهيار حضارتها و سقوط مستواها العام ... و لقد كانت المرأة في صدر الإسلام ربة بيت من طراز رفيع ، و ما منعها ذلك من أن تكون في قمة الثقافة و الاستقامة الاجتماعية ، و النهوض بأمته و الانتصار لدينها ... و لولا أن بعض النساء يعرفن بفطرتهن الذكية وظيفة المرأة تجاه أولادها و رجلها لاشترطنا لهذه الوظيفة مؤهلات نفسية و عقلية معينة " (٣) .

أما اباحة العمل للمرأة خارج بيتها فإن الشيخ الغزالي ، يشدد فيه على جملة عوامل و ضمانات ، كان يكون هذا العمل ملائما لتكوينها و أوثقتها ، و أن تكون البيئة محفوفة بقواعد الطهر و العفاف ، و أن تكون المرأة ذاتها ملتزمة بأخلاقيات الإسلام و آدابه . يقول : " و للمرأة أن تعمل في وظائف مناسبة و في ظروف خاصة . لكن على أساس أن عملها الجليل العتيد أن تكون ربة بيت و سيدة أسرة ، و أن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة ؛ فلا يليق حشر المرأة عارية الأذرع و السيقان في صفوف الرجال . و لا يليق توظيفها لتعرض أوراقا على مدير يختلي بها إذا شاء " (٤) .

(١) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة ، (مصدر سابق) ص ١٠٣ - ١٠٤

(٣) محمد الغزالي ، ركائز الإيمان بين العقل و القلب ، منشورات دار مكتبة رحاب (الطبعة الجزائرية الأولى) - الجزائر

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٤) محمد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧

إن وضع المرأة المسلمة في منظور الشيخ الغزالي لا يمكن أن يجد علاجه الشافي إلا بالرجوع إلى الإسلام و الالتزام الصادق بتعاليمه و هديه . فلم ينل المرأة المسلمة نفع و لا خير ، لا من أفكار الحضارة الغازية ، و لا من توجيهات العادات و التقاليد الموروثة ... فإن " حضارة الغرب - و هي بالنسبة إلى المرأة جاهلية حديثة - جعلت المرأة مسرحاً للعيون النهممة ، ولم تجعل منها عضواً نافعا في الجماعة الإنسانية ، بل عضواً يسري الهموم عن الجنس الخشن بأسلوب الحرام لا بأسلوب الحلال .. إنني - مع غيري من أهل الإيمان - نريد أن تشترك المرأة في الحياة العامة ، أي أن تحمل نصيبها الصحيح من الأعمال التي تتقنها بطبيعتها ... إن الله يكلفها بجزء ضخم من بناء المجتمع - كما يكلف الرجال - لكن الحضارة الحديثة التي رأيناها في بلادنا جعلت من المرأة بلاء على المجتمع و رجسا في جنباته . الخلف الحقيقي بين الإسلام و مدينة الغرب ، ليس في ضمان حق الحياة و العمل و الانتاج للمرأة ، ليس في ضمان الرقي الأدبي و المادي لها ... فإن الإسلام سبق في هذا المجال سبقاً حاسماً . إنما الخلف : هل المرأة كلاً مباح أو لا ؟ و هل جسمها و عرضها نهب للكلاب و الذئاب أم لا ؟ و هل تشتبك مع الرجال في أحفال الرقص أم لا ؟ و هل تحشر حشراً في الفصول و المدرجات بين الطلاب الذكور ، أم تقوم الفواصل بينها و بينهم ؟ و هل يترك الاختلاط طلباً يؤدي لنتائج المرة أم توضع له المعالم التي تباعد بين الأنفاس و تصون حرمانات الله و الناس ؟ هذا هو الخلف الحقيقي ... " (١) ، ثم إن الشيخ يزيد بالإيضاح و الشرح المعنى الذي يقصده و يطمئن لجذواه ، فيقول : " إننا نبغي لأمتنا حياة شريفة يعمل فيها الجنسان و أمامهما قول الله تعالى : (... فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ...) (٢) ... و لا نريد من أحد أن يخيّرنا بين شرين : حبس المرأة في البيت حتى تدخل القبر ، أو إطلاقها في الطريق تعريداً و تفسداً ... فالإسلام نظام غير هذا و غير ذلك ... " (٣) .

لكننا إذا تجاوزنا ما كتبه الشيخ الغزالي عن المرأة و قضاياها في أواخر الخمسينيات و الستينيات ، نجد أنه - و إن ظل ملتزماً على العموم بضوابط الأطار الفقهي الذي وضعه خلال تلك الفترة - قد بدأ يميل إلى تحقيق مبدأ الموازنة و الوسطية في مختلف شؤون و هموم المرأة المسلمة ، و لاشك أن هذا التحول النسبي في الرؤية ، تولد إثر تجربته الطويلة في ساحات الدعوة إلى الله ، و ما عاناه من صراعات في مجال المعارك الفكرية ، مع اتجاهات تغريب و علمنة المجتمعات الإسلامية ، الكارهة لأخلاقيات مجتمعاتنا و علاقاتنا العامة القائمة على مبادئ الإسلام و مرجعيته الحضارية و التشريعية ؛

(١) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة ، (مصدر سابق) ص ١١٤ - ١١٥

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٥

(٣) محمد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٢

بل إنه أخذ ينقد بعض آرائه و مواقفه السابقة ، و يراجع نفسه إزاءها ، و من ذلك مثلا قوله عن بعض ما صرح به أثناء مشاركته في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذي عقده جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٢م: " جرت على لساني كلمة تتصل بملايس الرجال و النساء كان الباعث على ختم الحديث بها ما أحسه و يحسه الكثيرون من أن مشكلة الأزياء في مصر سيئة و محرجة ، و تتطلب حلا معقولا ... لقد خلع المصريون الطربوش، و لم يجدوا لباسا قوميا للرأس ، فعاش جمهورهم خاسرا و ارتدى بعضهم القبعة ... و هناك ملايس توصف بأنها عربية يرتديها أصحاب الثقافة الدينية و عدد من الوجهاء الريفيين ... و توجد طوائف تمزج في ملايسها بين شتى الأزياء القديمة و الحديثة ؛ و ملايس السيدات تستحق مزيدا من الملاحظة و الارشاد ، فقد نقلت عن بيئات لا تهتم بالأخلاق . و لا تزال بدع التجديد في أوروبا و أمريكا تقتحم الحدود ، و تفرض نفسها على النساء في هذه البلاد الطرية (...). إنه من الواجب ابتكار أزياء تجمع بين الفضيلة و الجمال ، و تمنع التبرج و الفساد ... هذا ما قلته ، و قد فوجئت بأنه أقام الدنيا و أقعدها . أو بتعبير دقيق ما وجده الماكرون مجالا لنقل المعركة إليه ، و اختلاق قضية أخرى يدور حولها الجدل بعنف و تختنق في ضوضائها قصة التشريع الإسلامي من أنفها إلى ياتها . و لا أدري كيف وقعت في هذه الحفرة ، و كيف انسقت إلى هذا الموضوع الثانوي و سمحت لنفسي بإطالة الكلام فيه ، عندما طلبت للكلام مرة ثانية ... و كان لهذا الخطأ أثران رديان : الأول : أنني مكنت أعداء التشريع الإسلامي من بعثرة الجهود النبيلة التي احتشدت لنصرتها. والثاني : أنني لم أعط صورة كاملة لمكانة المرأة في الإسلام، و اكتفيت باستنكار الانحرافات الخلقية و الاجتماعية التي عرضت لنهضتها الحديثة ... " (١) .. ثم يزيد الشيخ الغزالي رؤيته لوضع المرأة المسلمة و شؤونها أيضا ، و بعد أن يستدرك بشيء من الأسف و الأسى على ما كان قد بدر منه أثناء ذلك المؤتمر الشعبي ، فيقول : " .. إن حرمان المرأة من التعليم و التربية و العبادة الشخصية و الاجتماعية و السياسية لا يمكن أن يكون إرضاء لله و لرسوله ، و ما كان النساء المسلمات كذلك على عهد رسول الله ، و لا أيام الخلافة الراشدة و العصور الزاهرة (...). إلا أنني - إذ أطلق المرأة من سجن الجهل و القصور الذي حبسها فيه الغافلون - لا أتصور أن يكون إطلاق سراحها لكي تجرفها عواصف الشهوات .. أو لكي تكون مسرح الأنظار الجريئة ، و الأيدي الفاسقة ، أو لكي تتحل عروة الأسرة و تتوطد أركان التسول الجنسي . إن ذلك لا يخطر ببال مسلم . إننا لا نريد أن ننقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام . و كما خطأنا أصحاب النظريات الدينية في حبس المرأة ، نخطيء - و لا كرامة - أصحاب النظريات المدنية التي تريد نقل حضارة الغرب إلى بلادنا ، و نقل العلاقة القائمة بين الذكر و الأنثى هناك إلى هذه الأمة النقية " (٢) .

(١) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي، منشورات مكتبة رحاب بالجزائر، (الطبعة الجزائرية الأولى) - د.ت ، ص

٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

إذن يلاحظ أن الشيخ الغزالي في هذه الفترة ، فضلا عن كونه قد أخذ يراجع بعض تصوراته و آرائه في شؤون المرأة المسلمة ، فإنه بدأ يعطف باتجاه ضرورة إشراك المرأة في التنمية الإجتماعية و الثقافية و الاقتصادية ، بإيجاد مساحة مناسبة لجهودها ، وحتى تستغل طاقاتها ومهاراتها ضمن قنوات و أطر ملائمة و ممكنة ، فينعكس ذلك انعكاسا طيبا و إيجابيا لصالح المجتمع و الأمة . خاصة و أن وظائف متنوعة - و لها أهمية قصوى في النطاق الاجتماعي - باتت تتطلب أساسا لمسات و خصوصيات الجهد الأنثوي ؛ ثم إن الواقع الاجتماعي و الأسري و الاقتصادي - و هذا بعد موضوعي كذلك - أصبح يلح على دفع المرأة إلى ساحات المشاركة في الحياة العامة ... و ثمة سبب آخر دفع الشيخ الغزالي إلى البحث عن توازن أكثر واقعية في ضبط أطراف هذه المعادلة الحساسة ، و هو كثرة الآراء و الفتاوي الجزئية المتعلقة بالمرأة ، في غياب النسق الاجتماعي الإسلامي ، الذي يناط به إجابة المرأة عن شتى تساؤلاتها ، و إراحتها من عناء ثقل الكثير من صور العقد الأسرية و ضغوطات استدعاءات التقاليد الاجتماعية ، و تمكينها من أمر تحقيق كينونتها في سياق مناخ فطري ملائم لطبيعة تكوينها و خصوصيات أدائها في البناء و المشاركة العامة ... فهذه الأسباب و المعطيات ، و هي في جانب منها تعبر عن رسوخ الحقيقة الإنسانية و الفطرية في حتمية و ضرورة تكامل أدوار رسالة الجنسين في عملية النهوض و البناء الاجتماعي ، ساقط الشيخ الغزالي ضمن سياق تحويره لبعض جزئيات منظوره للمرأة المسلمة ، إلى القول : " لقد عرف القريب و البعيد أن الإسلام نظام متكامل . و أن إنفاذ بعض تعاليمه مع غيبة البعض الآخر لا يقيم مجتمعا إسلاميا ، و أن إصدار فتاوى في الحالات العارضة مع إغفال الملابس القائمة ، قد يسيء إلى الإسلام ، أو إلى الأمة ، أو إليهما معا . و لقد عرف عني أنني لم أهش لتوظيف المرأة في كل عمل ، و لا لتسويتها بالرجل في كل ميدان . و قلت إن " وظيفة " ربة البيت هي أليق شيء لها ... و قد تحتاج وظائف فنية كثيرة إلى النساء و حدهن ، و قد تحتاج فتيات كثيرات إلى العمل قبل الزواج . ثم إن الأوضاع الاقتصادية لها أثر كبير في الطريقة التي يفهم بها كثير من الناس شئون الحياة . و لست أحب نشر فتاوي جزئية في غياب الوضع الإسلامي الكبير عن هذه الحياة الصاخبة .. بيد أنني أستمسك إلى حد التعصب و الاستماتة بنصوص الدين الحاسمة ، و أطلب توفير الجو الطبيعي الذي يمكن لهذه النصوص أن تحيا فيه ... " (١) .

من هذه الشواهد و المرئيات يتبدى لنا بأن الشيخ الغزالي أخذ ضمن ثوابت منظوره العام الفكري و الشرعي لشؤون و قضايا المرأة المسلمة ، يميل إلى ضرورة مشاركة المرأة في الحياة العامة ، و تحمل نصيبها من المسؤوليات المختلفة المتعلقة بإرادة مؤسسات المجتمع ؛ لكنني لا أستطيع أن أقرر بأن تنامي بوادر و معطيات النضج و الواقعية في منظور الشيخ الغزالي لشؤون المرأة المسلمة ، كان مجرد تركيب بين صياغة فقهية محكمة بضوابط و محددات شرعية و بين املاءات وقائع اجتماعية تحفزت

للبروز و التشكل بواسطة جملة مستجدات وظروف ، تجمعت عدة عوامل في إفرازها وإظهارها على صعيد الواقع المتحرك ، بل إنني أذهب إلى نقيض ذلك بمعنى أن هذا المنظور المستند على دعامة تجربة حية لصيقة بمعاناة المجتمع وظروفه المعيشة ، كان في أصله ومكوناته منظورا مؤسسا على مرتكزات منهجية نابعة دون تعسف من طبيعة العقل المسلم المتمثل لمقاصد الشرع وروح التكليف ، ومن ثمة فقد كان له قدرة فطرية طبيعية في جوهره على مواكبة الأحوال المتغيرة، والطوارئ العارضة ، فضلا عن صياغة المعاصرة الأصيلة المتسقة بروحها ومنطقاتها العامة مع مستجدات كل مرحلة وطبيعة كل عصر. إن ما يشفع لنا هذا التعليل الذي ذهبنا إليه أن الشيخ الغزالي في كتاباته المتأخرة و الأخيرة عن المرأة ، ظل منظوره عنها ، تسيره عزيمة المقاصد الشرعية و الثوابت المقررة في الأدلة ، أما دفاعه و انتصاره لمبدأ مشاركة المرأة المسلمة في الحياة العامة ، و تحملها المشروع لنصيبها من تكاليف و تبعات المسؤولية العامة . فإنه جزء أصيل من هذا التصور ذاته ، المستند على قاعدة محاربة الاستنتاجات المغلوطة المتوارثة ، و التطويع بالأحكام المستخلصة من مرويات واهية ، و من أفهام جانت الحق و الصواب في إدراك المقاصد الصحيحة و الغايات المقصودة في طيات بعض النصوص و الأدلة الثابتة . و كمثل على ما ذهبنا إليه يجيء رأي الشيخ الغزالي في مسألة مدى إمكانية مشروعية تولي المرأة المسلمة لبعض الوظائف ذات الطبيعة و الأداء السياسي ، كمنصب القضاء أو إدارة و تسير بعض الشؤون السياسية . حيث نجده ينوه بالقواعد الشرعية العامة التي وردت في سياق التسوية بين الرجال و النساء من المؤمنين ، من حيث وحدة الجزاء المتعلق بالأفعال . كقول الله تعالى : " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " (١) و قول صلى الله عليه و سلم : " النساء شقائق الرجال " (٢)؛ من هذا المنطلق فهو يؤيد و يتبنى قول الإمام ابن حزم الظاهري : " إن الاسلام لم يحظر على امرأة تولي منصب ما، حاشا للخلافة العظمى " (٣) ، فيقول : " و سمعت من رد كلام ابن حزم ، بأنه مخالف لقوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم ...) (٤) ، فالآية تفيد - في فهمه - أنه لا يجوز أن تكون المرأة رئيسة رجل في أي عمل ! و هذا رد مرفوض ، و الذي يقرأ بقية الآية الكريمة يدرك أن القوامة المذكورة هي للرجل في بيته ، و داخل أسرته " (٥) .

(١) سورة النحل آية : ٩٧

(٢) رواه أبو داود و أحمد

(٣) محمد الغزالي ، السنة النبوية .. (مصدر سابق) ، ص ٤٧

(٤) سورة النساء آية ٣٤

(٥) محمد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص ٤٧

كما يرد الغزالي على النافذين لكلام ابن حزم ، من منطلق فهمهم للحديث النبوي : " خاب قوم و لو أمرهم امرأة " (١) ، فقد كانت دعواهم : بأن جعل أمور المسلمين إلى النساء يعرض الأمة للخيبة ، فينبغي - لذلك - ألا تستند إليهن وظيفة كبيرة و لا صغيرة على سواء ، فيحاجج هؤلاء ، معتمدا على أدلة الواقع التاريخي - خاصة الفترة النبوية و الراشدة - و على الفهم الأمثل لمعنى الحديث المتقدم كما دلت عليه مناسباته ، لأن مناسبة ورود الحديث قاعدة فهمه (٢) ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما ولى قضاء الحسبة (٣) في سوق المدينة ، لإمرأة تدعى (الشفاء) كانت حقوقها مطلقة على أهل السوق رجالا و نساء ، تحل الحلال و تحرم الحرام و تقيم العدالة و تمنع المخالفات . أما قوله - صلى الله عليه و سلم - : (خاب قوم و لو أمرهم امرأة) - الذي يراه ابن حزم مقصورا على رئاسة الدولة - فقد قال هذا الحديث عندما كانت فارس تنهار تحت مطارق الفتح الإسلامي ، الزاحف على البغي و الطغيان . و كان الفرس وقتئذ تحكمهم ملكة مستبدة ، عاثت فسادا في المملكة ، و طوحت بالدولة و ساقنتها نحو الهزيمة و الانهيار الكامل ... فلما بلغ الأمر إلى رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال معلقا على حال الفرس و ما آل إليه وضعهم مع ملكتهم : " خاب قوم و لو أمرهم امرأة " ، و معنى ذلك أن الوثنية السياسية ، هي السبب من وراء ذلك ، و أن السياسة التي كانت منتهجة هي المقصود بالتعليق النبوي (٤) .

(١) رواه البخاري عن أبي بكر.

(٢) عرف الشيخ يحي اسماعيل أحمد ، في تحقيقه كتاب (أسباب ورود الحديث) للحافظ جلال الدين السيوطي ، علم سبب ورود الحديث بأنه : ما يكون طريقنا لتحديد المراد من الحديث من عموم أو خصوص أو إطلاق أو تقييد أو نسخ أو نحو ذلك - وذكر الإمام السيوطي من كلام الإمام البلقيني قوله : (واعلم أن السبب قد ينقل في الحديث كما في حديث سؤال جبريل عن الاسلام و الاحسان و غيرهما) .. وأضاف السيوطي في التعليق : (وقد لا ينقل السبب في الحديث ، أو ينقل في بعض طرقه ، وهو الذي ينبغي الاعتناء به) .. [جلال الدين السيوطي ، أسباب ورود الحديث ، تحقيق : يحي اسماعيل أحمد ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٦٦ / ٦٨ / ٦٨] .

(٣) اسم منصب في الدولة الإسلامية ، كان صاحبه بمنزلة مراقب للتجار و أرباب المهن و الحرف ، يمنعهم من الغش في عملهم و مصنوعاتهم و يأخذهم باستعمال المكايل و الموازين الصحيحة ، وربما سمر عليهم بضائعهم .. ثم توسعت دائرة اختصاصاته ، حتى صار المحتسب يقوم بما يقوم به في الوقت الحاضر : رئيس البلدية ، مدير الصحة ، مدير التموين ، مدير الشؤون الاجتماعية ، ورئيس الشرطة الأخلاقية .. وأصل الحسبة تحقيق القاعدة الشرعية : الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر [منير العجلاني ، عبقرية الإسلام في أصول الحكم ، طبعة دار النفائس الأولى ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢٨٨ / ٢٨٩] .

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية ، (مصدر سابق) ، ص ٤٨ - ٤٩ .

و يزيد الشيخ الغزالي رأيه إيضاحاً بخصوص فهم النص النبوي الوارد في سياق هذه المسألة فيقول - و هو يريد تأييد ابن حزم في أن الحديث المتقدم ذكره مقصور على رئاسة الدولة دون بقية الوظائف السياسية و الاجتماعية و نحوها - : " و لو أن الأمر في فارس شورى ، و كانت المرأة الحاكمة تشبه : " جولدا مانير " اليهودية التي حكمت إسرائيل ، و استبقت دفة الشؤون العسكرية في أيدي قادتها لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة (...). إن انجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة " فيكتوريا " و هي الآن بقيادة ملكة و رئيسة وزراء (*) ، و تعد في قمة الازدهار الاقتصادي و الاستقرار السياسي ، فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة ؟ و قد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية على يدي " انديرا غاندي " وكيف شطرت الكيان الإسلامي شطرين فحققت لقومها ما يصبون ! على حين عاد المارشال يحي خان يجرر أذيال الخيبة !! أما مصائب العرب التي لحقت بهم يوم قادت " جولدا مانير " قومها فحدث ولا حرج ، قد نحتاج إلى جيل آخر لمحوها ! إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة .. إنها قصة أخلاق و مواهب نفيسة ، لقد أجرت انديرا انتخابات لترى أختارها قومها للحكم أم لا ؟ و سقطت في الانتخابات التي أجرتها بنفسها ! ثم عاد قومها فاخاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه ! أما المسلمون فكانهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم و مغانمته برغم أنوف الجماهير ؛ أي الفريقين أولى برعاية الله و تأييده و الاستخلاف في أرضه ؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية : إن الله قد ينصر الدولة الكافرة - بعديها - على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم ؟ ما دخل الذكورة و الأنوثة هنا ؟ امرأة ذات دين خير من ذي لحية كفور !! " (١).

ولا شك أن حجة الشيخ الغزالي في فهمه للحديث المتقدم ذكره ، لا تستند فحسب على المناسبة التي ورد الحديث فيها ، بل إن هناك ما هو أبلغ من ذلك . و المقصود أن القرآن الكريم يستحيل أن يناقض حقائق التاريخ ، و كذا الوقائع المشهودة ، و أن الحديث النبوي بعيد عن مصادمة و مناقضة مقررات القرآن . فإن الوحي كله ينبع من مشكاة واحدة ، و محل الشاهد في ذلك " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ على الناس في مكة سورة النمل ، و قص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي قادت قومها إلى الإيمان و الفلاح بحكمتها و ذكاتها ، و يستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي ! كانت بلقيس ذات ملك عريض ، و صفه الهدهد بقوله : (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) (٢) ، و قد دعاها سليمان إلى الإسلام ، و نهاها عن الاستكبار و العناد ،

(*) الملكة المشار إليها هي : إليزابيت الثانية ، و رئيسة الوزراء المقصودة هي : مارغريت تاتشر .

(١) محمد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص ٤٩ - ٥٠ - ٥١

(٢) سورة النمل أية : ٢٣

فلما تلقت كتابه ، تروت في الرد عليه ، واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه،فانلين : (نحن أولوا قوة و أولوا بأس شديد و الأمر إليك فأنظري ماذا تأمرين) (١) ، ولم تغتر المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها ، بل قالت : نختبر سليمان هذا لنتعرف أهو جبار من طلاب السطوة و الثروة أم هو نبي صاحب إيمان و دعوة ؟ ولما التقت بسليمان بقيت على ذكائها و استتارة حكمها تدرس أحواله وما يريد وما يفعل ، فاستبان لها أنه نبي صالح .. وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين) (٢) ، ثم قررت طرح وثيبتها الأولى و الدخول في دين الله قائلة : (رب إني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (٣) .. هل خاب قوم ولوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس ؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذي دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (٤) .. ومرة أخرى أكدت أنني لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة ، فإن الكلمة من النساء قلائل ، وتكاد المصادفات هي التي تكشفهن ، وكل ما أبغي ، هو تفسير حديث ، ورد في الكتب ، و منع التناقض بين الكتاب و بعض الآثار الواردة ، أو التي تفهم على غير وجهها ! ثم منع التناقض بين الحديث و الواقع التاريخي " (٥) .

كما أن لهذه القضية بعدا آخر بعيد الأثر ، يتعلق بالدعوة إلى الاسلام ، فالشيخ الغزالي يصر و يؤكد على ضرورة التعريف بالاسلام بشكل مجرد عن الخلاف الفقهي ، فالأهم عنده هو أن يعرف الآخرون عقائد الإسلام و أركانه و مقاصده الكبرى ، و إذا ارتاح الداخلون الجدد في الدعوة إلى سلوك أو فهم أو تطبيق شرعي لقضية معينة ، وفق وجهة نظر مدرسة من مدارس الفقه الإسلامي ، أو رأي لفقهاء من فقهاء الإسلام ، فليس لنا مجال حملهم على ما نراه نحن أو نطمئن إليه ، ماداموا ملتزمين في حركتهم الشرعية بما أنتجته دوائر اجتهاد و نظر العقل المسلم من استنباطات و نظائر و أفهام .

ومن أجل هذا البعد و أهميته الأنسانية و ثقله التكليفي ، و مدى أثره في مستقبل الإسلام . يقول الشيخ الغزالي : " إننا لسنا مكلفين بنقل تقاليد عبس و ذبيان إلى أمريكا و أستراليا ، إننا مكلفون بنقل الإسلام و حسب (...) و إذا كان الفقهاء المسلمون قد اختلفت وجهات نظرهم في تقرير حكم ما ، فإنه يجب علينا أن نختار للناس أقرب الأحكام إلى تقاليدهم ... و المرأة في أوروبا تباشر زواجها بنفسها ، و لها شخصيتها التي لا تتنازل عنها ، و ليست مهمتها أن تفرض على الأوروبيين مع أركان الإسلام رأي مالك أو ابن حنبل إذا كان رأي أبي حنيفة أقرب إلى مشاربهم فإن هذا تتطعا أو صدا عن سبيل الله .

(١) سورة النمل آية : ٣٣

(٢) سورة النمل آية : ٣٠ - ٣١

(٣) سورة النمل آية : ٤٤

(٤) سورة القمر آية : ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢

(٥) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ، ص ٤٩ - ٥٠

و اذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو وزيرة أو سفيرة ، فلهم ما شاءوا ، و لدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كله ، فلم الاكراه على رأي ما ؟ " (١) ؛ إن فكر الشيخ الغزالي في شؤون المرأة وثيق الصلة بمقاصد الدعوة إلى الإسلام ، و إعطاء الصورة الحقيقية المشرقة للإسلام ومنهجه الحياتي و الاجتماعي ، وذلك يقتضي في نظره اختيار ما يناسب الناس و البيئات و الظروف من وجهات نظر الفقهاء المسلمين ، ويزداد إلحاح هذه الرؤية و ضرورة التعامل الإيجابي معها ، حين الدعوة إلى الإسلام في البيئات غير الإسلامية خارج ديار الإسلام ، فإن عرض وجهة نظر واحدة أو رأي واحد في الفقه الإسلامي على أساس أنه يمثل الرأي الأخير القاطع للإسلام ، أمر مضر بالدعوة إلى دين الله تعالى ، و تقديم الإسلام في صورة بعيدة عن حقيقته و جوهره . يقول الشيخ الغزالي : " هناك سباق قائم بين عدة أديان كي يثبت كل منها أنه أولى بالحياة و أجدر بالبقاء ، و الغريب أن بعض المنتميين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع و يرتكب حماقات تسيء إلى دينه ، بل تنفر منه و تصد عنه ! (...) فلحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام و يصورونه بعيدا عن مقررات الفطرة و أشواق الإنسانية الكاملة ؟ و لحساب من يعلو صوت الإسلام في قضاياها مشيئة و يخفت خفوتا منكرا في قضايا أساسية ؟ و لحساب من يرى بعضهم الرأي من الآراء أو يحترم تقليدا من التقاليد ثم يزعم أن الإسلام الواسع هو رأيه الضيق ، و أن تقاليد بيئته هي توجيهات الوحي و بقايا التعاليم السماوية على الأرض ؟ قلت لنفر من أولئك المتحدثين : إن وجه الإسلام جميل و لكنه من خلال كلماتكم يبدو دميما متجهما ، و إنه لمن حسن العبادة أن تسكتوا فلا يسمع لكم صوت ! إن أي كلام يفيد منه الاستبداد السياسي أو التظالم الاجتماعي أو العطن الثقافي أو التخلف الحضاري لا يمكن أن يكون دينا ، إنه مرض نفسي أو فكري ، و الإسلام صحة نفسية و عقلية ... كنت أناقش رجلا كنديا يسألني بضيق عن موقف الإسلام من المرأة ، فجاء في حوارني : المرأة حرة في اختيار زوجها و لا يمكن إكراهها على قبول من تكره ، و لها أن تباشر عقدها أو توكل فيه كما تشاء ... و كان هناك من يرقبنا و هو ساخط ، و حمدت الله أنه لاذ بالصمت ! فلما انتهى الحوار اقترب مني المعارض المؤدب قائلا : لا يجوز أن تباشر المرأة عقدها بل الدين ضد هذا ! قلت له : رأيك ضد هذا ، قلدت فيه بعض المذاهب الفقهية ، و رجحت أنا وجهة النظر الأخرى و اعتقدت أنها أقرب إلى عقول الأوروبيين و الأمريكيين ، و العمل عليها يجري في أقطار إسلامية محترمة ، و من مصلحة الإسلام أن تتسع دائرة هذه الأقطار ... (٢) " ؛ و ضمن هذه الدائرة ذاتها ، و حتى يبعد الشيخ الغزالي سوء الظن بالإسلام من خلال تطبيقات خاطئة لأحكامه ، و أفهام سقيمة لمقرراته ، نراه يكتب تحت عنوان (حسنوا صورة المرأة) هذه الكلمات : " إن هناك تقاليد وضعها

(١) المصدر نفسه ، ص ٥١ - ٥٢

(٢) محمد الغزالي ، قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة و الوافدة (الجزائر : دار الانتفاضة للنشر ، ١٩٩٢ م) ، ص ٢٨ - ٢٩

الناس و لم يضعها رب الناس دحرجت الوضع الثقافي و الاجتماعي للمرأة ، و استبقت في معاملتها ظلمات الجاهلية الأولى ، و أبت أعمال التعاليم الإسلامية الجديدة فكانت النتائج أن هبط مستوى التربية و مال ميزان الأمة كلها مع التجهيل المتعمد للمرأة و الانتقاص الشديد لحقوقها ... قال لي أحد المستمعين غاضبا: أيسرك أن تكون " بنازير بوتو " رئيسة وزراء ؟ فقلت ضاحكا : سألني مسلم انكليزي : هل يحاربون " مسز تاتشر " لأنها امرأة تولت الحكم ؟ فقلت له : بماذا تجيب هذه المرأة إذا قالت لك - و هي واسعة الثقافة - إنني توليت الحكم على مذهب أهل الظاهر في الفقه الإسلامي ! ثم استتليت : لا تجعلوا بعض الأحكام الفرعية المختلف فيها حجر عثرة أمام عقائد الإسلام و أركانه الكبرى .. " (١) .

إن موقف الشيخ الغزالي هذا في نظري بعيد كل البعد عن مبدأ الاستجابة لعوامل الضغط النابعة من تحديات الحضارة الغربية ، بل هو منهج فكري و فقهى يجعل النص القرآني حاكما و ضابطا للأثار الواردة في السنة النبوية - خاصة تلك المجردة عن ملابسات و أسباب ورودها - أو الأفهام و التطبيقات السائدة في بعض البيئات الإسلامية ، و ذلك قصد استيعاب عامل المتغيرات في حركة الحياة الإنسانية ، وإظهار قاعدة المرونة في التشريع الإسلامي ، و الإفادة الواعية منها في الظروف و الأحوال المتميزة باعتبارها سنة من سنن الله في الاجتماع البشري و السيرورة الإنسانية . و في توضيح بعض معالم هذا المنهج نراه يقول : " و اليوم توجد طفولة إسلامية تريد الانفراد بزمام الأمة ، و عندما يسمع أولوا الألباب حديثها يطرقون محزونين !! و المخيف أنها طفولة عقلية تجمع في غمارها أرباب لحي ، و أصحاب هامات و قامات !! يقعون على أحاديث لا يفهمونها ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانتقاض و الخوف ! إن نبينا - عليه الصلاة و السلام - تكلم كثيرا و كلامه موضع الإعزاز و الطاعة (و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) (٢) وكان يمكن أن تعرف مرامي الكلام وحقائقه لو ضبطت الملابس التي قيل فيها... و أيا ما كان الأمر فإن إطار القرآن الكريم ضابط دقيق إذا عزت معرفة الملابس (٣) وعلى الرغم من أن هذا المنهج لا يعد مستحدثا تماما في الفكر الإسلامي إلا أن بعض العلماء ، خاصة المشتغلين منهم بالحديث و علوم السنة ، ضاق نرعا بآراء الشيخ الغزالي في قضايا المرأة و دعوته لاشراكها في الحياة العامة .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦

(٢) سورة النساء آية ٦٤

(٣) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ١٠٨ - ١٠٩

فهذا أحد هؤلاء يقول دون تحفظ أو تحقيق علمي : " و لقد غالى الغزالي في موضوع المرأة ، و شغل نفسه و المسلمين بكتابات كثيرة حولها يطالب بها بحقوق لا تريدها و لا تحلم بها ، و يرغب أن الإسلام يمنحها كل ما يتخيله الغزالي لها . و كل مسلم فهم الإسلام يعرف تكريم الإسلام للمرأة ، أما كانت أو بنتا أو زوجة أو أختا ، و أنه قرر لكل واحدة منهن من الحقوق و البر و الرحمة ، ما يقنع المرأة المسلمة و يرضيها ، و ما لم تتطلع إلى أكثر منه ، و ذلك عين العدل و الحكمة " (١) ، و الواقع الذي بدا لنا أن الشيخ ربيع المدخلي بهذه الأقوال المتعجلة غير النابعة عن التحقيق العلمي المتزن الذي يجعل النص القرآني حاكما لغيره من الآثار الواردة ، قد جانف الصواب ، و انتصر فحسب للتقليد الذي درج على منهجه في التلقي ، و من ثمة فقد أساء للشيخ الغزالي الذي يذوب حبا في صاحب الرسالة العظمى ، و تتهاطل دموعه و لا يستطيع لها ردا ، إذا استرسل في الحديث عن شمائله و مواقفه و جهاده في الله . فكيف يستساغ أن يتهم الشيخ الغزالي بمعاداة السنة النبوية ؟ و كيف و على أي أساس يسمح هؤلاء لأنفسهم و أقلامهم بعد الشيخ الغزالي ممن تأثروا بفكر المعتزلة و الجهمية بل و يا للعجب بالمستشرقين الذين قضى عمره يدفع حقدهم و مقترباتهم على الإسلام و نبيه و رسالته ؟ لم لم يناقش المنهج الذي ارتضاه الشيخ الغزالي و قدر بأنه الأكثر نفعاً للإسلام و الدعوة في هذا العصر ؟ و لماذا لم يعقد ملتقى لدراسة هذه القضية في إطار أخلاقيات الحوار و الجدل العلمي بعيدا عن كل المزایدات و الخلفيات المريبة ؟ أليس ذلك أجدى على الفكر الإسلامي من قول الشيخ المدخلي : «... و مع كل هذا لم تسلم هذه السنة المطهرة من خصوم في كل زمان و مكان من الداخل و الخارج ، و في هذا العصر اشتدت وطأة المستشرقين على السنة النبوية ، و ساندتهم قوم ممن يلبسون ثياب الإسلام و يحملون قلوب الذئاب على الإسلام و السنة المطهرة . و يؤسفنا أن الشيخ الغزالي قد حشر نفسه - في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها السنة و أهلها - في خصوم السنة ، بل صار حامل لواء الحرب عليها ، و أصبحت كتبه و أقواله تمثل مدرسة ينهل منها كل حاقد على الإسلام و السنة النبوية المطهرة ... و لقد ضمن مؤلفاته الأخيرة حملات شعواء و قذائف خطيرة على كثير من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه و سلم - الصحيحة ، و حملات شديدة على من يريد التمسك بها (...) لا أدري هل يدرك الغزالي نتائج هذه التصرفات أولا ؟ و كذلك هل يدرك مؤيدوه و مروجوا أفكاره هذه النتائج ؟ و لعل سائلا يسأل عن السبب الذي دفع الغزالي إلى هذه المواقف من السنة و من أهلها ؟ فأعتقد أن مرد ذلك إلى قصور إدراكه لمعانيها فيخيل له هذا القصور في كثير من الأحاديث أنها تعارض القرآن أو تصادم العقل . و قد يكون هذا العقل جهميا أو معتزليا أو مستشرفا أوروبيا » (٢) .

(١) ربيع بن هادي المدخلي ، كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها ، الدار السلفية للنشر و التوزيع (الطبعة الجزائرية الأولى)

١٩٩٠ م ، ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦ - ٧

و مما ترجح عندي أثناء نقصي جوانب هذه القضية ، أن الحملة التي انخرط في سلكها فريق من العلماء ضد الشيخ الغزالي ، لا تعود فحسب إلى موقفه المتميز من المرأة ، و لا إلى طريقة شرحه لحديث « خاب قوم ولوا أمرهم امرأة » ... إنما أساسها منهجه الفكري و خصائص هذا المنهج بشتى تداعياته النظرية و التطبيقية ، و دليلنا على ذلك أن الشيخ الغزالي لم ينفرد في الكثير مما قاله برأي خاص ، مناف للإطار العام الممثل لإجماع الأمة أو فضاءات اجتهاداتها الشرعية ... و نكتفي هنا بما ورد من كلام الشيخ مصطفى السباعي في معرض حديثه عن بعض الحقوق المقررة للمرأة في الإسلام ، حيث قال : " يحتم الإسلام أن تكون رئاسة الدولة العليا للرجل، وفي ذلك يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " و هذا النص يقتصر المراد من الولاية فيه على الولاية العامة العليا ، لأنه ورد حين أبلغ الرسول عليه الصلاة و السلام أن الفرس ولوا الرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته ، و لأن الولاية بإطلاقها ليست ممنوعة على المرأة بالإجماع ، بدليل اتفاق الفقهاء قاطبة على جواز أن تكون المرأة وصية على الصغار و ناقصي الأهلية ، و أن تكون وكيلة لأية جماعة من الناس في تصريف أموالهم و إدارة مزارعهم و أن تكون شاهدة ، و الشهادة ولاية كما نص الفقهاء على ذلك ، و لأن أبا حنيفة يجيز أن تتولى القضاء في بعض الحالات و القضاء ولاية . فنص الحديث كما نفهمه صريح في منع المرأة من رئاسة الدولة العليا ، و يلحق بها ما كان بمعناها في خطورة المسؤولية ، أما توليها غير ذلك من الوظائف فالأمر مختلف » (١) ؛ و نحن نلاحظ في هذا النموذج من الأمثلة المقررة و الواردة في هذه المسألة أن الشيخ الغزالي لم يكن بدعا فيما ذهب إليه ، و لم يكن شاذا أو مناقضا لكل اجتهادات و آراء الفقهاء المسلمين ومذاهب الفقه الإسلامي، لكنه كان مرجحا للأراء التي يقدر أنها الأنسب و الأقرب إلى منطق العصر وخصوصيات الحياة المعاصرة خاصة بالنسبة لبعض البيئات خارج دار الإسلام، وإذا كان الفقه الإسلامي بمرونة قوانينه وقواعده يستوعب صفة التمايز والتنوع الطبيعي لميولات البشر وطرائق تفكيرهم وكيفيات تعاملهم مع الحياة والوقائع، فإن الأجدى لنا والأهم بالنسبة لمستقبل الإسلام، إنما هو نشر أركان الإسلام وتقريب تعاليمه العامة ومقاصد شريعته من كل الأفهام و العقول و المدارك. وإذا ترجح لدينا أن رأيا فقهيا لفقهاء مسلم، أو اجتهادا معيناً لمدرسة من مدارس الفقه الإسلامي ،

(١) مصطفى السباعي ، المرأة بين الفقه و القانون ، منشورات المكتب الإسلامي ، بيروت ، د.ت ، ط ٥ ، ص ٣٩ - ٤٠ / ... و في تعقيبه على هذه القضية و بعد أن ذكر خلاف الفقهاء فيها قال الشيخ يوسف القرضاوي : " فالحنفية يجيزون للمرأة أن تتولى القضاء في الشؤون المدنية و الشخصية و غيرها ، ماعدا الأمور الجنائية التي لا تقبل عندهم شهادتها فيها ، و الطبري و ابن حزم و الظاهرية يجيزون لها تولي القضاء بصفة عامة ، بل ابن حزم يجيز لها تولي جميع الوظائف فيما عدا منصب الخليفة أو الإمام الأعظم .. وأود أن أقول هنا : إن منصب الخلافة أو الإمامة العظمى أكبر من مجرد رئاسة دولة إقليمية ، فهذا في نظر السياسة الشرعية يعتبر ولنا على إقليم ، و أين هذا من الخليفة أو الإمام العام لأمة الإسلام " [يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، المنصورة ، مصر ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٥ - ١٦٦]

(٢) سورة النساء آية ٦٤

هو الأنسب للملابسات معينة ، أو لبيئة من البيئات ، فينبغي علينا الأخذ به ، و ليس لغيرنا من مرجحي وجهات النظر الأخرى الاعتراض على ذلك ، بحجة ترجيح رأي مغاير أو غلبة الظن العقلي ، أو بحجة الالتزام بالتقليد المذهبي . ثم إن هذا المسلك بحد ذاته - تقدير الملابس و المتغيرات و اختلاف الدوافع و الوقائع - هو من صميم و روح الفقه الإسلامي و تشوفات مقاصد الشريعة و مستلزمات التكليف .

هذه هي خلفية الرؤية التي تحكمت في منظور الشيخ الغزالي الاجتهادي بخصوص عمل المرأة المسلمة ، و قد عرضنا نموذجاً لفكره متمثلاً في رؤيته الفقهية و الفكرية لمشاركة المرأة في المناصب السياسية كالقضاء و نحوه من المجالات ذات الأداء السياسي و الاجتماعي . و لعل الملاحظة التي يجب إثباتها في هذا السياق ، أن فكر الشيخ الغزالي إزاء عمل المرأة ، عرض له في مسيرته تطور ملحوظ كان باعثه الأول وسطية منهجه و حسن استيعابه لحقائق التاريخ الإسلامي و إعجابه الكامل بمجتمع الجيل الفريد من المسلمين الأولين . و على ضوء هذه المعالم آمن بوجود مشكلة تاريخية للمرأة المسلمة تمتد إلى عدة قرون خالية ، و من تجليات هذه المشكلة اضطراب نظام الأسرة و سوء الأوضاع العامة للمرأة و تخليها القهري عن أداء دورها و رسالتها في المجتمع .. إلخ ، و من ثمة فقد دعا الشيخ الغزالي إلى ضرورة رد الاعتبار لمكانة المرأة في المجتمع الإسلامي و تفهم حدود و آفاق رسالتها و دورها في البناء و التأسيس الأخلاقي و الثقافي و السياسي للإنسان النموذج الذي هو مرتكز الحضارة و أساس الإعمار و الإصلاح في الأرض و الاستخلاف عن الله . إلا أنه و رغم تجاوز الشيخ الغزالي للكثير من المقولات التقليدية و عدم اكرائه للأعراف التي تحول دون بسط الحقوق الشرعية للمرأة ، فإنه ظل مركزاً على جملة محددات و ضوابط يراها طبيعية ، و من ثمة فقد ظل رافضاً لتكليف المرأة بالأعمال المرهقة التي لا تتسق و خصوصيات الأنوثة لديها . و لم يجعل التنازل أو مجرد التساهل في هذه المحددات و الضوابط من قسّمات منهجه الوسطي الداعي لفتح ساحات المشاركة في الحياة العامة أمام قدرات و نشاطات المرأة المسلمة . و حتى في كتاباته المتأخرة بقي يردد إلى جانب قوله : « المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي و لا سياسي ، لا دخل لها في برامج التربية و لا نظم المجتمع ، لا مكان لها في صحون المساجد و لا ميادين الجهاد » (١) مثل هذه المقولات و الصيغ الاحتجاجية : « رأيت في عاصمة عربية (شرطية) تنظم المرور فقلت : هذا عمل شاق ، ما كان ينبغي أن تدفع النساء إليه لقد تشتغل المرأة شرطية لتفتيش النساء مثلاً ، و ما يشبه هذه الأعمال الخاصة ، أما الوقوف في الحر و البرد ، و دوران البصر وراء قوافل السيارات و المشاة . فلا ، و عندي أن الرجل أقدر على العمل في الطائرات من المرأة ، و أن وظيفة (مضيفة) ينبغي أن تختفي ، لا سيما في الرحلات البعيدة التي تفرض المبيت في الفنادق .

(١) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ٣٣

و البعد أياما عن الأهل (...). إنني أرفض هذه المساواة في الأعمال ، و عندما كنت شابا رأيت في قرينتنا رجلا و زوجته يديران (الطمبور) برويان أرضهما! قلت : هذا عمل شاق ، و قد جربته فأتعبنى ! لأن المرء يكلف في كل دورة برفع عدة (جالونات) إلى أعلى.... يمكن للمرأة الفلاحة أن تَبذر الأرض مثلا ، أما الأمومة و الأئوثة فلا ينبغي تعريضها للمشاق المعنّية» (١) ، و نجد أيضا بأن هذه المسحة الإنسانية الناعمة تعتبر من ثوابت فلسفة الشيخ الغزالي و من أبرز ملامح منظوره الفكري لقضايا و شؤون المرأة ، من أجل ذلك فهو يتبنى و يدعم هذه القيم بغض النظر عن مصدرها يتضح ذلك مثلا في قوله : « من أجل ذلك وافقت و أنا مستريح الضمير على ما نشرته منظمة الصحة العالمية ، شرق البحر المتوسط ، في تقريرها الأخير ، قال : و في جميع الأحوال لا يليق بالمرأة أن تعمل في المجالات التي لا تلائم طبيعتها ، و أن تدخل في أي ضرب من ضروب الصناعة و الحرف المصنّية ، فالمجالات التي تحسنها المرأة و تتناسب معها كثيرة و متعددة ، كميدان التعليم و الطب و التمريض و الرعاية الاجتماعية و الكتابة و النشر ، و بعض الوظائف غير المرهقة ، و تستطيع فوق كل ذلك أن تغشى الأسواق في حشمة و وقار فتبيع و تبتاع . أما أن تعمل المرأة كل أعمال الرجال ، كأن تكون شرطية و ميكانيكية و عاملة في المصانع ، و منظفة في الشوارع ، و سائقة للعربات و أدوات النقل و ما شابه ذلك ، فلا يليق بها و لا يجوز لها أن تزاوله ، و قلما تساوي الرجال في هذا المجال ...» (٢) ، كما نراه لا يحيد عن اتجاه المنظور ذاته و هو يرد على تساؤلات القراء و المهتمين بالشأن الإسلامي ، بل إنه يدعو صراحة من أجل ذلك إلى تكليف المرأة بنصف وقت العمل ، فإن الأئوثة لها تقديراتها الخاصة ، و حتى يتاح لها أيضا الموازنة بين المشاركة في ساحات الحياة العامة و بين وظيفتها و دورها داخل نطاق الأسرة ، كما في قوله : " كثيرا ما تساءلت : لماذا تكون للمدير سكرتيرة خاصة ؟ لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة في الطائرات و حدهن ؟ و يقضين في الجو و في الفنادق ليلهن و نهارهن ؟ إن النساء يحشرن في أعمال كثيرة لا معنى لها ، و عندما نقرر أحكام الإسلام و توجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع على الفور ، و سيكون عملها في أي موقع مضبوطا بأداب الشرع و حدوده ذلك و من الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة و صاحبة منصب منتجة إن ذلك قد يقع على ندرة ، و أقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شؤون بيتها و أولادها . إن تعاون المسلمين و المسلمات لإقامة مدنية مشرفة طاهرة ، أمر ميسور . إنني غيور على الأعراض كأشد المتزمّنين ، و لكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان ، فالبون بعيد بين تكوين عقلية و ضمير بالعلم و التقوى ، و بين حبس الأجساد في قفص من حديد " (٣) ؛ و إلى جانب تمسكه الواضح بالمحددات و الضوابط الفقهية

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٨ - ٣٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩

(٣) محمد الغزالي ، مائة سؤال عن الإسلام ، ج ٢ ، (القاهرة : دار ثابت للنشر ، ط ١ ، ١٩٨٤ م) ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

والأخلاقية ، و رسم الأطر و المعالم التي ينبغي مراعاتها و التشديد عليها في التعامل مع المرأة ، فإن الملاحظة الأخرى الجديرة بالتسجيل أن منهج الشيخ الغزالي وفكره في شؤون المرأة يقوم على انتقاء الجوانب الحضارية المشرقة من الفقه الإسلامي ، أي تخيير الآراء الملائمة و المتماهية مع المعاصرة ، و تقديم ما يناسب كل بيئة و ظرف على غيره من الاجتهادات ، و لاشك أن ذلك يعود بشكل خاص إلى كون الشيخ الغزالي قد دخل إلى مدارس الفقه الإسلامي و تعامل معها من باب الدعوة ؛ و لاشك أن ما يهم الداعية النابه إنما هو كيفية النهوض و الارتقاء بالمستويات العامة للناس و ليس حملهم على ما لا يطبقون أو يستطيعون ؛ ثم غلبة روح المقاصد و الغايات الشرعية في فكر الشيخ الغزالي على التقليد المذهبي أو التمسك الجامد باجتهادات و تطبيقات الفقهاء .

ثانياً : المرأة المسلمة و قضية الحجاب :

يتحدث الإسلام عن مسألة اللباس بأسلوب جمالي غير معهود في الأديان السابقة ، فهو يقرر ضرورته للإنسان لتمييزه عن بقية المخلوقات ، و لا يتجاهل البعد الجمالي فيه ؛ فالملابس كسوة تتطلبها صحة الإنسان ، و هي غطاء يوارى ما لا يمكن أن ينظر إليه الآخرون ، و هي بعد ذلك زينة و جمال تتجاوب معهما النفس و الفطرة السليمة ... و في ذلك يقول الله تعالى : " يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباساً يوارى سوءاتكم و ريشاً و لباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون " (١) ، و الريش هو ما يضيف على صاحبه مسحة من الجمال و الوقار و التكريم (٢) ؛ و بالنسبة للمرأة المسلمة فقد شرع لها الإسلام الحجاب . و في ذلك يقول الله تعالى : " و قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن و لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها و ليضربن بخمرهن على جيوبهن .. " (٣) ؛ وبما أن هذه الآية الكريمة من سورة النور ، جاءت مجملة فقد تباينت آراء الفقهاء و المفسرين في تأويل قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) .. وقد ذهب بعضهم إلى كون النقاب مما تشمله الآية بدليل أن الحجاب الذي تقرر آية النور ، كلمة تعني الشمولية ، لأن أصله من الستر الذي يحجب من رؤية ما تحته ، يقول الشيخ الغزالي : " قرأت كتباً في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه : إن الإسلام حرم الزنا ، وإن كشف الوجه ذريعة إليه ، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان ! " (٤) ؛ أما فهم الشيخ الغزالي لهذا النص فإنه يستبعد على وجه اليقين إمكانية تضمن معنى النقاب في سياق آية النور السابقة ، بل إنه يرى بأن النقاب لم يرد بشأنه دليل لا من الكتاب ولا من السنة ، ولا من التجربة التاريخية الواقعية للفترة النبوية و الخلافة الراشدة ، ونراه وهو يرد على صاحب المقولة أنفة الذكر يؤكد على كون الإسلام قد " أوجب كشف الوجه في الحج ، وألفه في الصلوات كلها ، أفكان بهذا الكشف في ركنين من أركانه

(١) سورة الأعراف آية : ٢٦

(٢) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٩٢

(٣) سورة النور آية : ٣١

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٣٦ - ويلاحظ هنا أن الشيخ لم يذكر اسم صاحب هذا القول .

يثير الغرائز ويمهد للجريمة؟ ما أضل هذا الاستدلال! وقد رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الوجوه سافرة في المواسم و المساجد و الأسواق ، فما روي عنه قط أنه أمر بتغطيتها ، فهل أنتم أغير على الدين و الشرف من الله و رسوله؟ " (١) ، وربما يبدو الشيخ الغزالي هنا منتصرا لنصوص الوحي و معارضا للتأويلات التي قد لا تتحملها ، أكثر منه مجتهدا أو مرجحا لأدلة على أدلة أخرى ، ومحل الشاهد في ذلك ، أن كشف الوجه لو كان مخالفا للحكم المقرر في آية النور السابقة ، لبين النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك أو لنزل الوحي بحسم الأمر ، ومن قواعد التشريع الإسلامي ومقرراته استحالة تأخير البيان عن مقتضى الحال ، وهو ألزم في الأحكام المتعلقة بالأسرة و الشؤون الحساسة في المجتمع الإسلامي .

ومن أجل هذه القناعة نرى الشيخ الغزالي يسوق أحد عشر دليلا يثبت بها عدم مشروعية النقاب في التشريع الإسلامي ، وهو ما يعكس حدود تأمله في الموضوع ، ومدى وثاقه صلته بالقرآن الكريم ، وشدة تنوع قراءاته في السير و التاريخ الإسلامي ومصادر السنة و الفقه .. وهذه الأدلة هي (٢) :

١- إذا كانت الوجوه مغطاة فمَ يغض المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء في الآية الشريفة : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون " (٣) أيغضونها عن القفا و الظهر؟ الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهة ، وربما رأى الرجل ما يستحسنه من المرأة ، فعليه ألا يعاود النظر عندئذ ، كما جاء في الحديث :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلي رضي الله عنه : " يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى و ليست لك الآخرة " (٤) .

٢- وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم - من تستثار رغبته عند النظر المفاجئ ، وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغني بما عنده ، كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم - " إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله - أي ليذهب إلى زوجته - فإن ذلك يرد ما في نفسه " (٥) ، فإن لم تكن له زوجة فليع قوله تعالى : " و ليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله .. " (٦) ؛ وقد حكى القاضي عياض عن علماء عصره - كما روى الشوكاني - أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها و هي تسير في الطريق ، وعلى الرجال غض البصر كما أمرهم الله تعالى .

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١

(٣) سورة النور آية ٣٠

(٤) رواه الترمذي و أحمد و أبو داود عن بريدة

(٥) رواه مسلم

(٦) سورة النور آية : ٣٣

٣- في أحد الأعياد خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - النساء - ومصلى العيد يجمع الرجال و النساء بأمر من رسول الله - فقال لهن : " تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم ، فقالت امرأة سفعاء الخدين جالسة في وسط النساء : لم نحن كما وصفت ؟ قال : لأنكن تكثرن الشكاة و تكفرن العشير " (١) - يعني عليه الصلاة و السلام أن نساء كثيرات يجحدن حق الزوج ، وينكرن ما يبذل في البيت ، ولا تسمع منهن إلا الشكوى ! - قال الراوي : فجعلن يتصدقن من حلين ، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن و خواتمهن .. و السؤال : من أين عرف الراوي أن المرأة سفعاء الخدين ؟ - و الخد الأسفع هو الجامع بين الحمرة و السمرة - ماذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه .. وفي رواية أخرى : كنت أرى النساء و أيديهن تلقى الحلبي في ثوب بلال .. إذن فلا الوجه عورة ولا اليد عورة .

٤- قال بعض الناس : إن الأمر بكشف الوجه في الحج (٢) ، أو في الصلاة يفيد أن الوجه يجب ستره فيما وراء ذلك ، وأن على المرأة ارتداء النقاب و الققازين ! ونقول : هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رؤوسهم في الإحرام كان ذلك يفيد أن الرؤوس تغطى وجوبا في غير الإحرام ؟ من قال ذلك ؟ من شاء غطى رأسه و من شاء كشفه .

٥- عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: يا رسول الله ، جئت لأهب لك نفسي ، فنظر إليها رسول الله ، فصعد النظر إليها و صوبه ثم طأطأ رأسه - لم يجبا بشيء - فلما رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست .. " (٣) ، وفي رواية أخرى أن أحد الصحابة خطبها ، ولم يكن معه مهر ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : " التمس و لو خاتما من حديد " (٤) و انتهت القصة بزواجه منها ... و السؤال : فيم صعد النظر و صوبه إن كانت منقبة ؟ !

٦- عن ابن عباس : كان الفضل رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءت امرأة من خثعم - تسأله - فجعل الفضل ينظر إليها و تنظر إليه و جعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر .. فقالت : يا رسول الله . إن فريضة الله على عباده الحج ، و قد أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم (٥) ... و كان ذلك في حجة الوداع - أي لم يأت بعده حديث ناسخ-

٧- و حدثت عائشة قالت : كان نساء مؤمنات يشهدن مع النبي - صلى الله عليه وسلم - صلاة الفجر ، متلحفات بمروطهن - أي مستورات الأجساد بما يشبه الملاءة - ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة ، لا يعرفن من الغلس (٦) - تعني أنه لولا غبش الفجر لعرفن لا نكشاف وجوههن -

(١) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري

(٢) اتفق الفقهاء على أن إحرام المرأة هو إظهار وجهها [وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي و أدلته ، ج٣، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص١٣٠]

(٣) متفق عليه ، و اللفظ لمسلم

(٤) أخرجه الحاكم من حديث سهل بن سعد الساعدي

(٥) أخرجه البخاري و مسلم من حديث ابن عباس ، وهو عن علي في رواية الترمذي

(٦) رواه مسلم

٨- إن قول الله تعالى : " و ليضربن بخرهن على جيوبهن " (١) يحتاج إلى تأمل ، إذ لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال : " ليضربن بخرهن على وجوههن " ما دامت تغطية الوجه هي شعار المجتمع الإسلامي ، و ما دامت للنقات هذه المنزلة الهائلة التي تنسب إليه .. وعند التطبيق العملي لهذا الفهم اضطرت النساء لاصطناع البرقع او حجب أخرى على النصف الأدنى من الوجه كي يستطعن السير ، فإن إسدال الخمار من فوق يعشى العيون ، ويعسر الرؤية .. ومن ثم فنحن نرى الآية لا نص فيها على تغطية الوجوه ! ولا شك أن بعض النساء في الجاهلية ، وعلى عهد الإسلام كن يغطين أحيانا وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء ، وهذا العمل كان من العادات لامن العبادات ، فلا عبادة إلا بنص .

٩- ويدل على ما ذكرنا : أن امرأة جاءت إلى النبي - صلى الله عليه و سلم - يقال لها (أم خلاد) وهي متقببة تسأل عن ابنها الذي قتل في إحدى الغزوات ، فقال لها بعض أصحاب النبي : جئت تسألين عن ابنك و أنت متقببة ؟ فقالت المرأة الصالحة : إن أرزأ ابني فلن أرزأ حياتي !! واستغرب الأصحاب لتتقب المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة .

١٠- قد يقال : إن ما روي عن عائشة يؤكد أن النقاب تقليد إسلامي ، فقد قالت : " كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات ، فإذا جازوا بنا ، سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جازونا كشفناه " (٢) .. ونجيب بأن هذا الحديث ضعيف من ناحية السند ، شاذ من ناحية المتن ، فلا احتجاج به .. و الغريب أن هذا الحديث المرود يروج له دعاة النقاب مع أنهم يردون حديثا خيرا منه حالا ، و هو حديث عائشة : أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي - صلى الله عليه و سلم - و عليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا و هذا " وأشار إلى وجهه و كفيه (٣) ... و نحن نعرف أن الحديث مرسل ، و لكن الحديث قوته روايات أخرى ، و هو أقوى من الحديث الذي سبقه .

١١- و أدل على ذلك السفور المباح : ما رواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث ، تزلت من زوجها و كانت حاملا ، فما لبثت أياما حتى وضعت ، فأصلحت نفسها ، و تجملت للخطاب ! فدخل عليها أبو السنابل - أحد الصحابة - و قال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك تريدين الزواج . إنك و الله ما تتزوجين ، إلا بعد أربعة أشهر و عشرة أيام ... قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله - صلى الله عليه و سلم - و سألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي . وأمرني بالتزوج إن بدا لي ... كانت المرأة مكحولة العينين ، مخضوية الكف ، و أبو السنابل ليس من محارمها الذين يطلعون بحكم القرابة على زينتها ، و الملابس كلها تشير إلى بيئة يشيع فيها السفور (سفور الوجه و اليدين) ... و قد وقع ذلك بعد حجة الوداع . فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع .

(١) سورة النور آية : ٣١

(٢) رواه أبو داود و الأثرم عن عائشة

(٣) رواه أبو داود عن عائشة

إن انتصار الشيخ الغزالي لأدلة الوحي المعصوم - كما يتبدى لنا - لا يستند فحسب إلى قدراته العقلية و وثاقه علاقته بالقرآن و السنة ، لكنه فضلا عن ذلك يتشوف بخلفية منظوره الفكري إلى مصلحة الدعوة و الوقوف في طريق المجهودات التي تسيء إلى صورة الإسلام أمام العالم و شعوب المعمورة ، و كذا احترام تراث المسلمين الفقهي و توكير رموزه و رجاله العظماء ، إلى جانب المحافظة على الإجماع باعتباره صورة من صور الوحدة الثقافية بين المسلمين . و إن كانت أبعاد خدمة الدعوة و تحسين ملامح الكيان الإسلامي على المستوى الدولي و الإنساني ، هي العناصر الغالبة في هموم و مساعي الشيخ الغزالي العلمية و الفكرية .. كذلك نراه بعد حشده لأدلة عدم مشروعية النقاب و أنه غير متضمن لا باللفظ ولا بالمعنى في آية الحجاب يقول : " ويعلم الله أنني - مع اعتدادي برأيي - أكره الخلاف و الشذوذ ، وأحب السير مع الجماعة ، و أنزل عن وجهة نظري التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة .. فهل ما قلته رأي انفردت به ؟ كلا ، كلا ، إنه رأي الفقهاء الأربعة الكبار ، ورأي أئمة التفسير البارزين .. إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأيا مرجوحا ، ويتصرفون في قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحي و الثقافي و الاجتماعي لأمة أكلها الجهل و الاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبي و العلمي " (١) ، وكفي يؤكد على ما ذهب إليه من كون وجهة نظره لا تمثل رأيا انفرد به في الموضوع وإنما هي متنسقة مع آراء كبار الفقهاء المسلمين ، فقد أورد في معرض تعليقه لماذا ذهب إليه آراء ونظرات بعض علماء مذاهب الفقه الإسلامي و تفسير القرآن ، يقول : " قال أبو بكر الجصاص - وهو حنفي - في تفسير قوله تعالى : " وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها .. " (٢) قال أصحابنا : المراد الوجه و الكفان ، لأن الكحل زينة الوجه ، و الخضاب و الخاتم زينة الكف ، فإذا أبيح النظر إلى زينة الوجه و الكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه و الكفين . ويقول القرطبي - وهو مالكي - : لما كان الغالب من الوجه و الكفين ظهورهما عادة و عبادة ، وذلك في الصلاة و الحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما ويقول الخازن - وهو شافعي - مفسرا الاستثناء في الآية : قال سعيد بن جبير والضحاك و الأوزاعي : الوجه و الكفان . ويقول ابن كثير - وهو سلفي - : ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير (إلا ما ظهر منها) بالوجه و الكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، وقال ابن قدامة في المغني - وهو مرجع حنبلي - : المرأة كلها عورة إلا الوجه ، و في الكفين روايتان ، ويقول ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير : أولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال - في الاستثناء المذكور عن زينة المرأة المباحة - عنى بذلك الوجه و الكفين ، ويدخل الكحل و الخاتم و السوار و الخضاب ..

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص : ٤١

(٢) سورة النور آية : ٣١

وإنما قلنا ذلك أقوى الأقوال ، لأن الإجماع على أن كل مصل يستتر عورته في الصلاة وأن للمرأة أن تكشف وجهها و كفيها في الصلاة ، و أن تستر ماعدا ذلك من بدنها ، و ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره ... " (١) .

إن الذي بدا لنا أن الشيخ الغزالي حريص و مقدر لما أجمعت عليه الأمة الاسلامية ، و أنه يدعم وجهات نظره - خاصة في المسائل ذات التحرير الفقهي - بأراء الفقهاء من أصحاب المذاهب و غيرهم من المجتهدين ، لكن ليس معنى ذلك كما يفهم من الخطوط العريضة من منظور الشيخ الغزالي الفكري و التنظيري أنه مجرد نقل للإستنباطات و الأنظار و الاستئناس بها ، و إنما المسألة في جملتها مستغرقة ضمن رؤية واعية متكاملة لها أبعادها الشرعية و الإنسانية و الحضارية و نحوها ، و يسلك في هذا المنحى أيضا انتصار الشيخ لدلالات النصوص و الرد على الذين حملوها فوق ما تطبق أو أكثر مما تتحمل ، فكل ذلك التصرف مشدود في فكر الشيخ الغزالي إلى تلك القاعدة المشار إليها ، بل و متساقق كذلك مع مقاصدها و غاياتها العامة . و في حدود هذا التحليل يمكن لنا استيعاب أبعاد فهم الشيخ الغزالي لأية الحجاب ، و هو يناقض - في نظري - قول الشيخ المدخلي : "... و ليعلم القاريء أنه ليس لدى الغزالي من العلم و الدقة و الاحاطة بالأدلة ما يساعده على مقارعة الحجة بالحجة ، كما أنه ليس لديه الاستعداد الكامل للبحث و التقدير ، فيلجأ إلى الهجوم العنيف المصحوب في كثير من الأحيان بالسخرية و التحقير (١) "... (٢) ؛ و لا أريد أن أعلق على هذا القول البعيد عن أدب العلماء و أخلاقيات العلم في الإسلام. و إنما أؤكد بأن الشيخ الغزالي في فهمه للإستثناء الوارد في سورة النور متساقق و فهم الجمهور ، و أن القائلين بفرضية النقاب هم الشاذون عن فهم جمهور فقهاء و علماء الأمة ، وليتهم قدموا لفهمهم الاحتجاج بباب سد الذرائع لا سيما في المواطن التي يشيع فيها جمال الوجوه و ضعف التدين ، أما تجاهل الأدلة البينة أو محاولة حمل الجميع على فهم واحد و اجتهاد واحد فأمر غير مسلم به و غير مستساغ عقلا و نقلا ، ثم إن القول بأن الحنابلة رجحوا أن الوجه و الكفين عورة ، غير مقطوع به ، بل هو مخالف لما صرحوا به في بعض كتبهم ، و قد جاء في أحد مصادرهم : " لا يختلف المذهب في أنه يجوز للمرأة كشف وجهها في الصلاة و أنه ليس لها كشف ماعدا وجهها و كفيها ، وفي الكفين روايتان ، و اختلف أهل العلم فأجمع أكثرهم على أن لها أن تصلي مكشوفة الوجه ، و أجمع أهل العلم على أن للمرأة الحرة أن تخمر رأسها إذا صلت و على أنها إذا صلت و جميع رأسها مكشوف أن عليها الإعادة ، و قال أبو حنيفة القدمان ليسا من العورة لأنهما يظهران غالبا فهما كالوجه ، و إن انكشف من المرأة أقل من ربع شعرها أو ربع فخذها أو ربع بطنها لم تبطل صلاتها . و قال مالك و الأوزاعي و الشافعي :

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ، ٤١ - ٤٢

(٢) ربيع المدخلي ، كشف موقف الغزالي من السنة و أهلها (مرجع سابق) ص ٦٧

جميع المرأة عورة إلا وجهها وكفيها وما سوى ذلك يجب ستره في الصلاة لأن ابن عباس قال في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قال الوجه والكفين . و لأن النبي -صلى الله عليه وسلم - نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب ، ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما ولأن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع والشراء ، والكفين للأخذ والاعطاء ، وقال بعض أصحابنا : المرأة كلها عورة لأنه قد روي في حديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (المرأة عورة) (١) ، لكن رخص لها في كشف وجهها وكفيها لما في تغطيته من المشقة وأبيح النظر إليه لأجل الخطبة لأنه مجمع المحاسن (....) و يكره أن تنتقب المرأة وهي تصلي لأنه يخل بمباشرة المصلّي بجبهتها وأنفها و يجري مجرى تغطية الفم للرجل ، وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عنه . قال ابن عبد البر : وقد أجمعوا على أن على المرأة أن تكشف وجهها في الصلاة والإحرام ... " (٢) ؛ وفي مناظرة علمية نظمت لمناقشة مسألة النقاب والاستثناء الوارد في سورة النور بخصوص زينة المرأة وما يجوز أن يظهر منها ، و بعد أن استعرض آراء الفقهاء والمفسرين في الموضوع وما يبدو من تعارض بين بعض الأحاديث والآثار الواردة ، قال الشيخ مناع خليل القطان : " ... ولئن كانت أدلة جواز كشف الوجه والكفين أرجح ، فإنه لا ينبغي أن نعيب على امرأة تحتاط لدينها وتستر وجهها وكفيها ، فهذا من تمام العفة ، وهو أمر تحمد عليه ، كما لا ينبغي لنا في مجتمع آخر أن نطالب المرأة بتغطية وجهها ونفرض عليها ذلك ، وغاية ما نرجوه منها أن تستر سائر جسدها ، وأن تتجنب ما يثير الفتنة . وليس في هذا ما يجعل الحرام حلالا ، والحلال حراما باختلاف حالة المجتمع ، ولكنه اختيار لأحد حكمين في موضع الاختلاف بما يجعل الحكم أدعى للقبول والاستجابة وأقرب إلى تحقيق المصلحة الشرعية في الدعوة إلى الله ، وهذه هي ثمرة الاختلاف الفقهي حيث لا يكون هناك إجماع على رأي واحد " (٣) ؛ ويؤكد ما ذهب إليه جمهور الفقهاء وعلماء الأمة رجل مفكر حر هو الأستاذ عباس محمود العقاد بقوله : " والمتأخرون من المفسرين على مثل ذلك الفهم للزينة التي يجوز إظهارها ، ومن أحدثهم الأستاذ طنطاوي جوهرى صاحب (تفسير الجواهر) حيث يقول : إلا ما ظهر منها عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم والكحل والخضاب في الكف، وكالوجه والقدمين ، ففي ستر هذه الأشياء حرج عظيم ،

(١) رواه الترمذي

(٢) مرفق الدين بن قدامة ، المغني ، المجلد الأول ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٦٣٧ - ٦٣٩ [باب : إذا انكشف من المرأة الحرة شيء سوى وجهها أعادت الصلاة] .

(٣) مناع خليل القطان " مناظرة حول المرأة في الإسلام " جريدة الشرق الأوسط السعودية ، لندن ، العدد رقم (٤١٢٠)

الصادر يوم ١٠ / ٣ / ١٩٩٠ ، ص ٢٢

فكيف إذا كان فقهه في هذه القضية فقه جمهرة العلماء ؟ فقه السنة لا يلزم و فقه المذاهب لا يلزم ، إذن ما الذي يلزم ... ؟ تفكير المتشائمين و هوأة جمع التوافه ؟! " (١) إن ما يفزع الشيخ الغزالي إنما هو تناقل وإشاعة المرويات الضعيفة و الموضوعة دونما تفكير أو حساب لمدى إساءتها للإسلام و تعاليمه السمحة الكريمة ، خاصة إذا كانت تلك المرويات و الآراء بعيدة عن مقاصد الشرع الحنيف و استنباطات الفقهاء المسلمين ، لذلك نراه يذكر مغتاضا تلك القصة المؤسفة التي وقعت في مؤتمر نصراني إسلامي بأستراليا في أواخر السبعينات ، حيث دخلت امرأة في سمت عفريت قاعة المؤتمر ، و كانت مغطاة من أعلاها إلى أدناها و هي مستخفية الوجه و اليدين تطل على الحضور من وراء ثقبين في نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج . لقد كانت هذه المرأة نصرانية و الهدف من مجيئها هو الاحتجاج على ظلم الإسلام للمرأة - كما قالت - فارتدت هذا الزي الشرعي (١) - كما يرى البعض - عند المسلمين ، لتبين للنساء في أستراليا ما يعده الإسلام لهن في حال انتشاره في هذه القارة الجديدة ! ! و يعلق الشيخ الغزالي على هذه القصة المؤسفة بقوله : « إن الحجاب الإسلامي يحفظ المرأة شرفها و يرد عنها عيون الذئاب ... و ليس كما يتصور القاصرون أنها في سمت عفريت ... لماذا تحترم الراهبات و لا تحترم المحجبات و زيهما واحد ؟ قال لي أحد المبعوثين في لندن : إن رجلا إنجليزيا أبدى إعجابه بالإسلام ثم قال : لكنني أذهب مع امرأتي إلى الكنيسة يوم الأحد . فأين تذهب امرأتي إذا كنتم تمنعونها من المسجد فلا تدخله طوال الأسبوع... قلت : ما حدث في أستراليا و في إنجلترا حجة على المسلمين لا على الإسلام ... فليس في كتاب الله و لا في سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - أن وجه المرأة عورة يجب أن تستر ... و لا في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - أنها تمنع من دخول المساجد... إن ناسا غلبهم الهوى الجنسي هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا في شرح الآي بتفاسير مرفوضة ، تفاسير لم يقل بها واحد من الأئمة الأربعة الذين انتشر فقهم في طول البلاد و عرضها . و قد دهشت لأن عالما من شنقيط - و هو قطر مالكي المذهب - وقف في المسجد النبوي يقول أثناء اللقاء درس له : إن مالك بن أنس يقول : إن وجه المرأة ليس بعورة ... و أنا أخالف مالك بن أنس ! قلت : ليس مالك وحده الذي يقول ذلك ... بل سائر الأئمة الأربعة إلا رواية واهية عن أحمد بن حنبل تخالف المقرر من مذهبه كما حكى ذلك ابن قدامة الحنبلي . و الشيخ الشنقيطي غفر الله له حين يخالف أو يوافق ما يقدم و لا يؤخر » (٢) .

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، دار الهدى ، عين مليلة (الطبعة الجزائرية) ١٩٨٨ م

ص ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٦

(٢) محمد الغزالي ، موم داعية ، (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، دت) ، ص ١٤٤ - ١٤٥

فكيف إذا كان فقهه في هذه القضية فقه جمهرة العلماء ؟ فقه السنة لا يلزم و فقه المذاهب لا يلزم ، إذن ما الذي يلزم ... ؟ تفكير المتشائمين و هواة جمع التوافه ؟! " (١) إن ما يفرع الشيخ الغزالي إنما هو تناقل و إشاعة المرويات الضعيفة و الموضوعة دونما تفكير أو حساب لمدى إساءتها للإسلام و تعاليمه السمحة الكريمة ، خاصة إذا كانت تلك المرويات و الآراء بعيدة عن مقاصد الشرع الحنيف و استنباطات الفقهاء المسلمين ، لذلك نراه يذكر مغتاضا تلك القصة المؤسفة التي وقعت في مؤتمر نصراني إسلامي بأستراليا في أواخر السبعينات ، حيث دخلت امرأة في سمت عفريت قاعة المؤتمر ، و كانت مغطاة من أعلاها إلى أدناها و هي مستخفية الوجه و اليدين تطل على الحضور من وراء ثقبين في نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج . لقد كانت هذه المرأة نصرانية و الهدف من مجيئها هو الاحتجاج على ظلم الإسلام للمرأة - كما قالت - فارتدت هذا الزي الشرعي (١) - كما يرى البعض - عند المسلمين ، لتبين للنساء في أستراليا ما يعده الإسلام لهن في حال انتشاره في هذه القارة الجديدة ! ! و يعلق الشيخ الغزالي على هذه القصة المؤسفة بقوله : « إن الحجاب الإسلامي يحفظ المرأة شرفها و يرد عنها عيون الذئاب ... و ليس كما يتصور القاصرون أنها في سمت عفريت ... لماذا تحترم الراهبات و لا تحترم المحجبات و زيهما واحد ؟ قال لي أحد المبعوثين في لندن : إن رجلا انجليزي أهدى إعجابه بالإسلام ثم قال : لكنني أذهب مع امرأتي إلى الكنيسة يوم الأحد . فأين تذهب امرأتي إذا كنتم تمنعونها من المسجد فلا تدخله طوال الأسبوع ... قلت : ما حدث في أستراليا و في إنجلترا حجة على المسلمين لا على الإسلام ... فليس في كتاب الله و لا في سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - أن وجه المرأة عورة يجب أن تستر ... و لا في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - أنها تمنع من دخول المساجد ... إن ناسا أغلبهم الهوى الجنسي هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا في شرح الآي بتفاسير مرفوضة ، تفاسير لم يقل بها واحد من الأئمة الأربعة الذين انتشر فقهم في طول البلاد و عرضها . و قد دهشت لأن عالما من سنقيط - و هو قطر مالكي المذهب - وقف في المسجد النبوي يقول أثناء اللقاء درس له : إن مالك بن أنس يقول : إن وجه المرأة ليس بعورة ... و أنا أخالف مالك بن أنس ! قلت : ليس مالك وحده الذي يقول ذلك ... بل سائر الأئمة الأربعة إلا رواية واهية عن أحمد بن حنبل تخالف المقرر من مذهبه كما حكى ذلك ابن قدامة الحنبلي . و الشيخ الشنقيطي غفر الله له حين يخالف أو يوافق ما يقدم و لا يؤخر » (٢) .

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، دار الهدى ، عين مليلة (الطبعة الجزائرية) ١٩٨٨ م

ص ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٦

(٢) محمد الغزالي ، هموم داعية ، (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ١٤٤ - ١٤٥

إن إلهام الشيخ الغزالي الفكري وحرصه الدائب القوي على الفهم الأمثل الراشد لأدلة الوحي المعصوم و نصوصه ، ساقاه إلى هذا الفقه و الفهم في قضية حجاب المرأة المسلمة و الزي أو الهيئة المطلوبة منها وفق الدلالات الشرعية و المقاصد الحكيمة ، و يمكن لنا استبعاد فرضيات تأثر هذا الفهم بطروحات الفكر الغربي أو وقوعه ضمن دوائر و خطوط التجاذب بفعل تحديات و ضغوطات الحضارة الغربية ، كما ادعى ذلك بعض نقاد فكر الشيخ الغزالي (١) لأن موقف و تفكير الشيخ الغزالي من الحضارة الغربية واضح في كتاباته ، و أيضا لوثيقة صلته بالقرآن الكريم و مصادر الفقه الإسلامي و أفهام المجتهدين و اعتزازه البالغ بالمرجعية الإسلامية وحدها و تقديسه لهذا الولاء دون غيره من الولاءات . و إنما يمكن سلك الرؤية التي يقدمها الشيخ الغزالي في مسلك الارتقاء بالسلوك الإسلامي و الفكر الإسلامي إلى مستوى العصر و إنصاف الحقائق الإسلامية و الشرعية قصد مضاعفة إمكانيات خدمة الدعوة و تحجيم أو تحييد مشاعر الاعجاب و التأثير بنمط الآخر الحضاري . و لا شك أن معالم الفرق و المغايرة واضحة بين الدعوة لتحقيق المعاصرة كبعد واقعي و موضوعي يفرضه عاملا الزمان و المكان ، و بين الاستجابة للأوعية بشتى تداعياتها السلبية ، لضغط نموذج الحضارة الغربية أو محاولة تطويع بعض النصوص و الأفهام الشرعية لمزاج العصر و مقتضياته وفق محددات و شرائط مرجعيات الآخر الحضاري ... إن الوعي بخلفية هذه الرؤية و تداعياتها المختلفة يصور حدود الفرق بين ما يطرحه الشيخ الغزالي في هذه القضية و ما يطرحه غيره من ناقديه . فالشيخ الغزالي ينطلق من قوة صلته بالقرآن و تجربة السلف الأولين كنموذج قدوة ، و هو يحاول صياغة البديل الإسلامي لحالة المرأة في الغرب ، و استعادة المرأة المسلمة لمكانتها الطبيعية في البناء الاجتماعي . كما أن حرصه على خدمة الدعوة و تشریف أسلوب الإسلام في الحياة يحتل المقدمة في فكره لأن ذلك يمثل شهادة الأمة الإسلامية على غيرها ، و يمثل جوهر الرسالة التي كلفها الله تعالى بتبليغها و تحمل مقتضياتها . ثم إن فهم الشيخ الغزالي لآية حجاب المرأة المسلمة و زيها المشروع يأتي ضمن منظوره الواسع و المنهجي المعالج لمشكلات المرأة و قضاياها و مشكلاتها ، و هو فهم يعكس الكثير من جوانب فقه الوسطية و الاعتدال عنده بكل ما يعنيه ذلك من اعتدال و احترام لآراء الفقهاء و المجتهدين المسلمين ، و الاقتباس الراشد من تلك الثروة المشرقة التي خلفوها ، و السعي في الوقت ذاته لتحقيق المعاصرة و التجدد للنموذج الإسلامي الممتد .

(١) يمكن مراجعة مقاله ربيع المدخلي في كتابه (كشف موقف الغزالي من السنة و أهلها) (مرجع سابق) خاصة صفحات : ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - وما قاله سليمان بن فهد العودة في كتابه (في حوار هادئ مع الغزالي) منشورات قصر الكتاب ، البليدة ، (الطبعة الجزائرية الأولى) ١٩٩٠ م ، خاصة صفحات : ٤٩ / إلى / ٦٩ .

ثالثاً : المرأة المسلمة و المسجد و الجماعة :

من بين جوانب الحرية التي منحها الإسلام المرأة المسلمة جانب العبادة ، و هذا الجانب له صلة وطيدة بشخصية المرأة و مكونات كيانها ، فالإسلام بمنهجه التربوي يرمي إلى صناعة الإنسان المتميز بخصائصه الذاتية ، كما ينمي فيه الملكات و المواهب الكامنة في تلك الخصائص ، و في الوقت ذاته يربطه بأهداف الجماعة و أشواقها و تطلعاتها المختلفة ، و مما له علاقة بهذا المنحى حق المرأة في الأداء العبادي و انتظامها مع الجماعة و تفاعلها مع نسيجها العام ، و تحمل نصيبها من مسؤوليات هذه الجماعة و همومها و مشكلاتها كأي كيان له دور و رسالة في الوجود و الحياة .

و على الرغم من أن رأي الإسلام واضح في هذه القضية كما تثبت ذلك النصوص المتواترة ووقائع الحياة في الفترة النبوية و الفترة الراشدة ، إلا أن بعض البيئات الإسلامية حاولت في الواقع و من الناحية العملية هضم المرأة المسلمة هذا الحق و التضييق على رسالتها و دورها في المجتمع الذي ينطلق من خلال تفاعلها مع الجماعة و تربيته الروحية و الفكرية في المسجد . و من ثمة فقد حمل الغزالي بشدة على هذه البيئات و عد موافقها تلك من التقاليد البالية الشاغبة على سنن و مظاهر الحياة الإسلامية و مميزاتها الأساسية . و لعل إشاعة هذه الأفهام تعود في بعض أسبابها - كما يرى الشيخ الغزالي - إلى مرويات موضوعة و شروحات معولة . يقول : " بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول و التلاشي فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة ، كي يبقين على أميتهن الأولى ! ! لحساب من تعود هذه الجاهلية ؟ و عندما يفرض على نصف الأمة الجهل و العمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة ؟ ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها ، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول ، فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة ، و صلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء ! ! و راوي هذا الحديث يطوح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة . و ينظر إلى المرأة المصلية و كأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاق و أبعده . و لنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة و غيره : « عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي - صلى الله عليه و سلم - فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ! و صلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك ، و صلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، و صلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، و صلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » قال الراوي : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها و أظلمه ، و كانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز و جلا ! (١) ... و البيت في الحديث هو غرفة النوم ، و الحجر غرفة الجلوس ، و الصلاة في الصلاة في الأولى أفضل من الصلاة في الأخرى ! و الصلاة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عرصة الدار ،

(١) أخرجه ابن خزيمة

و هي في عرصة الدار أفضل من الصلاة في مسجد الحي ... و كلما ضاق المكان و بعد و استوحش كانت الصلاة فيه أفضل ! و يجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذي ذكر فيه هذه القضايا (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله) و أن قول النبي -صلى الله عليه و سلم- " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد " (١) إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء !! (٢) .

و يجيء رد الشيخ الغزالي على ابن خزيمة مرتكزا على أدلة قطعية -كي لا تكون صور السلوك الإسلامي و سمات الحياة الإسلامية عرضة للشروح و الأفهام المتضاربة أو التقاليد السقيمة- كبعض ما أثر عن الفترة النبوية من حقيقة اجتهاد النساء بالصلاة في المساجد و التردد على الجماعة . حيث يقول : « و السؤال السريع إن كان هذا الكلام صحيحا فلماذا ترك النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء يشهن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء ؟ و لماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن ؟ و لماذا لم ينصحن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة ؟ و لماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا ينشغل قلبها ؟ و لماذا قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (٣) و لماذا استنبت الخلافة الرائدة صفوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم ؟ إن ابن حزم أراح نفسه و أراح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد و عدها من الباطل ! و علماء المصطلح يقولون : يعتبر الحديث شاذًا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق فإذا كان المخالف ليس ثقة بل ضعيفا فحديثه متروك أو منكر . و لم يجيء في أحد الصحيحين ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد . فهذه الأحاديث مردودة كلها ... فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة و المشهورة ؟ إن حديثه يستبعد ابتداء . و قد أتت على المسلمين عصور مانت فيها السنة الصحيحة ، و لا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بينات لا تعرف إلا المرويات المتروكة و المنكرة . و الذي يدخل ميدان التدين و بضاعته في الحديث مزجاة كالذي يدخل السوق و معه نقود مزيفة ، لا يلومن إلا نفسه إذا أخذته الشرطة مكبل اليدين ! و نريد من الجماعات العاملة للإسلام أن تكون يقظة فلا تتخدع بالآثار الواهية و الأحاديث الموضوعية كما نريد منها أن تعرف المعاني الصحيحة لما صح من نقول ... و أئمة الفقه هم أرباب تلك الصناعة ... ! (٤) » .

(١) رواه أحمد و صححه ابن حبان - ونصه الكامل " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد

الحرام ، و صلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة "

(٢) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٥٤ - ٥٥

(٣) رواه البخاري و مسلم ، وللحديث رواية أخرى لأبي داود عن أبي هريرة

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ، ص : ٥٥ - ٥٦ - ٥٧

و في نظر الشيخ الغزالي أن الفقهاء أقدر على الترويج و الموازنة و تقدير المصلحة و الحكمة من المحدثين ، بل هو يرى و يعتقد أنه لا سنة من غير فقه (١) ، و من ثمة فإن الأمة الإسلامية تاريخياً وضعت مسؤولية توجيهها و ترشيدها و قيادة زمام أمورها في يد الفقهاء لا المحدثين ، و لعل أحد أسباب ذلك أن الفقهاء صلّتهم بالقرآن و مقاصد الشريعة و الحكمة من التكليف أوثق و أمتن من غيرهم من دارسي و ممحصي النصوص و الآثار و المرويات . و من هذه القاعدة نرى الشيخ الغزالي يعتمد في صياغة وجهة نظره في هذه القضية ، على مناقشة ابن حزم لحديث ابن خزيمة أنف الذكر و الذي يراه حديثاً موضوعاً . لأن المتواتر و المشهور من السنة جاء خلافه ، و من ذلك ما صح عن الرسول -صلى الله عليه و سلم- أن " صلاة الجماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع و عشرين درجة " (٢) و هذا عموم لا يجوز أن يخص منه النساء ، و روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه و سلم- يقول : " لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها " فقال بلال بن عبد الله : و الله لنمنعهن . فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط ! قال : أخبرك عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- و تقول : و الله لنمنعهن ! و روى مسلم أيضاً عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه و سلم- قال : « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها » و في روايات له أيضاً : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " و " لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل " و روى مسلم عن زينب - امرأة عبد الله بن مسعود- قالت : قال لنا رسول الله -صلى الله عليه و سلم- : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » و روى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله و لا يخرجن إلا و هن تغلات (غير متطيبات و لا متعطرات) و قد علق ابن حزم على هذا النص الأخير بقوله : " و هذا نفس قولنا فإذا خرجن متزينات متطيبات فهن عاصيات لله تعالى ، خارجات بخلاف ما أمرن ، فلا يحل إرسالهن حينئذ أصلاً . و الآثار في حضور النساء صلاة الجماعة و الجمعة مع رسول الله -صلى الله عليه و سلم- متوافرة في غاية الصحة ، لا ينكر ذلك إلا جاهل . كحديث عائشة : " كان رسول الله -صلى الله عليه و سلم- يصلي الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ، ما يعرفن من الغلس " (٣) ، و حديث سهل بن سعد : « لقد رأيت الرجال عاقدي أزرحهم في أعناقهم - من ضيق الأزرح - خلف الرسول - صلى الله عليه و سلم- فقال قائل : « يا معشر النساء ، لا ترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال » (٤) الخ (٥) .

(١) محمد الغزالي ، موم داعية (مصدر سابق) من ص : ٢٠ إلى ٢٨

(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر

(٣) رواه مسلم وهو في صحيح البخاري كذلك

(٤) رواه مسلم

(٥) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة (مصدر سابق) ص : ١٠٩ - ١١٠

و مما ورد كذلك في هذا المقام أن عائكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تشهد صلاة الجماعة في المسجد ، إلا أن عمر كان يقول لها : و الله إنك لتعلمين أني ما أحب هذا . فقالت له : و الله لا أنتهي حتى تتهاني . فقال عمر : فإني لا أنهاك . قيل : و لقد كانت في المسجد في الوقت الذي طعن فيه سيدنا عمر . قال ابن حزم : " و لو رأى عمر صلاتها في بيتها أفضل لكان أقل أحواله أن يخبرها بذلك ، بل اقتصر على إخبارها بهواه الذي لا يقدر على صرفه . و من الباطل أن تتكلف اسخاط زوجها فيما غيره أفضل منه ، فصح أنهما رأيا الفضل العظيم في خروجها إلى المسجد في الغلس و غيره ، و هذه غاية الوضوح لمن عقل . و روينا أن عمر بن الخطاب أمر سليمان بن خثمة أن يؤم النساء في مؤخر المسجد في شهر رمضان ، و من طريق عرفة أن عليا بن أبي طالب كان يأمر الناس بالقيام في رمضان فيجعل للرجال إماما و للنساء إماما . قال عرفة : فأمرني فأمرت النساء ، فهؤلاء أئمة المسلمين بحضرة الصحابة ، ثم على هذا عمل المسلمون في أقطار الأرض جيلا بعد جيل " (١) ؛ كما نجد أيضا أن الشيخ الغزالي و ضمن سياقات هذه المسألة ذاتها يتبنى موقف ابن حزم في المحلي في رده للأثر الذي ورد عن عائشة رضي الله عنها حيث قالت : " لو أدرك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أحدث النساء من بعده لمنعهن المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل " (٢) و يتلخص رد ابن حزم لهذا الأثر في الأدلة و الحجج الآتية :

- ١- أن الله تعالى رضي لنا الإسلام دينا و محمدا رسولا إلى يوم القيامة و قد علم سبحانه ما سوف يستحدثه النساء ، و مع ذلك لم يمنعهن رسوله من الخروج إلى المسجد ليلا و نهارا .
- ٢- ليس لأحد بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يبطل حكما شرعه ، أو يلغي رأيا ارتآه .
- ٣- أنه لا يحل عقاب من لم يحدث من النساء ، فيمنع من أجل من أحدث .
- و الله تعالى يقول : " و لا تكسب كل نفس إلا عليها و لا تزر وازرة وزر أخرى ... " (٣) .
- ٤- أنه لا خلاف بين أحد في أنه لا يحل منع النساء من التزاور و من الصفق في الأسواق و الخروج في حاجاتهن ، وليس أوغل في الخطأ من إباحة ذلك لهن - دون اعتراض - و منعهن من الصلاة في المساجد .. و ما كان رسول الله عليه الصلاة و السلام ليدعهن يتكفن الخروج في الليل و الغلس يحملن صغارهن ، ويفرد لهن بابا ، ويأمر بخروج الأبكار و غير الأبكار ، و من لا جلباب لها فتستعير جلبابا إلى المصلى فيتركهن يتكفن من ذلك ما يحط أجورهن و يكون الفضل لهن في تركه ، وهذا لا يظن

(١) المصدر نفسه ، ص : ١١١

(٢) رواه البخاري في باب صفة الصلاة تحت رقم (٨٣١) - وانظر رأي الشيخ الغزالي في رده لحديث عائشة (من هنا نعلم ص ١٥٨)

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٦٤

بعاقل ينصح المسلمين فكيف برسول الله - صلى الله عليه و سلم - الذي أخبر تعالى أنه " عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم " (١) وفي مسلم عن عبد الله بن عمر قال : اجتمعنا إلى رسول الله - صلى الله عليه و سلم - فقال : " إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم " .. الخ (٢) .

ثم يبين الشيخ الغزالي خلفية و دافع تبنيه و اعتقاده برد ابن حزم للأثر الذي ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها بقوله : " ونحن نلاحظ أن العقل الإسلامي في بواكير يقظته كان حسن النقد لما يروى ، جيد النظر في الآثار أخذا وردا ، أما المسلمون اليوم فإن ضالة حظوظهم من الفقه الذكي جعلت مجتمعهم يستبد به حديث ضعيف ، أو تتلاعب به بدع مختلقة وأفكار سقيمة ، وكان لذلك أثره في الطرف المقابل ، الطرف الذي يريد الخلاص من الأحاديث كلها صحيحها و سقيمها ، وهو مسلك بعيد عن الإنصاف و الدقة ونحن نلفت رواد النهضة النسائية إلى ما في التراث الإسلامي من نفاسة تعجب ، وما فيه كذلك من أسانيد لقضاياهم النزيهة إذا أرادوا أن يربطوا حركتهم بالإيمان و المعرفة ، ويتعدوا بها عن مزلق الهوى و التحلل " (٣) ، ونرى الشيخ الغزالي في مواضع أخرى من كتاباته يستमित في دفع ودحض كل الآثار و الأفهام التي تسيئ إلى حقائق السلوك الإسلامي و مميزات سمات الحياة الإسلامية،ومن ذلك قوله : " ومن عجيب ما قرأت في تعطيل النصوص مارأه البعض وهو يشرح حديث خروج النساء إلى مصلى العيد ، و الحديث المتفق عليه في هذا ما روته أم عطية : " أمرنا أن نخرج العواتق و الحيض في العيدين يشهدن الخير و دعوة المسلمين ، ويعتزل الحيض المصلى " (٤) ، يعني بالعواتق الفتيات البالغات أو المقاربات للبلوغ، و الحيض من النساء عموما ، واستخراج النساء من خدورهن لعدة مذكورة في الحديث ، شهود الخير ، و المشاركة في اجتماع الأمة لمناسبة طيبة .. قال الطحاوي و غيره : هذا الحديث منسوخ! ما الذي نسخه ؟ لا كتاب و لا سنة ضد هذا الحديث ! إن دعوى النسخ مكنوبة ! يقول الطحاوي : كان ذلك في صدر الإسلام ، وكان في خروجهن تكثير لسواد المسلمين و إرهاب للعدو ! ثم نسخ بعد ما قوى الإسلام (!) و الحق أن هذا كلام فارغ ، وهو اعتذار مرفوض لترك التعاليم الإسلامية و تغليب تقاليد أخرى على تقاليد الإسلام ، هذه التقاليد الأخرى محور ما عزل المرأة عزلا تاما عن شهود الخير وعن دعوة المسلمين كما عبر الحديث الشريف ! ولا تزال الأمة العربية ميالة إلى تنفيذ هذا النسخ المزعوم ونشره في العالم كله باسم الإسلام .. إنني أطلب من أمتنا الإسلامية أن تحاكم

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٨

(٢) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة (مصدر سابق) ص ١١١ - ١١٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٣

(٤) متفق عليه وهو في البخاري في كتاب العيدين رقم (٩٣١)

تقاليدنا هي إلى الإسلام ، فما وافقه بقي ، وماخالفه ترك ، أما أن تطرق عواصم العالم الكبرى بتقاليد مزورة ، وترغم أنها تعرض الإسلام (1) فهذا ضرب من التزييف أخطر كثيرا من تزييف النقود .. لقد ظل المسلمون ألف عام يمنعون تعليم المرأة ، تنفيذا لحديث مكذوب يوصي بإلزامها الأمية و إسكانها السرايب لا الغرف ! فهل هذا ما يريدون نشره ؟ وهم إلى الآن يمنعون النساء في العواصم المحافظة - كما تسمى - من حضور الجماعات في المساجد التي تقام فيها الصلوات الخمس ، فهل ذلك ما يريدون نشره ؟ (1) .

إن ما يمكن استنتاجه أن تفكير الشيخ الغزالي في هذه القضية يأبى تعطيل النصوص الصريحة الواردة التي تشجع وتدعم مبدأ ارتباط المرأة بالجماعة من خلال المسجد وما به من صلوات و أنشطة علمية ، كما ينكر بشدة اتساع الهوة بين قصد الشارع و اتجاهه أو فهم الشارح (*) ، وهو بذلك يحتاط للمرأة مما يمكن أن تلحقه بها بعض البيئات الإسلامية من عنف و تضيق و هضم لحقوقها المشروعة في تحمل نصيبها من مشاق و هموم الجماعة المسلمة ، وإن كان يؤكد بأن شيئا كثيرا من ذلك واقع بالفعل في بعض البيئات و الساحات الإسلامية ، و ليست المسألة تتحصر في حدود الاحتياط فحسب ، إلا أنه ورغم ذلك كله فإن الشيخ الغزالي يتكون لديه رأي في هذه القضية يمكن نعتة بأنه وليد صفة الوسطية و الاعتدال و الواقعية في منظوره الفكري واجتهاده الفقهي ، وملخص هذا الرأي هو ضرورة موازنة المرأة بين حق زوجها و بيتها وأسرتها و بين استغلال بعض أوقات فراغها أو مساحات نشاطها في التردد على المسجد و الجماعة للتزود بالطاقة الروحية والفكرية والعاطفية اللازمة لمواجهة أعباء الحياة ومقتضيات التكليف ، فضلا عن ضرورة مراعاة عامل الترغيب في الحياة الإسلامية وتحسين صورة الدعوة إلى الإسلام بين شعوب و أمم المعمورة من خلال الانسجام و التوافق و التكامل في رسالة و واجبات المرأة المسلمة ، فإن " النبي - صلى الله عليه و سلم - جعل للنساء بابا خاصا بهن يدخلن منه ، ورعى صفوفهن في أداء الفرائض ، ومارد امرأة قط عن الصلاة في المسجد ، فمن أين تقرر منعهن البتة ؟ قد يقول البعض : جاءت آثار تجعل صلاتهن في بيوتهن أفضل ! ولست أكذب هذه الآثار كما فعل ابن حزم ، و لكنني أشرح القضية بأنة للزوج و الأولاد ، إن ربة البيت لا يقبل منها أن تتردد على المسجد سحابة النهار و بعض الليل على حساب التضحية بمطالب الزوج و الأولاد من هنا صح لها أن تصلي في بيتها لكي تقدر على الوفاء بواجباتها تلك ، فإذا قدرت على الوفاء و بعدت عن التقصير و بقي لها الوقت الذي يسمح لها بالصلاة في المسجد ما يمنعها أحد من ذلك ... فالإسلام يريد أن تصلي النساء في المساجد ، لكن بعد أداء حق البيت ... أما حبسها في البيت و تحريم المسجد عليها ، لأن ذهابها إلى المسجد ممنوع ابتداء ، فهذا باطل و مخالف للكتاب و السنة ... إن النساء الغريبات يفزعن عندما يذكر لهن الإسلام ، يحسبنه

(1) محمد الغزالي ، مستقبل الإسلام خارج أرضه (الجزائر : دار الكتاب ، ١٩٨٧ م) ، ص ٦٦ - ٦٧

(*) ذكر الغزالي في أحد كتبه أنه هم بتأليف كتاب بعنوان (قال الشارع وقال الشارح) ليبين من خلاله شرود بعض الشراح عن الصواب والقصد الشرعي .

سجانا غشونا مستهينا بحقوق المرأة و مجتاحا لشخصيتها ، و نحن المسئولون عن شيوع هذه التهمة ! و هناك عقلاء كثيرون من الرجال و النساء يكرهون الفوضى الجنسية الشائعة في الغرب و يشاءمون من عقباها ، بيد أنهم يتساءلون : ما البديل ؟ إن البديل الحقيقي هو الإسلام لو عرفوه ! ! أما التقاليد الشرقية التي يرونها فهم لا يحترمونها ، و يرونها قناعا خادعا لسينات مثل ما لديهم أو قد تزيد ! (١) " ثم إن مستند هذه الرؤية المتوازنة هو ما يدعو إليه الإسلام نفسه ، كما يفهم ذلك من خلال أدلة كثيرة متواترة و شواهد عملية مشهورة " فقد صح في السنة أن المرأة راعية في بيتها و هي مسؤولة عن رعيته (٢) و لا ريب أن شئون الأولاد خصوصا الرضع ، و إعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله ، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس . و لذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها ، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد و قد جاء في الحديث : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " (٣) ... " ونحن موقنون بأن النبي - عليه الصلاة و السلام - جعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء ، و أنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد - وذلك أصون لهن في الركوع و السجود - وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن ، كما زجر النساء اللاتي يتقدمن قريبا من صفوف الرجال .. و قد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي و أيام الخلافة الراشدة ، لم يشغب عليها شاغب ، تبدأ مع الفجر و تنتهي عند العشاء .. وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح في رمضان ، و معروف أن اشتراكهن في صلاة العيد و سماع الخطبة من شعائر الإسلام (٤) "

و بالإضافة إلى صلة هذه القضية بأفق الدعوة إلى الإسلام و صورتها بين غير المسلمين ، فإن الشيخ الغزالي يرجح فقهه و فهمه لهذه المسألة لسببين على الأقل ، لهما صلة وثيقة ببناء الشخصية الإسلامية و توفير مناخ الإيمان الحق الذي تحيا في ظلله معالم و مقومات هذه الشخصية .

السبب الأول : أن الجماعة من شعائر الإسلام و خصائص الكيان الذي يقيمه ، و منذ قام المجتمع الإسلامي و المسجد محور نشاطه و ملتقى أبنائه ، تتصافح فيه الوجوه و الأيدي ، و تتلاقى فيه على الحب و التعاون و أعمال البر ، و يقف المؤمنون في صفوف مرصوفة بين يدي الله تعالى ، يزينهم الخشوع لسماع القرآن و التسبيح و التحميد خلال الركوع و السجود ، و أثر الصلاة الفكري و الخلقى عميق ، فإن القرآن المتلو يرفع المستوى و يورث التقوى ، و اللقاء المنكر يصبون العلاقات الخاصة و العامة ، و يجعل الأمة تواجه يومها و غدها وهي متعارفة لا متناكرة ، موحدة المشاعر و الغاية .

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٧ - ٦٨

(٢) رواه البخاري و مسلم و الترمذي

(٣) رواه البخاري و مسلم

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٥٣

والسبب الثاني : أن أهل الباطل و العقائد الضالة أقاموا في الواقع المشهود جوا من المادية و الأطماع و المآرب الصغيرة يملأ أنديتهم ويسود طرقهم ، ويصوغ مسالكهم وعلاقاتهم ، ويدعم بعدهم عن الله و كفرهم بآياته .. فكان لابد أن يكون لأهل الحق و الإيمان جو أنقى وأصفى يعطو فيه ذكر الله تعالى ، وينتصر فيه لقيم الحق و الخير ، ويتحول فيه الإيمان بالغيب إلى واقع مانوس وحقائق متحركة وحيوية فاعلة في دنيا الناس (١) ؛ أما نقاد فكر الشيخ الغزالي ممن رأوا بأنه بالغ في هذه القضية وأنه منحها من الجهد و الاهتمام أكثر مما تستحق ، فأرى أن ما ذهبوا إليه يحتاج إلى مراجعة وتأمل ، فإن الكثيرين من غير المسلمين لا يعرفون حقيقة الموقف الشرعي منها ، ويعتقدون أن ما عليه المسلمون - ليس في هذه القضية فحسب ، بل في كل شيء - إنما هو أثر التعاليم الإسلامية ! و ليس أبلغ و أدل على ذلك مما رواه الشيخ محمد رشيد رضا عن أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده . قال : " و قد صار هؤلاء الأفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا ، بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء، و يزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا ... ذكر الأستاذ الإمام في الدرس أن أحد السائحين من الأفرنج زاره في الأزهر وبينما هما ماران في المسجد رأى الأفرنجي بنتا مارة فيه، فبهت ! و قال : ما هذا ؟ أنتى تدخل الجامع !!! فقال له الإمام : و ما وجه الغرابة في ذلك ؟ قال : إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح و ليس عليهن عبادة ! فبين له غلظه و فسر له بعض الآيات فيهن . قال : فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا ؟ و إلى جهل هؤلاء الناس بالإسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس لجمعية كبيرة فما بالكم بعامتهم ؟ (٢) " و هذا البعد في المسألة له اعتباره البالغ في تفكير الشيخ الغزالي ، و ذلك لكوننا أمة لا تحيا لنفسها و إنما لرسالتها و معيار الشهادة على الناس من منطلق ما ناطه الله بذمتها من مقتضيات الاقتداء و واجبات البلاغ إن الرؤية التي يدافع عنها الشيخ الغزالي في هذه المسألة تحقق و تستجيب لمقاصد المنهج الإسلامي في التغيير و الإعداد و ذلك في بعده : البعد (الإيماني-العبادي) و البعد (التربوي-الاجتماعي) فضلا عن أثرها الإيجابي بأفقه الواسع عن صورة المرأة في الإسلام ... ثم إنها تجعل من طاقة و جهد المرأة المسلمة خزانا يفيض نشاطا و حيوية لخدمة الأمة و النهوض بمؤسسات المجتمع و المساهمة الفاعلة في عملية التغيير و البناء ، ذلك أن أثر الجماعة و الصدق في الولاء ، له عمقه البالغ في تكييف سلوك و مشاعر الإنسان مع ما آمن به من قيم و أهداف و مسؤوليات، و من صلاة الجماعة و التعبئة الفكرية و الوجدانية يشحن قلب المرأة المسلمة و يعمر بالحيوية و الفاعلية الدافعة، و لهذه الخصائص انعكاسات إيجابية مؤثرة في التأسيس الاجتماعي ؛ و في نطاق الأسرة و المجتمع و العلاقات العامة تصرف تلك القدرات و الخصائص ، فيتوهج من ذلك دفع فكري و تجدد مطرد لخطوات النهوض الاجتماعي و مناحي إصلاح واقع المسلمين الحياتي و الإنساني و الحضاري .

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣

(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج ٢، دار المعرفة مطب، بيروت، د.ت.ص ٣٧٦

رابعاً : حول شهادة المرأة

إن الدلالات الفقهية و الشرعية لمسألة (شهادة) المرأة لها معنى يتجاوز حدود توثيق الحقيقة وحفظ العدل و المصلحة إلى مبدأ إقرار قيمة المرأة في الإسلام وترسيخ وزنها الإنساني و الاعتباري كوجود وكيان له وقار وكرامة النوع الذي تنتمي إليه ... و الشيخ الغزالي يرى أن حق المرأة في الشهادة متواتر في نصوص الكتاب و السنة ، وأن هذا الحق من صميم وجوه إنسانيتها ؛ ومن ثمة فقد رفض الآراء الغربية و الشاذة التي وردت في الموضوع ، فإن تياراً " نشأ في الفكر الديني يستبعد شهادة المرأة استبعاداً تاماً في أهم ميادين التقاضي ! وهو ميدان القصاص و الحدود أي فيما يتصل بالدماء و الأعراض .. وإذا كان اللصوص يسرقون البيوت ليلاً أو نهاراً فما معنى رفض شهادة المرأة في حد السرقة ؟ وإذا كان العدوان على النفس و الأطراف يقع كثيراً بمشهد من النساء فما معنى أن ترى المرأة مصرع أليها أو أقرب الناس إليها ثم ترفض شهادتها ؟ و لماذا لم يلتزم نصاب الشهادة كما ذكره القرآن الكريم ؟ إن ابن حزم في تمحيصه للأثار المروية يؤكد أن رفض شهادة النساء في الحدود و القصاص لا يوجد له أصل في السنة النبوية . و لست أحب أن أوهن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استناداً قوياً إلى النصوص القاطعة ، و إذا كان المسلمون الآن أكثر من مليار نفس فما معنى التطويح بكرامة خمسمائة مليون امرأة لقول أحد من الناس ؟ المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا و آرائنا إلى عقائد الإسلام و شرائعه لتكون ديننا مع الدين ، و هدياً من لدن رب العالمين ، وبذلك نصد عن سبيل الله ! و أذكر هنا قصة الناقة التي عرضها صاحبها بعشرة دراهم ، و اشترط أن تباع قلائدتها معها بألف درهم ! فكان الناس يقولون : ما أرخص الناقة لولا هذه القلادة الملعونة ! و أقول كذلك : ما أيسر الإسلام و أيسر أركانه ، و ما أصدق عقائده و شرائعه لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم ، و اشترطوا على الناس أن يأخذوا به و يدخلوا فيه !.. (١) .

و نحن نلاحظ هنا في تفكير الشيخ الغزالي و منهج فهمه لمثل هذه المسائل الفقهية و الشرعية سيطرة هاجس مراعاة عامل الدعوة و ضرورة الحرص على تقديم الصورة الصحيحة للإسلام على طريقة فهمه و تعامله مع النصوص ، فهذا البعد له الأولوية و الصدارة في فكره ، يضاف إلى ذلك اعتماده على ما ثبت من الحقائق العلمية في استقصاء و تمحيص بعض الأحكام الشرعية و محاولة استكناه جوانب الحكمة من تشريعها إن كان ذلك يقرب المعنى المراد للأذهان ، و يبسر سبل استيعابها للمدارك ، و هو ما فعله في فهمه لهذه المسألة ، إذ إنه من الثابت " أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ، و قد علل القرآن الكريم لذلك بأن المرأة قد تنسى أو تحار أو يشتبه عليها وجه الحق ، و عندما تكون معها امرأة أخرى فسوف يتعاوننا على الإدلاء بالحقيقة كاملة ..

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٥٨ - ٥٩

و قد بحثت في هذا الموضوع فأدركت أن المرأة في عاداتها الشهرية تكون شبه مريضة ، و أن انحراف مزاجها و اضطراب أجهزتها الحيوية يصيبها ببعض الارتباك ، و التثبث في أداء الشهادات واجب .. ذاك سر قوله تعالى : « و استشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى (١) .. » (٢) ؛ و لاشك أن هذا الموقف من الشرع الحنيف إنما هو تقدير و رحمة ببطرة المرأة و طبيعة تكوينها ، و أن الأمر كله لا يتجاوز هذا النطاق ، فإن " الإسلام لما قرر إعفاء المرأة في أثناء الحيض و النفاس من الصلوات المكتوبة ، كان متمشيا مع منطوق الطبيعة في ضرورة الرفع بها ، و لما قرر الاستيثاق من شهادتها بضميمة أخرى إليها كان كذلك متمشيا مع ما أكدته الطب من تغيرات عامة و هامة تصيبها باستمرار ، و أن هذا التخفيف في تكاليفها الشرعية و العقلية يجعلنا لا نسوي بينها و بين الرجل في مشقات الحياة و مشاغلها " (٣) ؛ و نرى الشيخ الغزالي - كعادته في محاولة صياغة موقف أو ترجيح رأي - ينقب في مصادر الفقه الإسلامي ليستأنس بأقوال و نظرات المجتهدين من الفقهاء و أصحاب المذاهب ، لذلك فهو يعود في استقصاء هذه المسألة لما قرره ابن حزم في كتابه الموسوعي (المحلي) بقوله : " و لا يجوز أن يقبل في الزنا أقل من أربعة رجال عدول مسلمين ، أو مكان كل رجل امرأتان مسلمتان عدلتان ، فيكون ذلك ثلاثة رجال و امرأتين أو رجلين و أربع نسوة أو رجلا واحدا و ست نسوة أو ثمان نسوة فقط . و لا يقبل في سائر الحقوق كلها من الحدود و الدماء و ما فيه القصاص ، و النكاح و الطلاق و الرجعة و الأموال إلا رجلان مسلمان عدلان أو رجل و امرأتان كذلك أو أربع نسوة (...) و قد صحح عن إياس بن معاوية قبول امرأتين في الطلاق ، و عن محمد بن سيرين أن شريحا أجاز شهادة أربع نسوة على رجل في صدق امرأة ، و عن الزبير بن الخريت عن ليبيد قال : إن سكرانا طلق امراته ثلاثا فشهد عليه أربع نسوة ، فرفع إلى عمر بن الخطاب فأجاز شهادة النسوة و فرق بين الزوجين . و عن عطاء قال : أجاز عمر بن الخطاب شهادة النساء مع الرجال في الطلاق و النكاح ، و في رواية أخرى عن عطاء بن أبي رباح قال : تجوز شهادة النساء مع الرجال في كل شيء . أما ما جاء عن الزهري الذي قال : مضت السنة من النبي -صلى الله عليه و سلم- و من أبي بكر و عمر أنه لا تجوز شهادة النساء في الطلاق و لا في النكاح و لا في الحدود فبليّة : لأنه منقطع من طريق اسماعيل بن عياش و هو ضعيف عن الحجاج بن أرطاة و هو هالك ، و أما الرواية عن عمر : فلو فتحنا هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين رجل و امرأته إلا فعلت ذلك ، فهو عن الحارث الغنوي و هو مجهول . ثم إن عمر لا يقول هذا الكلام " (٤) ؛

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٢

(٢) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ص ٥٨

(٣) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ص ١٣٩

(٤) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٥٩ - ٦٠ - ٦١

وعلى الرغم من أن هناك رأياً - يرى البعض أنه رأي مجهول - يذهب إلى أنه لا تقبل في الشهادة على الحدود إلا شهادة الرجال (١) ، إلا أن الشيخ الغزالي يرجح ما ذهب إليه ابن حزم حيث يقرر قبول شهادة المرأة في كل شيء وفق النصاب الثابت في الكثير من الأدلة (٢) ، و يبدو الشيخ الغزالي في هذا الترجيح منتصراً لظاهر النص القرآني في تعليل كون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ، وهو ما مال إليه كذلك كثير من المفسرين المحدثين ، إذ يقول سيد قطب عن ذلك التعليل : " فأما حين لا يوجد رجلان فليكن رجل واحد و امرأتان .. و لكن لماذا امرأتان ؟ إن النص لا يدعنا نحسد ! ففي مجال التشريع يكون كل نص محدداً واضحاً معللاً : " أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى" .. و الضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة . فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه و ملابساته و من ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء ، فتذكرها الأخرى بالتعاون معا على تذكر ملابسات الموضوع كله ، وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة و حيوية لا ترجع فيهما إلى التفكير البطيء .. وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة .. وهذه الطبيعة لا تتجزأ ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها - حين تكون امرأة سوية - بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيحاء ، ووجود امرأتين فيه ضمانات أن تذكر إحداهما الأخرى - إذا انحرفت مع أي انفعال - فتتذكر وتفيء إلى الوقائع المجردة " (٣) ؛ وهو ما ذهب إليه أيضاً الشيخ محمد علي الصابوني بقوله : " فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجل و امرأتان ممن يوثق بدينهم وعدالتهم " أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى " أي تتسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى، وهذا علة لوجوب الإثنتين لنقص الضبط فيهن " (٤) .

من هذا المنطلق تحديداً فإن الشيخ الغزالي تشبث بالعموم الوارد في النص القرآني ، وهو ما يقتضي أن شهادة المرأة لا تقتصر على ميدان دون ميدان ، بل إن هناك قضايا تقبل فيها شهادة المرأة وحدها لتوافق طبيعتها معها ، وإن كان من الفقهاء من ميز بين الشهادة التي ينبني عليها الحكم القضائي والشهادة التي تفضي إلى مجرد الاستيثاق وتقديم البينة ، غير أن هذا التمييز يعتبر نظرياً أكثر منه عملياً ، فهو لا يكاد من الناحية الواقعية يرتبط بنتيجة عملية .. ولعل الشيخ الغزالي ذهب هذا المذهب في هذه المسألة لا تساقه مع البعد أو الصفة الغالبة في فكره وهي اختيار الآراء الفقهية التي ترغب في

(١) أحمد فتحي بهنسي ، الفقه الجنائي الإسلامي ، دار الشروق ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ١٣٣

(٢) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر السابق) ص ٦١ ، وكتابه سر تأخر العرب و المسلمين ص ٢٣

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج١ ، ط١١ ، دار الشروق ، بيروت ١٩٨٥ م ، ص ٣٣٦

(٤) محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج١ ، ط٥ ، بيروت : دار القلم وجدة : دار مكتبة جدة ، ١٩٨٦ م) ، ص ١٠

الإسلام وتخدم صورة الدعوة في هذا العصر ، أو لتأثره ببعض الأساتذة و الفقهاء الذين أخذ عنهم ، كالإمام الشيخ محمود شلتوت الذي يقول معلقاً عن هذه المسألة : " ولا يزال في الناس إلى يومنا هذا من يرى أن إنسانية المرأة أقل من إنسانية الرجل ، وأنها لذلك كانت في الميراث على النصف من ميراث الرجل ، وكانت لذلك في الشهادة ، ويقولون : إن ذلك هو حكم الإسلام وقد قرره القرآن " للذكر مثل حظ الأنثيين" (١) . . . " فإن لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان " (٢) ، و الحق أن حكم المرأة في الميراث ليس مبنيًا في الإسلام على أن إنسانيتها أقل من إنسانية الرجل ، وإنما هو مبني على أساس آخر قضت به طبيعة المرأة (. . .) أما آية الشهادة فهي ترشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذي تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما ، وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل ، لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضي ، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو البينة ، وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة في الشرع أعم من الشهادة وأن كل ما يتبين به الحق و يظهره هو بينة يقضي بها القاضي ويحكم ، ومن ذلك أنه يحكم بالقرائن القطعية و يحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها ، واعتبار المرأتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذي يتبع نقص إنسانيتها و يكون أثره (. . .) و قد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها ، و هي القضايا التي لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها كالولادة و البكارة و عيوب النساء في القضايا الباطنية . . . و مالنا نذهب بعيدا و قد نص القرآن على أن المرأة كالرجل -سواء بسواء- في شهادات اللعان ، و هو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجته و ليس له على ما يقوله شهود " (٣) ؛ و إذا كان بعض الفقهاء و المجتهدين -كعبد الله بن عمر- يشترطون لشهادة النساء وجود رجل في بعض القضايا كالأموال و النكاح و الرضاع (٤) فإن العبرة عند الشيخ الغزالي بعدالة الشخص الشاهد ذاته ، أي أنه يشدد على الشروط الشرعية للشهادة ، أما بقية الاعتبارات -كالذكورة و الأنوثة- فإنها تأتي في المقام الثاني ، لكن وفق النصاب الذي حدده القرآن ، و مرد هذا الموقف فيما أرى غلبة و رجحان روح المقاصد العامة من التكليف في فقه الشيخ الغزالي و منظوره الفكري ، و أيضا تقديم المصلحة ذات الأثر النافع لخدمة الإسلام و تحسين صورة دعوته . ثم إن ظاهر النصوص يعضد هذا الموقف ، فإن ما صح في السنة من كون المرأة راعية و مسؤولة عن رعيها ، و من كون الفقه الإسلامي لا يمانع في أن تلي بعض الأمور ، و ذلك من الشهادة ، كما أجاز أبو حنيفة أن تلي المرأة الحكم ،

(١) سورة النساء آية : ١١

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٢

(٣) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة ، دار الشروق ، ط ١٠ ، القاهرة وبيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، من ص ٢٣٧ - ٢٤١

(٤) محمد رواس قلعة جي ، موسوعة فقه عبد الله بن عمر ، (سلسلة موسوعات فقه السلف : ٧) دار النفائس ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٤٦٤

وأجاز المالكية أن تكون وصية و وكيلة ، و أباح الأحناف كذلك توكيلها بالخصومة (المحاماة) .. الخ ، و بما أن كل هذه المسؤوليات و التكاليف تقتضي حسن الشهادة و عدم الجرح في عدالة الشخص الشاهد ، و درءاً للتناقض الذي قد يحصل في بعض المواطن بين الأمرين ، رأينا الشيخ الغزالي يحترم تلك المقررات ، و يقرر الأخذ بعموم ما توحى به الأدلة و النظائر الواردة في سياق هذه المسألة الفقهية (١) .

خامساً : قضايا أخرى مختلفة :

اهتم الشيخ الغزالي اهتماماً متميزاً بقضايا المرأة و الأسرة ، و حرص على معالجة جوانبها المختلفة ، حتى باتت هذه المسألة من أبرز و أهم المحاور في فكره و نشاطه العلمي و الدعوي ، و ما ذلك إلا لإيمانه القوي الراسخ بمكانة المرأة في عملية البناء الاجتماعي و دور الأسرة المتماسكة الصالحة في إرساء قواعد المجتمع المسلم و الحضارة الإسلامية ... و بالإضافة إلى المسائل التي عرضنا لها آنفاً و جليلاً موقفه و فقهه إزاءها ، نعرض فيما يأتي لقضايا أخرى ، عالجهما الشيخ بقلمه و جهوده المتلاحقة و اجتهاداته المتجددة في ساحات الحياة الإسلامية و حقول التغيير الاجتماعي الواعي على صعيد أمل الإحياء و الانبعاث الإسلامي الجديد :

(١) - الأسرة المسلمة و مشكلة الطلاق : يرى الشيخ الغزالي أن الأمة الإسلامية ابتعدت في الأعصار الأخيرة عن الإسلام و تعاليمه ، و أن ظاهرة التسرع في التطلاق هي أثر واضح لذلك الابتعاد الذي يصل أحياناً إلى حد الجفاء و التجاهل ، و حتى تنفيذ هذا الطلاق أصبح لا تراعى فيه أحكام الإسلام و هداياته السمحة الراشدة، و بالرغم " من المكانة الملحوظة التي وفرها الإسلام للأسرة بتعاليمه المحكمة ، فإن المسلمين ظلموا أنفسهم في السنين الأخيرة ظلماً مبيهاً عندما جهلوا أو تجاهلوا منهج دينهم في ذلك الموضوع الجليل !! لقد تعمدوا إهمال بعض الأحكام و تركوا للعقول الكليية أن تشوه البعض الآخر ، و نشأت عن ذلك فوضى عملية و فقهية مؤسفة .. خذ مثلاً الأمر بالتحكيم عندما يعجز الزوجان عن حل مشكلاتهما . إن المسلمين يكادون يتفوقون على إهمال هذا الأمر ، و قلما يكثرثون لانتشال الأسرة الغارقة عن طريقه ! ما سر هذا الانصراف ؟ أهو الزهد في إصلاح ذات البين ؟ أهو الرغبة في تيتيم الأولاد و أبواهم أحياء ؟ إن هذا عمى عن هدايات الله . و الطلاق في الإسلام يبدأ وفقاً للعلاقة الزوجية لا حسماً لحبالها ! كما يوقف الموظف إلى أن يبيت في أمره مع بقاء صلته بعمله . و تبعاً لهذا أوجب الله على المرأة إذا طلقت أن تظل في بيت الزوجية ، فلا تخرج منه لأنه مازال بيتها ، و لا يجوز للرجل أن يخرجها منه . فهل يصنع المسلمون هذا ؟ و هل تبقى المرأة في البيت عندما تسمع لفظ الطلاق؟ إن الجماهير لا تعي هذا المعنى و لا تتفذه ، و المرأة تدع البيت فور سماعها الكلمة الكريهة ،

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر السابق) ص ٦١

و لو فكرت في المكث لاستخرجها الرجل الغاضب ! و الإسلام لما أوجب على المطلقة البقاء في البيت إنما يريد الانتظار حتى تهدأ العاصفة و تتحرك الضمانر ، و يراجع كلا الطرفين موقفه و يستعرض ذكريات الماضي و تبعات المستقبل ، و يدرس أحوال الأطفال إن كان هناك أطفال ، فالهروب من البيت عقب كلمة الطلاق تضييع لفرص التفاهم ، و لعودة المياه إلى مجاريها و لانتصار الرشد على الحمق ، و لذلك يقول الله تعالى: (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) (١) و مع ذلك فالمسلمون يتجاوزن حدود الله في هذا المجال ، و ليس الطلاق كلمة تقال في أي وقت أو ترسل بأي صيغة ، فإن الله رسم له أسلوبا معيناً يجب التزامه (٢) " ؛ كما يرفض الشيخ الغزالي أن يكون الطلاق يمينا ، لأن اليمين لا يكون إلا بالله أو باسم من أسمائه الحسنی فحسب ، أما ما يتداوله العامة بينهم من أيمان الطلاق فلا قيمة له ، و يتبع ذلك أيضا الطلاق المعلق ، و طلاق السكاري و العابثين الذين لا يفقهون ما يقولون ، فذلك عنده من اللغو الذي لا تنقض به عرى الزوجية (٣) .

من أجل ذلك رأينا الشيخ الغزالي يرفض إنفاذ الطلاق الذي يكون أساسه اليمين أو تحريم الحلال و ذلك انتصارا لظاهر النصوص القرآنية و ترجيحاً لغاية المحافظة على بقاء الأسرة و استمرارها جمع و تماسك أبنائها ، و في بيان أو ومعرض تحريره الفقهي لهذه المسألة نراه يروي هذه القصة التي تلخص جانباً من حدود استيعابه للأهداف الشرعية في القضايا الفقهية : " طرقت بابي رجل مذعور يتحدث حديثاً موتوراً في أهله و ماله ، و أحسست أنه يطلب مني النجدة ! قلت له في هدوء : ما بك ؟ قال : في ساعة غضب فقدت وعيي و قلت لامرأتي : أنت علي حرام .. و أفتى الشيوخ بأنني قد فقدتها فلا تحل لي أبدا .. قلت للرجل : أتصلي الخمس ؟ قال : نعم ، قلت : و امرأتك ؟ فتردد قليلا ، ثم قال : تصلي أحيانا ! قلت : و أولادك ؟ قال : بعضهم يصلي و بعضهم لا يهتم بالصلاة ! فترثت طويلا كأنني أبحث له عن حل ثم قلت له نرد زوجتك إليك على شرط ! قال : ما هو ؟ قلت : تحافظ أنت و زوجتك على الصلوات ، و تراقب علاقة أولادك بالمسجد حتى تطمئن إلى أنهم يؤدون الفرائض الخمس ، و عليك كفارة يمين ، تطعم عشرة مساكين إن كنت غنيا أو تصوم ثلاثة أيام إن كنت فقيرا ... و استبق زوجتك في بيتك ! و خرج الرجل ، و بعد أيام جاعني الشيوخ الذين أفتوه بأن " امرأته طلقنا باننا ، سألوني كيف أفتيت بحل هذه الزوجة ؟ إننا هنا مالكية نعد ما وقع بينونة كبرى ؟ قلت : مذهبي غير ذلك ، نحن نرى تحريم الحلال يمينا ، و كفارته كفارة يمين . و في صحيح مسلم عن ابن عباس قال : إذا حرم الرجل امرأته فهي يمينا يكفرها ... و في رواية أخرى أن رجلا جاءه و قال له : إنني جعلت امرأتي علي حراما ، فقال له ابن عباس : كذبت ، ليست عليك بحرام ! ثم تلا قوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما

(١) سورة الطلاق ، آية : ١

(٢) محمد الغزالي ، هذا بيننا ، دار الكتب الحديثة ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، ص : ١٧١ - ١٧٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٤

أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ؟ و الله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحله أيمانكم ..(١) عليك كفارة يمين ! ! و يبدو أن كلامي لم يقنع سامعيه فقلت لهم : لماذا نتحمسون لخراب بيت ، و جعل المرأة أيما و الأولاد يتامى و أبوهم حي ؟ إن المذاهب تختلف في فروع الفقه ، و في الأحكام التي تصدرها على أعمال الناس ، و علينا أن نختار الأرعى لمصلحة الأسرة و مستقبل الأولاد و استقرار المجتمع ، علينا أن نحسن الإسلام من تهم الأعداء و أحقاد المتربصين ! و ما دام هناك رأي إسلامي محترم فلا ينبغي أن نتعصب لما نألف إذا كان ما نجهله خيرا و أجدى على الناس .. قال لي رجل مريب : كأنك لا تحب مالكا و مذهبه ! قلت : أعوذ بالله من كراهية الصالحين ، إنني في صلاتي أتبع مالكا فأصمت في الجهرية و أقرأ في السرية مع أن أبا حنيفة الذي تعلمت مذهبه يحرم القراءة في السرية و الجهرية على سواء ! ! رأيت مالكا هنا أولى بالإتباع .. إنني أكره التعصب الأعمى ، و فيما يتعلق بشؤون الأسرة و أحوال المجتمع أؤثر كل رأي يحقق المنفعة العامة و الخاصة و يوائم ما تصبو إليه الإنسانية المعاصرة من احترام للفطرة و لحقوق الإنسان ! إنني لست مغرما بجر الشبهات إلى سمعة الإسلام (٢) .

لكن ليس معنى ذلك ، و مجازاة لهذا التحرير الفقهي الحريص على استقرار الأسرة المسلمة أن الشيخ الغزالي يرفض إنفاذ الطلاق ، فذلك أمر واضح في فقهه ، إنه يأبى طرق إنفاذه التي لم يحددها الشارع ، أو وفق أساليب مخالفة لطواهر النصوص و مقاصد الشرع الحنيف ، كما يدعو الشيخ في الوقت ذاته إلى الإلتزام بأحكام الإسلام و تبين مواضع المصلحة الإسلامية بعمق ، فإن " الطلاق حق الزوج و لن تستطيع شرطة القاهرة و لا شرطة العالم أجمع إلقاء الرجل في أحضان امرأة تتأفر وده معها ، و أجمع أمره على قطعها ، وليس من كرامة المرأة أن يسن قانون بهذا الوضع الشاذ ، إن منع الطلاق إجراء يقع في الغرب حيث يستطيع الرجل أن يبقى زوجا صوريا لامرأة يتصل بغيرها و يتصل بغيره ، ونحن نأبى إقرار هذا الفسوق ، ونأبى تطويع الإسلام لمن يستمرنون هذا السلوك .. علاج سوء التطبيق هو رفع المستوى العلمي و الخلقى وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهي قواعد من أنبل وأشرف ما وعى التاريخ(٣) ."

إن هذه الرؤية التي يقدمها الشيخ الغزالي تركز على أساس متين قوامه مراعاة الأحكام القطعية في الدين مع البحث الدقيق و الحصيف لمواضع المصلحة العامة للمجتمع المسلم ، وذلك يقتضي غالبا تخير الآراء و الاجتهادات الفقهية التي توازن بين تلك الأهداف و التقديرات ، و من ثمة فإن الشيخ يرى بأن قضايا الأسرة تشبه قضايا الحدود و القصاص و قضايا السلم و الحرب و غير ذلك من القضايا الدولية ، لا بد من تدخل الدولة لحسم الخلاف في تفصيلاتها و تبني الرأي الأنسب لظروف و واقع المجتمع ،

(١) سورة التحريم ، آية : ١ - ٢

(٢) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٧٢ - ١٧٣

(٣) محمد الغزالي ، هذا ديننا (مصدر سابق) ص ١٧٤ - ١٧٥

أي أن الأسرة عنده - كما هذه المسائل - هي مجال الاجتهاد الجماعي لا الفردي ، وهي كذلك مجال الاجتهاد المفتوح أمام وجهات النظر المختلفة ، وأن الإختيار الحر من شتى المذاهب الاجتهادية أدنى إلى الحق ، وأعود بالنفع على الأمة ، وإذا كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، فأفضل ما نفعل أن نضيق الخناق على الآراء التي توقعه لأدنى شبهة .. هناك فقهاء تحسبهم متربصين لكلمة الطلاق نقال أو تفهم أو تتوهم فإذا هم يحكمون على الحياة الزوجية بالموت كأنما يشتهون تمزيق الشمل ويعثرة الكيان ! وقد سرنى من ابن تيمية رده لطلاق البدعة ، وبصره الذكي بالنصوص وحكمتها ، واستغربت من أتباعه أن يتجهموا لهذا الجانب الذكي من فقه الرجل " (١) ؛ وفي الوقت الذي يعنى فيه الشيخ الغزالي على الفقهاء الذين يسارعون في التطليق وفك العصمة الزوجية وتشريد الأبناء ، نراه يشيد بموقف ابن تيمية في فهمه لطلاق الثلاث ويرفض إمضاء ابن حزم لهذا الطلاق ، وذلك جانب من فقه الشيخ الغزالي الاجتماعي وصورة لادراكه العميق للحكمة من التشريع ومقاصده العامة ، لأن ما يمكن أن يستخلص من النظر في الأدلة أن الإسلام " يريد التريث في معالجة ما ينشأ بين الرجل وامرأته ، لعل المياه تعود إلى مجاريها ، وهذا ما يفهمه كل عاقل من ختام آية الطلاق (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) (٢) ، وقد قال تعالى في سورة البقرة (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (٣) ، هناك ثلاثة إمساكات بمعروف وهناك ثلاثة تسريحات بإحسان ، و التسريح الأخير هو الحاسم لعلاقة الزوجية أو ما يسمونه البيئونة الكبرى ، وما يقع الطلاق بهذه الصورة إلا بعد أيام منطاوله أو محاولات فاشلة ، أما إمضاء الثلاث بلفظ واحد في وقت واحد ، فلون من اللعب بدين الله دفع المؤمنون ثمنه غالبا من سعادتهم و استقرارهم ، وقد جادل ابن حزم طويلا في إمضاء الطلاق الثلاث ، لكن ابن تيمية كان أولى منه بالحق وأبصر بمصلحة الأمة " (٤) ، لكن الشيخ الغزالي يعود ليقف إلى جانب ماقرره ابن حزم في قوله " ومن قال لامرأته أنت علي حرام ، أو زاد على ذلك كالميتة و الخنزير ، فهذا كله باطل وكذب ولا تكون عليه حراما ، وهي امرأته كما كانت نوى بذلك طلاقا أو لم ينو ، لأن الله يقول لنبيه (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟) (٥) .. فلا يقع الطلاق إلا بلفظ من ثلاثة ألفاظ هي : الطلاق أو السراح أو الفراق ، أو ما يشتق من هذه المصادر " (٦) ؛ و دلالة ذلك أن فقه الشيخ الغزالي في هذه المسألة يتمثل في وضع القيود على الطلاق وعدم التساهل في إمضائه ، لأن ذلك هو ما يفهم من هدايات الشارع ؛

(١) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٨١

(٢) سورة الطلاق آية : ١

(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٩

(٤) محمد الغزالي (المصدر السابق) ص ١٨٢

(٥) سورة التحريم آية : ١

(٦) محمد الغزالي (المصدر السابق) ص ١٨٣

و يبدع الشيخ الغزالي في ضبط هذه القضية حين يذهب إلى ضرورة الإسهاد على الطلاق (١) حفاظا على كيان الأسرة المسلمة ، و إنقاذها من الأفهام المتسرعة و العقول الكليّة . بمقاصد الشرع و غايات التكليف ، و من ثمة فهو يقرر بأن كل " قيد يوضع لاستبقاء الزوجية فنحن نرحب به وقد توسع بعض العلماء في أفاظ حقيقية أو مجازية للإجهاز على عقد الزوجية ، و هذا التوسع ينافي اتجاه الشارع إلى إعطاء فرص للإصلاح ، و لا مساع لتلقف كلمة من هنا أو من هناك لهدم البيت و تشريد من فيه ... و من المتناقضات الباعثة على الحزن أن المسلم ينفق أوقاتا و أموالا في الخطبة و المهر و الأثاث و الهدايا و العرس قد تكون ألوف الجنيهات في أيام طوال ، ثم بعد ذلك كله يقول : (عليه الطلاق إن عاد إلى التدخين) ثم يدخن و تذهب امرأته في سيجارة و ينهار بيت أنفق في إقامته الكثير ! لقد رفض ابن حزم جميع أنواع الطلاق المعلق ، و اضطر المشرع في مصر من ستين سنة خلت إلى التدخل لوقف هذا البلاء ، و جاء في المذكرة الإيضاحية لهذه المادة : (إن المشرع أخذ في إلغاء اليمين بالطلاق برأي بعض علماء الحنفية و المالكية و الشافعية ، و أنه أخذ في إلغاء المعلق الذي في معنى اليمين برأي علي بن أبي طالب و شريح القاضي و داود الظاهري و أصحابه) .. و استطيع أن أضم إلى ذلك رفض الطلاق الذي ليس عليه إسهاد ، فالشاهدان لا بد منهما لقبول العقد و الرجعة و الطلاق على السواء .. و خير لنا نحن المسلمين أن نقتبس من تراثنا ما يصون مجتمعنا و يحميه من نزوات الأفراد ، أما الزهد في هذا التراث كله فهو الذي فتح الطريق لمحاولات تصيير قوانين الأسرة (٢) " .

فالشيخ الغزالي إذن بهذا الفقه يتطلع إلى استدامة الحياة الزوجية و الأسرية لأن ذلك عنده هو السبيل لبناء المجتمع الإسلامي القادر على تحمل مسؤوليات و أعباء الرسالة و للتكاليف المطالب في الخطاب الإلهي بتبليغها لغيره و السهر على حماية موارثها و ثمراتها ، و عليه فإن الطلاق لديه " شيء بغيب لا سيما بعد أن يتحول الزوجان إلى والدين ، فإن ضرر الانفصال يتجاوزهما إلى غيرهما من الأبرياء ! و أرى أن الوقاية خير من العلاج ، و أن استدامة الحياة الزوجية أولى من تعريضها للانقطاع ثم مواجهة الآثار السيئة للطلاق ، و هذه الاستدامة لا تتوافر إلا مع الإيمان الحق و الإخلاص الطاهر و اكتفاء الرجل بزوجه التي يسرها القدر لها ، و كذلك رضاء المرأة بزوجه و حياطتها له (...). إن الإسلام بتعاليمه الدقيقة يحفظ حاضر الأسرة و مستقبلها ، و يبعد شبح الطلاق المرعب عنها !

(١) عرف الشيخ الغزالي بهذا الرأي منذ مطلع حياته الدعوية ، وفي ذلك يقول في معرض الدفاع عن رأيه : " وأذكر أن أحدهم وهو من شيوخ الأزهر المحترمين اعترض خطبة لي كنت حذت فيها الإسهاد على الطلاق ، وعدم وقوع الطلاق البدعي ، قال لي : كيف قلت هذا الكلام ؟ قلت : مذهب إسلامي أعجبنى ورأيت يعالج بعض مشكلات الأسرة ، قال : هذا مذهب مهجور ، و الفتوى عندنا على مذهب أبي حنيفة ! قلت له : أنا ألتمس العلاج في أي مذهب إسلامي ، ولأن نعتمد في التشريع على مذهب إسلامي قديم خير من أن يستورد النساء مذهباً كفرنانيا من أوروبا ، واستتليت : إن قوى الكفر كلها تحارب الإسلام ، فينبغي أن يدافعها الإسلام بمجتهديه ومفكره كلهم لأبواحد منهم وحسب ، إن الإسلام هو الذي صنع أبا حنيفة وغيره من الرجال ، وليسوا هم الذين صنعوا الإسلام " (محمد الغزالي ، ظلام من الغرب (مصدر سابق) ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، د.ت، ص ١٦٢)

(٢) محمد الغزالي ، فضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٨٣ - ١٨٤

لكن الطلاق أخذ يشيع في مجتمعات إسلامية كثيرة لأن انحلال المدنية الغربية تسالل إلينا و شرعت جرائمه تدق بعنف الأبواب المغلقة " (١) ؛ و في سبيل هذه الغاية و من أجل تحقيق مقاصد الإسلام من الزواج و الأسرة رأينا الشيخ الغزالي ينعى على الذين جانفوا الصواب في هذه القضية الحساسة تحت ضغط الخلاف الفقهي و التقليد المذهبي ، و يدعوهم إلى إعادة النظر في مواقفهم و رفض امضاء كل الصيغ غير الشرعية للطلاق تمثيا مع أهداف الإسلام و تعاليمه ، فيقول محتجا مغتاظا : " إن عددا من الفقهاء قبل الطلاق البدعي و أمضاه و أنفذ جميع آثاره ، إنه عدد كبير ! و الذي صدع بالحق في هذه القضية من أهل السنة هو ابن تيمية و ابن القيم و ابن حزم -تقريبا- و ثلثة من الآخرين تمردوا على تيار الخطأ و قاوموا الانجراف معه . و قد تصدعت أركان الأسرة عقب الاعتراف بطلاق البدعة ، و وقعت مهازل تثير الغثيان و الأسى ، فهذا رجل ينفق عند زواجه عشرات الألوف ليبنى بامرأته ، ثم تسمعه في السوق يحلف بالطلاق صادقا أو كاذبا على رطل من اللحم يساوي دراهم معدودات ! و تهدم الأسرة ! و هذا فقيه يكتب في تأليف مدرسي لطلاب العلم الديني : (من قال لامرأته أنت طالقة نصف تطليقة و وقعت طالقة واحدة) ! ! أي عبث هذا ؟ هذه مسالك حشاشين ! روى ابن حزم في المحلى (أن رجلا جعل امرأته عليه حراما ! فسأل عن ذلك حميد بن عبد الرحمن الحميري ؟ فقال له حميد : إن الله قال لنبيه (فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب) (٢) و أنت رجل تلعب قاذب فالعب ! !) إن التحليل و التحريم ليسا إلى أهواء الناس و فتاواهم : (و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال و هذا حرام لتفتروا على الله الكذب) (٣) .. إنني أريد للرشد و الاستقامة للأسرة المسلمة ، و لي و لغيري أن نلقى نظرة فاحصة على أحكام الطلاق ، و لن نجيء بشيء من عندنا ، و لكننا نختار من أقوال الفقهاء أدناها إلى الكتاب و السنة ، و أغيرها على مصلحة الوالدين و الأولاد و مستقبلهم ، و أعرف أن هناك من يحمر وجهه غضبا كي تبقى للطلاق البدعي مكانته العملية ! و رضا هؤلاء أو سخطهم لا يعنيني . إن اهتمامي الأول و الآخر بتعاليم الإسلام و مصلحة المسلمين (٤) " ؛ من هذا المنطلق تحديدا انتصر الشيخ الغزالي لقضايا المرأة و سعى لإصلاح شؤونها ، و غاظه بشدة أن تلقى المرأة المسلمة الهوان و الضيم رغم وضوح التعاليم القرآنية و النبوية ، بل إن أحكاما أهملت كل الإهمال لأنها تتصل بمصلحة المرأة ، و في مجتمعات إسلامية كثيرة قلما نالت امرأة ميراثها أو استشيرت في زواجها ، و بين مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتع مطلقا واحدة ! و التطويح بالزوجة لشأن تافه أو نزوة طارئة أمر عادي ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١ - ٢٢

(٢) سورة الشرح آية : ٧ - ٨

(٣) سورة النحل آية : ١١٦

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٦ - ١٨٧

و قلما ينعقد لأجلها مجلس صلح و كأنها لا تساوي قيمة مجلس يعالج مشكلاتها ؛ و قد استغل الإستعمار هذه الفوضى و اعتبر الإسلام هو المسؤول عنها لتمعن الأجيال الإسلامية في النأي عن تعاليم الإسلام و تزداد تمسكا بتقاليد الحضارة الوافدة (١) .

(٢) - حقيقة معنى القوامة : يرى الشيخ الغزالي أن الكثير من البيئات و المجتمعات الإسلامية تجانب الصواب في فهم المعنى الشرعي للقوامة ، و هذه إحدى المفاهيم التي ينبغي تصحيحها كي يستقيم وضع الأسرة المسلمة وفق الحدود التي أنزلها الله و بينها في كتابه " فهل قوامة الرجل على بيته تعني منحه حق الاستبداد و القهر ؟ بعض الناس يظن ذلك و هو مخطيء ! فإن هناك داخل البيت المسلم ما يسمى (حدود الله) و هي كلمة لاحظت في تلاوتي للقرآن الكريم أنها تكررت ست مرات في آيتين اثنتين ! و الآيتان في دعم البيت المسلم حتى لا يتصدع ، و في تدارك صدوعه حتى لا ينهار ، و هما قوله تعالى (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله . و تلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) (٢) ، و ما هذه الحدود التي تكررت ست مرات خلال بضعة سطور ؟ إنها الضوابط التي تمنع الفوضى و الاستخفاف و الاستضعاف ، ضوابط الفطرة و العقل و الوحي التي تقيم الموازين القسط بين الناس ، إن البيت ليس وجارا تسكنه الثعالب ، أو غابا يضم بين جذوعه الوحوش (...). إن ظلم الأزواج للأزواج أعرق في الإفساد و أعجل في الإهلاك من ظلم الأمير للرعية فإن رابطة الزوجية أمّن الروابط و أحكمها فتلاً في الفطرة الإنسانية ، فإذا فسدت الفطرة فسادا انتكث به هذا الفتل و انقطع ذلك الحبل ، فأى رجاء في الأمة من بعده يمنع عنها غضب الله و سخطه . إن هذا التجاوز لحدود الله يشقي أصحابه في الدنيا كما يشقيهم في الآخرة (٣) " .

و يلاحظ الشيخ الغزالي بأن البيئة الخارجية لها آثارها العميقة على وضع الأسرة و العلاقة الزوجية ، و أن مدافعة تلك الآثار إذا كانت سلبية مرضية لا يكون إلا باستيعاب دور و رسالة الأسرة المسلمة و الوعي بحدود الله تعالى ، و الارتفاع إلى المستوى المطلوب الذي تقتضيه تلك الرسالة و ذلك الدور ، بل إن التفاعل مع هذه الحدود و المعالم هو من معاني الشورى التي فرض الله تعالى تعاليمها بين كل المؤمنين بكتابه و هديه، و لاشك أن التطويح بهذه الهدايا المفروضة سيجعل الأسرة المسلمة في اضطراب خطير يحرمها من ثمرات الاستقرار و النضج و يجعل علاقاتها معرضة لشتى المنازع

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ، ص ٤٢

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٥٤ - ١٥٥

و الأهواء " والواقع أن داخل البيت يتأثر بخارجه ، وتيارات الميوعة و الجهالة و الإسراف إذا عصفت في الخارج تسللت إلى الداخل فلم ينج من بلاتها إلا من عصم الله ... إننا نريد أن نتفق أولاً على إقامة حدود الله ، كما رسمها الكتاب الكريم و شرحها السنة المطهرة ، و أرى أن ارتفاع المستوى الفقهي و الخلقي و السلوكي لكلا الجنسين سيوطد أركان السلام داخل البيت و خارجه و سيجعل المرأة تيسر سلطانتها في دائرتها ، كما يتيح للرجل أن يملك الزمام حيث لا يصلح غيره للعمل في زحام الحياة و عراكها الموصول ... و إذا كان البيت مؤسسة تربوية أو شركة اقتصادية فلا بد له من رئيس ، و الرياسة لا تلغي البتة الشورى و التفاهم و تبادل الرأي و البحث المخلص عن المصلحة ، إن هذا قانون مطرد في شئون الحياة كلها فلماذا يستثنى منه البيت ؟ وقوله تعالى في صفة المسلمين (وأمرهم شورى بينهم) (١) نزل في مكة قبل أن تكون هناك شئون عسكرية أو دستورية ! وعموم الآية يتناول الأسرة و المجتمع (٢) .

لذلك ومن أجل استبقاء أثر هذه المقررات القرآنية في نطاق الأسرة المسلمة و العلاقات بين أفرادها رأينا الشيخ الغزالي ينتقد بعض المحدثين و مسلكتهم في قبول سند بعض النصوص دون نظر في مدى مطابقة متونها لتعاليم الإسلام و هديه ، و من ذلك بعض الأحاديث التي وردت في موضوع القوامة و معالجة النشوز ، فيقول بلغة الاحتجاج و الاستنكار : " يملكني الغضب و الأسى عندما أجد رجال الحديث النبوي ضعفاء الوعي بالقرآن ! يقرؤون على الناس الحديث غير شاعرين بقربه أو بعده من هذه الآيات القرآنية . في الجزء الثالث من تيسير الوصول إلى جامع الأصول (*) جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال : (لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته) (٣) ، قال الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على هذا الحديث : و أخرجه النسائي ! أي أنه قوى سند الحديث و ترك المتن و كأنه صحيح لا غبار عليه ! و هذا الظاهر باطل ، فالمتن المذكور مخالف لأحاديث أخرى كثيرة ! و عدوان الرجل على المرأة كعدوان المرأة على الرجل مرفوض عقلا و نقلا و عدلا ، و لا أدري كيف قيل هذا الكلام و نسب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ! إن من قواعد الجزاء الأخروي قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٤) فهل الزوجة وحدها هي التي تخرج عن هذه القاعدة فلا يسأل الرجل (فيم ضربها ؟) له أن يضربها لأمر ما في نفسه أو لرغبة عارضة في الاعتداء ؟! (...) و لقد اتفقت كلمة المفسرين على أن التأديب يكون بالسواك مثلا ، فلا يكون ضربا مبرحا و لا يكون على الوجه ... و ليس يتصور من هذا كله أن يعدو الرجل على امرأته كلما شاء ، و أنه لا يسأل عن ذلك أمام الله !

(١) سورة الشورى آية : ٢٨

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٥

(*) هو لابن الدبيع الشيباني الزبيدي

(٣) أخرجه أبو داود

(٤) سورة الزلزلة آية ٧ - ٨

و من ثم فالحديث الذي رواه أبو داود والنسائي في ضرب النساء لا أصل له مهما تمحلوا في تأويله .
على أن من احترام الواقع ألا نظن النساء كلهن ملائكة و الرجال جميعا شياطين هذا ضرب من السخف ؛
و الانحياز في الحكم إلى أحد الجانبين ليس من الإنصاف ، و الأولى أن ندرس العلاقات العائلية بتجرد
و أن نحسب آثار الطباع و الأزومات و الأحداث الطارئة ، و ألا نترك لسبب تافه القضاء على الحياة
الزوجية (١) " .

كما ينتقد الشيخ الغزالي مفهوم بيت الطاعة الذي يسود بينات إسلامية كثيرة ، و يصفه بأنه اجتهاد
خاطيء ، و علة انتقاد الشيخ لهذا المفهوم الخاطيء هو تبرئة ساحة الإسلام و الارتقاء بالمجتمعات
المسلمة إلى غايات و مقاصد التعاليم الإسلامية ، و الوقوف في طريق الذين يلصقون مثل هذه التهم
بالشريعة و القوانين الإسلامية ، ثم تحسب بعد ذلك العادات و التقاليد و الهنات الاجتماعية و أهواء الناس
على الإسلام و شريعته ، و من ذلك رفض بعض الأزواج لحق المرأة في المخالعة و إن قامت أسبابه
بحجة استخدام حق القوامة و الاشراف على وثاق العصمة الزوجية ، و مع ثبوت " الخلع في الكتاب
و السنة فقد رأيت جملة من المشتغلين بالفقه يتجاهلون و يرفضون إنهاء عقد الزوجية به سواء بالفسخ أو
بايقاع الطلاق ، و بعضهم يدخله في الطلاق للضرر! و يابى أن يكون لمشاعر البغضاء عند المرأة وزن !!
و قد عاصرت عهدا كان القضاء (الشرعي) يأمر بإرسال الشرطة إلى أسرة الزوجة لإرغامها على
الذهاب إلى بيت الطاعة كي تعاشر زوجها ، و كانت الأسرة تقوم بتهريب الزوجة إلى مكان بعيد فرارا
من تنفيذ حكم القضاء ! و كنت أسأل نفسي : هل هذا هو تفسيرنا لقول الله سبحانه (أمسكوهن بمعروف أو
سرحوهن بمعروف و لا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا و من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) (٢) ؟ إن من أبغض
الأمر عندي تعريض الإسلام كله للرد و الجحد بسبب اجتهاد خاطيء أو تعصب مذهبي ضيق! و إذا كنا
في عصر تلتمس فيه العيوب لديننا الحنيف ، و يقال عنه : إنه قضى على شخصية المرأة و اجتاحت حقوقها
المادية و الأدبية ، فلماذا بالله نستبعد حكم الخلع من شريعتنا - و هو حق - و نزع أن المرأة يقبض عليها
لتساق إلى بيت هي له مبغضة ؟ أعرف أن هناك رجالا يحتقرون مشاعر النساء و يابون تليبيتها أو
الوقوف عندها ، فهل أولئك الرجال هم الممثلون للوحي الأعلى ؟ إنهم أصحاب أمزجة جديرة بالمعالجة !
(...) ما دخل رجال الشرطة هنا ؟ و كيف يحكم الإسلام باستبقاء الزوجة في بيت تعده سجننا و تعد
صاحبه شخصا بغيضا ؟ إن الإسلام دين العدالة و المرحمة ، و من تصور أنه يأمر باسترقاق الزوجة
و الاطاحة بكرامتها فهو يكذب على الله و رسوله و يؤسفني أن بعض الناس يتحدث عن الإسلام و هو
شأنه الفطرة قاصر النظرة ، و الأدهى أنه يتناول على أهل الذكر و الاستتباط ، و مصيبة الإسلام في
هذا العصر من أولئك الأدعياء (٣) " .

(١) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٧٤ - ١٧٥

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣١

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٨ - ١٧٩

و مع حرصه على ضرورة تصحيح هذا المفهوم في الذهنية الإسلامية العامة فإن الشيخ الغزالي يحذر كذلك بعض النماذج من النساء ممن لا يفهمن حقيقة رسالتهن ، فيلجأن إلى بطر حق الزوج و جحد الجميل الذي يقدمه ، و هذا من أفحش الظلم ، ذلك أن الإسلام " الذي صان كرامة المرأة و أعلى مكانتها يرفض رفضا شديدا أن تستغل المرأة ذلك للعبث و النشوز ، فإن البيت المسلم لا ينهض برسالته التربوية و الاجتماعية إلا بالتعاون و التضام و تبادل الحقوق و الواجبات . و إذا كان الرجل يكدح سحابة يومه ليقوم بأسرته ، فإن على أهله توفير السكن النفسي الذي يريح الأعصاب و يمسح المتاعب " (١) ، و مما يستفاد كذلك من التعاليم الإسلامية الواردة في هذا النطاق أن " من الرذائل النفسية تحقير نعمة الزوج ، و تقليل شكرها ، و أن المرأة التي تبني سلوكها على جحد زوجها و كفر نعمته تخط لنفسها طريقها إلى النار ... و نسيان الجميل شائع في خلائق الناس رجالا و إناثا ، كأن تقدير النعمة و احترام صاحبها عبء جسيم ! و ذلك ضرب من الخسة قد يغري بعض الناس بترك الإحسان (...). أما أن يلمح الرجل في خلق زوجته كنودا لا إقرار معه بنعمة ، و لا اعتراف معه بفضل فهذا من أكبر سيئات المرأة ، و قد عده النبي -صلى الله عليه و سلم- ذريعة لاستحقاق الزوجة عذاب الله " (٢) .

إن قضية القوامة -كما يرى الشيخ الغزالي- هي إجراء تنظيمي اقتضته الضرورة التنظيمية التكليفية ، فضلا عن أن إناطة هذا الإجراء بذمة الرجل هو احترام للقطرة و لطبيعة العلاقة بين الجنسين و مصلحة البيت و الأسرة " فالرجل -في شريعة الله- رب البيت و قيم الأسرة ، و هذه ميزة تكليف أكثر مما هي ميزة تشريف ، و الغرض منها أن يسير البيت وفق نظام سائد لا وفق مآرب متدافعة و رغبات متنازعة ، و من العبث أن تكون أي شركة من غير رياسة مسئولة . و ترك زمام البيت في يد المرأة و ضع للأمور في غير نصابها أو هو تحميل العبء للكامل الضعيف ... و الرجل أجدر من امرأته بحق إدارة البيت و رياسة الأسرة ، فإن ما نراه الله عليه من احتمال و صلابة و مقدرة واسعة على الكسب و النفقة ، كل ذلك يجعله أولى بالترجيح (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم ...) (٣) و قد يحدث في بعض البيوت أن يستتوق الجمل ، أو أن تكون المرأة أبين قدرة من رجلها ، و هنا تسقط منه الرياسة ، أو يسقط هو من الرياسة و تنتقل إمرة البيت إلى المرأة . و هذا الوضع الشاذ لا يقدر في القاعدة العامة ، و هو على شذوذه محذور العواقب حيث يقع ، و من الخير أن تراعى طبيعة الحياة ... (٤) " .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

(٢) محمد الغزالي ، هذا ديننا (مصدر سابق) ص ١٦٧ - ١٦٨

(٣) سورة النساء آية : ٣٤

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٣ - ١٦٤

و نحن نلاحظ هنا أيضا أن فقه الشيخ الغزالي في هذه القضية مشدود إلى الرؤية ذاتها التي صاغ معالمها و أبعادها العامة ضمن منظوره الفكري في قضايا المرأة و الأسرة و الحياة الإسلامية ؛ كما نلمس تجاوب و تناغم الكثير من جوانب هذه الرؤية مع صياغات العديد من المجتهدين و الفقهاء الذين تأثر الشيخ الغزالي باتجاههم أو تلقى عنهم في مطلع حياته العلمية كالشيخ محمود شلتوت الذي يقول : " و في القاعدة التي قرر القرآن بها المماثلة بين الزوجين في الحقوق و الواجبات ، قرر على الرجل مسؤولية الهيمنة و القوامة ، و جعله المكلف بحق المرأة فيما يصل بها إلى الخير و يدفع بها عن الشر .. و هذه الدرجة ليست درجة السلطان و لا درجة القهر ، و إنما هي درجة الرياسة البيتية الناشئة عن عهد الزوجية ، و ضرورة الاجتماع هي درجة القوامة التي كلفها الرجل و هي درجة تزيد في مسؤوليته عن مسؤوليتها ، فهي ترجع في شأنها و شأن أبنائها و شأن منزلها إليه ، تطالبه بالانفاق و تطالبه بما ليس في قدرتها و ما ليس لها من سبيل إليه .. فهي درجة طبيعية لا بد منها لكل مجتمع من المجتمعات قل ذلك المجتمع أو كثر ، و ليس من الحكمة في نظر شرع أو وضع أن يترك مجتمع دون أن يعرف له رئيس يرجع إليه في الرأي و عند الاختلاف و في مهام الشئون " (١) .

(٣) - صوت المرأة ليس عورة : رد الشيخ الغزالي الرأي الذي يزعم بأن صوت المرأة عورة ، و اعتبر تلك التأويلات من الأفهام الخاطئة لدين الله تعالى ، و أن الفقهاء المحققين لم يذهبوا إلى إثبات هذه الفرية ، فهي إشاعة كاذبة لا تستند على أي نص أو دليل ، و لقد صدر أمر إلهي بامتحان المؤمنات المهاجرات " و كان عمر يتولى ذلك الامتحان ، فهل قال أحد : إن صوت المرأة - حين تُسأل فتجيب - عورة ؟ اللهم إلا أن يزعم متعمر أن الامتحان كان تحريريا لا شفويا !! كانت النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يروين الأحاديث و يأمرن بالمعروف و ينهين عن المنكر ، فما زعم أحد أن صوت المرأة عورة .. العورة في أصوات النساء - و أصوات الرجال أيضا - أن يكون الكلام مرييا مثيرا له رنين رديء ! و لا يوجد بين رجال الفقه من قال : صوت المرأة عورة .. إنها إشاعة كاذبة " (٢) ؛ إن سبب اصرار الشيخ الغزالي على تصحيح مثل هذه المفاهيم ليس مبعثه الاعتزاز بالرأي الشخصي و الفهم الخاص - كما هو شأن العديد من الكتاب - و إنما منطلقه الانتصار لحقائق الدين و إنصاف تعاليمه ، و من ثمة فلا نراه يكثر كثيرا بالإساءة لشخصه في سبيل توضيح الحقائق و إعزاز الرشد المتضمن في دين الله « و أذكر أنني كنت ألقى محاضرة في اليوم العالمي للمرأة فلما قلت : إن وجه المرأة و صوتها ليسا بعورة .. حدثت ضدي مظاهرة صاحبة ! و سمعت طالبا يقول لزميله : كنا نحسن الظن بهذا الرجل فإذا هو شر من قاسم أمين ! و لست ولله المنة مفرطا في ديني ، ولكني مشفق على حاضره و مستقبله من الجهال و القاصرين ، لاسيما إذا و اتهم فرصة فتحدثوا عنه و تكلموا باسمه " (٣) .

(١) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة (مرجع سابق) ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ١٦٥

(٣) محمد الغزالي ، هموم داعية (مصدر سابق) ص ١٤٤

كما نجد الشيخ في معرض دفعه لهذه الفرية وإنصاف حقائق التشريع الإسلامي مما علق بها من أفهام سقيمة وتأويلات بعيدة يروي هذه القصة التي يلخص فيها رأيه في الموضوع مستندا - كعادته في تحرير المسائل الفقهية - على عمق التأمل في مقررات القرآن واستنطاق وقائع التاريخ وأحداث السيرة النبوية .. والخلوص بهذا المنهج من ثمة إلى الرأي العقلاني الذي يبسط آفاق الدعوة إلى الإسلام وينهي الشبهات المبتوثة في طريقها بفعل تأويلات الغالين ومزاعم المرتابين ، فيقول : " كان شاب قريبا مني يكاد يتميز من الغيظ، ونحن نستمع إلى بحث تلقيه إحدى السيدات ، قلت له : مابك ؟ هل في الكلام خطأ ؟ فرد على عجل : أتقر هذا ؟ أليس صوت المرأة عورة ؟ فأجبت في برود : هذا كذب لا أصل له في دين الله .. اسمع حكم الإسلام من كتاب الله ، يقول الله لأمهات المؤمنين إذا حدثن أحدا (.. فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) (١) فهل يصمتن فلا ينبسن بينت شفة لأن صوت المرأة عورة ؟ كلا (.. وقلن قولا معروفا) (٢) أي ليكن الكلام طبيعيا ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير ! وعندما جاءت المؤمنات مهاجرات من مكة بعد عهد الحديبية عقد لهن امتحان شفوي لتعرف أحوالهن .. هل هن فارات بدينهن حقا أم لهن مآرب أخرى ؟ فإذا تبين من النقاش إيمانهن قبلن في المجتمع الإسلامي : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) (٣) ولم يدر بخلد أحد أن صوت المرأة عورة ؟ وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضيتها ، وتراجع في الحكم لم يقل لها : اسكتي إن صوتك عورة .. وعندما جاءت بنت شعيب - التي صارت زوجة لموسى فيما بعد - تقول له : (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) (٤) لم يقل لها موسى : كيف تتحدثين معي هكذا وصوت المرأة عورة ؟ وعندما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان وأراها العرش الذي استحضره من اليمن إلى القدس وسألها : (أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو) (٥) قال المفسرون : عرف من إجابتها ذكاءها لأنها مع إحساسها بأنه عرشها استبعدت أن يطير آلاف الأميال لتلقاه هنا ، ولم يقل عالم ولا جاهل : إن صوتها عورة . و عندما خرجت زينب بنت رسول الله على المسلمين في المسجد و أعلنت أنها أجارت زوجها الذي أسره المسلمون في بدر ، استمع الناس إلى الصوت الراجي المحزون ، وقال الرسول الكريم في رقة (لم نتفق على هذا و إن شئتم رددتم إليها زوجها) (٦) و لم يقل أحد إن صوتها عورة ... إنني أكره من أعماق فؤادي علاقة المرأة بالرجل في الحضارة المادية التي أقامها الغرب - الصليبي و الشيعي - بيد أن هذه الحضارة سوف تبقى بأرجاسها و أدراكها ما بقي المتحدثون

(١-٢) سورة الأحزاب آية : ٣٢

(٣) سورة الممتحنة آية : ١٠

(٤) سورة القصص آية : ٢٥

(٥) سورة النمل آية ٤٢

(٦) رواه الحاكم وصححه البيهقي في سننه عن عائشة .. وذلك حين بعث أهل مكة في فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله قلادة لها في فداء زوجها (أبو العاص بن الربيع) - أسلم فيما بعد - وقيل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلم الناس فأطلقوه ورد عليها القلادة ولخذ على أبي العاص أن يخلي سبيلها ففعل ، هكذا في الدرر المنثور وعزاء الحافظ في الإصابة للواقدي بسند له عن عبد الله بن الزبير عن السيدة عائشة (تفسير المنار ، ج ١٠ ، مصدر سابق) ، ص ١٠٣ .

عن الإسلام يقدمونه بهذا الجهل و العمى ! إن صوت المرأة ليس عورة .. العورة هي في هذا التفكير الذي لا سند له ، و الذي يصرخ به شباب جهول باسم الإسلام المظلوم (١) " و يتضح هنا جليا مدى قوة علاقة الشيخ الغزالي بالقرآن الكريم ، و مدى هيمنة هذا النص المعجز على ضميره و وجدانه و فكره ، و أن الشيخ لا يقدم أي رأي أو وجهة نظر - مهما كان مصدرها أو مبعثها- على صريح القرآن أو حتى إيماءاته و مدلولاته البعيدة ، و هذه خاصية نستطيع أن نحكم بأنها إحدى أهم اللوازم و الضوابط المنهجية لتفكير الشيخ الغزالي ، و هي من ثمة أداة عامة و ثابتة في حركة فكره و اجتهاده ، لا يختلف في ذلك ميدان عن ميدان و لا نشاط عن آخر . فكل شيء عنده ينبغي أن يعرض على موازين و معايير هذا الكتاب الخالد ، و أن القبول أو الرفض لا يكون إلا وفق هذه المعادلة البديعة .

(٤) - دية المرأة : يرى الشيخ الغزالي بأن دية المرأة كدية الرجل إمضاء لظاهر القرآن ، و يرد بعض الآثار التي قد تفيد بأن دية المرأة على النصف من دية الرجل ، يقول : " و أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل ، و هذه سوءة فكرية و خلقية رفضها الفقهاء المحققون فالدية في القرآن واحدة للرجل و المرأة ، و الزعم بأن دم المرأة أرخص و حقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب » (٢) ؛ و يبدو أن الشيخ الغزالي في ترجيحه لهذا الرأي اكتفى بعموم النص القرآني و مخالفة وضع العرب ما قبل الإسلام حيث كانت النفوس عندهم غير متكافئة في القصاص و كذا في الدية التي كانت تزيد أو تنقص بزيادة أو نقص مقام و مكانة المقتول الاجتماعية ، فعبد من بني النضير كان يوازي الحر من أي قبيلة أخرى (٣) ، إلا أن ناقد طروحات الشيخ الغزالي اعتبروه في هذه المسألة خارجا عن الإجماع تحت ضغط الحضارة الغربية و غلوه في قضايا المرأة !! و قد عقب أحدهم على مقولة الشيخ أنفة الذكر فقال : « و هو في قوله هذا ظالم لأهل الحديث قائل على الله و على الإسلام و القرآن بغير علم و مخالف للكتاب و السنة و إجماع الأمة ، التي أجمعت على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل ... و إنما أتى الرجل في نظري من تأثره بالحضارة الغربية المزيفة و من غلوه في قضايا المرأة متأسيا للتفاوت بين الرجل و المرأة الذي بينه القرآن و السنة و الواقع و التاريخ الإنساني ، وأن هذا التفاوت بين الذكر و الأنثى بارز حتى في الحيوانات صغيرها و كبيرها " (٤) .

(١) محمد الغزالي الحق المر ، ج ٢ ، دار نهضة مصر ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م ، ص ١٢٨ - ١٢٩

(٢) محمد الغزالي ، السنة النبوية ، (مصدر سابق) ص ١٩

(٣) أحمد فتحي بهنسي ، العقوبة في الفقه الإسلامي ، دار الشروق ، ط ٤ ، بيروت و القاهرة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٦٦

(٤) ربيع المدخلي ، كشف موقف الغزالي (إحالة سابقة) ص ٥٢ - ٥٣ - وانظر كذلك سلمان بن فهد العودة ، في حوار هادي مع الغزالي (إحالة سابقة) ص ٦٦ خاصة قوله : (وهذه بلية من البلايا تورط فيها الغزالي ! فإن أهل السنة مجمعون على أن دية المرأة نصف دية الرجل .. أهل الحديث و أهل الفقه وغيرهم)

والواقع أن هذه المسألة ليس فيها إجماع كما سيأتي ذلك في رأي الشيخ يوسف القرضاوي ، كما أن فقهاء كثيرين من أهل العلم من القدماء و المحدثين رجحوا ما رجحه الشيخ الغزالي ، فلماذا يعترض على الشيخ الغزالي دون غيره ، فهل هو عدم التسليم له بأهلية الاجتهاد ؟ أم أن السر في ذلك موافقة وطبيعة منهجه بشكل عام ؟ فهذا الشيخ الفقيه محمود شلتوت يقرر " وإذا كانت إنسانية المرأة من إنسانية الرجل ودمها من دمه ، و الرجل من المرأة و المرأة من الرجل ، وكان القصاص هو الحكم بينهما في الاعتداء على النفس ، وكانت جهنم و الخلود فيها و غضب الله ولعنته هو الجزاء الأخروي في قتل المرأة - كما هو الجزاء الأخروي في قتل الرجل - فإن الآية في قتل المرأة خطأ هي الآية في قتل الرجل خطأ، ونحن ما دمنا نستقي الأحكام أولاً من القرآن فعبارة القرآن في الدية عامة مطلقة لم تخص الرجل بشئ منها عن المرأة : (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله) (١) وهو واضح في أنه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر و الأنثى .. نعم اختلف العلماء في مقدار الدية ، أهو واحد في الرجل و المرأة أو ديتها على النصف من دية الرجل ؟ و قد ذكر الإمام الرازي الرأيين في تفسيره الكبير فقال : مذهب أكثر الفقهاء أن دية المرأة نصف دية الرجل ، و قال الأصم و ابن عطية : ديتها مثل دية الرجل . و حجة الأكثر من الفقهاء أن علياً و عمر و ابن مسعود قضوا بذلك ، و أن المرأة في الميراث و الشهادة على النصف من الرجل فيهما فكذلك تكون على النصف في الدية " (٢) ؛ و انتقد الشيخ الفقيه محمد أبو زهرة الذين ذهبوا إلى أن دية المرأة على النصف من دية الرجل و أن نفسها ليست بنفسها عندما احتجوا بكون المرأة في الشهادة و الميراث على النصف من الرجل فقال : « إن نفس المرأة كنفس الرجل ، و المساواة التي أوجبها القصاص توجب أن يقتل الرجل بالمرأة و المرأة بالرجل للمساواة بينهما ، و كون شهادتها على النصف من شهادة الرجل لا يقتضي أن تكون نفسها على النصف من نفسه . فإن ذلك ليس لنقص في نفسية المرأة بل لقوة عاطفتها و هي أمر لازم لأداء عملها الاجتماعي في الحياة .. فمن اعتبرها نصف الرجل نفساً فقد ظلم و أخطأ فهم النص القرآني و تهافت في تفكيره » (٣) ؛ و قد جانف الصواب الذين قالوا بأن الشارع فرق بين الدية و النفس و ذلك لأن الدية بدل و عوض عن النفس ، فإذا سلمنا بأن النفس لا تنصف فكيف نسلم بتصنيف بدلها ، ثم إن ما ذهب إليه الشيخ الغزالي و رجحه لا يستفاد فحسب من ظاهر القرآن بل يستفاد كذلك من ظاهر الحديث النبوي (في النفس مائة من الإبل) (٤) فلم يذكر النص هل المقصود هو دية نفس الرجل أو دية نفس المرأة ، لأن النفس واحدة في خطاب الوحي الكريم .

(١) سورة النساء آية : ٩٢

(٢) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة و شريعة (مرجع سابق) ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٣) محمد أبو زهرة ، التوجيه التشريعي في الإسلام (من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية) - ج ٤ ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٧٢ م ، ص ١٧٤

(٤) أخرجه أبو داود و أحمد و النسائي ، وقال ابن عبد البر : هذا الحديث مشهور عند أهل السنة معروف مافيه عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد لأنه أشبه بالمتواتر ، (منهاج الصالحين لعز الدين بليق ، دار الفتح مطبوعه، بيروت ، ص ٦١٨)

و قد خالف الشيخ الغزالي بهذا الترجيح الأحناف الذين ذهبوا إلى أن دية المرأة في القتل الخطأ على النصف من دية الرجل ، لأن ذلك كما يظهر هو عمل بحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، و أتباع منهم لاجتهاد بعض الصحابة كسيدنا عمر و علي و ابن مسعود و زيد بن ثابت الذين قاسوا بتصنيف دية المرأة على ميراثها و شهادتها ... أما الشيخ يوسف القرضاوي فقد حقق في المسألة بعد أن أثارها الشيخ الغزالي ، ثم تبني ما رجحه الشيخ الغزالي و مال إليه ، إلا أنه أخذ عليه استعماله لكلمة السوأة الفكرية إزاء المحدثين فقال : " و الذين ردوا على الشيخ الغزالي انتقدوه بأمرين : "١" : أنه خالف الحديث الذي ذكر أن دية المرأة نصف دية الرجل . و "٢" : أنه خالف إجماع الفقهاء ... و هذا النقد ضعيف لأمرين : الأول : أن الحديث في تصنيف دية المرأة لم يصح عن النبي -صلى الله عليه و سلم- فقد جاء عن معاذ بن جبل و قال البيهقي : إسناده لا يثبت مثله . و جاء عن علي بن أبي طالب و فيه انقطاع . و ليس في الصحيحين و لا في أحدهما شيء من ذلك البتة . و الثاني : أن الإجماع لم ينعقد في هذه القضية ، فقد خالف فيها الأصم و ابن علية كما ذكر الشوكاني في نيل الأوطار ... هذا و قد علل بعض الفقهاء المعاصرين - و منهم شيخنا الكبير مصطفى الزرقا- بأن الدية تعتبر تعويضا عن مفقود و في العوض يلاحظ التكافؤ ، فقتل الرجل خسارة للأسرة أفدح من مقتل المرأة . و لكن هذا يرد عليه بأن الشارع سوى في الدية بين الرجل الراشد و الطفل الرضيع رغم أن الخسارة بفقدتهما ليست واحدة و لا متساوية ، و كذلك سوى بين العالم الكبير و الأمي ، و بين النقي الصالح و الشرير الخبيث ، لأن نظر الشارع هنا إلى النفس الإنسانية فحسب ، و قيمتها كما في القرآن (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) (١) ؛ كل ما يؤخذ على الشيخ هنا قوله (وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل وهذه سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون!) .. فالواقع أن معظم الفقهاء يقولون بذلك وليس أهل الحديث وحدهم ، وكان ينبغي التعبير بلفظ أخف و ألطف من لفظ السوأة فإنما هو اجتهاد ممن قاله يحتمل الصواب و الخطأ " (٢) و من هنا لا يمكن إلا اعتبار الشيخ الغزالي رجلا قرآنيا بكل معاني و دلالات هذه الكلمة ، فهو يحاكم السنة و القياس و الاجتهاد - كما رأينا في هذه القضية - و يحاكم الاجماع و التاريخ و الوقائع و آثار إلى القرآن الكريم ، فهذا النص الذي تكفلت القدرة العليا بحفظه يمثل عنده الميزان و المعيار المهيمن على كل شيء ، فلا يصح أمر أيّا كان على الإطلاق يخالف أو يضاد هذا النص المقدس المحفوظ .

(١) سورة المائدة آية : ٣٢

(٢) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته : رحلة نصف القرن ، (مرجع سابق) ، ص ١٦٦ - ١٦٧

(د) - مسألة خروج المرأة و مفهوم الاختلاط : يرى الشيخ الغزالي أن الإسلام لم يحظر خروج المرأة لقضاء حاجياتها، كما يرى بأن المرأة إذا التزمت بأداب الإسلام وكان المجتمع الذي تعيش فيه حريصاً على تطبيق تعاليم الإسلام وهدية فإن هذا الخروج المشروع بعيد عن وهم الاختلاط، يقول: "سمعت في برنامج مذاق هذا الحوار بين صاحب البرنامج والمفتي المستضاف: ما رأيكم في اختلاط الرجال والنساء وهل تجوز الخلوة؟ قال المفتي: الخلوة مرفوضة شرعاً... والاختلاط الشائع الآن في بعض المجتمعات مرفوض لخروجه على الآداب الإسلامية... وسرتي الإجابة لدقتها وصدقها وأغراني ذلك بمتابعة السماع... سئل المفتي: هل تجوز الخلوة بامرأتين؟ فأجاب: إنني ألحق الإثنتين بالواحدة وأرى أن الحرج ينتفي كلما زاد العدد. وعاد السائل يقول للمفتي: ما معنى رفع الحرج كلما زاد العدد؟ وأجابه الرجل في هدوء: الإمام في المسجد والأستاذ في المدرسة لا يعتبر مختلياً بالأعداد الكبيرة الذاهبة إلى المسجد أو المدرسة. وهنا انقلب السائل إلى مصحح ومرشد فقال للمفتي: لا يجوز أن يراهن هذا ولا ذاك إلا وعلى وجوهه النقاب!! قال لي صديق يسمع الحوار: هل يعجبك الاختلاط الشائع المستورد من الغرب؟ قلت: كلا، وأنا أعلم عن مآسي الانحلال الجنسي الكثير في أوروبا وأمريكا، إنني لا استبدل بتقاليد الإسلام تقاليد الغرب، ولكني ألقت النظر إلى أن الفكر الديني الجهول لن يقدم الحل البديل ما دام يعنى عن حقائق الإسلام ويريد أن يفرض غياباً - باسم الله - على عباد الله، إن نتيجة هذا الخيال هي هزيمة الإسلام وانتصار الفسق الاستعماري عليه (١) " و يتضح من تعجب الشيخ الغزالي من اعتراض صاحب البرنامج واستدراكه على المفتي أنه يأبى أن تكون الأسرة سجنًا للمرأة باسم آراء وتقاليد وأهواء بعيدة عن هدايات الإسلام وتعاليمه الصحيحة، وأن الكثير من الآراء المتداولة في بعض الساحات الإسلامية لا تحمل خصائص النصر والاستعلاء على جراثيم الحضارة الوافدة، بل هي ثغرات - كما يرى الشيخ الغزالي - تتسلل منها الأفكار الوافدة والسلوكيات الغازية "وقد لاحظت عند تحديد الوضع الاجتماعي للمرأة أنه ما يجيء حديثان في قضية تتصل بها إلا آخر الصحيح وقدم الضعيف! فزيارة المرأة للقبور ترويهما أحاديث صحيحة ولكن بعض أهل العلم يقدمون عليها حديثاً ضعيفاً يعن زائرات القبور.. وروية المرأة للرجال - مع غض البصر - ترويهما أحاديث صحيحة ولكن بعض أهل العلم يطوون ما صح و ينشرون آثاراً واهية أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجل!! وقد وضعت تفاسير و ذكرت مرويات لتقرير أن وجه المرأة عورة، وأن الإسفار عنه جريمة، وليس وراء هذا الزعم سنة صحيحة ولا فقه قائم... ولعل هذا القصور العلمي وراء الإنهيار الاجتماعي أمام زحف المنية الحديثة (٢) " .

(١) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، (مصدر سابق)، ص ١٩٦-١٩٧

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤ - ٣٥

و في اعتقاد الشيخ الغزالي الراسخ أن كثيرا من المرويات الضعيفة أو الموضوعية وراء بعض الأفهام التي أساءت للإسلام وصدت عن سبيل الدعوة إلى الله في عالمنا المعاصر ، ويرى بأننا قدمنا للإسلام صورا تثير الاشمئزاز ففي " خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال : إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر ! ثم ذكر حديثا : أن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها ! فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة و تكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى ... قال الخطيب : فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها : إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت زوجك !! أأنت كذلك يعرض ديننا ؟ سجننا للمرأة يقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل ؟ (...) و الحديث المذكور لا يعرفه رواة الصحاح ، و هو يقطع ما أمر الله به أن يوصل ! و يرخص الوفاء بحق الوالدين ، و هدفه ألا تخرج المرأة من البيت أبدا ، و هو هدف ينكره الإسلام ، و في الحديث الصحيح (إن الله أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن) (١) ... (٢) " ؛ بيد أننا نرى الشيخ الغزالي في موضع آخر يرى بأن خروج المرأة المسلمة و ما ينبغي أن تكون عليه صورة علاقاتها الاجتماعية في هذا الوقت الذي يتسم بتعطيل أحكام الشريعة وابتعاد المجتمعات الإسلامية عن وصايا و تعاليم الإسلام يحتاج إلى الكثير من الضوابط و المحاذير إلى أن يعود للدين سلطانه على النفوس و العلاقات العامة و يلتزم الجميع حكما و محكومين بإرشاداته و أحكامه " و المسلم مطالب في هذه الأيام بمزيد من التصون و الحذر ، و قد أوردنا نصوصا كثيرة توضح ناحية من علاقة المرأة بالمجتمع . لكن أحكام هذه العلاقة جزء من أحكام الشريعة العامة و هي معطلة في البلاد و من الصعب تنفيذ بعض الدين في غيبة الجزء الأكبر الذي يحميه ... إن عيون الشبان المتسكعين تمتد جائعة و لا تجد من يقمعه ، و إن السنة السفهاء تطول كثيرا و لا تجد من يردعها ، و الكبراء الذين يحتكم الشعب إليهم هم من عبث أوروبا صنعتهم بيدها أقيح صناعة ، ثم رمتا بهم ليفسدوا علينا ديننا ودينانا : و خروج المرأة-على النحو الذي أباح الإسلام- يتطلب حراسة و مشقة إلا أن يتغير الوضع كله و تعود لأحكام الدين مكانتها فينفى المخنثون و يجلد المتطاولون و يحتقر الهمازون للمازون (٣) "

سادسا : المرأة المسلمة و هاجس النهضة النسائية :

إن تجربة الشيخ الغزالي العميقة في فهم الحياة الإسلامية ، وولعه الدائم بالتماهي و التسامع مع الفطرة السليمة على النحو الذي ترشد إليه نصوص الوحي الكريم و الحكمة من التكليف ، أثبت في وعيه بأن الوضع الذي عليه المرأة المسلمة بعيد كل البعد عن المميزات و الهدايات التي رسمتها تعاليم الإسلام؛ من أجل ذلك تصدى للأفكار الوافدة التي تريد الحؤول بين المرأة و الالتزام بالإسلام ، و بالقدر ذاته حارب التقاليد الظالمة التي استباححت إنسانية المرأة المسلمة و همشت دورها في مجتمعات و بيئات إسلامية مختلفة

(١) رواه البخاري

(٢) محمد الغزالي ، السنة النبوية (مصدر سابق) ص ٤٣

(٣) محمد الغزالي ، من هنا نعلم ، دار الكتب (الطبعة الجزائرية الأولى) ١٩٨٨م ، ١٦٦

ومنعتها من استثمار مواهبها وقدراتها في حركة البناء الاجتماعي و الفعل الحضاري للمجتمع الإسلامي ؛ وبما أن الشيخ الغزالي يؤمن بأن الحصانة الداخلية للذات هي أساس الكيان السليم غير المؤهل للإختراق والغزو من الداخل ، فإنه يرى بأن المنهج الأقوم الفاعل هو غربة التقاليد و الأفهام وفسح المجال لتأثيرات التعاليم الإسلامية الصافية في بناء الشخصية المتكاملة وصنع العلاقات العامة ، ولاشك أن هذه الرؤية هي التي دفعته إلى الاعتقاد بكون « النجاح الذي صادف الحضارة الغازية - [في هذه القضية] - يعود إلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين ! إنني عاصرت الأيام التي أدخل فيها طه حسين الفتيات في الجامعة ، لقد كان التيار الديني يرى ذلك حراماً !! بل إن تعليم البنات في مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأمية على النساء باسم الإسلام ! و مع غزو المرأة للفضاء في العصر الحديث فإن أناساً عندنا يقاتلون دون أن تصلي المرأة في المسجد ! ويقولون بيئتها أولى بها ... و يوم تتقرر هذه المواقف في الأرض الإسلامية فإن مجون الحضارة المنتصرة لن يجد أمامه عائقاً أبداً " (١) و الغريب أن هذا الموقف المسيء للإسلام حصل في بلاد إسلامية كثيرة ، ففي المملكة العربية السعودية و قبل و ثمة الانفتاح و التفاعل الحضاري عندما " أمر الملك فيصل بتعليم البنات تحولت أسر عن البلد الذي أنشئت فيه أول مدرسة ! و كرهت أن ترى هذه البدعة المنكرة ! و لا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة و يحملونها مسئولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم ! و يرون الدين إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، و حرمانهن من أي نشاط عام (...). هذه العقلية المختلة فرضت نفسها طويلاً على دين الله ، و بعد أن أعانت أقدار حسنة على زلزلة سلطانهم رأيناهم يستميتون في إحراج المرأة المسلمة و تعكير مستقبلها بفتاوى مكذوبة على الإسلام " (٢) و يستنكر الشيخ الغزالي بشدة موقف المتدينين الذين هاجموا طه حسين باسم الإسلام المظلوم - عندما أذن لعدد من الطالبات بدخول كلية الآداب ، بينما ناصر تيار الانحلال و التغريب تعليم المرأة إلى أعلى المستويات ، و يعلق الشيخ على هذه المهزلة بأسلوب احتجاجي صارخ يتطلع من خلاله لتوضيح و نصره موقف الإسلام الصحيح متسائلاً : " أي إنصاف للإسلام في هذه المعركة السخيفة ؟ الدين مع الجهل و الإلحاد مع العلم ؟ إلى متى نسمح لأناس يكذبون على الأرض و السماء باسم الدين ؟ " (٣) .

و هكذا نجد الشيخ الغزالي على خلاف الكثير من العلماء المسلمين المعاصرين يضع مسألة النهضة النسائية وحركات تحرير المرأة التي ظهرت في البلاد الإسلامية و التي تزعمتها نساء معروفات بولائهن للثقافة الغربية في إطار أكثر إنصافاً وواقعية تكتفه مشاعر تعنيف الذات و النقد الداخلي،

(١) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ٢٢

(٢) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية (مصدر سابق) ص ١٩٥ - ١٩٦

(٣) محمد الغزالي ، قضايا المرأة (مصدر سابق) ص ٢٠

و تقديم منحى اللوم لمؤسساتنا التربوية و التغييرية المتخصصة على منحى مهاجمة الغير ، فهو يعتقد بعمق متأصل بكون الفراغ الذي سارت في نطاقه تلك الحركات منشؤه سوء عرض الإسلام وإيثار العادات الجاهلية على تعاليمه و هداياته ، و يؤكد أنه حقا « من المحزن أن ينتقل ازدراء الأئوثة من تقاليد الأعراب و الصعاليك في جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي ، و يظهر هذا الازدراء في أفكار و أحكام و أخلاق تشيع بين الناس و كأنها تعاليم دين ! بل لقد حُرّفَ كَلم عن مواضعه و أولت نصوص ، و ضعف صحيح و صحيح ضعيف ، لا شيء إلا لغمط الأئوثة ! و أكاد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء و عجزهن إلا عن الوظائف الحيوانية ! كما أن تطلع قائدات النهضة النسوية إلى الغرب يعجب و يقتبس منه ، يرجع إلى العرض المكذوب لتعاليم الإسلام ، أو بتعبير أدق إلى عرض عادات و أحكام جاهلية على أنها كتاب الله و سنة رسوله ... إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل و لم تستسلم إلا كارهة ! و هي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردد المرأة على المسجد ! أما بقية المقررات الإسلامية التي ذكرناها آنفا فهم يقاومونها كما يقاومون الكفر (١) من عشرين سنة كان القضاء الشرعي في مصر يأمر الشرطة بإقتياد المرأة إلى (بيت الطاعة) ما دام الرجل قادرا على نفقتها ، ضاربا عرض الحائط بكراهية المرأة للزوجية ، و مطالبتها بإنهاء هذه العشرة !! و كان أهل الزوجة يهربونها من بيت إلى بيت و يحتالون على إبطال هذا الحكم ، و لغطت الصحافة بهذا التشريع المهدر لحقوق الإنسان ، و نالت من كرامة الدين نفسه ، ثم جاء أحد وزراء العدل فأصدر أمرا بعدم تنفيذ هذه الأحكام ، و بذلك أنقذ المرأة من قسوة (الشرعية) عليها ! و كتبت يومئذ مقالا نشرته (الأهرام) بحروف كبيرة شرحت فيه حكم (الخلع) و ثبوته بالكتاب و السنة و قلت : إذا كرهت المرأة البقاء مع زوجها رفعت أمرها للقضاء و ردت مأخذت من مهر و حكم القاضي بفسخ العقد القائم أو إيقاع طلاقه تنهي النزاع ، و لامعنى لاعتقالها وجرها إلى أحضان رجل تبغضه بقوة الشرطة أو الجيش !! وحبذت مافعله وزير العدل وقلت : إنه طبق الشرعية ولم يخرج عليها كما يزعمون .. إن الذي كان يحدث هو بعض التقاليد البدوية المتسللة إلى فقهننا في غيبة الوعي الصحيح ، وقد شعرت بحرج بالغ عندما صدرت من أحد العلماء فتوى بأنه يحرم على المرأة أن تقود سيارتها ! قال لي صحافي أريب : إن الحضارة أمكنت المرأة من غزو الفضاء ولا يزال الدين يحرم عليها أن تقود سيارة على ظهر الأرض !! أليس من حق الناس أن يسوء ظنهم بالدين و يقصوه عن شئون الحياة ؟! قلت : ما حرم الإسلام على المرأة أن تقود حماره ولا أن تقود سيارة و أحسب أن ظروفنا محلية أوجت بهذا الحكم ! (١) » .

(١) محمد الغزالي ، سر تأخر العرب و المسلمين (مصدر سابق) ص ٢٤ - ٢٥

هذا هو المنهج الذي اختاره الشيخ الغزالي لترشيد مسار وهموم وانشغالات حركات النهضة النسائية ، وهو منهج يرتكز على اللوم الداخلي و النقد الذاتي لمواقفنا إزاء قضايا المرأة وواقع ظروفها الحياتية ؛ ورؤية هذا المنهج تنطلق من مسلمة عقلية فحواها أن من يترك الثغرات و النقائص تجتاح كيانه وواقعه ينبغي أن لا يبدأ في العلاج من رد أنظار الآخرين المصوبة نحوه وإنما من تقويم مآبه من انحرافات ومسالك معوجة ، وهذا ما حاول الشيخ الغزالي تفهمه و التعامل بمنطق خاص إزاء تداعياته المختلفة و لكنه -مع ذلك- لم يفض الطرف عن الأصوات الناشزة الداعية إلى تغريب الهوية الحضارية للمرأة المسلمة و الزيف برسالتها الاجتماعية عن أهدافها و مقاصدها المرتجاة ، من هنا رأينا الشيخ يركز نقده على الجبهة الداخلية و محاولة تلمس أسباب العلاج من قواعد هذه الجبهة ذاتها . و علة هذا الموقف واضحة في فكره فإن " تبذل النساء في هذا العصر بلغ حد السفه و هبط إلى درك سحيق من الحيوانية المنكورة .. و صيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بددا . لماذا ؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة ، متسم بالسلبية و العجز ، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان .. و أغلبهم لو أمكنته الفرص لرد المرأة إلى البيت و غلق عليها الأبواب و حرّمها مختلف الحقوق المادية و الأدبية و جعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة ، أو الجناح المكسور للأمم الصاعدة ! (...) إن الفكرة التي سيطرت على أدمغة نفر من المتدينين هي عزل المرأة عن الدين و الدنيا معا ، و اجتياح كيانها الشخصي و المعنوي ، و لا تزال هذه الفكرة أملا يحركهم و يحملهم على ترويج أحاديث موضوعة أو واهية ، و تكذيب أحاديث صحيحة أو حسنة ، و على تفسير القرآن بآراء لم يعرفها أئمتهم ، و لا قام عليها مجتمع الأصحاب و التابعين ! .. بل أستطيع القول : إن الجاهلية التي دفعت إليها المرأة الإسلامية بهذا الفكر القاصر ، جعلتها دون المرأة في الجاهلية الأولى ... و عندي أن إفلات النهضة النسائية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز و الغباء ... و قد لاحظت أن بعض المصلحين الذين اشتغلوا بتحرير المرأة قد جراحهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة ، بل جراحهم على ترك الإسلام ! ! (١) ؛ كما نراه يتجه ضمن المنحى ذاته ، و ينطلق من قاعدة المسلمة نفسها التي يرتكز عليها منهجه في هذه القضية ، فيصرخ بهذا التساؤل ثم يعقبه بإجابة فؤاد مكلوم مشفق على مستقبل دين مظلوم : " ما الذي دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة في الجزائر و المطالبة بإلغائه ؟ الذي دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون ، تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثا استنقز أولي الألباب و بعث في النفوس الوجل من مستقبل يستولي فيه أولئك الإسلاميون على الحكم ! يقول أحدهم : الإسلام يرى أن المرأة إنما خلقت لتلد الرجال !! و يقول ثان: مكار النساء البيوت ما يخرجن منها إلا إلى الزوج أو إلى القبر ! ويقول ثالث : يجب أن تظل الفتاة أمية لا تكتب و لا تحسب ! و يرفق رابع بها فيقول : حسبها إتمام

(١) محمد الغزالي ، حصاد الغرور ، دار الشهاب ، باتنة (الطبعة الجزائرية الأولى) - ١٩٨٦ م / ص ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥

المرحلة الابتدائية في التعليم و ما وراء ذلك لا داعي له ! و بلغني أن طالبة ساذجة في أحد المعاهد قالت لأمها : أما يوجد دين آخر أرفق بنا من الإسلام !؟ .. لقد شعرت أنني أظعن في فؤادي عندما سمعت مقال هذه الطالبة ! ! إن الدين الذي كرم الإنسان ذكرا كان أو أنثى أمسى على السنة بعض الفتاين الجهال هوانا بنصف الإنسانية وتحقيرا لها !! لقد مكثنا بضع سنين في الجزائر نؤكد صدق العلامة ابن باديس عندما أيقظ الإسلام في صدور الرجال و النساء جميعا ، مؤكدا أن الأمة لا تستطيع التحليق إلا بجناحيها من الرجال و النساء (...). إن غلمانا سفهاء يحملون علما مغشوشا أو جهلا مركبا هجموا على الصحوة الإسلامية وكادوا يقفون مسيرتها بما ينشرون من ضلالات ، ويشيعون عن الإسلام من إفاك ، وقد استغل الشيوعيون هوسهم الديني فقادوا مظاهرة إلى المجلس التشريعي منادين باحترام حقوق الإنسان وحفظ كرامة المرأة .. ونحن المسلمين أعرف الناس بذلك كله ، ولكن سفهاءنا غلبونا على الرأي، وليس أغبط لنفسي من الدعاة الجهلة عندما ينفرون الناس من الإسلام بسوء تصويرهم له " (١) .

إن الذي حمل الشيخ الغزالي على الاتجاه بهذه القضية هذا المنحى إنما هو عمق ادراكه لحجم الهوة التي حصلت تاريخيا بين التعاليم الإسلامية الثابتة و المقررة بنصوص الوحي و الصورة الواقعية الحية للعهد النبوي و الراشد ، وبين واقع المرأة المسلمة وصور وأساليب التعامل مع قضاياها خلال أعصار ومراحل إسلامية مختلفة ، تعثرت فيها المجتمعات الإسلامية وابتعدت عن المناهج والضوابط الصحيحة و المعايير الرائدة التي ألزم بها الإسلام أتباعه ، ثم زاد في قتامة هذه المفارقة أن هذا الانحراف الذي تقف خلفه تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، بدا وكأنه من صميم التعاليم و الهدايات الإسلامية ، ثم حسب لدى كثيرين على الإسلام ذاته ومنهجه الإنساني ! بل استغل في اتجاه مصلحة الاستقطاب و الجذب الفكري و النفسي للحضارة الغربية و الأساليب الوافدة ؛ وسعيا لتوضيح الحقيقة وإنصاف صورة التعاليم الإسلامية ، ذهب الشيخ الغزالي إلى ضرورة غريبة تقاليد وعادات المجتمعات الإسلامية ومحاكمتها إلى معايير الإسلام الحاسمة ، بالإضافة إلى ضرورة تحقيق بعض الآثار و السنن الواردة في قضايا المرأة ؛ هذا هو الدافع الذي جعل الشيخ يرفض حديث أن الصلاة تقطعها المرأة و الحمار و الكلب الأسود وينضم إلى جمهور الفقهاء الذين رفضوا الاستدلال به على الرغم من صحة سنده و عدالة رواته و رجاله (٢) وهو ما جعله أيضا ينتصر باسم الإسلام لحقوق المرأة في الميراث

(١) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن - فرجينيا - أمريكا، ط٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص ٤٨-٤٩

(٢) محمد الغزالي السنة النبوية (مصدر سابق) ص ١٢٨-١٢٩ وقد رد هذا الحديث الأكمة : أبو حنيفة ومالك و الشافعي وغيرهم .. ونص الحديث رواه مسلم و الترمذي وابن ماجه وأحمد وأبو داود و الترمذي وابن خزيمة وهو مخالف لرواية البخاري في صحيحه باب (من قال لا يقطع الصلاة شيء) ونصه : (حدثنا عمر بن حفص قال : حدثنا أبي قال : حدثنا الأعمش قال : حدثنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة ، قال الأعمش : وحدثني مسلم عن مسروق عن عائشة : ذكر عندها : ما يقطع الصلاة : الكلب و الحمار و المرأة ، فقالت : شبهتمونا بالحر و الكلاب ، والله لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم - يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة ، فتبدولي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي النبي - صلى الله عليه وسلم - فأئسل من عند رجليه . (صحيح البخاري ، ج١، مرفوع للنشر ودار الهدى بعين مليلة ، ١٩٩٢م، ص ١٩٢-١٩٣-حديث رقم ٤٩٢ - وورد بصيغ مختلفة بأرقام : ٤٨٩ / ٤٩٧ / ٥٩٢٠ / ٣٧٥ / ٤٩٠

والتمتع في الطلاق و حق اختيار الزوج دون تعسف في مصادرة رأيها ، و حق المطالبة بفك العصمة الزوجية إذا كرهت العيش في ظلها ، و حقها في المشاركة السياسية و الاجتماعية و الفكرية ... إلخ و ذلك لأن الحيف الذي سلط على المرأة المسلمة إبان عصور مختلفة كان ثغرة خطيرة تسلت منها أفكار و دعوات عملت على الإحتراف و الزيغ برسالة المرأة المسلمة و دورها في البناء الاجتماعي الراشد ، و حاولت هذه الاتجاهات استغلال هذه الثغرات و النقائص بمكر واضح و إصاقه بمبادئ الإسلام و مهاجه ؛ ثم إن من واجب العالم المسلم - كما يرى الشيخ الغزالي - تبيان تكريم الإسلام للمرأة و رسم صورة صحيحة و دقيقة لهذا الموضوع ، كي لا يكون هناك فراغ عاطفي و وجداني تتسلل منه الأفكار و السلوكيات الوافدة ، لذا نراه - في هذا المقام - يستشهد في التذليل بمكانة الأنثى أو المرأة في ضمير و عاطفة النبي - صلى الله عليه وسلم - بحديث أبي قتادة الأنصاري أن (رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي و هو حامل أمامة بنت زينب ، بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و لأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس ، فإذا سجد وضعها و إذا قام حملها) (١) إن الدين الذي يكرم الأنوثة هذا التكريم الجليل و يرفع المرأة إلى هذا المقام العالي ، و يجعل الجنة تحت قدميها إن كانت أما ، و تربيتها و رعايتها و قاية و ستر من النار إن كانت طفلة أو بنتا ... إن دينا هذا شأنه يستحيل أن يسأل عن الهنات و النقائص الفادحة التي طالت مكانة المرأة و دورها في المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة و ما تزال إلى اليوم ، إن الذي يجب أن يسأل هو عادات و تقاليد المسلمين و الأوضاع الظالمة التي شوهت الصورة المضيئة لتعاليم الإسلام و هداياته العامة ؛ و حرصا على تبليغ هذه الحقيقة نجد الشيخ الغزالي يدعو إلى تأسيس نهضة نسائية راشدة تلتزم حدود و توجيهات وإيماءات الوسطية الفاعلة ، لتقف في وجه الحيف و الهوان المتوارث باسم التقاليد البالية ، و تصد الدعوات الماكرة المترصدة باسم الحداثة و الانفتاح و ضرورة الانسجام مع العصر ، و يجيء إيمان الشيخ الغزالي بهذا الفعل و الاتجاز من منطلق حتمية نقد الخطأ و اعتراض آثاره بغض النظر عن مصدره و مبعثه ، خاصة و أن القصد من ذلك هو إعادة إصلاح الكيان الإسلامي وفق مقتضيات و محددات الوحي و الرسالة ، و إبراز النموذج الذي يدعو إليه هذا المنهج فيما يتعلق بمكانة المرأة الاجتماعية ، و من ثمة فقد أكد بان " أمنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة .. لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة ، أو ينظرون فيها بحماقة و قلة فقه، ولو وكل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عبادة و لا علم و لا عقل و لا فكر و لا نشاط ولا شيء . هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغي أن يحرم من الكلام باسم الله ! و النهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يطرد نوع آخر من المتحدثين في قضايا المرأة، وهم عبيد أوروبا الذين يريدون إشاعة الخنا في بلادنا، والذين لا يعينهم أمر العفة ولا أمر الأسرة و لا يباليون أن ينقلوا ما هنالك بمعنى غريب (...)

(١) رواه البخاري في صحيحه تحت رقم ٤٩٤ - ومكرر (٥٦٥٠)

نريد تسليم النهضة النسائية إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات امرات بالمعروف ناهيات عن المنكر حافظات لحدود الله " (١) ؛ إنه من الواضح الجلي أن تفكير الشيخ الغزالي يدعو إلى حركة فاعلة للنهوض بشؤون المرأة المسلمة و الاهتمام بقضاياها على أساس إسلامي صحيح ، ونراه يكتب في هذا السياق عن واقع النهضة النسائية بين تقاليد الشرق و الغرب ، ويبين أن هدايات الإسلام ومنهجه في بناء عالم المرأة ورعاية قضاياها متميز ومختلف تماما عن الضلالات والمظالم الموجودة في الشرق الإسلامي، وكذا عن الانحرافات ومظاهر التعدي على الفطرة و الطبيعة الإنسانية ، كما هو الحال في الحضارة الغربية ونماذجها وسلوكياتها الوافدة (٢) .

ويمكن لنا مما تقدم استخلاص وملاحظة أن فكر الشيخ الغزالي ينحو باتجاه الفعل و البناء ويشدد على الانجاز وإعداد البدائل الممكنة النابعة من ذات الأمة الحضارية و خصوصيات هويتها المستقلة ، وهذا سر تجنبه لمنحى ردود الأفعال الاحتجاجية ضد حركات تحرير المرأة و النهضة النسائية التي قامت على أسس واستدعاءات واضحة لبعض مبادئ وبصمات الثقافة الغربية و السلوكيات الوافدة ، كما فعل الكثير من العلماء و المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، ولكنه وضع يده بوعي على مكن الخلل وموضع الداء، فأخذ يعالج أسباب الفراغ الذي تسللت منه الأفكار الغازية والمناهج الدخيلة ، وينتصر باسم الإسلام ووصاياه لنساء الأمة أمام نساء الملل و الأمم الأخرى ، ويدفع التقاليد الظالمة و الجهالات التي استخفت طويلا وتلاعبت بمصير المرأة المسلمة وهمشت مواهبها وقدراتها وحيوياتها التي كان يمكن أن تسهم في نفع الأمة وعملية البناء الاجتماعي وترقية الحياة الإسلامية ، وإذا كان هذا الموقف ينبم عن شجاعة اتصف بها فكر الشيخ الغزالي في مواجهة الواقع وتمحيص ظواهره ومكوناته المختلفة ، فإنه دون ريب يعكس من جهة أخرى مدى إخلاصه ورغبته في الإصلاح ، وعمق إيمانه بجدوى الفعل وقوة الإرادة على صعيد التغيير ، فالفعل عنده أساس كل تحول وإيجابية فاعلة ؛ ولعل الشيخ قد استمد هذا المعنى - كما يظهر في ذاته المفكرة وصياغاته الثقافية و الفكرية - من حميمية وعمق صلته بحديث القرآن عن أصالة وقوة الفعل الإنساني وبواعث الإيمان و الإرادة الحرة ، وعلاقة هذه الأطراف بجوهر كل معادلة أو حركة تستهدف تغيير الواقع المعيش أو صياغة صورة مشروع حضاري معين .

(١) قطب عبد الحميد قطب ، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين و الحياة ، ج٤، مكتبة رحاب (الطبعة الجزائرية الأولى)

١٩٨٨م ، ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) محمد الغزالي ، من هنا نعلم (مصدر سابق) ص ١٤٨ إلى غاية ١٧٥

نظـرته لمسألة حقوق الإنسان

تمهيد :

في ظل الصراع الحضاري و التدافع الأيديولوجي و المذهبي الذي بات يميز الحياة في عالمنا المعاصر ، أخذت قضية حقوق الإنسان تدفع دفعا إلى واجهات تمايز الأنساق الفكرية و ساحات الاستقطاب الحضاري و المذهبي و أخذ كل أصحاب انتماء لدائرة من تلك الدوائر المتدافعة يدعون بأن الاتجاه الموالي لموارثه هو منشيء و باعث الحقوق الأساسية للإنسان ، فذهب الفرنسيون إلى أن ثورتهم (١٧٨٩م) التي نصت جمعيتها التأسيسية في ٢٦ أغسطس (آب) من العام ذاته على وثيقة الإعلان التاريخي لحقوق الإنسان ، هي اللبنة الأولى في بلورة قضايا الإنسان و اهتماماته الرئيسة ؛ و ذهب الأمريكيون إلى أنهم سبقوا الثورة الفرنسية إلى إعلان تلك المبادئ و القيم لأن وثيقة إعلان الاستقلال (١٧٧٦م) قد أثبتت في ديباجة مقدمتها الخطوط العريضة و الجوهرية لقضايا حقوق الإنسان . كما زعم الإنكليز أن الوثيقة العظمى التي أرغم النبلاء و بعض ذوي النفوذ في المجتمع الملك " جون " على إقرارها سنة (١٢١٥م) هي أول من أرسى معالم تلك الحقوق و القيم الإنسانية باعتبارها أسبق في الظهور من الثورة الفرنسية و وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي ... و بدا من هذه التواريخ و المنعطفات التي روج لها مفكرون و فلاسفة و ساسة و غيرهم أن الحضارة الغربية هي صاحبة الأيدي البيضاء على الإنسان و كفالة حقوقه و موجبات سعادته في الحياة ؛ و لاشك أن كثيرا من هؤلاء المروجين لتلك المزاعم و الادعاءات على علم بالكثير من حقائق التاريخ المجانفة لمقرراتهم و الناقية لما ذهبوا إليه - و هذا إذا كان حديثهم و حكمهم على المستوى الإنساني العام - إلا أنهم أذعنوا لرغبة إخفاء الحقيقة استجابة لضغوطات نفسية تاريخية و لمنازع الهيمنة التي تمليها قهرية مركزية الحضارة الغربية .. و لما باتت قضية حقوق الإنسان تدرج ضمن سياق القضايا الدولية ذات الحساسية الخاصة فقد سعى الشيخ الغزالي في نطاق مشروعه الفكري إلى التصدي لمحاولات تزييف التاريخ و بعثرة الحقائق التي وعها بحباد و أمانة الذاكرة الإنسانية ، و رأى أنه من الواجب إظهار أن الإسلام هو المنهج الخالد الذي أسس لتكريم الإنسان و عزته في الأرض و استخلافه فيها عن الله ، و مكافأته في المعاد على حسن القيام بمقتضيات هذا الاستخلاف ، و أنه المهاد الأول للشعور الصحيح بمعنى الحياة و قيمة الحرية و قدسية رسالة الإنسان و الحكمة من الوجود ... و هذا المبحث يسعى للوقوف أو الاقتراب من جهود الشيخ الغزالي الفكرية إزاء هذه القضية و رؤيته لتداعياتها و أبعادها الإنسانية العامة .

أولاً : بواعث اهتمام الشيخ بهذه القضية :

استغلت الحضارة الغربية حركة الاستعمار الحديث و غفوة الشعوب ، و حاولت السطو على الحقائق في سياق ظروف دولية و إنسانية مناسبة لأهدافها و تطلعاتها ، ثم تم الإعلان رسمياً يوم ١٠/١٢/١٩٤٨م على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته و أذاعته الجمعية العامة للأمم المتحدة... و تجاهلت الدول المنتمة لهذه الحضارة تناقضاتها الصارخة إزاء جوهر حقوق الإنسان، و هي بلا ريب : الحرية ، ففي الوقت الذي تم فيه التوقيع على هذا الإعلان كانت هذه الدول ما تزال تستعمر معظم الأقطار و الشعوب المستضعفة و تتصرف في خيراتها و مقدراتها كأنها المالك الشرعي الوحيد لها بعيداً عن كل الأعراف و الضوابط الأخلاقية و الإنسانية ، و تنتكر بجرأة بالغة لمبدأ حق كل الشعوب و الأمم في الحرية و السلام و تقرير مصيرها على النحو الذي تريد ، و بما يتفق و مواريثها الحضارية و خصائصها الثقافية و العقديّة و الفكرية... و حرصاً على خدمة الحقيقة و تركيز معالمها في الذاكرة الإنسانية سعى الشيخ الغزالي إلى تقديم بعض الكتابات التي تخدم أفكارها هذا المنحى و هذه الغاية، و نجد أنه تعرض بأساليب مختلفة و معالجات متنوعة لقضايا الحقوق الإنسانية في الكثير من مؤلفاته مثل (التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين) و (تأملات في الدين و الحياة) و (الإسلام و المناهج الإشتراكية) و (كفاح دين) و (معركة المصحف في العالم الإسلامي) ... الخ ، غير أنه خص هذا الموضوع بمؤلف مستقل هو (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة) ... انتصر فيه لتعاليم الإسلام و أسبقيتها و أصالتها في إقرار حقوق الإنسان و إثبات تفرد هذا المخلوق عن بقية الكائنات بخصائصه العقلية و النفسية و استعداده للتكليف و التكريم و الاستخلاف ، و إدراكه لتمييز رسالته في الكون و الحياة ؛ و قد جاء مجهود الشيخ الغزالي هذا في سياق هيمنت فيه طروحات مذاهب الحضارة الغربية و استلبت أفكار و عقائد الآخرين مستغلة و طأة الحركة الإستعمارية الإستكبارية الحديثة ، مما اقتضى ضرورة الانتصار للقيم الكبرى و تجلية حقائق الإسلام و أصالة تعاليمه و تشريعاته على الصعيد الدولي الذي دفعت بعض موازينه و مراكزه إلى تسريع حركية التدافع الحضاري و الصراع الأيديولوجي و المذهبي على مسرح خصوصيات واقعنا المعاصر في سياق غير متكافئ و لا متوازن من حيث الأحكام و المعايير أو الاستعدادات و المؤهلات على حد سواء، فكان لا بد من حدوث تأثير سلبي على خاصية التوازن و الثبات في منظومة القيم الأخلاقية الكبرى خاصة تلك التي تمثل نقاط تقاطع أو انسجام بين جميع أو معظم أبناء الإنسانية .

ثانيا : تعاليم الإسلام ضمانات لحماية حقوق الإنسان :

يرى الشيخ الغزالي أن الإسلام كمنهج خالد آلت إليه كل مواريث الوحي الإلهي ، استوعبت تعاليمه و أحكامه كل الجوانب التي تكفل سعادة البشر و حقوقهم الإنسانية ، ذلك أن الإنسان - كما ثبت في القرآن - هو المخلوق الذي ميزه الله تعالى عن كل مخلوقاته وأنه بذلك استحق صفات التكريم و التبجيل والتفرد ؛ ثم إن ما حصل للإنسانية في تاريخها الطويل من ويلات ومصائب تناقض عنصر التكريم الذي فضل الله به بني آدم عن غيرهم ، يدفع العقلاء إلى الاعتبار و التأمل في طبيعة الخطاب الذي يقدمه الإسلام عن الإنسان ومكانته الكونية ، فإن " المظالم التي وقعت على الناس في الأعصار الطويلة الماضية تركت في ضمائر الأمم رغبة عميقة في أن تتحصن ضدها ، وألا تتعرض في المستقبل لمتلها ، والواقع أن تجارب الأمم مع الطغاة و المستبدين كانت كثيرة ومريرة ، وأن الجهاد النبيل لتخليص الأفراد و الجماعات من قيود الذل و الانحطاط ظل موصولا على اختلاف الأزمنة و الأمكنة ، ولايجوز أن تضيع ثمراته ، ولأن تفرط الإنسانية في مكاسبه .. ولما كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة لديانات السماء كلها ، وقد جاء العالم بعد أشواط من سيرة حافلة بالدروس و العبر ، فقد ضمنه الله - جل وعلا - من التعاليم ما يكفل للبشر حياة مستقرة ، وما يوضح الحقوق المقررة لكل إنسان ، بل ما يفصل هذه الحقوق تفصيلا يمنع الريبة و الجدل ، إن قدر الإنسان - في نظر الإسلام - رفيع ، و المكانة المنشودة له تجعله سيدا في الأرض و السماء ، ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله وقبسا من نوره الأقدس ، وهذا النسب السماوي هو الذي رشحه ليكون خليفة عن الله في أرضه ، وهو الذي جعل الملائكة - بله صنوف المخلوقات الأخرى - تعنو له وتعترف بتفوقه (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (١) إنه بهذه التسوية الإلهية وهذه النفخة العلوية أصبح متميزا على سائر المخلوقات ، وانتقل إلى كيانه أثر من أوصاف الخالق الأعلى ، فهو حي قادر مرید سميع بصير عالم متكلم ، ومهدت له هذه الأرض كي تقله وهذه السماء كي تظله (٢) ، ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن أخطاء البشر أو طغيان بعضهم - وفق مقررات القرآن - لا تنفي الطبيعة الأصلية و المؤهلات المركوزة في الفطرة الإنسانية التي أهدته لفضيلة الاستخلاف و التكريم و خصوصية التكليف ، ومن ثمة فإن سمات الخطاب الذي يقدمه الإسلام لمكانة الإنسان وحقوقه - كما يرى الشيخ الغزالي - هي الضمانة الصحيحة الواقعية لصون و حماية الحقوق الإنسانية ورعاية ثمرات نضال الإنسان في كفاحه الطويل مع قاهريه وسالبي حريته ، فإن " للبشر أخطاء لا يلبق أن يتورطوا فيها ، وأن لهم مسالك ما كان ينبغي أن تقع منهم ، ولكن كرامة الجنس الإنساني في جملته لا تسقط بهذه الأخطاء و تلك المسالك وأن نعمة إيجاد و إمداده لا تهدر لهذه العثرات البشرية ، وقد سبق - في بدء الخليقة - أن تسأل الملائكة : أيستحق

(١) سورة ص آية : ٧١ - ٧٢

(٢) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (القاهرة : المكتبة التجارية ، ط ١ ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م) ،

الإيمان كرامة الوجود و التفضيل مع ما يشوب تاريخه الطويل من أثم ؟ (أتجعل فيها من يفسد فيها و يفسك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقس لك) (١) ، و كان الجواب الإلهي أن الجنس الإنساني جدير بالحياة و التكريم ، و أن زيغ أفراد و جماعات منه لا يسلب أبناء آدم المكانة التي بوأهم الله إياها (إني أعلم ما لا تعلمون) (٢) ، و هكذا بدأت قافلة الإنسان تشق طريقها في الحياة ، و تثبت جدارتها للسيادة في الكون الكبير . بيد أن الإنسانية تردت في المزالق التي اعترضتها و أصابها كثير من الهوان و الإنحطاط الذي كاد ينسيها أصلها و وجهتها ... أصلها العريق و وجهتها الكريمة ، و قد تعهد الله جماهير البشر برسله كي يقودوا القافلة و يهدوها الطريق ... ثم جاء الإسلام بتعاليمه الخالدة من كتاب و سنة ، فكان نعمة ضخمة من السماء لتوطيد مكانة الإنسان على الأرض . كان حماية له من الآفات التي تمسخ وظيفته في الوجود أو تحرمه الحقوق المقررة له منذ الأزل مادية كانت هذه الحقوق أو أدبية (٣) .

ثالثا : المنهج الإسلامي و حقوق الإنسان :

تأكد لدينا مما تقدم أن المنهج الإسلامي يعتبر الإنسان سيد الوجود و الكائن الذي خلقه الله تعالى مميزا عن كل مخلوقاته للأمانة التي تحملها و للإستعدادات و المؤهلات الفطرية المركوزة فيه و التي تمكنه من الانسجام مع مقتضيات الرسالة و التكليف ، و في نصوص و مفردات هذا المنهج تفاصيل نظرية و تطبيقية ضافية لحقوق الإنسان و الإنسانية إلا أنه يعتبر أن قاعدة تلك الحقوق تتمثل فيما يأتي :

١- حق الحياة : يرى الشيخ الغزالي أن الإسلام هو المنهج الأول الذي أضفى صفة القداسة على الحياة ، لأن هذه الحياة سر إلهي و وسيلة اختبار الخلق بالتكليف ، عبر إرادة الاختيار و التمييز ، و من ثمة فقد " وهب الله نعمة الحياة للإنسان ، و جعل حياطتها كلا و جزءا ، و صيانتها مادة و معنى ، في طبيعة الأهداف التي أبرزها الدين و تحدث فيها للرسول مبشرين و منذرين ، و لا عجب فإن إشقاء حيوان و إزهاق روحه ظلما يعده الله العدل الرحيم جريمة يدخل فيها الإنسان النار ، فكيف بتعذيب إنسان و قتله ؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) (٤) ، و روى النبي صلى الله عليه وسلم : (أن رجلا أصابه ظمأ شديد فنزل بئرا ليرتوي من مائها ، فلما خرج منها رأى كلبا يلهث ، يلحس الثرى من العطش ، فقال : لقد أصاب هذا الكلب من الظمأ مثل الذي أصابني ، فنزل البئر و ملأ خفه و سقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له) (٥) أرأيت كيف أن إراحة حيوان و إهدار حياته باب إلى رضوان الله ؟ وكيف أن إعتاب حيوان و إهدار حياته باب إلى سخطه ؟ فإذا كانت هذه نظرة الإسلام إلى قيمة الحياة في المخلوقات الدنيا ، فما تكون عنايته و جازئته لمن يدعم حق الحياة بين الناس ؟ و ما تكون نعمته و عقوبته لمن يستهين بهذا الحق ؟

(٢-١) سورة البقرة آية : ٣٠

(٣) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ، ص ١٢ - ١٣

(٤) رواه البخاري

(٥) رواه مسلم

إن القرآن الكريم يعد إزهاق الروح جريمة ضد الإنسانية كلها ويعد نتيجتها من الهلاك نعمة على الإنسانية كلها : (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا) (١) وتوكيدا لحق الحياة حتى لا يضار فيها أحد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم) (٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما : (قتل بالمدينة قتيل على عهد رسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم من قتله ، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال : يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ؟ لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء) (٣) .. " (٤) .

ويؤكد الشيخ الغزالي بأن الإسلام وهو يضع الموثيق القسط و يشرع الأحكام العادلة ويصف الحق في الحياة بالقدسية ، لم يفرق في ذلك بين إنسان وإنسان بغض النظر عن المعتقدات التي يعتقدونها الناس والمذاهب التي يدينون بها " فالمسلم وغير المسلم سواء في حرمة الدم واستحقاق الحياة ، والاعتداء على المسالمين من أهل الكتاب هو في نكروه و فحشه كالاعتداء على المسلمين وله سوء الجزاء في الدنيا والآخرة ، و عن عمرو بن العاص أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة) (٥) و في روايات أخرى (من قتل قتيلًا من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة) (٦) ... إن الحياة الكاملة مصونة ، والاعتداء عليها بالقتل جريمة وكذلك الاعتداء على جزء منها وتعرضه للتلف أو التشويه ، فذلك كله في نظر الإسلام عدوان أساس العقوبة فيه القصاص . و إنما شرع القصاص تأمينًا للسلامة المطلقة بين الناس و هذا معنى قوله تعالى (في القصاص حياة) (٧) فأنواع القصاص التي أقامها الشارع هي كلها ضوابط و حصانات لإشاعة حق الحياة في أسمى صورها بين الناس أجمعين ، و من هنا حرم الإسلام كل عمل ينتقص من هذا الحق ، سواء كان هذا العمل تخويفًا أو إهانة أو ضربًا أو تطاولًا أو طعنًا في العرض ، فإن حياة الإنسان المادية و الأدبية موضع الرعاية و الاحترام (٨) " و قد بلغ التشريع الإسلامي حد الإعجاز و هو يضع حصانات و آليات حفظ النفس البشرية ، إذ لم يكف بحد القصاص في النفس و الأعضاء فحسب ، بل إنه ضمن استمرار الحياة فأباح للمسلم الجائع الذي يتعرض للهلاك أن يأكل حتى من المحرمات - كلحم الخنزير - بما يحفظ عليه حياته ، وأوجب على الدولة أن ترعى هذا الحق دون أي اعتبار للعقيدة التي يعتقدونها الإنسان الذي يعيش في أكنافها أو الذي

(١) سورة المائدة آية : ٣٢

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الطبراني

(٤) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ - ٥٧

(٥) رواه البخاري

(٦) رواه النسائي

(٧) سورة البقرة آية : ١٧٩

(٨) محمد الغزالي ، المصدر السابق نفسه ، ص ٥٧ - ٥٨

دخل زائراً في حدود سلطانه ولو كان من الأعداء فمن " المبادئ الأساسية أن الجائع يستحق أن ينال الخبز بأية حال من الأحوال ، و العاري يستحق أن ينال اللباس مهما كان الأمر ، و الجريح و المريض يستحقان أن يوفر لهما الدواء و العلاج بأية حال بغض النظر عن كون الجائع و العاري و الجريح و المريض صديقا أو عدوا ، و هذا المبدأ يعتبر مبدأ عاما شاملا يلتزم به الفرد و الحكومة و يعامل العدو كذلك نفس المعاملة اتباعا لهذا المبدأ . فإذا جاعنا فرد من قوم العدو يكون من الواجب علينا أن لا نتركه جائعا أو عاريا ، أو دون أن نقدم له العلاج و الدواء إذا كان مريضا " (١) ؛ و لم يترك الإسلام سبيلا - إلى جانب آليات و حصانات حفظ النفس - للتتديد بالاعتداء على النفس إلا سلكه و شدد عليه ، فقد بين لعنة و غضب الله على المنتحر ، و سفه تفكير و سلوك بعض العرب الذين كانوا يندون الأثني خوفا من العار حسب زعمهم و معتقدهم الباطل ، و نهى بشدة عن قتل الأولاد خشية الإملاق و الحاجة ، بل إنه و من أجل الحفاظ على هذه الحياة باعتبارها منحة إلهية مقدسة ، فإن الإسلام يذهب إلى وجوب تأجيل إقامة بعض الحدود الشرعية كحد الزنا من أجل صون و استبقاء هذه الحياة ، فقد كفل حياة الجنين في بطن أمه و اشترط رعايته حتى الفطام ، وذلك عندما جاءت الغامدية التي زنت و طلبت إقامة الحد عليها ، قال لها النبي -صلى الله عليه و سلم- : اذهبي حتى تضعي ولدك ، ثم جاءته بعد أن وضعت ، فقال لها: اذهبي فارضعيه حتى يفطم ، و ذلك لأن المحافظة على النفس و النسل من مقاصد الشريعة العظمى ؛ بل لقد ذهب الإسلام من أجل صون الحياة إلى أقصى ما يمكن أن يتصور ، حيث شرع الحرب في سبيل تأمين هذا المقصد ، و اعتبر الإنسانية جميعا آمنة و شريكة في الوزر إن لم تقف وقفة واحدة في وجه مغتصبي الحياة ، ذلك أنه -حسب الرؤية الإسلامية- " ليس لأحد مهما كانت مكانته و سلطانه أن يغصب الإنسان حق الحياة ، و من فعل ذلك بغير حق فقد آذن الناس جميعا بالحرب و آذن معهم رب الخلق الذي جعل نفسه وحده صفة الإحياء و الإمامة ... و الإنسانية كلها متضامنة في رفع اليد التي تبسط لقتل أخيها الإنسان فإن كل بني آدم إخوة ... وحق كل واحد منهم في أن يعيش هو حق الآخر ، فإذا قصرت الإنسانية في ذلك دخلت كلها في إثم إقرار الجريمة و عدم استكارها " (٢) ؛ و من ثمة فإن منهج الإسلام في صون الحياة يتميز عن أسلوب الحضارة الغربية و الفلسفات الوضعية ، فهذه الحياة " ترى فكرية الحضارة الغربية في الحفاظ عليها (حقا) من حقوق الإنسان ، لكن صاحب (الحق) حر في التنازل عن حقه .. ولذلك لا تجرم هذه الحضارة و لاتؤثم من يتنازل عن (حقه) في الحياة بالانتحار ! وليس كذلك موقف حضارتنا من الحفاظ على الحياة لأنها تراه فريضة إلهية و واجبا شرعيا لا يجوز حتى لصاحبه أن يفرط فيه ، فهو يأثم إذا قنط من رحمة الله فانتحر ، ويأثم إذا فرط في توفير مقومات الحياة

(١) أبو الأعلى المودودي ، مقال : " نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية " مجلة المسلم المعاصر ، العدد الافتتاحي (شوال

١٣٩٤ هـ/نوفمبر ١٩٧٤م) ص ٥٦ - ٥٧

(٢) محمد حمد خضر ، الإسلام و حقوق الإنسان (بيروت : دار مكتبة الحياة ، ط ١، ١٩٨٠م) ، ص ٢٣

- غذاء وكساء وأمنًا - لذاته ، حتى ولو اضطر في سبيل ذلك إلى القتل و القتال لأنه إذا طلب مقومات حياته حتى بالقتال ضد الظلمة و المحتكرين ، فهو فائز باحدى الحسنين ... إن انتصر كان مأجورا بصيانتة و أدائه واجبا شرعيا ، هو الحفاظ على حياته ، و إن قتل في سبيل ذلك فهو شهيد ! " (١)

٢- حق حرية التفكير و الاعتقاد : دافع الشيخ الغزالي بحرارة العالم المخلص لدينه و حضارته و أمته ، من أجل إبراز سمات التميز الإسلامي و الأصالة الإسلامية في إقرار هذا الحق الذي تفخر به اليوم ، -في سياقات مشحونة بمعطيات الصراع الفكري و التدافع الحضاري- بعض الأمم الغربية ، و كأنه إبداع من إبداعات مذهبيتها الحضارية ، و كتب فصولا مطولة في بيان كون الإسلام لم يذهب فحسب إلى إقرار حرية الفكر و الرأي و إنما اعتبر ذلك فريضة شرعية و واجبا إسلاميا ، فلم يجعل أي دين قضية الإيمان ذاتها قضية عقلية ، مستدّها الأول و المدخل إليها هو إعمال الرأي و التفكير الحر ، كما فعل الإسلام في منهجه ، بل يذهب هذا الدين إلى أن الغباء و تعطيل الفكر قد يكون طريقا إلى النار و عذاب الآخرة ، لأنه زيغ عن الفطرة و انحراف عن ادراك الحكمة من الوجود فإذا " منح الله الإنسان عقلا فلكي يفكر به و يهندي بنوره ، فتلك وظيفة العقل و ثمرته المرجوة ، و الله جل شأنه يكره أن يهدر إنسان هذه المنحة فيحيا أحمق و هو يستطيع الرشد ، بليدا و هو يستطيع النظر ، و إذا ذرأ الله الناس على فطرة سليمة ينبعثون منها كما ينبعث السهم إلى غايته ، فهو يأبى عليهم عوج الطبع و زيغ الخطو و ضلال الوجهة .

إن المهندس الذي يتكر آلة لتدور بمحركات داخلية لا يعد هذه الآلة صحيحة و لا ناجحة إلا إذا دارت وفق ما قدر لها و أدت الغرض المقصود منها أما إذا أدبرت باليد لعطل أصابها أو جرتها دابة مثلا ، فهي آلة فاشلة لا تساوي شيئا ، و كل تدين يصحبه فساد الفطرة و شلل العقل فهو تدين تافه عديم القيمة لأنه أمات الحقيقة الإنسانية و جعل تعاليم الدين أعوادا تغرس في الثلج أو الصخر ، هيهات أن يكون لها ورق أو ثمر (٢) " و هذه الميزة كذلك هي مما يتميز به المنهج الإسلامي عن المذاهب الوضعية و الفلسفات الأرضية التي اسودت صفحات تاريخها بمآسي الاضطهاد و الحجر على العقل و النظر و التفكير ، أما الإسلام فإنه " لا يلوم على حرية الفكر بل يلوم على الغفلة و الذهول ، و هو لا يجعل هذه الحرية أيضا من المباحات التي يباشرها من شاء و يتركها من شاء ، بل يجعلها حقا لله على الإنسان ، فالمصابون بكسل التفكير و استرخاء العقل عصاة في نظر الإسلام ، و تتفاوت جرائمهم بمقدار ما يترتب عليها من اضطراب الصلات الإنسانية بالله و بالحياة ... و تبدأ حرية التفكير من علاقة المسلم بدينه نفسه ، فإن قوام الإسلام و لب رسالته كتاب مفتوح ميسر للذكر ، مطلوب من الأمة أن تتدبره و أن تستفيد منه شرائعها جميعا . و منذ نزل القرآن الكريم و شق الرسول به طريق الحياة ، شرع العقل الإسلامي يستغل بجهد رائع و يعمل في حرية مطلقة ، و يختلف العلماء باختلاف أساليب البحث و وسائل النظر دون أي حرج " (٣) .

(١) محمد عمارة ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة (بيروت و القاهرة : دار الشروق ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ص ١٣١ - ١٣٢

(٢) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ٦٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ - ٨١

و بما أن الشيخ الغزالي ممن يرون بأن من أهم أسباب تراجعنا الحضاري إنما هو انحراف العقل المسلم عن المنهج الذي رسمه له القرآن ، نراه يسدد سهام انتقاداته لهذا العقل ، عندما ند عن النهج الأقوم في بعض فترات تاريخه ، لكنه لا يعتبر الحرية الفكرية التي مهدت سبلها الحضارة الإسلامية هي المتسبب في ذلك ، و إنما يرجع السبب إلى عدم التمسك بالضوابط و الحدود التي أقام أمارتها الشارع بين طرفي معادلة العقل و النقل : " و قد اعتل الفكر الإسلامي يوم استعمل حرية العزيمة في بحوث الإلهيات القصية عن مداركه و خلطها بفسفات دخيلة عقيمة لا قيمة لها ... و صح سيره عندما التزم الميدان الذي تمهد له ، ميدان الحياة التي بين أيدينا . و قد وصل في هذا الميدان إلى كشوف عظيمة الجدوى في علوم الرياضة و الطبيعة و الفلك ، و كانت الحرية المتاحة له حاديا أمينا ، فلم يتعرض البحث لأي لون من ألوان العسف أو الخطر ، بينما كانت أوروبا توصل أبواب النظر على كل المفكرين و تتبعهم بالإرهاب و المقت (١) " ؛ و لا يفوت الشيخ الغزالي التعرض إلى ما كان عليه واقع حرية الفكر و الرأي في الحضارة الغربية ، ما دام يشرح قضايا حقوق الإنسان في سياق التدافع الحضاري و خلفية الاستقطاب المذهبي و الأيديولوجي ، فيستعير من الشيخ محمد بهجة الأثري كلمات مقارنة تشدد بلغة تاريخية صارمة على أن ما بلغه المجتمع الإسلامي من الجمود العقلي في أشد عصور تأخره يعد " طورا من أطوار الإصلاح الذي بدأته أوروبا يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوروبا من تحجر العقل و شل الفكر وجذب الروح و قسوة الضمير في مصادرة الحريات و الضراوة في إيادة الكتب و محاربة العلم و العلماء و إنزال أفسى العقوبات و أقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا الآن عادية كانوا يعلنونها في سبيل الإصلاح و التجديد ، و يذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوروبا بلغ ثلاثمائة ألف ، أحرق منهم إثتان و ثلاثون ألفا أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي (برونو) و قد نقت منه آراء أشدها قوله بتعدد العوالم فحكم عليه بالقتل و أحرق ميتا ، و عوقب العالم الطبيعي (غاليليو) بالقتل لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس ، و حبس (دي رومنس) في روما حتى مات ، ثم حوكت جثته و كتبه فحكم عليها بالحرق و ألقيت في النار لأنه قال إن قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ... و أصاب (جيوفاث) في جنيف و (فايتي) في تولوز ما أصاب هؤلاء و حرقا شيا على النار لآراء لا تستوجب حتى التعزير، إن لم نقل تستوجب الاحترام و التقدير... ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر و العلم الذي عرفته أوروبا (٢) .

أما عن المعتقدات الدينية - وهي صنو الفكر و الرأي- فإن الشيخ الغزالي - وهو أحد الشغوفين بقراءة التاريخ الإسلامي و الإنساني و الاعتبار بدروسه و فصوله إلى جانب فقهه و درايته لطبيعة الإسلام و مقاصده العامة - يؤكد بأن الإسلام هو مؤسس حرية الاعتقاد على ظهر الأرض ، بل إن هذا الدين بدا

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ - ٨٤

معجزة و أسرا للعقول و النفوس و هو يبين و يشرح أحكامه و وصاياه إزاء المخالفين له ، و من مقررات التاريخ القطعية أن " الأحقاد الطائفية و الحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام ، فقد ألف هذا الدين منذ بدأ أن يعاشر غيره على المياسرة و اللطف ، وأن يرضى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين و يضع من تقاليد .. و هو في ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له ، و من ثم لم يفرض عليه حكمه في الحلال و الحرام ، أو يقهره على الخضوع لشرائعه ، بل ترك أهل الأديان و ما يدينون ، خذ مثلا الخمر و الخنزير إنهما - بالنسبة للمسلم - لا يعدان مالا له قيمة ، بل الحكم بحرمتها و رجسها معروف ، و مع ذلك فالمذاهب الإسلامية ترى أنهما - بالنسبة إلى النصارى - مال متقوم يصح تملكه و تمليكه ، و من ثم تعترف بالتعامل فيهما .. و انظر إلى مايقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابي (البدائع) و (المغني) إن أنكحة غير المسلمين لها أحكام الصحة ، لم ؟ لأننا قد أمرنا بتركهم و ما يدينون .. و يبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج المجوسي من ابنته مادامت شريعته تبيح له ذلك ! وفي (المغني) مجوسي تزوج ابنته فأولدها بنتا ثم مات عنهما فلهما الثلثان !! إن الإسلام لم يقم بنة على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر لأموالهم و أعراضهم و دمائهم ، و تاريخ الإسلام في هذا المجال أنصع تاريخ على وجه الأرض (١) ؛ لقد كان الإسلام - كما يؤكد الشيخ الغزالي - واضحا تماما حين أعلن منذ البدء إقراره الراسخ لمبدأ حرية الاعتقاد ، فلم يزد على توضيح و شرح حتمية تحمل الإنسان لنتائج اختياره وفق إرادته الحرة المسؤولة ، و لهذه القضية دلالة مركزية لحقيقة و جوهر معنى الدين القيم في الإسلام ، ذلك أن " الإيمان الصحيح المقبول يجيء و ليد يقظة عقلية و اقتناع قلبي ، إنه استبانة الإنسان العاقل للحق ثم اعتناقه عن رضا و رغبة ، و قد عرض الإسلام نفسه على الناس في دائرة هذا المعنى المحدد ، غير متجاوز له في قليل و لا كثير ، قصاره أن يوضح مبادئه و أن يمكن الآخرين من الوقوف عليها فإذا شاءوا دخلوها راشدين و إذا شاءوا تركوها و افرين (و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر) (٢) ، إن الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها هي التي حددت وظيفة صاحب الرسالة ، إنها لا تعدو الشرح و البيان ... و قد كان محمد -صلى الله عليه و سلم- مثلا فريدا في سلوك هذا المنهج (...). و القاريء اللبيب يرى أن الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له و الكافرين به بأساليب شتى ، ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام و هو عنه صاد ، كل ما ينشده الإسلام أن يعامل في حدود النصفة و القسط ، و ألا تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرئ انشرح صدره به ، و لم يكن على الإسلام من بأس و لن يكون عليه بأس أبدا لو أصر ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم (٣) . "

(١) محمد الغزالي ، التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط٣، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م) ، ص ٥ - ٦

(٢) سورة الكهف آية : ٢٩

(٣) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ٩٠ - ٩١ - ٩٢

و يرى الشيخ الغزالي أن هذا الموقف العجيب هو من خصائص الفخر و العظمة التي امتاز بها الإسلام و حضارته طوال تزعمه لتاريخ البشرية ، فكان آية باهرة على كونه دين الحق و الخلود و الملاذ الأمن لكل الإنسانية عبر الزمان و المكان ، و إنه لمن المفارقات المحزنة أن الحضارة الغربية المعاصرة و رغم حلقات التطور الإنساني و التفاعل التاريخي لم تستطع الإرتفاع إلى الشأو الذي بلغه الإسلام في إقرار و احترام حرية التدين و الاعتقاد ، بل كان تاريخها في القرون الوسطى و الحديثة صورة قائمة بتثير الهلع في الأفئدة و الضمائر ، و نموذج البوسنة شاهد لن يمحي من ذاكرة التاريخ ، و قبل ذلك فقد " باد المسلمون في أوروبا المسيحية تحت أطباق هذه الرحي المجنونة ، إذ لم يكن الاضطهاد النازل بهم أزمة ثم تزول أو غيمة تظلم ثم تتجلي ، بل كان مجزرة نضاخة بالدماء ، مرعدة بالردى ، سيقت إليها النساء و الرجال والأولاد و الشيوخ ، فإما الاستشهاد أو الارتداد ، و من نجا بجلده ترك من بعده بلدا حكم عليه أن يتنصر إلى الأبد !! حدث ذلك لمسلمي اسبانيا إبان القرون الوسطى ، إذ استأصلتهم عن آخرهم محاكم التفتيش ، وحدث مثل ذلك لمسلمي البلقان في هذا العصر .. وهذه النزعة المجرمة إلى إفناء الخصوم و محق الآراء المخالفة توارثها سدنة الكنائس المسيحية من أول يوم تمكن فيه رجالها من الاستيلاء على السلطة التنفيذية (١) " .

٣- حق العمل وكفالة المعاش : إن العمل إلى جانب كونه وسيلة لتأمين عيش الإنسان ، فهو في المنظور الإسلامي كرامة ترتفع بالإنسان إلى المستوى الأخلاقي المطلوب الذي تفرضه طبيعة رسالته في الحياة الدنيا ، و يرى الشيخ الغزالي أن حركة الإنسان في العمل لتوفير أسباب عيشه وإعمار حياته بالخيرات هي بحد ذاتها من معاني التكليف لأنها صورة من صور العبادة و الاستجابة لطاعة طلب التعمير وإستمرار الحياة ، و من ثمة فهو يؤكد أنه " منذ هبط آدم وبنوه إلى الأرض وهم مكلفون بالكدح في ثراها ، حتى يستطيعوا العيش ، فإن أبدانهم لا تنماسك بها حرارة الحياة ولا تواتبها قدرة الحركة إلا بوقود متجدد من الغذاء .. وكل امرئ مطالب بتحصيل هذا الطعام عن طريق أي عمل يوافق مواهبه وملكاته (...) العمل إذن هو وسيلة للبقاء ، والوسيلة تتبع الغاية في شرفها وخستها ، فمن كرس حياته للحق و الخير فعمله عبادة ، وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية جهاد ، توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته ، وقد نبه النبي صلى الله عليه و سلم إلى أن العمل للدنيا من الدين ، وأنه شيمة الأنبياء و المرسلين سواء كان هذا العمل زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة أو وظيفة ، وعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (مأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) (٢) وروى عنه أيضا: (إن الله يحب المؤمن المحترف) (٣) .. إن الإسلام يجعل العمل سمة المسلم ومظهر تجاوبه مع رسالة الوجود، وانقياده لأمر الله وفقهه لطبيعة الدنيا وحقبة الدين (٤) " .

(١) محمد الغزالي ، التعصب والتسامح (مصدر سابق) ، ص ١٠٧

(٢) رواه البخاري

(٣) رواه البيهقي

(٤) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣

ويذهب الشيخ الغزالي - وهو يثبت الأصول الإسلامية للمادتين السابعة عشرة و الثانية و العشرين من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان - إلى أن الإسلام لم يقف عند حد الإقرار بحق العمل وحرية التملك و الكسب - إن كانت من سبل مشروعة - وإنما وضع كذلك قواعد وضوابط لحفظ هذه الحقوق من سوء الاستغلال أثناء الضوابط و الأزمات أو في الحالات العادية ، وكان الشيخ الغزالي يريد أن يثبت بذلك أسبقية النظم الإسلامية في تشريع القوانين والآليات التي تحمي العامل ، لأن الدولة - كما يرى الشيخ الغزالي - مطالبة بالتدخل لمنع الحيف و رعاية الحقوق ، و عليه فهو يؤكد بأن " الموظفين و العمال أصحاب خبرة و دربة و مهارة و أن الخدمات التي يؤدونها للمجتمع لا تعدو أن تكون هي الأخرى سلعا يرتفق الناس بها و لا يستغنون عنها ، فهل تترك هذه المواهب و المنافع المقرونة بها في مهب الريح ترتفع و تنخفض دون ضابط عادل ؟ لا . إن الجهد البشري الذي يبذله موظف أو عامل في إنجاز أمر من الأمور أو لإتقان سلعة من السلع له عوض مالي يمكن جعله ثمنا مقبولا له ، فإذا تدخلت ظروف مصطنعة لبخس هذا الثمن أو المغالاة فيه ، فإن العدالة التي قررتها الشريعة منعت المتبايعين في الأسواق عن التفرير و الخداع و الاحتكار تنتقل هنا لتمنع كذلك الغلو و الحيف أو الشجع و الانكسار ، و الواقع أن الخدمات العلمية و الفنية و اليدوية يجب أن تلقى مقابلا مجزنا لا يشعر معه الموظف أو العامل أن جهده أهدر و أن مواهبه بيعت بثمن بخس ، و قد يكثر العاطلون في بلد ما و يطلب صاحب الأرض مثلا من يجني له حقول القطن ، فهل ندع هذه القضية خاضعة لقانون العرض و الطلب ، فيستطيع المالك استئجار من شاء بأبخس الأسعار ؟ إن الظلم الفادح نشأ من السير في هذه السبيل ، إن الإسلام أول ما ظهر حمى البدوي الساذج من استغلال أهل الحضرة و أبي إلا أن تبايع بضاعته بسعر المثل ، فكيف يسمح باستغلال الضوابط في الأحوال المشابهة؟ إن من حق هؤلاء الذين يبيعون جهودهم أن يطلبوا تدخل الدولة لحمايتهم، و الإسلام أول من يأمر برعايتهم . و لقد تألفت في العالم نقابات مهنية تتمثل فيها المصالح الخاصة لأصحاب الحرف و الخدمات المادية و الأدبية ، كان الدافع إلى تأليفها الشعور بضرورة التجمع لضمان كرامة العمل و المنتسبين إليه ، و هو شعور لا مفر من الاعتراف به بعدما عرا الجماعة الإنسانية من تطور واسع جعلنا نطالب بتسعير الوظائف في كل مكان ، و حماية العمل و رجاله من الزرابة و الحرمان (١) " و نرى الشيخ الغزالي - و هو المهتم بمسألة العمل و تقدير آثاره و مخاطر الطاقات المعطلة على سيرونة البناء الاجتماعي - يكتب في موضع آخر فصلا موسعا عن رؤية المنهج الإسلامي لحقوق العمال و ضرورة تسعير الجهد المبذول في العمل و تحديد ساعات العمل و ضبط العلاقات بين العمال و أصحاب الأعمال و الشركات و الملاك ، و طرق ضمان الحقوق المادية و الأدبية للعمال ... الخ ، و يقرر الشيخ الغزالي - في هذا الفصل - أن العامل في المنظور الإسلامي لا يسمى خادما إلا تجوزا ، و إن الإسلام سبق جميع الحضارات و المناهج الوضعية في إقرار و تنظيم حقوق العمال و رفع

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ - ٢١١

شأنهم و مكانتهم فيقول : " حكي أن نبيلاً فرنسياً قال لخدمته : هات كذا . فأوماً الخادم بالإيجاب وانصرف يلبي الطلب ، فاستوقفه النبيل في غضب و قال له : تقول نعم ؟ إن الذي يملك أن يقول نعم يملك أن يقول لا ، يجب أن تصدع بالأمر في صمت ... حرص هذا النبيل أن يلبس حركات خادمه ثوب الذلة ... فلما اندلعت الثورة دفع ثمن هذه الغطرسة دق عنقه .. أين هذا من روح العطف و السماحة التي تبدو في جواب نبي الإسلام لما جاءه سائل يقول له : كم أعفو عن الخادم ؟ فقال له : في اليوم سبعين مرة .. فلنضع إذا نصب أعيننا أن العاملين يجب أن تقدر إنسانيتهم فلا تمتهن و أن تقدر أعمالهم فلا ترخص و أن تقدر طبقتهم فلا تترك لغوائل الحرمان و عوادي الزمان ... و سوق هذا الكلام في أثناء التعرض لقضايا العمل فيه ضرب من التجوز فليس العمال خدماً قط لأحد من الناس بخصوصه إنما هم خدم لوظائفهم ومعايشهم ولأمتهم وبلادهم ، وفي هذا الميدان لاتخدش كرامة ولايلحق عار ، بل إن أصحاب العمل يشاركونهم هذه الصفة ويعملون معهم في هذا المضمار (١) ؛ ويتصل بهذا الحق أو يقرب منه مبدأ حق التملك الذي كان نقطة خلاف واسع بين الكثير من المناهج والأنظمة الوضعية ، أما الإسلام فهو - كما يرى الشيخ الغزالي - " يعترف بمبدأ الملكية ويضعه تحت الوصاية الدقيقة من تعاليمه المقررة في قواعده العامة و نصوصه الخاصة فهو يطلقه إن كانت المصلحة العامة تقضي بإطلاقه ويقيده إن كان الأمر على العكس ، وفي كلتا الحالتين فالإسلام واضح في رفضه لكل تملك باطل " (٢) ، ونظرة الإسلام هذه تتبع من تميز تقييمه للعلاقة بين المال و الحياة الطيبة وتقديره لدلالات المال المعنوية ، لذا فهو يعتبر - كما يذهب الشيخ الغزالي - " أن الجور على هذا الحق أو توهينه في المجتمع ليس من شأن المسلمين ، ولا هو من مسالك الأتقياء .. لكل إنسان الحق المطلق في أن يكتسب بكده يمينه وعرق جبينه ما يقيم به معاشه وما يصون به مروءته وما يربي به ولده ، وما يحفظ به عرضه ، لكل إنسان الحق كاملاً في هذا ، والله عز وجل يرفض أي عدوان على حق التملك أو اجتياح لحقوق الناس المالية دون سبب مشروع " (٣).

٤- الحق في الأمن و الاطمئنان : يذهب الشيخ الغزالي إلى أن الإسلام هو صاحب الفضل الأول في تأسيس هذا الحق ، لأنه في أصله وليد الضمانات التي وضعها هذا المنهج لكفالة حق الاعتقاد و الرأي ، إذ يرى الإسلام أن توفير الأمن و الاطمئنان وراحة البال حق لكل إنسان في المجتمع الإسلامي بغض النظر عن الاعتقاد الذي يعتقده أو الدين الذي يدين به ، ومن القواعد الثابتة في هذا المنهج أنه " يوصد كل الأبواب أمام نفر من الخلق يستهينون بأقدار الآخرين وحقوقهم خصوصاً الحكام الذين قد يدهمون البيوت لتفتيشها أو يعتقلون خصومهم و يقيدون حركاتهم دون ارتباط بقانون أو رعاية لقضاء ، تلك كلها سياسات جائرة تصطدم بما يقرره الإسلام في مجتمعه من تأمين مطلق للفرد ، و حس دقيق بحقوقه الشخصية .

(١) محمد الغزالي، الإسلام و المناهج الاشتراكية [فصل: الطبقات الكادحة]- (القاهرة: دار الكتب الحديثة ط٤، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، ص ١١٦

(٢) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه (باتنة / الجزائر ، دت) ، ص ٩٦

(٣) قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين و الحياة (الجزائر: مكتبة رحاب، ط٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ج١، ص ١٢٣

إن النظرة المجردة داخل بيت الإنسان اعتداء على حرمة ، و قد أدب الرسول أمته ألا تفعل هذا وحظر على أي امرئ ألا يدخل بيتا إلا بإذن صاحبه ... إن تعريض مسلم لأي فزع جريمة ، و حق الحياة الآمنة من المخاوف و المظالم لأبد من إثباته في حياة الجماعة ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (لا يحل لمسلم أن يروع مسلما) (١) و عندما يكون التخويف مقرونا بسلاح ما فإن الإثم يتضاعف ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار) (٢) ... (٣) " و يؤكد الشيخ الغزالي على أن هذا الحق مكفول للجميع في ظل المجتمع الإسلامي ذلك أن " الإنسانية المجردة لها في دار الإسلام كرامتها و المظلوم -أيا كان دينه و جنسه- يجب أن تساق له النصفة و بذوق لذة العدل . و قد نوه رسول الإسلام بحلف الفضول الذي عقده أولو الشرف و النبل من حرب الجاهلية و تواصلوا فيه بمعاونة المظلوم، والانتصار له من ظالمه ... فلا جرم أن اللاجئين إلى دار الإسلام فرارا من أي عنت يلقون من أهل الإسلام الأمان المطلق لذواتهم وأولادهم و أموالهم... يلقون ذلك مبدولا دون عوض مرجو، إنما هي طبيعة الإسلام في إحقاق الحق و إبطال الباطل والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر" (٤)؛ و يذهب الشيخ الغزالي في هذا السياق أيضا إلى أن تاريخ الإسلام في هذا المجال مشرق و فريد، خلاف الأديان والمذاهب الأخرى، وهذه حقيقة رائعة أثبتتها التاريخ و لم يجرؤ مؤرخو النصرانية و اليهودية على التشكيك فيها وهي " أن المسيحية أو اليهودية تستطيع أن تعيش في ظل الإسلام -إذا حكم- معيشة طيبة . لكن كلتا الديانتين إذا حكمت لا تسمح للإسلام أن يعيش في ظلها، وتلك علة بقاء الأقليات الدينية في الشرق الإسلامي وفناؤها في أوروبا المسيحية" (٥).

٥- الحق في المساواة و العدل : يقرر الشيخ الغزالي أن ماورد في المادتين الأولى و الثانية من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إنما هو ضهي فحسب للأصول المقررة في الإسلام وليس إبداعا أو سبقا انفردت به الحضارة الغربية ، بل إن ماقرر في التعاليم الإسلامية هو النبع و الأصل الذي تعرفت إليه الإنسانية ذات فترة من تاريخها أول مرة ، إن الإسلام - كما يلاحظ الشيخ الغزالي - يؤكد بأن البشرية التي تعيش على ظهر الأرض في القارات الخمس هي " أسرة واحدة انبثقت من أصل واحد ينميهم أب واحد وأم واحدة لامكان بينهم لتفاضل في أساس الخلقة وابتداء الحياة.. والتكليف الإلهي يتجه إليهم جميعا على سواء بوصف أنهم يتوارثون الخصائص النفسية و العقلية الشائعة في جنسهم كله ، وأنهم أهل لكل ما كفل الله للإنسانية من كرامة وناط بها من واجب ، قال الله تعالى : (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلق من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) (٦) .. ولاتكران أن البشر يختلفون في لغاتهم

(١) رواه أبو داود

(٢) رواه البخاري

(٣) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ٥٩ - ٦٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٢

(٥) محمد الغزالي ، التعصب و التسامح (مصدر سابق) ، ص ٢٣٩

(٦) سورة النساء آية : ١

وألوانهم من الناحية العامة ، لكن هذا الاختلاف لا يؤبه له ، ولا يخذش ما تقرر من تساويهم في الحقيقة الإنسانية الأصيلة ، إنه كاختلاف ألوان الورود في البستان أو اختلاف الأزياء التي يرتديها الإنسان ، وقد رفض الإسلام رفضاً حاسماً أن يكون ذلك مثار تفرقة أو سبب انقسام ، بل جعله بالنسبة إلى الخالق الكبير آية على إيداعه..وبالنسبة إلى الناس أنفسهم مثار تعارف لا تباكر ، واتلاف لا اختلاف (١) " وإذا كانت بعض المذاهب و الفلسفات الوضعية تعترف حيناً وتتكر حيناً آخر لهذا المبدأ ، فمرد ذلك هيمنة روح المصلحة الآنية المستحكمة في مناهجها ومعاملاتها و الرغبة القوية في استقطاب الآخرين وجذبهم لدائرة تلك الهيمنة غير البريئة في منطلقاتها ، أما الإسلام فهو على خلاف ذلك تماماً، حيث يذهب الشيخ الغزالي إلى تأكيد " أن مبدأ المساواة الذي اعتنقه المسلمون ومحا من أفهامهم وأقطارهم نظام الطبقات تابع من عقيدة التوحيد ذاتها ، وما اتبنى على عقيدة التوحيد هذه من عبادات وتعاليم ، فقد تعلم المسلمون من أصل دينهم أن الذي تعنو له الوجوه وتسجد في حضرته الأرواح و الأجساد وتستجيب لندائه وحكمه الخاصة و العامة هو قيوم السماوات و الأرض وحده ، وأن البشر قاطبة ينتظمهم سلك العبودية المطلقة لله وحده وأن من حاول التناول فوق هذه العبودية السارية في الأشخاص و الأشياء وجب قمعه حتى يستكين في مكانته لا يعدوها " (٢) ؛ ومثل الحق في المساواة الحق في العدالة أمام القانون ، حيث يذهب الشيخ الغزالي إلى أن الإسلام آية في الإبداع و الإعجاز في هذا المجال ، فإن المجتمع الإسلامي يقوم على " أنواع من التشريعات تضبط الصواب والخطأ وتحدد ما هو حسن وما هو قبيح وما هو جريمة وما هو مباح ، وللفقهاء المسلمين باع طويل في هذا المجال ، وذلك على عكس مجتمعات أخرى لم تصل إلى مرتبة من النضج القانوني إلا بعد تدرج طويل سمحت مبادئه لنفر من المستبدين أن يأخذوا الأبرياء بأشياء هي في نظرهم تهم و عند غيرهم سلوك معتاد ... أما في شريعة الإسلام فإن العدالة لا تتجزأ ، و هي في نظام الدولة كالفضيلة في حياة الفرد أو كالشعاع في طبيعة الشمس لا تتخلف و لا تتغير ، فالمؤمن و الكافر أمام القانون سواء (...) و إذا كانت هناك طوائف معادية و بيننا و بينها خصام ، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة و أحكام القانون (و لا يجزمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٣) و قد جرت سنة الإسلام على التسوية المطلقة بين أنواع الخصوم مهما اختلفت نحلهم و مذاهبهم ، وكلمة القصاص التي هي رمز العقوبة في الإسلام حرفية الدلالة على هذه المساواة المنشودة (٤) " .

(١) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ١٦ - ١٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٣) سورة المائدة آية : ٨

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧

و من منطلق هزيمة لأبعاد هذا المبدأ و تساوقه مع أهدافه رأينا الشيخ الغزالي يتبنى ما رجحه و قرره الإمام أبو حنيفة من كون المسلم يقتل بالكافر ، و رده لحديث (لا يقتل مسلم بكافر) (١) ، و يستند الشيخ الغزالي في هذا الترجيح على دعامة كون هذا الحديث - مع صحة سنده - معلول المتن بمخالفته لعموم النص القرآني : (النفس بالنفس) (٢) ؛ و إذا كانت هذه الحجة التي استند إليها الإمام أبو حنيفة في اجتهاده ، فإن الشيخ الغزالي يضيف حجة الواقع و ما هو أقرب إلى روح العدالة كما تفهم من مبادئ الإسلام ، فيقول : " و عند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة و إلى موثيق حقوق الإنسان ، و إلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض و السواد ، أو الحرية و العبودية أو الكفر و الإيمان ، لو قتل فيلسوف كانس طريق قتل فيه فالنفس بالنفس ... و قاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين و مشاركيننا في المجتمع أن لهم مالنا و عليهم ما علينا ... فكيف يهدر دم قتيلاهم؟! و قد بلغني أن بدويا قتل مهندسا أمريكيا في إحدى دول الخليج ، و قال أهل الحديث لا يجوز القصاص ! و شعرت الحكومة بالخرج ، و لكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية ! " (٣) .

٦- الحق في التعلم و رفع المستوى الثقافي : دافع الشيخ الغزالي بحرارة عن أصالة هذا الحق في تعاليم الإسلام و هو يرد على المادتين السادسة و العشرين و السابعة و العشرين من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، و يقرر الشيخ الغزالي بأن الوجود المعنوي للإنسان أهم من وجوده الحسي و أن الجانب المعنوي من وجوده هو ثمرة للتعلم و التأمل في الكون و تفتيق المدارك العقلية ، فالإنسان - برأي الشيخ الغزالي - " محتاج إلى أساط منتظمة من المعرفة حتى يتفتق ذهنه و تتسع مداركه ، و يبصر حقيقة ما يحيط به من الأشخاص و الأشياء و يعي ما يطلب منه و ما يجب عليه ... لا يولد المرء عالما بل يبرز إلى الوجود غفل الصحيفة ثم يستغل حواسه في الاتصال بما حوله ، و عقله للإفادة من تجاربه و تجارب الأولين ، و بذلك يتكون وجوده المعنوي الذي هو أرقى من وجوده الحسي ... و الإسلام يوثق العلاقات بين الإنسان و بين هذا الكون الذي يحيا بين أرضه و سمائه ، و يشد حواسه و بصيرته إلى ما يحفل به هذا العالم من أسرار و قوانين ، حتى لا يعيش محجوبا و لا جاهلا ، إن البلادة الفكرية رذيلة نفسية قد تكون أخطر من بعض المعاصي الشائنة ، و من ثم رأينا القرآن الكريم يلفت الإنسان إلى ما حوله كي يعرف خصائصه و عجائبه ثم ينتقل من ذلك إلى معرفة من صاغه و أبدعه ... " (٤) .

(١) رواه البخاري من حديث علي بن أبي طالب

(٢) سورة المائدة آية : ٤٥

(٣) محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث (بيروت : دار الشروق ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ص ١٨ - ١٩

(٤) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان (مصدر سابق) ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣

و يرى الشيخ الغزالي أن أول ما نزل من القرآن له دلالاته العميقة على أصالة مبادئ الإسلام في التشديد على ضرورة التعلم و تلقي المعرفة ، فالآيات الأولى التي نزلت من الكتاب الخاتم تعد إشعاراً بفضل العلم و أثره و قيمة القلم و خطره ، فالإنسان لا يولد عالماً إلا أنه يتدرج بعد ذلك في طريق المعرفة ، و عندما تتضح مداركه يتجاوب تجاوباً صحيحاً مع كل شيء في الوجود الذي يعيش في نطاقه ، و يؤكد الشيخ الغزالي بأن سلم الارتقاء في هذا السبيل و سيلته العلم و الدين ، و من ثمة يقترح - باسم الإسلام و تعاليمه - أن يعتبر المتدينون الحقائق العلمية ديناً ، و في الوقت ذاته أن يعتبر علماء الكون و الحياة تصديق الحقائق الدينية المجردة علماً (١) ؛ و يذهب الشيخ الغزالي إلى التأكيد على كون تعاليم الإسلام و وصاياه تشكل مادة خصبة و غنية ليس فحسب بخصوص تكوين و استخلاص المواد القانونية المتعلقة بحقوق الإنسان في التعليم و الثقافة ، و إنما أيضاً في بناء القواعد و الأسس المختلفة لشتى أنواع المعارف و التخصصات و التوجهات العلمية و نحوها ، ذلك أن الإسلام في جوهره " رسالة فريدة في رحابها الثقافية لا تشبهها رسالة أخرى من رسالات السماء و الأرض . فإن نصوص القرآن الكريم و الألوف من السنن المأثورة عن صاحب الرسالة تشكل مادة علمية تتصل بفروع الثقافة الإنسانية كلها ، و ذلك عدا ما تميزت به من علوم العقائد و العبادات التي ليس لها مصدر يوثق به غير الوحي الأعلى . إن الموضوعات التي تحدث فيها القرآن الكريم و توسعت فيها السنة النبوية انتظمت - مع استقرار المجتمع الإسلامي - علوماً واضحة المناهج معروفة الوجهة ... فإذا تجاوزنا حقائق العقيدة و مراسم العبادة ، وجدنا أن الأخلاق و المعاملات و القوانين الخاصة بالأسرة و المجتمع ، و سياسة الدولة و علاقاتها الخارجية ، ميادين مهدها المعارف الإسلامية و لها فيها تعاليم بينة ... و هذه الأمور نفسها تناولتها - حتى يوم الناس هذا - مذاهب و فلسفات و نحل شتى ، و بنيت لها في عواصم الأرض مدارس و جامعات ؛ إن الثقافة الإسلامية كما أسلفنا القول واسعة الدائرة ، إنها تضم إلى العقائد و العبادات دراسات قانونية و مالية و سياسية ، تعد الآن المادة العلمية لمعاهد مدنية بحتة (٢) " .

رابعاً : منهج الشيخ الغزالي في تناول قضايا حقوق الإنسان :

كتب الشيخ الغزالي عن قضايا حقوق الإنسان كتابات غزيرة المادة ، متفاوتة في درجات الحدة و الانفعال ، مختلفة الصياغة و طريقة المعالجة ، و هذه الكتابات مبنوثة موضوعاتها في مؤلفاته المختلفة ، و لم يعتمد الشيخ الغزالي إلى تبويب قضايا حقوق الإنسان و الكتابة فيها و معالجة جوانبها باباً باباً و مسألة بعد أخرى على النحو المعروف لدى الكثير من المؤلفين و الكتاب ؛ و حتى كتابه (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة) رغم أنه تطرق عبر فصوله و صفحاته إلى القضايا الرئيسية لحقوق الإنسان ، و حاول تصوير و إجلال موقف الإسلام إزاءها ، حيث عالج نظرة الإسلام إلى الحقوق القضائية كالمساواة و حتمية نبيذ التمييز و العبودية ، و حق الحياة و السلام و الأمان ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩

و الحق في الحريات المختلفة : من فكرية و دينية و سياسية و مدنية ، و الحقوق الاجتماعية : كالعادلة و الإنصاف و تكوين الأسرة و العمل و التكسب ، و الحق في الهجرة و اللجوء و التعلم و رفع المستوى الثقافي .. الخ، غير أنه لم يعمد لتناولها بشكل مجرد أو مباشر ، و إنما عالجها ضمن سياق سنن التدافع الحضاري، و ما تفرضه - على المفكر المسلم- من واجبات الدفاع عن الإسلام و حقايقه الإنسانية الخالدة ، و لا يصح التصور أن الشيخ الغزالي لا يقدر أهمية الكتابة النظرية عن قضايا حقوق الإنسان ، و إنما يبدو أنه أثر الالتزام بواجب إجلاء و تصوير حقائق الإسلام و محاسنه عبر مختلف كتاباته لكن من موقع الداعية و المفكر البصير بما يحيط بواقع أمته من مخاطر تتهدد وجودها و مقوماتها ، فجاءت تلك الكتابات في صورة مرافعات حارة أو نصوص سببكية في الدفاع عن الإسلام و منطلقاته الإنسانية العظمية المستوعبة لجوهر حقوق و كرامة الإنسان ، و لعل ما يؤكد هذا التحليل أن الشيخ الغزالي استغل مناظراته و مساجلاته الفكرية و ردوده على بعض الكتاب و المؤلفين لتمرير هذه الرسالة ، و هو ذكاء و نباهة ينبغي أن يحسب له ، بل هو منهج جدير بإبراز معالمه كي يفيد منه الفكر الإسلامي في حركيته المعاصرة .. فكان رده على كاتب - قدر الشيخ عدم ذكر اسمه - بكتابه (التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام) فرصة لتجلية إنسانية الإسلام و أصالة مبادئه في حفظ كرامة الإنسان و حقوقه باعتباره كائنا مكرما - بغض النظر عن المعتقد الذي يعتقده - مؤهلا للإستخلاف عن الله في أرضه ، وكذلك فعل أيضا في رده على المستشرق المجري جولد تسهير في كتابه (دفاع عن العقيدة و الشريعة) حيث يقول في آخر مقدمة طبعته الخامسة : " وقد جعلت الرد وسيلة لشيء آخر أهم من إحقاق الحق في قضية خاصة .. جعلته وسيلة لتجلية الإسلام كله حيث ولدت الشبهة و نجم الاعتراض " (١) ، و فعل ذلك أيضا في رده على خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نعلم) حيث يقول في مقدمة طبعته الثانية وهو يشير إلى المنهج الذي التزمه : " وقد ألفنا كتابنا من هنا نعلم لتقرير هذه الحقائق المعروفة أكثر مما ألفناه للرد على كتاب من هنا نبدأ " (٢) و هذا المنهج تتضح بعض جوانبه في الكثير من مؤلفات الشيخ الغزالي الأخرى مثل (جدد حياتك) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) و (الإستعمار أحقاد و أطماع) و (قذائف الحق) .. الخ ، بل حتى في كتابه (فقه السيرة) فقد حرص الشيخ الغزالي عبر الكثير من مواضعه على تقديم الإسلام و عرض تعاليمه على أنه قاعدة كبرى لتحرير الإنسان و إشعاره بأنه أنفس مافي الوجود ، بما ذراه الله عليه من خصائص ، و بما أودع في كينونته من معطيات و مؤهلات الإستخلاف و الإعمار في الأرض و الإصلاح في الوجود .

هذا و يمكن لنا أن نلاحظ أن جهود و كتابات الشيخ الغزالي في قضايا حقوق الإنسان كان من ورائها

دافعان رئيسان هما :

- (١) محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين (القاهرة : دار نهضة مصر ، ط٥ ، ١٩٩٦م) ، ص ٩
- (٢) محمد الغزالي من هنا نعلم (الجزائر : دار الكتب بالجزائر ، الطبعة الجزائرية الأولى ، ١٩٨٨ م) ، ص ١٣

(١) ترسيخ الاعتراف بفضل المسلمين الأوائل في إقرارهم لمبادئ الكرامة الإنسانية ورعايتهم النادرة لحقوق الإنسان، والتذكير بحقيقة كونهم السبب الأول في تقدم صحوة وبقظة العقل الغربي، وقد أشار الشيخ إلى هذه المسألة بقوله: "الحديث عن الأسلاف يكون لغوا لأمعنى له يوم يجري على ألسنة العاطلين اعتذارا عن تقصيرهم أو افتخارا بأصولهم، ونحن نكره الحديث عن المسلمين الأوائل إذا صحبته هذه النية أو قارنه هذا التفريط.. لكن هذا الحديث يصبح واجبا يوم يكون لهؤلاء الأسلاف دين مجود وحق مهدر، ويوم يكون الذين انتفعوا بهم مصابين بداء الغمط والنسيان، أو مصابين بداء الحقد والنكران يومئذ لا يبقى بد من التتويه بالجميل القديم واليد السابقة.. وقد كانت أوروبا في ظلام دامس يوم كان العرب ينتقلون بين أقطار الأرض انتقال الشروق من أفق إلى أفق يحملون معهم يقظة الأفكار والأفئدة وشرف السيرة والخلق، فلو لم يجيء العرب برسالتهم هذه ما كان أمام الغرب إلا أحد المصيرين: إما أن يتلاشى مع الجهالات والضغائن التي خالطت شئونه ظاهرا وباطنا، وذلك هو الأرجح..! وإما أن يتأخر صحوه إلى القرن السادس والعشرين أو السادس والثلاثين للميلاد بدل أن تهز كيانه حركة الإحياء خلال القرن السادس عشر (١) ."

(٢) إعادة الثقة للأجيال الإسلامية- لاسيما أولئك الذين فتتوا في دينهم بواسطة الاستلاب الوجداني و الفكري للحضارة الغربية- بنقاسة الموارث والمبادئ الإنسانية التي جاء بها المنهج الإسلامي، وأصالة وأسبقية الإسلام في حفظ حقوق الإنسان وكرامته.. لذلك فقد اعتبر الشيخ الغزالي ادعاء الحضارة الغربية بأنها مؤسسة وباعة حقوق الإنسان، من باب المفارقات والنقائض التي كثيرا ما تظهر في الحياة وواقع الناس، واستشهد في ذلك بقول جبران (الناس رجالان: رجل نام في النور ورجل استيقظ في الظلام) ثم عقب على ذلك بقوله: "..وقصة حقوق الإنسان مثل آخر لهذه المفارقات.. إن المبادئ التي طالما صدرناها للناس يعاد تصديرها إلينا على أنها كشف إنساني ما عرفناه يوما ولا عشنا به دهرًا!! ولا غرو لقد كان ظهور هذه المبادئ منذ اندلاع الثورة الفرنسية شيئا جديدا في حياة الغرب، والكعكة في يد اليتيم عجب! ونحن لانجادل في نقاسة هذه المبادئ، بيد أن الذين يفكرون في إعانة مصر بتصدير القطن إليها، لا يصنعون شيئا، فالقطن في أرضها وفير الثمر جيد المادة.. ونحن نملك تراثا عامر الخزان بالمبادئ الرفيعة والمثل العليا.. ونخشى أن يجيء يوم يصدر الغرب إلينا فيه غسل الوجوه والأيدي والأقدام على أنه نظافة إنسانية للأبدان! فإذا قلت: ذلك هو الوضوء الذي نعرفه قال لك المتحذلقون المفتونون: لماذا لاتعترف بتأخرك وتقدمه وفقرك وغناه؟! ومع هذا الجهل المطبق فلن نكذب على أنفسنا ولن نفتأ نذكر ما لدينا لا لتقول فقط: بضاعتنا ردت إلينا بل لتتهيب بالقاصرين والغافلين أن يستردوا ثقتهم في أنفسهم وحضارتهم ويحددوا بدقة مالهم وما عليهم.. فنحن أصحاب رسالة تنزلت علينا من السماء، نحاكم إلى تعاليمها كل شيء ما وافقها وإن كان مجلوبا إلى أرضنا فهو حق، وما خالفها وإن كان عرفا مقررنا لدينا فهو باطل (٢) ."

(١) محمد الغزالي، حقوق الإنسان (مصدر سابق)، ص ٣

(٢) المصدر نفسه، ص ٦ - ٧

بعد هذا التحليل أو محالة الوعي بأبعاد اهتمام الشيخ الغزالي بقضايا حقوق الإنسان ، وتلمس

فواصل وحدود تموقع هذه المسألة في فكره ، بوسعنا استخلاص هذه الملاحظات و الاستنتاجات :

(١) إن الحقوق التي تضمنها البيان العالمي لحقوق الإنسان هي في معتقد الشيخ الغزالي من أجدديات التعاليم المقررة في الإسلام ، وإن كانت تلك الحقوق تبدو للغرب أو لجزء من بني البشر جديدة ، فهذا خلل فادح في الوعي بمحفوظات الذاكرة الإنسانية - وهذا على افتراض حسن الظن بالآخر الحضاري - وفي الوقت ذاته فإن هذا الخلل يعكس مدى خطورة جرم تفريط المسلمين في تضييع الحقيقة ببعدهم عن دينهم وتفاعسهم عن العمل بوصاياهم وإبلاغه للناس كافة .

(٢) أصالة وتميز المنهج الإسلامي في حفظ حقوق الإنسان ، إذ وضع الإسلام آليات وقواعد لحفظ هذه الحقوق ، وذلك بخلاف الكثير من المناهج و الفلسفات الوضعية التي لم تتجاوز في معظم الحالات مستويات الحديث النظري المجرد وتخوم الشعارات الخاوية أو المحايدة الرجراجة عن قضايا حقوق الإنسان ، فالإسلام حين أقر مثلاً مبدأ حفظ النفس أو حق الحياة فإنه وضع قاعدة تحريم القتل وما يتبع هذه القاعدة من آليات صيانة الحياة و النفس كالقصاص و الدية .. وهكذا فعل إزاء كل الحقوق المقررة الأخرى ، يضاف إلى ذلك - وهذه من سمات تميز المنهج الإسلامي أيضاً - أن هذه الحقوق فطرية في الإسلام ، أي أنها مقررة في روح طبيعته الإنسانية نفسها ، بينما تقررت هذه الحقوق في الحضارة الغربية على إثر سلسلة من الثورات الطاحنة وأنهار من الدماء و الدموع !! .

(٣) يؤمن الشيخ الغزالي بأن حديث الحضارة الغربية عن مبادئ حقوق الإنسان ، هو في الحقيقة أثر من آثار الفكر الإسلامي في هذه الحضارة ، انتقل إليها عبر وسائط الاتصال التي حدثت في الواقع التاريخي كمراكز العلم وجامعات الأندلس وصقلية و الاحتكاك بالمسلمين الذي دام قرنين إبان الحروب الصليبية ، ودليل ذلك تأخر ظهور الحديث الجاد عن هذه المبادئ و القيم في الغرب إلى ما بعد عصر النهضة بعدة قرون ، وقد كان عصر النهضة و الإحياء في أوروبا في جوانبه الإيجابية الدافعة للإرتقاء الإنساني من نضح المنهج التجريبي و الفلسفة العقلانية للحضارة الإسلامية .

(٤) إن واجب إعادة تسجيل هذه الحقيقة على شريط الذاكرة الإنسانية ، هو الذي دفع بالشيخ الغزالي إلى تناول قضايا حقوق الإنسان في سياق الوعي بقواعد التدافع الحضاري و الزحام المذهبي و الأيديولوجي ، فهو حين اعتبر أن إعادة تصدير مبادئ حقوق الإنسان إلينا من باب مضاهاة تصدير القطن لمصر ! أو إهداء الورود للربيع ذاته ! فإنه كان يرنو إلى هدف أن يتبين دارسو القانون الدولي و المتخصصون في الفكر السياسي و العلاقات الدولية تفاصيل هذه الحقيقة التاريخية الحضارية ، وأن ينصف هواة البحث عن الحقيقة المجردة الإسلام و تعاليمه السمحة من جاحدي فضله و منكري أثره في البشرية وما أسداه للوجود من خدمات و جليل الأعمال و الذكريات .

٥) إن جهود الشيخ الغزالي الفكرية في ميدان حقوق الإنسان ارتبطت أيضا بعامل الانبعاث الحضاري للمسلمين ، وضرورة تفاعل الفكر الإسلامي مع تداعيات هذا المنطلق خدمة لإعادة صياغة منظومة استنهاض وبناء العقل المسلم ، وما يقتضيه ذلك من جهود على صعيد الإصلاح الثقافي و التجديد الفكري، فكان لابد من إسهام هذا المشروع في بعث وتفعيل ثقافة حقوق الإنسان و الإنسانية ، وصياغة بنودها وقواعدها وموائيقها ؛ ويمكن إدراج وسلك جهود الشيخ الغزالي في هذا الباب - من زاوية أخرى - ضمن منحى تجديد الفكر الدعوي على مستوى الأنساق الحضارية و المعرفية ، إذا جاز لنا الحكم على هذه الجهود بعدها وسيلة للدعوة و تقديم الإسلام للبشرية من مدخل صياغة وشرح حقوق الإنسان من وجهة النظر القرآنية ومرجعيات الإسلام الأخرى ، بما في ذلك الواقع التاريخي الناصع للحضارة الإسلامية .

فكره السياسي

تمهيد :

لا يسعى هذا المبحث إلى الخوض في تصوير و إبراز هيئة الدولة أو شكل نظام الحكم في الإسلام على نحو مجرد ، أو مناقشة العلاقة بين عملية التغيير في أبعادها و معانيها الواسعة و بين النشاط السياسي و دوره أو موقعه في تلك العملية ، من حيث هو فعل له خلفياته المرتبطة بمرجعية مؤثرة فيه ، تجعل دوره و موقعه في معادلة التغيير تلك في خدمة غايات و أهداف محددة ، خاصة أن المنعطف الذي تتباين إزاءه عادة الآراء يكاد يقتصر على فرضية مؤداها : هل الإصلاح و البناء الاجتماعي طريقه الصحيح هو الإعداد التربوي و التعبئة الروحية و الفكرية و الثقافية أم إقامة النظام السياسي الذي يمكنه رعاية تلك الأهداف و الغايات التي يراد تحقيقها ؛ و ليس الحديث في هذه الفرضية بداهة عن استحالة مواكبة الجاهدين على صعيد واحد ، فإن ذلك ممكن ، بل هو المطلوب و المفضل لدى معظم حركات الإصلاح و التغيير ، و إنما عن تراتبية الجهد و تركيزه على أحد المستويين في مرحلة التأسيس ... فمرمى هذا المبحث الأساس إنما هو محاولة إخراج إجهادات و آراء الشيخ الغزالي السياسية المبعثرة على مساحات متباعدة في مواطن مختلفة من كتاباته الثرة الغزيرة ، و محاولة المسك بشتى أطراف خيوط النسيج المكون لمرئياته و رؤاه السياسية ، فإن تعرض المبحث إلى بعض ما ألمحنا إليه من قضايا أو اشكالات مطروحة في مجال الفكر السياسي الإسلامي ، فهو ليس مقصودا لذاته بطريق المعالجة المباشرة، و إنما هو من باب هذه المحاولة التي نحاولها هنا ... أو من جهة الجهد الذي اقتضته طبيعة المبحث المطروق .

أولا : مرتكزات مشروعية الدولة في الإسلام عند الغزالي :

لا يمكن استخلاص المرتكزات و العناصر التي يقدمها الشيخ الغزالي كخلفية استدلالية أو معتكزات موضوعية منطقية تبرر وجود الدولة و مشروعيتها في الإسلام إلا من خلال قراءات واسعة متأنية في نتاجه الفكري و العلمي ، فالشيخ يحمل في قلبه الكبير كل هموم و مشكلات العالم الإسلامي و شتى تناقضات و سلبيات أبنائه ، مما جعله ينثر آراءه السياسية في معظم مجالات و موضوعات أحاديثه و كتاباته و حواراته ؛ الأمر الذي يجعل إمكانية بلورة رؤية واضحة المعالم عن قسماات فكره السياسي يتطلب صبرا و مراسا على كيفية استنباطها أو استنتاجها من قراءة ما وراء السطور أو من الكلمات المباشرة المنثورة في شتى و طوايا الكثير من معالجاته الفكرية و مناظراته أو مساجلاته السياسية

و الأيديولوجية ، لكن لا يعني هذا بدهامة فلة الكتابات السياسية عند الغزالي ، بل على العكس من ذلك فإن الجانب السياسي في فكره يعتبر من أغزر وأوسع المحاور المكونة لمشروعه الفكري (١) ، بل لعلي لا أكون مجانفا للصواب إذا اعتبرت بأن مجمل كتابات الشيخ الغزالي - وفي شتى القضايا التي تصدى لتناولها- مسكونة بنبض سياسي مفعم بروح نقدية مدفوعة ببواعث التغيير و التطلع الدائم للإستنهاض و تخطي حواجز الجمود و التخلف و عدم الحضور الفاعل ... و إنما قصدنا أن إرخاء العنان لبحث و استخراج رؤى و معالجات الشيخ من مساحات و مواطن مختلفة و متباعدة عبر كتاباته الثرة الغزيرة قد يجعل دراسة و تقييم هذا المحور في فكره يكتفه شيء من العسر ... أما المرتكزات التي تبرر وجود و قيام الدولة في الإسلام برأي الغزالي فنتمثل فيما يأتي :

(١) مقتضيات الاستخلاف عن الله في أرضه : يذهب الشيخ الغزالي إلى أن الاستخلاف عن الله في هذه الحياة الدنيا يتطلب تنظيم و رعاية شؤون هذه المهمة ، غير أن ذلك لا يتم على الوجه المطلوب إلا بسultan ، أي بواسطة دولة تلتزم مقتضيات هذا التكليف، و قد أخبر الله تعالى الملائكة بذلك في قوله : (و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (٢) ، و قال في نداءه لعبداه داود الذي كان ملكا نبيا (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) (٣) ، و قال في موضع آخر (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) (٤) .. و قد لاحظ الشيخ الغزالي أن عدم تجاوب الملائكة مع هذا الإعلام الإلهي يشبه مع الفارق اعتراض بعض الناس و الاتجاهات على هذا الأسلوب من الحكم و إدارة الشؤون الأرضية باسم الله و أوامره التكوينية و التحرك ببواعث الشعور بهذا الاستخلاف ، و إذا كان سبب تشاؤم الملائكة غير مقطوع بعلمه ، فإن سبب اعتراض هؤلاء يعود إما إلى الجهل بمفهومه الواسع و إما إلى نزق تمثّل روح العدا و التجهم لكل ما هو سماوي ... فقد كانت الملائكة " متشائمة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض ... لعلها أحست أن أصله الترابي سيجعله هشا أمام الاختبارات الصلبة و أنه سيفتقد تماسكه أمام الأهواء و المغريات ؟ أو لعلها رأت أنه يشبه أجناسا أخرى لم تصدع بأمر الله و لم تحسن تنفيذ وصاياه ؟ أو لعل شعاعا من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صورا من الحروب الدامية و المسالك المعوجة التي سوف يخوضها البشر و يظلمون بها أنفسهم ... و خلق الله آدم و وهب له عقلا محيطا بالأشياء كلها ، و وضع في هذا العقل خاصة باهرة يستمكن بها من معرفة الأسرار و الظواهر ،

(١) فضلا عن كتب الشيخ السياسية البحتة مثل : الإسلام و الإستبداد السياسي ، و من هنا نعلم ، و في موكب الدعوة ، و أزمة الثوري في المجتمعات العربية و الإسلامية ، و حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة ، و حقيقة القومية العربية و أسطورة البعث العربي ، و واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر ، و الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، و الإسلام المفترى عليه ، و معركة المصحف في العالم الإسلامي ... فلا يكاد مؤلف من مؤلفات الغزالي يخلو من القضايا و الرؤى السياسية .

(٢) سورة البقرة آية : ٣٠

(٣) سورة ص آية : ٢٦

(٤) سورة فاطر آية : ٣٩

ويهيمن بها على شئيت من القوى و العناصر، إن هذا الإنسان المحدود في أعضائه ومشاعره يملك طاقات ضخمة تجعله سيدا لما حوله ، بل تجعله ملكا واسع السلطان ممدود النفوذ ، ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب " (١) و الذين يريدون تحميل الدين أخطاء البشر يقعون في المفارقة ذاتها ، وهو مسلك ماكان يجب أن يكون ، فإن بعض الناس « لا تملكهم حمى الشاؤم إلا عند الحديث عن الحكم الديني (٢) سرعان ما يقولون لك : إن الحكم الديني الحق خيال ، والسعي وراءه حلم أصحاب المثل ، واستقراء حوادث التاريخ يدل على أن الخلفاء الذين حكموا بإسم الله لم يعمرؤا طويلا ، ثم جاء من بعدهم من افتات على الحقوق و الحريات وتآله هو وأولاده على الناس باسم الدين ، ويستطرد هذا الفريق المتشائم يقول لك : إنك لن تجد كثيرا مثل أبي بكر و عمر ، أما النظم الديمقراطية الحديثة فقد رسمت حقوق الإنسان في تفصيل دقيق يقطع الطريق على الطغاة و الجبابرة ، ولأن ندعو إليها في صراحة أفضل من أن نعلق القلوب بالنظريات الدينية التي لم يدعمها تطبيق واضح " (٣) .

وهذا الكلام أو الاعتراض في رأي الشيخ الغزالي ينطوي على مغالطات واضحة وفساد بين في التصور وتقدير الأمور و الذين يسلمون بفحواه كأنهم يريدون أن " يحملوا الدين وحده أخطاء الطبيعة البشرية من بدء الخليفة ، وإذا كان تاريخ الإنسان كما قالت الملائكة متسائلة عن سر استخلافه (تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (٤) فليس على حساب الدعوة إلى الله تسرد مثالب المستبدين و المنافقين .. و الواقع أن المقارنة لكيما تصح يجب أن تكون بين الدين كنظريات مكتوبة في صحائفه المقدسة وبين المبادئ الأخرى كنظريات اقترحها المصلحون وبشر بها الفلاسفة ، أو بين الدين كما نفذ تعاليمه ممثلوه وحملته وبين الديمقراطية و الشيوعية مثلا كما طبقها القادة والساسة القائمون على مناهجها .. هذه هي الأطراف التي يجوز التفاضل فيها أما المقارنة بين الحكام الدينيين بأشخاصهم وسيرهم وبين تعاليم الثورة الفرنسية ومواثيق مجلس الأمن وهيئة الأمم فهذه مقارنة غير مقبولة .. إما أن نقارن بين رجال ورجال أو بين مبادئ ومبادئ ، و الحق أن الذين طبقوا الديمقراطية مثلا كانوا أسفل مسلكا وأسوأ أثرا من عشرات الرجال الذين أساعوا إلى الدين يوم حكموا باسمه أحكاما جائزة " (٥) .

(١) محمد الغزالي ، علل وأدوية (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، ط١٤٠٦،٣ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٥

(٢) نظام الخلافة في الإسلام نظام مدني في جوهره لأنه يترك وسائل وآليات تنفيذ التكليف الإلهية للإجتهد العقلي و الاستفادة من ثمرات التجربة الإنسانية في هذه الحياة الدنيا ، ووصف هذا النظام بالصفة الدينية ليس من جهة الشكل (النظام) إنما من جهة الموضوع (الرسالة) لأنه حراسة للدين بسياسة الدنيا .

(٣) محمد الغزالي ، من هنا نعلم (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٨ م) ، ص ٨١

(٤) سورة البقرة آية : ٣٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨١ - ٨٢

إن النظام السياسي - برأي الشيخ الغزالي - ضرورة لا مندوحة عنها لأي اجتماع بشري . والعقل في ذلك يوازن النقل ويدعم مقرراته ويتكامل بتجاوب بين مع هداياته العامة في هذا المجال ، والتجربة الانسانية نفسها تهتدي بطبيعتها المستددة على الواقع المجرد إلى هذه الحقيقة ، ولعلنا نلمس هنا أن كلام الشيخ الغزالي المستخلص من عمق صلته بالقرآن يضاهي إلى حد كبير قول حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في مؤلفه (الاقتصاد في الاعتقاد) : " إن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظمان إلا بسultan مطاع .. الدين أساس و السلطان حارس ، وما لا أساس له فمهديم و ما لا حارس له فضائع " (١) .

(٢) الجانب التنفيذي لأحكام الرسالة الخاتمة : يرى الشيخ الغزالي أن الطبيعة الشاملة لرسالة الإسلام تتطلب وجود نظام سياسي أو دولة تمنح الإيمان الذي وقر في القلوب و الأنفذة مساحات عملية لترجمته في الواقع و تحويل وصاياه و إشعاعاته إلى برامج متحركة في الميدان ، و هذه حقيقة في الإسلام قد لا يلزم إدراكها و الوقوف عليها ذكاء خاصا أو نباهة متميزة ، فإن أي قارئ للقرآن من أي قارة على ظهر الأرض يستطيع أن " يستيقن من أن الإسلام ينظم الحياة العامة و الخاصة ، و أنه يتناول النفس الإنسانية في أعماق أغوارها و المجتمع البشري في أوسع دوائره ، و تزداد هذه الفكرة رسوخا و وضوحا عند التأمل في سيرة الرسول الذي تلا على الناس قرآنه و خط في الحياة منهجه ... و الذي ترك ثروة من التعاليم و فنونا من المسالك الخلفية و السياسية تتسق مع روح المصحف و وجهته و تشرح عمليا مراد الله من خلقه ، و من الجهل الشائن بعد مطالعة المصحف آية آية ، و بعد متابعة النبوة سنة سنة ، أن يزعم زاعم أن القرآن كتاب مواظ نفسية محدودة ، أو أن محمدا كان يستهدف وصل الناس بالله عن طريق الدعاء و الرجاء و حسب ! إن أوامر الله و نواهيه تتجه إلى البيئة كي تشكلها على صورة معينة و تفرغها في قالب محدد ، كما تتجه إلى الإنسان نفسه بالمحو و الإثبات فيما يفعل و يترك (...). لا انفصال في الإسلام بين الحياة الفردية و الكيان الاجتماعي العام ... شرائع الإسلام للوصاية على الضمير ، مثل شرائعه في تنظيم البيت ، مثل شرائعه في إقامة العدل السياسي و الاجتماعي عند بناء الدولة ... هذه و تلك تتبجس من ينبوع واحد و تتساق إلى غاية واحدة ، و أي شلل يصيب بعضها فهو ممتد اليوم أو غدا إلى البعض الآخر ثم هو نذير بفناء الجميع بعد حين (٢) " .

(١) أحمد كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة (القاهرة و بيروت : دار للشروق ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨) ، ص ١٠٠

(٢) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (الجزائر : مكتبة رحاب / د.ت) ، ص ١٤-١٥

و للتدليل على ضرورة و إلزامية إقامة الدولة في الإسلام لا يتجه الشيخ الغزالي إلى الحديث عن الجوانب القانونية في الجنايات و الجنح و لا إلى الأحكام المدنية في النيوح و المعاملات ، و لا إلى الأحكام الدولية في إعلان الحرب أو إقرار الهدنة أو عقد الصلح و الأمان و الذمة المقررة في النصوص الشرعية القطعية ، و إنما يتجه إلى الحديث عن الجانب العبادي - و هذا ما لم يقع عليه بصري قط عند غير الغزالي - فإن العبادات التي قد يعتقد كثيرون أنها أوضح ما في الإسلام هي في غياب النظام السياسي الإسلامي تغدو أخفى ما فيه ، أي أن الفعالية الاجتماعية للعبادات لا تتحقق إلا في ظل الدولة التي تسهر على رعايتها ، فتثمر إنسانيا و اجتماعيا على صعيد إشاعة الخير و الثقة و الطمأنينة و إنضاج العلاقات العامة بين أفراد المجتمع المسلم ، و هذا حق لا ريب فيه فإن " العبادات من صلاة و صيام و زكاة و حج و غير ذلك ، يظنها الظانون أعمالا فردية موكولة لأصحابها ، و أن الدولة - في الإسلام - لا تسأل عنها ولا تهتم بها .. ونحن نسارع إلى تنفيذ هذا الظن و بيان وجه الحق فيه ، فإن الدولة لا تكون مسلمة يوم تكون إقامة الصلاة و إمامتها سواء في نظرها .. إن إقامة الصلوات الخمس مفروضة على الحاكم في ديوانه كما هي مفروضة على كانس الطريق ، هذا حق ولكنه أيضا جزء من الحقيقة الكبيرة .. والحقيقة كلها أن الدولة في نظر الإسلام مكلفة برعاية الله وإشاعة تقواه و توطيد وقاره و تقديس اسمه ، و أن من وظيفتها تهيئة الجو المعين على انتظام الصلوات الخمس من الفجر إلى العشاء وإشعار المؤمنين كافة أن ذلك من صميم رسالتها ورسالتهم .. وكما تشتغل الدولة بدفع العدو المغير و تجند مآلديها من وسائل مادية و أدبية لذلك ، وكما يجب على الجمهور فردا فردا أن يقوم في صمت بواجبه النفسي و العسكري لرد العدوان ، كذلك يجب على المؤمنين حكومة و شعبا أن ينهضوا إلى الصلاة عند ميقاتها ، ذلك هو الإسلام كما نستبين صورته في آيات المصحف وكما نتعرف حدوده من حياة النبي نفسه .. وبيدهي أن أمر الصلاة لا يضبطه رجال الشرطة ولا تحكمه سطوة القانون ، إن ما تملكه الدولة من هيمنة على شؤون التربية و وسائل الإعلام و ما يقدمه الحاكم نفسه من أسوة حسنة بإلفه المساجد و إمامته للمصلين أو إنتظامه في صفوفهم ، ثم ما يملكه الحاكم يقينا من ازورار عن المتكاسلين في الصلاة و المتهاونين بها و ما يملكه من عقوبة رادعة للجاحدين لها و المستهزئين بها .. ذلك كله بعيد المدى في المحافظة على الحكومة وفقها لرسالتها الدينية واحترامها لله و رسوله (١) " .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥ - ١٧ - لمعرفة رأي الغزالي أكثر في هذا الموضوع يمكن مراجعة فصل : سلطة روحية وزمنية في كتابه (من هنا نعلم) و فصل : عمل الدولة في كتابه (الإسلام و المناهج الإشتراكية) ..

إن الدولة في نظر الشيخ الغزالي من شعائر الإسلام ؛ و الطبيعة العامة لأسس ومقومات الرسالة الخاتمة إنما تتطلب هذه الوسيلة ، وفي ذلك دليل واضح على كون الإسلام دين ودولة ، أو كتاب وحكم ، وهذه الحقيقة لا يستتبطها الغزالي من ملابس الواقع أو سيرورة التاريخ فحسب ، بل قبل ذلك من نداءات الوحي الأعلى وتوجيهات المصحف الشريف و مقتضيات الحدود الشرعية الكريمة ، فمضمون الإسلام وفق هذا المدلول لا ينحصر في دائرة الفضائل و الهدايات العامة و لكنه " عقيدة و أنظمة و أعمال ... و وظيفة الدولة محددة في القرآن و السنة تحديدا لا يحتمل لبسا ، و يوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فسبقى الكثرة الساحقة من تعاليمه حبرا على ورق لأن تنفيذها عن طريق الفرد مستحيل ، و ليست العبادات الاجتماعية هي التي ستتل و تزوي فقط ، بل العبادات الشخصية المحضة من صلوات و استغفارات و صيام و حج و غير ذلك ، إنها عندما تحرم كنف الدولة تتكس و تموت ، فكيف إذا توجهت لها الدولة و نبذت ذويها و حرمتهم رعايتها ... إن وظيفة الحكم في الإسلام ليست إدارية فقط و لا قضائية فقط ، بل هي إدارية قضائية عبادية ، تضم النواحي جميعا في عروة لا تنفصم ، فالخليفة في نظر الإسلام إمام للصلوات كما هو فيصل في الخصومات ، و إذا كانت تقاليد القضاء الآن تجعل القاضي يصدر الأحكام بصفته نائبا عن رئيس الدولة ، فإن الإمام في مسجده كان ينبغي أن يؤم الناس بوصفه كذلك نائبا عن رئيس الدولة (١) " ؛ و لعل هذا المنظور المركز في فكر الشيخ الغزالي هو ما دفع به إلى معاداته القوية لفكرة العلمانية ، و وقوفه في وجه التيارات و الأفكار المنحرفة التي تعمل على فصل الدين عن الدولة و نقل ذلك الزيغ و التخبط الغريب إلى المجتمعات الإسلامية للانحراف بها عن وجهتها و رسالتها ، و يعتقد الشيخ أن ذلك ما هو إلا خدعة و تغرير بالمسلمين و مكر بدينهم الحق ؛ فالدولة ضرورة لرعاية الدين و توطيد رسالته ، و يعطي الغزالي مثلا يفضح و يعري من خلاله هذه الخدعة الموجهة للمسلمين ، و هو مثل يعكس مدى فطنة الشيخ و ذكائه و عمق تفكيره ؛ و المقصود هنا اعتماد المبشرين النصارى على الدولة في أعمالهم الدينية و التبشيرية ، بل إن معظم هؤلاء المبشرين يمارسون وظائف سياسية في السفارات و الملحقيات الثقافية، لكنها مجرد نكأة لتبليغ دعايتهم و مد نفوذ عقيدة التثليث (٢) .

(٣) طبيعة الدعوة العالمية : إن أي عقيدة في الدنيا لا تلبث أن تستحيل دولة -أو مشروعا لدولة- تدعو لتلك العقيدة و توفر سبل تحصين وجودها و إرخاء امتداداتها في كل أفق ، و لما كانت الدعوة الإسلامية التي ولدت يوم ولدت العقيدة في هذا الدين ، دعوة عالمية غير مقيدة بحدود الزمان و المكان ، فإن علاقتها بإطار الدولة توطدت منذ البدء ، فما أن أخذ التجهم و العبوس يلوح في أفق هذه الدعوة و الاضطهاد يكتنف حياة و واقع المؤمنين بها ، حتى بدأ البحث عن هذا الإطار (الدولة) و هو ما حدث

(١) محمد الغزالي ، من هنا نعلم (مصدر سابق) ، ص ٤٧-٤٨

(٢) محمد الغزالي ، كفاح دين (الجزائر : مكتبة رحاب ، ط ٦ ، ١٩٨٨م) ، ص ٦٣-٦٧

فعلا باعتناق أهل يثرب للدين الجديد و مبايعتهم لرسوله و مؤازرتهم للجماعة المؤمنة الأولى ؛ فالدولة إذن وفق هذا التشخيص ضربة لازب لأية فكرة أو عقيدة وهي بالنسبة للإسلام أمر لامندوحة عنه نظرا لمواصفاته الذاتية وطبيعة دعوته العالمية ، فهذا الفهم يرى الشيخ الغزالي أن معالمه تستبين بيسر من خلال القراءة المتأنية للمصحف الشريف ، أو تتبع مراحل الحياة النبوية الكريمة ، وعلّة ذلك عنده - إضافة لما ذكرناه - أن الإسلام " إذا خالط أمة من الأمم حولها إلى ميدان موار بالحركة و اليقظة مشغول بالبناء و الإنشاء يخاصم العلل المفسدة ويشتبك معها في قتال دائم ، ويصادق أسباب النماء و العفة و التقى ويغرسها بأعماق الجماعة .. فالإسلام معرفة لله واستكانة لحكمه وانسجام مع الكون المسبح بحمده الهاتف بجلاله ومجده ، فلا مكان في أرض الإسلام - الصحيح - لوثنية دينية أو سياسية ، والشعار المهيمن على النفوس و الصفوف هو (الله أكبر) يبدأ به الأذان ويختم ، وتساس به الجماهير و تسفل ، ويختلف الليل و النهار على الأمة الإسلامية وهي تعمل له أو تستجم لمتابعة العمل ، والدعوة الإسلامية دليل هذا كله وحاديه الأوحاد " (١) ؛ إن الدولة التي ترومها الدعوة الإسلامية ليست وسيلة أو آلة للقهر و الاستعباد أو الحد من الحريات الشخصية ومناوح النظر و التفكير و التأمل ، بل على العكس من ذلك تماما ، إنها إطار لتكريم الإنسان ورعاية حقوقه وصون المعتقدات التي أثارها باختياره العقلي وتمييزه الذاتي ، وبسط الخير والأمان في كل فج وصبغ الأجواء كلها بروح وهدايات الإسلام السمحة ، من أجل ذلك فإننا نرى الشيخ الغزالي يلح على ضرورة إقامة النظام السياسي الذي يمكن الإسلام كله ويضع بصماته على حركة الحياة و العلاقات ، لأن النظام الذي يفسح المجال لبعض الإسلام دون البعض الآخر أو دون إخضاع أي فعل وحركة في النظام الإجتماعي لمعايير الإسلام وصبغته ، لا يعتبر متسقا من حيث المبدأ مع طبيعة الدعوة الإسلامية ولامتشربا لغاياتها ، وهذا كثيرا ما يحدث في منعطفات الزمان والمكان ، وفي هذا المنحى ربما " وصف بالدعوة بعض الوعاظ الذين يرققون القلوب ويذكرون بالخير ويعينون على العبادة ، وهذا وصف يصح على ضرب من التجوز ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السأمة عليهم ، لكن شأن الدعوة أوسع مكانا وزمانا من هذا النصح المؤثر البليغ .. وربما منحت الدعوة أركانها في برامج الإعلام تطول أو تقصر ، وقد يسمى أولئك المتحدثون دعاة على اختلاف الموضوعات التي يطرّقونها ، وهذا أيضا وصف مجازي للدعوة الإسلامية ، فإن التدريس والحوار بعض الجوانب العلمية للرسالة الإسلامية ، أما الإسلام نفسه فدائرته أوسع وأضخم ، إنه أجهزة دولة كاملة تشمل التعليم والتشريع والقضاء و الجيش والتوجيه الداخلي والتمثيل الخارجي ، والهيمنة على كل نشاط مدني ليكون طاقة تتحرك بها دواليب الإسلام في أية ناحية .. إذا كانت الشيوعية في أرضها تأتي إلا وضع بصماتها على كل شيء فكيف ينتظر من الإسلام - وهو دين الأزل والأبد -

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (عين مليلة / الجزائر : دار الهدى ، ١٩٨٨ م) ، ٧ - ٨

أن يقبع في زاوية من زوايا المجتمع ضاقت أو اتسعت ؟ كلا .. إنه يصب كل شيء في قوالبه ليصوغه وفق مراد الله ، والدولة الإسلامية داخل حدودها وخارج هذه الحدود ، تمثل دينها وتعمل له وترفع شعاره وتوالي أو تخاصم من أجله ، وكل جهد في الدولة يمثل عملا إسلاميا معنا .. ومن جملة هذه الأعمال تتكون شعب الإيمان كلها (١) .

ويظهر من هذه المرتكزات المستخلصة من فكر الشيخ الغزالي أن الدولة الإسلامية القائمة على هذه الأسس هي دولة فكرة ومنهج وليست دولة تقوم على الولاء للجنس أو العصبية أو الدم أو التراب ، فهي دولة أساس نظامها السياسي الإخلاص للمبدأ ورعاية حقوق الله وإسعاد الإنسانية كلها ... لا مخاصمة الآخرين بالإذلال والقهر والسطو على ممتلكاتهم بالبطش والحيث ؛ وهي بذلك أول تجربة للدولة الإيديولوجية في التاريخ ؛ ونحن نرى أن تفكير الشيخ الغزالي هنا هو ما يفهم من استقراء القرآن والحياة النبوية ، فضلا عن كونه يتطابق مع ما قرره بعض المتخصصين في الفكر السياسي الإسلامي ، فإن " دولة الهجرة التي قامت سنة ٦٢٢ م كانت دولة (عالمية) كما كانت دولة (إيديولوجية) على أساس من الواقع التاريخي الأمين .. تضمنت مهاجرين من (مكة) لكن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا من الضعف بحيث يكونوا مجرد (لاجئين) ولا من القوة بحيث يكونون (فاتحين) .. وتضمنت أنصارا من (يثرب) لكنهم في عددهم المحصور وقوتهم المحدودة لم يكونوا جبهة غالبية كاسحة، بل كان يتربص بهم خطر مخالفتهم داخل مدينتهم وخطر مكة وقريش وقد أووا طريدها !! و من هنا وجد (المناخ) الصالح لقيام الدولة العالمية ... نتيجة حتمية لقيامها على الأساس الإيديولوجي ، و اجتمع في ظل لواتها على نفس الحقوق والواجبات عرب أقوياء و ضعفاء من قريش و غير قريش و من الأوس و الخزرج ، كما اجتمع عليها غير العرب ... كان هناك أبو بكر و عمر و عبد الرحمن بن عوف و علي بن أبي طالب و عمار بن ياسر و أبو هريرة و أبو ذر الغفاري و سعد بن عباد و سعد بن معاذ و سلمان الفارسي و صهيب الرومي و بلال الحبشي ... الخ " (٢) .

ثانيا : أسباب قصور الأداء السياسي الإسلامي في رأي الغزالي :

يبلغ التوتر بالشيخ الغزالي مبلغا كبيرا تتضح معالمه في تمعر وجهه المشرق و إبراق محياه تحت غلالة شفافة من الشجن والأسى ، إذا تحدث في الجوانب المتعلقة بالفكر السياسي الإسلامي و مؤسساته ، كما يحس القارئ و هجه و حرارته إذا قرأ كتابات الشيخ ذات الصلة بهذه المناحي ... و يؤمن الغزالي بأن حظ الإسلام في العلم و المعرفة و الدعوة كان أفضل بكثير من حظه في السياسة و الحكم ، لذا نراه يغوص في تحليل هذه المعادلة و يقدم للفكر الإسلامي رؤيته في هذا الجانب متوخيا معالجة عناصر و مكونات هذا المنحى الذي أزرى بالأمة الإسلامية و جعلها في ذيل القافلة البشرية بعد أن ظلت دهورا قدوة و نموذجا معجبا محتذى من قبل الأمم الأخرى .. و من ثمة فإن الشيخ يقدر أن تكون الأسباب

(١) - المصدر نفسه ، ص ٨

(٢) - محمد فتحي عثمان ، دولة الفكرة (القاهرة : مكتبة وهبة ، دت) ، ص ٥٥-٥٦

الآتية وراء قصور الاداء السياسي للفرد المسلم و المجتمعات الإسلامية واضطراب منظومة الفكر السياسي الإسلامي وعدم إيجاد المناخ المناسب لتطوير مؤسساته وتوليد الاجتهادات المناسبة للإرتقاء بهذا الجانب من الفكر الإسلامي و المذهبية الإسلامية :

أ) الظهور المبكر لسلطان الحكم المطلق : يعتقد الشيخ الغزالي بأن من أسوأ الحظوظ التي قد تعرض لحياة الأمم و الشعوب ظاهرة الحكم المطلق أو الفردي ، فإن هذا السرطان إذا اعترى كيانا ما أصابه بالشلل و محق فيه الإرادة و المبادرة و الإبداع ؛ و الأمة الإسلامية هي واحدة من تلك الأمم التي أصيبت بأقساط هائلة من هذه الحظوظ السيئة التعيسة ، و في وقت مبكر من تاريخها و مسيرتها مع الزمن ، و هذا النوع من الحكم له إرهابات و خصائص تدل عليه ؛ أولى تلك الخصائص " كبرياء الحاكم و تعاليه ... و ليس الكبر عقدة الضعة التي تجعل شابا طائشا يسير في الطريق متبخترا تعجبه نفسه و تزدهيه ملابسه ، أو التي تجعل الموظف في ديوانه يجحد حق العمل الذي استأجرته الدولة لإتمامه فيتشاغل عنه و يتغطرس على الجمهور المحتاج إليه !! إن هذه ردائل حقا ، و سواء دفع إليها النقص المركب أو الغرور اللاحق فهي جرائم محدودة الأثر إلى جانب سورات الكبر التي تجيش في نفس صاحب السلطة العامة فتحمله من مكانه حيث يعيش مع الناس على ظهر الأرض ، إلى سماء يتخيلها وينظر إلى الناس من عليانها فإذا به يرى العمالقة أقزاما ومن دونهم هباء ، ويحسب الخير الذي يعيش الناس فيه فيض السحاب الهامي من يده المباركة ! " (١)؛ ويمثل الشيخ الغزالي لهذا الصنف من الحكام بالخدوي توفيق الذي قال للقائد الإسلامي الثائر أحمد عرابي رحمه الله عندما طالبه باسم الأمة بضرورة وضع دستور ينظم صلاحيات الحكم و يشرح الحقوق والواجبات: هل أنتم إلا عبيد إحساناتنا؟! (٢)؛ ويؤكد الشيخ الغزالي على كون هذا الأسلوب إنما هو رمز للتأله في الأرض واستعباد الخلق و سلب الفطرة التي ذرأهم الله عليها من شعورهم و كينونتهم ، و سر ذلك أن للكبر إذا حكم و ساد تقاليدا " تحتضنه كما أن للعهر إذا شاع أسرا ترتزق به .. وكبرياء الحكام ترمز إلى ضرب من الوثنية السياسية له طقوس و مراسم يتقنها الأشياخ و يتلقفها الرعاع على أنها بعض من نظام الحياة الخالد مع السماوات والأرض ، و حيث يسود الحكم المطلق تنتقص الإنسانية من أطرافها بل من صميمها ، وذلك أن الله قد خلق البشر أحادا صحيحة و جعل لكل أحد منهم مدى معيناً يمتد فيه طولا و عرضا ، فإذا عن لأحدهم أن يتناول و ينتفخ و يتزبد فعلى حساب الآخرين حتما ، و من هنا تجد من حوله أنصاف بشر أو أرباع بشر !! أصبحوا كسورا لأرجالا سواء ، و ما نقص من تمام إنسانيتهم أضيف زورا إلى الكبر المغرور فأصبح به فرعونا متألها بعد ما كان فردا كغيره من عباد الله .. ولما كان الإسلام إنقاذا للناس

(١) محمد الغزالي ، الإسلام و الإستبداد السياسي (القاهرة : دار الكتاب العربي ، د.ت) ص ٢٦

(٢) المصدر نفسه و الصفحة نفسها

من جهالاتهم المتوارثة وحماية للفطرة من أن تأكلها تقاليد السوء وقوانين الإستبداد الأعمى فقد جعل كلمة التوحيد - وهي عنوانه وحقيقته - نغيا للوثنيات كلها ورفضاً لأية عبودية في الأرض وتدعيماً للحرية التي ذرأ الله الناس عليها و الكمال الذي رشحهم له (١) .

كما يؤكد الغزالي أيضا أنه إذا ساد الحكم المطلق فإن العلاقة الطبيعية بين الحاكم و المحكوم تفتقد خصائصها العتيبة كما تضطرب على إثر ذلك شبكة العلاقات الاجتماعية و تختل التوازنات كلها الضابطة لهذه المعادلة ، و علة ذلك عنده أنه " كما ينبت الشوك في أحضان الوثنية ينبت الرياء في ظلال الكبر ، و حيث يوجد السادة المستكبرون يوجد الأتباع المتملقون و الأشياع المرءون ، و جو الحكم المطلق أحفل الأجواء بجماهير العبيد الراضخين للهون عن طواعية أو كراهية (...) و طبيعة المستضعفين أن يسارعوا إلى مرضاة رؤسائهم وإجابة رغائبهم ، ولو داسوا في ذلك مقنسات الأديان والأخلاق ؛ و الحاكم المستبد يبارك هذه الطبيعة الدنسة و يغدق عليها . و لو راجعنا الصحائف السود لتاريخ الإستبداد السياسي في الأرض لوجدنا مراعاة الحكام قد وطأت أكناف المنكر و أقامت للأكاذيب سوقا رائجة و قلبت الحقائق وصنعت الدواهي (٢) " .

و يظهر أن الشيخ الغزالي قد استيقن من هذه الخلاصات ليس فحسب على ضوء إنعامه النظر و التأمل في آيات الوحي إنما أيضا على ضوء مراجعات و قراءات واسعة في شتى مراحل التاريخ الإسلامي ، ففي العديد من مؤلفاته (٣) نرى الشيخ يتصدى لهذه الدراسة و يطرح آراءه في العديد من الخلفاء و الحكام المسلمين خاصة من انتمى منهم إلى الخلافة الأموية و العباسية و العثمانية ... لكن رأيه إزاء هذه التراكمات التي تشكل مزيجا غريبا من العناصر السلبية و الإيجابية قد استقر على كون " الإستبداد السياسي الذي وقعت الشعوب المسلمة فريسة له من أمد طويل ، و ظلت إلى اليوم ترسف في قيوده ليس مرده إلى أن الإسلام نقصته عناصر معينة فأصيب معتقوه بضعف في كيانهم كما يصاب المحرومون من بعض الأطعمة بلين في عظامهم أو فقر في دمائهم ... كلا في تعاليم الإسلام وفاء بحاجات الأمة كلها و ضمان مطمئن لما تشتهي و فوق ما تشتهي من حريات و حقوق ، إنما بطشت مخالف الإستبداد ببلادنا و صبغت وجوهنا بالسواد لأن الإسلام خولف عن تعمد وإصرار و طرح أرضا البديهيات الأولى من تعاليمه ، و قام في بلاد الإسلام حكام تسري في دمائهم جرائم الإلحاد و الفسوق و المنكرات ، فخرجوا سافرين عن أخلاقه و حدوده ، ومع ذلك فقد فرضوا أنفسهم على الإسلام إلى يوم الناس هذا..ولو أن الإسلام ظفر يوما بحريته و أمكنته الأقدار أن ينتصف لنفسه لكان جمهور هؤلاء الحكام بين مشنوق و مسجون (٤) " .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠ - ٣٢

(٣) منها خاصة: الإسلام و الاستبداد السياسي و الدعوة الإسلامية مستقبل قرننا الخامس عشر، أزمة الشورى في المجتمعات العربية و الإسلامية

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤ - ٢٥

إن نتائج الحكم المطلق - كما يعتقد الغزالي وبعض المفكرين المسلمين - تذهل أولي الأبواب وتدع الحليم حيرانا لا يدري على أي نحو يتصرف .. إنها نتائج لا تنحصر فقط في سلب الأمة حريتها والقضاء على حيوية المجتمعات وفعالية الأفراد ، بل إن الوحي ذاته لا تنجو قداسه من طائلتها المدمرة ، وهذا حق لا إفتيات فيه ، فقد وجد من بين هؤلاء الحكام المتغلبين من يعتقد بأن القرآن الكريم وراء تخلف المسلمين !! (١) .

(ب) الإنحراف عن المفهوم القرآني للشورى : تعتبر الشورى من عزائم الشريعة الإسلامية البارزة والقواعد المقررة الثابتة في النظام السياسي الإسلامي ، وقد ثبت أن الإفتيات على هذه القاعدة عبر معظم مراحل التاريخ الإسلامي قد أثمر الحنظل والعقم في واقع المسلمين الاجتماعي والسياسي .. وفي نظر الشيخ الغزالي فإن الإستبداد السياسي وظهور الصلاحيات الخيالية للحكم الفردي بين المسلمين ما هو إلا أثر من آثار الإنحراف بهذه القاعدة عن مقاصدها القرآنية ذلك أن " الميوعة في مفهوم الشورى الإسلامية لا تزيد المسلمين إلا خبالا وفوضى .. وسببها قلة الفقهاء أو انعدامهم في ميدان الدعوة وازدحام هذا الميدان بدوي المعلومات الكاسدة أو التجارب القليلة أو الحماس الأجوف .. إن المفروض في الشورى أن تقي الأمة سيئات شتى ، منها إعجاب الغبي برأيه ورغبته في فرضه على الناس .. ومنها أن المستبدين يضعون أنفسهم فوق المسؤولية ، إنهم يخطنون الخطأ الرهيب ، فإذا افتضحوا كان غيرهم غالبا كبش الفداء ، والشورى إذا لم تق الأمة هذا البلاء فلا معنى لها (...) والحكم الفردي عظيم المهارة في التحريف والتزييف والنجاة من التبعات ! ومن ميزات الشورى أنها ترد الحاكم إلى حجه الطبيعي كلما حاول الإنتفاخ والتطاول .. والجماعات البشرية السوية فيها رجال كثيرون يوصفون بأنهم قمم ، أما البيئة المنكوبة بالإستبداد فدجاج كثير وديك واحد إن ساغ التعبير !! (٢) .

ونحن نلاحظ أن تفكير الشيخ الغزالي السياسي قوامه حسن فقهه للخطاب القرآني بدلالاته الصريحة أو الإيمائية ، إلى جانب شدة إعجابه بنموذج الدولة النبوية الشريفة واحتفائه بفترة الخلافة الراشدة .. غير أن الشيخ لا ينحصر بفكره في هذه الدائرة المرجعية ، بل نراه يغفل نظره في مختلف التجارب الإنسانية في ميدان الحكم سواء ما تعلق منها بالمسار التاريخي للمسلمين أو الأمم الأخرى داعيا للإستفادة منها وجني ثمراتها النافعة ، لذلك فلا غرو إذا وجدنا الشيخ يشتط به الغضب وتلقه الأحزان من كل ناحية حين يرى المسلمين دون غيرهم من البشر عاجزين عن الاعتبار الإيجابي بتجاربيهم الخاصة وتجارب الأمم الأخرى ، غير قادرين على صياغة القوانين السياسية والتشريعات الاجتماعية التي تحصنهم من آفات ومآسي الإستبداد والتغلب وتمكنهم من الاستمتاع الفعلي بالحريّة والإبداع ؛ إن اعتقاد الغزالي راسخ في أن المسلمين كأفراد أو كأمة قد خسروا الكثير ودفعوا الثمن باهظا بإضاعتهم العمل

(١) فهمي هويدي ، القرآن والسلطان (بيروت : دار الشروق ، ط١ ، ١٩٨١ م) ، ص ١٤

(٢) محمد الغزالي، أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية (القاهرة : دار الشرق الأوسط ، ط١ ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م) ،

بقاعدة الشورى وعدم تحويل وصاياها وضوابطها إلى مؤسسات تشرف على تنظيم وترشيد شؤون الحكم... ومبعث هذا الاعتقاد لدى الشيخ أن الخاصة الأولى للأمة الإسلامية أنها أمة غيرة على الحقيقة " لا تطبق تشويهاها و لا إغفالها ، و من ثم فهي لا تسكت عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فإذا بليت هذه الأمة بسلطات تكلم الأفواه ، و تدع العامة و الخاصة لا يعرفون معروفا و لا ينكرون منكرا فهل هي بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله ؟ أم هي تقطع الطريق إليها .. لقد أخذ الأحرار على ملك فرنسا لويس الرابع أنه قال : أنا الدولة! يعني أنه وحده المسؤول عن شؤونها لا شريك له ! فإذا كان (السلطان) في بلاد الإسلام يردد بلسان الحال أو المقال هذه الكلمة ، فما الفرق بين دولة الإيمان ودولة الكفر وأين يجد الناس ساحة المسامحة و الشورى والأخذ و الرد دون تهيب و لا توجس ؟ إن العقيدة الإسلامية أساس حضارة راشدة راقية ، و لا يسوغ أن يتدرع بها من يخدمون مآربهم وأغراضهم ، ونحن مكلفون بتبليغ رسالة نازلة من السماء لأحمل أوضاع من صنع الناس ؛ أعرف ويعرف غيري أن الإمامة العظمى في الإسلام احتكرتها ثلاث أسر خلال اثنتي عشر قرنا ، أفصلحة الإسلام وعلى هدي تعاليمه تم هذا؟! (...)

إن ركاز الأخطاء الذي آل إلينا على مر القرون جعل المسلمين المعاصرين يضطربون في الفهم والمنهج ، بل جعلهم يظنون أن الحكم من نوازل القدر التي لا ترد وأن استقباله كاستقبال الآفات و المصائب الوافدة يكون بالصبر و الاسترجاع (1) . "

المهم أن تحليل الشيخ الغزالي كما نلاحظ - وبعد مراجعته مراحل تاريخ الحكم في الإسلام أو بالأصح الحكم الذي كان باسم الإسلام - يصل به إلى أن تجاهل المسلمين لقاعدة الشورى وعدم إنفاذ تعاليمها أو تطوير هياكلها كان ذريعة حتمية لجمود مؤسسات الحكم الإسلامي ، وإعاقة حركة الاجتهاد داخل منظومة الفكر السياسي الإسلامي .. وهو ما جعل بالضرورة صورة نظام الحكم في الإسلام لا تتماسك حقيقتها في الأذهان ، بل لا يتصور معها إلا الاستدعاء الذهني لتلك التصرفات الطائشة والأعمال السلبية المتناقضة والتي تنقبض إزاءها النفس الحرة و الضمير الصافي .. وهي جوانب ومنعطفات غريبة حقا ولاتنتقي في شيء مع هدايات الإسلام العظيمة وقيمه السامية ، بل هي تشوهها وتجعل منهجها كله موضع ارتياب وإعراض من قبل الآخرين ! .

(ج) عدم وضع سياسات دقيقة للتصرف في المال العام : يذهب الشيخ الغزالي كذلك إلى أن الفقه الإسلامي لم يتجه إلى التوسع في سياسة المال على نحو ما فعل مع العبادات مثلا ، وربما أسهب بعض الفقهاء في شرح الأحكام المقررة في هذا المجال وهذا أمر طبيعي أو عادي فإن القرآن الكريم حدد مصارف الزكاة في حال جمع المال من الزكوات ، وكذلك فعل مع الغنيمة إذا كان المال المجموع فينا ، بيد أن ذلك لا يغني في قليل أو كثير لأن المشكلة هنا ليست غموض الأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الميدان .. إن المطلوب تحديدا هو التوسع الذي يحفظ على الأمة ثرواتها وأموالها ويجعلها في خدمة

(1) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (الجزائر : دار الكتب ، د.ت) ، ص ٨٠ - ٨١

مسالحتها العامة وفق قوانين محكمة وضوابط محددة ، أي إيداع وإنشاء تشريعات واجتهادات ومؤسسات تهتم بضبط أطر وصلاحيات التصرف في المال العام .. وفي رأي الشيخ الغزالي فإن هذا القصور الفقهي أو الخلل التنظيمي قد أسهم بقوة في الزرارية بشكل نظام الحكم الإسلامي و من دون تقليل للأهمية الفقهية لهذه المسألة فإن هذه الثغرة دفعت بالشيخ الغزالي إلى اعتبار قضية المال العام قضية سياسية من صميم أدوات و مناهج نظام الحكم ، و من ثمة فإنه يعتقد بأن من أهم علامات و طبائع " الحكم المطلق السرف الشديد على شخص الفرد الحاكم و على كل من يمت إليه بنسب أو يواليه بنصر ، فترى شهوات الغي - في البطون و الفروج - مشبعة و مضلات الهوى مسيطرة على المشاعر و النهي !! و عبء هذه النزوات يقع على عاتق الخزائنة العامة وحدها ، فإن الاستبداد السياسي لا يبالي من أين يأخذ المال و لا أين يضعه ، و قد نكب المسلمون - من قديم - بنفر من القطاع وقعت في أيديهم غنيمة الحكم فتقاسموها نهمين ، و لم يعرفوا من المناصب التي سقطت في أيديهم إلا أنها منابع ثرة للشباب الجامح و النزق و الإفراط ، أما مصالح الأمة فلا وزن لها " (١) .

إن تفكير الشيخ الغزالي يغوص إلى عمق العلل التي توطنت كيان هذه الأمة ، فيكشف الرذائل المستحقة في جنباته و أسبابها و نواحيها ، و كأنه مختص في العلل الإجتماعية و المعاصي السياسية التي تطل الأمم في صميم مقوماتها و أنظمتها في الحياة ، و نحن نعتبر الشيخ قد أبدع في ربط الفساد السياسي بفساد سياسة المال و نحسبه قد تفرد بهذا التفكير ، و قد ركز في كتبه الأربعة الأولى (٢) على معالجة هذه الأمراض على هدي من فقهه بالإسلام ، و هو يرى أن هذه العلل قد تبدأ خافتة الوقع محدودة الأثر إلا أن أعراضها سرعان ما تتداح مؤثرة وبقوة في كل منحنى ، خاصة إذا وهنت قوى المناعة الذاتية ؛ و هنا لابد أن تكون مسؤولية الأمة حاسمة لا مجال فيها لتردد أو نكوص ، إذ ينبغي تدبير أمر وقف تلك الأعراض بما يليق بكل حالة و وضع ، و هذا ما تعرضت له الأمة الإسلامية في وقت مبكر من وجودها أي منذ تحول الخلافة الراشدة الهادية إلى حكم عضوض ، و لم يتم وضع العلاج المناسب مع تراخي العهود و القرون ، بل فسح المجال واسعاً أمام تلك الأعراض الخطيرة حتى أتت على عناصر المناعة الذاتية في كيان الأمة .. صحيح أنه في كل عصر و عهد " تفوح الروح الإسلامية في مشاعر رجال و شعوب فينهضون لبيسطوا رواقها على المجتمع و الدولة .. لكن الحاجة ماسة إلى عمل منظم قوي يخضع سياسة المال لتعاليم الدين خضوعاً لا فكاك لها منه مهما اختلفت الأوطان و تطاولت العصور (...)

فالفساد الذي أصاب سياسة الحكم هو نفسه الذي أصاب سياسة المال ، بدأ خفيف الوقع - وإن كان غليظ الدلالة - فتحملته الأمة في شبابها كما يتحمل الرجل العامل و عكة لا تعرقل سيره ولا تعطل وظيفته ، و كرت الليالي على هذا الاضطراب .. فإذا بمعين القوة ينضرب ثقله موارده وإذا بأعراض الداء تستفحل ،

(١) محمد الغزالي ، الإسلام و الاستبداد السياسي (مصدر سابق) ، ص ٣٧

(٢) هي : الإسلام و الأوضاع الاقتصادية ، و الإسلام و المناهج الاشتراكية ، و الإسلام المقترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين ، و الإسلام و الاستبداد السياسي .

وإذا بالأمة الإسلامية مقعدة في طريق الحياة الطويل لا تستطيع حركة .. ومعروف أن هناك طائفة واحدة من الناس هي التي تستفيد من إفساد دين الله ودينيا الناس، وهي التي يهملها أن تفسد سياسة الحكم و المال، بل إنها لتضع القمامة التي تتوالد فيها جرائم هذا الفساد العريض ثم تتعهد توريدها إلى حيث تشاء (١) .

كما يعتقد الشيخ الغزالي -دون استبعاد للعوامل الداخلية- أن هذا الانحراف تسرب عن طريق الدس اليهودي المتربص بدولة الإسلام منذ انطلاقتها إلا أنه لم يفلح خلال فترة الخلافة الراشدة لقوة المناعة الذاتية في الكيان الإسلامي حينئذ ، فعندما أصدر كعب الأحبار فتواه (أنه لا بأس أن يأخذ الحاكم من بيت المال ما شاء لينفقه فيما ينتويه من أمور و ليعطي منه من يشاء من الناس) ! صرخ أبو ذر الغفاري رضي الله عنه في وجهه و أمسك بعصاه و أعملها في صدر كعب و هو يقول : (يا ابن اليهودي ما أجرك على القول في ديننا) ... إلا أن هذه الفتوى الباطلة وجدت طريقها للتفويض و على نحو سائن بمجرد تحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، لذلك يعلق الشيخ الغزالي على هذه الفتوى بقوله : " .. و هذه الفتوى ليست إلا دسا يهوديا لإفساد الإسلام بعدما أفلح الدس اليهودي في التخلص من عمر أعظم فقيه .. تولى الحكم فأحاله بعقريته نظاما لا ينفق فيه درهم إلا في موضعه الحق من مصلحة الشعب .. و ما أوج الشرق الإسلامي إلى عصا أبي ذر مرة أخرى تؤدب ما خلف كعب الأحبار من (كعوب) و ما أحدثته هذه الكعوب في جسم الأمة من ندوب " (٢) .

(د) الجهل بفقهاء الإسلام و موقفه من الدنيا : يميل الشيخ الغزالي إلى أن اضطراب فهم الأمة الإسلامية في موقفها من الدنيا -مثل الموقف من المال العام- هو مسألة سياسية ذات أبعاد اجتماعية عامة ، و أن الفقه الإسلامي في بعض المراحل ترك فراغا في هذا الميدان الخطير تسال منه بعض المعلولين في تفكيرهم مثل الكثير من رجال الزهد و التصوف و الرقائق غير الممحصنة ؛ و يظهر أن هذا الاضطراب أو البلبلة في إدراك الموقف الإسلامي الصحيح من الدنيا هو الآخر من آثار التصوف النصراني و الدس اليهودي الذي تسرب إلى الثقافة الإسلامية في وقت مبكر من حياتها و تاريخها ، فكان هذا الانحراف يمثل رقما له وزنه في معادلة انهيار منظومة الفكر السياسي الإسلامي و منظومة فقه الاجتماع و الإعمار و الإسهام ، فإن الله عز و جل عندما خلق " البشر خلق لهم كل ما في الأرض ليستمتعوا به ما داموا على ظهرها أحياء ، و معنى ذلك أن يعرفوا ما هيا لهم معرفة شاملة ... فمن الغباوة أن يأكل المسلمون و يزرع غيرهم أو أن يستهلكوا و ينتج غيرهم .. إن العلم بالحياة الدنيا و ارتفاقها و الاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها ، و لا يعد التنبه إليها مثار دهشة ، بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها .. و كما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم و تأييد مبادئهم و قيمهم ، فالكف العزلاء تخذل الحق و السلاح التافه يجر الهزيمة (...)

(١) محمد الغزالي ، الإسلام المفترى عليه (باتة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ٢٢ - ٢٣

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤

إن الأرض الإسلامية كلها استبيحت نتيجة هذا الجهل الغليظ ، مع أن العلم بها لا يقل عن العلم بأركان الصلاة ، فإن بقاء الإيمان في الأرض و صحة الجهاد دونه لا يتمان إلا بهذا العلم الدنيوي .. العلم الواسع بالدنيا و القدرة عليها كانت أمورا بديهية عند أسلافنا ، و قد نصرروا الحق بهذا الإدراك السديد ، ثم خلف من بعدهم من نفص يديه من شؤون الدنيا فخذل نفسه و دينه على سواء (١) .

و يصح لنا أن نفهم أن بعض الحكام يرحبون بهذه الاتجاهات الداعية للإنعزال عن الدنيا و ذلك حتى يتمكنوا من تحصين سلطانهم من المغامرين ، أو حتى من إزعاج الناقدين و المعارضين ، و لعل هذا الأمر هو ما جعل الشيخ الغزالي يستفتح حياته العلمية بتصحيح هذا الجانب الفكري خاصة من خلال مؤلفيه : (الإسلام و الأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام و المناهج الإشتراكية) ليؤكد أن الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية ذات صلة وثيقة بالفكر السياسي ، بل هي من صميمه و جوهره في سياق الممارسة السياسية ، و أن الأنظمة المستبدة يسعدها و يقر عينها أن تعيش الشعوب بعيدة عن الاكتراث بهذه المسائل ، لأن رفع المستوى المعيشي و تنمية الظروف الاجتماعية تكون في أغلب الأحيان إرهابات قوية للوعي السياسي و الرغبة في التغيير و الجنوح نحو الإصلاح ، و كثيرا ما نرى المشرفين على تلك السياسات يعملون على استغلال الدين - و الغزالي يسمي هذا اللون من الدين بالتدين الصناعي - في تهدئة المحرومين و عدم ترغيبهم في الدنيا ، فلا غرو إذن إذا وجدنا الشيخ الغزالي يقول : " إن الاستبداد السياسي و الإفتيات الرأسمالي و التدين الصناعي آفات قديمة في الشرق ، و إنها لسفالة لاقرار لها .. أن يسخر الإسلام في إبقاء هذه الآفات .. إن بعض الجماعات المتدينة تحسب أن قوام الدين هو الإيمان بالغيب و اليقين في الآخرة و العبادات الخاشعة و التعاليم الروحية ، و طائفة أخرى من الأحوال الشخصية و الأحكام الفردية المحددة ، وهي تنشط لخدمة الدين في هذه الدائرة الضيقة ، ولو نجحت في بلوغ أهدافها هذه مع بقاء الدكتاتورية السياسية و الرأسمالية الاقتصادية فإن نجاحها و إخفاقها سواء ، وسيظل الدين تعاليم في ورق ، ورقما على الماء مابقيت الفرعونية الحاكمة و القارونية الكانزة تفسد في الأرض و تسفك الدماء ، ولئن كانت الفوضى الاقتصادية قد صدعت البناء الاجتماعي للإسلام - كدين عام - وشوهت حقائقه الأولى في عقول أبنائه و قلوبهم - كعقيدة خاصة - فقد أصابت كذلك الوضع السياسي للمسلمين بما جعلهم أعجوبة في العالمين (٢) " ؛ وعلى عكس الكثير من العلماء و الكتاب المسلمين فإن الشيخ الغزالي يلح على ضرورة التفريق بين المفاهيم و تمحيص معانيها ودلالاتها لأنها قد تتسبب في كوارث داخل الحياة الإسلامية مثلما هو الأمر بالنسبة لمسألة الدنيا ، فلا بد من الموازنة الدقيقة الحصيفة بين المواطن التي تدم فيها و المواطن التي تمدح فيها ، و التغاضي عن هذا الخلل - كما يعتقد الغزالي - هو الذي جعل الاستبداد السياسي يوجه مضمونه وجهة تخدم بقاءه و استنفاله ، فكان لابد من إنهيار

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ، ص ٦٥ - ٦٦

(٢) محمد الغزالي ، الإسلام و الأوضاع الاقتصادية (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط ٥ ، ١٩٦١ م) ، ص ١٩٧ - ١٩٨ = لتوسع أكثر يراجع فصل فلسفة الغنى و الفقر و فصل القعود عن الدنيا هتم للدين في كتابه الآخر (الإسلام و المناهج الإشتراكية)

الحضارة الإسلامية وضمور بريقها المشع المنير وتفقر الأمة الإسلامية وعجزها عن نصررة رسالتها ، فإن دين يفقد المال و القوة فقد حاققت به الدنية رغم أنه ، و كذلك الأمر إذا فقد الدنيا المؤطرة لتعاليمه الحارسة لشؤونه فلا مندوحة من أنه سيكون كسيحا لا يستطيع السير و الحركة ، و من سوء حظ السياسة الإسلامية أن أدركها في فترة مبكرة هذا العثار فمئذ " بضع مئات من السفين سقط المجتمع الإسلامي كله فريسة لعصابات من المتصوفة ، هونت لديه العمل للدنيا باسم الإقبال على الآخرة ، فكانت عقبى هذا التوجيه الضار دمارا أصاب المسلمين في كيانهم العلمي و العسكري و السياسي ، إن الإقبال على الآخرة حق ، و من ذا الذي يجروؤ على تهوين الآخرة أو بغض من الإستعداد لها ؟! غير أن الطريق إلى ذلك ليس بالإنصراف عن الدنيا -كما يفهم الكسالى و أهل البلاد- بل بامتلاك الدنيا و تسخيرها لله (١) . "

هـ) الانفصال بين العلم و الحكم : و هذا سبب آخر جعل صورة النظام السياسي الإسلامي لا تتماسك معالمها و مشخصاتها في التصورات و العقول ناهيك عن الواقع القائم في دنيا الناس ، و قد حرص الإستبداد السياسي على تجاهل الوظيفة الأولى للدونة في الإسلام ، فبدأ الانحراف أولا بطريقة اختيار الحاكم ثم أخذت دائرته تتداح في اتجاهات أخرى سلبية مختلفة إلى أن تتوسيت حقيقة أن الدولة في الإسلام أساسها الدعوة ، فهذه الدعوة المباركة في فجر نورها الساطع لم تلبث إلا قليلا حتى تحولت إلى دولة على عهد صاحب الرسالة العظمى -صلى الله عليه وسلم- و عرفت بعد في العالمين بخلال و شمائل لم تؤثر عن غيرها .. بيد أنه و مع توسع دائرة الانحراف بعد أن أفرز الإستبداد السياسي الاستعباد و انكسار العزائم ، فإن الأمة الإسلامية فقدت مؤسساتها الحقيقية التي كان ينبغي أن تعرف بها في المشارق و المغرب ... و من بين صور الشرخ التي حدثت انفصال العلم عن الحكم ، بعد أن كانا يمثلان حقيقة واحدة متماسكة في الدولة الإسلامية النبوية و الراشدة ، ويذهب الشيخ الغزالي في تحليله لتداعيات هذا الانحراف إلى أن معظم السياسات التي سادت العالم الإسلامي ونكبت بها الأمة في هذا العصر الذي يوصف بأنه عصر الجماهير و الحريات ، لما كانت تعرف المكانة الشعبية للإسلام وأثره في النفوس و الأفئدة فإنها - وهذا ديدنها - " تؤوي إلى كنفها صنفا من علماء الدين يطلق عليهم : العلماء الدواجن ، لاشوكة لهم ولا غيره ، يمثلون الدين على نحو ما ، وينفون عن أعدائه شبهة الارتداد ، ولو كانوا يعملون بيقين لحساب الشيوعية و الصهيونية و الإستعمار " (٢) .

وفي موضع آخر نجد الشيخ الغزالي يتحدث عن مظاهر هذا الخلل وكيف أن هذه الجفوة لم تستطع أن تذهب بعيدا في التأثير على مسار الأمة في بعض المراحل عندما كانت قوى المناعة الذاتية عارمة في الكيان الداخلي للأمة الإسلامية ، أي أن الخطوط الخلفية و العميقة في الأمة - الثقافة و العقيدة - وقفت على الثغور وقلصت النقص الناشيء عن تلك الجفوة، وفي بعض منعطفات تلك المراحل " بقي العلم

(١) محمد الغزالي ، مع الله (القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ط ٥ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ١٩٩

(٢) محمد الغزالي ، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (قسنطينة : دار البعث ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ، ص ٧٩

صحيح المنهج ، سليم الوجهة ، ولقد ظل قرونا وهو بهذه النضارة يؤدي رسالته المزدوجة في ترقية الجمادير وإلانة شكيمة الحاكمين ، وإن اضطربت قواعد تعيينهم .. غير أن الكياسة التي عرف بها أغلب الملوك القدامى ، والصلابة التي أثرت عن جمهور العلماء لم تستمرا على مر الليالي فلم يلبث الانفصال بين الجانبين أن اتسع مداه و قد كان من الصعب أن يبقى مجال العلم زاخرا فياضا مع شروود الحكم عن صراط الله ... و تاريخ الاستبداد ناطق بأن السلاطين و الأباطرة يضيقون باليقظات العقلية و يتوجسون خيفة من انتشار المعارف ، و قد يسمحون بنوع خاص من العلم يعيش في كنفهم وحده ، لكن تضيق الخناق على العلم في ناحية يخدم النشاط في نواحيه الأخرى و يجعله علما قليل الجدوى . و قد أخذ العلم في البلاد الإسلامية ينكمش رويدا رويدا ، و بدت آثار هذا الإنكماش في إغلاق باب الاجتهاد و الاكتفاء بما وصل إليه العلماء الأوائل من أحكام في شتى ميادين الثقافة الإسلامية (١) .

ثالثا : وسائل بناء النظام السياسي الإسلامي في منظور الغزالي :

بعد التعرض لأهم الأسباب و الدواعي التي أدت إلى ومن واضطراب الأداء السياسي الإسلامي تاريخيا وإصابة مؤسسات الفكر و الاجتهاد السياسي الإسلامي بعزل فادحة كانت لها جميعا آثارها الوخيمة على المسار الحضاري للأمة الإسلامية ، نحاول في هذه المساحة تجميع واستنباط الأدوات و الوسائل الرئيسية التي يتأسس عليها النظام السياسي الإسلامي من كتابات وأفانين تفكير الشيخ الغزالي .. حيث نجد - بعد فحص دؤوب لهذا النتاج الثمر - أن اجتهاده أو فقهه السياسي جعله يراها تتمثل فيما يأتي :

(١) اختيار الحاكم وفق الإرادة الحرة للأمة : يعتقد الشيخ الغزالي أنه لايجوز أن يمارس أي ضغط أو تأثير سلبي على إرادة الأمة إزاء اختيارها للحاكم ، وسر ذلك " أن الإسلام يطلب لمنصب الإمامة العظمى أحسن الناس دينا وأبينهم كفاءة وأشدهم طاقة على النهوض بأعباء هذه الوظيفة الضخمة ، و إذا كان الإسلام يطلب لإمامة الصلاة مؤهلات دينية و علمية خاصة ، فكيف يدع إمامة الدين كله و الحياة المدنية معه لأناس تافهين ؟! " (٢) إن رأي الشيخ الغزالي هنا يتسق مع رأي جمهور الأمة في كون الإمامة العظمى إنما هي عقد بين الأمة و الإمام ؛ و قد حقق الدكتور عبد الرزاق السنهوري - وهو أحد أكبر أساتذة القانون في هذا العصر - في عقد الإمامة كما عرضها الفقهاء المسلمون فوجده عقدا تام الشروط من وجهة النظر القانونية ، لأنه مؤسس على الرضا و الغاية منه أن يكون المصدر الذي يستمد منه الإمام سلطته ، و هو ما أكده الدكتور ضياء الدين الرئيس كذلك ، حيث جزم بأن الأمة هي مصدر الاختيار و طريق ثبوت الإمامة وفق إرادتها المستقلة ، و لا يعني ذلك البتة -كما يشير الأستاذ عبد القادر عودة- أن هذا العقد مطلق ، بل هو مقيد بنصوص الشرع و مقاصده (٣) .

(١) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ١٠٦ - لاستيعاب رأي الغزالي بصورة أفضل في

هذا الموضوع يراجع بحث العلم والحكم من كتابه (الإسلام و الاستبداد السياسي) -مصدر سابق- من ص ٢٠١ إلى ص ٢٠٨

(٢) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (مصدر سابق) ، ص ٦٦

(٣) فهمي هويدي ، القرآن و السلطان (مرجع سابق) ، ص ١٤٧ - ١٤٩

و لا شك أن ما عليه جمهور الأمة في هذه المسألة هو ما حدا بالشيخ الغزالي إلى القسوة-خاصة في كتاباته الأولى- على كل من أسهم في تحويل الخلافة الراشدة الهادية إلى ملك عضوض ، أي اغتصاب حق الأمة في اختيار إمامها ، و هي مخالفة بعيدة الأثر عميقة الضرر -في اعتقاد الغزالي- فقد تغير " شكل الدولة أيام معاوية بن أبي سفيان و اختفى النظام الجمهوري الرفيع و حل مكانه ما يشبه النظم الملكية المعروفة في أقطار الأرض الأخرى ، و جمهور المسلمين متفق على تخطئة معاوية فيما صنع ، و جمهورهم يرى الخلافة بيعة حرة يختار لها أكفأ المسلمين لمنصب الرياسة . و نحن مع خاصة المسلمين وعامتهم في هذا الرأي " (١) ؛ و يميز الغزالي إلى كون هذا الخلل المبكر في تاريخ كياننا السياسي هو الذي أفرز الانحرافات الأخرى " بل كان الكيف الذي آوى جرائم المفاسد الأخرى ... و بدأ هذا بجذع الحكم و أصله الأول ، أعني : الخلافة ، فالمفروض عقلا و نقلا أن يختار المسلمون خليفتهم من بين أعظم الكفايات فيهم ، إلا أن سطوة العصبية و غلبة الشهوات هدمتا هذه القاعدة فإذا الخلافة ميراث شخص يتركه والد لولده ، و لو أن الخلافة نوع من السلطان يشبه الملك الزمني لأمكن مع الترخص والإغماض أن يفهم هذا الوضع و أن يحاط بالضمانات التي تسدده ... لكن الخلافة نيابة عن رسول الله في مصالح الدين و الدنيا ، أي أنها زعامة روحية و عقلية و مدنية و عسكرية ، فكيف يمرق مخلوق من بطن أمه ليتلقفها و هو يبول في مهده ، و كيف تكون الخلافة حكرا في بيت من البيوت يموت ربه فينالها من بعده ابنه ؟ (...) لكن هذا الهزل هو الذي ساد بلاد الإسلام دهورا ، بعد أن طويت أعلام الخلافة الراشدة وقضى عليها معاوية بن أبي سفيان ... إن توريث إمارة المؤمنين الذي ابتدعه معاوية مقلدا المجوسية الفارسية و الصليبية الرومانية كان بداية الشرر الذي تحول على مر الليالي حريقا مستعرة دمرت الأخضر و اليابس في الحضارة الإسلامية المظلومة (٢) " .

والذي يظهر من تحليل وتشخيص الشيخ الغزالي لهذه المسألة أنه لايقبل مطلقا أن يتنازل النظام السياسي الإسلامي عن هذه الخاصية أو الوسيلة ، لأنها بنظره ليست مجرد أداة أو وسيلة للاختيار من بين مجموعة أدوات ووسائل أخرى ، وإنما هي إطار التعبير الحق الذي يعكس الإرادة الحرة للأمة الإسلامية، فقد دلت مرجعية الحكم الشرعي من كتاب وسنة وإجماع الصحابة أن نصب رئيس الدولة الإسلامية لا يكون إلا بالبيعة من المسلمين عن رضا واختيار(٣)، أي أن خليفة المسلمين أو رئيس الدولة الإسلامية ، يستمد سلطانه من رضا المسلمين واختيارهم الحر وليس من استخلاف أو عهد من سبقه (٤) .

(١) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (مصدر سابق) ، ص ٥٦

(٢) محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية (القاهرة : مكتبة دار العروبة ، د.ت) ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨

(٣) محمود الخالدي ، البيعة في الفكر السياسي الإسلامي (الجزائر : شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، ١٩٨٩ م) ، ص ٢٧٠

(٤) عبد الكريم زيدان ، حقوق الأفراد في دار الإسلام (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ، ص ٧

(٢) الشورى أساس وركيزة الإختيار : إذا كان من السلم به في الفكر السياسي الإسلامي أن الأمة صاحبة الحق في اختيار الخليفة أو رئيس الدولة ، فمأهو الأساس الذي يقوم عليه هذا الحق ؟ يرى الشيخ الغزالي أن الشورى هي أساس تنفيذ وممارسة هذا الحق ، فقد ثبت أنها " ركيزة الحكم الصالح في أي عهد وفي كل بلد ، وقد تقرر هذا المعنى في أذهان الناس من فجر الخليفة إلى عصرنا هذا ، وقد احترم الإسلام الشورى ، وماكان له أن يفعل غير هذا ، وبنى عليها النبي العظيم حكمه ، وكذلك فعل الراشدون من خلفائه ، ولما رأى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز أن الحكم صار إليه بعيدا عن رأي المسلمين كره أن يفتات على جمهورهم فخلع البيعة التي ورثها ورد إلى الأمة خيارها .. فرمت الأمة بزمامها بين يديه عن طواعية ، ومشت خلفه راغبة لا راهبة " (١) ، والشيخ الغزالي يعتقد أن هذه الخاصية في النظام السياسي الإسلامي هي تجاوب مع الفطرة السليمة و العقل الراشد ، أي أنها ليست نزوعا مغائرا لما كان سائدا فحسب يوم مجيء الإسلام .. من أجل ذلك دخل الشيخ الغزالي في مساجلة فكرية مع الشيخ محب الدين الخطيب جديرة بأن يقتدي بأدبها ومستواها ونزاهتها العلماء والمفكرون في محاوراتهم ومناظراتهم ، وقد بدأت هذه المساجلة عندما نشر الشيخ الغزالي مقاله (الأمة .. والفساد الملكي) بمجلة (الإخوان المسلمون) (*) ذكر فيه أن طبيعة الحياة الدنيا ومايكتف البشر من أهواء غلبت المثل العليا التي قررها الدين ، وأن معاوية تمكن بعد ثلاثين عاما من الحكم الراشد أن يلتوي بوجهة هذا الأسلوب وأن ينقل عن الروم والفرس بدعة النظام الملكي ووراثه الحكم ، كما انتقد الشيخ ماذكره الفقيه أبو بكر بن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) - الذي حققه محب الدين الخطيب - من أن يزيد بن معاوية انعقدت له بيعة شرعية ، وقد أثار حفيظة الشيخ الغزالي قول ابن العربي (إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى ، و ألا يخصص بها أحدا من قرابته ... فعدل إلى ولاية ابنه و عقد له البيعة ... فانعقدت البيعة شرعا لأنها تتعقد بواحد و قيل باثنين) (٢) فجزم بأن هذا الكلام فارغ و لا أساس له و أنه لا ينبغي أبدا تحت عنوان الدفاع عن الصحابة الإيهام بأن للوثنية السياسية أصلا شرعيا ، و أن توارث الملك قد سبقت به الأسوة الحسنة فيما صنعه معاوية باستخلاف يزيد ، لأن عدول معاوية عن الشورى ليس عدولا عن الأفضل فقط و لكنه عدول عن الوجوب ذي الدلالة الإلزامية التي لا شك فيها و لا مجال فيها للتمحل

(١) محمد الغزالي ، في موكب الدعوة (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٨ م) ، ص ١٤٥

(*) صدرت في ١٧ شعبان ١٣٦١ هـ / ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ م ، وتوقفت في ٢٦ محرم ١٣٢٨ هـ / ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨ م ، وبلغت أعدادها (٢٢٣) عددا ، وكان الشيخ الغزالي من أبرز كتابها وسكرتيرا لتحريرها .

(٢) للفقهاء المسلمين آراء غريبة حقا في العدد الذي تتعقد به البيعة الشرعية لخليفة المسلمين ، وهذا العدد تراوح بين الواحد والإثنين (هكذا !!) وبين الأربعة ! ومجمل هذه الآراء مبني على قياس لا معنى له ، مثل من اختار انعقادها بأربعة قياسا على مقدار عدد شهود الزنا ، أو من اختار ستة قياسا على أول جماعة للحل والعقد في الإسلام ، وإن كان يوجد من بينهم من قال بوجوب إرجاع الأمر إلى إجماع الأمة وهو ماذهب إليه أبو بكر الأصبم المعتزلي (انظر محمود الخالدي : البيعة في الفكر السياسي الإسلامي ، مرجع سابق : ص ١٣٥ - ١٤٦) ويظهر في هذه المساجلة شدة ضيق الشيخ الغزالي باختيار محب الدين الخطيب لرأي لا وزن له ولا اعتبار ولا وجاهة جعل به خلافة يزيد القهرية أو الاستيلانية خلافة شرعية !!!

و التاويل (١) ؛ و قد رد الشيخ سحب الدين انخطيب على ما كتبه الغزالي بمقال عنوانه (هل الحكم الشرعي كلام فارغ) (٢) لكن الشيخ الغزالي عقب على مقال الخطيب بمقال (هل هو حكم شرعي !؟) و إن كان قد أظهر فيه شمائل العالم الموقر لشيخه و المحب للعلماء ، فإن إقرار الحقيقة فيه كان فوق كل الاعتبارات و المودات ، حيث ذهب من خلاله إلى أن مبدأ الشورى لا يجوز للأمة التفريط فيه أو عدم التفاعل مع آثاره و نتائجها فيقول : " إن رياسة الدولة تعني -في الفقه الإسلامي- الإشراف الدقيق على مصالح الدين و شؤون الدنيا ، و الإسهام بنصيب كبير في توجيه الأمة إلى تحقيق رسالتها -إن كانت لها رسالة - ثم تحمل تبعات ذلك الإشراف و توجيهه أمام الله و الناس . و فقهاء المسلمين يعدون الرياسة للأمة و الدولة أو ما سموه : الخلافة العظمى أخطر المناصب و أشرفها ، و من البيهني أن يختار لهذا المنصب الضخم أليق الناس له ، و من البيهني كذلك أن يعتبر حصره في سلالة رجل معين خرافة ضخمة ... خرافة تصادم الفطرة و العقل و أصول الإسلام و فروعه و مصالح الجماعات و الأفراد ، فإن توريث الزعامة أو الخلافة أو القيادة أو الحكم أو الملك ، إن ذلك كله جرى على عادة المخرفين في تقديس الأساطير ، و كما كان المغفلون يصنعون بأيديهم صنما ثم يعبدونه من دون الله - وهذه هي الوثنية الدينية - كذلك صنع المغفلون رجلا أو طفلا اعتبروه فوق الخطأ و قد سوء و هويبول في لفائفه - وهذه هي الوثنية السياسية وليس يهمننا أن نعرف متى و لا على يد من تسربت جرائم هذه الوثنية السياسية إلى بلاد الإسلام ، وإنما يهمننا إنقاذ الدين و مثله الفاضلة و أمته المنهوكة من سيطرة هذه الوثنيات التي لايزال لها سدنة و مريدون و أتباع .. إن العالم يحترم (بانديت نهرو) الزعيم البرهمي الذي اختاره الهنود رئيسا لهم و يستمع إلى كلماته باهتمام و بصر ، ولكنه إذا نظر إلى أمراء العرب و المسلمين - وهم السلالات التي تتوارث المال و الحكم - رمقهم بازدراء و سخرية و ازدري معهم مقومات الإسلام و العروبة كلها ، و قصة الملك فاروق مثل لا شذوذ فيه ، وكذلك أضرابه من وراث الحكم في بلاد الإسلام المنكوب ، و ما بد من إقصاء هذه الوثنيات السياسية و رد الأمر إلى جمهور المسلمين ليختار الأرشد لقيادته بعيدا عن هذه الأسر المتنبلة الدعية الكذوب .. و رد الأمر إلى جمهور المسلمين ليس نافلة يتبرع بأدائها ، إذ الشورى و دساتيرها الواضحة ليست منحة من حاكم ما يهبها إذا شاء بل هي حكم الله و منطق الفطرة ، ونحن لا نفهم أبدا سلطانا لبشر - حاشا أنبياء الله - يفرض به إرادته على الناس ، و الأنبياء أنفسهم خارج دائرة الوحي لا سلطان لهم على غيرهم إلا بالعقل و الإقناع ، فمن هذا الذي يعطي لنفسه حق المضي بأمور الناس دون الرجوع إليهم؟ و من أولئك الذين يذلون لهذا الوهم ؟ (٣) . "

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٣ - ١٢٢

(٢) أثبت الشيخ الغزالي هذا المقال في كتابه (في موكب الدعوة) - (مصدر سابق) ، ص ١٢٨

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٦ - ١٣٧

والذي يظهر لنا بجلاء لا ثورية فيه أن الشيخ الغزالي لا يعتبر الحاكم إسلامياً إذا رفض العمل بمبدأ الشورى و لم يعممه على مختلف مؤسسات الدولة و المجتمع ، خاصة في الجوانب الجوهرية لقيام الدولة و رعاية مصالح الأمة ، لأنه في نظره إذا غاب مبدأ الشورى حل محله الإستبداد في الحكم و الاستعباد في الأمة ، و في ذلك محق كامل لدين الأمة و دنياها و عصف بحاضرها و مستقبلها و يومها و غدها ، و من أجل ترسيخ هذه الحقيقة و تركيز الوعي بها في العقل الإسلامي نرى الشيخ الغزالي يناقش الفقهاء و المفسرين ممن يقولون بأن الشورى في الإسلام معلمة لا ملزمة ، و قد خطأ الذين استدلوا على رأيهم بموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حروب الردة و اعتراض بعض الصحابة له في قتاله من نطق بالشهادتين - و من بينهم الفاروق عمر - و هذا الإستشهاد - برأي الشيخ الغزالي - وورد في غير موضعه لأن أبا بكر مع ما نعي الزكاة قد طبق النص و لا شورى أو اجتهاد مع النص القاطع ، فهذا الرأي برأيه هو خلط عند القائلين به أو هو قياس فاسد، فقد أخطأ " من وهم أن الشورى غير ملزمة ، فما جدواها إذن؟ و ما غناؤها في تقويم عوج الفرد إذا كان من حقه ألا يتقيد بها ؟ و أين في حياة الرسول وسيرة خلفائه ما يدل على أن الحاكم خرج على رأي مستشاريه و مضى في طريقه وحده ؟ " (١) .

و نحن نجد أن رأي الشيخ الغزالي - أو ما ذهب إليه - يمثل رأي الفقهاء و العلماء المحققين ، فضلا عن كونه رأياً كفيلاً بتحقيق مصلحة الأمة في شؤون الحكم ، خاصة إذا أدركنا العلاقة الوطيدة بين هذه الشؤون و بين بقية المصالح الحيوية للأمة ، بل إننا نعتبر فكر الغزالي في هذه القضية الذي ارتبط عنده بمواقف واقعية على مستوى نضاله السياسي ، من الصفحات المشرفة للفكر الإسلامي المعاصر ؛ و هذا أحد أكبر هؤلاء العلماء المحققين يؤكد ما أكده الشيخ الغزالي فيقول : " و أهم ما يجب على الإمام المشاورة في كل ما لا نص فيه عن الله ورسوله ، و لا إجماعاً صحيحاً يحتج به ، أو ما فيه نص اجتهادي غير قطعي ، و لا سيما أمور السياسة و الحرب المبنية على أساس المصلحة العامة ، و كذا طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور إذ هي تختلف باختلاف الزمان و المكان ، فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهم الكثيرون بل مقيد بأدلة الكتاب و السنة و سيرة الخلفاء الراشدين العامة و المشاورة ، و لو لم يرد فيها إلا وصف للمؤمنين بقوله تعالى (و أمرهم شورى بينهم) (٢) و قوله لرسوله : (و شاورهم في الأمر) (٣) لكفى ، فكيف و قد ثبتت في الأخبار و الآثار قولاً و عملاً ، و سبب هذا الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمشاورة في أمر الأمة ، جعله قاعدة شرعية لمصالحها العامة ، فإن هذه المصالح كثيرة الشعب و الفروع و لا يمكن تحديدها وهي تختلف باختلاف الزمان و المكان فلا يمكن تقييدها " (٤) .

(١) محمد الغزالي ، الإسلام و الإستبداد السياسي (مصدر سابق) ، ص ٥٤

(٢) سورة الشورى آية : ٣٨

(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٩

(٤) محمد رشيد رضا ، الخلافة (القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٨ م) ، ص ٣٨

(٣) إبداع أو اقتباس الآليات التي تحقق المصلحة : يذهب الشيخ الغزالي إلى ان النظام الإسلامي في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد لا يضيره مطلقا من الناحية التنظيمية البحتة أن يقتبس من ثمرات العقل الإنساني و التجارب المجردة ما يساعد على بلوغ الأهداف المسطرة و المقاصد المرسومة ، فإن الفرد إذا أطعم جسمه طعاما أجنبيا فإنه لا يكون بذلك قد قوى جسوم الآخرين ، بل قوى جسمه هو و كيانه المستقل عن الآخرين ، و من ثمة فإن الشيخ الغزالي - و على خلاف الكثيرين من المفكرين الإسلاميين المعاصرين- ينظر بإعجاب إلى بعض الأدوات التنظيمية التي أبدعتها أو طورتها الديمقراطية الغربية . و من ذلك مثلا الانتخابات كأداة للتعبير و الاختيار و المفاضلة ، و تظهر ميولات الشيخ و تحبذاته لهذه الوسائل المبدعة خاصة عند محاوراته ذات الصبغة السياسية ؛ كما يعتقد بأن المسلمين في تاريخهم السياسي لو اهتموا لهذه الوسائل لجنبوا الأمة الإسلامية معظم المحن و الابتلاءات القاسية التي توارثتها الأجيال فهزت الكيان الواحد و عرضته للصدوع و الوهن ، يقول : " كثيرا ما رمقت المعارك الداخلية في تاريخنا الإسلامي ثم حدثت نفسي : ماذا لو أن النزاع بين علي و معاوية بت فيه استفتاء شعبي بدلا من إراقة الدم ... و لو سلمنا بأن الأسرة الأموية تمثل حزبا سياسيا له مبادئ معينة ، فماذا عليها لو تركت آل البيت يكوّنون حزبا آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح ؟ قال لي متعالم كبير : إن الانتخابات بدعة ! قلت له : وسفك الدم واستباحة الحرمه هو السنة ؟! قال : إن الغوغاء لارأي لهم..قلت ألم يكن هؤلاء الغوغاء هم سواد الجيوش المقاتلة مع هذا وذاك ؟ قبلناهم مقاتلين ولم نقبلهم ناخبين ؟! إنني - باسم الإسلام - أرفض الأخطاء التي وقع فيها حكامه القدامى و المحدثون .. ليس لأحد من أولئك جميعا حصانة تجعله فوق النقد .. الذي أعلمه من ديني أن محمدا عليه الصلاة و السلام رحمة للعالمين وبركة نامية للمستقدمين والمستأخرين ، وأن الأمويين والعباسيين والعثمانيين يقتربون منه أو يتعدون بمقدار وفائهم لله أو غدرهم بوحيه الخالد ؛ وتقاليد الحكم خلال هذه العصور هي كأي موروّثات أخرى ينظر إليها على ضوء الإسلام ولا ينظر للإسلام على ضونها (...) وسوف يفهم من كلامي أنني أحبذ الأسلوب الغربي في الحكم، وربما كان هذا بعض ما أرى، أما رأيي كله فإنه قبل الاقتباس من أي نظام عالمي للوسائل التي تحقق قيمنا الفريدة، يجب إحداث تغييرات جذرية في الطريقة التي نحيا بها(١) " .

إن تفكير الشيخ الغزالي السياسي ألهمه بأن الانتخابات كأداة تنظيمية مزدوجة النفع بالنسبة للمسلمين ، فهي بقدر ما تكفكف من غلواء الحاكمين بأمرهم وتمنع غلبتهم وفرضهم قسرا على الشعوب ، تحد من المغامرات التي قد يلجأ إليها المستضعفون كنتيجة حتمية للمال ، فتكون الفتنة ويكون الاستبداد و الاستعباد ، وتتشوه صورة الإسلام ثم تزهد الإنسانية بسبب ذلك كله في اعتناق هداياته وتبني حقائقه ، لهذه الدواعي تحديدا فإن الشيخ الغزالي يؤكد بأن لاوجود لأي حرج " في اقتباس ما استحدثه البشر من أنظمة ووسائل لحماية الفرد من طغيان الاستبداد أو رأس المال .. والواقع أن العصور الحديثة لها اجتهاد مثمر ناجح في تنظيم الشورى ، وفي إدارة الأعمال وفي حماية الفقراء والكادحين ، ونقل هذه الوسائل

(١) محمد الغزالي ، أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية (مصدر سابق) ، ص ٤٩ - ٥١

إلى بلاد الإسلام ليس بدعة أو ضلالة كما يزعم المتدينون الجهال ، بل تكاد تكون واجبا حتما بعد عهود التخلف والضياع التي رانت علينا، ومن السفه استبقاء الثوري في طورها الساذج أيام سقيفة بني ساعدة^(١)؛ إن ما يصح لنا أن نستنتجه هنا أن الخلفية التي سيطرت بعنفوان على فكر الشيخ الغزالي السياسي هي كيفية التفاعل الإيجابي مع العصر والواقع ببواعث الدين ، بكل ما يعنيه ذلك من ضرورات استيعاب فقه البناء الداخلي للكيان الإسلامي ، وتقديم صورة -على الصعيد الاجتماعي و السياسي- تشرف الإسلام وتغري الآخرين بالإقتراب من مبادئه والتعرف على تعاليمه ، لذلك فإنه عندما يأخذ في تحليل هذه الإشكالية في العالم الإسلامي يصرح قائلا : " إنني أتأذى عندما تزور الانتخابات في بلد ما ، لأن نفرا من الشطار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها - وهذا وحده جريمة - بل مصدر الأذى مرور الكذب في هدوء، واستفزاز شهادة الزور دون اكتراث ، وأن يألف الكبار و الصغار أن تطمس الحقيقة دون تكبير! وأمة تحيا بهذه الخلائق جديرة بالموت ! (...) و الواقع أن فشو الغش في مجتمعنا و قلته في مجتمعات أخرى هد ركننا و أضعف قوانا و زرع الثقة فينا ! " (٢) فالنظرة النقدية في فكر الغزالي السياسي إذن تروم -و ربما هذا هدفها الأول- الارتفاع بالأمة الإسلامية و واقعها السياسي إلى مستوى الرسالة التي تنتسب إليها ، والتي لايمكن أن تعرف في العالمين إلا بها وعن طريقها ، وحتى لا تكون الأوضاع الداخلية لهذه الأمة عقبة للصد عن سبيل الله .. ومن ثمة فإنه يعتقد دون غضاضة في إمكانية الانتفاع من وسائل الديمقراطية الغربية ، ذلك أن " الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا ، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة ، لأن أهواءهم طافحة وشهواتهم جامحة .. لا يؤتمنون على دين الله ولادنيا الناس ، ومع ذلك فقد عاشوا آمادا طويلا .. وقد عاصرت حكاما تدعو عليهم الشعوب ، ولاتراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه ، لتنتفع بهم الاستعمار الشرقي و الغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام و الاحتكام إلى شرائعه ، بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لاتنتبت فيها كرامة فردية ولاحرية اجتماعية أيا كان لونها ، ومع هذا البلاء فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويرا يثير الاشمزاز كله ، قالوا : إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة أو يجنح إلى رأي عنده وحده .. ! (٣) " .

(١) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (مصدر سابق) ، ص ٨٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧ - ٥٠ - ويقول الغزالي أيضا في هذا الموضوع الخطير : (إن هذا التزوير يحدث دمارا أخلاقيا أوسع من الدمار المادي الذي يحدثه أي زلزال رهيب ! جيش من الرجال ذوي المناصب الكبرى والصغرى يتحول إلى خلية نحل في مصنع للأكاذيب واسع الدائرة هادر الآلات ، يعاون بعضه بعضا في اختلاق الآراء وتسجيلها وتصعيدها وترحيلها من بلد إلى بلد ثم تلتقي آخر الأمر كما تلتقي شبكة المجاري القذرة لتخبر العالم كله أن فلانا أحرز من أصوات الناخبين كذا وكذا .. ونجح كاسحا !!!) [مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص ٥٢]

(٣) محمد الغزالي ، هوم داعية (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ١٣٨

٤) إعادة بعث و تفعيل الاجتهاد في مجال الفقه الدستوري : يبذل الشيخ الغزالي رجال الفقه الإسلامي ويوقر ميراثهم العلمي ويرى ، أنهم يمثلون واحدة من أنصع صفحات الحضارة الإسلامية ، إلا أنه ينعي عليهم بحسه النقدي المعهود اشتغالهم الواسع بفقه العبادات و الفرائض على حساب الفقه الدستوري و الإداري والدولي ، و في رأي الشيخ الغزالي أن عدم انتفاع المسلمين بفقه الأولويات و الموازنات ، و التأخر في دراسة العلاقات الإنسانية و الاعتبار بالوقائع على ضوء هدايات رسالتهم قد استدعى إلى واقعهم نقائص لا نهاية لها ، و لم يعودوا من الناحية الواقعية صورة أمينة لمواريتهم الحضارية ، و يضرب الشيخ الغزالي مثلا بأحد الأبعاد الحضارية للسياحة هو بعد التعارف و التواصل ليقرر بأننا دون مستوى الواقع و العصر لأننا عجزنا عن وضع اجتهاد في هذا المنحى يجعل أحوالنا العامة - و هذا مقتضى تنظيمي- تغري باعتناق الإسلام و فرض احترام المسلمين فيقول : " إنني أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائحين و السائحات يجوبون بلادنا و يدرسون أحوالنا ، ثم يتجاوزوننا بقلّة اكتراث أو باستهانة بالغة . إنهم لا يرون -فيما يشهدون- أثر الإسلام الحق في نظافته و سموه بل يرون شعوبا أقل منهم كثيرا في المستوى الحضاري و لا أقول في المستوى الخلقى المعتاد ، و تلك أحوال تصد عن الإسلام و لا تغري باعتناقه . و عالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص و العام نماذج جديرة بالإكبار ، أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة ، و ما أكثرهم في أرض الله " (١) .

و ضمن الأفق السياسي يقبل الشيخ الغزالي كل ما من شأنه الحد أو التقليل من تجاوزات الحاكم و استغلال الصلاحيات المخولة له للإستبداد ، و يدعو للتقييد الفقهي و السياسي في هذا المجال ، إلى جانب الاقتباس من التجارب الإنسانية ما يفيد في عدم السماح بمركزة القوة التنظيمية و احتكارها من قبل السلطة مادام الجميع يعتقد بسيادة مرجعية واحدة هي مرجعية الشرع الحنيف ، لذلك قبل مصطلح (الامة أو الشعب مصدر السلطات) مرجحا كون العبرة بالغايات و المعاني لا بالألفاظ و المباني ، و انتقد بشدة بعض الإسلاميين الذين يعترضون على الأشكال و لا يكثرثون كما يجب بالحقائق ، فالذين لا يقبلون مصطلح الديمقراطية تراهم مقتنعين ببدعة وراثه الحكم (*) و يكون الشورى معلمة لا ملزمة و الذين يعترضون على مصطلح الشعب مصدر السلطات يقرون بصلاحيات خيالية للحاكم ربما لم يحلم بها أكبر الفراعنة في الأرض و رموز الاستبداد السياسي في التاريخ الإنساني ، و من ثمة فقد اعتبر الشيخ " قضية أن الأمة مصدر السلطات لا تعني أكثر من وضع حد للحق الإلهي في الحكم الذي زعمه ملوك أوروبا لأنفسهم ، أي أنه لا حق لأبي بكر في الخلافة لو لم تختاره الأمة اختيارا عبر عن رغبتها الحرة و سلطانها

(١) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ، ص ١٥٩ - ١٦٠

(*) يمكن للتوسع في هذه النقطة مراجعة فصل : السلطات الثلاث في الفكر السياسي الإسلامي في (السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الإسلامي لسلطان محمد الطماوي ، منشورات جامعة عين شمس ، القاهرة : ١٩٨٦ م) .

في التقريب والإبعاد (...). ونحن المسلمين نوقن بأن نصوص الكتاب والسنة واجبة التطبيق و معترضها ينسلخ عن الدين، ودائرة النص محدودة الأبعاد ، و من ثم قام القياس و الاستصلاح و الاستحسان و قام النظر الحر في شؤون الدنيا ، و استطاع المسلمون بالإرشاد الإلهي أن يشرعوا لأنفسهم على امتداد الزمان و المكان، و لا مجال للعب بالألفاظ كما فعل الخوارج و لا مسأخ لدعم الإستبداد السياسي و تفويض بتيان الأمة بتليبس المعاني و تحريف الكلم عن مواضعه .. و ما أقوله هو ما كان يدعو إليه جمال الدين و محمد عبده و هو علة ما لاقيا من عنق " (١) إن مصطلح الأمة مصدر السلطات -برأي الغزالي- لا يعني مطلقا أن الشعب هو مصدر التحليل و التحريم ، لأن ذلك هو معنى الارتداد ، و لكنه يشير إلى أن الأمة هي صاحبة السيادة في الاختيار و العزل و الاعتراض و المشاركة و النقد الذاتي ... الخ (٢) .

والذي يظهر فعلا كما رأى الشيخ الغزالي بحق أن بعض المؤلفين ممن يستمرنون تسويغ وراثه الحكم و دعم الإستبداد السياسي هم الذين يثيرون هذه الخلافات النظرية بغية تضييع الحقيقة ، و تفويت النفع بالآليات و الكوابح التنظيمية التي تخدم المبادئ و القواعد السياسية المقررة في الإسلام ، وإلا فإن معظم المحققين من المفكرين الإسلاميين يقولون بما ذهب إليه الشيخ الغزالي فالشيخ محمد رشيد رضا مثلا يستدل على مصطلح (سلطة الأمة و معنى الجماعة) بحديث (لا تجتمع أمتي على ضلالة و يد الله على الجماعة فمن شذ في النار) (٣) ، ويفهم من كلامه أن هذا المصطلح لا يعني أكثر من إرادة الأمة الحرة في الاختيار وحقها في رعاية الدين بالإجتهد في سياسة الدنيا (٤) ؛ و المعنى ذاته يؤكد الدكتور محمد عمارة بقوله " ولقد تكون عبارة الأمة مصدر السلطات من الصياغات التي يتميز بها أدبنا السياسي و الدستوري الحديث دون القديم ، ولكن القواعد التي تجعل (الخلافة) بانبيعة و العقد و الإختيار من ممثلي الأمة ، والتي تجعل للأمة الحق في مراقبة الحاكم و محاسبته ، يل توجب ذلك عليها ، والتي توجب عليها أيضا عزله و إن بالقوة ، إن هو أخل بشروط عقد التفويض .. إن هذه القاعدة التي قررها الفكر السياسي الإسلامي تعني ما تعنيه عبارة (الأمة مصدر السلطات) (...). ماذا يعني تسمية ممثلي الأمة - في فكر الإسلام السياسي - بـ (أهل الحل و العقد) و (أصحاب الشوكة) و (أهل الإختيار) و (من تميل معهم الجماهير حيث مالوا) ؟ .. ماذا تعني هذه الأوصاف إلا أنهم أهل الحل و العقد و مصدر السلطات ؟ إن ذلك كله يعني انتقاء أي تعارض بين تراث الإسلام السياسي و بين المبدأ السياسي و الدستوري الحديث الذي توجزه عبارة : الأمة مصدر السلطات .. فهي خرافات إذن تلك المزاعم التي تصف الفكر السياسي الإسلامي ضمن النظم التي تتكرر لدور الإرادة الإنسانية في هذا المجال ، وهي أشبه بمحاولة تركية الفكر

(١) محمد الغزالي ، علل و أدوية (مصدر سابق) ص ٩٩

(٢) محمد الغزالي ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (مصدر سابق) ، ص ١٠٦ - ١٠٧

(٣) أخرجه أحمد في المسند و الترمذي في الجامع و الطبراني في الكبير و الحاكم في المستدرک

(٤) محمد رشيد رضا ، الخلافة (مرجع سابق) ، ص ٢١ - ٢٢

و النظم الفاشية و الإستبدادية بعد تغليفها بغلاف ديني إسلامي كي يسترما كشفه العالم من عورتها وسيئاتها " (١) .

المهم عند الشيخ الغزالي أن يعاد النظر في الطريقة التي انتهجها الفقه الإسلامي وأن يتدارك القصور و الخلل بإحداث توازن في الموضوعات و القضايا التي تصدى هذا الفقه لمعالجتها ، ولاحظ الغزالي بأن كتب الفقه الإسلامي تمثل نصف المكتبة الإسلامية لكنه يبدي حزنه لأن الاهتمام بالفروع الصغرة كان على حساب الاهتمام بالقضايا الكبيرة التي كان ينبغي أن يتصدى لمعالجتها وحل إشكالاتها الفقه الاداري و السياسي والاقتصادي ، لذلك نراه ينوه بتلميذي أبي حنيفة : محمد بن الحسن الشيباني الذي ألف في الشؤون الدولية ، وأبو يوسف الذي ألف في الضرائب وشؤون الفقه المالي (٢) إن تفعيل الاجتهاد في مجالات الفقه الدستوري - برأي الشيخ الغزالي - من شأنه الإسهام بحيوية في إعادة صياغة صورة النظام السياسي الإسلامي وبالتالي تجنب أسباب المآسي التي وقعت في التاريخ الإسلامي كنتيجة حتمية للفراغ و القصور المتروك في هذا الجانب .

٥) دعم مبدأ الحريات العامة : للحرية مذاق خاص في تفكير الشيخ الغزالي ومكانة لاتضاهيها فيها قضية أخرى ، ولاغرو في ذلك فإن الحرية عند الغزالي هي إحدى مفردات العقيدة ذاتها لأن توحيد الله تعالى بالألوهية و الربوبية مطابق لجوهر الحرية ، و الشعور بعمق هذا المعنى لا يصح أن يكون كذلك إلا إذا صحت عبودية الإنسان لله وتوثقت صلته بمنهجه الحق ، ذلك أن " الحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة ، يشب المرء من نعمته وهو يحس بأن كل ذرة من كيانه تتشدها وتبهو إليها ، وكما خلقت العين للبصر والأذن للسمع ، وكما خلق لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتدادا لوجودها واعترافا بعملها .. كذلك خلق الإنسان ليعز لالذبل ، وليكرم لا ليهون ، وليفكر بعقله ويهوى بقلبه ويسعى بقدمه ويكده بيده .. لا يشعر وهو يباشر ذلك كله بسلطان أعلى يتحكم في حركاته وسكناته إلا لله الفرد الصمد ربه ورب الناس أجمعين " (٣) ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن هذا المعنى المشحون بالدلالات و الأبعاد العميقة لكلمة الحرية من وراء إزراء وضيق المستبدين بالحريات وخشيتهم من دعائها وهذه حقيقة كبيرة مستفادة من التاريخ بل هي من المسلمات التي يستيقن بها الناس من ضربهم في الأرض وكدهم في الحياة ، فإن من أخص " خصائص الإستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد و التوجيه ، وكان من خصائص الإسلام التي امتاز بها - لتقويض أركان الاستبداد - أن أوجب على كل فرد أن ينقد الخطأ وأن يوجه إلى الخير .. كان الثوار على المظالم في كل بلد وقع فريسة الحكام المستبدين يطلبون حرية القول ،

(١) محمد عمارة ، الدولة الإسلامية بين العلمانية و السلطة الدينية (القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م) ، ص ٥٧ - ٥٨

(٢) محمد الغزالي ، "الإسلام و الثقافة العربية في عالمنا الجديد" مجلة إسلامية المعرفة ، العدد السابع (ماليزيا : رمضان ١٤١٧ هـ /يناير ١٩٩٧ م) ، ص ١٤٣ - ١٤٤

(٣) محمد الغزالي ، الإسلام و الإستبداد السياسي (مصدر سابق) ، ص ٦٨

وكان هؤلاء الحكام يخشون من هذه الحرية على كيانهم فهم يحظرونها ، ولا يجوز أن يذاع إلا ما كان مدحا لهم أو زلفى إليهم ، ثم تخرس الألسنة بعد هذا " (١) .

ولاشك أن الشيخ الغزالي الذي استهل حياته بالنضال ضد الإستبداد السياسي و القهر الإجتماعي و الحيف الاقتصادي و ظهرت مؤلفاته الأولى متصدية لمعالجة و تصحيح الأوضاع في هذه المجالات ، و عانى مكابذات جمّة في سبيل هذا التوجه ، قد أحس بعنفوان قيمة الحاجة إلى الحرية و قدر شناعة الجرم في الاعتداء عليها و سلب ثمراتها و مغانمها ، كل ذلك جعله يقول : " إنني أحد الذين اعتقلوا يوم كنت منتسبا إلى جماعة الإخوان ، و حتى بعد فصلي من الجماعة اعتقلت لأنني لم أتخل عن العمل الديني ... إنني ما سئلت عن شيء قبل أو بعد الاعتقال ، لأنه لم يكن هناك ما أسأل عنه ، غير أن التجارب التي ذقتها و المشاهد التي رأيته جعلتني أزداد رسوخا فيما كنت أقوله باستمرار : إن الحرية نعمة جليّة رائعة و أن العدوان عليها سيئة مضاعفة الوزر شديدة العقاب . إن طراز الحكم في العالم العربي إن لم يضبط داخل الإطار الإسلامي فسيكون معرة للإسلام تنفر منه بل تثير السخرية به !! " (٢) ؛ و قد صدق الشيخ يوسف القرضاوي حين كتب يقول : " الشيخ الغزالي من عشاق الحرية و دعائها ، و هي من العناصر الأساسية في برنامجه الإصلاحية ، و هو عدو الإستبداد أيا كانت صورته ، و لا يقبله بحال و لو تسربل باسم الدين ، بل يرى أن الإستبداد باسم الدين أشد خطرا من غيره من أجل ذلك قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامي حين رأى الشورى معطلة و الخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى سفيه أو صبي لم يبلغ الحلم " (٣) .

إن موقف الغزالي من الحرية دفع به دفعا إلى المناقحة المستديمة الحارة عن كل الأدوات و الوسائل المحققة لمعانيها ، فإن الوسيلة في الإسلام تتبع غايتها في الحكم ، وهذا ما يفسر به اتجاهه الفكري ووعيه السياسي في الدفاع عن الدساتير التي ظهرت في مصر ، فقد كان يرحب بكل ما من شأنه أن ينظم واقع المسلمين السياسي و يقلص - و لو بنسبة محدودة- من مثالب الحكم المطلق و تعاسات الإستبداد السياسي و هو من أجل ذلك ينتقد الجميع ممن لا يتحمسون لمثل هذه الأدوات التي تصون الحريات بما في ذلك الجماعة التي كان ينتمي إليها و كذا العاملين في الحقل الإسلامي لذلك نراه يتحدث عن دستور سنة ١٩٢٣م بهذه النبرة : " في الربع الأول من القرن العشرين حصلت مصر على دستور من أحدث الدساتير و أقواها على حماية الأفراد و الجماعات ، لم يعبه إلا أنه اعتبر منحة من (الملك) بيد أن بنوده أمكنت النواب من اعتراض نفقات الملك لما أراد أن يصلح باخرته الخاصة من الموازنة العامة ! وانتصرت إرادة الشعب ، وسد باب من أبواب السطو الملكي الكريم !! وبقي هذا الدستور ثلاثين عاما ، عطل في أثنائها مرة ، وزورت الانتخابات في وجوده مرارا ، ومع كل الأزمات التي أصابته فإن

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠

(٢) محمد الغزالي ، قذائف الحق (بيروت : المكتبة العصرية ، ط٢، د.ت.) ، ١٤٥ - ١٤٦

(٣) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (القاهرة : دار الوفاء ، ط١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م) ، ص ٢٠٢

الحرريات العاسمة تغلبت على العلل المصنوعة ، فنمت الرجولة و نضجت الكرامة و انتعش العلم و الأدب ، و تكونت جماعات دينية قوية ، و استطاع الإخوان المسلمون أن ينسجوا شبكة من الشعب الفتية في أرجاء البلاد كلها ؛ لكن الأمر الذي يقبض الصدر و يحدث الأسى أن موقف المتدينين من هذا الدستور كان قلة الاكتراث ، فالأزهر الرسمي كان إلى جانب القصر الملكي ، و الهيئات الإسلامية الشعبية تقدر النعمة المتاحة لها في ظل هذه الحرريات المبذولة ، و لكن شيئا من هذا لم يكن يجيز لجمهور المتدينين أن يقف متفرجا في ميدان الصراع بين القصر و الوفد على احترام هذا الدستور أو إسقاطه ... فإن ضياع الحرية و استبداد الفرد هما مهلكة الأمم و القيم و ذهاب اليوم و الغد (١) " كما نراه أيضا يفصح عن هذه الآراء بطريقته المعهودة في غضبه و اشمئزازه من كل من لا يتحمس للحرريات و وسائل صونها و المحافظة على قيمها من القاهرين ذوي الحيف و التعدي ، و قد أثر أن يرفع هذه الشكوى إلى الأستاذ البنا رغبة منه في دعم الوعي و الإحساس بالحرريات و الانفعال الإيجابي بأدواتها و التجاوب معها ، فيقول : " و أذكر أنني -من ثلث قرن- قابلت أستاذي الكبير الإمام حسن البنا لأشكو إليه موقف المتدينين عامة من قضية الحرريات الدستورية ، و كان يصحبنى الأستاذ خالد محمد خالد ، و بوصفي عضوا مؤسسا في جماعة الإخوان فقد تحدثت يوما كثيرا ، و كان حوار عاصف قلت فيه : إن المركز العام لا يدفع عن الدستور كما ينبغي ، و تمادى بي الغضب فقلت : كأنني أسمع جرس الملكية يدق هنا ، و كان الإمام الشهيد أحلم مني و أرزن ، فرد اتهامي بلطف ، و أصدر أمره إلى مجلة الإخوان أن تنشر لي ما أكتب و لو كان ضد سياسة الجماعة ! و يرحم الله الرجل الكبير ، لأن الملكية الخائنة أهدرت دمه و استباحته جماعته ، و مضى الاستبداد في طريقه ، فإذا حريق هائل يلتهم بقايا الإيمان و الرجولة في البلد المحروب " (٢).

و لا يقتصر دفاع الشيخ الغزالي عن الدساتير كوسيلة لترسيخ الحرريات العامة في المجتمع الإسلامي ، و إنما يشمل دفاعه كل أداة أو آلية تتسق و المنهج الإسلامي في السياسة و الحكم ، فهو يؤكد قيام الأحزاب للتنافس على خدمة الإسلام و تحقيق المصالح العليا للأمة و يرى أن الديمقراطية الغربية مثال حسن في هذا المنحى و هي قريبة من الأسلوب الإسلامي الأرشد ، فالمؤكد أن من خصائص هذه الديمقراطية " أنها اعتبرت المعارضة جزءا من النظام العام للدولة و أن للمعارضة زعيما يعترف به ويتفاهم معه دون حرج ! ذلك أن مالك السلطة بشر له من يؤيده وله من ينقده ، وليس أحدهما أحق بالاحترام من الآخر .. و الواقع أن هذه النظرة تقترّب كثيرا من تعاليم الخلافة الراشدة ، فإن علي بن أبي طالب لم يستبج من عارضوه أو يحشد الجموع لضربهم ، بل قال لهم : ابقوا على رأيكم ماشئتم على شرط ألا تحدثوا فوضى و لاتسفكوا دما ، أي أن الرجل العظيم يريد معارضة بناءة لا هدامة، ولا يرى أن الاعتراض على شخصه منكر " (٣) .

(١) محمد الغزالي ، أزمة اشورى (مصدر سابق) ، ص ٧٠ - ٧١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١

(٣) محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث (بيروت و القاهرة : دار الشروق ، ط ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ، ص ١٣٦

والمهم هنا أن الحرية - كما يعتقد الشيخ الغزالي بحق - قاعدة عامة في النظام السياسي الإسلامي، وهي ليست مجرد خاصية نظرية، أو صفة تحقق أصالة قيمية لهذا النظام، بل هي روح عامة سارية في المنهج الإسلامي كله لا يستثنى من هذا السريان الأحكام أو المعتقدات أو العلاقات الشخصية والدولية على حد سواء.

(٦) توحيد الأمة ودعم مبدأ الأخوة والمناصرة: النظام السياسي الإسلامي في منظور الشيخ الغزالي أساسه التوحيد والوحدة، أي أنه صورة واقعية قائمة اقتضتها معطيات موضوعية تابعة من الوجدانية في الاعتقاد كالاستخلاف عن الله والتلقي عنه والقيام بتكاليفه وحقوقه على العباد، يضاف إلى ذلك الحاجة التنظيمية الضرورية للإشراف على شؤون الجماعة المؤمنة، وهكذا يصبح مبدأ الأخوة والمناصرة والوحدة بين أفراد وجماعات الأمة الإسلامية مستمدا من قوة البواعث العقدية ذاتها، لذلك فإن الشيخ الغزالي يعتقد باطراد العلاقة وتداخل أجزائها بين وحدة الأمة ونظامها السياسي، ولعل هذا أحد الأسباب التي دفعت الشيخ إلى الإهتمام بحال وواقع المسلمين في كل مكان والتفاعل مع قضاياهم ومتابعة أخبارهم، وقد خصص مساحات معتبرة من كتاباته (١) لهذا الموضوع، وإن كان قد ركز في جل متابعاته على الأقليات الإسلامية والأقطار التي تضطهد المسلمين وتضع العوائق في طريقهم وتعكر حياتهم، وربما أن الغزالي كان يهدف بهذا الأسلوب - أو هذا على الأقل هدف من الأهداف - إلى زرع الحس في الوعي الإسلامي لاستئثار مشاعر الأخوة العامة في الأمة الإسلامية وإحياء مبدأ المناصرة ودعم دائرة الانتماء والولاء، وماتحسب أحدا يمكن له أن ينكر أثر هذا الإحساس في بناء وحدة الأمة وتحصين كيانها، ومعنى ذلك أن مبدأ الأخوة العامة في منظور الغزالي وإن كان قيمة بحد ذاته إلا أن أبعاده السياسية تفرض نفسها إلى درجة أن هذا المبدأ يرد في الكثير من كتابات الشيخ ضمن هذه الواجهة السياسية، ومن ذلك قوله "وفي الميدان الدولي نجح أعداؤنا في طي راية الخلافة وتقطيع أمة التوحيد أما شتى التحقت نيولا بالكتل العالمية الكبرى واصطبغت ثقافيا وسياسيا بألوان أخرى غير صبغة الله، والمطلوب من الدعاة الراشدين أن يدركوا الأمة من الداخل ويقفوا حركة التمزيق الفكري والروحي الوافدة من الخارج، وذلك يفرض علينا إحياء الإذناء الديني وتنشيط عواطف الحب في الله، واختصار المسافات أو ردم الفجوات التي تفصل بين المنتسبين إلى الإسلام" (٢).

ويؤكد الشيخ الغزالي على أن رفع مبدأ الأخوة على مستوى الأصالة النظرية أي رفعه كشعار فقط لا يخدم الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي في قليل أو كثير، وأن النظام السياسي الإسلامي يستحيل أن يستغني عن هذه الدعامة، لأنه يوم يستغني عنها يصبح عنوانا بلا موضوع أو شكلا بلا حقيقة، ذلك أن الإسلام في قواعده العامة ونصوصه المقررة "يوجب علينا أن نتأخى مع المسلمين في كل مكان،

(١) تراجع مؤلفاته: كفاح دين والاستعمار أحقاد وأطماع، وعلل وأدوية، وقذائف الحق، وجميع أجزاء الحق المر، ومستقبل الإسلام خارج أرضه

(٢) محمد الغزالي، هموم داعية (مصدر سابق)، ص ١٦

والمهم هنا أن الحرية - كما يعتقد الشيخ الغزالي بحق - قاعدة عامة في النظام السياسي الإسلامي، وهي ليست مجرد خاصية نظرية، أو صفة تحقق أصالة قيمية لهذا النظام، بل هي روح عامة سارية في المنهج الإسلامي كله لا يستثنى من هذا السريان الأحكام أو المعتقدات أو العلاقات الشخصية والدولية على حد سواء .

(٦) توحيد الأمة ودعم مبدأ الأخوة والمناصرة : النظام السياسي الإسلامي في منظور الشيخ الغزالي أساسه التوحيد و الوحدة ، أي أنه صورة واقعية قائمة اقتضتها معطيات موضوعية نابعة من الوجدانية في الاعتقاد كالاستخلاف عن الله و التلقي عنه و القيام بتكاليفه وحقوقه على العباد ، يضاف إلى ذلك الحاجة التنظيمية الضرورية للإشراف على شؤون الجماعة المؤمنة ، وهكذا يصبح مبدأ الأخوة والمناصرة و الوحدة بين أفراد وجماعات الأمة الإسلامية مستمدا من قوة البواعث العقديّة ذاتها ، لذلك فإن الشيخ الغزالي يعتقد باطراد العلاقة وتداخل أجزائها بين وحدة الأمة ونظامها السياسي ، ولعل هذا أحد الأسباب التي دفعت الشيخ إلى الإهتمام بحال وواقع المسلمين في كل مكان و التفاعل مع قضاياهم ومتابعة أخبارهم، وقد خصص مساحات معتبرة من كتاباته (١) لهذا الموضوع ، وإن كان قد ركز في جل متابعاته على الأقليات الإسلامية و الأقطار التي تضطهد المسلمين وتضع العوائق في طريقهم وتعكر حياتهم ، وربما أن الغزالي كان يهدف بهذا الأسلوب - أو هذا على الأقل هدف من الأهداف - إلى زرع الحس في الوعي الإسلامي لاستثارة مشاعر الأخوة العامة في الأمة الإسلامية وإحياء مبدأ المناصرة ودعم دائرة الانتماء والولاء ، وماتحسب أحدا يمكن له أن ينكر أثر هذا الإحساس في بناء وحدة الأمة وتحصين كيانها، ومعنى ذلك أن مبدأ الأخوة العامة في منظور الغزالي وإن كان قيمة بحد ذاته إلا أن أبعاده السياسية تفرض نفسها إلى درجة أن هذا المبدأ يرد في الكثير من كتابات الشيخ ضمن هذه الواجهة السياسية ، ومن ذلك قوله " وفي الميدان الدولي نجح أعداؤنا في طي راية الخلافة وتقطيع أمة التوحيد أما شتى التحقت نيولا بالكتل العالمية الكبرى واصطبغت ثقافيا وسياسيا بألوان أخرى غير صبغة الله ، والمطلوب من الدعاة الراشدين أن يدركوا الأمة من الداخل ويقفوا حركة التمزيق الفكري و الروحي الوافدة من الخارج ، وذلك يفرض علينا إحياء الإهداء الديني وتنشيط عواطف الحب في الله ، واختصار المسافات أو ردم الفجوات التي تفصل بين المنتسبين إلى الإسلام " (٢) .

ويؤكد الشيخ الغزالي على أن رفع مبدأ الأخوة على مستوى الأصالة النظرية أي رفعه كشعار فقط لا يخدم الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي في قليل أو كثير ، وأن النظام السياسي الإسلامي يستحيل أن يستغني عن هذه الدعامة ، لأنه يوم يستغني عنها يصبح عنوانا بلا موضوع أو شكلا بلا حقيقة ، ذلك أن الإسلام في قواعده العامة ونصوصه المقررة " يوجب علينا أن نتأخى مع المسلمين في كل مكان ،

(١) تراجع مؤلفاته : كفاح دين والإستعمار أحقاد وأطماع ، وعلل وأدوية ، وقذائف الحق ، وجميع أجزاء الحق المر ، ومستقبل الإسلام خارج أرضه

(٢) محمد الغزالي ، هموم داعية (مصدر سابق) ، ص ١٦

وأن تأسى لآلامهم وتفرح لخيراتهم ، بل هو يوجب علينا أن نتراحم معهم بالحق و الصبر ، وأن نتعاون على البر و التقوى ، وأن نتساند في دفع العدوان ومحق الطغيان ، والمسلم الذي ينقطع عن إخوانه - مهما بعدوا - وتجف من قلبه عواطف الحنو لأحزانهم و الابتهاج بأفراحهم يعتبر منسلخا عن هذا الدين وخائنا لأمتة الكبرى ، فالمسلمون وحدة وإن اختلفت أجناسهم وأقطارهم " (١) ، إن إصلاح الأمة بالوحدة عند الغزالي من أصول مشروعه الفكري ومن محاور فكره السياسي ، وقد صدق الشيخ يوسف القرضاوي وهو يصف هذه الميزة في فكره ، حيث قال : " لم ينس الشيخ في كتاباته ومحاضراته وخطبه الأمة الإسلامية ، ولم يغفل يوما عن قضاياها ، بل كان هو المحامي الدائم عن قضاياها و المدافع العنيد عن مظالمها ، والمعرض المستمر لها لمواجهة أعدائها وإبطال مكائدهم ، وكتبه شاهدة على ذلك : الاستعمار أحقاد وأطماع .. الإسلام في وجه الزحف الأحمر .. ظلام من الغرب .. وغيرها ، وفي مقدمة القضايا الإسلامية التي تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره وصميم قلبه وفكره، وعد نفسه حارسا لها بقلمه ولسانه ووجدانه : قضية فلسطين أرض الإسراء و المعراج والمسجد الأقصى (...). .. لقد وقف الشيخ مع كل قضايا المسلمين ، بحيث تستطيع أن تقول : إنه محامي الأمة الإسلامية حيثما كان لها قضية " (٢) .

وقد لقي فكر الغزالي الواحدوي قبولا وتقديرا لدى كل المسلمين ، حتى أنه تميز بهذا المنهج عن جل العلماء و المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، إذ قلما يخلو مؤلف من مؤلفاته من حديث عن وضع قطر إسلامي أو أقلية مسلمة تتعرض لداء مظالم الاضطهاد الديني و الغبن السياسي ، أو موقف خدم به الوحدة الإسلامية ، و يستطلع أي قاريء لكتاباته أن يلاحظ هذه الروح السارية بين الكلمات و السطور . و ليس أدل على قيمة هذا المنهج و أثره في الذات الإسلامية المعاصرة من موقفه الناجح عندما سعى لدى إيران في الوقت الذي فشلت أطراف كثيرة في الوصول إلى حل بما في ذلك بعض المنظمات الدولية ، و قد روى هذه الحادثة علاء محمد الغزالي نجل الشيخ الغزالي قال : " لم يرض الشيخ عن تقائل إيران و العراق مطلقا ، و كان يرى أصابع الصهيونية من وراء حرب العشر سنوات ، و لكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، كان للإمام دور بارز في عودة الأسرى المصريين الذين ساندوا العراق في حربه الشهيرة ضد إيران . و كانت كل المشاورات مع إيران قد باءت بالفشل ، إذ رفض الإيرانيون مساعي كل الزعماء ومسؤولي الدول و مبعوثي الأمم المتحدة ، و قد شاع الرضا من إيران في الفترة الأخيرة عن أسلوب الشيخ الغزالي ، إذ كان العالم الوحيد الذي يسعى لتقارب وجهات النظر دون الطعن في المذهب الشيعي ، و على هذا الأساس اختاره الإيرانيون للتفاوض ، و قد لقي الشيخ عنقا و صعوبة بالغة ، إلا أن أصحاب الهمم العالية و الأغراض النبيلة لا ينقصهم الصبر و الجهاد ، و بالفعل نجح الإمام في العودة بالأسرى المصريين في وقت تعسرت مفاوضات الساسة و الدبلوماسيين " (٣) .

(١) محمد الغزالي ، في موكب الدعوة (مصدر سابق) ، ص ١٧١ - ١٧٢

(٢) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨

(٣) علاء محمد الغزالي ، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (مصدر سابق) ص ١٩٥

ومما ينبغي التنبيه له أيضا أن الوحدة الإسلامية عند الشيخ الغزالي لكي تستمر لا بد أن تتحول إلى دولة أي إلى نظام سياسي يتفاعل مع عقيدة الأمة و يسعى بإخلاص و وفاء لترجمة تطلعاتها و آمالها إلى واقع ملموس قائم في دنيا الناس ، و هذا ما دفع بالشيخ إلى الاهتمام بالإطار السياسي الذي من شأنه أن يجمع المسلمين في وحدة شاملة تريح كياناتهم المكثود من إرهابات الفرقة و التشتت ، بل إنه ظاهر فكرة عدم الانحياز عندما برزت أول مرة في أواخر الخمسينيات الميلادية كأسلوب استراتيجي لرفض التبعية للمعسكرين المهيمنين وقتئذ الشيوعي و الرأسمالي ، و ذلك بغية تمهيد السبل و الأسباب للتكتل على أساس المنهج الإسلامي ذلك أن " عدم الانحياز بالنسبة إلينا نحن العرب و المسلمين له دوافع نفسية و تاريخية و حضارية و اجتماعية و إيمانية لا حصر لها . إننا نأف من التبعية لأي جبهة أجنبية كما يأف الفيلسوف من اتباع العامي ! و لو كان هذا الفيلسوف قد جارت عليه الليالي و كان هذا العامي يخب في الحرير و يطاول الجبال (...) إن تقديرونا لرسالتنا و لأنفسنا يجعلنا أكبر من أن يعدنا أي معسكر في الدنيا ذنبا له أو تابعا يعيش في كنفه ، و من ثم فنحن لا ننحاز لأحد، إن انحيازنا هو لمبادئ الشرف و أصول العدالة . و خطتنا نابعة من تبعيتنا لله وحده و من وفائنا للوظيفة الكبرى التي تخيرتنا السماء لها " (١) .

و من هذا المنطلق تحديدا فإن الشيخ الغزالي يلح على ضرورة شحذ الهمم و إفراغ الجهد في سبيل قيام وحدة إسلامية شاملة أو خلافة عظمى ، فإن جميع العقائد في الأرض قامت لها دولة تخلص في خدمتها و إقناع الآخرين بصلاحها وجدواها ، و من جملة ما يقترحه الشيخ الغزالي لذلك تحويل فكرة المؤتمر الإسلامي ليصبح إطارا قادرا على تمثيل جميع المسلمين و إذا أمكن اختيار أمينا عاما لهذا المؤتمر تتجسد في شخصه آمال و آلام المسلمين فإنه يأخذ وضع الخليفة و يقوم بالتكاليف المناطة بذمة من يتولى هذا المنصب ... كما يذهب إلى اقتراح فكرة تحويل الأقطار الإسلامية جميعا إلى (ولايات إسلامية متحدة) مثلما هو حال الكيان السياسي الأمريكي ، على أن يكون الرئيس المنتخب من جماعة المسلمين في إفريقيا و آسيا هو من يمثل خليفة المسلمين و رمز الوحدة الإسلامية ... و يرى الشيخ أنه إن تعذر ذلك للأسباب المعقدة القائمة في المجال الإسلامي فلا أقل من أن يجمع بين أسرة الأقطار الإسلامية والأقليات الإسلامية المتواجدة في القارات الخمس نظام يضاها من الناحية التنظيمية (الاتحاد الكونفدرالي) يسمح ببقاء المعالم المحلية و في الوقت ذاته يجعل المسلمين في العالم كله يجمعهم هدف واحد في الميدان الدولي (٢) ، و ليس من شك أن تحليل الشيخ الغزالي لهذه القضية و تركيزه عليها في الكثير من مواطن كتاباته إنما يدل على مركزية الدور الذي يمثله مبدأ الوحدة و الأخوة العامة في نسيج النظام السياسي الإسلامي .

(١) محمد الغزالي ، الإستعمار أحقاد و أطماع (القاهرة : دار الكتب الإسلامية ، ط٣ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) محمد الغزالي ، أزمة الشورى (مصدر سابق) ص ٧٥ - ٧٧

(٧) إعزاز الذات و مواجهة التحديات العالمية : يرى الشيخ الغزالي أن النظام السياسي الإسلامي مرتبط دوماً بالمنظومة الفكرية العامة للأمة ، فهي القاعدة التي يعتكز عليها في حركيته الاجتهادية و الإنجازية ، و من ثمة فإن الفكر الإسلامي مطالب بإزاحة الأغلال التي يراد لفها على أطراف الأمة و نصب عوائقها في طريقها ؛ لذلك فإن فكر الغزالي السياسي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن معالم هذه المنظومة كما قصد إلى إعلان و استدعاء حضور وجهات نظر الإسلام في ساحات التدافع الحضاري و المذهبي ، فعلى صعيد المجال الدولي قدم الشيخ الغزالي عدة دراسات (١) أنصف بها الإسلام و ردّ عنه الغارات الإيديولوجية و المكائد التي اجتاحت أرضه و استهدفت وجوده ، و في خضم الصراع الناشب لم يهادن الشيخ التيارات الوافدة و التوجهات المفروضة عنوة على المسلمين فتصدى للشيوعية و الرأسمالية و حركة الإستعمار و الصهيونية و دوائر الاستشراق و الغزو الفكري و التبديل الثقافي و لصوص العقائد ؛ و في أتون المعركة كتب تحت عنوان (الإسلام طريد القانون الدولي) يقول : " هل يصدق القاريء أن أحقاد أوروبا على الإسلام لم تهدأ في قرن من القرون القديمة أو الحديثة ، و أن عاطفتها هذه ضد الدين النقي الطيب ، قد ترجمت عنها فيما شرعت من قوانين ، لا لتعاقب بها المسلمين كأفراد ، بل لتتكسر وجودهم الإنساني كجماعات و دول ! إن هذه هي الحقيقة الكالحة ، و لقد رسمت هذه الخطة ثم وكل إلى القادة العسكريين و الزعماء السياسيين ، و إلى حشد هائل من رجال القلم و دهاء الأمم أن ينفذوها في أمد يطول أو يقصر حسب الظروف المتاحة و المقاومة المتوقعة ، و نجحت أوروبا و معها أمريكا في إلحاق نكبات فادحة بالإسلام ، كما استطاعت نفث دخان كثيف في أفاقه و إلحاق أذى كثير بسمعته ... و نجحت أوروبا و معها أمريكا في تخسير القضايا الإسلامية و إسقاط قيمتها في المجال الدولي " (٢) .

إن الشيخ الغزالي يعتبر أن الفكر السياسي الإسلامي مطالب بمواجهة التحديات المذهبية و الإيديولوجية المشهورة في واقع العالم الإسلامي ، و التي تستهدف باستمرار إبعاده عن أصوله الحضارية و مقوماته الثقافية ، و هذا الدور المنوط بالفكر السياسي الإسلامي - برأي الغزالي - هو جزء لا يتجزأ من رسالة الدولة الإسلامية و ثابت من ثوابت أدائها العام ، فإن وهنت عزائم هذا الكيان في مدافعه العوادي عن ثوابته و مقوماته ، و اختفت المؤسسات المسؤولة و وقف على الثغر العلماء و المفكرون لتبرئة الذمة و أداء ما عليهم من واجب .. ولعل هذا الإحساس خامر الغزالي وهو يتصدى في شبابه للهجمة الإيديولوجية الشرسة على العالم الإسلامي ، كما يظهر ذلك جلياً في كتبه (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين) و (الإسلام و المناهج الإشتراكية) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) . و بالفعل - وهذا شاهد على ما نقول - فإننا نجد الشيخ الغزالي يقول عن جهاده و مرابطته على هذه

(١) - نقصد بذلك مؤلفاته ؛ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة ، و الإستعمار أحقاد و أطماع ، و كفاح دين ، و الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، و الإسلام المفترى عليه ، و ظلام من الغرب ، و دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، و صيحة تحذير من دعاة التنصير ، و الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، و الإسلام و المناهج الإشتراكية ، و قذائف الحق .

(٢) - محمد الغزالي ، كفاح دين (مصدر سابق) ، ص ١١٨-١١٩ .

التغور : " خاسرني إحساس بالوجل و الضيق للروح الذي لغته الشيوعية في الاونة الأخيرة ، لقد استولت على مساحات واسعة من الأرض وأعداد كبيرة من الناس .. واستهوت لفيها من الشباب في البلدان العربية و الإسلامية من فارغي العقول والأفئدة وأصبحت -على الأقل - وجهة نظر تعرض نفسها بين وجهات النظر الأخرى دون ملام أو خشية .. بل أصبح أتباعها يؤملون أن تتدافع الأمور إليهم وتقع أزمة المجتمع كلها في أيديهم ، وغازني أن يرجع ذلك النجاح كله إلى نشاط العارضين لا إلى جودة السلعة (...). لذلك رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية و التاريخية وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته ، وأعرف أنني بكتابتها سأعرض لعداوات مميتة ، ولكن بنست الحياة أن تبقى ويفنى الإسلام .. إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد ، وعلى بعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات فقد جمعهم حب الاجهاز على الإسلام واقتسام تركته ، وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مرا وأن لا يخشوا في الله لومة لائم .. وعشاق الحق لا بد أن يحيوا معه ، وإلا يبطن الأرض خير من ظهرها .. والأمة التي أعنيها ليست عشيرتي الأقرين ، ولا العرب أجمعين ، كلا.. إنني أعني الأمة الإسلامية حيث انتشرت في الأرض ولمس ترابها جبهات الساجدين ، وكل منهم يهمس في خشوع : سبحان ربي الأعلى .. هذه الأمة التي أحاط بها الطامعون و الحاقدون هي التي أحذر عليها وأعمل لها .. (١) "

وفي محتدمات هذا الصراع وسياقات تدافع بواعثه ظهرت فكرة فصل الدين عن الدولة وفرضت نفسها في واقع العالم الإسلامي المكفهر بغيوم كثيفة ، وانبرى بعض العلماء و المفكرين لتبنيها والدفاع عنها ، والغريب حقا أن يكون من بين هؤلاء علماء إسلاميون ومن خريجي الأزهر نفسه ، فقد ظهر كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) (*) يدعو صراحة إلى علمنة الإسلام والترويج لحصر الإسلام في زوايا ضيقة وعزله عن قضايا الحياة الكبرى وهو الدين المتحرك السيال ، والذي غطت تعاليمه قضايا الغيب و الشهادة ، و قد تجرأ عبد الرازق على جحد الخلافة الإسلامية ، و ادعى زورا أن النبي -صلى الله عليه و سلم- لم يكن " إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك و لا دعوة لدولة ، و أنه لم يكن للنبي -صلى الله عليه و سلم- ملك و لا حكومة ، وأنه -صلى الله عليه و سلم- لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة و مرادفاتها . ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، و ما كان ملكا و لا مؤسس دولة " (٢) ، و بعد مضي أكثر من ربع قرن على هذه الدعوة ظهر كتاب الشيخ خالد محمد خالد (من هنا نبدأ) و الذي أخلط فيه حقا قليلا

(١) محمد الغزالي ، الإسلام في وجه الزحف الأحمر (بيروت وصيدا : المكتبة العصرية ، د.ت) ، ص ٥ - ٦

(*) ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٢٥ م وكان مؤلفه يومئذ قاضيا في المحاكم الشرعية ، فتظاهر شيوخ الأزهر ضده فاضطرت الحكومة إلى عزله عن منصبه ومصادرة نسخ الكتاب وحرقتها ، كما سحب منه الأزهر الشهادة العالمية .. وقد سمعت من الشيخ الغزالي أكثر من مرة قوله بأن علي عبد الرازق قد تاب وتراجع عن أفكار كتابه وصلى خلفه بجامع الأزهر لما كان الغزالي يخطب به الجمعة ، ولم يسمح بإعادة طبع كتابه ، لكن بعد وفاته عمد بعض العلمانيين العرب - ومنهم محمود أمين العالم - إلى طبع الكتاب من جديد !

(٢) علي عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم (بيروت : دار مكتبة الحياة ، د.ت) ، ص ١٣٦

بباطل كثير - كما هو شأن علي عبد الرازق - وقد تصدى الشيخ الغزالي لأطروحة هذا الكتاب - رغم صداقته الوطيدة بالشيخ خالد - ولشئى الأطروحات العلمانية التي تروم ترسيخ فكرة فصل الدين عن الدولة في أذهان المسلمين كي تهيء علاقاتهم بدينهم ، و تتمكن الازدواجية في حياتهم من القضاء على أي فعالية في منجزاتهم و أدائهم العام ، و عن هذه المطاعن التي يردها الغزالي إلى آثار حملات الغزو الثقافي والكيد الإستعماري - نراه يقول : " ... صدر من سنين كتاب الإسلام و أصول الحكم و فيه يزعم مؤلفه الشيخ علي عبد الرازق أن لا صلة للدين بالدولة ، فكان لهذا الكتاب من عالم مسلم في هذه الفترة العصبية من تاريخ الإسلام أسوأ الأثر ، و اعتبره المجاهدون في سبيل الإسلام عملاً خدماً به صاحبه - من حيث يحتسب أو لا يحتسب - قضية الإستعمار الصليبي ، و من ثم سحب الأزهر منه شهادة العالمية ، و فوجئنا بعدها بالشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب و السنة . زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب و أن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم (!) إلى آخر هذا اللغو الفارغ المتهافت ... ثم صدر أخيراً كتاب من هنا نبدأ للشيخ خالد محمد خالد ، و هو الكتاب الذي أفردنا للرد عليه هذه الرسالة ، و قد تضمن آراء جديدة و أخرى مشابهة لما سبق أن أبداه الشيخ علي عبد الرازق . و قد أحرزنا أن وجدنا فيها من الشطط و الخط ما يمرق بالناس عن الإسلام لو بدأوا الفهم و الإصلاح من عندها كما يريد الأستاذ ... إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ و إعطاءه حق الحياة ، فأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى ، والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة (...). و أحب أن أذكر أنني صديق للشيخ خالد منذ سنين ، ولكن ابن القيم لما رأى عوجاً في كلام شيخ الإسلام إسماعيل الهروي - وكان صديقاً له - قال : شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه (١) . "

ومضى فكر الشيخ الغزالي السياسي يؤسس لمناخ فكري جديد من خلال المساجلات و المحاضرات و المناظرات (*) التي ينتصر فيها لأصالة الدولة في الإسلام و سمو منزلة القيم الإنسانية و حقوق الإنسان في الفكر السياسي الإسلامي ، سالكا منهج الاقتراب من الخصوم و تفهم وجهات النظر المغايرة و بواعث أطروحاتها المتباينة ، حيث ناقش بوعي متميز اليساريين و الليبراليين و العلمانيين ، و صحح تصورات المغالين من دعاة القومية العربية ، و قدم رؤى و اجتهادات و نظرات في شئى القضايا و المناحي الاجتماعية و السياسية ، و من بين التصورات التي صححها الشيخ للقوميين العرب ممن لا يعتقدون بالصيغة الإسلامية لقضية فلسطين ، تأكيده المستمر على الطابع الديني للصراع ، فالواقع يشير أنه " ما كان على اليهود من حرج لو أنهم أسموا الدولة التي اقتطعوها من كياننا و أسسوا فيها ملكهم (الجمهورية اليهودية) أو (الاتحاد الإشتراكي اليهودي) أو غير ذلك من الأسماء التي تتفق مع الواقع لديهم ،

(١) محمد الغزالي ، من هنا تعلم (مصدر سابق) ، ص ١٥ - ١٦

(*) للشيخ عدة مناظرات و مساجلات مع بعض المفكرين من اليسار و اليمين ، نذكر منهم : عبد الرحمان الشرقاوي ، وطه حسين ، و محمد أحمد خلف الله ، و محمد أركون ، و فؤاد زكريا ، و حسين أحمد أمين ، و فرج فودة .. الخ

فإن النظام السياسي الذي ارتضاه القوم لأنفسهم نظام جمهوري بحت (...) ومع ذلك فقد زهد اليهود في هذه الشارات البراقة والعناوين التي يمكن التوسل بها إلى كسب قريب من محافل العالم السياسية ، أجل لقد رفضوا هذه الأسماء وعادوا القيقري إلى التاريخ القديم ينبشون في تراثه وينقبون في آثاره ، وطووا عشرات القرون ثم ظهروا بعد ميلاد عيسى بألفي عام .. ظهوروا على الناس باسم اسرائيل ، رمز تمسكهم بدينهم وتشبثهم بذكرياتهم واحتراسهم لمقدساتهم .. واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال و العلم ودهاقين السياسة والاقتصاد ، وفيهم من اشترك في تفجير الذرة ومن ساهم في كثير من المخترعات . ومع ذلك فما شعروا بخجل في الانتماء لدينهم " (١) .. " عرف هذه الحقيقة سياسي عربي كبير هو الملك فيصل بن عبد العزيز ، فقرر أن إنقاذ فلسطين مسؤولية العالم الإسلامي أجمع ، وأن هذه المسؤولية قضائية شاملة تعني الولاء للإسلام وإقرار أخوته ورفع رأيتهم ، و تعني قبل ذلك وبعده تصحيح الانتماء إليه والعمل به ... وقد ناط بالمؤتمر الإسلامي هذه الأعباء الجسام ، وقبل أن تكون الجامعة العربية - المحترمة للإسلام - شريكا ينهض بواجبه وليست للمالك المحتكر لقضية فلسطين ... و خير لنا أن نعود لسياسة فيصل و أن نعترف بالطابع الديني للمعركة ، فليس معقولا أن يهاجم اليهود يدين ، و أن يدافع العرب ملحدين منحلين " (٢) .

كما رد الغزالي تطرف العلمانيين و صحح لهم الكثير من المفاهيم الخاطئة التي يعتقدونها عن الإسلام ، و بين تناقضات المعايير التي يعتمدونها في الحكم على الواقع ، و عوار مرجعياتهم في التفكير و التقويم ، و من ذلك مثلا : تسليمهم بأن الديمقراطية تعني أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، فإذا قال المسلمون : حسنا نحن نريد ذلك هذه نزعة إنسانية مقدورة ، رأيتهم ينكرون عليهم ذلك ، و تصبح الديمقراطية - في عرفهم حينئذ - أن يحكم الشعب نفسه بنفسه إلا إذا كان هذا الشعب مسلما (٣) ؛ و نحن نلاحظ ببسر النفس الطويل في فكر الغزالي السياسي و قدرته الفائقة على مقارعة الحجج و مجابهة المخالفين و المناوئين بالعقل و المنطق ، إلى جانب الشعور المفعم بالثقة بالنفس و إعزاز الذات ... كما نرى أيضا منهج الغزالي في بلورة صورة النظام السياسي الإسلامي من خلال دفع الشبهات المثارة و نقض الانحرافات الجائرة ، و هو بذلك يسعى سعي الرواد من المجددين و المصلحين من أمثال جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و محمد رشيد رضا و حسن البنا و عبد الحميد بن باديس و غيرهم ، بل هو في نقده لبعض الأخطاء الموروثة و المفتريات المشهورة في وجه نظام الحكم الإسلامي يشبه في تساوق ملفت للتأمل قول الإمام محمد عبده : " إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوروبا ، فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحسنة و الدعوة إلى الخير و التفتير من الشر ، وهي

(١) محمد الغزالي ، من هنا نعم (مصدر سابق) ، ص ٤١

(٢) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغا (مصدر سابق) ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٨

المسلمين أنماهم وأعلامهم ، والأمة هي التي تولي الحاكم ، وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي سلطة خولها الله لكل تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه ، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (ثيوكرتيك) أي سلطان إلهي .. فليس للخليفة - بل ولللقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام ، وكل سلطة يتناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي ، فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه بل إن قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من الأساس هو أصل من أجل أصول الإسلام " (١) .

إن الغارة الإيديولوجية التي تعرض لها العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الهجري ، وواقع الأمة الداخلي المتميز بالتردي على كافة المستويات ، جعلت فكر الغزالي السياسي في حالة من الاستنفار المستوعب لخلفيات وأبعاد التحديات القائمة ، لكن لا يعني ذلك أن هذا الفكر قطعة مجزأة من ردود الفعل ، بل على العكس من ذلك ، فإن فكر الغزالي السياسي له اتجاهه المتفاعل مع كيان الإسلام عقيدة وتاريخا وحضارة ، غير أن المرحلة الحرجة التي عايشها جعلته يستخلص في حزم كامل بأن " الدولة في الإسلام لم تكن في عصر من العصور ألزم له منها الآن لأنها جزء من كيانه الحي فحسب ، بل لأن هذا الكيان كله مهدد بالزوال في عالم تدور فيه أعاصير الفتن ولا يقوى على البقاء فيه إلا الأقوياء ، إن الحكم من الناحية العلمية إن لم يكن شطر الإسلام فهو شرط بقاءه ، ومن الناحية الواقعية نستطيع الجزم بأن الحكومات التي لا إسلام لها ليست إلا امتدادا لشهوات الاستعلاء والتشيع واحتقار الأديان جملة ، وإهمال أوامرها تفصيلا " (٢) .

رابعاً : الإطار السياسي لنظام الحكم الإسلامي في تصور الغزالي

يؤمن الشيخ الغزالي بأن صفة الشمولية والإحاطة في وظيفة أو رسالة الدولة المسلمة نابعة من عقيدة التوحيد ذاتها ، وهذا التشخيص الذي ذهب إليه الشيخ الغزالي نجده في طيات مؤلفاته المبكرة أو المتأخرة على حد سواء ، فهو ممن يؤمنون بأن استقرار عقيدة التوحيد لا يعني إلا توطد ورسوخ حقوق الإنسان جملة من حرية وإخاء ومساواة .. الخ ، وذلك أن التوحيد الحق يعني أن البشر كافة عبيد لله الواحد فتتقرر الحقوق ويختفي التظالم (٣) ، ويزيد الغزالي الفكرة ذاتها إيضاحاً وتعميقاً فيقول : " إن الاستبداد السياسي - فيمارأينا من قريب ومن بعيد - ليس عصياناً جزئياً لتحاليم الإسلام ، وليس إماتة لشرائع فرعية فيه ، بل هو إفلات من ربقته ودمار على عقيدته ، وإني والله أشك في إسلام عدد كبير من حكام المسلمين ، بل في إسلام عدد ممن حملوا ألقاباً دينية لها رنين وبريق ، وأعتقد أن بقاء الكفر في الأرض والزيغ في شتى الأفئدة يرجع إلى مسالك أولئك الذين شأنوا تاريخنا ولوثوا دعوتنا ، وأعزوا من

(١) محمد عمارة ، "الإمام المتصور .. والتجديد بالإسلام" ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٥٤ (سبتمبر ١٩٩٦م) ، ص ٣٨

(٢) محمد الغزالي ، من هنا نعلم (مصدر سابق) ، ص ٣٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣

أذل الله وأذلوا من أعز الله .. ولكي يستبين وجه الحق فيما أتول يجب أن يعرف أن كلمة التوحيد كما تعني إفراد الله بالعبودية تعني أيضا ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب ، منها فهم عمر أن الناس يولدون أحرارا فليس لأحد حق في أن يستعبدهم ، وأن البشر عبيد أمام الله وحده وسادة أمام غيره ، فما يسوغ أن يتلاشى إنسان وتذوب ذاته أمام إنسان مثله ، فكيف يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ؟ ولماذا تنشأ أوضاع يكون الولاء فيها لشخص يهاب أكثر مما يهاب الله ، ويرجى أكثر مما يرجى ؟ (...) إن عبادة القصور على امتداد العصور ديانة خسيصة خلقها الحكم الفردي وزحم محاربيها بالأقزام والأفاكين .. وهي ديانة زاحمت الإسلام الحق وهزمته في ميدان الحياة العملية وجعلت العبقريات تتوارى والامعات تتكلم بصوت جهير !! (١) .

ونفهم نحن من كلام الغزالي أن الوظيفة الأولى والمركزية للنظام السياسي الإسلامي إنما هي تركيز العقيدة الصحيحة في الأفئدة والضمائر ، لأنه من هذه العقيدة تنبجس كل الحقوق وتتحدد جميع الواجبات ، ولاشك أن حسم الموازنة بين طرفي هذه المعادلة هو مدار نشاط واهتمام أي نظام في حياة البشر ، كما يتبدى لنا كذلك في هذا التصور أمر آخر وهو الهيمنة في توجيه حركة الحياة ونشاطها وفق مراد الله تعالى كلازمة قارة في مرجعية النظام الإسلامي ، إن أي نشاط أو إبداع في علاقته بعقيدة التوحيد - وفق التصور الإسلامي الحق - يشبه محيط الدائرة بالنسبة لنقطة ارتكازها ، فليس من طبيعة الدين - كما يرى الإسلام الحق - أن يفصل عن توجيه حركة الحياة الدنيا الصاخبة " وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية والأخلاقيات التهذيبية و الشعائر التعبدية ، أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية .. ليس من طبيعة الدين أن يفرد لله سبحانه قطاعا ضيقا في ركن ضيق - أو سلب - في الحياة البشرية ثم يسلم سائر قطاعات الحياة الإيجابية العملية الواقعية لآلهة أخرى وأرباب متفرقين ، يضعون القواعد والمذاهب والأنظمة والأوضاع والقوانين والتشكيلات على أهوائهم دون الرجوع إلى الله ! ليس من طبيعة الدين أن يشرع طريقا للأخرة لا يمر بالحياة الدنيا طريقا ينتظر الناس في نهايته فردوس الآخرة ، عن غير طريق العمل في الأرض وعمارتها والخلافة فيها عن الله وفق منهجه الذي ارتضاه " (٢) .

إن ما قرره كل مفكري الإسلام - ولاعبرة هنا بادعاءات العلمانيين وشطحات الصوفية - من كون التوحيد هو الأساس والقاعدة التي يرتكز عليها النظام السياسي الإسلامي ويصوغ منها منهجه وأوضاعه الخاصة ، ومن كون فصل الدين عن الدولة وحركة الحياة بدعة لا يعرفها الإسلام ، وأن هذا الفصام الخطير المدمر هو الذي فتت حياة المسلمين وأوقف إلهامات الإسلام عن مد الأمة الإسلامية بالإبداعات المختلفة وتجديدها لدنياها بالدين .. إن ذلك هو ما يؤكد فكر الغزالي السياسي ، بل هو المحور الذي يدور

(١) محمد الغزالي ، أزمة الشورى (مصدر سابق) ، ص ٣٨ - ٣٩

(٢) سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين (القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ م) ، ص ٢٤

عليه هذا الفكر في تحليلاته واستنتاجاته ، وليس ذلك غريبا من الغزالي كمفكر وفقه إسلام وسنن التاريخ و الحضارات ، فإن هذه القضية هي مفرق الطريق للتقدم و الانطلاق أو التخلف و الارتكاس ، ولا شك أن هذا الخلل الرهيب الذي أدى فعلا إلى انحراف و بعد النظام السياسي الإسلامي تاريخيا عن رسالته ووجهته ووظيفته ، فإنه من جهة أخرى أيضا جعل " الرقابة التي يفرضها الضمير الإسلامي على أعمال الحكم قد استمر أثرها في التاريخ الإسلامي ... ويمكن تفسير أحداث كبرى في التاريخ الإسلامي كظهور المرابطين و الموحدين في الشمال الإفريقي ، على أنها الصدى لاحتجاج الضمير الإسلامي ضد الإستبداد ، ويمكن القول أن هذا الصدى لم ينقطع من الأحداث التي عبرت بصورة أم بأخرى عن استمرار الروح الديمقراطية الإسلامي عبر التاريخ قرونا طويلة " (١) ، وإذا كان البعض يعتقد بأن النوم في حياة الأفراد و الإنحطاط في حياة الأمم لا يمكن تحديد وقت لهما بدقة كاملة ، فإن الأمر لا يبدو كذلك بالنسبة للأمم الإسلامية ، فإن الحد الفاصل في هذه الأمة بين الكمال و الزوال ، وبين الإشعاع و الإنطفاء ، وبين التخليق و السقوط، هو تحويل الخلافة الراشدة الهادية إلى ملك عضوض أو بدعة الحكم الوراثي المتخلف (٢).

وإذا كان الشيخ الغزالي غير متخصص في مجال الفقه الدستوري فإن عطاءه في ميادين الفكر السياسي الإسلامي جاء في مناحي التنظير و التقويم و النقد الذاتي و محاولة تأصيل بعض القيم السياسية الجديدة التي أثمرتها التجربة الإنسانية لمد الفكر السياسي الإسلامي بشرايين أخرى إضافية بغية بعث دوره - في مرحلة التدافع الحضاري و صراع الأنساق - في إعادة بناء هياكل الكيان الإسلامي ، غير أنه مع ذلك سعى لتقديم العديد من الرؤى و الاجتهادات و التفاصيل النظرية و الفكرية التي يحتاج إليها المتخصصون في الفقه الدستوري بمختلف موضوعاته و مناحي اجتهاداته ، ومن ذلك على سبيل المثال نجده يضع عشرة بنود تمثل الإطار المرجعي للحكومة الإسلامية هي (٣) :

- ١- أن يكون التشريع الإسلامي هو القانون الأساس للأمة الإسلامية ، ويجب على كل دولة إسلامية تطبيق مبادئه و جعلها منارا يهتدي بنوره الحاكم و المحكوم على السواء .
- ٢- لا مشروعية للسلطة السياسية إن لم تمارس عملها في نطاق الشريعة الإسلامية و عن طريق الشورى ، فلا يجوز لأي مسلم أن يعطي لنفسه الحق المطلق في الحكم و تسيير دفتة حسب هواه .
- ٣- لكل مسلم حق المشاركة في بناء المصير السياسي الإسلامي ، على أن يقوم بممارسة السلطة من هو أهل لها إذا توافرت في شخصه الشروط الفقهية المقررة في الشرع الحنيف .
- ٤- يجب أن تمارس جميع السلطات التنفيذية و التشريعية و القضائية وفقا لمرجعية القيم و المبادئ و القواعد التي شرعها الله و رسوله .

(١) مالك بن نبي ، تأملات (دمشق : دار الفكر ، د.ت) ، ص ٨٩

(٢) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٨٢ م) ، ص ١٢٩

(٣) محمد الغزالي ، الإسلام و الطاقات المعطلة (باتنة / الجزائر : الزيتونة للإعلام و النشر ، ١٩٨٨ م) ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

- ٥- طاعة السلطة الشرعية الحاكمة أمر واجب على كل فرد مسلم طالما أن هذه السلطة ملتزمة بتطبيق شريعة الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .
- ٦- كل مسؤول في الدولة لابد أن يكون خاضعا لأحكام الشريعة الإسلامية في جميع تصرفاته العامة و الخاصة على سواء .
- ٧- الناس سواسية أمام الله وأمام الشريعة وكلهم خاضع لأحكامها دون أي تمييز أو استثناء .
- ٨- مناقشة قرارات الحكام و المشاركة في وضع الحلول و المقترحات للمشاكل القائمة ، وتصحيح الأخطاء الحاصلة حق تكفله الشريعة لجميع المسلمين .
- ٩- لقد كفل الإسلام للناس جميعا صيانة النفس و العرض و المال وجميع الحرمات ، فلا يجوز بحال لكل من آمن بالله و اليوم الآخر أن يعتدي على هذه الحرمات جورا .
- ١٠- الأقليات غير المسلمة في الدولة الإسلامية مصونة الحقوق المدنية ، ولها مطلق الحرية في ممارسة الشعائر التعبدية التي تدين بها ، وعلى المجتمع الإسلامي مراعاة فقه الإسلام المقرر لمثل هذه الأقليات .
- مما تقدم من تحليلات ومقارنات وكذا ملاحظات أديناها في ثنايا جزئيات هذا المبحث لابس من أن نضيف الآن في هذه الأسطر الملاحظات الآتية :
- شدة كراهية الغزالي للإستبداد السياسي الذي يعني عنده محق الإيمان وقتل الكفريات و المواهب ، وتخريب الدين و الدنيا ، ووأد الحريات ، وتذويب بواعث الشرف و العزة ، وتمهيد الأسباب للتبعية والاحتلال الأجنبي (١) ، وهو أيضا ماذع بالشيخ إلى اعتبار الإصلاح السياسي صنوا لإصلاح العقيدة .
- للشيخ الغزالي فهم ووعي عميق ومتقدم جدا لعلاقة الدين بالدولة في الإسلام ، لأن منهج الله الخاتم دين ودولة وعقيدة وشريعة ، وهو ما يؤكد رسوخ فقهه لنصوص الكتاب و السنة ، واستيعابه الواعي لمراحل التاريخ الإسلامي وأحداثه ، ونتج عن ذلك أمران في فكر الغزالي السياسي ، الأول : حزنه الذي لم ينقطع حتى آخر الكلمات التي خطها قلمه و العبارات التي نطق بها لسانه على الإنحراف التاريخي الخطير الذي وقع بتحول الخلافة للراشدة إلى ملك عضوض ، والنشائي : حملته الشديدة على العلمانيين ممن لا يستحيون ولا يتورعون عن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة في واقع المسلمين ..
- تميز الفكر السياسي عند الغزالي بتأصيل وتعميق مفاهيم الحريات العامة التي لامندوحة عنها لأي نظام سياسي إسلامي ، وعدم تمنع هذا الفكر عن التفاعل الإيجابي - وفق ضوابط ومقاصد الإسلام - مع معطيات التجارب الإنسانية و اقتباس ثمراتها المجردة - كتتظيم الأحزاب و المعارضة واعتماد الانتخابات العامة كوسيلة للتعبير و الاختيار وانتهاج أسلوب وضع أو صياغة الدساتير لتقرير صلاحيات

(١) يمكن التعمق في أطروحة الغزالي عن الإستبداد السياسي ومقارنتها على وجه أخص بأفكار الكواكبي و الأفغاني و النورسي ، وأخص بالإشارة هنا ما كتبه الغزالي في مؤلفه : (الإسلام و الإستبداد السياسي) - وهو كتاب اكتواء ميداني بهذا الداء وكان قد ألقاه أول مرة في شكل دروس على معتقلي الطور - وفصل : الإستبداد يشل القوى من كتابه : الإسلام و الطاقات المعطلة ، والباب الرابع من كتابه : ذائف الحق ، وبعض مقالات كتابه : في موكب الدعوة ...

الحاكم وتحديد فترة معينة لشغل منصب رئيس الدولة .. الخ - بما يحقق القواعد و المبادئ الإسلامية .
ويفيد صورة وشكل النظام السياسي الإسلامي .

- إن انتظام الغزالي في جماعة الإخوان لقرابة عقدين من الزمن وكذا انخراطه في عضوية الإتحاد الاشتراكي ومعايشته لحكومات عديدة وأنظمة مختلفة ذات توجهات متباينة .. كل ذلك جعل فكره السياسي يمتاز بالواقعية وحسن التقدير وبعد النظر ، حتى ليحسبه القارئ منظرا متخصصا في المجال السياسي وقضايا الفقه الدستوري ، وهو مالم يكن مألوما في مناهج وأساليب تفكير شيوخ الأزهر التقليديين .

- يظهر من طروحات الشيخ الغزالي السياسية فعالية تجاوبه مع حركات الإصلاح و التغيير التي ظهرت في ربوع العالم الإسلامي ومع أقطاب هذه الحركات كجمال الدين الأفغاني وأبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي وعلمي مدرسة المنار محمد عبده و محمد رشيد رضا ... لكننا نستطيع أن نطمئن إلى القول - دون تجديف - بأن فكر الغزالي السياسي بقدر ما كان ثمرة حلوة مذاق لجهود و اهتمامات تلك التوجهات ، بقدر ما كان دفعة تجديدية رائدة لإصلاح منظومة الفكر السياسي الإسلامي ، و هذه الدفعة تستحق تماما أن تدرس بعناية و اقتدار للإستفادة من نتائجها في بناء أنساق المعرفة الإسلامية المعاصرة التي تزوم تجديد واقع المسلمين الطليل بالإسلام واستئناف إقلاع الدور الرسالي الحضاري للكيان الإسلامي في الأرض .

- وكانطباع خاص تسوق إليه الأمانة العلمية و يقتضيه الصدق و الوفاء لجهد الشيخ الغزالي العلمي ، اعترف هنا بأنني وجدت صعوبة في الكتابة عن الفكر السياسي عند الغزالي ، وذلك لاندياح مساحة هذا المحور في فكر الشيخ ، وأقر مخلصا بأن هذا المبحث - رغم استطالته - لم يتمكن من تغطية ودراسة كل عناصر الفكر السياسي المودعة في خمائل العطاء العلمي و الفكري الذي قدمه الشيخ الغزالي في صورة تجربة ثرة مواراة بالحركة و التفاعل مع الواقع .

مشروع الغزالي الفكري

مراجعة وتقويم

تمهيد :

سوف يحاول هذا المبحث أن يقف وقفة نقدية متأنية إزاء مشروع الشيخ الغزالي الفكري و ذلك بهدف مراجعة و تقويم أبرز محاوره و خطوطه الحريضة و أبعاده العامة ، و لا يرغب هذا المبحث في أن ينحو منحى التفصيل أو مناقشة القضايا الفرعية التي تعرض لها و عالجا هذا المشروع ، و إنما حسبه أن يرصد الجوانب و المحاور المفصلية و المركزية فيه ، أي مراجعة هيكل هذا المعمار الفكري المعرفي الذي سرت فيه رؤى الشيخ و تنظيراته و اجتهاداته سريان العصاراة في الأغصان أو سريان الدم في شرايين جسد الكائن الحي ، و هذا لا يعني طبعا أن نتلافى ذكر ما له أو أن نجتنب ملاحظة و استدراك ما عليه ، فذلك جزء أساس و هام من أي جهد فكري يستهدف المراجعة النقدية و التقويم المعرفي لذلك فإن مسافة من التباعد و من التجرد العاطفي بين ذاتية الباحث و موضوع البحث تضحي أكثر من ضرورية ، و أداة لا غنى عنها لأي عمل أو جهد من هذا القبيل و هذا يقضي في هذا المقام ضرورة تجنب التكلفة في تصوير و إبراز المكانة التي تبوأها الغزالي ، فإن المفكرين المجتهدين و المنظرين من العلماء و قادة الرأي تقدمهم أعمالهم و مساعيهم و قيمة إضافاتهم و من ثمة فإن الهالة التي قد يضيفها بعض الدارسين على أمثال هؤلاء الأعلام و الرواد هي شكل غير ذي موضوع ، أو هي في أحسن الحالات -إذا أردنا ترجيح كفة حسن الظن- من باب تقديم الماء للسقاء ذاته ! و نحن بطبيعة الحال نقصد بهذا الكلام الروح التي ينبغي أن تسود مجالات البحث العلمي و الدراسات الأكاديمية المتخصصة ، لكي تثمر و تكون فاعلة في تحقيق الأهداف و الغايات التي وضعت و رصدت لأجلها .

بيد أننا نحب التنبية أيضا إلى أن هذه المرئيات و الانطباعات التي نسجلها في هذه الصفحات تظل مع ذلك مجرد رؤية خاصة بالباحث ، إذ مهما حاولنا الانفصال عن الذات فإن النجاح يظل نسبيا و ربما محدودا في نطاق الدراسات الانسانية و الاجتماعية ، خاصة إذا كان الباحث نفسه يؤمن بالمنطلقات الفكرية و الإيديولوجية ذاتها التي يؤمن بها الشخص موضوع البحث و الدراسة ، و هذا لاشك له أكثر من دلالة في هذا المضمار لذلك فإن تقويم فكر الغزالي -في هذا المبحث- سيقتر على معيار موضوعي يتطلع أساسا و بشكل خاص إلى محاولة استيعاب و إدراك القيمة النظرية و العملية و المنهجية لهذا المشروع الفكري ، و مدى استجابته لحاجات و متطلبات إعادة البناء الثقافي و التغيير الاجتماعي الأمثل ، الذي يتيح الظروف الملائمة لوضع الأرضية العلمية و المنهجية لبعث المشروع

الحضاري الإسلامي الجديد القادر على حل معضلات التنمية و الاستنهاض و التجديد و المعاصرة ، لأنه بهذا التمكين وحده نستطيع الخروج من دائرة التوظيف الظرفي و السطحي لمعطيات الإسلام المذخورة ، و تصبح أمتنا في وضع حضاري مختلف يمكنها عمليا و منهجيا من تحديد مكانتها و دورها بوضوح و وعي و نباهة و عمق استراتيجي ، و يجعلها في الوقت ذاته مؤهلة و مدفوعة لاستئناف حركتها و رسالتها في التاريخ دون أي إحساس بالنقص أو ضغط من عوامل الزمان و المكان.

أولا : قسّمات منهج مشروع الغزالي الفكري :

يعتبر كثير من الباحثين الاجتماعيين المنهج طريقا ر أسلوبا منطقيا ملازما لجهود التوصيف و التحليل الفكري ، التي تنطبق عليها جملة من المواصفات و المعايير العلمية ، بمعنى أن الرؤى الفرعية و القضايا الجزئية تصبح مركبة في إطار المنهج ، كما أن التفسيرات و التأويلات المتعلقة بها لا تفهم حق الفهم و لا تتحول إلى نسق معرفي له بصماته و خصوصياته إلا داخل هذا الإطار ، و نحن إذا أخذنا برأي من يقولون بأن المنهج له استقلالته لأنه وليد خلاصة ثرية من التجارب الناتجة عن المعاناة الذهنية و الفكرية و تفاعلها مع قضايا الواقع الحي المتحرك (1) فإنه يمكننا استنتاج و رصد أهم القسّمات التي يتسم بها مشروع الشيخ الغزالي الفكري من خلال النقاط الآتية :

أ- الجانب الشكلي و الجمالي :

من خلال قراءة و مراجعة نتاج الغزالي الفكري و المعرفي يمكن أن نلاحظ الآتي من الناحية الشكلية و الجمالية :

١- لم يتقيد الشيخ الغزالي في معظم ما كتب بمنهجية الإحالة و التهميش المعتمدة في مناهج البحث الأكاديمي الحديث ، فهو قد ينقل بعض النصوص لتوضيح فكرة أو لتعصيد وجهة نظر ، أو لنقض رأي أو اجتهد ، دون الإشارة -في الهامش- للمصدر أو المرجع الذي نقل عنه و رقم الصفحة و دار النشر ... الخ ، و كثيرا ما يكتفي بذكر اسم المؤلف ؛ قد يقول البعض إن الغزالي ظهر بين جيل من العلماء و الكتاب لا يعتمد فيما يكتب نظام التوثيق و التهميش و الإحالة على المصادر و المراجع ، و من أمثلة هؤلاء طه حسين و العقاد و الرافعي و أحمد أمين و محمد حسين فيكل و المنفلوطي ... الخ بيد أن هذا يبقى أمرا غير مبرر -فيما أرى- فإن الغزالي باحث جاد قضى معظم أوقات عمره في القراءة و البحث و الكتابة ، بل إنه حقق بعض المؤلفات لابن الجوزي ، و من ثمة فهو دون ريب يدرك القيمة العلمية و المعرفية للتوثيق و بركة رد و نسبة كل فكرة أو كلمة لصاحبها و مصدرها .

٢- إن غزارة الكتابة الفكرية و الإسلامية عند الغزالي أوقعت في ظاهرة التكرار ، و هي ظاهرة بارزة بشكل خاص لدى الكتاب المشاركة ، بينما هي خافتة أو حتى منعدمة أحيانا لدى الكتاب المغاربة ،

(١)- فردريك معتوق ، منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب و في الغرب (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ١٩٨٥م) ص ٦-٧

و خير مثال لكتاب المغرب الإسلامي - برأيي - المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي و إن كان التكرار عند الشيخ الغزالي له طعم خاص و متميز ، فهو حين يقع فيه ، يلبس الفكرة ذاتها - المطروقة من قبل - حلة بديعة من أفانين الكلم و روعة النظم ، فلا يحس القاريء بأي ملل أو ضيق و هو يصادف عشرات و مئات الأفكار المكرورة في كتاباته الغزيرة (١) .

٣- يلاحظ أن الشيخ الغزالي لم يلجأ - و هو يقدم مشروعه الفكري - إلى تأليف الكتب الصغيرة أو الرسائل ، إلا في الحالات النادرة، في الرسائل التي طلب منه تقديمها لبعض السلاسل الفكرية الإسلامية . كما هو الحال بالنسبة لكتابه " مشكلات في طريق الحياة الإسلامية " الذي استفتحت به سلسلة كتاب مجلة الأمة القطرية ، أو كتابه " أزمة الثورى في المجتمعات العربية و الإسلامية " و الذي استفتحت به أيضا سلسلة (الإسلام دين الحياة) و هو إنجاز ثقافي فكري إسلامي من اقتراح و تنفيذ دار الشرق الأوسط للنشر بالقاهرة .

٤- يلاحظ كذلك أن عناوين كتب الغزالي ليست عناوين تقليدية أو تجارية ، بل هي عناوين جذابة و مبتكرة ، و يكفي التأمل في بعضها للوقوف على حقيقة هذه الملاحظة و ذلك مثل : (جند حياتك) (من هنا نعلم) (صيحة تحذير من دعاة التنصير) (قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة و الوافدة) (الإستعمار أحقاد و أطماع) (الحق المر) (الطريق من هنا) (حصاد الغرور) (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) (الإسلام و الطاقات المعطلة) (فدائف الحق) (الجانب العاطفي من الإسلام) (معركة المصحف في العالم الإسلامي) (كفاح دين) ... الخ ، و هذا له دلالة على أن الغزالي يدرك أهمية الناحية الشكلية و الجمالية و مدى علاقتها و أثرها في الجوانب الأخرى .

٥- لقد وضع الغزالي مشروعه الفكري داخل وعاء لغوي و أسلوبى جذاب و أنيق ، فإن أفكاره مصوغة صياغة جمالية ساحرة ، و هذا الاتجاه و إن كان يبدو عفويا بالنظر إلى طبيعة و روح الغزالي الفنية و الأدبية ، إلا أنه كثيرا ما يفرض على القاريء ذي الذوق الفني الوقوف للتأمل في سحر البيان ، و ليمتد خياله و وجدانه و ميولاته الذوقية و الجمالية بألق هذه البلاغة الرائعة و الأدب البديع ، و في الوقت ذاته يشده إلى الإنفعال بفكر الغزالي أو التفاعل مع طروحاته و مقاصده و تنظيراته .

٦- منذ أصدر الغزالي كتابه الأول (الإسلام و الأوضاع الاقتصادية) سنة ١٩٤٧م و هو باكورة مشروعه الفكري و اللبنة الأولى في معماره ، ظلت المؤلفات تتوالى تباعا من بعده دون انقطاع إلى غاية الربع الأول من سنة ١٩٩٦م - عام وفاته - و كأنما الغزالي منارة منذ أن أضاعت لم تقبل بأن يخفت شعاعها ، و لا شك أن هذه العزيمة المكيئة و الهمة العالية لو تحلى بهما جميع علماء و دعاة الإسلام لأصبح حال الأمة أفضل مما هي عليه الآن .

(١) - ذكر الغزالي في مذكراته أنه لايراجع ما يكتبه إلا نادرا و أن ما يخطه في البدء هو الذي يذهب للطبعة ، وربما كان هذا سببا في غزارة نتاجه الفكري ، و هو أيضا دلالة على تضلعه اللغوي و قدراته البيانية و العلمية .

١- هناك رؤية عامة تتخلل جميع مناحي مشروع الغزالي الفكري ، هذه الرؤية يحسبها الباحث الدارس و المراجع لهذا المشروع ، و من خصائصها أنها تجعل أفكار و تطبيقات و اجتهادات هذا المشروع تدور حول محور عقلي و تصور ثابت له سمات معينة ، كما أنها تجعل فروع و أجزاءه الفكرية و النظرية وحدة عضوية متماسكة تشدها إلى بعضها البعض خيوط خفية ، و هو ما يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود منهج تفكير و نظر و تحليل و استنباط له مميزات المتفردة لدى الغزالي ، و هو أمر يختلف بطبيعة الحال عن منهج البحث و التأليف الذي سبقت الإشارة إليه .

٢- إن ألوان الكتابة الإسلامية في مشروع الغزالي الفكري إنما تشير بقوة إلى طبيعة و جوهر الأزمة الفكرية و التمزق الثقافي الذي تعرضت له المعرفة الإسلامية عبر مختلف مراحل تاريخها . فالأمة التي يصاب عالم أفكارها بتلف في بعض أجهزته أو بطل و عطوب هنا و هناك لا بد أن تنهار حضاريا و إنسانيا لذلك فإن مشروع الغزالي الفكري سعى إلى تغطية كل جوانب الثقافة الإسلامية الحيوية ، فكتب في الدراسات القرآنية و التفسير و السنة ، كما كتب في العقيدة و الأخلاق و الدعوة و الحركة والعمل الإسلامي والتغيير والتاريخ والسيرة والسياسة و القضايا الدولية و الفقه و مقارنة الأديان والنظم الإسلامية، و قضايا المرأة و العادات و التقاليد و اللغة و الأدب و الفنون ، و العلاقة بين العقل و النقل ... الخ ، و لم يذهل عن الواقع من حوله و لا عن المكائد التي تحاك في الخفاء و العطن ضد الإسلام فتصدى للإستشراق و التبشير و العلمانية و الإتجاهات المنحرفة و العميلة و المرتدة ، كما واجه أصحاب النزوع الضال لدعاة القومية العربية و البعث العربي ، و استطاع بمنهجية و مقدرة واعية توظيف كل هذه الجهود لخدمة الدعوة الإسلامية و محاولات الإحياء الحضاري الإسلامي ، و لاشك أن هذا يعني -فيما أرى- أن الغزالي راجع كل جوانب الثقافة الإسلامية و الفكر الإسلامي و وضع خلاصاتها في ميزان الشرع و العقل .

٣- يعكس مشروع الغزالي الفكري مدى اطلاع الشيخ على مختلف الثقافات و عطاءات العقل الإنساني ، لذلك فأنا أعتقد بأنه استفاد كثيرا من العلوم الإنسانية و الاجتماعية بعقليته المتفتحة و خلفيته الذهنية الهاضمة المستوعبة ، و أنه استطاع توظيف ذلك في تغذية و صقل منظوره العام للإبداع و الأسلمة و يظهر ذلك جليا في كتابه النفيس (جدد حياتك) بشكل خاص ، كما أنه استند إلى هذا الزخم في أبعاده الإيجابية المحايدة و المشتركة في بلورة و تطوير رؤيته للإجتهد و التجديد و الإحياء فجاء عطاؤه الفكري يجمع في تناغم فريد بين الأصالة و المعاصرة ، و لعل هذا بعض سر احتفاء معظم المفكرين المسلمين المعاصرين بمشروع الغزالي الفكري ، يقول الدكتور محمد عمارة : " و لقد أدركت -و أنا الذي سبق و درست الآثار الفكرية لأكثر من ثلاثين من أعلام الفكر الإسلامي- و كتبت عنهم الكتب و الدراسات- أدركت أنني حيال الشيخ الغزالي لست بإزاء مجرد داعية متميز ، أو عالم من جيل الأساتذة العظام

أو مؤلف غزير الإنتاج ، أو مفكر متعدد الإهتمامات ، أو واحد من العاملين على تجديد فكر الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين ... أدركت أنني بإزاء جميع ذلك أو أكثر منه و أهم فالرجل صاحب رسالة جعل من حياته -و من ثمراتها : فكره و قلمه -مشروعاً فكرياً متكاملًا ، هو عطاء مواهبه الفذة ، الذي قدمه في ميدان تجديد الإسلام و إنهاض المسلمين " (١).

٤- يجمع نتاج الغزالي الفكري بين القراءتين ، قراءة الوحي و قراءة الكون ، و يدعو للتأمل في جانبي هذه الحقيقة الكبرى التي ترشد و تسوق العقل في هدوء تام وفق المبادئ و النظائر و المعايير المودعة فيه إلى وحدة المصدر ، و هو يدعو للإفادة من هذا التأمل حتى تكون المعرفة الإسلامية معرفة مؤهلة لتحقيق إنسانية الإنسان و قدرة على صياغة شروط الإستخلاف و الإعمار في الأرض ، و الذي فهمته من خلال تتبعي لمشروع الغزالي الفكري ، أن المعرفة الإسلامية معرفة مؤهلة لتحقيق إنسانية الإنسان و قدرة على صياغة شروط الاستخلاف و بناء الحضارة الإنسانية الراشدة ، لذلك نراه يقول في سياق دعمه للتصور الإسلامي الحق : " كلمة الدين -في حقيقته المجردة- تساوي كلمة الإنسانية في نسقها الأعلى ، و قد سلح الله الإنسانية بجناحين تحلق بهما أو تهبط هما : الفطرة و العقل ، فإذا استكملت طبيعة الإنسان سلامة الفطرة و حصافة العقل فقد استكملت من الدين جوهره و استرعبت أصوله (...). و ما الصراع القديم الجديد بين (التدين) و بين تطورات الفكر الإنساني إلا صراع بين الفطرة الإنسانية التي تشق طريقها إلى الكمال شقا و تفرض نفسها على الحياة فرضا ، و بين (أديان) خرجت على نفسها يوم خرجت عن حقيقتها الإلهية و انسلخت عن جوهرها يوم انسلخت عن معانيها الإنسانية ، و لذلك جاء الإسلام يصف نفسه بأنه (الفطرة) التي نراها الله الناس عليها و استقبلتهم الحياة يوم ولدوا بها ... " (٢).

و نحن نرى الغزالي يعزو الكثير من الأخطاء العلمية في التراث الإسلامي إلى التقصير في أمر الجمع و الموازنة بين قراءة الوحي و قراءة الكون ، بالرغم أنه يعتبر الإيمان بالغيب مصدرا عظيما للمعرفة و رافدا يزيد في نسبة الرصيد العلمي و المعرفي للعقل المسلم ، لكنه يشدد في الوقت ذاته على استحالة أن تتناقض حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية ، لأن مصدرهما واحد و هو الله سبحانه و تعالى ، و من ثمة فهو يدعو علماء الكون و العلوم التجريبية إلى اعتبار الحقائق الدينية علما ، و يدعو علماء الدين إلى اعتبار الحقائق العلمية دينا ... و قد تنبه سيد قطب إلى ما تنبه له الغزالي حين قال : " إن الغيب ليس جانبا من جوانب التصور الإسلامي يمكن عزله والحديث عنه مستقلا .. وكذلك عالم الشهادة ، وهكذا كل مقوم من مقومات التصور الإسلامي وكل جانب من جوانبه... إن أي مقوم من مقومات التصور الإسلامي إن هو إلا جانب من جوانب صورة متكاملة لا يفهم وحده، كما لا تفهم بقية جوانب الصورة حين يعزل منها هذا الجانب ، كما أنه لا يستعان في إدراكه بتصوير آخر ولا بمنهج آخر غير المنهج الإسلامي " (٣).

(١)- محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري و المعارك الفكرية (القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، ١٩٩٢م) ص ٢٤

(٢)- محمد الغزالي ، الإسلام و المناهج الاشتراكية (مصدر سابق) ص ١٩ - ٢٠

(٣)- سيد قطب ، مقومات التصور الإسلامي (القاهرة : دار الشروق ، ط٢ ، ١٩٨٢م) ص ٤٤

٥- لم تكن الكتابة عند الشيخ الغزالي مجرد ترف عقلي أو تزجية للوقت أو هوية مجردة لا ترتبط بفكرة أو غاية ، بل على العكس من ذلك تماما فإن الكتابة عنده كانت مرتبطة أساسا بعملية التغيير الاجتماعي ، و هو يعتقد بأن التغيير النموذجي الصحيح لا بد أن يتم بخلفية و مرجعية الإسلام ، لأنه كاتب ملتزم بالإسلام له رسالة وهدف ، ومن ثمة فإنه يرى بأن أي تغيير بمنأى عن هدى الإسلام هو تغيير للأسوأ ، بل هو لا يسمى تغييرا في التصور الإسلامي ، وإنما هو مجرد حركة تقتضيها سنة التطور الاجتماعي و الإنساني ، و نراه يشير إلى المعنى الرسالي و الخط الملتزم في جهاده الفكري فيقول في معرض تقديمه لما اصطاده خاطره المؤمن من خواطر و مرئيات ضمنها سلسلة الحق المر : " ولما كنت واحدا من الذين يحملون أعلام الدعوة و يرابطون على ثغور الإسلام فإنني أخذت أرمق كل حركة مريبة تصدر عن خصومنا - و ما أنشطهم في هذه الأيام - لأنيه خطوط الدفاع المترامية و أدفعها لاتخاذ الأبهة و لزوم اليقظة ... و من هنا كانت كلماتنا ذات موضوعات شتى ، تستمد سطورها من الواقع ، و تعتمد على إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين ، و حسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام و يوضح الطريق " (١) ؛ و يقول في مكان آخر " وددت لو فرغت خواطري و مشاعري أولا بأول ، حتى ألقى الله و لست كاتباً لعلم أو حابسا لنصيحة " ، لذلك فنحن لا نبالغ إذا اعتبرنا أن مشروع الغزالي الفكري قد لعب دورا بالغ الأهمية في التعبئة الفكرية و إصلاح الكثير من جوانب أزمة منظومة الفكر الإسلامي .

٦- لا يبدو الشيخ الغزالي في مشروعه الفكري فقيها متخصصا في الفقه و مذاهبه و أصوله ، و لم يكتب كتابا في الفقه بشكل مباشر أو وفق الأسلوب التقليدي الموروث ، و إن كان قد مارس الفتوى و تعامل مع مجمل المسائل الفقهية خاصة في كتابه : (مائة سؤال في الإسلام) أو من خلال دروسه و خطبه ومحاضراته ، و المعروف أن الغزالي اهتم بالفقه من باب خدمة الدعوة ... غير أن مساحة الفقه و القضايا الفقهية في مشروعه الفكري تمثل - فيما أرى و أقدر - صفحة مشرقة من إبداعات العقل المسلم المعاصر ، و معلما من معالم الاجتهاد المرن و المعاصرة المسيجة بأصول الإيمان المتبصر و العقلانية المشعة بأنوار الهداية الربانية الثابتة ؛ و قد نجح الغزالي في نسج الرؤية الملائمة للتعامل مع تراث الفقه الإسلامي ، فهو عندما يدعو في مشروعه للإفادة المفتوحة المتوازنة من زخم هذا التراث الثر ففي ذلك دلالة على كونه لا يريد للفكر الإسلامي أن يعيش محنطا في قوقعة أو أن ينحصر في إقليم أو بادية ، وإنما يطلب منه أن يتواصل مع عطاءات الفكر الإنساني و أن يتفاعل مع معطيات حضارة شديدة التعقيد مفعمة بالتحدي فليس أمامه - كما يرى الغزالي - إلا أن يواجهها بتراث الإسلام كله و ليس بتراث مذهب من مذاهب الفقه أو بحصيلة محدودة من الآراء الفلسفية و الكلامية .

(١) - محمد الغزالي ، الحق المر ، الجزء الثالث (القاهرة : مركز الإعلام العربي ، ط١ ، ١٩٩٣م) ص ٣-٤

٧- إن مشروع الغزالي الفكري ليس مشروعاً فلسفياً منصّباً على دراسة و حل المعضلات العقلية و التأملية التي تدفع إليها الحاجة إلى التأويل و البحث عن الحكمة و التتوير ، كما هو الحال مثلاً عند ابن رشد ، و لا هو مشروعاً فكرياً مكتئباً معزولاً عن واقع الأمة الإسلامية و قضاياها الحيوية ، بل إن الغزالي كاتب و مفكر عملي اجتماعي يعيش هموم أمته و يبحث باستمرار عن حلول لمشكلاتها القائمة أو حتى المتوقعة أو المفتوحة على المستقبل ، لذلك فإن التفاعل الحار و الصادق مع واقع الأمة و مناصرة قضاياها في كل مكان يعد من المفاهيم المركزية في الخطاب الإسلامي عند الغزالي ؛ و من ثمة فإنه يستحق فعلاً أن يوصف بأنه من علماء هذه الأمة الصادقين ، و من السهل أن يجد القارئ لمؤلفاته حديثاً و اهتماماً موصولاً بجميع أقطار العالم الإسلامي، وكذلك الأقليات المسلمة المنتشرة في قارات المعمورة ، و هي ميزة جليلة أكاد أقول في اطمئنان بأن مشروع الغزالي الفكري قد تميز و انفرد بها .

٨- كما يقال عن الشعر الملحمي من أنه مرآة ترى من خلالها بطولات أو انكسارات و تصاعدات أمة ما، فإن مشروع الشيخ الغزالي الفكري ينطبق عليه هذا الوصف بالنسبة للدعوة الإسلامية الحديثة ، فقد ظل على مدى ستة عقود كاملة يصور ملحمة و سيرورة هذه الدعوة ، إذ يعتبر الغزالي أحد كبار خبراء الحركات الإسلامية التي ظهرت مباشرة عقب القرار العلماني الصهيوني العالمي بإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا ، فهو في مشروعه الفكري يكتب لترشيد و توجيه مسار و وجهة الصحوة الإسلامية و الحركة الإسلامية ، و هو في ذلك لا يمارس هذا النشاط الفكري بالمراسلة ، أو بإرسال الانطباعات العامة دون المعاشة الميدانية ، و إنما الأمر كما قال عنه الأستاذ عمر عبيد حسنة من كونه " يعتبر بحق أحد شيوخ الدعوة الإسلامية الحديثة وفقهائها ، يحمل تاريخ نصف قرن أو يزيد من العمل الإسلامي ، وهو أحد معالم الحركة الإسلامية الحديثة ورموزها ، رافق نشوء الحركة الإسلامية الحديثة في مصر ، كما أنه شارك في رسم سياستها ، و كان على مدى هذه الأعوام الطوال : العقل المفكر و القلم المسطر و اللسان الناطق ، حتى يمكننا القول : بأن مؤلفاته التي تشكل مجموعها جانباً هاماً من مكتبة الدعوة الإسلامية الحديثة يمكن اعتبارها سجلاً لتاريخ الدعوة الفكري إلى حد بعيد ، و بذلك نستطيع أن نترسم الملامح الرئيسية للدعوة الإسلامية الحديثة و تطورها من خلال هذه المؤلفات ، ذلك أن فهمه للقضية الإسلامية لم يكن فهم مؤلفات و أوراق بعيدة عن دخان المعركة و مثار نفعها و جلبة سلاحها ، و إنما جاءت كتاباته من أرض المعركة و بأحد أسلحتها لم تكن كتاباته شبيهة بعمل المراسل الحربي الذي يختار الأرض الباردة للأحداث يصفها و قد يخطيء و صفها ، و إنما كان فيها الجندي المقاتل و القائد الرائد و الناصح الأمين (...). كانت كتابة الشيخ الغزالي تحمل عاطفة الأم على وليدها المريض الذي تخشى أن يفترسه المرض ، و بصرة الطبيب الذي يقدم العلاج ، و قد يكون العلاج جراحة عضوية إن احتاج الأمر ذلك " (١) .

(١)- محمد الغزالي ، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (مصدر سابق) - مقدمة الكتاب- ص ٩ - ١٠

٩- يستل مشروع الغزالي الفكري معركة فكرية متصلة المراحل و الحلقات . فقد بدأ الشيخ مشروعه بالاشتباك مع الظلم الاجتماعي و الإستبداد المالي و السياسي و الحيف الاقتصادي المشرع في وجه الفقراء و المساكين و المستضعفين دون شفقة أو رحمة ، ثم اشتبك بعد ذلك مع العلمانيين و التغريبيين و دعاة الإلحاق الفكري و التبعية الحضارية و مسح الهوية الإسلامية ، و لم يغفل كذلك عن التصدي لدوائر الكيد و العدوان على الإسلام ، فحارب الشيوعية و الصهيونية و الليبرالية ، و في الوقت ذاته وقف بحزم و صلابة على ثغور الإسلام لدفع التحديات الداخلية فواجه التدين المغشوش و التخلف الموروث و العادات الراكدة و الوافدة و المنافية لتعاليم الإسلام ، كما تصدى لتيار النصوصية الحرفية أو ما أسماه الظاهرية الجديدة ، الذي يثير المعارك الهامشية أو على ميادين لا عدو فيها ، و يشغب على الدعوة الإسلامية و حركة انتشار الإسلام تحت عنوان الدفاع عن السنة ؛ و ذلك في وقت بنيس تستعد فيه كل القوى العالمية للإجهاز على الإسلام و أمته و تراثه و حضارته ، و هو يشير إلى ذلك بقوله : " على أن التحدي الأعظم للإسلام كله هو في يقظة كل القوى المعادية له ، و تبييتها النية على اغتياله ! أجل لقد صحت اليهودية و النصرانية و الشيوعية و الوثنية و تملكته رغبة مجنونة للقضاء على هذا الدين و انتهاز ما يسود بلادها من غفلة و فرقة لتوجيه الضربة الأخيرة " (١) ثم يستدرك الشيخ على ما ذهب إليه فيقول مشيراً لخطورة أمراض و علل الجبهة الداخلية و أثرها على مستقبل الإسلام : " إن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء -قبل أي زحف خارجي- من داخل أرضه [أرض العالم الإسلامي] و سوف تتلاشى هذه التحديات كلها يوم يعتنق المسلمون الإسلام و يدخلون فيه أفواجا ، حكاما و شعوبا " (٢) .

و لقد كان أمرا عجيبا -على الأقل في ذلك الوقت قبل بداية النصف الثاني من القرن العشرين - و إن كنا نحن نفهمه على أنه توفيق الله لعبده- أن يبدأ الغزالي الشيخ الأزهرى الشاب الذي تلقى دراسات تقليدية معروفة في معظمها ، مشروعه الفكري بالدفاع عن المستضعفين و المعدمين من الفقراء و أهل الريف و الفلاحين ، مهاجما من أجلهم المظالم الاجتماعية و الاقتصادية ، و مبينا بأن ما يقوم به إنما هو منهج إسلامي أصيل ، لأن صلاح أمور الدين قائم و مؤسس على صلاح أمور الدنيا ، و العكس غير مسلم به ، و نحن نراه يشير إلى شيء من ذلك بقوله : " يتوهم ذوو الآفاق المغلقة أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل و الفضائل ، جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المحضنة للحياة! و استهانة بالقوى الروحية السامية التي يجب التعويل عليها في عصمة الإنسان من السقوط في مهاوي الإثم و العصيان ، و هذا التوهم خاطيء ، فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحي في تدعيم معنويات الإنسان و حفظ كيان الأمم ، بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد الملموس ، من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز و الاحتياج .

(١)- محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (مصدر سابق) ص ١٩

(٢)- المصدر نفسه و الصفحة نفسها .

بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدا قد يكون السبب الأروحد في نشوء الرذيلة و شيوعها " (١) ؛ و لقد كان هذا الموقف الفكري البديع الذي وقفه الشيخ الغزالي في بداية تأسيس مشروعه الفكري إرهابا مأمولا لبروز اتجاه جديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، ليعمل في وقت لاحق على إظهار نظرية الإسلام الاقتصادية و الاجتماعية ، و ليسد الأبواب و المنافذ على الماديين و أعداء الإسلام ممن يستغلون الطبقات المحرومة و ذوي العوز و الإملاق في أقطار العالم الإسلامي ، و يصطادون عقائدهم من هذا المدخل تحديدا ؛ و عن هذا المنهج الذي كان الغزالي رائده و الممهده له يقول الدكتور محمد عمارة : " و لقد يستغرب البعض - وخاصة من أصدقائنا و إخواننا العلمانيين ذوي المرجعية الفكرية التغريبية ، غير الملمين بموقف الإسلام و تراثه من القضية الاجتماعية و مذهبه في الأموال و الثروات- قد يستغرب هؤلاء أن تكون أولى معارك هذا الشيخ الأزهرى -خريج كلية أصول الدين و الذي يحترف الوعظ و الدعوة في مساجد و وزارة الأوقاف ، و الذي لم يدرس الاقتصاد و لم يتفقه في النظريات الاجتماعية الغربية -قد يستغربون أن تكون أولى معاركه الفكرية في ميدان الاقتصاد و الاجتماع ، و أن يكون هذا هو حجم اسهامه المبكر في هذا الميدان و الحقيقة أن هذا الموقف القائم على الجبهة العلمانية يثير قضية الجهل و التجاهل العلماني لإسهام الإسلام و الإسلاميين في ميدان الفكر الاجتماعي ، كموقف دائم و صارخ و أصيل !! ... و إلا فمن يعرف أن حسن البناء - و الإخوان المسلمين- كانوا أسبق الحركات السياسية و التيارات الفكرية بمصر ، التي طالبت بتحديد ملكية الأرض الزراعية و نزع الأملاك الزائدة عن الحد الأقصى من كبار الملاك ، و توزيعها -هي و أملاك الحكومة- على الفقراء و المعدمين من الفلاحين !!؟ من يعرف هذه الحقيقة التاريخية -الاجتماعية من الكتاب العلمانيين !!؟ " (٢) .

١٠- يكشف مشروع الغزالي الفكري بوضوح عن انفعال و تفاعل الغزالي الشديد و المتميز و المنهجي أيضا مع جيل الرواد من العلماء و المصلحين المسلمين من أمثال الأفغاني و الكواكبي و ابن باديس و محمد عبده و محمد رشيد رضا ... غير أن انفعاله و تفاعله الأشد و الأعظم كان مع بواعث و موحيات الروح التجديدية الفذة التي بعثها و أطلقها الإمام الشهيد حسن البناء ، بل إن الغزالي -مع تميزه الذي لا ينكر- يعتبر وفق معطيات عديدة احدى الثمرات اليانعة و الناضجة لمشروع وبرنامج الإمام البناء ، و نحن نجد الغزالي عبر مشروعه الفكري -في جوانبه المكتوبة أو الشفهية على السواء- لا يغض من هذه الحقيقة ، بل إنه لا يفتأ ينوه و يصرح بها في شتى المناسبات ؛ و قد روى الشيخ يوسف القرضاوي -صفيه و رفيق دربه- أن أحد الدعاة- كان من رجال الإخوان قديما- زار الشيخ الغزالي في قطر- عندما كان مدرسا محاضرا في جامعتها - و عرض عليه بأن يختم حياته بالإنضمام إلى طريقته الصوفية

(١)- محمد الغزالي ، الإسلام و الأوضاع الاقتصادية (الجزائر : مكتبة رحاب ، د . ت) ص ٩١-٩٢

(٢)- محمد عمارة ، الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري و المعارك الفكرية (مرجع سابق) ص ٥٤-٥٥

وأن يأخذ عهدا على شيخ هذه الطريقة ، فرد عليه الغزالي قائلا : " يا فلان .. هل هناك شيخ بعد حسن البنا ، نحن أخذنا عن حسن البنا الإسلام كله بشموله و توازنه و عمقه " (١) .. و قد انطبع مشروع الغزالي الفكري بروح هؤلاء الرواد المصلحين المجددين حتى يمكننا القول بأنه يبدو -في مجمل جوانبه- ترجمة حية و تلخيصا دقيقا واعيا لتفكيرهم و اجتهادهم و سعيهم ، فكان لا بد أن يركز هذا المشروع على أمر الانتصار للإسلام و منهجه في التغيير و البناء بلغة العصر و أسلوبه و مفاهيمه و خصائصه ؛ و يستطيع الدارس لفكره أن يلتبس بيسر وقع هذا البعد و مكانته في تفكيره و تنظيره ، و هو يشير إلى ذلك أملا في أن يرتقي الدعوة إلى مستوى هؤلاء المجددين لأن ذلك من حق الإسلام في هذا العصر الذي يمتاز بتدافع المذاهب و المبادئ فيقول : " الإسلام قضية عادلة بيد أنها للأسف وقعت بين أيدي محامين فاشلين ... و كثيرا ما استمع لمتحدثين عن الإسلام ، فأتمنى لو أنهم سكتوا فلم ينسوا بحرف ، أغلبهم لا يفهم الدين كما تنزل من عند الله ، و النزر اليسير الذي يفهمه لا يحسن الإبانة عنه بأسلوب مقبول ... و ذلك كله في أيام تنزير فيها المبادئ التافهة و تعرض نفسها على الناس في تزاويق ماكرة ، كما تتوارى الشمطاء وراء حجب من الأصباغ و الملابس و الحلبي و الدلال (...). إن الأجيال الجديدة فقيرة إلى معرفة الإسلام بلغة طيبة و دلالة قريبة ، ربما كانت الكتب القديمة مفيدة في العصور التي ظهرت فيها ، و ربما كانت المشكلات التي تناولتها مما يعني أناسا مضوا و مضت معهم أزماهم الروحية و المادية ... لكن أبنائنا و إخواننا في هذه الأيام بحاجة ملحة إلى أن يعرفوا دينهم معرفة تملأ الفراغ النفسي الملحوظ و تدحض الشبهات التي اختلقها سمسرة الإلحاد و التحلل بعد زحف الإستعمار الأخير على بلادنا ... و إذا كان المسلمون في أخرى القرن الرابع للهجرة قد احتاجوا إلى من يضع لهم كتابا يسميه (إحياء علوم الدين) فلنأخذ من ذلك عبرة ، أن المعارف الدينية قد تذوي مع مرور الزمن و غلبة الأهواء و شيوع الهزل ، حتى لتحتاج إلى من يرد لها الحياة بعدما عراها من ذبول !! و من حق الإسلام على رجاله أن يواجهوا الدنيا بما لديهم من تراث خالد ... نعم فلدينا كتاب لا تبلى جده و لا تقنى ثروته ... و لدينا نبوة ملهمة السيرة نقية السنن ، فكيف نزيغ مع هذه الأشعة أو نستوحش في هذا العالم الموار ؟! (٢) " .

و هذه الروح نفسها هي التي جعلت مشروع الغزالي الفكري تعبيرا و فيا صادقا عن الهموم الحقيقية للمسلم المعاصر ، فقد ركز هذا المشروع بمنهجية متوازنة على القضايا الحساسة و المركزية للأمة ، كالدعوة للوحدة الإسلامية باعتبارها فريضة دينية و ضرورة حياة ، و على أسباب تخلف المسلمين و تراجع الحضاري و الإنساني ، و كيفية إعادة بعث المجد الإسلامي الأثيل و استرجاع العزة الإسلامية المفقودة ، و السبيل لتوظيف و استثمار الطاقات السعطلة و المهذرة في العالم الإسلامي .

(١)- يوسف القرضاوي " الغزالي رجل الدعوة " ، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (مرجع سابق) ص ٢١٦

(٢)- محمد الغزالي ، هذا ديننا (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط٢ ، ١٩٦٥م) ص ٤-٥-٦

و استكمال شروط و مؤهلات رسالة إبلاغ الدعوة الإسلامية في المسمورة و الجمع بين العلم و الحكم ، و الموازنة بين المنقول و المعقول ، و التعامل الجاد و المسؤول مع سنن الله في الأنفس و الحضارات و المجتمعات ، و تقديم الأصول على الفروع حفظاً لسلامة و نماء مصلحة الإسلام و المسلمين في الحاضر و المستقبل ، إلى غير ذلك من الكليات و القضايا المركزية و الحيوية في المنهج الإسلامي ... و لاشك أن هذه المعطيات و الأبعاد و الخصائص تجعل موقع مشروع الغزالي الفكري -بالنسبة لمنظومة إحياء الفكر الإسلامي المعاصر- في مرتبة بالغة الأهمية ، خاصة من جهة حدود مواكبته الحية للمستجدات و استجابته للتحديات و استشرافه للمستقبل ، و قدرته المذخورة في التواصل و الانفتاح على البدائل و الاجتهادات و إبداعات العقل الإنساني ، و أسلوبه الفذ في تحرير معادلة الأصالة و المعاصرة من عثرات التناول الجزئي الأعرج الذي أسهم إلى حد كبير في تعميق روح التنافي و التماح بين عناصرها و مقوماتها .

ثانياً : مدرسة الغزالي الفكرية : الموقع و الخصائص :

إن استقصاء الجوانب و المناحي المختلفة لمشروع الغزالي الفكري و الوقوف على أهم قسامته ، لا بد أن يفضي بنا إلى محاولة تحديد معالم مدرسة الغزالي الفكرية ، لتتعرف أكثر على موقعه الفكري و خصائصه بين اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، و لا يكفي في ذلك أن الغزالي كان لا يفتأ يصرح بأنه واحد من مدرسة مجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام حسن البنا (١٣٢٤-١٣٦٨هـ / ١٩٠٦-١٩٤٩م) .. إن الاستقراء الواعي و المنهجي لهذه النسبة يكشف بوضوح على كون ذلك فعلاً لا يكفي في التحديد الدقيق لموقع الغزالي الفكري و مدرسته الفكرية " ففي مدرسة حسن البنا -إذا أردنا بها جماعة الإخوان المسلمين- أكثر من موقع فكري متميز ... بل لقد غدت جامعة لفصائل فكرية بينها ما هو أكثر من (التمايز) في المواقع الفكرية ، خاصة بعد غيبة هذا الإمام الشهيد " (١) ؛ و قد تعرض الغزالي في مشروعه الفكري إلى الحديث عن مختلف المدارس العلمية و الفكرية التي ظهرت في التاريخ الثقافي للفكر الإسلامي ، و يمكننا في هذه الأسطر القيام ببسط سريع لأبرز هذه المدارس و أهم خصائصها من خلال كتابات الغزالي نفسها ، حتى يسهل علينا بعد ذلك الوصول إلى التحديد الدقيق لمعالم موقع الغزالي الفكري و مدرسته الفكرية ، و مدى تأثيره بتلك المدارس ، و حدود تفاعله و استقائه من تراث أقطابها في اجتهاده العقلي و تنظيره الفكري :

١- المدرسة الكونية : يذهب الغزالي إلى أن نشأة هذه المدرسة في التاريخ الفكري والحضاري الإسلامي، كانت نتيجة النظر و الاعتبار المنهجي الصحيح بهدايات الخطاب القرآني ، و هي مدرسة تعنى بدراسة العلوم الكونية و التجريبية و سنن الله الكونية في الأنفس و الموجودات و الحضارات .

(١)- محمد عمارة ، اشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري و المعارك الفكرية (مرجع سابق) ص ٣٦

و من أقطاب هذه المدرسة : الخوارزمي و جابر بن حيان ، و ابن الهيثم ، و أبناء موسى بن شاكر (محمد و أحمد و الحسن) و نحوهم ، و هذه المدرسة -كما يرى الغزالي- أهيل عليها التراب من عهد مبكر و كان ذلك من أبرز أسباب الإتهيار الحضاري و الإنساني للمسلمين (١) .

٢- مدرسة الفلاسفة : هذه المدرسة كان الباعث على نشأتها التصدي للتحديات التي واجهت العقيدة الإسلامية و الحقلانية الإسلامية ، و من أهم أقطابها : ابن رشد و الغزالي و الفارابي و ابن سينا و ابن طفيل و نحوهم ، و يذهب الشيخ الغزالي إلى أنه ينبغي " النظر إلى هذه المدرسة من خلال ظرفها التاريخي و المشكلات و التحديات التي واجهت الفكر الإسلامي في حينها ، و دورها في الذود عنه ، أما النظر إليها بعد أن انتهت إلى تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع فأمر قد يكون فيه كثير من التجني " (٢) .

٣- مدرسة المتصوفة : قامت هذه المدرسة بجهود جبارة في بلورة علم الأخلاق و أدب النفس و ضبط الجانب العاطفي من الإسلام و دعم حسن الصلة بالله الواحد القهار و استحضار هيئته تعالى ... الخ ، و على الرغم من إشادة الغزالي و إقراره بقيمة و أهمية تلك الجهود إلا أنه يقرر في الوقت ذاته بأن هذه المدرسة في الكثير من مناهجها و اتجاهاتها " تشينها الخرافة ، لأنها اعتمدت على خطرات القلوب بعيدا عن الضوابط الشرعية و اللغوية ، و انتهت إلى صورة من الإرجاء و الجبرية أدت إلى الانسحاب من المعركة الاجتماعية و ممارسة نوع من الانتحار الروحي " (٣) ، و نرى الغزالي يشدد العتاب و الملام على تفكير هذه المدرسة و مدى مسؤوليته و ضلوعه في مشكلة تأخر المسلمين الحضاري ، و هذا اللون من الكتابات النقدية كثير جدا و مطرد في مشروعه الفكري ، و من ذلك مثلا قوله : " إن المتصوفة يحملون أوزار هذا التخريب الفكري في العقل الإسلامي ، و هذه البلبلة النفسية التي جعلت القافلة الإسلامية تتحاز جانبا في الحياة ، بينما الأجناس الأخرى تمر مر السحاب ، لقد جازف أبو حامد الغزالي -عفا الله عنه- مجازفة لم يوق المسلمون غوائلها عندما قال في كتابه المنقذ من الضلال (إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، و أن سيرتهم أحسن السير و طريقهم أصوب الطرق ..) ثم قوله في كتاب ميزان العمل (إن السالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضا لو ساواه الناس كلهم فيه لخرب العالم) ... هذا الكلام ألقاه الإمام الكبير جزافا ، و يستحيل أن يقصد حقيقته أو يلتزم بنتائجه ، و يبدو أنه صدر في حالة انفعال نفساني من مصاحبة علماء السوء " (٤) .

(١)- محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن (الجزائر : دار الانتفاضة للنشر ، د.ت) ص ٣٨-٣٩

(٢)- المصدر نفسه ص ٣٨

(٣)- المصدر نفسه و الصفحة نفسها

(٤)- محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (مصدر سابق) ص ٥٦

٤ - مدرسة الأصوليين : وهي من أعظم و أجل و أقدر مدارس الفكر الإسلامي و إبداعات العقل المسلم تعنى بمناهج الاستنباط و ضبط النظر و بناء النتائج على مقدماتها الطبيعية ، و يرى الشيخ الغزالي أنه يوشك أن يقال " إن آخر من ظهر فيها و جمدت بعده حتى كادت تموت : الإمام الشاطبي في كتابه (الموافقات) و هو كتاب جيد ، لكن الرجل توقف عنده علم الأصول عن العطاء ، و لا أعرف من جاء بعده بشكل متميز ، و من ثم أصبح علم الأصول نفسه ذلك المنهج العظيم -على يد المتأخرين- علما مضحكا ، لأنه أصبح كالاتي : الخلاصة ، التلخيص ، الملخص ، المتن ، الشرح ، الحاشية .. كأننا نطحن الماء فلا يزيد و لا ينقص " (١) .

٥ - مدرسة المحدثين : و هذه المدرسة قامت هي الأخرى بجهود جليلة -تفوق بكثير التصور العادي- في ضبط النص و غربلة الآثار و المرويات المختلفة ، و أبدعت منهاجا بديعا لا يرقى لمستواه في الدقة و الهندسة الفكرية أي منهج تاريخي آخر ، و ذلك بغرض خدمة و ضبط المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن هذه المدرسة على عظمة مكانتها و نفاسة دورها العلمي فإنها أصبحت تعمل " و تكافح باسم السلف ، لكن قصرت مهمتها و حصرت اهتمامها بعلوم السنة فقط بعيدا عن الرؤية الشمولية لقيم الإسلام و عطائه الحضاري " (٢) ، و يلاحظ في مشروع الغزالي الفكري عدة انتقادات و مأخذ على هذه المدرسة ، بالرغم من جهوده هو نفسه في هذا الميدان الجليل ، ففي حين يركز علماء هذه المدرسة ، على العناية الكاملة بخدمة السنة و قضاياها ، يرى الغزالي أن " الواجب أن تزداد عناية المسلمين بفقهاء الكتاب ، فإن النكبة في هذا الفقه لا يداويها الاستبحار في السنن ، كما أنه لا بد من ذود العقول الكلييلة عن العبث بما يقع بين يديها من مرويات فهي تسيء أكثر مما تحسن " (٣) فالغزالي إذن يعتقد بأن نصوص السنة الشريفة ينبغي أن تدور في فلك القرآن الكريم ، لذلك نراه يدعو إلى ضرورة العناية القصوى بالقرآن " فإن ناسا أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجورا ، فتمت أفكارهم معوجة و طالت حيث يجب أن تقصر ، و قصرت حيث يجب أن تطول ، و تحمسوا حيث لا مكان للحماس و بردوا حيث تجب الثورة (...). إن الغفلة عن القرآن الكريم و القصور في إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة عاهة نفسية و عقلية لا يداويها إيمان القراءة في كتب السنة ، فإن السنة تجيء بعد القرآن و حسن فقهاء يجيء من حسن الفقه في الكتاب نفسه و قد ذكر ابن كثير أن الإمام الشافعي قال : (كل ما حكم به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن) فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل ؟! " (٤) .

(١) - محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن (مصدر سابق) ص ٣٧

(٢) - المصدر نفسه ، ص ٣٦

(٣) - محمد الغزالي ، الطريق من هنا (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٦م) ص ٧٣

(٤) - محمد الغزالي ، هموم داعية (مصدر سابق) ص ٢٥

و قد ألف الغزالي كتابه السجالي النفيس (السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث) (١) و هو مستغرق في تفويم المنظور الفكري لهذه المدرسة ، و قد كتب في الطبعة السادسة لهذا الكتاب يقول ردا على حملة أو هجمة استهدفته : " فغاييتي تنقية السنة مما قد يشوبها ، و غاييتي كذلك حماية الثقافة الإسلامية من ناس قليل فيهم : إنهم يطلبون العلم يوم السبت ، و يدرسونه يوم الأحد ، و يعملون أساتذة له يوم الإثنين ، أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار و يقولون : نحن رجال و هم رجال " (٢).

و قد اتهم كثيرون ممن ينتسبون لهذه المدرسة أو التيار الشيخ الغزالي بأنه يعادي السنة و ينكر الأحاديث دونما تحليل مقبول ، و أن موقفه هذا ناتج عن شدة ضغط الحضارة الغربية على فكره ، إلى جانب تأثره بالمعتزلة و الجهمية و بعض الفرق العقلانية المنحرفة الأخرى - بنظرهم !! - المعروفة في تاريخ الإسلام الفكري و الثقافي (٣) ... و في رأيي أن هذه المعركة الفكرية لو أتيح لها مناخ السجال العلمي و العقلي المجرد ، و لو تم الابتعاد عن التشنج الفكري و المذهبي ، لعادت بأطيب الثمرات على السنة النبوية و الفكر الإسلامي ، بل لأضافات جديدا إلى منهج التمهيس و التحري الذي يستند إليه علماء الحديث ، خاصة و أن الشيخ الغزالي يدعو إلى ضرورة ضبط معاني نصوص الحديث و فهمها داخل سياق فلك مقاصد و دلالات القرآن الكريم

(١) - صدرت كتب كثيرة في مهاجمة و مناقشة الغزالي و الرد على ما ذهب إليه في كتابه ، و قد حاور الشيخ و ناقش بعض تلك الآراء في البداية ، ثم تجاهلها بعد ذلك حينما خرج البعض على أدب الحوار و حدود اللياقة في السجال الفكري المعروف في حرية و رحابة الفكر الإسلامي ، و من أشهر تلك الكتب :

- كشف موقف الغزالي من السنة و أهلها و نقد بعض آرائه ، لربيع بن هادي المدخلي
- في حوار هادئ مع محمد الغزالي ، لسلمان بن فهد العودة
- إعانة المتعالي لرد كيد الغزالي ، لعبد الكريم بن صالح الحميد
- جنابة الشيخ محمد الغزالي على الحديث و أهله ، لأشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم
- براءة أهل الفقه و أهل الحديث من أوهام محمد الغزالي ، لمصطفى سلامة
- الردود الخمسة الجلية على أخطاء كتاب السنة النبوية ، لأحمد محمود الديب
- سمط اللآلئ في الرد على الشيخ محمد الغزالي ، لأبي اسحاق الجويني
- المعيار لعلم الغزالي في كتابه السنة النبوية ، لصالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
- أزمة الحوار الديني (نقد كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث) لجمال سلطان
- الشيخ محمد الغزالي بين النقد العاتب و المدح الشامت ، لمحمد جلال كشك

(٢) - محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٩م) - مقدمة ط السادسة-

(٣) - انظر على سبيل المثال : فقرة (اعتداده برأيه) في كتاب : كشف موقف الغزالي من السنة و أهلها ، لربيع المدخلي (الجزائر : الدار السلفية للنشر ، ١٩٩٠م) ص ٦٦-٦٨ / و فصل (صلة الغزالي بالمدرسة العقلية المعاصرة) في كتاب : في حوار هادئ مع محمد الغزالي لسلمان العودة (البليلة / الجزائر : دار قصر الكتاب ، ١٩٩٠م) من ص ٩ حتى ص ١٤ / و مقدمة كتاب (الشيخ محمد الغزالي بين النقد العاتب و المدح الشامت) و مؤخرة فصله الثاني ، لمحمد جلال كشك (القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٠م)

و قد حقق الشيخ يوسف القرضاوي في بعض جوانب هذه المعركة الفكرية ، فتوصل إلى أن جمهور أهل العلم مع ما ذهب إليه الغزالي ، من أن أحاديث الأحاد لا تفيد اليقين ، بل هي تفيد الظن ، و من ثمة فلا تثبت بها العقائد و العلم القطعي ، و الشيخ الغزالي تلقى تعليمه في الأزهر بمنهج أشعري ، و الأشاعرة يرون بأن العقل أساس النقل ، ولولا العقل لما كان النقل ، و الألوهية نفسها و النبوة تثبتان بالعقل ، و هذه الخلفية الفكرية و المنهجية هي التي جعلت الشيخ الغزالي ينحو في تفكيره و اجتهاده منحى الموازنة بين العقل و النقل (*) و يذهب الشيخ القرضاوي إلى أن العلماء المحققين من الحنابلة أنفسهم في صف الشيخ الغزالي من أن أحاديث الأحاد لا تفيد اليقين أو العلم القطعي ، و قد ذكر ذلك القاضي أبو يعلى في (العدة) و أبو الخطاب في (التمهيد) و ابن قدامة في (الروضة) و ابن تيمية في (المسودة) ... الخ، أما دعوى أن الغزالي ينكر الأحاديث الصحاح ، فهو افتراء يلقي في الروح و كأن الغزالي لا يؤمن بالسنة المطهرة مصدرا ثانيا للتشريع الإسلامي ، بينما الواقع أن الغزالي رد بعض الأحاديث بصفته مجتهدا و مفكرا إسلاميا ، و هذا الأمر مسلم به في تاريخنا التشريعي و العلمي ، فقد ردت السيدة عائشة رضي الله عنها بعض روايات الصحابة ، و جاء في إحدى عباراتها: (حسبكم كتاب الله ..) و حدث العكس أيضا ، و مع ذلك لم يؤثر عنهم إلا سعة الصدر و الانعطاف إلى الحق متى قامت الحجة و بزغ الدليل .. يقول الشيخ القرضاوي : " إن العالم لا يضره في دينه رده لبعض الأحاديث التي لم تثبت عنده ، فما من إمام من أئمة المسلمين إلا رد أحاديث صحت عند غيره و لم تصح عنده ، و البخاري يشترط لقبول الحديث شروطا لا يشترطها غيره من أئمة الحديث ، حتى تلميذه مسلم في صحيحه ، و الإمام علي بن المديني أشد من البخاري في شروطه... فالمبدأ مسلم به، و الخلاف إنما هو في التطبيق، و ربما قبلوا أشياء لم يروها مخالفة للعقول أو مناقضة للأصول في عصرهم، و لكننا نبينا من الأمور مالم يتبين لهم، و قد انكشف لنا من العلم مالم ينكشف غطاؤه لهم، فهنا يختلف موقفنا عن موقفهم لاختلاف المعلومات لا لاختلاف المنهج" (١).

و يؤكد الشيخ القرضاوي أن موقف الغزالي لا يعدو هذه الدائرة ذاتها المألوفة بين كبار العلماء و المجتهدين في التاريخ الإسلامي ، و ليس الأمر - كما أراد البعض تحمويه - أمر إنكار للسنة أو معاداة لها - و العياذ بالله - فإن الأحاديث التي ردها الغزالي " إنما هي أحاديث قليلة محدودة ، و هو لم يردها لهوى في نفسه و لا لوهن في دينه ، و لا لتكر للسنة ، و لا لتقصص للوحي ... بل حرصا على الدين نفسه أن يجد العلمانيون و اللادينيون فيه ثغرة ينفذون منها اللطعن فيه و التشكيك في قضاياها و توهين أصوله ، فرده لتلك الأحاديث القليلة إنما هو دفاع عن الدين في مواجهة خصومه و أعدائه الكائدين له و المتربصين به .

(*) - انظر محاضرة الشيخ القرضاوي ضمن فعاليات الحلقة التراسية (المطاء الفكري للشيخ محمد الغزال) و التي كانت بعنوان : " الغزالي رجل الدعوة " (فتحي حسن ملكاوي و آخرون ، المطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ٢١٢) .

(١) يوسف القرضاوي ، الشيخ الغزالي كما عرفته (مرجع سابق) ص ١٢٨

و هذه الأحاديث التي ردها الشيخ لا يتوقف عليها أي أمر من أمور الدين ، فلو مات المسلم و تقي ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئا ما نقص من إيمانه ذرة ، مثل حديث لطم موسى عليه السلام لعين ملك الموت حتى فقاها ، و حديث لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم (أي لم يفسد) ، و لولا حواء لم تخن أنتى زوجها " (١) و الغزالي كما قلنا صاحب عقل بصير يقظ متحفظ ، و المعرفة عنده علمية متساوقة مع سنن الله الكونية ، و لذلك قال : إن اللحم يخنز و يفسد قبل بني إسرائيل و بعدهم ، ، هذا قانون من قوانين الحياة ، إذا تركت اللحم يتغير بعد مدة لا بد يفسد و ينتن ، و قال أيضا ، إن حواء ما خانت آدم ، و ليس عندنا في الإسلام أن حواء خانت ... و يعلق الشيخ القرضاوي على هذا التعليل و التفكير بقوله : " فهو يستخدم عقله ، بعض الناس ينكر عليه هذا ، كيف ينكر حديثا في الصحاح؟ وكأنما يريد البعض أن يخرج من الملة بسبب رفضه لعدة أحاديث مما ورد في الصحاح .. الشيخ لم ينكر السنة بل بالعكس هو دافع عنها في عدد من كتبه ... هو يدافع عن الإسلام ، هو داعية يريد أن يعرض الإسلام معقولا مقبولا موافقا للفطرة، موافقا للمسلمات العقلية و الدينية، فما خالف هذه المسلمات من أحاديث الأحاد رفضه و إن جاء في الصحاح " (٢) ... و الغريب أن الفريق الذي هاجم الشيخ الغزالي تحت عنوان السلفية و الدفاع عن السنة، تناسى تماما جهاد الشيخ و خدماته الجليلة للإسلام ، بل و خدماته النفيسة للسنة نفسها ، فبالإضافة إلى كتاباته الثرة عن قضاياها فقد ختم حياته بكتاب (من كنوز السنة) ، و قد سمعته مرة يقول بأنه وظيف واستعمل قرابة ألف حديث في كتاب (خلق المسلم) وحده ... إن ضيق الأفتق و التعصب المذهبي لا يأتي بخير أبدا؛ والحل أن نعود جميعا إلى أدب الإسلام في الحوار و المناظرة و السجال الفكري ، و أن نبعث فقه الموازنات و المآلات و القيم العقلانية لإعادة بناء المعرفة الإسلامية على قواعد مبنية صحيحة .

٦- مدرسة الفقهاء و المجتهدين : اهتمت هذه المدرسة أساسا بفقه الكتاب و السنة ، و تركزت جهودها على فهم أدلة الأحكام و استنباط مراد الله من الخلق من منابع المعصومة على ضوء الأصول العامة و المقاصد الكلية للتشريع الإسلامي ، و ركيزة هذه المدرسة تراث و اجتهاد الأئمة الكبار -أبو حنيفة و مالك و الشافعي و ابن حنبل- الذين كانوا روادا في تأسيس الفقه الإسلامي ، و كلهم أيضا يمتاز بعمق الفهم و القدرة على الاجتهاد و الموازنة بين النصوص و مآلات الأحكام و التكاليف ، و التوفيق و الترجيح بين الأدلة التي يفيد ظاهرها التعارض ... و قد أفضت طبيعة تفاوت العقول و اختلاف الأنظار إلى تشعب هذه المدرسة -لكنه تشعب في صورة عضوية واحدة مترعة بالتنوع و الثراء الفكري و التنظيري- فباتت عدة مدارس أو اتجاهات ، و قد عرض لها الغزالي في مشروعه الفكري ، و أبدى وجهات نظره فيها و في الملامح و المقومات التي تركز عليها ، و هذه المدارس أو الاتجاهات هي :

(١)- المرجع نفسه ص ١٢٧

(٢)- يوسف القرضاوي " الغزالي رجل الدعوة "، العطاء الفكري، للشيخ محمد الغزالي (مرجع سابق) ص ٢١٤ - يمكن الاستفادة أيضا في هذا المضمار من كتاب (دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي) للدكتور أحمد حجازي السقا ، في مناقشة بواعث و خلفيات رد الغزالي لبعض أحاديث الأحاد الموجودة في الصحاح .

أ- مدرسة الأثر : يميل اتجاه هذه المدرسة إلى التحويل على النص و إنفاد ظاهره في معظم الأحيان ، و أصحاب هذه التوجه يعملون فكرهم و رأيهم في مساحات واسعة من نظرهم و اجتهادهم ، لكنهم يقتصدون كثيرا في التأويل و أعمال العقل و الرأي ، و كان شعارهم قول الإمام علي -كرم الله وجهه- (لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه) (*).

ب- مدرسة الرأي : و ينحو اتجاه أقطابها منحى الجمع بين النصوص الكثيرة و النظر إلى الملابس و الخلفيات التي تحيط بالأدلة ، و جعل الآية القرآنية حاكمة على الحديث و محددة لمعناه و مقصده على ضوء الفحوى العامة و الفهم الأقرب ، و هذا منهجها في الاجتهاد و استنباط الأحكام ، لكنها هي الأخرى تعتمد على الأثر و تتطلق منه .

يقول الغزالي عن هذا التقسيم بعد أن ضرب عدة أمثلة تراجع في موردها : " في أول عهدنا بدراسة التشريع استمعنا إلى هذه العبارة : مدرسة الرأي و مدرسة الأثر ، قلت في نفسي: ما هذه القسمة ؟ هل هناك فقهاء يطرحون النص و يتبعون رأيهم ؟ و هل هناك فقهاء يلتزمون النص دون أعمال فكر ؟ الواقع أن هذا العنوان يحتاج إلى تفسير (...) فليست مدرسة الرأي ملغية لأثر و ارد كما رأيت ، و إنما هي تجمع بين نصوص كثيرة ، و ترجح ما ترى أنه الأصوب في نظرها ، أما مدرسة الأثر فتكاد تكون إمضاء لظاهر النص مع بعد عن الحرفية التي أخذت على ابن حزم و أزرته بفكره في قضايا كثيرة ، و إن كان هذا البعد يتلاشى في بعض القضايا ... و الذي أراه أن الأمر يتبع الطبيعة العقلية للناس ، فهناك نصيون في كل مجال و هناك أهل الفحوى و التأمل العميق ، و قد كشفت هذه الطباع في العهد النبوي نفسه و لا تزال تقجونا في عصرنا هذا أمور في العبادات و المعاملات ينقسم النظار فيها إلى أهل نص و أهل معنى " (١) .

ج- مدرسة الموازنة و الترجيح : ظهرت هذه المدرسة في القرن السابع الهجري على يد الإمام الكبير ابن تيمية ، و لعل الميزة الأولى لهذه المدرسة أنها استوعبت الأخبار و الآثار المروية ، و في الوقت ذاته سعت لإدراك المصلحة و الحكمة و المقاصد العامة الكلية من التشريع الإسلامي ، أي أنها استفادت من مدرستي الأثر و الرأي معا ، و إن كان ميلها للأثر أظهر و دفاعها عنه أذكى و أقدر ، لكن الاجتهاد و النظر في منهج هذه المدرسة يخضع لرؤية و منظور عام أساسه الموازنة الحسنة بين المنقول و المعقول (٢) .

(*) أخرجه أبو داود

(١)- محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (مصدر سابق) ص ٨٥-٨٧

(٢)- المصدر نفسه ، ص ٩١

د - مدرسة الاختيار الشخصي و التنسيق بين وجهات النظر : هذه المدرسة ظهرت و تبلورت خلال القرن الثالث عشر الهجري ، و لها أتباع كثيرون إلى اليوم ، و الشيخ الغزالي في رؤيته لهذه المدارس و الاتجاهات يرى بأن هذه المدرسة " أشبه أن تكون امتدادا لمدرسة الأثر عرضت الفقه الإسلامي من الكتاب و السنة مباشرة و أفادت من الجهد العقلي لرجال المذاهب التقليدية و ضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهرين و انتفعت من مدرسة ابن تيمية ، و أحييت أسماء كانت مغمورة في ميدان الأثر والرأي جميعا . و القاسم المشترك بين رجال هذه المدرسة عرض الفقه من أصوله الأولى ، و يمثل هذه المدرسة الصنعاني صاحب (سبل السلام) و الشوكاني في (نيل الأوطار) و السيد سابق في (فقه السنة) ، و صديق خان في مؤلفاته و الألباني في رسائله ... و عندي أن هذا الجهد يقوم على الاختيار الشخصي و التنسيق أو التنسيق بين وجهات النظر المختلفة ، و أصحابه مقدرون فيما صنعوا ، لعلمهم أحسن تصورا للإسلام من مؤلفي المذاهب ، و هم أيضا يخطئون و يصيبون ، و انتماؤهم للسنة لا يجعل التسليم بقولهم واجبا ، بل إن بعضهم قد يخالف بعضا في كثير من الأحكام " (١) .

د- مدرسة التجديد و الإحياء و الاستفادة من تراث الأمة : ظهرت هذه المدرسة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري و تبلور منهجها خلال القرن الرابع عشر ، و هذه المدرسة -كما يرى الغزالي- هي في توجهها الفكري " أقرب إلى مدرسة الرأي و إن كان عنوانها سلفيا ... و هذه المدرسة لها ملامح بينة فهي -و إن قامت على النقل- إلا أنها تروج للعقل و تقدم دليله و ترى العقل أصلا للنقل ... و هي تقدم الكتاب على السنة و تجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الأحاد ، و هي ترفض مبدأ النسخ و تنكر إنكارا حاسما أن يكون في القرآن نص انتهى أمده ، و ترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به ، و لكنه غير ملزم ، و من ثم فهي تنكر التقليد المذهبي و تحترم علم الأئمة ، و تعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده و قيمه الأساسية و لا تلقي بالآلا إلى مقالات الفرق و المذاهب القديمة أو الحديثة " (٢) ... و ذكر الغزالي بأن رائد هذه المدرسة هو الإمام محمد عبده ثم تلميذه رشيد رضا ، و من أهم أقطابها كذلك محمود شلتوت و محمد عبد الله دراز و محمد الخضري و محمد المدني و محمد أبو زهرة و محمد البهي و نحوهم ، و ذكر بأن هناك مأخذ أيضا على بعض أفهام و اجتهادات رجالها ، و هو أمر طبيعي على كل حال -كما أشار- فإن مصادر الإسلام وحدها محاطة بالعصمة لأنها من عند الله ، أما طرق التفكير فيها و الاستنباط منها فليست معصومة لأنها جهد بشري (٣) .

(١)- المصدر نفسه ، ص ٩٢

(٢)- المصدر نفسه ، ص ٩٢-٩٣

(٣)- المصدر نفسه ، ص ٩٣

من خلال هذا الاستعراض الذي استهدف بسط أبرز المدارس الفكرية التي تحدث عنها أو تفاعل معها مشروع الغزالي الفكري - لم يتسع المقام للتطرق إلى كل المدارس التي عرض لها هذا المشروع ، مثل مدرسة الأدب العربي ، و المدرسة القرآنية (علماء التفسير) ومدرسة المتكلمين و المدرسة التاريخية- يمكننا الذهاب في تحديد موقع الشيخ الغزالي الفكري إلى أنه ينتمي إلى مدرسة الإحياء و التجديد الفكري و الحضاري وبعث الإسلام في العالم مجردا من الخلافات النظرية و التفسيرات المذهبية ، و الحرص على جعل الاستفادة التامة من كل تراث الإسلام و عطاءات العقل الإنساني مما هو مشترك إنساني عام لا خصوصية حضارية ، رؤية شاملة تحكم طرق تفكير و اجتهاد هذا المنهج .. إن مشروع الغزالي الفكري صارخ في الإنحياز التام لهذا المنظور و هذه المدرسة ، و تتجلى معالم هذه الرؤية أو المنهج في أي موضوع يتعرض له الشيخ بالحديث و التحليل و المعالجة ، و لتأمل مثلا هذه الرؤية التي تعضد ما ذهبنا إليه ، والتي يقول فيها: " إن المذاهب الفقهية في الإسلام يكمل بعضها بعضا و لا يغني أحدها عن الآخر ، إنها كلها تمثل الفكر الإسلامي الرحب الذي يجب أن يدرس و يبحث و يخضع للنقد و المقارنة و الترجيح و المحو و الإثبات ، و نحن شديدا الاحترام لأئمتنا الأوائل ، عظيمو التقدير لذكائهم الخارق و تقواهم لله و نصحتهم للأمة و مقاومتهم للجور ، غير أننا نشعر بأن كل واحد منهم يمثل لونا من التفوق الذهني و المناهج العلمية ، و أن الإسلام مجموعة هذه الألوان و غيرها مما يجد على اختلاف الليل و النهار من اجتهاد الفقهاء و تطبيق الكتاب و السنة على مختلف الشؤون ... إننا حين نطلب تحكيم الإسلام لا نفكر في إقامة دولة مالكية أو دولة حنبلية ، فهذا حمق في التفكير ، إن الإسلام الذي نستهدي به هو أولا : الأصول المعصومة من كتاب و سنة ، و ثانيا : جهد العقل الإسلامي في مواجهة الأحداث المتباينة في تاريخه الطويل و مدى ما أحرز من توفيق أو عرض له من خطأ ... و نحن المسلمين في هذا العصر نواجه الفكر الإنساني القادم من شتى القارات ، العارض لأنواع الحضارات ، المصور لشتى النزعات و الفلسفات ، فكيف يلقي هذا الفيض الغامر رجل محصور في مذهب فقهي تعصب له ؟ أو رجل ينتسب إلى فرقة إسلامية ولد في أحضانها ؟ إن على دعاة النهضة الإسلامية المعاصرة أن ينخلعوا من هذه القيود و أن تكون لديهم إحاطة علمية بما لديهم مهما كان الرأي فيه ... و حسن الإدراك لتقافتنا في أصولها و فروعها شيء ، و ما يميل إليه المرء من رأي أو يؤثره من وجهة شيء آخر ... و يؤسفني أن تكون أزمات المعرفة في بلادنا و بين رجالنا بعض الضيق الذي نشعر به في جوانب حياتنا كلها المادية و الأدبية ، و ما يخدم الإسلام بهذه الفاقة و لا بهذا الانحصار ... (1) "

إن هذا التوجه في الطرح الفكري إنما يشير بقوة إلى أن الغزالي يقف من عطاءات العقل المسلم وابداعات الفكر الإسلامي موقف الناقد المحمص البصير ، وأنه ينتقي من شتى الإتجاهات و المدارس و المذاهب ما يخدم حاضر المسلمين و يعزز مكانتهم في المستقبل ، و هو ينظر إلى مختلف المدارس و شتى المناهج على أنها اجتهادات غير معصومة ، و إلى الجهود المختلفة التي أنتجتها تلك المدارس و المناهج و أصبحت إرثاً فكرياً و ثقافياً و علمياً هو جزء أساس من النسيج العقلي و النسق المعرفي للعقل المسلم ، على أنها رصيد مهم للفكر الإسلامي ، غير أنها ليست ملزمة في جزئياتها التفصيلية و مسائلها الظرفية ، و ذلك لوجود المتغيرات المتنوعة في حركة الواقع الاجتماعي و سيرورة التاريخ ، و تظل العصمة و القداسة - برأي الغزالي - محصورة في المنابع لافي السواقي ، أي خاصة بالنص المطلق المعصوم عن الخطأ المتمثل في الكتاب و السنة ، كما يظل النص القرآني تحديداً - وفق هذا المنظور - معياراً أبدياً ثابتاً لوزن القيمة الحقيقية للنصوص و القواعد و المفاهيم الأخرى ، أو لوزن مدى صواب أو خطأ الآراء و الأفعال و السلوكيات و المنجزات ... و في نظر الغزالي أن ما أبدعه العقل المسلم عبر مسيرته الحضارية و التاريخية من أنساق معرفية و مناهج و تراكمات فكرية و تنظيرية و ثقافية ليست مقصودة لذاتها كترف عقلي أو متعة ذهنية ، و إنما كان وجودها أساساً و الباعث عليها غرض خدمة الإحاطة و الإدراك المنهجي للنص المطلق المعصوم و فهم مقاصده و أبعاده العامة و العمل من ثمة بهديه و بنور الحكمة المستترة داخل سياقاته و تضاعيفه ؛ و ذاك سر صياغة القرآن لأجيال عظيمة النفع ، زكية النفس عالية الهمة صلبة الإرادة ، و في ظرف قصير و محدود إبان البعثة المباركة و في فجر الرسالة الخاتمة ، لذلك فنحن نرى الغزالي ينعي بشدة فهم و اجتهاد الحرفيين و النصوصيين للإسلام و تراثه ممن يقنسون القوالب و المناهج التاريخية لبعض جوانب من المعرفة الإسلامية فيفوتهم الانتفاع بالجوهر و بالمقاصد المرتبطة برسالة الإنسان المركزية و غاية وجوده وهي الاستخلاف عن الله و حسن الإصلاح و الإعمار في الحياة و الكون و التفاعل بالخير و الحق و معطيات الفطرة الصحيحة السائغة مع الإنسانية كلها ، بل ومع كل ما يوجد في هذا الوجود الكوني الفسيح .. و دلالة ذلك كله - كما يرى الغزالي و يعتقد - أن جوهر النبي - صلى الله عليه وسلم - و أساس كيانه المعنوي و الحياتي برمته إنما هو " هذا الكتاب العظيم الذي صنع حضارة العقل السليم .. فكيف ننسى هذا كله و نتشغل بأمر شكلي هي أقرب إلى القشور .. إن قشرة البرتقالة أو قشرة البيضة قد تكون ضرورة لحفظها و بقائها ، ولكن ليس معنى هذا أننا نأكل قشر البرتقال أو قشر البيض ، فالقشرة هي الشكل و مهمتها أن تصون الجوهر ، فإذا انتفعنا كان انتفاعنا بهذا الجوهر قبل كل شيء ، أما الذين يعيشون على قشر البرتقال أو قشر البيض ولا ينفذون إلى الصميم فهم قوم جهلة ، وأنا أرفض أن يكون زمام الفكر الإنساني و الإسلامي في أيدي هؤلاء " (١) .

(١) محمد الغزالي ، مجلة الدعوة السعودية العدد (١١٨١) الصادر في ٢٤ رجب ١٤٠٩ هـ ، ص ٢٨ - ٢٩

إن كل هذه الإشارات وكل الطروحات التي تضمنتها هذا البحث عبر مختلف فصوله ومباحثه تؤكد انتماء الغزالي الفكري لمدرسة التجديد والإحياء والاستفادة المطلقة والمفتوحة من تراث الإسلام كله ومن الجوانب المضنية لعطاءات العقل الإنساني ، تلك التي تمثل مشتركا إنسانيا عاما .. لذلك أجدني منساقا لإقرار وتأكيد ماذهب إليه الدكتور محمد عمارة في تحديد موقع الغزالي الفكري حينما قال عنه : " وإذا كان الرجل لايفتأ يعلن مفاخره ومباهيا بأنه من مدرسة حسن البنا .. وإذا كان حسن البنا هو تلميذ رشيد رضا الذي تتلمذ على محمد عبده وإذا كانت (رسالة التوحيد) و (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) - وهما من أكثر آثار محمد عبده الفكرية تعبيراً عن خصوصية مدرسته - كان مادة درس وتدریس لأسر وشباب وتنظيمات جماعة الإخوان المسلمين على عهد مرشدنا الأول حسن البنا .. إذا كان الأمر كذلك ، فلن نعدو الصدق والموضوعية إذا قلنا إن الشيخ الغزالي هو واحد من أعلام هذه المدرسة الفكرية .. مدرسة الجامعة الإسلامية .. مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة لفكر الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين (...)

إن شيخنا الغزالي هو واحد من علماء هذه المدرسة وأن موقعه الفكري في الإطار الذي يجمع أعلام هذا التيار .. فالرجل يكاد أن يحتضن كل تراث الإسلام وأن يستدعي من ثمرات إبداع المدارس الفكرية المختلفة كل اللبانات الصالحة للعطاء في مواجهة مانواجه من تحديات " (١) .. بيد أن هناك ملاحظة لايجوز إهمالها في هذا المضمون ونقصد بها تميز تفكير الغزالي داخل نطاق الإطار الذي يجمع رموز وأقطاب هذا التيار الفكري ، خاصة وأن الشيخ الغزالي قد تقدم به العمر بعد حسن البنا وبعد العديد من أعلام هذا التيار ، واستجبت أمور لم تكن مثارة في وقتهم ، أو لم يكن بعضها بالصيغة التي أصبح عليها في المرحلة التي عايشها الغزالي في أوج نضجه العقلي وعطائه الفكري .. ولعله ليس أدل على ذلك من الإشارة لاجتهاده وإضافته لعشر مقررات أو قواعد للتعاليم العشرين التي وضعها الإمام حسن البنا لهذه المدرسة الفكرية (٢) .. هذا هو الموقع الفكري الذي ينتمي إليه فكر الغزالي واجتهاده وتنظيره ، وهذا هو المنطلق الذي تحرك من قواعده وخلفياته وأساسه ، فجاء مشروع الفكري لبنة عامرة بالحيوية نابضة بالحياة ، تبشر بحركة جديدة وبأنساق فاعلة وواعدة وأنماط أخرى محتملة لمستقبل الفكر الإسلامي ، تكون قائمة على قواعد منهجية صلبة ومنفتحة على المعرفة وعطاءات العقل الإنساني والخبرة الإنسانية ، ونحن لانجد في استنباط وبسط هذه المحددات لموقع الغزالي الفكري ، فنحن نجد الغزالي نفسه يشير بوضوح إلى هذا الانتماء الفكري وأهم خصائصه وقسماته ، وذلك بقوله : " المدرسة التي أعتبر نفسي رائدا فيها أو مهديا لها تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي ، كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسية والاقتصاد والتاريخ ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة .. إن الرؤية الصحيحة لأحكام الشريعة

(١) محمد عمارة ، الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري والمعارك الفكرية (مرجع سابق) ص ٤٠ - ٤١

(٢) محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (مصدر سابق) ص ٢٦٨ - ٢٦٩

أو الحكم الصائب الذي ينبغي تقريره لا يتم إلا مع رحابة الأفق ووجود خلفية عظيمة من المعرفة القديمة والحديثة على السواء " (١) وليس من شك فيما اعتقد أن هذه الكلمة لها دلالاتها العميقة في حسم التحديد الدقيق لموقع الغزالي الفكري ، وهي وإن كانت في توصيفها تنطبق على الخطوط العريضة والمحاور الرئيسية لمشروع الغزالي الفكري ، إلا أنها أيضا - فيما أحسب - تتطوي على إشارة تميز موقع الغزالي الفكري داخل هذا الاتجاه أو الإطار المرن المنسوب للمدرسة التي ألمحنا إليه وذكرنا بعض مميزاتها ، وهذه حقيقة لامراء فيها يقف على معناها الصحيح كل دارس لمشروع الغزالي الفكري .. فقد عرف الفكر الإسلامي المعاصر على يد الشيخ الغزالي دفعا قويا، انتقل به من مواقع " النخبة " إلى " اهتمامات " كل المستويات في الأمة ، وتجاوز بخلفيته النقدية الواعية المستوعبة مرحلة الأوهام والشعارات والحلول الجاهزة في الخيال ، إلى أفق آخر أسسه الأول المعيشة الواقعية لمشكلات الأمة المختلفة ومواجهة التحديات الكثيرة والمتناقضة التي تحول دون تحقيق الانعتاق الكامل وتجسيد طموحات وأهداف الأمة الإسلامية في الواقع القائم في دنيا الناس فعلا لاوهما وحقيقة لاخيالا .

ثالثا: ملاحظات واستنتاجات:

مما تقدم وبعد هذه القراءة التي تستهدف مراجعة وتقويم مشروع الغزالي الفكري يمكن لنا أن نصل إلى إثبات الملاحظات والاستنتاجات الآتية :

١- يعكس مشروع الشيخ الغزالي الفكري بمراجعتة الجادة لمعظم مساحات واتجاهات الفكر الإسلامي وجود أزمة فكرية حقيقية في نطاق المعرفة الإسلامية ، وهو ما أثر سلبا في محاولات الانعتاق الشامل وبرامج الاستنهاض والتغيير والإفلاح الحضاري ، كما يعكس في الوقت نفسه الإمكان الفعلي للعقل المسلم - في حال توافر المعطيات المناسبة والشروط الضرورية - لتجاوز المعوقات والنقائص الموروثة وإعادة بناء وتأسيس الأنساق الفكرية وتأهيل وترقية المعرفة الإسلامية كي تصبح قادرة على إنشاء وصياغة البدائل في شتى الحقول التي يحتاج إليها المجتمع المسلم .

٢- القضية الجوهرية والمركزية في مشروع الغزالي الفكري تتمثل في الكيفيات المنهجية لإعادة صياغة الشخصية المسلمة المتوازنة والمتكاملة ، الشخصية القادرة على تخطي أسباب وعوامل تراجع المسلمين الحضاري وسقوطهم المريع في هاوية التخلف والهوان والانحطاط ، وهذا سر معالجة الغزالي مثلا لمشكلة الانقسام التاريخي بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية ، أو تركيزه على بعث وإحياء عوامل الوحدة بين المسلمين ، وتهميش الخلافات التاريخية والمذهبية وتحديد أثرها في الواقع الإسلامي ، ومحاربتة الشديدة لظاهرة الخلط العشوائي بين تعاليم الإسلام في مصادرها المعصومة وبين العادات والتقاليد الموروثة والتي تتحكم في توجيهها الأعراف البيئية والأوضاع الخاصة أو المنحرفة .

(١) حوار مع الشيخ محمد الغزالي (القاهرة : إعداد دار المختار الإسلامي ، ١٩٩٦ م) ص ٥٨

٣- لقد حاول مشروع الغزالي الفكري الإجابة عن كل الإشكالات والتساؤلات المثارة في الأفق الفكري الإسلامي ، والتي تثير التوتر والضجر باستمرار في فضاء ومحيط تفكير وتأمل العقل المسلم ، ولم يكتف الغزالي بالإجابة النظرية المجردة ، بل جعل حياته وشخصيته وكيانه كله سباجا لحماية تلك الأفكار والإجابات ، ووقودا ينفث فيها الحياة والحركة ويدفع بها إلى الواقع المائل ، وهذه الميزة الرائعة في الالتزام والتماهي الصادق مع المبدأ يحسب لمشروع الغزالي الفكري ، ويضفي على خصائصه قدراً هائلاً من الجدوى والقيمة النظرية والعملية .

٤- إذا قيست المشروعات الفكرية بأهمية ووزن القضايا التي تعالجها وتبحث لها عن حلول مناسبة ، وبالغايات والأهداف التي تروم تحقيقها ، فإن مشروع الغزالي الفكري يعتبر وفق هذا المعيار من أثرى وأنضج وأينع المحاولات الاجتهادية التي أنتجها العقل المسلم المعاصر ، فقد نجح هذا المشروع في استدعاء كل اللبانات التي ما تزال صالحة لإعادة البناء المذخورة في التراث الإسلامي ، وذلك بواسطة منظور نقدي له أسسه ومحدداته المنهجية والتنظيرية ، وإقامة علاقة حيوية دائمة لمناقشة ومجادلة زخم الموروث الثقافي الإسلامي واستتطاق العناصر الحية في هذا الموروث ، قصد تجديد أساليب أداء العقل المسلم واستكمال الأدوات المنهجية الضرورية لبورة مرجعيته القائمة على " الإسلامية الشاملة " سواء تعلق الأمر بالمنهج أو المعرفة أو الواقع .

٥- إن مشروع الغزالي يشرح ويبرهن في الوقت نفسه على كون أزمة الأمة الإسلامية الأولى ليست أزمة عقيدة أو قيم ومبادئ ، وإنما هي أزمة فكرية ، وأن كل الأزمات هي في حقيقتها مظاهر وانعكاسات طبيعية لهذه الأزمة ، وأن العلاج والحل يجب أن يبدأ بتصحيح فكرها وترشيد مسار ومنهج العقل المسلم ، وبذلك نستطيع القول بأن مشروع الغزالي الفكري يهدف أساساً إلى وضع الأمة وفكرها ومؤسساتها في بداية الطريق الصحيح .

٦- إن المراجعة المنهجية الدقيقة لجهود الغزالي الفكرية ومشروعه الفكري بما في ذلك معالم شخصيته وخصائص خلقه وسلوكه ، تجعل الباحث والدارس يقنع بأن هذه الجهود وهذا النموذج وهذه الاجتهادات والرؤى التي قدمها الغزالي تمثل مدرسة رائدة متميزة في الفكر الإسلامي المعاصر ، لاسيما أن فكر الغزالي له تأثيراته العميقة سواء على صعيد الامتدادات الأفقية للمجتمعات الإسلامية أو على صعيد النخبة المفكرة والواعية من أبناء هذه الأمة ... فهذا المشروع الفكري - فيما أعتقد - قد نجح في تحديد المنطلقات الصحيحة وبناء الرؤية السليمة لمنهج النظر والاستنباط والتفكير الإسلامي المتوازن ، وبالتالي فإن الجهود اللاحقة عليها مسؤولة تبني هذا المشروع الفكري والبناء على أسسه وتطوير برنامجه ومفرداته في الإصلاح الفكري والتغيير الاجتماعي والتأسيس الحضاري على ضوء إفرات مستجدات تدافع الوقائع والظروف والأحداث ، وطوارئ الصراعات والعلاقات ، حتى يسترجع العقل المسلم عافيته النهائية ويسترد دوره التاريخي والإنساني ويستأنف مسيرته المبدعة الخلافة في نفع الإنسانية والكائنات والكون بعباءات الخلافة الحقة وفيوضات الخير الشامل والمنهج الأقوم والهداية الأزلية .

الفصل الرابع

الدعوة عند الغزالي

منظوره لطبيعة حركة إنتشار الإسلام

تمهيد :

ترتبط الرسائل و الدعوات ارتباطا وثيقا بالمنهج الذي تعرض به نفسها على الخلائق وتغريهم باعتناق حقائقها وتمثل مبادئها ، ومن ثمة نرى الكثير من الأذهان يرتبط في وعيها وفي عقلها الباطن وجها صورة تلك الرسائل و الدعوات في تصور واحد لا يكاد يفصل ، وجه يمثل جوهرها ومثلها ومقاصدها ، ووجه يمثل منهجها الإعلامي وأساليبها في الامتداد الإنساني و الجغرافي وتعاملها مع الغير خارج محيطها الاعتقادي و الثقافي ، وبما أن هذا الارتباط الذهني هو ارتباط بين الموضوع و الشكل أو بين الحقيقة و الطريقة ، فإنه كثيرا مايكون عقبة كؤودا في سير الكثير من الدعوات ، خاصة عندما يكون معتقوها وممثلوها الرسميون دون مستواها ، أو عندما يكونون صورة شائهة زرية لها ، فهم حينئذ عليها لالها ، وهم بتلك المواصفات يلحقون بها أضرارا مؤكدة حتى وإن ظنوا أو ادعوا أنهم في خدمتها .

وليس من الغلو أو التجني على الواقع في شيء إذا قلت : إن الفرق بين حقيقة الدين في جوهره السماوي و نصاعة مثله المجردة و بين صورته عندما يختلط بأهواء البشر و تأويلاتهم المحرفة و استغلالاتهم الأرضية لحقائقه و مقاصده ، يشبه الفرق بين ماء المطر عندما يكون صافيا رائقا في المزن ، أي في طبيعته الأصلية ، و صورته عندما يهمي على الأرض و يختلط بأتربتها و شوائبها و أعشابها ؛ و لو كان الناس جميعا يدركون الفرق بين حقيقة الدين كما هي في صحائف الوحي و بين صورته عند التأويل و التطبيق أو حين تظهر في سلوك أفراد و جماعات لكان ذلك بعض العزاء الذي يخفف الأحزان على قلوب الدعاة لرسالات السماء ، لكن المشكلة أن ذلك لا يتأتى باطراد ، بل إن التداخل بين الصورتين هو الأغلب الأعم في كل وقت و حين ... و لما كانت دعوة الإسلام العالمية الخالدة قد عرضت لها -كمعظم الدعوات- هذه العقبة في مسيرتها التاريخية فإن الشيخ الغزالي قد اهتم بهذا الموضوع كما يستبين ذلك من نتاجه الفكري و الدعوي ؛ و من بين الشبهات التي لها صلة وطيدة بالعقبة التي أشرنا إليها شبهة انتشار الإسلام بالقوة و السطو و العنف لا بالحجة و الإقناع و القدوة !! ... لذلك فقد ارتأينا أن نبدأ هذا الفصل ببحث هذا الموضوع عند الغزالي الداعية ، لما له من مكانة ضمن عطاء الشيخ في ميادين دراساته الدعوية ، و لقيمة الرؤية التي يقدمها عن طبيعة و خصائص انتشار الدعوة الإسلامية ، ليس فقط من جهة إنصاف الواقع التاريخي لهذه الدعوة و الانتصار للحقيقة العلمية المقررة في سياقات النصوص المعصومة ، و إنما أيضا من جهة أهمية هذا الموضوع على صعيد إعادة تأصيل مناهج الدعوة و ضبط أساليب التعامل مع الواقع المحلي و العالمي ، و كيفية الإفادة العملية من المتغيرات و المستجدات بما يخدم الدعوة الإسلامية في مرحلتها الراهنة و المستقبلية ؛ و ربما كان من نافلة القول في هذا الخصوص التأكيد على مدى أهمية و إمكانية الاستفادة من ثروة الفقه الإسلامي العلمية في تحديد

أسس و اليات التعامل مع الآخرين من منطلق هدايات الإسلام و مقاصده الإنسانية الخالدة ، و التطلع لصياغة نظرية إسلامية في العلاقات الدولية تحسم الخلافات النظرية الموروثة و تمكن لدعوة الإسلام بين شعوب و جماعات و أمم العالم المعاصر .

أولا : خلفية اهتمام الغزالي بهذه القضية :

اهتم الشيخ الغزالي بموضوع الدعوة إلى الله فهما و دراية و أداء و تفاعلا مع رسالتها و منهجها و تاريخها ، فمنحه ذلك إخلاصا و مقدرة في الذود عن حياضها و الدفاع عن شؤونها و تبديد الشبهات المثارة في طريقها ، و هو يحب أن ينسب لهذه الدعوة أكثر من أي شيء آخر ، لأنه يعتقد بأن الدعوة إلى الله أخطر وظيفة على ظهر الأرض ، أليست وظيفة الأنبياء و الرسل و الصالحين الأخيار ؟ لذلك لم يتوان في الانتصار لحقائقها و تجلية فطرتها و قسامتها الثابتة وفق ما رسمته آيات الوحي الخاتم و السيرة النبوية الشريفة و معالم تطبيقاتها التاريخية المثلى ... فلا غرو بعد ذلك إذن إن وجدنا الشيخ الغزالي يخصص مساحة واسعة من فكره و جهوده الإعلامية و الدعوية و نتاجه العلمي لتوضيح الطبيعة الحقيقية لإنتشار الإسلام و انسياب دعوته في الأرض ، و قد تصدى الشيخ لجبهتين أثارتا لغطا و شبهات حول طبيعة هذا الإنتشار هما :

(أ) - جبهة بعض المسلمين الذين ادعوا بأن الإسلام دين سيف لا دعوة ، و أن الأصل إنما هو مبادأة الأعداء بالقتال ، لأن مبدأ الجهاد له مقتضيات أخرى لا علاقة لها بالدعوة إلى الإسلام و إشاعة السلام في الأرض و توطيد الحرية و تمكين الشعوب من اختيار العقائد التي تطمئن إليها ... الخ .

(ب) - جبهة المستشرقين و المبشرين الذين اتهموا الإسلام بأنه دين عنف ، و أن دعوته اعتمدت على القوة و الاصطدامات العسكرية في بلوغ أهدافها ، و أن هناك ظروفا دولية مكنت لإنتشار الإسلام مثل الضعف و الإنقسام الذي عرا الأجهزة الداخلية للإمبراطورية الرومانية و الفوضى العارمة التي سادت الدولة الفارسية ، و ليس مرد الإنتشار السريع للإسلام طبيعة ذاتية فطرية في دعوته و تعاليمه ... الخ .

ثانيا : مناقشة الغزالي للجبهة الأولى :

لم يغض الشيخ الغزالي طرفه عن بعض آراء المسلمين التي لم تع -برأيه- رسالة الجهاد في الإسلام و لم تتشرب طبيعة الإسلام في الإنتشار و الإنصاح عن تعاليمه و مثله و مبادئه ، بل سعى لبذل الكثير من الجهد بغية أن تفهم هذه القضية على وجهها الصحيح ؛ و لعل معالم بعض ذلك الجهد تتضح من خلال النقاط الآتية :

(أ) - السلام هو الأصل في دعوة الإسلام : يعتقد الشيخ الغزالي من خلال فقهه بالقرآن و السيرة النبوية بأن الإسلام أصل من أصول الدعوة في الإسلام ، بل إن الإسلام و السلام مشتقان من دلالة واحدة ترمز لحقيقة هذا الدين و لطبيعته المرسومة في التعامل مع بني البشر ، و من ثمة رفض الشيخ الآراء التي تناقض هذا التوجه في الفقه و الاستيعاب و الحركة ، فهناك الكثير من علماء الدين وقراء القرآن " من لم يتذوق أدب الحوار الطويل مع المخالفين ، فتجاوز الآيات التي أربت على المائة و زعم أن الإسلام قام

من البداية بإستعمال العصا الغليظة في التعامل مع خصومه ، و أنه إذا كان قد هادنهم يوماً فلضروورات موقوتة ! ثم شرع يجتاحهم بعد ذلك دون هوادة ... قرأت لنفر منهم كلاماً طويلاً في أن الإسلام دين هجومي يضع خططه للحرب لا للسلم ، و شعرت بالغيظ لتحريف الكلم عن مواضعه من ناحية ، و لتناول الوقائع دون أدنى وعي بملاساتها من ناحية أخرى " (١) ، و لا شك أن تأسف الغزالي لهذا الفهم المجانف للصواب له في واقع الأمر ما يبرره ، إذ كيف يرضى أتباع الرسالة الخاتمة في وقت تبرجت فيه الدعوات وظهرت كل الأفكار والإيديولوجيات على حقيقتها بأن لا تعرف الطبيعة الحقيقية الفطرية لدينهم؟ " فنحن المسلمين نود لو يملأ السلام أرجاء الأرض ويستغرق أعمار البشر وأنى لنا ذلك؟ في كل صلاة نهتف من أعماقنا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، في كل صلاة نلتفت يمينا ويسارا لنوزع السلام حولنا ، ومع ذلك لم نفلت من شباك الفتانين و الجبارين فحضنا الحروب كارهين مكرهين ! ولانزال كذلك حتى يوم الناس هذا فماذا نصنع ؟ " (٢) .

(٢) حقيقة الجهاد في الإسلام : يرى الشيخ الغزالي بأن الجهاد في الإسلام وسيلة لا غاية ، وأنه يوم تسود الحريات الأرض وتمحى العوائق المفتعلة في وجه الدعوة إلى الإسلام ولا يفكر أحد في فتنة المعجبين و المعتنقين لهذه الدعوة ، فلا معنى حينئذ لهذه الوسيلة إذا كان القصد منها هو القتال - إذ توجد ضروب كثيرة للجهاد كما هو معروف - ويمكن لنا أن نفهم رأي الشيخ في هذه القضية على ضوء محاورته لأحد الشباب المتحمسين دون علم ، يقول " استوقفتني شاب ساخط يقول : سمعنا رأيك في الجهاد الإسلامي ، وأنه ما يكون إلا قمعا للفتنة وتقليما لأظافر الطغاة وحماية للحقوق المستباحة ! وما أقتنعتنا بهذا الرأي ، فقد سمعنا غيرك ولعله أفضل منك يؤكد أن الإسلام بطبيعته السليمة يشتبك مع الطواغيت ، ويقاوم الجاهليات ، فإذا أجهز على بعضها في ميدان انتقل إلى ميدان آخر ليصطدم بها وهكذا إلى قيام الساعة ! ورأيت أن أحاور الفتى ، فقلت له : لعل صاحب هذا الرأي يقصد الحروب الوقائية ، أي أننا رأينا من يستعد للهجوم علينا فبدأناه بضربة سريعة أجهضت هجومه ، أو بتعبير بعض الساسة : تغدينا به قبل أن يتعشى بنا والحرب خدعة وربما لا يكون في هذا حرج ! قال الفتى : دعني من تفسيراتك ، لا حرب وقائية ولا حرب دفاعية ولا شيء من هذه التعللات ! الإسلام لا يحيا مع الطاغوت أو الجاهلية .. " (٣) .

لكن كما يبدو فإن الشيخ الغزالي سرعان ما غير مجرى الحديث مع هذا الشاب عندما ظهر له الخلل في تفكيره ، فأراد أن يبين له المعنى الشمولي للجهاد في عرف الفكر الإسلامي ، وأن الملاسات المحيطة بواقع الإسلام و المسلمين هي التي تتحكم في تحديد نوعية أو صورة الجهاد التي يجب أن تحشد لها الطاقات وترصد لخوضها الكفاءات : " قلت له : ليبتكم تعرفون حقيقة الإسلام وواقع الحياة ، إنكم تجهلون الأمرين معا ، وتحدثون من خيال سقيم ! في هذه الأيام لا نعرف شعوباً يرح بها الظلم كما وقع

(١) محمد الغزالي ، جهاد الدعوة بين عزز الداخل وكيد الخارج (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ١٩

(٢) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٦ م) ، ص ١٥١

(٣) محمد الغزالي ، جهاد الدعوة (مصدر سابق) ، ص ١٠

للسعوب الإسلامية ، وإجماع العلماء منعقد على أن الجهاد هنا حق لأنه دفاع عن الأرض و العرض و الحاضر و المستقبل و التاريخ و الشخصية و الدين و الدنيا ، فلم الجدل البارد حول ما تزعمون من طبيعة عسكرية للإسلام وأنه دين هجوم ؟ وهناك أمر آخر أهم ، أما تعرفون ميادين أخرى أخطر من ميادين الحرب الساخنة يمكنكم فيها أن تنصروا الله ورسوله ؟ في ميدان الإعلام - أو بلسان الشرع ميدان الدعوة - توجد مليارات من الناس سيئة العلم بالإسلام تفترسها شبهات وخرافات حول ديننا البريء فهل أسهتكم في تبديدها ؟ في ميدان المال والأعمال تكاد الأديان الأخرى تتفرد بزمام الحياة ، وتؤثر في تياراتها سلبيًا وإيجابيًا ، فهل تحركتم لتمتليء الأيدي بالشغل ولتختفي من بينكم البطالة وليكون لكم صوت مسموع ؟ في ميدان العلم مدنيا كان أو عسكريا لا يعرف لنا وجود فهل ناقستم واستفدتم وأدتم ؟ في ميدان السياحة والكشوف نقل المتحركون عقائدهم حيث ذهبوا ، فماذا حبسكم في أماكنكم ؟ في ميدان المساعدات و الخدمات الاجتماعية اجتهد كثيرون في تخفيف الآلام وتخفيف الدموع وكسبوا قلوبا تحفظ الجميل فأين أنتم ؟ (١) .

وعندي أن ما يقرره الشيخ الغزالي هنا هو الأدنى إلى الحق وطبيعة الإسلام في الحركة والتعامل مع الواقع الإنساني من منطلق مبادئه في صون الدماء وترسيخ الحقوق ورعاية الكرامة ، ثم إن آراء الغزالي في هذا الموضوع ليست شاذة ولا غريبة عن الإجماع ، فهذا أحد أهم المفكرين الإسلاميين المعاصرين يؤكد على أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات من أغراض وأهداف الجهاد في الإسلام " إكراه الناس على اعتناقه ، لا في مبادئه النظرية ولا في واقعه التاريخي ، اللهم إلا فلتات عارضة وقعت خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية ، ولا تحسب على الدين لأنها ليست من هذا الدين ، وما انتشر الإسلام بالسيف كما بصمه الجاهلون به والمعادون له ، وما كانت الحرب فيه لإكراه الناس على اعتناقه ، إنما كانت الحرب لإزالة الطواغيت التي تحول بين الناس وبين سماع الدعوة ، أو تفتتهم عن دينهم حين يختارونه عن اقتناع ، كما كانت لإزالة الطواغيت التي تدعي حق الألوهية وتغتصب خصائصها وتتعبد الناس من دون الله .. والله يريد أن يكون للناس إله واحد وأن يكون الدين كله لله " (٢) .

(٣) ليس الهجوم من طبيعة الإسلام التوسعية : يناقش الشيخ الغزالي بعض الآراء التي ذهبت إلى أن الإسلام دين هجومي وأنه يبدأ بالقتال قبل أن يفرض عليه أعداؤه الدخول معه في حرب ، وقد اعتمد أصحاب هذا التوجه على دليلين :

الأول : غزو مؤتة

و الثاني : القتال مع قريش

(١) المصدر نفسه ، ص ١١

(٢) سيد قطب ، السلام العالمي والإسلام (بيروت : دار الشروق ، ط ٥ ، ١٩٨٠ م) ، ص ٣٣ - ٣٤

بيد أن الشيخ الغزالي لا يرى أي وجهة في هذه الأدلة المعتمدة ، وينعى صراحة فهم من قالوا بهذا التوجه في النظر ، لأن دواعي القتال الشرعية سواء في غزوة مؤتة أو في الصدام مع قريش كانت قائمة وهي كافية حتى من الناحية المنطقية لما حدث ، فالأسباب " التي دفعت إلى معركة مؤتة (١) معروفة ، ولعل كتاب السيرة المحدثين أقدر على تصوير هذه الأسباب من الكتاب القدامى ، فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم واحدا من رجاله (٢) بكتاب إلى أحد الأمراء الغساسنة (٣) يدعو إلى الإسلام ، وهؤلاء الأمراء كانوا موالين للروم ، يدينون دينهم وينفذون سياستهم ، وقد شعروا مع سادتهم بالقلق للدين الجديد ، وللنجاح الذي يلقاه ، فماذا يصنعون ؟ عمد الأمير الذي جاءه كتاب النبي إلى الكتاب فطوح به ، وإلى حامله فقتله !! واستعد مع الرومان لمواجهة تبعات هذا الموقف الآثم ! ماذا فعله أي دولة تهان دعوتها ويقتل رجلها على هذا النحو؟ (٤) لا بد أن تقاتل، والقتال الذي فرضته الظروف صعب، فإن الرومان شدوا أزر الأمير القاتل بعشرات الألوف من جيشهم الكثيف، وواجه الرجال الذين قاتلوا في مؤتة معركة قاسية، استشهد فيها القادة الثلاثة (٥) الذين التحموا مع الرومان وحلفائهم. واستطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش وأن يجنبه خسائر لا آخر لها " (٦)؛ فليس هناك -يرأي الشيخ الغزالي- شيء في الإسلام يسمى القهر أو العدوان أو الغدر، لأن هذا الدين يقوم على الحرية، والدعوة التي تحملها رسالته لا تطلب أكثر من الحرية وترك الناس يختارون ما ارتاحت له أفئدتهم من عقائد، وما اطمأنت له عقولهم من مبادئ، ويزيد الغزالي شرح وجهة نظره وتعميقها عقليا ومنطقيا فيقول: "ولست أؤرخ لهذه المعركة، ولكنني أعلق على ما قرأته في كتاب ظهر حديثا لأحد العلماء يذكر قصة مؤتة ويقول: إن المؤرخين يحاولون ذكر أسباب للقتال الذي وقع، ولا ضرورة لذكر هذه الأسباب ! لماذا نعلل لكل حرب خاضها المسلمون؟ يكفي أن نعرف طبيعة الإسلام في التوسع (!) لنعرف سر القتال...! الكاتب غفر الله له نسي الرسالة الموجهة إلى العميل الروماني ونسي مصرع صاحبها، ونسي أن الرومان -وموطنهم الأصلي أوروبا- تدفقوا نحو مائة ألف إلى قلب الحجاز، ولم يجبنوا في نزهة صحراوية، وإنما جاءوا في مظاهرة عسكرية لضرب الدين الجديد، ومنع الدعوة من التسلل شمالي الجزيرة العربية... كل ذلك لم يلفت نظر المؤلف الأديب ، إنما لفته إبراز الطبيعة التوسعية للإسلام! إن التوسع الإسلامي لا يعتمد على القهر و حروب العدوان، إن العملة المتداولة في ميدان الدعوة الإسلامية هي الفكر الحر (٧) " .

(١) قرية تقع الآن على بعد ١٢ كيلومترا جنوب مدينة الكرك بالأردن ، والمسافة بين المدينة المنورة وموتة ١١٠٠ كلم قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيل . وكانت رحلة شاقة تجلت فيها معالم الإيمان الحق الذي غرسه صاحب الرسالة العظيم في نفوس الأصحاب العظماء .

(٢) هو الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه

(٣) هو شر حبيل بن عمرو الغساني حاكم بصرى ، كان عميلا لقيصر ملك الروم

(٤) يؤكد الشيخ أبو الحسن الندوي أن هذا الأمير الغساني القاتل قد خالف المواثيق التي كانت سائدة يومئذ ، فلم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء عند الملوك والأمراء مهما اشتد الخلاف، واعتبر مقتل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله تعالى عنه سابقة خطيرة على مستقبل السفراء والرسل، وذلك وحده كان مبررا كاملا للدخول في القتال (أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (الجزء الثاني: ديوان المطبوعات الجامعية دت)، ص ٢٧٧)

(٥) هم : زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جميعا .

(٦) محمد الغزالي ، جهاد الدعوة (مصدر سابق) ، ص ١٩ - ٢٠

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٠

و عند الشيخ الغزالي فإن أصحاب هذا التشخيص لطبيعة الإسلام في التوسع و الإنتشار فضلا عن كونهم يجانفون الحقيقة التاريخية و العلمية معا ، فإنهم يعرضون الدعوة الإسلامية إلى متاعب ملاحقة و يضعون العوائق في طريقها خاصة و أنهم صفر اليدين مما يمكن أن ينتصروا به لدينهم و عقيدتهم ، فإن قتال الإسلام " للرومان كان أشرف قتال عرفته الدنيا ، لأن الامبراطورية العجوز استهلكت شعوبا كثيفة داخل سجونها قرونا طويلة ؛ و عندما نكتب سيرة نبينا بهذا الأسلوب فماذا يبقى للمبشرين و المستشرقين ؟ عندما تعرض الحق على الناس في بيئة جاهلة به فنن يقول لك المستمعون: أهلا وسهلا! سيكون هناك مستغربون و سيكون هناك رافضون ، و ربما آمن البعض على عجل ، و ربما قاوم بعضهم بضرارة ، و لن نتحدد المواقف إلا بعد أمد طوال يصبر فيها الدعاة و يقابلون الهزء بالسكينة ، و الاستفزاز بالحلم ... كذلك كان الأنبياء على امتداد العصور و كذلك كانت سيرة خاتمهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة و السلام ... مع ما تميزت به رسالاتهم من وضوح و تجرد و إشراق ، أما اليوم فالدعوة مثقلة بما يضيرها أو يزهد فيها ... هناك من يدعو إلى الشكل قبل الموضوع و إلى النافذة قبل الفريضة ، و إلى الحكم النوعي قبل القاعدة الكلية ، و إلى ما فيه خلاف قبل ما لا خلاف فيه ! ثم يدق طبول الحرب و هو صفر اليدين من سلاح يجدي ، فإذا الغبار ينجلي عن هزيمة مضاعفة للحق ، إنه انهزم مرتين ، مرة في ميدان الدليل و مرة في ميدان القتال ! و بهذا الفكر المعتل يكتب دعاة عن قيام الإسلام على السيف و اجتياحه للخصوم و رغبته في الهجوم ! (١) .

أما بالنسبة للقتال ضد قريش ، فإن الشيخ الغزالي يعجب أشد العجب من الذين اعتمدوا ذلك دليلا على كون الإسلام يبدأ خصومه بالقتال ، و لا ينتظر إعلان أعدائه للحرب ضده أو ضد حملة رسالته ، و كأن هؤلاء تناسوا ما فعلته قريش بأتباع الدين الجديد من اضطهاد و تعذيب و تشريد و استيلاء على الأموال و الأعراض ، بل و ملاحقة أيضا للجماعة المؤمنة في مستقرها الجديد الوداع بالمدينة ، هذه هي الحقيقة التاريخية التي لا يصح أن تنسى فإن النبي -صلى الله عليه و سلم- " أخرج من مكة هو و من آمن به بعد ثلاث عشرة سنة حافلة بالآلام و الأحزان ، و لم تهدأ عداوة قريش ضد الإسلام بعد الهجرة ، بل و ثبت على كل من شرح بالإسلام صدرا من أهل مكة فنكلت به ، و كان دعاء المستضعفين و المقننين (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها و اجعل لنا من لذك و ليا و اجعل لنا من لذك نصيرا (٢) " فهل يوصف قتال المسلمين لقريش بأنه حرب هجومية بعد هذه الأحداث الواضحة ؟ " (٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠ - ٢١

(٢) سورة النساء آية : ٧٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١ - ٢٢

(٤) - الحرية قاعدة الإسلام في الحركة : يركز الشيخ الغزالي في مناقشته للقائلين بأن الإسلام يقدم القتال على الدعوة حديثه على الحرية كقاعدة أصيلة في الدعوة إلى الإسلام ، و يذهب إلى أن الإسلام لم يكن ليدخل في حرب مع قريش أو الرومان أو الفرس لو ظفرت دعوتهم بالحرية المطلوبة لتبليغ الحقيقة و شرح الرسالة ، فإن أجواء الحرية هي أقصى ما تطلبه هذه الدعوة ، لكن المعروف المؤكد تاريخياً " أن الرومان انتشروا في آسيا و إفريقيا كالجراد الذي يأتي على الأخضر و اليابس ... و الاستعمار الروماني مقرون بالإستبداد و القسوة و الكبرياء ، و قد احتضن النصرانية فشوهها و مال بها نحو الوثنية ، و طارد الكنائس الموحدة حتى أبادها ، و عندما ظهر الإسلام اعترض طريقه ، و ضمن عليه بحرية الحركة . و نازله شمالي الجزيرة ليقضي عليه ! فهل تصدي المسلمين للصلف الروماني و كسرهم الطوق الذي وضعه يوصف بأنه حرب هجومية نشأت عن رغبة الإسلام في التوسع ؟ أي توسع ؟ هل حق الدين الجديد في عرض نفسه على الناس كلهم ، و إيأوه تكميم الأفواه و فتنة الضعاف هو العيب الذي يوصف به و يلام عليه ؟ و مع هذه المقررات البديهية فإن رئيس حزب إسلامي (*) يكتب في نشرة مطولة لأعضاء حزبه أن الإسلام يبدأ بالقتال و يرسم خطة الهجوم على مخالفه . يقول الشيخ تقي الدين النبهاني رحمه الله : إن قول الرسول عليه الصلاة و السلام و فعله يدل دلالة واضحة على أن الجهاد هو بدء الكفار بالقتال لإعلاء كلمة الله و لنشر الإسلام . و يقول : إن خروج الرسول إلى بدر لأخذ قافلة قريش هو خروج للقتال ، هو مبادأة بالقتال فقريش كانت دولة ، و لم تكن بعد قد اعتدت على الرسول أو على المدينة حتى يدافع عنها ، بل هو الذي بدأهم بالقتال (١) .. (١) " .

ويتابع الشيخ الغزالي مناقشته لكلام الشيخ النبهاني قائلاً : " إن تصور الوقائع على هذا النحو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد و لا أدري كيف يستقيم في عقل إنسان أن المطرودين من ديارهم ، المصادرين في عقائدهم لم يتعرض لهم أحد بعدوان ؟؟ ويمضي رئيس حزب التحرير الإسلامي فيقول (إن قيام النبي بإرسال الجيش إلى مؤتة لقتال الروم و توجهه إلى تبوك مقرباً من حدود الروم لمقاتلتهم ظاهر فيه كل الظهور أنه بدء بالمقاتلة) !! وهذا الكلام من أغرب ما يقال ، وعلى ضوء هذا المنطق المدهش يمكن وصف الحروب التي يقوم بها زنوج إفريقيا الجنوبية (*) الآن بأنها حروب هجومية ، ووصف المناوشات التي يقوم بها عرب فلسطين ضد دولة إسرائيل بأنها قتال هجومي !! إن العقل الذي يلتقط صور الأحداث بهذا الإبتار و التقطيع و الحكم العجول يجب الإعراض عنه ، و من المؤسف أن يكون لهذا التفكير وجود بين الإسلاميين ... لا يحتاج الإسلام إلا إلى جو حرّ كي ينتشر و يدخل الناس فيه أفواجا ، ما دام العرض سليماً و العائق منفيًا " (٢) .

(*) يقصد الشيخ تقي الدين النبهاني رئيس حزب التحرير الإسلامي

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٢

(*) كتب الشيخ هذا الكلام قبل غلبة إرادة سكان جنوب إفريقيا الأصليين على نظام الأبارتايد الإستعماري الذي فرضه الغرب قهراً و عدواناً و تسلطاً و تطاولاً على الضعفاء .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٢ - ٢٣

و يزيد الغزالي الإسلام إنصافاً فيسهب في شرح طبيعته في الإنتشار و الامتداد ، ويستعمل المنطق العقلي و قوة الحجة و هو يبرىء ساحاته في القتال و الاشتباك مع قوى الظلم و القهر و الإستبداد ، كما يزيد مبدأ الحرية تأصيلاً و تعميقاً باعتباره معنى مطابقاً لمعنى التوحيد نفسه فيقول : " و نحن لا نكره أحداً على دين و لا نقبل إيمان مكره ، كما أننا نحتكم إلى العدل المطلق فيما ينشب بيننا و بين غيرنا من خلاف ، و لا يميل بنا على العدل حب و لا بغض ... و لو كانت دولتا الروم و الفرس تقومان على مبادئ الحرية و العدالة و ضمان الحقوق الإنسانية ما قامت بيننا و بينهما حروب ، الذي وقع داخل الدولتين و خارجهما أن الإستبداد السياسي حبس الجماهير وراء سياج حديدي بالغ القسوة ، و أن جنون القوة أغرى الدولتين معا بتكسير المصاييح التي حملها الإسلام ، فكان القتال لا لنشر الإسلام و لا لإكراه أحد على اعتناقه ، بل لكي تسود الأوضاع الطبيعية ، و بعدئذ فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر ، و لا يطلب الإسلام في الميدان العالمي أكثر من حريات مستقرة ، و إذا عجز المسلمون في ميدان تكافؤ الفرص و حرية الأخذ و الرد ، عن نشر دينهم ، فلا أقدرهم الله و لا بارك فيهم ! (.....) إن فن الدعوة يحتاج إلى ألوف من الأذكياء الأتقياء يأخذون طريقهم إلى الأفئدة و العقول بلباقة و رفق ، فإذا اعترض السيف هؤلاء برز من جانبنا سيف يناوشه و يعيده إلى غمده ، و يترك الحكم للمنطق و الأدب لا لغرائز السباع ... إن هذا هو اتجاه الوحي النازل علينا ، و هو المفهوم من عشرات النصوص التي نتلوها ، و من ثم فإنني أنظر باحتقار شديد إلى أشخاص عجزوا في ميدان الدعوة ، كسالي في سباق الخير ، لا صياح لهم إلا السيف السيف !! و لو قام السيف لكانوا أول ضحاياهم ! لقد أصاب الإسلام ضرر شديد من الإنحصار العقلي الذي سيطر على أولئك المتحدثين و من التحريف الذي فرضوه على الأحداث ، فأمست قريش معتدى عليها في معركة بدر وأمست الامبراطورية الرومانية الإستعمارية معتدى عليها في مؤنة وتبوك! (١) "

(٥) - حول ما يسمونه آية السيف : يؤمن الشيخ الغزالي إيماناً راسخاً بمكانة الجهاد في الإسلام و بقدرسية رسالته في إنصاف الحق من الظلم و إنصاف الحرية من الإستبداد و إنصاف الأمان من العدوان ، لذلك نراه يرد على كاتب طرقي ينكر فريضة الجهاد و يؤول قوله تعالى (و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) (٢) بكون هذه الآية لا علاقة لها بالحرب و الجهاد ، و إنما هي تتحدث عن الذين قتلوا شهواتهم و أهوائهم ! فيقول : "... هذا الكلام يمكن أن يكون إفراساً لأي شيء في الجسم إلا المخ! " (٣) خاصة و أن هذه الآية الكريمة تتكلم صراحة عن ضرب رقاب الكفار عند اللقاء ، بل إن المفسرين يطلقون على السورة التي وردت في سياقها اسم : سورة القتال ... غير أن الشيخ الغزالي لا يرغب في

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٣ - ٢٤

(٢) سورة محمد (صلى الله عليه وسلم) آية : ٤

(٣) قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (مرجع سابق) ص ٢١٩

إنارة الجدل حول الحقائق المقررة في الإسلام ، إن نقاشه يتجه لأولئك الذين يزعمون بأن آيات الدعوة و التعليم و الشرح و التوضيح قد نسخت بما يسمونه آية السيف ويقصدون بذلك سورة براءة (١) ، وقد حقق الشيخ الغزالي في هذا النسخ المزعوم وأحصى مائة وعشرين آية من القرآن الكريم ، كلها تبين منهج النفس الطويل الذي اعتمده الإسلام في هداية أمل الأرض واقتيادهم بلين ولباقة ورفق إلى صراط الله المستقيم ، وفي ذلك يقول : " .. وانتقل هذا الإضطراب الفكري إلى نصوص الكتاب والسنة ، فإذا تيار من الفوضى يلغي باسم النسخ نحو ١٢٠ آية قرآنية ، ويعوج بمفهوم آيات أخرى ، ويخرج الإسلام للناس في صورة دميمة ! (٠٠٠) إن كتبنا القديمة تجمع في القضية الواحدة ركاما من الآراء فيه الصحيح ، وفيه الذي يحتمل الصحة ، وفيه الباطل وفيه السقيم ، و يجيء ذور النظرات السطحية فيقرأون هذا و ذلك ، و ربما لم يعلق بأذهانهم إلا ما لا خير فيه ... و هذا الخلط المتباين أساء إلى ثقافتنا الإسلامية و ربما منح الحياة مرويات كان يجب أن توعد يوم ولدت ! و قد سمعت البعض يرحب بهذه الحرية ! و لكنني عند التدبر و الموازنة شعرت أن العملة المزيفة طردت العملة الصحيحة ، ولما كان حكام المسلمين في أغلب العصور أفرادا يغلب عليهم الجهل ، فإن سلطاتهم الواسعة ساندت الأوهام والأخطاء ، لا سيما في ميدان الدعوة .. إن المسلمين حملة رسالة عالمية بيقين ، ونقل هذه الرسالة إلى الناس وظيفة شريفة ، وغياب الحكومات الإسلامية عن هذا النقل و ضماناته وتبعاته أمر غير طبيعي ، كما أن ربط هذا النقل بأهواء الحكام وأمجادهم الخاصة مرفوض (٢) " .

والذي ظهر للشيخ الغزالي من تحقيقه في هذا الموضوع أن آيات الدعوة والاعتماد على الحكمة والموعظة الحسنة في أسلوبها هي آيات محكمة جميعها وأنه يستحيل أن يقع نسخ لآية من آيات الدعوة ، فذلك عنده - لو وقع - لا يعني إلا استئالة هذه الأمة عن وظيفتها العتيدة في هذه الأرض ، لذلك فنحن نجد الشيخ وبعد أن يورد جملة آيات من سورة النحل تثبت أهم خصائص الدعوة والدعاة يصرح بأن " القول بالنسخ مرض أصاب بعض المتكلمين في القرآن الكريم وكان سبب بلاء شديد للأمة الإسلامية ، بل إنه عكر رونق الدعوة ووضع في مجراها الجنادل ! أليس من المصائب أن تثبت أقوال هنا بأن هذه الآيات منسوخة؟ (٣) وماذا بعد إلغائها إلا إبطال رسالة الأمة كلها ، وهي الدعوة الواضحة الموصولة حتى قيام الساعة ؟ ماذا يكون عملنا بعد ذلك النسخ ؟ قطع الطريق وقتل من لا يدري؟ .. صحيح أن الراسخين في العلم رفضوا هذه الأقوال ولكن أفواجا من الشباب المغرور والشيوخ العجزة انتشروا في هذه الأيام يؤثرون نسخاً أياً إكراه في الدين، ونسخاً أياً محاسنة في الدعوة.. ويجب وضع حد لهذا البلاء (٤) " .

(١) قال بعض المفسرين بأن آية السيف هي قوله تعالى (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) (التوبة: ٦) وقال آخرون بل هي قوله سبحانه (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (التوبة: ٣٧)

(٢) محمد الغزالي ، جهاد الدعوة (مصدر سابق) ، ص ٢٤ - ٢٥

(٣) يقصد الآيات الكريمة رقم : ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ من سورة النحل

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٢

إنه يستحيل بفهم الشيخ الغزالي - أن يتعرض الإسلام للغير بالقتال والعدوان من غير أن يبدأ هؤلاء بمناوشة الدعوة أو مطاردة الدعاة وفتنة المستجيبين المؤمنين ، فالأصل باق أبد الدهر و هو ضريبة الدعوة و تبعات البلاغ من الشرح و البيان و القدوة و السماحة و الرحمة و المصابرة و التجاوز ... الخ . فإن وجدت الدعوة الحرية المطلوبة دون عوائق فلا مجال للتفكير حينئذ في صدام أو عدوان ، لذلك فلا غرو إن نحن وجدنا الشيخ الغزالي يعلق على قول الله تعالى (فاصبر على ما يقولون و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب) (١) بقوله : " الأمر بالصبر باق لا منسوخ ، و ليس الصبر رضا بما يقال ، و لا ضعف إحساس بما فيه نكر ، ولكنه معرفة بالحجب التي رانت على القلوب ، و الوراثة التي ضللت الأفكار ، و رسم للخط التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أخشى أن يكون عدم الصبر استقالة من وظيفة الدعوة ، و عجزا عن القيام بأعبائها، و بعض الناس يستطيل أيام التعليم و يستوعر مواجهة الجهال فيحتكم إلى السيف!! و الغريب أن السيف الآن ليس مع أهل الإيمان !! و مع ذلك فلا يزال بعضهم يتحدث عنه !! إنهم لا يعرفون طبيعة الدعوة الإلهية و لا واقع الحياة الإنسانية !! إنهم بلاء على الإسلام و على أنفسهم " (٢).

وفي معتقد الشيخ الغزالي فإن الذين فهموا بأن ماورد في سورة براءة قد نسخ آيات الدعوة بكل مواصفاتها وقواعدها وثوابتها ، ليسوا على شيء من فقه القرآن وفقه الدعوة وأصولها وتاريخها ، وليس لهم حظ في فهم واستيعاب طبيعة الإسلام في التعامل مع النفوس البشرية و متغيرات الواقع الإنساني ، فإن سورة براءة نزلت بعد اثنتين وعشرين سنة من بدء الوحي والرسالة ، وقد نزلت لتحسم الموقف مع المشركين والمنافقين وأهل الكتاب الذين نقضوا العهد المبرم بينهم و بين الدولة الإسلامية النبوية القائمة في المدينة المنورة ، و هل من الحكمة أن تترك الدولة الإسلامية تلك الطوائف تعبت بالإيمان و الأمن و العهود و المواثيق كيفما شاعت؟! لقد كان من الضروري حفظا لمصلحة المجتمع الإسلامي - و هذه المصلحة تعني أيضا مصالح كل الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية- أن تترك مهلة أربعة أشهر لهؤلاء العابثين و الناقمين لكي يتوبوا خلالها عن خساستهم أو ينطلقوا حيث شاءوا في أرض الله الواسعة ، و إلا فإن السيف سيقتص من كيدهم و نذالتهم و هبوطهم الإنساني ، و ليس في ذلك أي مس بالحرية الدينية أو الكرامة الشخصية، فلجميع حق العيش الوادع في ظلال المجتمع الإسلامي و الدولة الإسلامية إذا روعيت القوانين القائمة واحترمت المواثيق المبرمة و صيغت العهود الموقعة... و من ثمة فإن الشيخ الغزالي ينعي على بعض المفسرين الذين جانفوا الصواب في تفسير سورة براءة، لأنهم -برأيه- لم يعيشوا كما يجب في جوها و لم يحسنوا إبراك مواقع النزول و لا ربط الأحكام بحكمتها ، يقول : " سمعت من يحتج بالآية (وقاتلوا المشركين كافة) (٣) فقلت له : ألا تكملها؟ ليس بعدها (كما يقاتلونكم كافة)

(١) سورة ق آية : ٣٩

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٣

(٣) سورة التوبة آية : ٣٧

فأني في الآية الدعوة إلى الهجرم و إعمال السيف في الناس ؛ و يشيع بين المفسرين أن آية السيف نسخت ما جاء قبلها ، و عند التحقيق لا يوجد ما يسمى آية السيف ! هناك جملة من الآيات في معاملة خصوم الإسلام ، و في مقاتلتهم أحيانا لأسباب لا يختلف المشرعون قديما و حديثا على وجاهتها و على أنها لا تنافي الحرية الدينية في أرقى المجتمعات " (١) ؛ و لكي نتلافى مثل هذه الفهوم فإن الشيخ الغزالي يدعو إلى ضرورة التفريق بين أسلوب الدعوة و بين عمل الدولة و وظائف أجهزتها التنفيذية ... فإذا كانت الدعوة تقوم أساسا على قوة الحجة و الإقناع و القدوة و الحوار الهادئ و البتلف في المعاملة ، فإن الأجهزة التنفيذية للدولة تقوم على القضاء و الشرطة و الجيش ، أي على ضرورة حفظ الأمن و الحيلولة دون وقوع الجرائم ؛ فليس هناك ما يقتضي الخلط بين طرق الدعوة و مناهجها و وسائلها المؤسسة على الحكمة و الموعظة الحسنة و الرفق و الإلانة الجانب ، و بين أدوات و وسائل السلطة في حرب الجريمة و صيانة الدماء و الأعراض و الأموال ، و لا شك أن هذه الوسائل قد تمتد للقصاص من مجرمين استغلوا الحريات المبسوطة في الإفساد أو تعكير الأمن المستتب في أرجاء الدولة الإسلامية (٢) .

و أحب هنا أن أبين بعد مراجعتي لتفسير سورة براءة في المجلدين : العاشر و الحادي عشر من تفسير المنار بأن الكثير من آراء و نظرات الشيخ الغزالي في موضوع طبيعة انتشار الإسلام قد طالها أثر أو نضح مما ورد في هذا التفسير الموسوعي الرائد ، و إن كان الغزالي فيما أرى قد أبدع -كعادته في أي موضوع يتصدى بكل طاقته لمعالجته- حين وضع كون مبعث الخطأ الذي وقع فيه بعض المفسرين ممن قالوا بأن بعض آيات القتال التي وردت في سورة براءة قد نسخت آيات الدعوة ، إنما هو عدم تفريقهم بين سياسة الدعوة القائمة على البيان و الموعظة الحسنة و بين سياسة الدولة القائمة على مؤسسات و هيكل تنفيذية قد يقتضيها الأمر تأديب الخارجين على القانون أو القصاص من المجرمين و الناكثين للعهد و الموثيق ... و لا بأس أن أعطي مثلا واحدا هنا يعضد ما ذهبت إليه ... كتب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تحت عنوان (آية السيف و كونها غير ناسخة لآيات العفو و الصفح) في معرض تفسيره لقوله تعالى : (و خذوهم و احصروهم و أقعدوا لهم كل مرصد) (٣) يقول : " و هذه الآية هي التي يسمونها آية السيف ، و اعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله (و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) (٤) و قال بعضهم إنها تطلق على كل منهما أو على كليهما ، و يكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠١ = للوقوف على رأي الغزالي بصورة أوضح حول ما يسمى آية السيف تراجع خطبته بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة ، ليوم الجمعة : ١٩٧٣/١٢/٢١ م (قُطِبَ عبد الحميد قطب ، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة ، الجزء الثاني (الجزائر : مكتبة رحاب بدت) ص ٥٣ - ٦٣) وقصّل تأريلات الجاهلين في كتابه (جهاد الدعوة) -مصدر سابق-فصل طور جديد في كتابه (فقه السيرة) وكذا خاتمة الكتاب .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١

(٣) سورة التوبة آية : ٦

(٤) سورة التوبة آية : ٣٧

أن آية كذا و آية كذا من آيات العفو و الصفح و الإعراض عن المشركين و الجاهلين و المسالمة و حسن المعاملة منسوخة بآية السيف و الصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولي في شيء" (١)؛ فهذا مجرد مثال يشير إلى ما كنت قد قصدت إليه ، و هو لا يسلك في مسلك المقارنة ، فما عنيت ذلك بحال ، لأن الشيخ الغزالي في العديد من مواطن كتاباته و نتاجه الفكري بصرح بإعجابه البالغ بالمنار التفسيري ، و بالمنار المدرسة الفكرية الاجتهادية التجديدية الرائدة .

ثالثا : مناقشة الغزالي للجبهة الثانية :

تصدى الشيخ الغزالي للمبشرين و المستشرقين الذين اتهموا الإسلام بكونه قد انتشر بالسيف و الحروب الهجومية و العدوانية و نحوها ، و العديد من مؤلفاته (٢) زاخر بمناقشة شبهات و افتراءات هذه الجبهة المناوئة للإسلام و دعوتـه و حضارته ، و يمكن استعراض مناقشة الغزالي لهذه الجبهة و ردوده عليها من خلال النقاط الآتية :

(١) فرية لتغطية حقائق التاريخ : يرى الشيخ الغزالي بأن الغرب بثتى دوائره و مؤسساته يستمرىء في معاداته للإسلام بعثرة المفتريات و الأكاذيب في كل أفق كي لا يفتضح أمره و تتكشف للأعين حقائق التاريخ ، لذلك فإنه على الدوام يلصق بالإسلام التهم و الشناعات التي هي من صميم و جوهر حضارته هو لا حضارة الإسلام ، و هذه الخاصة لا تكاد تنفك مطلقا عن دوائر الحضارة الغربية ، فإن " الغرب المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه الغرب الذي يجر وراءه ألوفا من الأمم المأسورة ، و الدول المقهورة ، بعدما كسر شوكتها بقوته الباطشة .. الغرب الذي رسم الصليبان - رمز التضحية - على رايات تظلل جيوشا طالما اشتغلت بالسلب و النهب ، و انطلقت في مشارق الأرض و مغاربها تثير الرعب و الفرع ؛ هذا الغرب العنيد هو الذي ينشر بحوثا علمية نزيهة (١) لإثبات أن الإسلام قام على السيف . ذلك جهد كثير من المستشرقين الذين أخضعوا العلم لنزغات الهوى و التعصب الذميم... و متى يقال هذا ؟ في الوقت الذي جثم فيه الغرب المسلح على الشرق الأعزل يبغى هلاكه (٢) .. و القصد البين منه تسويق منطق القوة العمياء الذي نعامل به، و صرفنا عن إعداد العدة التي نسترد بها خسائرنا و نحامي بها عن مقدساتنا، و قد وصل ساسة الغرب و مستشرقوه إلى هدفهم، و تكون جيل من المسلمين يحسن الظن بمستقبل الحق العاري عن القوة فكان الفشل مصير قضايانا كلها، و أصبح البغاث يستتسر بأرضنا! (٤) ."

(١) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، المجلد العاشر (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) ، ص ١٦٦

(٢) منها : جهاد الدعوة ، ومع الله ، و التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام ، و مستقبل الإسلام خارج أرضه ، و هموم داعية ، و الإسلام و الاستبداد السياسي ، و الاستعمار أحقاد و أطماع ، و كفاح دين .

(٣) كتب الشيخ ذلك عندما كان العالم الإسلامي تحت هيمنة الإستعمار العسكري الغربي الإستكباري القهري !!

(٤) محمد الغزالي ، الإسلام و الاستبداد السياسي (القاهرة : دار الكتاب العربي ، د.ت) ، ص ٩٨ - ٩٩

فإذا كان هذا هو المنطلق الذي يعتمد عليه الغرب في تحركه و تعامله مع الإسلام فإن الشيخ الغزالي يدعو المسلمين إلى ضرورة أن لا تتطلي عليهم هذه الحيلة الماكرة ، فإذا كان " الهجوم المسلح غير مطلوب دينا ، فإن السلم المسلح من أركان الدين ، و ذلك يتقاضى الأمة أن تأخذ أهبتها كاملة فلا تبخل على عدد الحرب بمال و لا تمسي إلا و هي عزيزة واثقة من أنها على حذر و تهيب فإذا بوغت ردت على العادين قادرة " (١) ؛ إن افتراء الغرب على الإسلام و إصاق تهمة السيف و القهر بتاريخه و اندياح دعوته ، لا ينبغي في مفهوم الشيخ الغزالي أن يقابل بروح فاترة تتم عن الشعور الداخلي بالهزيمة و الضعف ، بل يجب على الأمة أن تحافظ على دعوتها و أن تتشبث بالحق الذي شرفها الله به ، خاصة و أن الذاكرة الإنسانية تدرك يقينا أن تاريخ هذا الغرب هو الموصوف فعلا لا افتراء بالقهر و الدماء و الدموع و السلب و النهب و التعصب و الإستعباد .

(٢) - ليس في الإسلام ما نستحي من كشفه : خصص الشيخ الغزالي فصلا مطولا من كتابه (مع الله) و هو موسوعة ضخمة في الدعوة الإسلامية ، تحت عنوان (كيف انتشر الإسلام) ناقش فيه آراء بعض المستشرقين و المبشرين ممن اتهموا الإسلام بممارسة العنف بالحجة الدامغة و المنطق العقلي و حقائق التاريخ متوخيا هدف إنصاف الإسلام من شأنه و جاحدي فضل ما أسداه من خير و نفع للإنسانية .

و إن كان الغزالي قد ناقش و رد على الأب لمانس اليسوعي - رمز تفكير المستشرقين الكاثوليك كما يسميه- ونولد كه- رمز الإستشراق الألماني المتعصب- و فيليب خوري حتي و القسيس موير و آخرين غيرهم... فإنه ركز سجاله و ناقشه على المادة العلمية و التاريخية التي أثبتتها المستشرق الإنجليزي سير توماس أرنولد في كتابه الشهير (الدعوة إلى الإسلام)... يقول الشيخ : " بين يدي كتاب كبير عن الدعوة إلى الإسلام ألفه بالإنجليزية (سير توماس أرنولد) و هو بحث واسع في تاريخ نشر العقيدة توفّر على وضعه هذا المستشرق المجتهد الدعوب ، و في الكتاب وثائق قيمة تكشف عن طبيعة انتشار الإسلام في أغلب أقطار العالم أو فيها كلها ، و قد بذل الرجل جهدا واضحا ليكون منصفًا في أسلوبه و استدلاله . و أحسب أن التوفيق لا يخطئنا إذا قلنا : إن هذا المستشرق من أعدل إخوانه رأيا و أنفذهم بصرا و أميلهم إلى أدب اللفظ و إثبات الحق ؟ و مع ذلك فإن سيره مع عقيدته القديمة ، و إخلاصه لوظيفته العتيقة و خضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية و السياسية جعله يميل عن الصواب قليلا و هو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الإسلامية و عن وسائل امتداد الإسلام في الأرض " (٢) .

و كأن الشيخ الغزالي يود أن يقول للقارىء : إذا كان أكثر المستشرقين صوابا و إنصافا لحقائق تاريخ انتشار الإسلام تصدر عنه أحيانا بعض السموم التي تتم عن عداة نفين و حقد متوارث للإسلام و عقيدته و حضارته ، فكيف بالآخرين غيره ممن لم يقدروا على كتم سخائمهم الملتهبة ضد هذا الدين

(١) محمد الغزالي ، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (باتة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ١١٩

(٢) محمد الغزالي ، مع الله (القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ط٥ ، ١٩٨١ م) ، ص ١٠٨

الطيب الطهور؟ و ليس من خلق الغزالي الانتقاص من الآخرين إن أصابوا حتى و إن كانوا على غير دينه و انتمائه الحضاري، لذلك فإننا نجد الشيخ الغزالي يغلي غضبا من قول توماس أرنولد... "ينبغي أن يعلم القارئ - منذ البداية - أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية(1) وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم... وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي مما نجده مفرقا في صفحات التاريخ الإسلامي، فقد عنى الكتاب الأوروبيون ببيان هذه الحالات حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها... " (١) .

ويرد الشيخ الغزالي موضحا تناقضات هذا المؤرخ الإنجليزي ، بأسلوب الداعية الشفيق على دينه المخلص لدعوته قائلا: "اضطهادات إسلامية!! أما هذه الخرافة؟؟ أين هي؟ ومتى وقعت؟ وعلى من؟ إن (السير توماس أرنولد) نفسه أول شاهد على تكذيب هذه الفرية، لقد استعرض في كتابه كيف انتشر الإسلام من الصين واندونيسيا شرقا، إلى الأندلس والمغرب و(غينيا) و(غانا) غربا، وتتبع دخول الناس في هذا الدين في أنحاء القارات الثلاث، فلم يجد أثرا لاضطهاد ديني يمكن أن يكتب عنه أو يشير إليه، ومع ذلك فهو يقول: إنه لا يحصي حالات الاضطهاد اكتفاء بما صنع كتاب أوروبا الذين لم يفهم تسجيلها!! عجباً.. لماذا لم يقل الرجل: إنه لم يعثر - في بحثه الطويل - على أي اضطهاد خلافا لما زعم كتاب أوروبا؟ ولكن غلبة الكره التقليدي للإسلام على ذهن الرجل جعلته يلقي الكلام على هذا النحو، فلما أعوزه الدليل على ما ذكره، نقل عن (سويرس) أن (مروان) آخر ملوك بني أمية قال لأقباط مصر (كل من لا يدخل في ديني ويصلي صلاتي ويتبع رأيي من أهل مصر قتلته وصلبته)، وهذه لاريب كلمة مكذوبة!! وما يعرف لها في التاريخ المصري أثر ولا مكان، وما حكى مؤرخ قط أن أحدا من حكام مصر قتل قبطيا وصلبه لأنه أثر البقاء على نصرانيته!! (٢) ."

ويمضي الشيخ الغزالي في مناقشة هذه الجبهة المناهضة للإسلام حول طبيعة انتشار الدعوة الإسلامية في الأرض، فيقدم الأدلة المشحونة بالحق على كون الإسلام وحده دين السلام والحجة وتقدير مواريث الآخرين، وأن مواصفاته الفطرية والذاتية هي وحدها سبب انتشاره واستيلانه على الأفئدة والقلوب، ويصل الشيخ في تشخيصه إلى أن معظم المستشرقين والدارسين للتاريخ الإسلامي يدركون هذه الحقائق لو أرادوا الصدق مع نتائج بحوثهم، وهم يعلمون كذلك أن الإسلام لا يلجأ للقوة إلا مع الجبايرة أعداء الحرية من قاهري الشعوب، وكان ما يغيظ أعداء الحقيقة شيئا واحدا فحسب "هو أن الإسلام زودته العناية بتعاليم تجعله صلب المكسر، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة، ولأن ينال منه بيسر، بل نقدر أن نقول: لقد كان هذا الباطل يزأر في عرصات الدنيا دون تهيب ويزعج الأمنين في كل قطر دون وجل، فلما ظهر الإسلام واشتبك الباطل معه عاد من هجومه مقصوم الظهر مخضوب الكف، فراح يجار بالشكوى أن الإسلام دين سيف، وأن الحكم في رحابه جعله صلب العود.. نعم هو كذلك وما عيب السيف إذا رد المعتدين؟

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠

وما عيب الصلابة في الحق إذا استعصت على الفئتين؟؟ إن السؤال الذي يجب أن نتحدد الإجابة عنه هو: هل كان الحكم في الإسلام أساسا لفتنة خير المسلمين عن دينهم؟ " (١) .

وأحسب أن الشيخ الغزالي أجاب بإسهاب واستفاضة على هذا التساؤل الأخير في العديد من مؤلفاته الثرة خاصة منها (الإستعمار أحقاد وأطماع) و (التعصب والتسامح بين المسيحية و الإسلام) .. ليس من منطلق فقهه ووعيه بالقرآن وإنسانية أحكامه فحسب ، وإنما أيضا من منطلق استيعابه لحركة التاريخ وحسن انسجامه وتواصله مع الثقافة التاريخية وفلسفة التاريخ ومقارنة الأحداث وخصائص الحضارات .. وليس من شك أن الحكم الإسلامي أنصع صفحة عرفتها الدنيا في السماحة واحترام الأديان وتقديس الحقوق ونبذ الاضطهاد والاستعباد ، وأن الإسلام لا يلتفت إلى المغالبة و القوة إلا إذا حيل بينه وبين سماع الشعوب لكلمته ودعوته ، كما حصل فعلا مع الروم و الفرس .. و الشيخ الغزالي يعمق هذه المعاني بدلالات واقعية تعكس صدق ما ألمحنا إليه فيقول : " ضحكت وأنا أسمع أحد المغفلين يقول : إن الإسلام انتشر بالسيف وقلت على الفور : لاياصاحبي ، التعبير الصحيح في هذه القضية : أن الإسلام انتصر على السيف ! وإذا كان منتهى كيد الفتنة المغلوبة على أمرها - بعد ما فل حدها - أن ترمي الإسلام بهذا الوصف ، فلا على الإسلام من ذلك ، لقد أدى الإسلام واجبه في كسر شوكة العدوان ، وفي قهر الضلال على التراجع ، وعلى ترك المكاسب الطائفة التي حصل عليها ... فليسمع الشتائم والتهم من السلطان المعزول ، أو من الوحش المقهور ، فلأن يشتم وهو حي يؤدي رسالته النبيلة أفضل من أن يبدي ثم تسمع فيه كلمات الرثاء ، نعم وماذا يعود على الإسلام أو على الناس لو أن الرومان أفلحوا في خنقه ، أو أن الفرس تمكنوا من شنقه ، ثم قال كلاهما بعد أن أهال التراب على جنته : كان ديننا مسالما وكان أتباعه طبيين ! " (٢) .

(٣) الإسلام حركة دائمة معروضة على العقل : يجزم الشيخ الغزالي بأن الإسلام في أصوله وتعاليمه وأخلاقياته هو دعوة للسلم والرحمة والتكافل ، ومن ثمة فإنه لا يعتبر منهجا للمسلمين وحدهم ، بل لجميع بني البشر ولكل الكائنات في هذا الكون الكبير ، وهذه القسامات المعجزة منحت هذا الدين سمة الديمومة والتجدد ، فكان بذلك كله حركة زمانية مستمرة معروضة على العقل والإرادة الحرة ، ثم إنه بالاستناد إلى هذا الفهم يكون نقيضا تاما للقوة و العنف و القهر ولمختلف الإشاعات التي روجها عنه زورا وافتراء المستشرقون ودوائر الكيد التقليدي .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣٠

(٢) محمد الغزالي ، الإستعمار أحقاد وأطماع (القاهرة : دار الكتب الإسلامية ، ط٣ ، ١٩٨٣ م) ، ص ١٢٧

ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الإسلام انساب في الأرض وسكن الأرواح والافئدة نموقته الفذ من احترام الإرادات الإنسانية وحرية التمييز والإختيار فيها ، ويصرخ الشيخ من فوق منبر الجمعة مهاجماً أعداء الحقيقة التاريخية الفذة ومؤكداً على كون " بعض العابثين ، بعض الجهال ، بعض المبشرين والمستشرقين لا يدرون جيداً - وربما دروا ولكنهم يغايطون - موقف الإسلام من القتال .. العلاقة بين الإسلام وبين سائر الناس - من وثنيين من كتابيين من ملحدين - العلاقة أساسها على النحو التالي : نحن أصحاب دين يكلفنا أن نعرضه على الخلق كلهم ، هذا الدين يعرض نفسه على كل من يبلغه ، على كل من له عقل ، نعرض ديننا ثم نقول للناس : أترون أن قواعد الدين سليمة ؟ أترون أن مبادئه راشدة ؟ أترون أن قيمه صحيحة ؟ فإن قالوا : نعم وآمنوا فهم منا ونحن منهم .. هم منا ونحن منهم ، لا يفضل أحدنا الآخر في شيء .. وإن قالوا : لا نؤمن بما جنتم به ، قلنا لهم : قلنا تساؤل معكم : أنتم رفضتم أن تؤمنوا بما جنتنا به أو بما عرضناه عليكم ، نريد أن نسألكم سؤالا : هل تتركوننا نعرض هذا الدين على غيركم ، وإذا قبل الغير هذا الدين هل تعترضون طريقه وتمنعونه من الإيمان ؟ فإن قالوا لنا : أنتم أحرار ، نحن كفرنا بكم ولم نصدقكم ، لكن جربوا حظكم مع غيرنا ، فإن آمن بكم آمن ، مالنا به صلة ولا لنا عليه اعتراض ، إن كان موقفهم هكذا ، فلا سبيل لنا عليهم ولا كلام لنا معهم ولا يجوز أن نعرضهم بشيء يسوؤهم في أنفسهم أو أموالهم (١) .

هذه هي القاعدة الأصلية التي يضعها الإسلام - كما يرى الشيخ الغزالي - وهو يتحرك بدعوته ويجوب بتعاليمه الآفاق يبغى هداية الناس وتعبيدهم لربهم العظيم الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهي قاعدة تعكس بوضوح قيم السلم و الحرية وحب الخير لكل بني البشر ودعوة العقول إلى التفكير و البحث عن الحقيقة ، وهي قيم راسخة وأصلية في رسالة الإسلام ، فأين إذن مواضع تلك الشبهات الحاقدة التي يروج لها المبشرون و المستشرقون ودوائر الكيد التقليدي لهذه الأمة ؟ إنها شبهات سريعة الانقضاء لو وجدت العقول الحصيفة المفكرة ، ولو اختفت الضغائن الموروثة .. إن الإسلام - كما يؤكد الشيخ الغزالي - " لا يشتهي سفك الدماء ، ولا يندفع إلى امتشاق الحسام إلا مكرها ، وأمل الإسلام الحلو و رغبته العميقة أن تتحول فجاج الأرض إلى آفاق سماوية ، تموج بأناس يشكرون ربهم ، ويذكرون نعمه دون أن تشغلهم حروب ، أو تستشري بينهم عداوات " (٢) .

ويلاحظ الشيخ الغزالي أن النصرانية مثلا فجر ظهور الإسلام بدل أن تتجاوب مع تعاليم الإسلام ورغبته في السلام و الحرية وتتعاون معه في تحقيق تلك المبادئ و المثل النبوية ، نظرت له مع الأسف " لا على أنه دين يعاون في هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، بل على أنه منافس محذور النجاح ، كما ينظر التاجر القديم إلى مؤسسة جديدة مزودة بأسباب النهوض و النماء ، فهو يرى امتدادها والإقبال عليها خطرا على كيانه وبقائه " (٣) .

(١) قطب عبد الحميد قلب ، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، الجزء الثاني (الجزائر: مكتبة رحاب، د.ت) ، ص ٥٧

(٢) محمد الغزالي ، الإستعمار أحقاد و أطماع (مصدر سابق) ، ص ١١٩

(٣) محمد الغزالي ، كساح ديسن (الجزائر: مكتبة رحاب ، ط ١٩٨٨م) ، ص ١٩ - ٢٠

(٤) - الإسلام أرحم رسالة في تاريخ الإنسانية كله : يقرر الشيخ الغزالي بأسلوب العالم والمفكر المنصف المتمكن من ناصية الحركة التاريخية واستيعاب خطوطها العريضة وتفصيلاتها الدقيقة أن الإنسانية في شتى مراحلها على ظهر البسيطة لم تعرف ديناً و منهجاً إنسانياً كالإسلام، وأن ما تنقول به جبهة بعض المبشرين والمستشرقين من تقولات ومفتريات إن هو إلا سخائم وأحقاد ينقلها بأمانة مقدسة الأسلاف للأخلاف، وهي روح متأججة على الدوام كما ظهرت على لسان بطرس الناسك وأمثاله من المتضاغنين على الإسلام ونبية النبيل وأمه المسالمة؛ ونحن نرى الشيخ الغزالي في معرض دحضه لتلك الشبهات والمفتريات والأحقاد يلجأ أحياناً لأسلوب المقارنة بين طبيعة انتشار الإسلام وبين طبيعة انتشار النصرانية وإرهاب اليهودية؛ فالإسلام - كما لاحظ الغزالي بحق - اعتبر حق الحياة حقاً مقدساً ليس موضع جدل، لأن الإنسان مكرم في منهج الله بغض النظر عن معتقده، في حين يرى الحاخام (والدنبرج) أن الشريعة اليهودية إذا طبقت وفق وصايا العهد القديم فلن يبقى في الأرض المقدسة (١) غير اليهود، و يذهب الحاخام (هيس) إلى ضرورة إبادة كل من يحاربون شعب الله المختار (١) مهما كانت أعرافهم وأجناسهم، بينما يرى الحاخام (أربيل) بأن قتل غير اليهودي لا يعتبر في معايير شعب الله المختار جريمة، لأن حق الحياة لا يجب أن يكون مصنواً سوى لليهود وحدهم (١) ١١١

و يعتقد الشيخ الغزالي فصولاً مسهبة للحديث عن تاريخ الاضطهاد الديني في النصرانية يكشف بها الفروق بينها وبين الإسلام في حرية الاعتقاد والتدين، وبعد اقتباسه عن ميخائيل السوري لنص يثبت إصدار هرقل لقرار يقضي بتصوير جميع اليهود والنصارى المقيمين فوق أراضي الامبراطورية الرومانية يتساءل الشيخ: "ومن يدري لعل المستشرقين الطاعنين على الإسلام، والأقباط الذين يصدقونهم في مطاعنهم، هم من نسل أولئك اليهود الذين اقتادهم عسكر هرقل إلى الكنائس حيث نصرروهم برغم أنوفهم؛ ولو أن هذا الأمر المجنون هفوة حاكم فرد لما ساغ لنا أن نؤاخذ به تاريخ دين ما، لكن هذا الأمر قد سبق إلى مثله، و قد في فعله باباوات وأباطرة وملوك، فإذا صدر سيق الناس بالسياط إلى حيث يعمدون، فإذا تجرأ أحد على عصيان أمر الدولة قطع عنقه (....) وعلى هذا النحو هلك المسلمون في الأندلس، وهلك من بعدهم الموحدون في أوروبا... والعجب أن الذين يهبلون التراب على هذه المآسي يجيئون من بعد إلى الإسلام النقي ليقولوا له: إنك انتشرت بالسيف!!" (٢) .

كما نجد الشيخ الغزالي يؤكد الرؤى و الانطباعات ذاتها في سياق رده على الكاتب المتحامل على الإسلام الحاقق على تعاليمه و قيمه و الذي أفرد الشيخ لنفسه أباطيله المفتراة كتابه البديع (التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام) يقول : " ... لو كنا من يلجأ إلى حرب الإبادة ما ولد في بلاد الإسلام (١) محمد الغزالي، صرخة تحذير من دعاة التنصير (الجزائر: دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٤٥

(٢) محمد الغزالي، التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م)، ص ٢٦٠ - ٢٦١

- للتوسع أكثر في تاريخ الاضطهاد الديني المسيحي يمكن مراجعة فصل (حقائق لا مندوحة عن ذكرها) وفصل (بين ملوك النصرانية وممالك الإسلام) في هذا المصدر ذاته .

مثلت أيها الكاتب الكاثوليكي الحقوق ، لأن إباءك نالوا حق الحياة في العفو السمع الذي بذله عن طواعية المسلمون المنتصرون ، و لو شاءوا أن يثاروا لمذبحة بيت المقدس لعمرؤا القبور بجثث المجرمين الذين سبقوا بالخطر و قتلوا الأمنين " (١) ؛ و من غير شك فإن الغزالي بجهوده الدعوية في الردود و المناقشات على هذه الجبهة إنما يهدف إلى إنصاف الإسلام من خصومه ، و ترسيخ قيم و سمات المنهج الإسلامي المتمثلة في الرحمة و العدل و تقدير الكرامة الإنسانية ، في الذاكرة التاريخية المشتركة لبني البشر . صونا للحقيقة و حماية لها من الاندثار و التلاشي ، و كأن الشيخ الغزالي يجعل من مستلزمات الشهادة على الخلق تقديم ضريبة لا مندوحة أبدا عنها و لا مجال لتجاهلها أو التغريط فيها ، هي الشرح و التبيين و الحوار و المجادلة بالحسنى ؛ و لا غرو في ذلك فإن تلك هي الوظيفة العتيدة الأولى الثابتة لرسالة الأمة الإسلامية بين سنات و تجمعات البشر ؛ و الشيخ الغزالي - كما يبدو هنا - حريص على تمثل هذا الدور الرسالي من منطلق واجب الشهادة و بواعث الحس النبيل و الشعور الحضاري و الإنساني الخير .

رابعاً : مفاهيم و مرثيات مستنتجة :

من المناسب الآن بعد هذه التشخيصات و التحليلات و العروض المختلفة و المساجلات النظرية و الفكرية ، أن ينصرف الجهد و النظر إلى استنتاج ما يأتي :

(١) - تماهي و تناغم فهم الشيخ الغزالي مع اتجاه القرآن إزاء حقيقة تأسيس الإسلام على مبدأ السلام ، و عدم مبادأته للقتال مع الخصوم من المشركين و نوحهم ، ذلك أن أول آية نزلت في الجهاد بعد الهجرة تؤكد بأن الجماعة المؤمنة قد اعتدي عليها ، و لم تكن هي التي بدأت بالقتال ، و السياق واضح في ذلك ... قال الله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير) (٢) .

(٢) - إن ما يقرره الشيخ الغزالي من كون الجهاد في الإسلام لا يكون إلا تقليماً لأظافر الطغاة الجبابرة أو قمعا للفتنة و حماية للحقوق المستباحة ، و أن الأصل في هذا النين هو السلم و الأمان ، إنما هو حقيقة تاريخية و علمية معضدة بالأدلة القطعية و إثباتات الوقائع التاريخية المؤكدة ، فإن قریشا هي التي طاردت الجماعة المؤمنة الأولى و فتنتها عن دينها و عقيدتها و استباحات حقوقها المدنية المشروعة ، و كذلك الأمر بالنسبة لليهود في المدينة ، فهم من بدأوا المسلمين بالكيد و مظاهرة غطفان و الأعراب المستهزئين بالإسلام و الدعوة ، كما نقضوا العهود و المواثيق المبرمة بينهم و بين المسلمين ؛ كما أن القتال مع الفرس و الروم لم تشبه شبهة الإكراه الديني ، و لكنه كان من أجل الحرية و تمكين الجماهير من سماع الحق و اختيار العقائد التي ترتاح إليها دون أن تتعرض لفتنة أو تضيق أو مصادرة لحقوقها .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ - ٢٩٢

(٢) سورة الحج آية : ٣٩

(٣) - كل الأدلة و الأنظار الحصيفة تتضافر على تأكيد أهمية و قيمة فهم الشيخ الغزالي لموضوع النسخ في الكتاب العزيز ، فإن الشيخ لا يعتقد به أصلا ، و هو في نفيه له يطرح هذا التساؤل " هل في القرآن آيات معطلة الأحكام ، بقيت في المصحف للذكرى و التاريخ كما يقولون ، تقرأ التماسا لأجر التلاوة فحسب ، و ينظر إليها كما ينظر إلى التحف الثمينة في دور الآثار ... غاية ما يرجى من المحافظة عليها إثبات المرحلة التي أدتها في الماضي أما الحاضر و المستقبل فلا شأن لها بهما ١٤ " (١).

و يزداد نفي الغزالي للنسخ قوة في مجال الدعوة إلى الله و دينه الحق ، فإن الأدوية تبقى ما بقيت العلل و الأدواء المرصدة لها ، و لا أحد من العقلاء ادعى بأن العلل و الظواهر التي تصدى القرآن لعلاجها أول الأمر قد انتفت ، و إذا كان القرآن المدني نفسه بل أواخر التنزيل لا توجد به إشارة واحدة على إرغام أحد على الإيمان فكيف يجوز بعد ذلك التسليم بنسخ آيات الدعوة ؟ فإن " الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له و الكافرين به بأساليب شتى ، لبس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام و هو عنه صاد ... كل ما ينشده الإسلام أن يعامل في حدود النصفة و القسط ، و ألا تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرىء انشرح صدره به . و لم يكن على الإسلام من بأس و لن يكون عليه بأس أبدا لو أصر ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم ... فكلمة (لكم دينكم و لي دين) (٢) و كلمة (لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل و أنا بريء مما تعملون) (٣) .. هذه الكلمات وأمثالها مما تردد في الإسلام هي التي ظلت تتردد في أواخر العهد المدني ، و يخاطب بها كل إنسان ، فالإسلام لم يفرض على النصراني أن يترك نصرانيته ، أو على اليهودي أن يترك يهوديته ، بل طالب كليهما- ما دام يؤثر دينه القديم- أن يدع الإسلام و شأنه ، يعتنقه من يعتنقه ، دون تهجم مرأو جدل سيء (٤) " ؛ و يفهم من هذا كله أن الشيخ الغزالي يأبى القول بالنسخ ، و يرفض رفضا حاسما أن تكون آيات الجهاد و القتال قد نسخت الدعوة و أصولها ، فالقرآن كله -في نظر الشيخ- محكم إلى يوم القيامة .

(٤) - تتضح وجهة نقد الشيخ الغزالي للذين ادعوا بأن الإسلام انتشر بالسيف أي بالإكراه لا بالإقناع ، إذا عرفنا بأن أكبر التجمعات الإسلامية على ظهر الأرض توجد في الأقطار التي دخلها الإسلام عن طريق الدعاة و التجار المسلمين فحسب ، مثل أندونيسيا و الهند و نيجيريا ، بينما يقل نسبيا عدد المسلمين في الأقطار التي اشتبك فيها الفاتحون المسلمون -مضطرين- مع الوثنيين و الفرس و الروم (٥) .

(١) محمد الغزالي ، نظرات في القرآن (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، ١٩٨٦ م) ، ص ٢٢٨

(٢) سورة الكافرون آية : ٦

(٣) سورة يونس آية : ٤١

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٤

(٥) عباس محمود العقاد ، حقائق الإسلام و أباطيل خصومه (بيروت و صيدا : المكتبة العصرية ، د.ت) ، ص ٢٣٢

(٥) - إن المستشرقين و المبشرين -كذلك لاحظ الشيخ الغزالي بحق- سمن ينسبون الدماء و العدوان للإسلام و حضارته ، إنما هم مغرضون لا ينطلقون في أحكامهم من العقل و المنطق ، بل من الأحقاد التاريخية و الصليبية . فإن القتلى في جميع الغزوات الإسلامية لا يساوي شيئا جديرا بالذكر مقارنة بالقتلى في الحروب العالمية الحديثة و ضحايا الدمار الإستعماري الغربي الحديث و المعاصر ، فقد أظهرت بعض التحقيقات العلمية الدقيقة أن عدد القتلى في الغزوات الإسلامية مجتمعة و من الفريقين -المسلمين و محاربيهم - لم يتجاوز (١٠١٨) قتيلًا (١) .

(٦) - أرى أن الرؤية التي يقدمها الشيخ الغزالي في موضوع طبيعة انتشار الإسلام تشكل انعكاسا متقدما و نفيسا لجملة من الخطوط العريضة و المرتكزات الهامة لإمكان صياغة نظرية إسلامية في العلاقات الدولية ، و إعادة ضبط مفردات هذه النظرية مثل الجزية و دار الحرب (٢) على ضوء الأهداف و المقاصد الشرعية و متغيرات الزمان ، و تكيف هذه الجهود الفقهية و الفكرية و السياسية و الحضارية لخدمة قضايا الإسلام و دعم مستقبله في العالم الإنساني (٣) .

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (مرجع سابق) ، ص ٣٢٦ - للشيخ الغزالي حديث مهم جدا حول التحقيق في هذا الموضوع ، وهو حديث ينبغي أن يرسخ صورة مشرقة للإسلام و حضارته في الذاكرة الإنسانية (الإستعمار أحماد و أطماع - مصدر سابق - ص ١٢٧ - ١٢٨)

(٢) محمد الغزالي ، الطريق من هنا (مصدر سابق) ، ص ٨٠

(٣) أنظر محمد أبو زهرة ، العلاقات الدولية في الإسلام (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت) ، خاصة فصل (العلاقات الدولية في حال السلم ص ٤٧) و فصل (العلاقات الدولية في وقت الحرب ص ٨٩) .

رؤيته لمواصفات الداعية الناجح

تمهيد :

إن الدعوة إلى دين الله وصراطه المستقيم ومنهجه الحق ، طريق ناطه الله الحكيم العليم بالمتأزرن من البشر و الموهوبين من الخلق ، لا يقوى على تحمل تبعاته وتكاليفه ومقتضياته إلا عظماء النفوس ورجحاء العقول وأقوياء العزائم .. ومن ثمة فقد جعل الله الدعوة إلى سبيله مهمة الأنبياء والمرسلين وورثتهم من أهل العلم والخير والرشاد ونحوهم من أصفياء الخلق ، وبما أن وظيفة الدعوة على هذا المبلغ من الخطورة والأهمية ، فقد كان من الحتم الذي لامندوحة عنه مطلقا أن يتصف الداعية بجملة خلال وشمائل تؤهله للقيام بدوره بنجاح والسير برسالته نحو الأمام وجعل دعوته ملاذا للمتعطشين للحق والباحثين عن الرشء ومواريث الأنبياء ورسالات السماء .

وهذا المبحث يسعى لاستخلاص أهم المواصفات الضرورية للداعية الناجح في منظور الشيخ الغزالي ، من خلال تجربة الشيخ في هذا الميدان ، ومن خلال الزاد العلمي والفكري الذي يقدمه للدعاة والعاملين في ساحات العمل الإسلامي والصحة الإسلامية و التغيير الاجتماعي و البناء الفكري ؛ ولاشك أن الوقوف على أهم هذه المواصفات ضمن هذا السياق سيساعدنا أيضا على فهم منهج الشيخ في الدعوة والتغيير والحركة والبلاغ ويفسح المجال للإهتمام ودراسة هذا الجانب في شخصية الغزالي وفكره .

أولا: مبررات هذه المواصفات في رأي الغزالي

يرى الشيخ الغزالي بأن الدعوة إلى الله تعني - وهذا من أجل الأهداف التي ترومها هذه الدعوة - صياغة النفوس الفذة والقلوب التقية والعقول الكبيرة المتدبرة والأرواح الشفافة ، والسير بالشعوب والأمم في آفاق الارتقاء والتغيير والاستنهاض ، إذ من المؤكد الثابت أن " الأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين ، فآثر الرجل العبقري فيمن حوله كأثر المطر في الأرض الموات ، وآثر الشعاع في المكان المتألق ، وكم من شعوب رسفت دهرا في قيود الهوان ، حتى قبض الله لها القائد الذي نفخ فيها من روحه ربح الحرية ، فتحولت بعد ركود إلى إعصار يجتاح الطغاة ويدك معاقيم " (١) .

(١) محمد الغزالي ، مع الله (القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ٨

ولاشك أن هذه الدوافع النبيلة تلزم الداعية منذ البدء أن يكون ذا نفس ممتلئة باليقين والحماس والفضل ، وذا عقل ممتلئ بالرشد والوعي والاستبصار ، أما إذا كان الداعية ضعيف الصلة بما يدعو إليه ، أو صاحب كيان مهزوز ومزاج مضطرب ، فإن ذلك بلا ريب يؤثر سلبا على دعوته ، ويجعل منه عرضة للإستهزاء والتهكم والصاق النعوت المختلفة بشخصه ومنهجه وتوجهه ودعوته .. ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الداعية لا يمكنه أن يواجه الواقع المحيط به والنوازل المتناقضة إلا إذا استجاب بحوافز ذاتية فيه وضمن عالمه الخاص إلى المقترضات الموضوعية التي تحتمها طبيعة رسالته ، ومن ذلك ، وفي المقدمة الارتباط المطرد بمطمان وموارد التعبئة الروحية والفكرية المستمرة في حياته وبرنامج حركته بدعوته ، فإن الإناء لكي : " يرشح على ماحوله يجب أن يفيض ، وأن ينزل فيه ما يزيد على سعته وما ينسكب من جوانبه " (١).

ومن جهة أخرى فإن المواصفات اللازمة لشخص الداعية - برأي الشيخ الغزالي - ليست مرتبطة فحسب بدواعي وأبعاد حركة الداعية بدعوته أو بضرورات يتطلبها سعيه ببواعث حب الهداية بين الناس . وإنما هي أيضا ذات صلة وثيقة بمحددات الوظيفة التي يعرف بها ، ويعرف الناس الكثير من تفاصيلها من خلاله ، أي أنه بشرف هذا الارتباط يصبح متمثلا لحقائق النبع الخالد ، ثم إن هذا الشعور المخامر للأنفس المناسب بين الجوانح يجعل الداعية مع إلفه وتساوقه ، وانسجامه العفوي مع مهمته يحس بأنه ملك دعوته لملك نفسه أو رغائبه الذاتية والظرفية .

ومعنى ذلك كله أن هذه المواصفات من الثوابت في حياة الداعية ، بل هي من اللوازم والقسمات التي لا تتفك أبدا ولا تنفصم عن شخصيته وسلوكه وعالمه الخاص ، سواء وهو يتزود من النبع الخالد ويعيش في رحاب الله ، أو وهو يتحرك بدعوته بين الناس ويقدم القدوة والنموذج والمثال ، ويرغب الآخرين في الخير الذي أدرك قيمته ولمس أثره في نفسه من خلال تجربته الذاتية وعالمه الخاص .

ثانياً: أهم مواصفات الداعية كما يراها الغزالي :

عرفنا مما سبق أن الداعية لا يستطيع أن يستمر في طريقه مبلّغا ومرشداً إلا إذا نجح في الارتقاء إلى مستوى دعوته ، ولا يمكنه أن يبلغ مستواها إلا إذا تمثل جملة من المواصفات والتي تعتبر القاعدة المكنية التي يستند عليها ، والشيخ الغزالي يرى بأن أهم هذه المواصفات تتمثل فيما يأتي :

(١) الصلة بالله تعالى : إن معرفة الله تعالى وفق مراده ومبتغاه ، أمر واجب على الدعاة ، وليس المقصود من هذه المعرفة تلك المعرفة العامة المطلوبة من كل مسلم ، وإنما هي معرفة خاصة أكثر عمقا ، وأكثر تأثيرا في الأنفس والقلوب .. إنها معرفة تبني الضمائر والأرواح والأقنعة والسرائر على نحو عجيب تجعل صاحبها كيانا يدر على من حوله نفعا وخيرا وفائدة وبركة .

والصلة بالله تعالى برأي الشيخ الغزالي هي الدعامة الأولى في أخلاق الدعاة ، والمرتكز للركين الذي ينطلق منه الدعاة في الحركة بدعوتهم ، ويرى الشيخ في هذا المقام أن هذه الصلة تعني بالأساس الأول معرفة حسنة به سبحانه وتعالى ، إذ كيف يمكن أن ندعو الناس إلى سبيل لانعرف صاحبها، ومنهج نجهل سيده ، أو أن صلقتا به واهية .. إن الذين يدعون إلى مرشح من المرشحين في انتخابات عامة ، أو إلى مبدأ من المبادئ في ساحات الصراع الفكري ، لابد أن تكون أواصرهم بهذا الشخص أو بذلك المبدأ قائمة أو متينة ، فكيف إذا كان من ندعو إليه هو الله سبحانه وتعالى ومنهجه الحق وصراطه المستقيم؟! و يؤكد الشيخ الغزالي بأن معرفة الله المعرفة الصحيحة هي أساس الدعوة ، وهذا يعني بالضرورة أن الداعية الذي ضعف علمه بالله تعالى لا يمكنه بعد ذلك تحمل تكاليف الدعوة إليه . و استشهد الشيخ بقوله تعالى (الذي خلق السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) (١) و يذهب الشيخ إلى أن هذه الصلة النبيلة بسبب الوجود و فيوم الكون و الحياة هي روح ينفث الحياة و ينبض بالحركة و القوة ، و يشيع الضوء و الدفء ، و لما كان الناس يتفاوتون في مدى استيعابهم و فقههم لهذه المعاني فإن الدعاة هم أكثر الناس -أو ينبغي أن يكونوا أكثر الجميع- حظاً و نصيباً منها (٢) .

و قد عرف الله تعالى نفسه إلى خلقه في آيات كثيرة استفاض بها الكتاب الكريم ، و في كلمات نفيسة زخر بها تراث النبوة و نضحت بها تجارب المرسلين و صفوة العابدين ... و من غير شك فإن حياة القلب و الضمير تنتعش بقدر الأخذ من تلك المعرفة و الاستفادة من كنوزها و جواهرها و ثمراتها ... أما تجاهل تلك المعرفة أو النأي و الأزورار عن تلك الصلة الكريمة فما هو في حقيقة الأمر إلا موت و طمس للبصيرة ، لذلك يأبى الإسلام بشدة و حسم أي تسوية أو موازنة بين المنحيين في قوله تعالى (و ما يستوي الأعمى و البصير و لا الظلمات و لا النور و لا الظل و لا الحرور و ما يستوي الأحياء و لا الأموات) (٣) ، و ثمة أمر آخر يرد بهذا الخصوص و هو بالغ الأهمية يؤكد عليه الشيخ الغزالي كذلك ، و هو أن المعرفة بالله ليست كلها نتاج الجهد الفردي أو الذاتي و إنما هي " كما تكون عن جهد الإنسان في الفكر و الذكر و التأمل و التنزيه ، تكون فيما يكشفه الحق عن عظمة الذات و جمالها لبصائر المتعلقين به و على قدر هذا الانكشاف يكون الإعظام و الحب و التفاني " (٤) .

(١) سورة الفرقان آية : ٥٩

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٨

(٣) سورة فاطر : ١٩ - ٢٢

(٤) محمد الغزالي ، الجانب العاطفي من الإسلام (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت.) ، ص ٣١٨

و بلا أدنى ريب فإن هذا التكريم الإلهي الجليل لا يحظى به إلا من قصد خالصاً نيته و جوارحه التقرب من الله تعالى و العيش في رحابه الكريمة و اتبجست من أعماقه رغبة صحيحة في تحصيل المعرفة الكاملة و الشافية بأمجاد الألوهية الباهرة ، و هذه القاعدة قميئة بجعل الصلة بالله تعالى المطلوبة للدعاة قائمة على نحو آخر غير تلك التي لأغلب الناس منها نصيب ... لذلك يقول الشيخ الغزالي مؤكداً هذا المعنى " إن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله ، و لدفع الناس إلى سبيله ، لا بد أن يكون شعورهم بالله أعمق و ارتباطهم به أوثق ، و شغلهم به أدوم ، و رقابتهم له أوضح ، أي أنهم إن هبطوا من مجال الضوء المشرق .. فإلى قريب منه ... إلى منطقة الظل كما يقال ، أما إذا سقطوا في عتمة فإن ذلك أمر لا تتحملة وظيفتهم ... و عرفانهم بالله يلزمهم شاطيء الأمان إذا كان كثير من الناس يغرق في لجاج هذه الدنيا أو تطويه في سبوحها الشاق عواطف الرغبة و الرهبة .. " (١) .

و يذهب الشيخ الغزالي - وهذا له دلالاته من واقع تجربته الخاصة كداعية- إلى أن من أجل معاني الصلة بالله الاستمرار في عقد مقارنات دائمة بين القيم و المثل التي يدعو القرآن الخلق و العالم إليها ، و بين الواقع الذي ثوى الناس فيه بفعل مناهج و دعوات و ضلالات تضيء على نفسها بريقاً خادعاً مزيفاً ، و تتسبب نفسها زوراً إلى أعظم و أجل القيم الإنسانية (٢) ، و لا شك أن هذه المقارنات المختلفة تسهم في دفع الناس لمعرفة الحق و تعينهم على الاهتداء إلى سبيل الرشاد ، كما يرى الشيخ الغزالي كذلك أن من أقوى أسباب دعم الصلة بالله : التأمل في الكون و فيما خلق الله و أبدع ، و الداعية إذا جهل هذه الحقيقة الكبرى فهو قدح في مؤهلاته و خلل جسيم في منهجه ، فإن القرآن الكريم كما طلب " من المسلم -إلى جانب الرحلة في التاريخ الإنساني و التبصر بسنن الصعود و السقوط للمجتمع البشري- أن تكون له رحلة أخرى في الكون ، و رؤية سنن الله في المجتمعات و الأنفس ، لأن العدول عن النظرة في الكون ، و معرفة سنن الله في الآفاق و حسن التعامل معها ، موقع في الرؤية النصفية التي تؤهل صاحبها للشهود الحضاري " (٣) ؛ و صفوة القول هنا أنه ينبغي على الداعية أن يجعل من صلته بالله تعالى ذخره و زاده الأول ، و من الاعتزاز بهذا النسب الكريم شارة شرف و عز و وقار دائم ، فالحب الإلهي بالنسبة للداعية هو الطاقة الدافعة ، و تبع السعادة الغامرة و الرجاء الذي لا ينقطع له مدد ولا يتوقف له عطاء .

(٢) - إصلاح النفس : يعتقد الشيخ الغزالي بأن تركية النفس و إصلاحها أمر مطلوب لكل مسلم ، و لكن الداعية أولى بذلك من غيره ، فإن نوازع هذه النفس و مآربها ليس لها نهاية ، و كثيراً ما تنزع النفس البشرية بصاحبها باتجاه الشر و اقتتاف ما نهى الله عنه ، و من ثمة فإن الحاجة إلى تتبع النفس بالإصلاح و التزكية المستمرة و حملها بشتى الأساليب و المنازع على التزام الجادة ضرورة لا مندوحة

(١) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ، ص ١٩٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩١

(٣) محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن (مصدر سابق) ، ص ٢١٤

عنها ولا مهرب منها لا سيما بالنسبة للداعية ، و يرى الشيخ الغزالي أنه بقدر رغبة الداعية في ترشيد حياة الناس و التصدي لحل مشكلاتهم و تقريبهم من منهج الله ، بقدر ما تزيد مسؤولية رعايته لنفسه و تركيتها ، و الداعية في وظيفته النبيلة مع الناس إنما يفعل ذلك على ضوء من علاجه و إصلاحه لنفسه هو ، فإذا أراد على سبيل المثال معالجة العامة فيما يتعلق برذيلة البخل ، فإنه ينبغي عليه أن يعالج أولاً شح نفسه ، و أن يتعرف إلى المراتب التي تدرج فيها و الوسائل و الأدوات التي استعان بها في تجربته الخاصة و هو يستأصل من نفسه هذا المنزع الذي لا يناسب الروح المؤمنة الشفافة ، فإذا عرف الداعية عن دراية و خبرة ما صنعه بنفسه ، فإنه لا محالة سوف يعرف المداخل الصحيحة لمعالجة نفوس و أرواح الآخرين و التمكن من مداواة العلل الكامنة فيها (١) .

و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن التماطل في هذا الجانب و التقصير في متطلباته يسوق حتماً إلى انفصام خطير في شخصية الداعية ، و هذا الانفصام له من الآثار و النتائج السلبية ما يكفي لتزهد الناس في الدعوة و الصبر على الاستقامة ، لذلك فإن الغزالي يعتقد من منطلق الخبر بهذا الميدان أن " من أعجب النقائص في دين الله و دنيا الناس أن هناك نفراً ممن يتسمون بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من علم إنما هو أمر يخص المخاطبين فحسب و قد يعني الناس أجمعين إلا إياهم ! إنهم نقله فحسب ، إنهم (أشرطة مسجلة) أو (اسطوانات معبأة) تدور بعض الوقت ليستمع الناس إليها وهي تهرف بما لاتعرف ، ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى إذا احتيج إليها ، إن هذا الجماد الذي أنطقه الذكاء الإنساني هو صورة للجماد الذي أنطقه الإنحراف .. إن الدعاة الذين يحيون على ذلك النحو المتناقض هم أفة الإيمان ، وسقام الحياة ، وهم الثقل الذي يهوي بالمثل العليا و يمرغها في الوحل " (٢) .

والحل العتيد لهذا الفصام - برأي الشيخ الغزالي - كي يتوقى الداعية بلوغ هذه الصورة السلبية القائمة ، أن يكون إصلاح النفس في مسار الداعية برنامجاً قاراً طوال أيام عمره ، فإن الكثير من الطباع الكامنة والمستترة في النفس البشرية تستدعي اليقظة الدائمة و الوعي المتواصل .. و بديهياً أن هذه العناصر من اليقظة و الوعي و غيرها ما ينبغي أن تشمل من ذكبان الداعية نفسه و عقله و سلوكه ، فمخالطة الناس لوقت طويل وفي ظروف و حالات متباينة و متناقضة ليس بالأمر الهين ولا السهل ، فإن تلك المخالطة و المعاشة إذا استطالت قد يتسرب منها لكيان الداعية بعض النقائص أو بعض الاهتزازات و العلل النفسية ، فضلاً عن تسرب روح الملل و الضعف و البرود أو عدم الفعالية ، و من ثمة فإن تعهد الداعية روحه و عقله و سلوكه بالرعاية الدائمة و الإصلاح المستمر أمر في غاية الأهمية ، بل شرط من شروط مواصلة الطريق و تحمل تكاليف و أعباء هذه الرسالة الثقيلة للجيلة .

(١) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ، ص ١٩٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) دقة الفهم للدين والفقہ بالواقع : لايعتبر الشيخ الغزالي الشخص الداعية صادقا في دسواه إن لم يكن جادا في بذل الجهد المطلوب و المثابرة الواجبة لفهم حقيقة الدين و جوهره و استيعاب نصوصه و مقاصده على الوجه المرتجى ، و يرتبط بذلك أيضا فهم المحيط و الواقع و فقه أحوال المدعوين و أنماط المتغيرات و المستجدات في حياتهم و واقعهم ، فإن المداخل الصحيحة للتغيير و التأثير لا تدرك إلا بدراسة مشكلات الناس و الإسهام المخلص في حل بعض جوانبها ، و إظهار الداعية همة مشاركة المدعوين همومهم و أعباء ما يعانون من ظروف الحياة و أفعالها ، و ذلك بقصد صادق و عزيمة قوية ، كي لا يشعر هؤلاء المدعوون بتكلف أو بقلّة صدق في سلوك الداعية .

و من غير شك أن هذه الوظيفة الرسالية تتطلب مؤهلات عدة بعضها من صميم التركيب النفسي و الذهني للداعية ، و بعضها الآخر يكتسب بالمران و الرغبة الصادقة في حب الهداية للناس و انتفاعهم بصراط الله المستقيم ، و وفق هذه الرؤية فإن الداعية الذابہ الحصيف -كما يرى الشيخ الغزالي- رجل يشخص الأدواء و العلل ثم يضع لها الدواء المناسب من المظان المعصومة " و بذلك يجيء نصحه طبا للمريض و رحمة تذهب عناءه و نورا يهديه السبيل و القدرة على هذا الأسلوب لا يلقاها إلا من استجمع ثروة طائلة من نصوص الكتاب و السنة تكون رصيذا عنده لأي داء و افد أو مرض عارض ، و إحاطة تامة بطبيعة البيئة ، و أحوالها الجلية و الخفية و ظروفها القريبة و البعيدة .. فإن الداعية الحكيم هو الذي يبلغ رسالته بتلك الطريقة ، فيسوق من الحق الإلهي ما يقوم العوج الإنساني بلباقة و فقه ، و يرسل من العظات ما يكون دواء حاسما لما يحسه الناس في أنفسهم من حيرة و اضطراب " (١) .

و نرى الشيخ الغزالي يستخلص هذه الرؤية -فضلا عن تجربته الخاصة- من سيرة سيدنا داود عليه الصلاة و السلام الذي جعل العبادة سبيلا للعمل و الإنتاج و الإبداع ، حتى لانت له صناعة الحديد ، و عد الله ذلك من أنعمه و آلائه عليه " وقرن نعمة هذا الإلهام الفني الرائع بنعمة التوفيق إلى العبادة الخاصة .. تلك العبادة التي أطلقت لسان داود بآيات التسييح نغما حلوا تردد صداه الجبال و تشارك في ترجيعه الطير (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوتبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد و اعملوا صالحا) (٢) ، في هذا الجو الطهور من الإخلاص لله و شكر آلائه كانت المطارق تدوي و المسابك تصوغ و الأفران تصهر ... أما اليوم فأمارات الصلاح المكذوب و التقوى المصطنعة أن ترى رجالا يمشون رويدا و يكثرن لغوا و يأكلون سحتا ، و يعيشون في جو من الهمهمة و الشعوذة لا عمل فيه و لا كفاح و لا تكسب !! و ربما وقر في نفوس هؤلاء البطالين أن أعمال الحداثة و النجارة و البناء و رعاية الغنم و أمثالها ، ليس مما يليق بالنبلاء و أشراف الناس أن يتكسبوا به ، و لا غرو فمن أين لهؤلاء منطلق النبوة العالية و الرجولة الصحيحة و هم عاطلون قاعدون ؟ (٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٥

(٢) سورة سبأ آية : ١٠ - ١١

(٣) محمد الغزالي ، الإسلام و المناهج الاشتراكية (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط٤ ، ١٩٦٠ م) ، ص ٨٨

إن فهم الشيخ الغزالي يتجه إلى كون استيعاب الواقع و تكوين صورة صحيحة عن ظروف الناس و واقع الحياة هو الموقف الأدنى إلى الفطرة في التعامل و إلى مسالك الأنبياء و الرسل إزاء البيئات و الأحوال و الوقائع التي عايشوها وسط الأقوام الذين بعثوا فيهم ... و من هذا المنطلق ذاته فإن الغزالي يلح على الداعية أن يستشف و يتمثل هذا المسلك من واقع الاقتداء بتلك الكوكبة المصطفاة من عباد الله حتى يستطيع تحقيق نجاحات و مكاسب لدعوته .. فمما لا شك فيه أن الداعية الناجح هو من يجمع في عبقريته بين معالجة أسقام الأرواح و النفوس و الأفكار و بين توجيه الناس إلى إعمار الأرض و صناعة الحياة الكريمة الصالحة وفق مقتضيات و أبعاد رسالة الاستخلاف عن الله في أرضه و ملكوته .. و وفق هذا النسق البديع كما تمثله سيدنا داود و إخوانه الأنبياء و رسخه بقوة و حيوية أمير الأنبياء و خاتمهم محمد -صلى الله عليه و سلم- في سيرته و منهجه ، و استوحى ذلك منه الرهط الأول الكريم من جيل الصحابة و التابعين و الفاتحين ... وفق ذلك وحده يتأسس المنهج الصحيح الواقعي لهذه الدعوة .

(٤) - الإخلاص للفكرة و المبدأ : إن الإخلاص الكامل للمبدأ هو سر نجاح و تألق الدعوات والاتجاهات والمناهج ، لأن الكلمة الحية هي تلك التي اقتات قلب إنسان وانبثقت من صلة هذا القلب بالنبي الخالد ، فتبناها الآخرون لنبضها بالحياة و الحركة و الفعل ، و الإسلام يرقب بعناية هائلة ما يخالط أعمال الناس من مقاصد و ما يشوبها من انفعالات و منازع ، و ذلك لأن " صلاح النية و إخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت فيجعلانه عبادة متقبلة، و لأن خبث الطوية يهبط بالطاعات المحضنة فيقلبها معاصي شائنة فلاينال المرء منها، بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسار " (١) .

و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن الداعية بحكم وظيفته و طبيعة الرسالة التي يقوم عليها ، مطلوب منه أكثر من غيره التجرد لله في مناشطه جميعا ، فإن اشتباكه المتواصل مع أحوال الناس و رضاهم و سخطهم و قوتهم و ضعفهم يفرض عليه أن يكون أكثر حرصا على استدامة ذكر الله و مطالعة وجهه و رعاية حقوقه ، حتى لا يضل الغاية و لا يحيد عن النهج في زحام الحياة ... فإن التدين الذي تكثفه الأهواء و المنازح المنحرفة ضرب من العوج النفسي و الالتواء الخلقي و السلوكي يثير التقزز و يستدعي اللوعة ، و يجعل صاحبه مظنة كل النقائص المحبطة للفضائل العليا ، ففي هذا المجال لا يرتفع عمل أبدا ما لم تصحبه نية صالحة و ما لم يقترن بإرادة وجه الله تعالى وحده ، و لا بد أن يكون الداعية على بصيرة كاملة لا خلل فيها إزاء هذا الأمر (٢) .

(١) محمد الغزالي ، خلق المسلم (الجزائر ، مكتبة رحاب ، ط١٥ ، ١٩٨٧ م) ، ص ٦٨

(٢) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ، ص ٢٠١ - ٢٠٢

كما يشدد الشيخ الغزالي على هذه الصفة و على ضرورتها الاكدة في حياة الداعية و هو ينجز أهداف و غايات الرسالة المنتسب إليها ، و يرى الشيخ بأن الداعية المزاني يقترف جريمة مزدوجة ، فضلا عن أنه في جبين الدين سبة متقلبة و آفة جائحة ، و أن تفهقر الأديان في حلبة الحياة راجع بنسبة معتبرة إلى مسالك هؤلاء الأذعياء ؛ و يستشهد الغزالي على ذلك بقصة إمام مسجد بإحدى القرى بالريف المصري ، فقد كان من عادة هذا الإمام أن يصلي المغرب بأيتين من أواخر السور ، فاذا حضر العمدة الصلاة ، كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهريتين !! (١) .

إن دفع الرياء و التخلص من شوائبه في نفس الداعية و التجرد لله في شتى الأعمال هو - كما يلاحظ الشيخ الغزالي - مسلك دونه مجاهدات متواصلة و عزائم راسخة ، و قد كان الرعيل الأول لهذه الأمة على هذا النحو من الأدب العالي مع الله ... فعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذًا عند قبر رسول الله -صلى الله عليه و سلم- يبكي ، فقال له: ما يبكيك؟ قال معاذ: حديث سمعته من رسول الله -صلى الله عليه و سلم- يقول فيه: (ليسير من الرياء شرك ، و من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا و إن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل مظلمة) (٢) ؛ و شيء آخر لابد من ذكره وهو أن الداعية بقدر ما يخلص عمله و جهده لله بقدر ما يحقق لدعوته من نجاح و تألق و كسب ، فضلا عن السعادة التي يستشعرها بين جوانحه بإخلاصه لله و حبه و دعوته لعقيدته ، و تطلعه المستديم لتحصيل الرضوان الأعلى في الدنيا و الآخرة ، إن نعمة الإخلاص في مجال التعامل مع الله و دينه الحق لا يصح مطلقا أن تضاهى بنعمة أخرى لذلك يجب على الداعية أن يرعى ربه أولا و أن يمحص أعماله و يغلغل فكره في بواعثها الحقيقية ، فإن هذه المراجعة بالغة الأهمية سواء على مستواه الخاص أو على مستوى تفعيل دعوته و إثمار مغارسها .

(٥) - الشجاعة و الثبات على الحق : إن التجربة العميقة في ميدان الدعوة دفعت الشيخ الغزالي إلى الاعتقاد بأن الإسلام يمقت الجبن و الخوف و التردد و يمجّد الشجاعة و العزم و الإقدام ، و علة ذلك كما يرى أن الرسائل العظيمة و المبادئ المتألقة لا ينتصر لها ولا يزيدها وضوحا و ألفا و إغراء باعتناقها ، إلا ذوو الشجاعة و العزم من الناس ، أما الجبن فهو مسلك يذوي بالمبادئ و يذفن الحق تحت الثرى كما يمكن للظلم و ما يستتبعه من مآرب خسيصة و نزوات دنيا و هبوط إنساني ، لذلك فإن الشيخ الغزالي يلزم الداعية بالإيمان الصحيح و التحصن بأسبابه ، لأنه أقوى عامل في بناء الكيان الشجاع و النفسية الواثقة المطمئنة .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢

(٢) رواه ابن ماجة و الحاكم و البيهقي في كتاب الزهد ، وقال الحاكم : صحيح لا علة فيه .

و الشيخ الغزالي حين يركز على عامل الإيمان الصحيح و دواعي الثبات على الحق و المبدأ بالنسبة لشخصية الداعية ، فهو توجه مبرر بالنظر إلى طبيعة الصراع و التدافع التي توتر واقع الحياة ، فتضحى " البواعث الضعيفة لليقين لا تجدي شيئاً أمام عصف النزوات المجتاحة ، و إذا لم يفلح الإيمان في تكوين أسس للخير قوية للتيار غلبة النفوذ شديدة النفاذ ، فهو لن يكسب في ميدان الحياة معركة ... و إذا لم يكن الصالحون من وضوح النية و روعة السلوك و تألق السيرة على النحو المعجب البارز فهيهات أن يفوز بهم مبدأ أو تتجح بهم فضيلة أو تخذل أمامهم رذيلة . يجب - لكي ينتصر الطهر في هذه الحياة - أن يكون في نفوس أصحابه أبرز من العهر في سيرة العاهرين ، و لكي تسود العدالة في الأرض يجب أن يتعلّق بها سدنيتها تعلّقاً أشد من انتهاء الظلمة لظلمهم ، و إذا كانت هناك نفوس ضريت على العسف و توحشت به في أعمالها حتى لكأنها سباع مفترسة فما يغني في صدها أن تلقاها في زحام الحياة مقاومة مستأنسة أو برائن من حرير !! إن طبيعة الشر عنف المصدر و حدة المسير ... و مقتضى ذلك أن يكون الإيمان قادراً على الظهور ، قادراً على الحركة ، قادراً على المقاومة ، شجاعاً في تصرفاته جميعاً ، و من أجل ذلك كانت الشجاعة خلقاً أصيلاً في الداعية إلى الله ، و شيمة لا تتفك عنه و هو يتقلب بين الناس (١) " .

و يذهب الشيخ الغزالي إلى ضرورة أن يتّصف الداعية بسمّة الشجاعة و العزم و الثبات على ما يمثّل به من حق و مثل و مبادئ ، وهو في ذلك يستمد قوته من الله و من شدة إيمانه بعقيدته و اتجاهه ، فإن الداعية إذا لم يكن شجاعاً مطيقاً لأعباء رسالته ، فخير له - كما يرى الغزالي - أن ينسحب من هذا الميدان ، و ألا يفضح الإسلام بتكلف ما لا يحسن من شؤونه و مقتضياته ؛ و الحقيقة أنه ليس أمام الداعية خيارات كثيرة فهو إما ارتفع إلى مستوى مستلزمات إنجاح دعوته و إغزاز ما يدعو إليه من قيم و مبادئ ، و إما حكم على نفسه بأنه لا يصلح لميدان الدعوة ... لذلك فإننا نجد الشيخ الغزالي الذي يشبه الدعاة في دفاعهم عن الإيمان بالجيش الموكل بحراسة الأمن ، ينتقد بشدة الدعاة المتخاذلين عن نصرته الحق و الدفاع عن الثغور التي يقومون عليها ، و العجب العاجب عنده " أن الجند المكلفين بحراسة الأمن قد يفقد بعضهم روحه و هو يطارد لصاً أو يصاب بعاهة مؤلمة و هو يؤدي واجبه ، ذاك فضلاً عن السهر المستديم و الجهد الموصول ؛ أما جند الدعوة من أئمة و وعاظ و مرشدين فكأنما أخذوا عهداً على الدهر ألا يمسه سوء ، فهم يسمنون و الدين ينحف ، و يراحون و الدين مكدود ، و يعيشون متخاذلين على حين يتساند جيش الشيطان لبلوغ هدفه و إدراك أمله ... " (٢) .

(٦) - الاستبحار العلمي و الثقافي : يتسم واقع الحياة المعاصرة بتراكم المعرفة الإنسانية الموروثة عبر رحلة قرون طويلة مطبوعة بزخم هائل و متنوع من التجارب و المسالك المختلفة ، و التي هي في واقع

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١١

الأمر تمثل جانبا رئيسا من حصيلة كدح البشرية في سبيل الترقية و التغيير و التنمية و بلوغ المستوى الفطري الطبيعي لإنسانية الإنسان ... و الشيخ الغزالي يعتقد بأن الواقع الإنساني المعاصر على صعيد الفكر و الثقافة و الفتوحات و الكشوفات العلمية قد بلغ شأوا بعيدا ، و نتج عن ذلك أمور عديدة منها اقتراب منابع الثقافة و الاتجاهات الفكرية من بعضها البعض ، و منها التعرف بدقة على أبرز معالم و قسما و مقومات الهويات الحضارية و المذهبية للمجموعات و التكتلات البشرية ... و كل هذه الحقائق و المسلمات تقتضي من الداعية أن يكون في مستوى العصر ، كي يجعل دعوته ليست غريبة عن العصر و لا عن المنطق و المعايير السائدة بين الناس ، و حتى يتوفر على المداخل المناسبة لشرح فكرته و تصوير الأهداف التي يروم تحقيقها .

و في يقين الشيخ الغزالي أن الاستبحار العلمي و الفكري و الثقافي المطلوب بقوة و إلحاح للداعية يركز بشكل أساس على القواعد المعرفية الآتية (١) :

- أ- المعرفة الحسنة بعلوم الكتاب و السنة و كل مصادر الاستنباط في الإسلام .
- ب- الاطلاع على التاريخ الإسلامي و الإنساني .
- ج- دراسة اتجاهات علم النفس و فروعه المتعددة .
- د- الاطلاع على علوم الكون و الجغرافيا و الحياة .
- هـ- التعرف الواعي على شتى المذاهب الفلسفية و العقلية و التأملية .
- و- الإلمام بعلوم اللغة و الأدب العربي .

إن الشيخ الغزالي كداعية خبير بالعصر و بطبيعة الصراع الدائر في مسرح الحياة و الواقع الإنساني المعاصر و بمتطلبات الدعوة في الوقت الراهن لا يبدي أي تساهل إزاء المكونات العلمية و الثقافية للداعية ، بل نراه ينتقد بعنفوان بعض المتصددين للدعوة و المتحدثين في شؤون الإسلام دون حصيلة علمية شرعية و مؤهلات معرفية مقبولة ، و دون معرفة بالعصر أيضا و الاهتمامات الغالبة على الإنسانية فيقول : " إن ناسا يدعون الجهاد و الإحباد و عقولهم كلية لا تكاد ترى شيئا من آيات الله في الأنفس و الآفاق و لا تحركها همة عالية لإدراك ما بلغته الإنسانية من ارتقاء ... و إذا كان السباق العسكري بين العمالقة يثير النزاع حول مشروعية حرب الكواكب فإن هؤلاء الناس يسمعون تلك الأنباء و كأنما ينادون من مكان بعيد و لا تزال عقولهم منكورة لأولويات علم الجغرافيا و لبيدات شتى في الفيزياء و الكيمياء ... الشيء الذي يتحدثون فيه بحرارة هو الإسلام المظلوم من خلال أفهام لا يساندها وعي أو ذكاء أو تجربة ؛ ألافيلهم هؤلاء أنه إذا مات العقل مات الدين و إذا اضمحلت المعرفة الإنسانية لم يغن عنها توسع في مرويات معطوبة و أفكار مقلوبة (٢) " .

(١) المصدر نفسه ، من ص ٢١٩ إلى ص ٢٢٦

(٢) محمد الغزالي " هل يرتفع المسلمون إلى مستوى دينهم " مجلة المنهل السعودية العدد: ٤٤٩-الربيعان ١٤٠٧ هـ/نوفمبر وديسمبر

(٧) - النقد الذاتي و المراجعة المستمرة : و من أهم مواصفات الداعية الناجح في رأي الشيخ الغزالي ممارسة النقد الذاتي و المراجعة الدائمة للإنجازات و الاجتهادات و الأعمال التي يشرف عليها و يتابع نتائجها ، و للتدليل على أهمية هذا الشأن بالنسبة للداعية ينعي الغزالي على بعض الدعاة الذين بدل أن يشتغلوا بإيجاد و تقديم حلول إسلامية للمشكلات و المعضلات الراهنة في المجالات المختلفة ، أعلنوا الحرب على بعض الفرق الإسلامية القديمة كالجهمية و المعتزلة و الأشاعرة ونحوهم ، و هم بهذا السلوك -كما يرى الشيخ- قد يحرزون نصرا في ميدان لا عدو فيه أصلا ، إنه مثل النصر على الأشباح غنيمته الوسوس و الأوهام (١) .

و من ثمة فإن الشيخ الغزالي يعتقد بأن الدعاة الذين لا يراجعون طروحاتهم و معلوماتهم و لا يمارسون النقد الذاتي بمنهجية واعية يقعون في أخطاء قاتلة و انحرافات جسيمة على مستويين على الأقل:

أ- مستوى التنظير و التفكير : و عن هذا المستوى يقدم الشيخ الغزالي جملة ملاحظات و نماذج من الأخطاء التي وقع فيها بعض الدعاة ممن لم يعملوا بالنقد الذاتي و المراجعة الدائمة لحصائلهم المعرفية و العلمية ، فيقول : " في تطوافي بالعالم الإسلامي رأيت ناسا يتحدثون عن الإسلام حديثا تأباه الفطرة و يمجه العقل ، إذا كان العقلاء يتعشقون الحرية فهم يتعشقون القيود ، و إذا كان العقلاء يؤثرون السهولة و المياسرة فهم يؤثرون التعقيد و المعاصرة ، و مهمتهم بعد هذا الطبع المريض أن يتأولوا النصوص أو يصطادوا من الشواهد النادرة ما يؤيد نظرتهم و يرجح كفتهم .. قال أحدهم - و هو يشتغل بعلم الحديث- إن إلغاء الرق ليس من الإسلام ، قلت له : أفنك أنك اشتغلت بالأحاديث قبل أن توثق صلتك بالقرآن الكريم ، فلم تتكون لديك الحصيلة العلمية التي تعينك على ضبط الأحكام ، و استقلت : إن تحرير العبيد لا تقوم به دولة واحدة ما دام القتال يسود الأرض و ما دام الأسرى يسرقون ، فإذا اتفقت الدول على ميثاق لتكريم الأسرى و منع استرقاقهم فهل نحن المسلمون نرفض ذلك ؟ و ليس في كتابنا أمر باسترقاق ، و إنما فيه أوامر بالإعتاق ، هل إشاعة الاسترقاق هدف إسلامي ؟ ما قال ذلك أحد (٢) " .

ثم يواصل الغزالي عرض ملاحظاته المنهجية و النقدية في السياق نفسه قائلا : " و قال أحدهم - و هو يشتغل بالفقه- يجوز للقرشي أن يتزوج من يشاء من العرب أو العجم ، أما القرشية فلا بد من مراعاة الكفاءة في النسب ، قلت له : إن البيوت مغلقة على عوانس بائسات محرومات من الزواج فهل هذا الكلام يحل مشكلاتهن ؟ إن هناك أقطارا واسعة في العالم الإسلامي تشقى فيها النساء لأن التقاليد جعلت دما دون دم و أبا دون أب فهذا إسلام ؟ و لا أريد المضي في سوق الأمثال ، و إنما أذكر الشارة العامة عند هؤلاء المتحدثين الخطرين على الإسلام و دعوته . إن العقل عند هؤلاء متهم حتى تثبت براءته ،

(١) محمد الغزالي ، هموم داعية (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ١٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣١

و القياس الصريح مؤخر عن الأثر الضعيف و المصالح المرسنة مذهب مردود على أصحابه ، و السيف لا الإقناع أساس نشر الدعوة ! و ملابس البادية أمارة على التقوى أما الأزياء الأخرى فإن لم تدل على التحلل فهي موضع ريبة ، و عدم البصر لا غض البصر أساس العلاقة بين الجنسين ! و قلما يعرف هؤلاء شيئا عن ضوابط الحكومة العادلة ، و لو سألتهم لعادوا يبحثون في التاريخ عن أساليب الحكم في الكوفة أو بلخ ليعطوا صورة شرعية للحكم المطلوب ! ! إنني أصادف هذه المناظر المؤذية في طريق الدعوة فأشعر بالنكد ، و آخر ما لقيت من هؤلاء شاب يقول لي : أليس في الإلتحاق بالجيش شيء من الوثنية ؟ قلت : و يحك كيف ! ! قال -فض الله فاه- إنهم يحيون العلم كل يوم و هذه وثنية ! ! (١) .

ب - مستوى الممارسة و الحركة : كما تنتج أخطاء فادحة لدى الدعاة الذين لا يمارسون النقد الذاتي و المراجعة الدائمة لأفكارهم و معارفهم ، على صعيد التنظير و التفكير ، فإن أخطاء جسيمة أخرى تنتج أيضا بسبب ذلك على صعيد الممارسة و الحركة و الفعل ، و الشيخ الغزالي لا يفصل بين المسويين ، فكلاهما وزر يبوء بحمله الدعاة المقصرون، وكلاهما عوانق و أذواء تسهم في الصد عن الدعوة إلى الله . و عن الأخطاء و الانحرافات التي تظهر على مستوى الممارسة و الحركة يقول الشيخ الغزالي تحت عنوان (الحطيئة حين يشتغل بالدعوة إلى الله) محذرا من مخاطر هذه السلوكيات المرضية : " الناس أنواع فيهم من يحمل بين جنبه طبيعة الحمل الوداع أو الثعلب الماكر أو الأسد الهائج أو الجمل المنقاد ، و لا حيلة لنا في تغيير الطباع المركوزة ، و ما نحاول شيئا يعز على أساطين المرابين ، إلا أننا نقترح أن تسند الأعمال إلى أصحابها في هذه الحياة على ما يلائم شتى الأمزجة ، فلا تسند شؤون القتال إلا إلى الرجال الأسود ... و ربما صح أن يعمل في ميدان السياسة رجال لهم ختل الثعالب ، أما الدين فأحق من يشتغل به رجال لهم صفاء الملاء الأعلى و خلوصهم من الشوائب و الدنيايا . و الداهية الدهياء أن يقف في محاريب الدين رجال من ... من شكل الحطيئة و أن يتكلم بلسانه صنف من البشر إذا وقع الإنسان لسوء الحظ بينهم فكما يقع الطارق الغريب أمام بيت لا أنيس فيه ، ما أن يقرع الباب حتى يقضم رجله كلب عقور ؛ رأيت طائفة من حزب الحطيئة هذا يزعمون أنهم دعاء إلى الله (و لو نشاء لأريضاكم فلعرفتهم بسميهم و لتعرفنهم في لحن القول) (٢) أولئك قوم يتمنون وقوع الخطأ من الناس ، حتى إذا زلت أقدامهم وثبوا على المخطيء ، وظاهر أمرهم الغضب لحدود الله ، أما باطنه فالتفيس عن رغبات الوحش الكامن في دمانهم يريد أن ينبح المارة ويمزق أديمهم ، علامة هؤلاء أن يضخموا التوافه ويتاجروا بالخلافات ويتلمسوا للأبرياء العيوب ! (٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٢

(٢) سورة محمد (صلى الله عليه وسلم) آية : ٣٠

(٣) محمد الغزالي ، تأملات في الدين والحياة (الاسكندرية : دار الدعوة ، ط٢، ١٩٩٢ م) ، ص ١٨٧ - ١٨٨

إن تركيز الشيخ الغزالي واحتفاءه بصفة النقد الذاتي والمراجعة الدائمة في حياة الداعية وتجربته له مبرراته العلمية والمنطقية ، كما يعكس في الوقت ذاته مدى أهمية ونجاعة فكر الغزالي بالنسبة للدعاة وحركات الإصلاح والتغيير في العالم الإسلامي ، وعلة هذا الاستنتاج تكمن في كون " مشروعات النهوض الحضاري تستدعي إلى جانب مواصلة تنفيذ مراحل المشروع وتبصر واقعه واستشراف مستقبله: مراجعات مستمرة وتقويمات متواصلة وتعديلات مطردة ، على المستويين النظري والعملي ، ذلك أن الإسقاط الفعلي للأفكار والنصوص على الأحداث والواقع غير منضبط بآلية واحدة من المعيارية ، لاختلاف في حالات ونماذج وظروف التطبيق ، وكذلك لتعدد الفهوم والرؤى للفكرة الواحدة وللنص الواحد . دون إغفال الأثر الذي يتركه تعاقب المراحل بالنسبة لمشروع نهوض حضاري ما ، والمشروع الحضاري الإسلامي المعاصر بحاجة ماسة لمراجعات شاملة وعلى كل الجبهات والساحات الفكرية منها والثقافية والدعوية والاستراتيجية... إلخ، إذ إن عملية إعادة النظر والمراجعة للقول والفعل، للنظري والتطبيقي تأكدت جدواها وأهميتها، بل ضرورتها لمشروعات النهوض والتغيير لدرجة لا ترقى لشك أو ظن وتخمين (١) .

(٨) الإهتمام بأوضاع المسلمين : الذي يظهر جلياً أن الشيخ الغزالي من خلال مواقفه ونتائجه الفكري لا يستطيع هضم عدم اهتمام الداعية المسلم بشؤون المسلمين وأوضاعهم في كل مكان من المعمورة ، وكثيراً ما سمعت الغزالي يذكر بتأثر موقف والده الشيخ محمد رشيد رضا التي كانت تسأله حين يصبح عابساً أو شارد الذهن قائلة له : ماذا حدث لك هل أصيب مسلم في الصين ؟ يقول الغزالي لأن الشيخ رشيداً كان معنياً بأوضاع المسلمين في أي مكان ، فالداعية الحق في رأي الشيخ الغزالي يستحيل أن يعيش في غيبوبة عما يحدث للمسلمين ، والفواصل الجغرافية وتباني الديار لا يجوز أن تكون له عذراً في تقصيره وتفريطه في هذا الواجب المقدس الثابت بأدلة قطعية (*) .

و إذا كان الشيخ الغزالي يلزم كل داعية إلى الإسلام بأن يجعل الإهتمام بأوضاع وأحوال المسلمين من صميم برنامجه الثابت الذي لا يتأثر بالنوازل والمتغيرات ، فأنا أعتقد بأن الغزالي نفسه يمثل خير نموذج في هذه الصفة المطلوبة للداعية ، فإن عين الشيخ مفتوحة على كل شؤون المسلمين وعلى ما يعانون منه سواء في أوطانهم الأصلية أو كأقليات تعيش في أقطار أخرى ، وقلبه الحي مرصد دقيق لمراقبة ما يحدث في دنيا المسلمين .. وفي بعض كتب الغزالي تقارير غزيرة المعلومات عن معاناة المسلمين في بعض الأقطار الضائقة بهم بفعل تحرشات حاكمة وتدابير مأكرة ، ففي كتابه (كفاح دين) أثبت الشيخ الغزالي تقريراً عن المسلمين في الحبشة وتتبع بألم البواعث الصليبية المتربصة بالإسلام في هذه البلاد ، وفي كتابه (قذائف الحق) نجد تقريراً آخر عن أوضاع المسلمين في كل من أندونيسيا (١) إبراهيم نويري " ضرورة مراجعة مصطلحات الخطاب الإسلامي المعاصر" مجلة الحرس الوطني السعودية ، العدد ١١٠ (ربيع الآخر ١٤١٢ هـ / أكتوبر ١٩٩١ م) ، ص ٢٨ - لزيادة الفائدة يحسن هنا مراجعة فصل : لماذا النقد الذاتي من كتاب (في النقد الذاتي) (خالص جلي ، في النقد الذاتي (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط٤ ، ١٩٨٧ م) ، من ص ٤٥ إلى ص ١٥٢

(*) فضلاً عن آيات المناصرة والولاء لأهل الإيمان فقد وردت في السنة المطهرة عدة أحاديث شريفة في الحث على اهتمام المسلم بإخوانه في أي مكان وضرورة الاكتراث بشؤونهم العامة .

وقبرص وكوريا ، كما تحدث الشيخ عن حال المسلمين ومعاناتهم البائسة في الغليين في مؤلفه (علل وأدوية) وكذلك في كتابه (الاستعمار أحقاد وأحداغ) أثبت الشيخ تقريراً آخر ميدانياً عن أوضاع الإسلام والمسلمين في عدة مناطق من شرق إفريقيا ووسطها ، ولايكاد مؤلف من مؤلفات الغزالي يخلو من حديث أو اهتمام بشكل ما بأوضاع المسلمين هنا أو هناك ، ولم أر هذا المنهج أو الأسلوب عند غيره من كتاب الدعوة والمفكرين الإسلاميين المعاصرين .

وقد بقي الشيخ الغزالي حتى السنوات الأخيرة من عمره يحمل هذه الروح المتقدة كما سجل ذلك في كتاباته المتأخرة مصوراً همومه وأحزانه على أحوال المسلمين المستضعفين ، وعن زيارته للمسلمين في البوسنة والهرسك يقول معبراً عن بعض تلك المشاعر " كنت كسير النفس وأنا منطلق من معجبي من (زغرب) إلى مخيمات اللاجئين من أهل البوسنة والهرسك ، إنني أحمل مقدارا من الآلام لا أحتاج معه إلى مزيد !! و لكن ما بد من هذه الزيارة حتى تشعر المسلمين هنا بأن وراءهم إخوة يدعمون جانبهم و يأسون لقضيتهم ... و مررنا في أول الطريق بميدان رحب يتوسطه مبنى فخم فقال السائق : هذا ميدان الجامع اقلت : فأين الجامع ؟ قال : كان هنا فهدم (تيتو) مآذنه الأربع و حول صحن المسجد إلى متحف هو ما نراه الآن ! و شعرت بضيق خائق و قلت و أنا أهمس : إن تيتو الذي منح نفسه لقب مارشال هو أحد زعماء عدم الإنحياز بين القوى العظمى ، و يظهر أن ضرب الإسلام من مظاهر عدم الإنحياز . فإني ما استعرضت تاريخ أحد من قادة هذه الحركة إلا رأيت موقفه من الإسلام بالغ السوء ... " (١) ؛ إن المهم هنا أن الشيخ الغزالي لا يتساهل و لا يتنازل للداعية عن صفة الاهتمام بأوضاع المسلمين و تتبع أفراسهم و أحزانتهم و جعل ذلك جزءاً من التحرك بالدعوة وفقه الحركة و البلاغ .

ثالثاً : ملاحظات عامة :

(١) - إن هذه المواصفات لا تمثل الحصيلة النهائية من المواصفات التي يرى الغزالي ضرورتها لشخص الداعية ، و لكنها أبرز و أهم ما وقفنا عليه في بعض كتابات الشيخ الغزالي ، و لا شك أن هناك مواصفات أخرى يعتقد الشيخ بجدواها ، ما يتطلب استخلاصها قراءات ضافية و صبر على البحث و التأمل و الاستنتاج .

(٢) - وردت عدة تفصيلات لبعض هذه المواصفات في كتابات و خطب و محاضرات و مذكرات الشيخ الغزالي ، وهو ما يعكس حرص الشيخ على صنع أجيال من الدعاة لها مؤهلات تشرف وتدعم الدعوة الإسلامية ، في وقت تهرجت فيه جميع الدعوات و تمكنت من استغلال الإمكانيات والقدرات المتاحة لبلوغ أهدافها (٢) .

(١) محمد الغزالي ، الحق المر ، ج ٤ (القاهرة : دار نهضة مصر ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م) ، ص ١٤ - في أجزاء كتاب الحق المر الستة يبدو اهتمام الغزالي بأوضاع المسلمين في كل مكان ، خاصة الأقليات المستضعفة أو المهجرة .

(٢) ومثال ذلك ماكتبه الشيخ في مقاله القصير (خصائص الداعية الناجح) في كتابه الحق المر (محمد الغزالي ، الحق المر ج ٣ القاهرة : مركز الإعلام العربي ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) ، ص ١٣٥

٣) - قوة إيمان الشيخ الغزالي وتحويله على الدعوة والدعاة لخروج الأمة الإسلامية مما هي فيه من هوان وضعف وتخلف ، وهو مايفرض على مؤسسات الأمة إيجاد الداعية المتجرد لدعوته الغيور على أمته ، الداعية الذي لايقبل أي مساومة على دعوته ، فهو يعيش لها أبدا ويحيا في سبيل نصرتها والتمكين لها في كل مضمار أو صعيد .

٤) - إن المتأمل في المواصفات السابقة ، والعارف بالشيخ الغزالي معرفة قرب ، يتبدى له جليا عمق تحقق الشيخ وتمثله لتلك المواصفات والخصائص ، أي أن شخصية الغزالي ذاتها خير مثال لنموذج الداعية الناجح ، والشواهد تتضافر وتتعاقد للدارس على أن الشيخ الغزالي كان داعية موفقا بكل مقاييس التوفيق والتألق والتميز .

٥) إن الدعوة إلى الله برأي الشيخ الغزالي يستحيل أن تكون بإتقان الأشكال والرسوم وتكلف بعض الأدوار ، بل لابد - كي تؤتي ثمارها - أن تستوفي الشروط والأركان ، وهو ما ينبغي أن يلم به الداعية وأن يتطلق من مسلماته وثوابته ، إذ بهذا الإدراك وحده يستطيع السير ومعرفة تفصيلات ومقتضيات السبيل التي اختارها وارتضاها .

٦) يتبدى من خلال حديث الشيخ الغزالي عن المواصفات الأساسية للداعية الناجح ، مدى رسوخ الشيخ في الدعوة وتضلعه في شؤونها وقضاياها ، كما يبين هذا الحديث في الوقت ذاته أن الدعوة الإسلامية تكتنف مسارها عوائق جمة وصعوبات كثيرة معقدة ، وأن الضمانة الصحيحة والطبيعة أيضا - كما يفهم من منهج الدعوة في القرآن - إنما هي إيجاد الداعية المخلص الكفاء البصير ، لاسيما في مرحلة تمتاز بالصراع الفكري الحاد الصارخ .. مرحلة مفتوحة على مستقبل إنساني قائم على الاستقطاب العقدي الإيديولوجي الحضاري ، ستكون فيه الدعوة إلى الدين والأوبة إلى الحياة الروحية ومعرفة أسواق الإنسان الفطرية الأصيلة ، من أهم وأبرز قسماته وخصائصه ومطالب إنسانيته .

أدوات ووسائل الدعوة في تجربته الدعوية

تمهيد :

لا يمكن لأي منهج من المناهج أو دعوة من الدعوات النهوض و استكمال أسباب النضج و الحيوية و التآلق إلا إذا أمكن الإستناد إلى أدوات و وسائل تؤدي مهمة الشرح و البيان و تركيز أسس و قواعد ذلك المنهج أو تلك الدعوة في الضمانر و الأنفس و العقول ، أي في السلوك النابض بالحياة و الواقع المتحرك و هذا أمر واضح بدهاءة فإن الرسائل و الدعوات لا تنتشر بين الناس بطرق وبائية و لا تستقيم في النفوس و الضمانر بأساليب سحرية ، و إنما ينبغي لها في ذلك حتما و إلزاما أن تقوم الوسيلة فيها مقام الوسطة النابهة - أي بين الرسالة و المتلقي - بحيث تبين المنطلقات و البواعث ، و تشرح المقاصد والأهداف و تزيل الشبهات و العوائق ، و ترد العوادي و الإساءات القائمة أو المحتملة ، و بذلك تتمكن الدعوة من الإنتصاب و التآلق على أرض الواقع بعد أن تتشربها الأرواح و تزكو بها الأفئدة ؛ و قد اعتمدت الدعوة الإسلامية عبر شتى مراحل تاريخها عدة وسائل و أدوات ، كذلك التي تمثلها رسول الله -صلى الله عليه و سلم- في حياته المباركة و تعامله الفذ مع الواقع الذي تفاعل معه و نقلاب بين جنباته ، و منها أيضا تلك التي انتهجها على أثر صاحب الرسالة العظمى الصحابة الكرام و أجيال التابعين ممن ساروا بهذه الدعوة أشواطا بعيدة الأماد في شتى أفاق المعمورة ، و عمقوا حياتها و وجودها إلى الأبد في مسار الإنسانية ، حتى باتت تمثل شعاع الحقيقة الأوحده و مصدر الهداية الفريد في هذه الدنيا .

و هذا المبحث لا يتعرض بالدراسة لوسائل و أدوات الدعوة بشكل مجرد ، و إنما هو يحاول الوقوف على أهمها أو أكثرها فعالية في فكر الشيخ الغزالي و منظوره الدعوي باعتباراه صاحب تجربة طويلة و ثرية في ساحات الدعوة إلى الإسلام ، و باعتباراه نموذجا للدعاة الذين نوعوا في أساليب البلاغ و أداء حق الشهادة و التمكين لرسالة الخلود .

أولا : خلفية اهتمام الغزالي بوسائل الدعوة :

يعزى أكثرات الشيخ الغزالي بأدوات و وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، في المقام الأول إلى طبيعة شخصيته كداعية ، عاش وقته كله لهذه الدعوة ، يفرح و يستبشر لصحتها و امتدادها و استقطابها للباحثين عن الحقيقة و المتعطشين للإستقامة و الهداية ، و يحزن و ينقبض إذا وضعت العوائق في طريقها ، و انحسرت فضاءات و إمكانات التمكين لها في دنيا الناس و جنبات الواقع الإنساني ، يقول الشيخ في انطباعه و شعوره العاطفي إزاء الصحوة المعاصرة : " قلبي مع شباب الصحوة الإسلامية الذين عملوا الكثير للإسلام ، و ينتظر منهم أن يعملوا الأكثر ، إنهم اشتبكوا مع الروس في أفغانستان فطلعوا عليهم بالردى و اضطروهم إلى الفرار ، و لا يزالون مشتبكين مع قلوب المرتدّين و الخونة ، و المعركة لا يؤذن ليها بصبح قريب ، و المعاناة مستمرة ، و قد اشتبكوا من قبل مع الفرنسيين في الجزائر ،

و كانت تضحياتهم سيلا موارا بالدماء و الأشلاء حتى تاذن الله بالفرج ، و انكسرت القيود ...
و عندما كانت معركة فلسطين إسلامية القيادة و الوجهة تضاعفت خسائر اليهود ، و اصطدمت أمانهم
بأسوار من حديد ، و لو ظلت المعركة على طبيعتها فترة أخرى لولى اليهود الأدبار و رجعوا من حيث
جاءوا إلى شرق أوروبا أو غربها (...) إن قلبي و لبي مع الصحوة الإسلامية التي تحاك لها المؤامرات
العالمية ، و يتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم و ألم بعد ألم (١) .

إن من يعلم بأن حياة الشيخ الغزالي قد ارتبطت بالدعوة إلى الإسلام منذ بداياتها الأولى ، وأن والده
- الشيخ التاجر أحمد السقا - قد وهبه للدعوة وخدمة دين الله تعالى ودعم الإيمان والحق ، يتأكد لديه يقينا
مدى رسوخ الشيخ في ميدان الدعوة وحدود تعلقه بساحاتها ورجالاتها ، ومستويات استيعابه لبرامجها
وأهدافها ومقاصدها الخاصة والعامة .. ومما لا ريب فيه أن حب الغزالي لهذه الدعوة ورغبته في إنجاح
قضاياها ، قد أكسبه معرفة وخبرة بالأدوات والوسائل الرئيسة التي تعتكز عليها الدعوة في عملية البلاغ
والتواصل والشهادة ، فالشيخ الغزالي - كما يصفه الشيخ يوسف القرضاوي - " هو رجل دعوة قبل كل
شيء ، رجل دعوة من الطراز الأول ، الدعوة إلى الإسلام لحمته وسداه ومصباحه وممساها ، وحلم ليله
وشغل نهاره ، عاش للدعوة .. ماضيه للدعوة ، حاضره للدعوة ، مستقبله للدعوة ، فحين يكتب ما يكتب أو يخطب
ما يخطب أو يدرس ما يدرس ، كله للدعوة ، إذا هاجم فللدعوة وإذا دافع فعن الدعوة ، وإذا انتقد فللدعوة " (٢) .
لقد مكنت تجربة الشيخ الغزالي الدعوية من تعامل الشيخ مع معظم وسائل وأدوات الدعوة ،
فاستطاع بذلك أن يستغل هذه الوسائل والوسائط بطريقة ذكية جديرة بأن يتأملها الدعاة وأن يستخلصوا منها
إيجابيات وفنيات التعامل والإقناع وأساليب الخطاب والتحرك بالدعوة ، وباتت جهود الشيخ كلها مرتبطة
بهذه الوسائل لا تتفك عنها أو تنفصم ، وقد ساعد الشيخ على عبقرية توظيف أدوات الدعوة القدرات
والمؤهلات المتميزة التي يندر أن تتجاوز ليتمم بعضها البعض الآخر ، في إهاب شخصية واحدة ، وهو
ما يعني لديّ دون ارتياب أن الأقدار العليا أفاعت على الشيخ الغزالي نعمًا ومزايا وخصائص تشير في
كيانه وسيرته إلى عظمة التكريم الإلهي لعباده الصالحين وأصفياه المقربين .

ثانيا : أهم وسائل الدعوة عند الغزالي :

استغل الشيخ الغزالي لدعوته معظم أو كل الأدوات و الوسائط الموطأة له ، و التي قدر جدواها
و أثرها في العملية الدعوية ، و لعله من المناسب هنا - أو هذا ما ظهر لنا فعلا - تقسيم وسائل و أدوات
الدعوة عند الغزالي إلى قسمين هما :

(أ) - قسم ذاتي : و هو يتعلق بشخصية الداعية نفسه ، و ببعض الخصائص و الجوانب النفسية
و الخلقية و العقلية و الذوقية في طبيعته الأصيلة و سمات كيانه الخاص ، و من أهم وسائل هذا القسم
ما يأتي :

(١) محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (مصدر سابق) ، ص ٧ - ٨

(٢) يوسف القرضاوي " للغزالي رجل الدعوة " ، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (مرجع سابق) ، ص ٢١٠

(١) - القدوة الحسنة : دأب المنطق الإنساني على عدم الفصل بين الداعية و بين الفكرة أو المنهج الذي يدعو إليه الناس ، و من ثمة فإن هذا المنطق المركوز لا ينقطع عن قاعدة ملاحظة و مقارنة البون و المساحة الممتدة بين قول الداعية و فعله ؛ و وفق هذا المنطق الحاسم فإن الداعية يضحي محكوما عليه إلزاما أن يكون مرآة لدعوته ، فهو يمثل دعوته مظهرا و مخبرا ، و في الفرح و الحزن ، و في الرضا و الغضب ، و فيما يسعده أو يكربه ، و كل هذا يقتضي منه أن يكون في مستوى متطلبات دعوته ، من هنا كانت القدوة الحسنة -كما يعتقد الشيخ الغزالي- ضرورة لا مندوحة عنها بالنسبة للداعية ، و الواقع أن القدوة في طبيعتها لا تحتاج إلى كثرة الكلام و إطالة موضوعات الحديث ، بقدر ما تحتاج إلى سيرة موفقة و إخلاص للمنهج ، أو بمعنى أكثر وضوحا " فإن الداعية الموفق الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله و إن لم ينطق بكلمة ، لأنه مثل حي متحرك للمبادئ التي يعتنقها ... و قد شكوا الناس في القديم و الحديث من دعاة يحسنون القول و يسيئون الفعل !! و الواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان و المذاهب منهم ، لأن تناقض فعلهم و قولهم أخطر شغب يمس قضايا الإيمان و يصيبها في الصميم . و لا يكفي -لكي يكون المرء قدوة- أن يتظاهر بانصالحات أو يتجمل للأعين الباحثة ... فإن التزوير لا يصلح في ذلك الميدان ، و لا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة و امتداد الزمن و تمحيص الأحداث و سرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية .. ذلك أن النفس المتحركة من هذا الروح فهي كالآلة الدائرة بما يعمر خزائنها من وقود ؛ أما النفس المحرومة من هذا الروح فهي كالآلة التي تدفع باليد حينما لا يلبث أن يغلبها العطل و العطب فتتوقف و تسكن (١) .

و الشيخ الغزالي كداعية مجرب لا يتساهل و لو قليلا إزاء موضوع القدوة بالنسبة لشخص الداعية ، فهو يدرك بلا أدنى شك خطورة الأثر الناتج عن هذه القدوة و أبعاده العميقة الغور في النفس البشرية ، و من ثمة فإن الغزالي يحمل بشدة على مسلك أولئك الذين يتدثرون بالدين و الأخلاق و القيم العليا ثم هم يفشلون فشلا ذريعا حيث يجب النجاح في تشريف النسب الكريم الذي قد يغالون في الظهور تحت شارته و يحرصون على التحدث باسمه ، و الطامة الكبرى في رأي الغزالي أن هؤلاء المرضى " يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج إلا إلى شيء من التكلفة و المصانعة ، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشيء من إيمان الرسوم و إتقان الهمهمة ، و هذا ضلال بعيد ، فالأمر أخطر مما يظنون ... إن التدين الحقيقي صورة لجوهر النفس بعدما استكانت لله و نزلت على أمره و اصطبغت بالفضائل التي شرعها ، و ترفعت عن الرذائل التي حرمها ، و استقامت على ذلك استقامة تامة هذا التدين و حده هو الذي تلتمس منه الأسوة و يقتبس منه الهدى (٢) .

(١) محمد الغزالي، مع الله (القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ط٥ ، ١٩٨١ م) ، ٢٩٦ - ٢٩٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩٧

و في يقين الشيخ الغزالي أن عامل القدوة كان من وراء انتشار الإسلام خلال معظم مراحل الدعوة الإسلامية و تاريخ هذه الدعوة ، فقد كان الدعاة إلى الله يعرضون بذكاء نادر ثمار الإسلام في الأخلاق و السلوك ، أي ثماره و آثاره في أتباعه المؤمنين به ، و بهذا المسلك الراشد كان الناس ينعطفون إلى الإسلام و يستجيبون للدعوة ؛ و يعطي الغزالي معنى أشمل لمفهوم القدوة ، حيث يذهب إلى أن القدوة كما تكون على مستوى الفرد الداعية أو مستوى الجماعة تكون كذلك على مستوى الدولة و نظام الحكم ، إذ إن خلق الدولة - كما لاحظ الغزالي بحق- و صلاح أنظمتها و تحقيقها لسعادة الأفراد و الجماعات قد يكون أكبر باعث على اعتناق الإسلام و الاهتمام بهديه و الانضواء تحت رايته ؛ و حركة التاريخ تؤكد بأن جماعات و شعوبا كثيرة كانت ترمق عن كذب سير و شمائل حملة العقيدة الجديدة بشيء من الدهول و الإعجاب ، ثم لا تلبث أن تنضم إلى طلائع النور لتزاحمها على الخير الذي تنعم به و على المنهج الأقوم الذي تستظل بدوحته (١) .

إن الذي يؤكد الشيخ الغزالي هنا إنما يمثل حقيقة لا مرء فيها ابتداء ، فإن الكلام المجرد عن القدوة و المثال و النموذج مهما استعذبه الناس و مهما تجاوزت مع حقائقه العقول و النفوس يبقى فاقدا للطاقة الحقيقية القادرة على الفعل و التغيير و الحركة ، فالكلمة لا تصبح فعلا أو انجازا إلا إذا كانت تقف قلب إنسان حي بالإخلاص ، و لا شك أن الشيخ الغزالي نفسه قد تيقن من هذه الحقيقة في تجربته كداعية ، فهو إذن في أحكامه لا ينطلق فقط من مجرد تأملات و ملاحظات و إنما من مسلمات و بديهيات يتمثلها في سلوكه و حياته الخاصة ، و هذه الحقيقة أيضا موضع تسليم جميع الدعاة إلى الله و الساننين في طريقه ... يقول أحد هؤلاء الدعاة العاملين : " شاهدت مرة أحد الأئمة الدعاة و هو يدعو جمهور المصلين للمساهمة في إتمام بناء مسجد البلدة ، و يشتد عليهم باللوم و العتاب بل و التقرير مذكرا إياهم بالوعيد الشديد الذي خص به الله الكانزين و القابضين أيديهم عن البذل في سبيل الله ، ثم جلس لتقوم جماعة لجمع الأموال ، فلوحظت الأيدي و هي تمتد إلى الجيوب بسرعة حتى لم يبق أحد لم يحضر ما يتصدق به ، حتى أولئك الذين لم يجدوا ما ينفقون مالوا على مجاورتهم يستقرضونهم ما يعطونهم تخلصا من الحياء و دفعا لاتهامهم بالبخل ... و كانت الكارثة عندما لاحظ النس قبض الداعية يديه ! فسمعت بعد الإنصراف كثيرين ينتقدون صنيعه في غضب و ثورة ، و ازداد الموقف حرجا عندما ذكرهم أحد الحاضرين بموقف الحسن البصري رضي الله عنه ، لما جاءه نفر من العبيد يطلبون منه أن يلقي درسا يحدث فيه الأغنياء على تمكين الأرقاء من حريتهم ، فوعدهم بذلك و لم ينجز وعده إلا بعد فترة طويلة ، ساورتهم فيها الشكوك في نية الرجل الذي وضعوا فيه ثقتهم و أفضوا إليه بسرهم، و بينما هم كذلك إذا به، يلقي درسه ، و يختمه بعنق عبده أمامهم فانطلق الناس يحررون مملوكيهم بحماس ، فلما سألوه عن سبب

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩

تأخره قال لهم : لم يكن عندي مملوك أعتقه ، فانتظرت حتى جعت من المال ما اشتريت به مملوكا حررته أمام الناس فحرروكم ، و لو كذبتهم في الأمر قبل ذلك لما استجاب منهم إلا قليل " (١) .

إن جميع الدعاة و المرابين ذوي التجربة مستيقنون بقيمة و أهمية القدوة و أثرها الفاعل والحيوي كوسيلة للدعوة و الهداية ... فالقدوة الحسنة " لا يعدلها شيء في حسن التأثير ، أما الكلام و البراعة فيه فنسعة سهلة يجيدها الخيرون كما يجيدها المشعوذون و الكذابين على السواء ، و يعرف سبيلها المخلصون و المنافقون جميعا " (٢) و هذه هي علة حرص الشيخ الغزالي على ضرورة ارتفاع الداعية إلى مستوى القدوة الفاعلة و اكتسابه لمؤهلاتها باقتدار ، و هو لذلك يؤكد دوما على كون " القدوة وحدها و ما يبعث على الاقتداء من إعزاز و إعجاب هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة في أوسع نطاق " (٣) .

(٢) - الفطرة و الذوق السليم : يذهب الشيخ الغزالي إلى أن مباشرة الداعية المسلم لمناسطه و أعماله إذا كان منبعثا في ذلك عن فطرة مستقيمة و ذوق رفيع ، فإن هذا المسلك له إيجابيات كثيرة مؤكدة على دعوته ، و منهجه بخلاف ما إذا كان منبعثا فيها عن ذوق سقيم و مزاج رديء ، و معنى ذلك في تصور الشيخ الغزالي أن الفطرة الصحيحة و الذوق السليم من أدوات و عوامل الدعوة ، و إن تعلقا بجوانب نفسية و ذاتية في شخص الداعية نفسه ، و يتبع ذلك أو يرتبط به حتما تفاوت حظوظ المنتسبين للدعوات من هذه المسالك الرائدة ، غير أن هذه الحقيقة الراسخة في فهم الشيخ الغزالي لا تغير شيئا من الواقع المشهود ، فالمؤكد أن أصحاب " الصحة النفسية و العقلية و أصحاب الأمزجة المعتدلة و الطباع المكتملة هم و حدهم الذين يسمع منهم و يؤخذ عنهم ، أما المعلولون و المنحرفون و ذوو الأفكار المختلفة و الغرائز المنحلة ، فهم كالثمار المعطوبة في عالم النبات أو الأجنة الشائثة في عالم الحيوان ، ليسوا أمثلة لسلامة الفطرة ، و لا يجوز أن يطمأن إلى أحكامهم و لا إلى آرائهم و لوبلغت بهم الجراءة أن يزعموها نداء الطبيعة و منطق الفطرة " (٤) .

إن الداعية إذا عدم الفطرة الصحيحة الرائقة و الذوق السليم كما يرى الشيخ الغزالي كان حملا ثقيلًا على دعوته و تعريضها للهزيمة و تزهيد الناس فيها و الازورار عنها ، مهما كانت معرفته بالدين و حصيلته من المعرفة و العلم ، فإن " كثرة البضاعة من نصوص السماء لا تغني فتيلًا في نفع صاحبها ، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان ملثا بالطبيعة مريض الفطرة ، ما قيمة المنظار المقرب أو المكبر لدى امرئ فقد بصره ؟ إن فقدان البصيرة الواعية اللامحة حجاب طامس دون فهم الحق بله تفهيمه ، و آفة الأديان جاءت من أن أكثر رجالها لا يصلحون ابتداء لإدراك رسالتها كما لا يصلح المصدور للكر و الفر في ميدان القتال " (٥) .

(١) الطيب برغوث ، القدوة الإسلامية (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، ط١ ، ١٩٨٤ م) ، ص ١٥ - ١٦

(٢) عبد البديع صقر ، كيف ندعو الناس (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، دت) ، ص ١١٧

(٣) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ، ص ٣٠٠

(٤) محمد الغزالي ، جدد حياتك (قسنطينة : دار البعث ، ط٣ ، ١٩٨٦ م) ، ص ٤ - ٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٦

و يعتبر الشيخ الغزالي أن افتقاد الداعية لهذه الذخيرة البديعة من السلوك الراشد أو لهذه النعمة الإلهية النافعة لا يمكن إلا أن يسلك ضمن دواعي وبواعث التحريف التي أودت بالأديان السابقة ، فضلا عن المساوئ الخطيرة التي تفضي إليها هذه الحالة و تسوق إليها بالضرورة ، فإنك ستجد يقينا مع اختلال الفطرة واضطراب البصيرة و فساد الذوق " من يعرض عليك الدين مشوشا مشوها ، يتجاوز فيه الرأس و القدم ، و تتخلع الأطراف و الحواس من مكانها لتوضع العين في اليد بدل مستقرها في الوجه !! إن هذه الفوضى في فقه النصوص ليست إلا ضربا من تحريف الكلم عن مواضعه ، و هو المرض الذي أفسد الديانتين السابقتين اليهودية و النصرانية " (١) .

و تزداد قيمة كلام الشيخ الغزالي و أهمية ما يؤكد في هذا السياق إذا علمنا حدود مساحة الشكوى و العتاب و الملام ، التي يفصح عنها الكثير من الملاحظين و العاملين في الحقل الإسلامي ، و المتعلقة بفساد الذوق و مصادمة الفطرة لدى بعض الدعاة و المنتسبين لشؤون الدعوة ، كذلك الصورة العجيبة التي تحدث عنها الشيخ عباس السبسي (*) قال " ذات مرة زارني إثنان من بلد عربي و استأذن أحدهما ليتصل بأهله في مكالمة دولية ، و أدار التليفون و كما هي العادة مع الأهل و الأحباب ، طال المكث و كثر العتاب ، و أنا أخرج حيناً و أدخل حيناً لعله يقتصر و يوجز ، و الذين يتحدث إليهم يظنون أنه يتحدث من حسابه الخاص فيتبادلون معه الحديث في شجون و إطالة ، و ما يكاد يختتم حديثه و أنتفس الصعداء حتى يستأذن الثاني في مكالمة و تستمر الرواية بنفس الأسلوب و تتكرر القصة . و أعيش في ضيق لا حزنا على ما سوف أدفعه من مبالغ كبيرة فحسب ، و لكن ألما من هذا التصرف البعيد عن اللياقة ؛ و لا أكون مبالغا إذا قلت : إن أحدهم نزل ضيفا على أحد الإخوة و استعمل تليفونه في مكالمات شخصية خارجية تجاوزت قيمتها راتبه الشهري ! فتصور-أخي الكريم- كيف تكون علاقة القلوب و حالة الجيوب ! " (٢) ؛ و في صورة سلوكية أخرى مصادمة للفطرة و الذوق السليم يقول " دعا أحد الإخوة شخصا فأنزله ضيفا في سكن خاص و سلمه المفتاح ... و بعد أن أمضى الضيف الكريم مدته في نزهة و سياحة غادر المدينة دون أن يعيد المفتاح إلى صاحب الشقة الذي استضافه ، و اتصل صاحب السكن به في القاهرة يستعجله ليرسل له المفتاح فقال إنه يبحث عن مسافر إلى الإسكندرية ليرسله معه ! و استمرت الشقة مغلقة أياما و أسابيع ، و أخيرا وجد الضيف من يحمل المفتاح إلى صاحبه ... و حين وصل إلى الإسكندرية تفقد المفتاح فلم يجده لقد ضاع المفتاح و ضاع الوقت و ضاع النوفاء " (٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٧

(*) أحد الدعاة من رجال الإخوان يقيم بألمانيا

(٢) عباس السبسي ، الذوق سلوك الروح (الاسكندرية : دار الطباعة والنشر والصوتيات ، ط١ ، ١٩٨٨ م) ، ص ١١ - ١٢

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩

و هذا الذي يحدث في الوسط بين الدعاة و المنتسبين للدعوة بشكل أو باخر ، يحدث مثله أو أكثر أيضا بين الدعاة و المدعويين ، فتخسر الدعوة نتيجة ذلك قلوبا و مواقع كان يمكن كسبها بشيء من الذوق العالي و احترام الفطرة الصحيحة ، و قد ذكر ابن قيم الجوزية رحمه الله أن كثيرا من أهل الكتاب الذين دعاهم هو و غيره إلى الإسلام أخبروا بأن ما يمنعمهم عن اعتناقه هو حال المنتسبين إلى الإسلام و دعوته (١) فإذا عرفنا بأن كلام ابن القيم هذا هو في القرن الثامن الهجري ، أدركنا -و نحن في القرن الخامس عشر الهجري-سبب اكرثاث الشيخ الغزالي و اهتمامه بهذا الجانب في أخلاقيات الدعاة إلى الله . لاسيما و أن سلفنا الصالح كان على حظ وافر من سلامة الفطرة و حسن الذوق ، فقد مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جماعة تتعم بدفء نار أوقدوها في يوم بارد ، فقال لهم سيدنا عمر : (السلام عليكم يا أهل الضوء) ! لأنه أدرك بذوقه الإسلامي الرفيع بأن كلمة النار تؤذي روح الإنسان المسلم ؛ و قد تحدث الشيخ الغزالي كثيرا عن هذه المسألة و عن تلازمها لكيان الداعية ، خاصة في كتبه (مستقبل الإسلام خارج أرضه) و (جدد حياتك) و (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (هموم داعية) ... و قد كتب الشيخ تحت عنوان (تدين يكره الحضارة و تحضر يكره الدين) ملفتا الإنتباه إلى مدى خطر الدعاة الذين لا يتجاوبون مع الفطرة السليمة يقول : " و الغريب أن فتنة الناس عن دين الله قد تألفت لها مذاهب و جماعات ، و تكونت لها مدارس و هيئات ، ينظر الناس في آرائها و مسالكها فيعافون التدين ، و يحسبون لونا من الجلالة و التزمت ، و بعدا عن الحصافة و الكياسة و خصومة للآداب و الفنون ، و عجزا عن الابتكار و الانتاج و توثيقا لروابط الماضي و تهوينا لآمال المستقبل و فشلا عاما في ميادين التخطيط و الإدارة ... و الذين يعرضون الدين بهذه الدمامة أقوام من المرضى لا يجوز السماع منهم ، بل الأجدى على الدين و الدنيا أن يودعوا في بعض المصححات حتى يبرؤوا من عللهم " (٢) .

(ب) - قسم موضوعي : و هو يتعلق بجملة من الوسائط و الوسائل التي يستغلها الداعية في عملية البلاغ و الترشييد و البيان ، و الشيخ الغزالي في تجربته الدعوية يرى بأن أدوات الدعوة غير قابلة للحصر لأنها تختلف من داعية لآخر و من بيئة لأخرى و من ظرف لآخر ، لكنه يعترف بتفاوت نسب التأثير التي تحدثها تلك الأدوات ، و من أهم وسائل الدعوة في هذا القسم برأيه ما يأتي :

(١) - التعليم و التذكير : يعتقد الشيخ الغزالي بأن العلم و الذكر هما وسيلة الإسلام الأولى في استمالة الناس إلى طريق الحق و منهج الله ، و إبعادهم عن السقوط في شرك الأباطيل و ردائل الأعمال ، و العلم كذلك هو السبيل الأمثل لتزكية النفوس و الأرواح و الارتقاء بمستويات التفكير و التمييز و النظر ، و من ثمة فقد كان لزاما على الدعاة و قادة الفكر التزود المستمر بالعلم و المعرفة و الحرص الدائب على إصلاح و إنضاج الآراء و وجهات النظر التي يمثلونها أو يعرفون بها في حركة الواقع الاجتماعي ،

(١) همام عبد الرحمن سعيد ، قواعد الدعوة إلى الله (باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، ١٩٨٥ م) ، ص ٦٣

(٢) محمد الغزالي ، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ٨١ - ٨٢

فالداعية إلى جانب ما يحمل من حق و خير ، يجب عليه كذلك أن يكون صاحب رأي في شؤون الناس و مجريات الحياة في الأمة و المجتمع و الواقع القائم .

و في يقين الغزالي أن مجهودات الداعية بشكل عام الموجهة لمعالجة أو معاينة أدواء الناس و همومهم و محاولة تخليصهم من برائن الوهم و الجهل و الأمية يتطلب حتما العلم الغزير و المعرفة الواسعة ، إلى جانب الهمة العالية و الإرادة القوية في تحمل الأعباء و المكاره و المشاق ، فإن " حاجة البشر إلى العلم الكثير كحاجة الأرض المجدبة إلى الغيث الهائل ، فلا بد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم و الإيقاظ كي ينصفوا الحق و يوصلوه إلى الخلق " (١) و يرى الغزالي أن الداعية نفسه قد يتعرض للنسيان كما قد تشغله فتن العيش و السعي في الحياة عن القيام بما يجب عليه من أعمال و مهام و أدوار ، و هنا يجيء دور التذكير ليعيد الغفلة عنه ؛ و معنى ذلك أن اليقظة الدائمة لا مناص عنها للداعية ، لأن دوره يقتضي استفقار روحيا و فكريا و وجدانيا مطردا موصولا ، و التذكير محطة هامة و رئيسة في حركة عمله و نشاطه اليومي ؛ كما أنه أيضا - كما يرى الشيخ الغزالي - زاد " لا يستغني عنه الناس يوما، إذ طالما يعصف النسيان بأفكارهم، و يبعثهم على السير في الحياة دون وعي أو هدف ، أليست تلك طبيعة البشر ؟ (٢) و إسناد الهوى إلى القلوب يومية إلى تغلغل الصوارف عن الجد و استحوادها على صميم الإنسان ... و النسيان بهذه الصفة مساو للجهل ، فإن نتائج فقدان الذاكرة هي نفسها نتائج عدم العلم ، و لذلك يقول الله جل شأنه (و لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) (٢) و قد تتساءل : كيف ينسى المرء نفسه لأنه نسي ربه ؟ أو تقول : إنما نسي ربه لأنه ذكر نفسه ! و الجواب أن المنافقين المنذفين وراء شهواتهم المستغرقين في إشباع مطامعهم و رغائبهم لا يذكرون شيئا من مصالحهم الحقيقية ، و لا يستفتحون طريقا يصون لهم معاشا أو معادا ... إنهم يرتعون في الدنيا رتع الدواب في الربيع حتى تهلك بشما و اعتلالا ... و الشخص الذي تصرعه أهواؤه لا يدري شيئا عن حاضره و لا مستقبله و لذلك يعتبر ناسيا نفسه ، و إنما جاء نسيانه لنفسه من نسيانه لربه ، و لو ذكر حقوق الله و انتصب لأدائها لآتاه الله رشده و بصره بما ينفعه و يرفعه ، و مسكه بما يضمن العافية له في دينه و دنياه ، فالتذكير المستمر ضرورة إذن للناس جميعا ، ما بقوا يشرأ مطبوعين على النسيان و ما اختلف عليهم الليل و النهار (٣) .

و الشيخ الغزالي من خلال تجربته الطويلة في الدعوة إلى الله و كدحه في ساحات العمل الإسلامي يدرك تماما أثر وسيلة التعليم و التذكير في كسب قلوب و عقول و مواقع جديدة للدعوة ، و لعل تشديد الغزالي على هذا العامل في حركة الداعية يعزى في تصوره إلى تعقد الحياة المعاصرة و تشعب الأفكار و المذاهب و الاتجاهات في الوقت الراهن ، الذي يكاد يصطبغ بسيطرة وجهة تأثير أحادي ممثلا في تأثير الحضارة الغربية و مساحات استقطابها و امتداداتها المختلفة ، فكان هذا المتغير بدوره يمثل تحديا

(١) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ص ٢٠٢

(٢) سورة العنكبوت : ١٩

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

في الحقل الفكري والاجتماعي الذي يمارس فيه الداعية نشاطه و دوره الرسالي : كما أن التركيز على هذا العامل -عند الغزالي- مبرر كذلك بمشهد إحياء الكثير من الثقافات و الأفكار و الديانات الوثنية و المنازع المادية و الأرضية المحضنة ، فإذا وضعنا في الحسبان إلى جانب ما تم ذكره ظاهرة الملل و التمرد و الاغتراب التي تطال البناء النفسي للإنسان المعاصر ، أدركنا في يسر بواعث و دوافع حرص الشيخ الغزالي على ضرورة أن يحسن الداعية المسلم استغلال وسيلة التعليم و التذكير (١) لتفعيل أدائه الدعوي ، والإسهام عن طريق هذه الوسيلة في تحصين الذات الفكرية الإسلامية و دعم مقومات الهوية الحضارية و المذهبية الإسلامية ، و تعميق مستويات و مراحل و إنجازات العمل الإسلامي و التغيير الاجتماعي المحكوم بهذه الخلفية .

(٢)- منابر الخطابة : الخطابة و منابرها في مختلف المناسبات كما يعتقد الشيخ الغزالي من أهم وسائل و أدوات الدعوة و البلاغ ، و الخطابة في نظر الغزالي ليست فقط " فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية تشمل على الإقناع و الاستمالة " (٢) و إنما هي أيضا -إلى جانب ذلك- " مظهر الحياة المتحركة فيه [في الإسلام] الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب و يثب من فكر إلى فكر ، و ينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل و مع المكان من قطر إلى قطر ... و ذلك هو السر في أن نبي الإسلام كان يخطب كل أسبوع و كل عيد، و يخطب أو ينيب عنه أميرا يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة " (٣) و إذا كان الشيخ الغزالي يشيد بمكانة و مستوى الخطابة في صدر الإسلام ، فإنه ينتقد هذه الوسيلة في هذا العصر الذي انتشرت فيه الأمية ، و ذهل فيه الناس عن التطلع لمعرفة الحقائق و التفاعل الإيجابي مع قضايا الأمة الحيوية ، و من ثمة فإن الغزالي يجيز بأن " لا نسمي خطابة إسلامية هذه الكلمات الميتة التي يسمعها الناس في بعض المساجد ثم يخرجون و هم لا يدرون ماذا قال خطيبهم ، لأنه لم يصل أحدا منهم بروح القرآن و لا أنعش قلوبا بمعانيه و لا علن بصرا بأغراضه ... القرآن كتاب طواف في الكون و صاف لآفاقه متغلغل في شؤون الحياة يتناولها بالسرد و الحكم ، و يشرح وصاياه للفرد و المجتمع و الدولة في شمول و هيمنة ، و يستشف خبايا الأنفس و العقول فلا يدع ريبية أو شبهة إلا أزاحها (....) و الخطيب الذي يصلح للتحدث عن الإسلام رجل خبير بالحياة و عللها ، مكن في الوحي الأعلى ، يأخذ منه -بلباقة- ما يشفي علل الناس و يصلح بالهم ، ما يتألف به نافرهم و يسكن ثائرهم ، ما يدحض به نزعات الإلحاد و يحبط كيد الشيطان ، ما ترق به القلوب القاسية و تتفرج به الأسارير المنقبضة ، ما يشعر الناس بعد الاتصاف عنه أنهم فقراء إلى الله محتاجون إلى هداياته لا بصيرة لهم إلا منه و لا ملجأ إلا إليه (٤) " .

(١) أحب الشيخ الغزالي ممارسة التذكير من منطلق شعوره بواجب الدعوة إلى الله، حتى أنه كان يوقع بعض ما يكتبه باسم (محمد الغزالي الواعظ) و هذه اللفظة لها دلالتها في فهم شخصية الغزالي الداعية (يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته (القاهرة: دار الوفاء، ط١، ١٩٩٥م)، ص١١)

(٢) عبد الجليل شلبي ، الخطابة و إعداد الخطيب (بيروت: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٦م)، ص١٣

(٣) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) ، ص ٢٠٦

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧ - ٣٠٩

و بما أن المسجد يمثل قلب المجتمع الإسلامي و ملتقى المؤمنين بالغدو و الاصال . فإن الشيخ الغزالي يعتقد بأن الخطابة تلعب دورا خطيرا و حاسما في الدعوة و دحض ما يعلق بالأذهان من شبهات و أراجيف حول الحياة الإسلامية و الفكر الإسلامي ، و في سياق اهتمام الغزالي كداعية بالخطابة و ملاحظاته النقدية حول موضوعاتها و واجبات الدعاة إزاءها ، و من تجربته الطويلة الراسخة في هذا الميدان ، فإننا نرى الغزالي يستنتج جملة خلال للخطبة الناجحة أو الفاعلة ، و هي خلال وسمات قمين بالدعاة و الخطباء أن يتأملوها و ينعموا النظر فيها ، حتى يتلافوا سلبيات الخطابة و تستفيد الدعوة من أدائهم و جهودهم ، و هذه خلال التي يقدمها الغزالي تتمثل فيما يأتي (١) :

- يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد غير متشعب الأطراف و لا متعدد القضايا فإن الخطيب الذي يخوض في أحاديث كثيرة يشتت الأذهان و ينتقل بالسامعين في أودية تتخللها فجوات نفسية و فكرية بعيدة ، و مهما كانت عباراته بليغة و مهما كان مسترسلا متدفقا فإنه لن ينجح في تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام ، و الوضوح أساس لابد منه في التربية و التعميم و الغموض لا ينتهيان بشيء طائل .

- عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر في تسلسل منطقي مقبول كما تسلم درجة السلم إلى ما بعدها دون عناء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء كلمته يكون السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التي يريد بلوغها ، و عليه أن ينتقي من النصوص و الآثار ما يمهّد طريقه إلى هذه الغاية .

- لما كانت الخطبة الدينية تتسج من المعاني الإسلامية المستمدة من الكتاب و السنة و آثار السلف الصالح فإن لحمتها و سداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة ، و في آيات القرآن الكريم و معالم السنة المطهرة متسع يغني في الوعظ و الإرشاد .

- لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمر الخلافي و لا أن تكون تعصبا لوجهة نظر إسلامية محدودة ، فإن المسجد يجمع و لا يفرق و يلم شمل الأمة بشعب الإيمان التي يلتقي عندها الكل دون خوض في المسائل التي يتفاوت تقديرها ، و ما أكثر العزائم و الفضائل التي تصلح موضوعا لنصائح جديدة و خطب موفقة . و قد شقى المسلمون بالفرقة أياما طويلة و جدير بهم أن يجدوا في المساجد ما يوحد الصفوف و يطفىء الخصومات .

- بين الخطبة و الأحداث العابرة و الملابس المحيطة و الجماهير السامعة علاقة لا يمكن تجاهلها ، و مما يزرى بالخطيب و يضيع موعظته أن يكون في واد و الناس و الزمان و المكان في واد آخر ... و لما كان القرآن شفاء للحلل الاجتماعية الشائعة فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذي يواجهه و أن يتعرف على حقيقته بدقة فإذا عرفه و استبان أغراضه و أخطاره رجع إلى الكتاب

(١) قطب عبد الحميد قطب ، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين و الحياة (الجزائر : مكتبة رحاب ، ج١ ، ١٩٩٠ م) ،

و السنة فنقل الدواء إلى موضع المرض ، و ذلك يحتاج إلى بصيرة و حذق فإن الواعظ القاصر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق في علاج ، و ربما أخطأ ابتداءً في تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا و إن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة .

- هناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة ... و قد قرر العلماء المحققون أن هذه الأحاديث ليست على ما يفهم منها لأول و هلة ... و أن ما فيها من أجزية ضخمة إنما هو لأهل الشرف في العبادة و أهل الصدق في الإقبال على الله و ليس ذلك للأعمال الصغيرة التي اقترنت بها ، و من هنا لا يجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سرداً مجرداً ، فيحدث فوضى في ميدان التكاليف الشرعية و لكن إذا قضى ظرف بذكر هذه الأحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة .

- تقوم التربية الدينية على بيان الجوانب الخلقية و الاجتماعية في الإسلام و شرح ما يقترن بالخير و الشر من معان حسنة أو سيئة و من عواقب حميدة أو ذميمة ، و لا بأس من التعرّيج على الأجزية الأخروية و عرض ما أعده الله في الآخرة للأبرار و الفجار ، بيد أن الإسهاب و التفصيل في ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له و يكتفي بالإلماح إلى ما جاء في القرآن و السنة عن ذلك ، دون تطويل و تعمق .

- من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحياناً شيئاً من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية و السياسية و تنويرها بالحضارة النابضة التي أقامها الإسلام في العالم ، مع الإشارة إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التي أحدثها القرآن الكريم و اليقظة الإنسانية التي صنعها الرسول -صلى الله عليه و سلم- و يكون الغرض من هذه الخطب -على اختلاف موضوعاتها- أن ترجع إلى المسلمين تقنّهم بأنفسهم و رسالتهم العالمية .

- معروف أن هناك فلسفات أجنبية و نزعات إلحادية تسربت إلى الأمة الإسلامية في كبوتها التاريخية الماضية ، و طبيعي أن تتعرض الخطبة لذود هذه المفاصد النفسية عن أبناء الأمة ، و وظيفة الخطبة في الإسلام عندئذ أن تتجنب الأخذ و الرد و الجدل السيء ... و لكن تعرض الحقائق الإيجابية في الإسلام بقوة ، و ترد الشبهات دون عناية بذكر مصدرها لأن المهم هو حماية التراث الروحي و العلمي و ليس المهم تجريح الآخرين و إلحاق الهزائم بهم .

- قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغي أن تكون في ذهنه صورة بيّنة لما يريد أن يقوله ، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام ليطمئن اطمئناناً إلى صحة القضايا التي سوف يعرضها و إلى سلامة آثارها النفسية و الاجتماعية ، فإن التحضير المنقن دلالة احترام المرء لنفسه و لسامعيه و قد تغفأ الإنسان مواقف يضطر فيها للإرتجال ، و الواقع أن القدرة على الإرتجال تجيء بعد أوقات طويلة من الدربة على التحضير الجيد و على تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف ، و مع ذلك فإن المهارة في الإرتجال لا تغني عن حسن التحضير للعالم أو الداعية الذي يريد أداء واجبه بأمانة و صدق و الذي يقدر إنصات الناس له و احتفاءهم بما يقول .

- إن الإيجاز غير المخل أعون على تثبيت الحقائق و جمع المشاعر والأفكار حول ما يراد بثه من تعاليم ، فإن الكلام ينسي بعضه بعضا ، و قد تضع أهم أهدافه في زحام الإطناب و الإضافة .. ألا ترى الأرض تحتاج إلى قدر محدد من البذور كيما تنبت ، فإذا كثرت النباتات بها تظللها الفلاح باجتناث الزائد حتى يعطي البقية فرصة النماء و الإثمار ، كذلك النفس البشرية لا تزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها و تقديمها . أما مع كثرة الكلام و بعثرة الحقائق فإن السامع يتحول إلى إناء مغلوق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها . و للإطناب الممل أسباب معروفة منها سوء التحضير لما يراد عرضه و سوء التقدير للوقت و المواقف ، فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ما عنده و على الناس أن ينصتوا طوعا أو كرها و هذا خطأ واضح ، و مما يحكى في قيمة الإيجاز أن أحد الرؤساء طلب منه إلقاء خطبة في بضع دقائق فقال : أمهلوني أسبوعا ، فقيل له : نريدها في ربع ساعة فقال : أستطيع بعد يومين ، قيل له : فإذا طلبناها في ساعة ؟ فقال : أنا مستعد الآن ... و معنى ذلك أن الإيجاز يتطلب الموازنة و الاختيار و المحو و الإثبات ، أما الكلام المرسل فالجهد العقلي فيه أقل ، و الحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علما كثيرا ، و عشر دقائق و خمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة .

و المتأمل في كلام الغزالي عن الخطابة الإسلامية و منابرها لا يراه مستمدا فحسب من تجربته الدعوية المحضة ، و لكنه أيضا له سنده من الهدي النبوي في التوجيه و الترشيده و البلاغ ، و لا شك أن هذا البعد يزيد كلام الغزالي قيمة ، و يجعله موضع احترام و تقدير الدعاة و الخطباء ، ففي مواطن مختلفة من كتاباته نجد الشيخ يؤكد الرؤية ذاتها ، و يدعم الاعتقاد على أن " العظة القصيرة من سنن الإسلام و قلما أظن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- في مقال أو استرسل في نصيح ، و المحفوظ من خطبه في الجمع و المناسبات ، و أحاديثه للأفراد و الجماعات لا يزيد أطوله على دقائق معدودة ، أما سائره فكلمات حكيمة موجزة يمكن عدها على الأصابع ... فتطويل الخطب على النحو الذي ألفه أئمة المساجد و وعاظها مخالف لهدي الإسلام (...) و قد استمعت إلى نفر من أولئك المطرلين فوجدت عماد كلامهم اللغو و المعاني المستبعدة و التكرار و الغلو و فقدان الموضوع المحدد ، و المؤسف أن العوام أصبحوا كالمدمنين المعتودين ، و الكلام الكثير لا يؤثر فيهم لطول ما قرع آذانهم ، و تلك نتيجة محتومة لفوضى الخطابة و التوجيه التي تملأ ميدان الوعظ و الإرشاد عندنا (1) " .

(٣)- التليفزيون و الإذاعة و الصحافة : من الوسائل الفاعلة للداعية كما يرى الشيخ الغزالي ما استحدث في هذا العصر من منجزات أبدعها العقل و العلم مثل التليفزيون و الإذاعة و الصحافة ، فلهذه الوسائل تأثير بعيد الغور و مقدرة غير محدودة الفواصل على إبلاغ الفكرة و شرح أبعادها القريبة و البعيدة بأناة و رفق و تشويق للمشاهدين و المتابعين و القارئ ، لذلك فنحن نجد في تجربة الشيخ الغزالي الدعوية مساحة معتبرة مرتكزة على هذه الوسائل و الأدوات .

(١) محمد الغزالي ، ليس من الإسلام (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط٦ ، ١٩٩١ م) ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧

فقد كان للشيخ الغزالي عدة برامج و محصن و أحاديث في تليفزيونات و إذاعات المملكة العربية السعودية و قطر و الجزائر و الإمارات العربية المتحدة ، و ما تزال هذه الذخيرة الفكرية و العلمية لها محبوها و مقدر و قيمتها ، حتى أن إذاعة الكويت في هذا العام (١٤١٨هـ) أذاعت حديثا للشيخ طيلة شهر رمضان المعظم مباشرة بعد الإفطار ؛ و الحقيقة أن معظم القنوات الفضائية و التليفزيونات و الإذاعات الإسلامية و العربية تسعد بأحاديث الشيخ الغزالي و تعتبرها من أنفس الهدايا التي تقدمها لمشاهديها و متابعيها ... كما استخدم الغزالي لدعوته الصحافة المكتوبة ، و منذ شبابه الأول و قلمه المتدفق السيل يمد الصحف و المجلات الإسلامية بعلم مضيء و فكر متألق و آراء سديدة ، و مع أن قلم الشيخ برز في البداية على صفحات مجلات و جرائد جماعة الإخوان المسلمين إلا أنه بعد ذلك امتد ليتعاون مع المنابر الحريضة على نشر الكلمة الوضيفة الهادفة ... و قد كان لجهود الشيخ المتلاحقة في هذه الميادين ثمرات و آثار انتفعت بها الدعوة الإسلامية المعاصرة و أجيال الصحوة الإسلامية ، و أصبحت زادا و ذخرا نفيسا للدعاة إلى الله و العاملين في حقول التغيير الإسلامي و البناء الحضاري .

(٤) - الترجمة و حسن العرض : يعتقد الشيخ الغزالي بأهمية و جدوى الترجمة كوسيلة و أداة لخدمة الدعوة خاصة في هذا العصر الذي تيسرت فيه قنوات النقل و البلاغ ، و يرى أن المسلمين عامة و العرب منهم على وجه الخصوص مطالبون بحكم عالمية الإسلام و رسالته أن يتعلموا لغات و لهجات الأمم و الشعوب الأخرى و أن يترجموا لها تعاليم و أخلاقيات الإسلام و معاني و مقاصد الرسالة الخاتمة ، و عليهم كذلك واجب تعليمهم اللغة العربية بعد جذبهم للإسلام ، لأن العربية هي الأصل لوحدة الفكر و التدفق و التعبير بين المسلمين (١) ، و إذا كان المسلمون الآن يشكلون خمس البشرية أو ربعها ، فإن الشيخ الغزالي يعتقد في ألم و حسرة بأن " أغلب سكان القارات لا يدري شيئا عن رسالة الحق ، أو يدري عنها ما لا يشرفها ، و ما لا يغري بالنظر فيها بله اتباعها (*) .. و يخيل إلي أن ناسا من أستراليا و أمريكا عندما يوقفون أمام الله يوم القيامة ليسألهم : لماذا لم تعرفوني معرفة صحيحة و تعملوا لي عملا صالحا و تستعدوا لهذا اللقاء ؟ فإنهم سيقولون لله : إن العرب الذين ورثوا دينك حبسوا نوره ، أو أطفؤوا مصابيحهم ، و تركونا و تركوا أنفسهم في ظلام " (٢) .

و يذهب الشيخ الغزالي إلى أن التقصير أو التفريط في هذا الواجب شبيه به كذلك سوء عرض الدين و حقائقه بين الناس ، و مما يدل على اهتمام الغزالي بهذا الجانب المهم في السلوك الدعوي و التواصل مع الآخرين هذه الصورة التأملية ذات الدلالات المنهجية العميقة : " آثار التفاتي منظر بائع

(١) محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن (الجزائر : دار الانتفاضة ، د.ت) ، ص ١٩٢

(*) لا يقصد الشيخ وجود ما لا يشرف في الإسلام ذاته فذاك أمر لا يخطر على البال ، ولكنه يقصد واقع المسلمين المتردي المؤسف .

(٢) محمد الغزالي ، تراثا الفكري (هيرندن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٢، ١٩٩١م) ، ص ٣٢

فواحه يسوق عربته الصغيرة أمامه ، و عليها مسدوف مرصومة متسقة من الثمر الجيد قد وضعت الواحدة منه إلى جانب الأخرى بعناية و دقة و نظام لم يضطرب عقده على طول ما انتظم فيه من منات و ألوف ، فكان المنظر -بحق- مغريا على الإعجاب إن لم يكن مغريا على الشراء .. إن هذا الرجل قد أفرغ وسعه في إجابة عرضه لبضاعته التي يرتزق منها ، و هنا شعرت بخاطر سريع يعترض تفكيري و يلوي عنانه إلى ناحية أخرى سمعت سؤالا خافتا ينبعث من أعماق نفسي : هل أنت -كعالم دين- تنظم للناس بضاعتك و تحسن عرضها على أبصارهم و بصائرهم لتبعث في نفوسهم الإعجاب على الأقل إن لم تغرهم بالإقبال و القبول ؟ و شعرت بحيرة في الإجابة ! و معنى هذه الحيرة أن الجواب بالسلب ! و بدا لي كأن علماء الأديان يكتفون بما لها من قيمة اسمية طنانة و بما لهم فيها من منازل متوارثة عالية ، فهم لا يجشمون أنفسهم مشقات العرض المنظم الطويل لما لديهم من بضائع هي -لا ريب- أنفس ما في الحياة من عروض (١) " إن هذا التفكير إنما يعكس إحساس الداعية المثالي -و الشيخ الغزالي هنا و في هذه التأملات يمثل خير نموذج لهذا الطراز من الدعاة- حيال دعوته و واجباته الموصولة و تقديراته لتبعات رسالته ، و معنى هذا كله برأي الغزالي و من منطلق تجربته الدعوية أن حسن العرض للدعوة و جمال الأسلوب في البيان من أهم أدوات الدعوة .

(٥)- الرسوخ العلمي و الثقافة الواسعة : و من وسائل الدعوة كذلك عند الشيخ الغزالي كثرة القراءة و العلم الصحيح و الثقافة غير المحدودة ، فالداعية في نظره لا يستطيع الحركة بدعوته إن لم يكن راسخا القدم في العلم و الثقافة و الإتجاهات الفكرية و الفلسفية ، لذلك فإن الشيخ يستبعد من ميدان الدعوة أصحاب التدين الفاسد و من لا ثقافة لهم لأنه يعتقد عن وعي و تجربة بأن " الداعية المسلم في عصرنا هذا يجب أن يكون ذا ثروة طائلة من الثقافة الإسلامية و الإنسانية ، بمعنى أن يكون عارفا للكتاب و السنة و الفقه الإسلامي و الحضارة الإسلامية ، و في الوقت نفسه يجب أن يكون ملما بالتاريخ الإنساني و علوم الكون و الحياة و الثقافات الإنسانية المعاصرة التي تتصل بشتى المذاهب و الفلسفات " (٢) .

و لقد أحسن الشيخ الغزالي استغلال هذه الوسيلة في خدمة الدعوة و الإصلاح والتغيير السليم ، فقد كان يستشهد بالقرآن كأنه باقة ورد مصفوفة أمامه كما كان راسخا القدم في العلوم الشرعية و الثقافة الإسلامية و الإنسانية ، و هو يرى بأن هذا العصر يختلف اختلافات جوهرية و عميقة عن العصور الماضية ، لذلك نراه يلزم نفسه ويلزم أي داعية في الوقت الراهن بالإطلاع الواسع و جعل المعرفة العميقة و التمكن العلمي أداة للدعوة و الإصلاح و التجديد، و يصل الغزالي في تجربته الدعوية بهذا الخصوص إلى تقرير حقيقة أن " للقراءة أهمية خاصة لكل من يدعو إلى الله بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء تفكير الفقيه و الداعية ؛ وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة

(١) محمد الغزالي . من معالم الحق (بلتة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت) ، ص ٢٥٤

(٢) حوار مع الشيخ محمد الغزالي (القاهرة : دار المختار الإسلامي ، ١٩٩٦ م) ، ص ٦٠

خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين و إذا صحت تزيل الثقة منهم ، إن القراءة ، أي الثقافة هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم و أوضاعه و شؤونه ، و هي التي تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم ، و كثيرا ما يكون قصور الفقهاء و الدعاة راجعا إلى فقرهم الثقافي ... و الفقر الثقافي للعالم الديني أشد من خطورة فقر الدم عند المريض و ضعاف الأجسام ... و لابد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء ، يقرأ كتب الإيمان و يقرأ الإلحاد ، يقرأ في كتب السنة كما يقرأ في الفلسفة و باختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة ليعرف الحياة و المؤثرات في جوانبها المتعددة (١) .

بل إننا و في موضع آخر نجد الشيخ الغزالي يدعو و يلح على ضرورة أن تكثر و تنتوع الكتب في بيوت المسلمين حتى يكون منهم دعاة على درجة عالية من الثقافة و النباهة و الوعي ، و في وقتنا الراهن -وقت انفجار المعارف- يتعجب الشيخ من كون " الكتب ليس له موضع عتيد في البيت الإسلامي مع أننا نحن الذين علمنا الغرب كيف يقرأ و يتتق ! ينبغي أن تكثر الكتب العلمية و الأدبية و التاريخية و الدينية في بيوتنا ، و أن يكون الكتاب سفيرا متجولا في عواصم العالم يعرف بنا و يتحدث عنا ... و المسلمون في الخارج أحوج الناس إلى الكتاب العربي المختار يصلهم بجماعة المسلمين الكبرى و يوثق علاقتهم بماضيهم المشترك و رسالتهم العامة ، ذلك عدا المجالات و الصحف الشريفة ، و أرى أن كل بذل في هذا المجال يعد جهادا تهيأ له منابعه من الزكوات و النفقات المفروضة لإعلاء كلمة الله (٢) .

إن أدوات و وسائل الدعوة في نتاج الشيخ الغزالي الفكري و تجربته الدعوية كثيرة و متنوعة ، فهو ذكر أيضا القصص القرآني و التأليف و الكتابة و أسلوب الترغيب و الترهيب و الخدمات الاجتماعية كأدوات للدعوة (٣) و حسنا هنا أننا أبرزنا الخطوط العريضة لهذا الجانب من شخصية و فكر الغزالي الداعية ، و جلينا أهم الوسائل التي مارسها الغزالي و ارتكزت عليها تجربته في الدعوة و الحركة و البلاغ ، و لا شك أن تجربة الغزالي في هذا الجانب تجربة فاعلة و حيوية ، و هي قيمة بحق بأن يستفيد منها الدعاة و العاملون في الحقل الإسلامي و المهتمون بالتغيير الاجتماعي و البناء الحضاري خاصة في ضوء الوسائل و الإمكانيات المستجدة التي يقدمها العلم في سياق حركة كشوفاته و إنجازاته الإبداعية المعاصرة و المستقبلية .

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٦

(٢) محمد الغزالي ، مستقبل الإسلام خارج أرضه (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - ركز الداعية الشيخ القرضاوي القريب من مدرسة الشيخ الغزالي على الجانب العلمي و الثقافي كوسيلة مركزية للداعية المقهّم لطبيعة العصر الراهن (يوسف القرضاوي ، ثقافة الداعية (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط٤ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) و ماورد في هذا الكتاب يؤكد عن تجربة و علم و دراية أيضا ماذهب إليه الشيخ الغزالي في حديثه عن هذه المسألة .

(٣) محمد الغزالي ، مع الله (مصدر سابق) من ص ٣١١ إلى ص ٤٤١

أهم خصائص منهجه الدعوي

تمهيد :

إن من يتأمل مواقف الشيخ الغزالي و يتفحص نتاجه الثقافي و عطاءه الفكري يلاحظ بيسر تام و يتأكد لديه أمر اعتداد الشيخ بصفة الداعية في شخصه و شعوره القوي بحقوق الدعوة إلى الإسلام عليه . و حرصه الدائم و العميق على تتبع شؤون هذه الدعوة و إنجاح مشروعاتها و برامجها و تجسيد أهدافها و آمالها ... و من جالس الشيخ أو حضر دروسه و محاضراته و مناظراته لا يسعه إلا مصافحة ذاك الحنو العجيب على الدعوة و رجالاتها و صحتها و قضاياها ، و تلمس تلك المشاعر العاطفية الحميمة المعبرة عن زمجرة قلب مفعم بالصدق و الإخلاص لرسالة هذه الدعوة .

بل إن الغزالي كثيرا ما كان يصرح بأن الغرض من عكوفه على دراسة بعض العلوم و المعارف كالفقه و الأدب و الفلسفة و علم النفس ... إلخ إنما هو خدمة الدعوة و الاقتراب الموضوعي المنطقي من أسباب التمكين لها في واقع الناس بواسطة فهم و استيعاب المداخل الصحيحة للعصر و الواقع المشهود . و الاهتمام الواعي بشتى العوامل و الحوافز المؤثرة في سيرورة الحركة الاجتماعية و منظومة وجودها المائل بشتى أبعاده و مجالاته .

فنحن إذن أمام داعية من طراز خاص يحمل و يتمثل الكثير من مؤهلات و خصائص جيل السلف الأول من المسلمين و علماء هذه الأمة ممن التزموا صراط الله المستقيم و نشروا الدين القويم و أنوار الدعوة الهادية ببواعث أداء حق البلاغ و إبراء الذمة و الإسهام في واجب نصب أمارات الشهادة و الإشهاد على الخلق عبر التحقق الصادق بشمائل و قسامات وسطية هذه الأمة التي أخرجها الله للناس : " و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا ... " (١) ؛ و هذه المساحة - من هذه الأطروحة - محاولة لتقصي و استخلاص معالم خصائص منهج الشيخ الغزالي الدعوي ، و هو جهد يسلك في سياق الكشف عن أبعاد العلاقة بين مميزات هذا المنهج و بين سمات شخصية الغزالي النفسية و العقلية و الوجدانية ... كما أنه ضمنية لا مندوحة عنها تقتضيها طبيعة هذا البحث ، و رجائي متطلع إلى أن يسهم هذا الجهد في صياغة و تقديم صورة صحيحة عن تجربة و منهج الشيخ الغزالي في الدعوة و البلاغ و التغيير لتستفيد منها أجيال الصحوة الإسلامية و العاملون في حقول التغيير الإسلامي و الإصلاح الفكري و الإجتماعي و إعادة التأسيس المنهجي و الحضاري لهذه الأمة .

للمنهج علاقة ظاهرة بطبيعة الشخص الذاتية تجعل طريقته و أسلوبه في التعامل مع الأشياء و الحكم على الظواهر و تقدير حركة الفعل الإنساني مصبوغة بصبغة خاصة ، فالمنهج إذن بهذه الخلفية بصمات سارية في المعمار الكلي لنتاج العالم أو المفكر أو الداعية ، هذه البصمات تستقطب بشكل مكثف الخطوط العريضة لهذا المعمار أو البناء ، و تبرز ملامحه العامة و اتجاهاته في الفكر و الحركة و النظر و الاجتهاد و التأسيس و لكي نصل إلى استخلاص أهم سمات و قسامات منهج الغزالي الدعوي ينبغي ان نقف أولا على تصووره الخاص للمجالات التي يرى أهمية وضرورة أن تهتم بها الدعوة و الفضاءات التي لا بد أن تستغرقها جهودها ، و هذا الجانب تحديدا - كما اعتقد - يشكل معالم رئيسة و مركزية في تركيبة النسيج العام لمركزات و دعامات منهج الغزالي الدعوي ، و انتي أراها تتمثل فيما يأتي :

(١) - إرجاع الناس للفطرة الصحيحة : يؤمن الشيخ الغزالي إيمانا حاسما بأن الدين الحق هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، و بما أن الإنسان وفق هذه الحقيقة القرآنية المقررة له نسب سماوي كريم ، فإن أي فرد - من هذا النوع - لا يعدم حظا أو قدرا معيننا - ضؤل أم عظم - من هذه الفطرة ، و يذهب الغزالي إلى أن عدة عوامل تتسبب أو تؤدي إلى مرض هذه الفطرة أو إفسادها في تركيبة الناس النفسية و الفكرية و السلوكية بعد ذلك ، منها التقاليد و الأعراف المنحرفة ، و منها البيئة الموبوءة العليلة البعيدة عن هدايات الله ، و الشيخ الغزالي في هذه الرؤية يتناغم مع أصول حقائق الوحي الأعلى ، و هو ما يدل بقوة على عمق صلة الشيخ بالقرآن الكريم .

و المهمة الأولى للداعية كما يرى الغزالي إنما هي بذل الجهد المناسب - و المطلوب لكل حالة - من أجل الكشف عن إشعاعات معدن الفطرة الثاوي في أعماق النفس البشرية ، و هذه النفس ستقترب من منابع أصلها السماوي لتستقيم على منهج الله بقدر لمعان هذه الفطرة في أعماقها ، فليس من المستغرب بعد ذلك أن نجد الغزالي و هو يتحدث عن منهجه في الدعوة يقول : " إنني أعتقد أن الدين هو الفطرة السليمة قبل أن تشوهها تقاليد سيئة و أفكار سقيمة ، و أن أنصبه للناس من سلامة الفطرة شديدة التفاوت ، و أن هذه الأنصبه موزعة على خلق الله حيث كانوا ، و من ثم فأنا أرقب ما يصدر عن الناس من أقوال و أفعال و أزنه بمعيار الفطرة المقررة عندي ، فما كان خيرا قبلته و ما كان شرا رفضته ... و في حالتي الرفض و القبول فأنا أكمل للناس ما نقصهم ، أوكد ما لديهم ، من التراث الذي خصني الله به ! أعني من الإسلام الذي هداني الله إليه ، إذ أوجدني في بيئة يسرته لي و مكنتني منه ، إن الأديان أقدار ! و إذا أنعم الله علي بالإسلام فلاقدر هذه النعمة ، و ليكن تقديري لها أن أعامل من حرموها بشيء من الوعي للظروف التي أحاطت بهم ... و الواقع أنني أكره العنف و التحامل على الآخرين ، و بقدر ذلك أكره العدوان على ديني و الافتيات على حقي ... من أجل ذلك لم أتهيب أي مجتمع أدعو فيه ، و لم أستوحش من الأسماء السائدة أو العناوين الشائعة للمذاهب الاجتماعية و الاقتصادية المختلفة ، بل من نقطة التلاقي

بين الفطرة التي عرفتها بالوحي ، و عرفها غيري بالتجربة أو بالفلسفة أو بالعلم ، من هذه النقطة أبدأ العمل لديني و أنا متمكن و مستريح (١) .

إن ما يمكن فهمه هنا أن الشيخ الغزالي ممن يعتقدون بجدوى الكشف عن سلامة الفطرة في النفس الإنسانية ، و هو لذلك يعتبر أن الدعوة ينبغي أن توجه جزءا من جهودها و برامجها صوب هذا المجال ، و لا غرو فالغزالي ينبعث في هذا التشخيص من فقيه لقول الله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) (٢) ، كما أننا نراه من هذا المنطلق نفسه يحتفي بإبراز الأبعاد و الجوانب الإنسانية في الدين و الثقافة و الفكر و الفلسفة و التاريخ و منظومة المسلمين الحضارية بشكل عام ، و هو أيضا في الوقت الذي يدعو فيه إلى ضرورة و جدوى أن يصحح المسلمون إنسانيتهم ، يكثرث بذوي المنازع المحايدة و أصحاب الأفكار الناقدة و العقول اللماعة الباحثة عن الحقيقة (٣) و دلالة ذلك كله لا تخفى أبعادها و لا تضحل مقاصدها و مراميها ضمن سياق شبكة المفاهيم و التعاليم و الآراء التي يؤسس لها توجه الشيخ الغزالي في الدعوة و البلاغ و التغيير .

(٢) - العناية بالعوامل المرتبطة بعملية التغيير : إن التغيير في فهم الشيخ الغزالي ليس عملية سحرية بعيدة عن الخضوع للقوانين الطبيعية و المعايير المنطقية التي تربط النتائج بمقدماتها و الأسباب بمسبباتها ... و إنما هي على العكس تماما من ذلك ، فالتغيير في رأي الغزالي كالبذرة لا تكون صالحة للإنبات و الإيناع إلا إذا توافر شرطان: الأول جبلي متعلق بحالة البذرة ذاتها، والثاني موضوعي متعلق بنوعية الري و المناخ الذي تتطلبه هذه البذرة، ووفق هذا التحديد الحاسم فإن غاية ما يصبو إليه الدين-كما يعتقد الشيخ الغزالي- " أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل، فإذا ضمنا هذا الجو الرطب فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته...وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس في بطون الكتب، أو كلاما تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ وخطب المنابر لا يثمر غير التوجيه النظري"(٤). لذلك فإن الغزالي في مساره الدعوي وجهاده الفكري اهتم -أول ما اهتم- بأوضاع الجماهير الاجتماعية و الاقتصادية و خاض أولى معاركه الفكرية في هذه الحقول و المجالات ، و ما ذلك -كما يترأى من خلال الملامح العامة لمنهج الغزالي- إلا من أجل التمكين للدين و خدمة الدعوة ، و الشيخ يعلن ذلك بوضوح كامل فيقول :

(١) محمد الغزالي "مقتطفات من مذكرات الشيخ: قصة حياة مجلة إسلامية المعرفة ، (مصدر سابق) عس ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) سورة الروم آية : ٣٠

(٣) كمثال على ذلك يمكن مراجعة فصول : (الإسلام دين المفكرين) و (هل يتجهون نحو دين طبيعي) و (تدين يكره الحضارة و حضارة تكره الدين) في كتاب الشيخ (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) وكذلك مقدمة كتابه (جند حياتك) .. و فصول : (أوام في طريق الدعوة) و (غربة المعارف قبل تقديمها للناس) و (عودة إلى منابع الثقافة) في كتابه (مستقبل الإسلام خارج أرضه) و مقدمة و فصل (هل للفضائل أسباب اقتصادية) ضمن كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ..

(٤) محمد الغزالي ، الإسلام والأوضاع الاقتصادية (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط ٥ ، ١٩٦١ م) ، ص ٥٠ .

و قد رأيت بعد تجارب عدة أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة و الأعمال الصالحة و الأخلاق الفاضلة !! إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت معدته خالية ، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريا ، إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان ، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان ... كثيرا ما وجدتني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعاها الفقر و المرض و الجهل ، فكنت أحر ... ماذا أقول لهم ؟ هل أقبح لهم الدنيا كما يظن أنه مفروض على علماء الدين ؟ إن الدنيا لن تكون أقبح مما هي عليه في أعين هؤلاء التعساء . و حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمس من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام ؛ و جمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة للزراعة و الصناعة و التجارة فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه و إخوانه ... و حكامه ! أعرفهم بالله عز و جل ؟ إن معرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة النفس ، فإن من عرف نفسه عرف ربه ، و هؤلاء التعساء مذهبون عن أنفسهم تائبون عن حاضرهم ، إن الشعور بالهوان و الحرمان قد شل تفكيرهم فاني يعزفون ربهم ؟ أو يشعرون بما قدموا له (١) .

و يزيد الغزالي أوضاع هذه الجماهير -موضوع الدعوة- توضيحا و تشريحا فيقول : " إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم فهيهات أن يأخذوا الأمانة الحقة للدار الآخرة ! أنا لا أنكر أن وراء حناياهم الضامرة قلوبا فيها إيمان ما ، و تدين ما ، لكن قيمة هذا كله تافهة ، لا تجدي على أصحابها كثيرا في الدنيا أو الآخرة ... و الدين الحق لا يؤدي رسالته في هذا الجو الخانق و لا تثمر عقائده في هذه البيئات العقيمة . فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع و الإصلاح العمراني الشامل ، إذا كنا مخلصين حقا في محاربة الرذائل و المعاصي و الجرائم باسم الدين أو راغبين حقا في هداية الناس لرب العالمين ... أما أن نترك الظروف التي تلد الجريمة حتما تنمو و تتكاثر ، ثم نكتفي في خدمة الدين بالنصائح المجردة ، و العواطف المفتعلة فهذا في الحقيقة هو البحث المبين (٢) " .

إن هذا الإدراك المكثف و العميق لواقع الجماهير يكشف حدود صلة الغزالي و ثاقب رؤيته لمكونات الظروف التي يتحرك فيها بدعوته ، كما يبين في الوقت ذاته تميز فقه الشيخ الغزالي للمداخل الفاعلة في عملية التغيير و الإصلاح ؛ و على ضوء هذا المنهج يمكن فهم أبعاد حرب الغزالي و حملته العنيفة ضد البطالة و ثالوث الفقر و الجهل و المرض ، و معنى ذلك أن الشيخ يدرك بوعي متكامل شروط العلاقة بين (الإنسان) و (التغيير) ، و مقتضيات هذا الأسلوب لدى الداعية هي بلا شك مختلفة عن مقتضيات منهج الفقيه أو المفتي الذي يتصدى لشرح الأحكام الشرعية و بيان قضايا الحلال و الحرام و قد لا يكون عارفا تماما بواقع الناس و ظروف حياتهم .

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٠ - ٥١

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥١ - ٥٢

لناس و ظروف حياتهم ؛ إن منهج الغزالي في الدعوة - كما تتبدى هنا بعض معالمه - يشبه منهج الجمع بين الطب و الصيدلة ، أي أنه طبيب يشخص الداء و صيدلي يضع الدواء ؛ و لعل هذا المعلم المفصلي في هذا المنهج هو ما أملى على الشيخ الغزالي الاعتقاد بكون الدين لا يشر في واقع الناس و لا ينتفع بتعاليمه و هداياته إلا في بيئة تحققت في جنباتها إنسانية الإنسان ، فهذا أيضا يدل على أن منهج الغزالي في الدعوة و التغيير لا موضع فيه للتفريق أو البناء الفوقي ، لأن النتائج المنطقية فيه إنما هي وليدة مقدمات صحيحة مكافئة لها .

(٣) - الافتتاح على مختلف التوجهات : سعى الشيخ الغزالي بجديّة واضحة إلى التفاعل الإيجابي و التواصل المسؤول و الواعي مع مختلف التيارات و الاتجاهات السائدة في المجتمع ، و لم يكتثر الشيخ كثيرا بالعناوين و الأشكال و الرسوم ، و إنما انصب اهتمامه على حقائق الأمور و جوهر الأشياء ، و على ما يقرب الرؤى و وجهات النظر ، لا على ما يعمق الخلاف و يوسع الجفوة ، و يظهر أن انتهاج الغزالي لهذا المسلك يعكس إقراره بكون معظم تلك التيارات و التوجهات تمثل ردود أفعال على ظواهر التخلف و التبعية التي ترزح تحت وطأتها المجتمعات الإسلامية ، أو هي استجابات متوترة أملتتها تحديات الدورة الحضارية التي تمنح بصفة سننية حازمة الهيمنة و التآلق لصيغة اجتماعية معينة و نموذج حضاري معين له خصوصياته و بصماته الإنسانية المتميزة .

و من مبعث هذه القناعات التي ترسبت في أعماقه تحرك الغزالي في كل الاتجاهات غير عابئ بناقدي نهجه ، و نحن نراه في مواضع كثيرة يصرح بذلك قائلا : " غشيت مجامع جادة و هائلة ، و شاركت في محاورات مخلصّة و منافقة ، و رفضت أن أجنم مكاني منتظرا طلاب الهدى ، بل نقلت قدمي هنا و هنالك متعرضا لهم متحدّثا إليهم ... و عاب علي البعض أنني دخلت الاتحاد الاشتراكي قائلا : لا أمل في هذه المؤسسات المفتعلة لخدمة الحاكمين !! و كان رأيي أن أجهر بصوت الحق حيث اجتمع الناس فمن يدري ؟ لعلهم يستجيبون ! و لم أندم على هذا المسلك فقد استطعت به محو باطل و إثبات حق .. و لم أعدم أعوانا شرفاء في كل مجال ، بل لقد و انت فرص كاد الزمام يفلت فيها من أئمة الضلال ، لأن وهج الحق أحرق كل الحجب ... و لما وجد خصوم الإسلام خطر دعائه الأقوياء لجأوا إلى التزوير حتى يحرّموهم منابر يعلنون فيها رأيهم و يقولون فيها كلمتهم (١) " .

إن ما يبدو هنا أن الشيخ الغزالي ينطلق من تصور مفاده أن الداعية ليس باحثا متفرغا لدراسة الأفكار و ترتيب المعلومات أو عالما أكاديميا منكبا على غربة التراث و تنسيق المعارف ، و لكنه قبل كل شيء صاحب رسالة يعمل لأجلها و يستضيء بالعلم و المعرفة في سبيل خدمة أهدافها و التمكين لها في دنيا الناس و في الواقع الحي ؛ و قد لازم هذا التصور الشيخ الغزالي طوال فترات و مراحل جهاده و نضاله في ساحات الدعوة و البلاغ و العمل الإسلامي ، حتى أصبح هذا التصور طبعا في شخصية

(١) محمد الغزالي ، معركة المصحف في العالم الإسلامي (الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت) ، ص ٢٨١

الشيخ وسلوكه لا يتجرد منه حتى في غياب السجن و الظروف الحرجة ، فعندما كان معتقلا بطور سيناء -كما يروي ذلك بقلمه- اقترح على نفر من إخوانه أن يذهبوا لمحاورة الشيوعيين المجاورين لهم في المعتقل أملا في هدايتهم إلى الحق و سبيل الرشاد (١) ؛ و من هذا المنطلق نفسه ظل الشيخ حتى في كتاباته المتأخرة يردد : " ليس هناك مجال لإلغاء العقل و رفض الرأي الآخر ، لا بد من تبادل الحجج و نشدان الحقيقة وحدهما ... لا مكان لتكميم الأضواء و فرض وجهة نظر واحدة ... صاحب الصواب لا يهاب النقاش ، صاحب الحق يغشى به المجالس و يقرع به الأذان " (٢).

(٤) - تجاوز قضايا الخلاف الفقهي : يرى الشيخ الغزالي أن الداعية الحنيف وهو يمكن ادعوتَه و ينتقل بها من طور إلى آخر ملزم بتجاوز الخلاف النظري في ميدان الفقه ، فإن الأولوية عنده إنما هي إنجاز الدعوة و إنضاج الفكرة ، لا ترجيح رأي على آخر أو التعصب لاجتهاد ما على حساب وجهات نظر أخرى لها وزنها المتقارب ، ففقه الموازنات و الأولويات يدفع الداعية إلى الكياسة في التعامل مع الواقع ، و حسن توظيف حصائله العلمية و الفكرية في حل المعضلات المطروحة و تخفيف وطأة المشكلات القائمة .

ويعتبر الشيخ الغزالي خير نموذج - نظريا و عمليا - في تمثّل و تجسيد هذه الرؤية ، فقد حارب الشيخ التعصب المذهبي و الجمود على الرأي ، و دعا إلى تقديم الأصول على الفروع و المقاصد الكبرى على المعاني القريبة ، في الوقت الذي شدد فيه على وجوب احترام أئمة المذاهب و المجتهدين الذين يراهم صورة مشرقة في تاريخ الحربة العقلية و الفكرية للحضارة الإسلامية ؛ و قد تركزت رؤية الشيخ الغزالي إزاء هذه القضية حول ضرورة انتهاج سبيل الموازنة و تقديم مصلحة الأمة على الانتصار لوجهة نظر فقيه ما ، أو التعصب لاجتهاد مذهب معين ، و تتجلى بعض معالم و محددات هذه الرؤية في قوله : " إنني أرفض أن يبقى تدريس الفروع الفقهية على النحو المذهبي الضيق الذي ينتشر في أكثر بلاد الإسلام ، و أرفض أي شارة تقسم المسلمين جماعات قد سجت كل واحدة منها نفسها وراء رجل من كبار الفقهاء أو صغارهم (...). إن هجر الأصول علق الأمة بآراء الرجال الكبار ، ثم تعلقت بعد ذلك بآراء الفقهاء الصغار ، ثم جاءت أيام أصبحت فيه السنن مستغربة و النصوص مبهمّة و منابع الإسلام مهجورة ، ثم وقعت الأضحوكة الكبرى إذ أصبح أتباع المذاهب الفقهية يتعصبون لأنتمهم تعصبا أعمى (...). ثم انحدرت الخلافات المذهبية من سنين طويلة إلى هاوية أعمق ، إذ تحولت إلى عصبية طائفية متحادة ، يصحبها قدر كبير من جمود الذهن و بلاغة العاطفة و سوء العشرة (٣) " .

(١) محمد الغزالي ، الحق المر ، ج ٤ (القاهرة : دار نهضة مصر ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م) ، ص ١٨٣

(٢) محمد الغزالي ، أزمة الشورى في المجتمعات العربية و الإسلامية (القاهرة : دار الشرق الأوسط للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٠ م) ،

(٣) محمد الغزالي ، كيف نفهم الإسلام (الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م) ، ص ٢١٠ - ٢١١

إن أطروحة الشيخ الغزالي في هذا المجال تذهب إلى أن خدمة الدعوة تقتضي من الناحية العملية تجاوز فضايا الخلاف الفقهي و المذهبي ، لأن اجتذاب الناس برفق و لين للإسلام و هداياته العامة هو بؤرة سمل الدعوة و المسلحين ، و هو ما يجعل الداعية أكثرثا بمصلحة الدعوة و ما ينفع الأمة في حاضرها و مستقبلها ؛ أما صياغة تفكير الناس على نمط محدد و وفق لون بعينه من الرؤى و الاجتهادات داخل الدائرة الإسلامية الرحبة ، فأمر له مخاطره و سلبياته على مسار الدعوة و سلامتها ؛ إن هذا الطرح الذي يقدمه الشيخ الغزالي لا سيما من خلال مؤلفه " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين " له ترجمة واضحة أيضا في سلوك الشيخ العملي و منهجه الدعوي .

ثانيا : أهم خصائص منهج الغزالي الدعوي :

من خلال مباحث هذا الفصل ومن خلال الفضاءات السابقة (دعائم منهج الغزالي الدعوي) بالإضافة إلى معطيات أخرى يمكن لنا استنتاج الخصائص الآتية لمنهج الغزالي الدعوي :

(١) تطابق الطرح النظري مع الممارسة العملية ، مما يعني أن منهج الغزالي الدعوي يأبى أي انفصام بين شخص الداعية و دعوته ، وهذه الميزة جعلت شخصية الشيخ الغزالي نموذجا حيا وحيويا و مثالا فاعلا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الدعوة و الداعية .

(٢) - التمسك الكامل بالوسطية و الاعتدال و الواقعية في معالجة الأدواء الإجتماعية و النفسية ، و التعامل مع الاتجاهات الفكرية و السياسية و الفنية و نحوها .

(٣) - عمق الإيمان بالتغيير من منطلق الحقائق القرآنية الراسخة و ثوابت النفس البشرية و إدراك الخصوصيات ، مما طبع هذا المنهج بقسمات كثيرة متفردة و فاعلة .

(٤) - التركيز على ترسيخ الحقائق الإسلامية الكبرى ... أي دعم الإنتماء الإسلامي في دائرته و صورته الشاملة ، بعيدا عن أي اكرثات بالجزئيات و الفرعيات ، فالعبرة بمعيار منهج الغزالي - تكمن في إبراز فرادة و تميز النسق الإسلامي في تجلياته المختلفة : الفكرية و الإجتماعية و الإنسانية و نحوها ...

(٥) - يرتكز منهج الغزالي في الدعوة و التغيير على قاعدة علمية راسخة ، فهو ممن يؤمنون بجدوى الجمع بين العلوم الشرعية و الثقافة الواسعة المتنوعة ، الأمر الذي أهل هذا المنهج لتوظيف المعرفة و استثمار معطياتها المختلفة ضمن رؤية متوازنة ، في عملية التغيير و الإصلاح الفكري و الإجتماعي .

(٦) - الدعوة الحارة للإقتداء بالسلف الصالح لا سيما أهل القرن الأول ، و التركيز على روح التجديد و الإحياء ، ففهم العصر و الواقع هو في هذا المنهج جزء أصيل من الطبيعة الحية و المتجددة في سيرورة و حركة رسالة الإسلام .

(٧) - التشديد على إبقاء المسجد القاعدة الأصلية للدعوة و بذل الجهود المنهجية لإحياء و بعث رسالته عبر برامج مدروسة و مخططات هادفة ... والاستغلال الواعي لمختلف أدوات و وسائل الدعوة و البلاغ ، سواء منها التقليدية أو المستحدثة .

٨- استخدام الخطاب النفدي الهادف في اتجاهين متعاكسين ، فقد بذل الشيخ الغزالي جهودا معتبرة -و هي من صميم منهجه الدعوي- في نقد ظواهر التنطع و الغلو و التدنن الفاسد المنحرف ؛ كما وجه مثل تلك الجهود ضد دعاة التغريب و انسلاخ هوية المسلمين عن جذورها الثقافية و الحضارية ، و مرجعيتها العقديّة و الفكرية .

٩- مخاطبة الفطرة بروحانية دافقة ، شفافة ، و الاجتهاد الدائم لإقناع العقل وفق مبادئه و أدواته الطبيعية و المنطقية دونما تعسف أو شطط و تكلف ، و ربط ذلك كله باليقين القلبي ، قصد بناء الإيمان على أسسه و قواعده الصحيحة .

١٠- التغيير في منهج الشيخ الغزالي الدعوي ليس مجرد جهود و تراكمات في ميادين الوعظ و النصيح و الترشيد و الإصلاح الثقافي و الفكري و التربوي ، و إنما هو معادلة متماسكة العناصر و الوسائل و الغايات ، قائمة على سنن ثابتة لها نتائجها الصارمة على مستوى الفرد أو الجماعة أو الواقع المتعامل معه ، و هذه الميزة كما تعكس رسوخ تجربة الشيخ الغزالي في الدعوة فهي تشير إلى عمق استبصاره و استبصاره بحقائق القرآن الكريم و منهجه في بناء الأنفس و المجتمعات و الأمم .

القائمة :

مما لا ريب فيه مطلقا أن قادة الفكر والإصلاح والتجديد والإبداع هم أنفسهم ما تعزز به الأمم وتتفاضل به الاتجاهات والحضارات الإنسانية في هذه الدنيا .. وبالنسبة للأمة الإسلامية فإن من يُدرجون في عداد هذه الكوكبة الممتازة من بنيتها إنما يمثلون الضمير الصاحي المتيقظ في كيانها والمناثر المشعة أبدا في مسارها وتاريخ حضارتها ، ثم إن المجددين والمصلحين في الأمة الإسلامية يختلفون عن أمثالهم في بقية الأمم والحضارات ، فإذا كان هؤلاء يقصرون جهودهم على رعاية مصالح شعوبهم وأممهم وإصلاح شؤونها المختلفة في هذه الدنيا المحدودة أو في نطاق عالم الحس الضيق " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " (١) ... وإذا كانوا لا ينطلقون أيضا في تلك الجهود والاجتهادات التي يقدمونها من مرجعية معصومة تمثل لديهم الثبات والسمو والقداسة .. فإن قادة الفكر والدعوة والإصلاح والتجديد في الأمة الإسلامية هم ورثة الأنبياء والصديقين والمجاهدين والشهداء يجددون بالإسلام فكر المسلمين وتصوراتهم لتتجدد به حياتهم و واقعهم ومؤسساتهم وليضمنوا لهم تحقيق خيري الدنيا والآخرة؛ لذلك فإن جهود واجتهادات قادة الفكر والدعوة المسلمين ليست متافرة أو متضادة ، وإنما يجوز وصفها بأنها حلقات مترابطة في سلسلة ذهبية واحدة ممتدة مع الزمن مشدودة بمئاته عجيبة إلى منبع خالد معصوم يمدّها أبدا بالطاقة والقوة والإشعاع ، وهذه الميزة ذاتها هي التي توحي بأن جهود وعطاءات المجددين من قادة الفكر والبلاغ والاجتهاد في الأمة الإسلامية ليست مجرد جهود يراود منها الإحياء المعزول عن المقاصد الكلية أو التقيب في الموروث لبعث زخم قديم كان مهملا أو منسيا ، وإنما القصد منها التفاعل الموضوعي مع الواقع الجديد - في حدود ما يتيح مقتضى الاعتقاد والقدرة على التكيف - من منطلقات الهدي الأزلي والمرجعية الخالدة ، فالتجديد وفق هذا الفهم يضحى شرطا لأصالة التدين واستمرار جوهره مهما تقدمت وتغيرت معطيات الماضي ومهما استجدت أيضا وازدادت وتعاضمت القضايا والوسائل الراهنة أو المتوقعة في المستقبل ، ولأشك أن هذا البعد الزنيقي المرن - بقدراته المذخورة في التبنّي والاستيعاب والإبداع - الذي هو جانب هام من قواعد الإسلام الاجتهادية المتحركة يضمن خلود هذا الدين ويرفد صلاحيته - الموعلة في الثبات والأزلية - لكل زمان ومكان أو خصوصية حضارية وإنسانية .

ومن منطلق الإدراك والوعي بقيمة ونفاسة هذه المعاني وتقدير حدود الاستفادة منها في عملية الإصلاح الشامل لفكر الأمة الإسلامية ومعرفتها ومناهجها ومؤسساتها ، فقد اتّجه هذا البحث لدراسة تجربة ومشروع واحد من أعلام هذه الأمة ورمز من رموز التجديد في مسيرتها الحضارية في هذا العصر هو الشيخ الإمام محمد الغزالي - يرحمه الله (*) - وبعد توفيق الله وعونه ومدده الغامر الذي

(١) سورة الروم : آية ٧

(*) بواعث اختيار هذه الشخصية وإفرادها بدراسة مبسطة في مقدمة هذه الأطروحة .

شعرت بفيضه في إنجاز فصول ومباحث هذه الأطروحة نود الآن - بعد هذه الדיباجة المقتضية - أن نذكر ما يأتي :

أولاً: الانطباعات :

أ- لقد تبين لي من خلال الممارسة العملية أنني لو مضيت في الكتابة لبلغت صحائف هذه الأطروحة عدة أجزاء ، فقد وجدتي إزاء فكر الغزالي أمام بحر هادر أو قبالة محيط بعيد الغور ، وكثيراً ما انتابني شعور - وأنا أكتب مباحث هذه الأطروحة - بأن الدراسة المحيطة لمشروع الشيخ الغزالي في الفكر والدعوة والحركة والبلاغ والتغيير إنما تتطلب فريق عمل جاد يتكون من باحثين موهوبين ذوي كفاءة عالية في العلوم الشرعية والتراث الإسلامي مع خلفية حسنة في الفكر الإنساني والعلوم الاجتماعية والإنسانية ، لذلك فإنني لا أجد غضاضة أبداً في إثبات ضعفي وعجزتي إزاء الإحاطة المطلوبة أو المرغوبة لتغطية كل محاور وجوانب شخصية الشيخ الغزالي أو فكره ودعوته ومواهبه الثرة المتجاورة في كيانه الفذ .

ب- شعرت وأنا أقرأ نتاج الغزالي الفكري وأتفرس في شمائل وخصائص شخصيته - إلى جوار ما كان قد رسخ في ذهني عنه - أن الشيخ الغزالي كان لفته نقية من القدر أو هدية نفيسة من لده لدعم الحق والرشد في هذا العصر الكئيب ، الذي أسم الواقع الإسلامي فيه بانحطاط رهيب وبتراجع مفزع لدور المسلمين الحضاري والإنساني ، وقد وجدت أن الغزالي يشير إلى ذلك في مذكراته ووجدت أنه لا يشعر بالخزي للظروف التي اكتفت ميلاده وبروزه للحياة في أسوأ القرون التي مرت بالإسلام ، فإن الكثير من علماء هذه الأمة ومجددي فكرها - كما يشير - قد ظهوروا أيضاً في ظروف مشابهة ومنهم ابن تيمية في القرن السابع الهجري ، وكذلك رموز الإحياء والنهضة والتجديد الإسلامي في العصر الحديث .

ج- لقد قيل إن العظمة كالشمس تكسف ماعداها والعبقرية كالضياء تغمر كل شيء سواها ... بيد أن للعظمة جوانب كثيرة ومظاهر متعددة تخلب الناظر وتستولي على ذهن المفكر ، والناحية البارزة هي التي تستأثر بالإهتمام وتمتلك الانتباه ، وقد لمست ووقفت على بعض جوانب العظمة الحقيقية في شخصية الشيخ الغزالي ، تلك العظمة التي اقتبس جوهرها وفحواها من الإسلام ، واستمد أبعادها الإنسانية الفذة من صاحب الرسالة العظمى - صلى الله عليه وسلم - وقد صرح هو نفسه بذلك مزاراً كما في قوله مثلاً : " أنا رجل مسلم عن علم أعرف لماذا أمنت بالله رب العالمين ولماذا صدقت بنبوّة محمد ولماذا تابعت الكتاب الذي جاء به " أو قوله : " إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تابع عن سيده أو تلميذ عن أستاذه " (*)... لذلك فأنا أشعر دائماً أنه إذا كان هنالك من يعتقد بأن من العظماء من يشعر المرء في حضرتهم بأنه صغير ، فإن الأصوب برأيي هو أن العظماء الحقيقيين هم من يشعر المرء في مجالسهم أو في الانفعال والتفاعل مع فكرهم وخصائصهم الذاتية بأنه عظيم لأنه يقتبس من أشعة همهم العالية

(*) مجلة المجلة السعودية " شخصية عام ١٩٨٩ م الإسلامية " (العدد ٥١٦) (إحالة سابقة)

وألقت ضمائرهم وشفافية نفوسهم وأرواحهم ما يعيد له الثقة بذاته والإحساس الصحيح بقيمته ... والشيخ الغزالي هو من النوع الأخير ، لأنني كثيرا ما كنت أحس وقع تيار هذه المعاني في نفسي وأنا أتفاعل مع الخصائص والأبعاد العامة لشخصه وفكره .

د- إن خصوبة و دسامة العطاء الفكري للشيخ الغزالي وعناصر التجديد في مشروعه الفكري والقدرة على توليد الأفكار الحية البانية ... كل ذلك يدفعنا للإعتقاد بأن الشيخ الغزالي ما يزال له مجال للقول والعطاء المبدع - لو كتب الله تعالى له العيش لسنوات أخرى - وإن كان اعتقادي يتجه في الوقت ذاته إلى كون الشيخ قد قال وصاغ وأعطى أهم وأنفس ما عنده مما حبه العناية العليا به .

ثانيا: الاستنتاجات :

إن أهم الاستنتاجات التي يصح استخلاصها من الجوانب العامة لهذه الأطروحة تتمثل فيما يأتي :

١- أثبتت فصول هذا البحث أن الشيخ الغزالي رجل قرآني بالمعنى العميق والشامل لهذه الكلمة ، وأنه سعى طيلة حياته ومنذ وعيه بحقيقة رسالة الإسلام ، سواء بشمائله الذاتية والخلقية وأبعاد وخصائص شخصيته العامة ، أو بفكره واجتهاده وعلمه .. إلى إنصاف الوحي والبرهنة على أن الإسلام هو صانع النماذج الإنسانية الفذة المؤهلة لبناء الحضارة الرائدة والاستخلاف الحق عن الله في أرضه ، النماذج المرتبطة بمنهج الإعمار الصحيح وإرساء ودعم قيم السعادة والخير والحق والجمال وفق ما يقتضيه ويتطلبه السعي الطيب والتكريم الإلهي والحياة السامية للإنسان في هذا الكون وعلى ظهر هذه البسيطة .

٢- يتسم فكر الغزالي في عمومته بالإتزان والوسطية والفقهاء الناضج الصحيح، الأمر الذي أهله لجهد التأسيس للرؤية الإسلامية الشاملة وتأسيس القضايا الجزئية والمشكلات الفرعية في الفكر الإسلامي كي تكون أنساقا معرفية فاعلة وغير شاذة أو مصطنعة ولها مكانتها أيضا في حدود محيطها و مرجعيتها ، لتمكين العقل المسلم من الإفادة منها في إطار المقاصد الكلية والغايات العامة للإسلام ، وخير مثال لما قصده كتاباه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) و (كيف نتعامل مع القرآن) .

٣- يمثل الشيخ الغزالي بمعطيات شخصيته الثرة وخصوبة مشروعه الفكري مدرسة في الفكر الإسلامي المعاصر لها خصوصياتها وبصماتها المتفردة ، وذلك بالرغم من انتمائه منهجيا وفكريا لمدرسة الإحياء والتجديد والإفادة المفتوحة من تراث الإسلام وعطاءات العقل الإنساني ... فقد كتب الغزالي في كل أو معظم محاور الفكر الإسلامي و المتمثلة فيما يأتي :

* محور الدراسات القرآنية: وفيه قدم مؤلفاته : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، وكيف نتعامل مع القرآن ، والمحاور الخمسة في القرآن ، ونظرات في القرآن .

* محور السنة النبوية ومنهج التعامل مع قضاياها: وفيه قدم : السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، ومن كنوز السنة .

* محور العقيدة الإسلامية: وفيه جاء كتاباه : عقيدة المسلم ، وركائز الإيمان بين العقل والقلب .

محور الأخلاق و السلوك و التربية الروحية: وفيه قدم كتبه : خلق المسلم ، و الجانب العاطفي من الإسلام ، و جدد حياتك .

* محور السيرة و الأدب النبوي: وفيه قدم : فقه السيرة ، و فن الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء .
* محور الدعوة و الحركة و البلاغ: وفيه جاءت مؤلفاته : مع الله : دراسات في الدعوة و الدعاة ، و الدعوة الإسلامية تستقبل قرننا الخامس عشر ، و من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث ، و في موكب الدعوة ، و عالمية الرسالة بين النظرية و التطبيق ، و هموم داعية ، و مستقبل الإسلام خارج أرضه ، و جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج .

* محور النظم الإسلامية و الصراع الإيديولوجي: وفيه وضع مؤلفاته النفيسة : الإسلام و الأوضاع الاقتصادية ، و الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين ، و الإسلام و المناهج الاشتراكية ، و الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، و الإسلام و الاستبداد السياسي ، و أزمة الشورى في المجتمعات العربية و الإسلامية ، و من هنا نعلم ، و الاستعمار أحمق و أطماع ، و حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة .

* محور الثقافة الإسلامية و البناء الاجتماعي الإسلامي: وفيه قدم : تأملات في الدين و الحياة ، و ليس من الإسلام ، و معركة المصحف في العالم الإسلامي ، و كفاح دين ، و الإسلام و الطاقات المعطلة .
و حصاد الغرور ، و قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة و الوافدة ، و مشكلات في طريق الحياة الإسلامية .
و علل و أدوية ، و سر تأخر العرب و المسلمين ، و الطريق من هنا ، و سلسلة الحق المر ، و الثقافة الإسلامية بالإشتراك مع الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني .

* محور الفقه و الاجتهاد و بناء المعرفة الإسلامية: وفيه صنف كتبه : هذا ديننا ، و دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، و مائة سؤال في الإسلام ، و كيف نفهم الإسلام ، و تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل .

* محور المواجهة الثقافية و الدفاع عن هوية المسلمين الحضارية: وفيه جاءت كتبه ، قذائف الحق ، و ظلام من الغرب ، و الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، و واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر الهجري ، و صيحة تحذير من دعاة التنصير ، و التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام ، و حقيقة القومية العربية و أسطورة البعث العربي ، و دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين .

٤ - يعتبر فكر الشيخ الغزالي ثمرة ناضجة لمبادئ و دعوة الكثير من زعماء الإصلاح و الإحياء الإسلامي منذ حركة محمد بن عبد الوهاب و صرخة جمال الدين الأفغاني المدوية في أرجاء و جنبات العالم الإسلامي ، مروراً بمحمد عبده و محمد رشيد رضا و ابن باديس و محمد الخضر حسين و محمد البشير الإبراهيمي و المودودي و محمد إقبال و حسن البنا و نحوهم

فإن ما طرحه هؤلاء - و من هم على شاكلتهم - مجملا في دعواتهم و حركاتهم و مناهجهم ، صاغه الغزالي أحسن صياغة و عمق تأصيله في أدبيات الفكر الإسلامي المعاصر ، و منحه طاقة جديدة و فاعلية مذخورة من خلال تأثيره في مسار الصنعة الإسلامية المعاصرة و تبني أجيال هذه الصنعة لتلك المناهج و الأفكار و الطروحات و الأنظار .

٥ - استطاع الشيخ الغزالي أن يقدم خطابا نقديا للفكر الإسلامي و الواقع الإسلامي أساسه المراجعة المنهجية و إعادة البناء بمنأى عن الحلول التاريخية و القوالب الفكرية الجاهزة ، و بعيدا أيضا عن الاستكانة غير المبررة لضغوط الحضارة الغربية و التجليات السرابية المصطنعة للحياة المعاصرة ، بمعنى أنه استلهم خصائص و معطيات الإسلام المختلفة و هو يصوغ منظوره و ينحت منهجه في ترتيب عناصر معادلة الأصالة و المعاصرة ؛ و من ثمة فإنني اعتبر الشيخ قد أبدع فكريا و تنظيريا و خطأ بالمشروع الإسلامي خطوات كبيرة تجاه المستقبل و التمكين الصحيح له في الأرض و الواقع الإنساني المائل .

٦- لقد خدم الشيخ الغزالي الإسلام و المذهبية الحضارية الإسلامية خدمة جليلة هائلة ، فإن الجهود التي بذلها طيلة ستة عقود من الزمن قد يستلزم إنجازها - في حساب البشر - فريقا كاملا من العاملين الصادقين الموهوبين ، و هو ما يكشف - بنظرنا - عن حدود و آماذ التوفيق الإلهي لمساعي الشيخ الغزالي و علو همته و إصراره على تنمية شعور الاعتزاز بالإسلام و الإلتزام البصير بمنهجه ؛ و قد نجح الغزالي - و هذا مجرد نموذج لتوفيقه و صدق عزيمته - في الانعطاف بطاقات و كفاءات عقلية و فكرية و علمية كثيرة نحو الإسلام ، حتى بات كثير من هؤلاء لا أقول ميالين فحسب أو متابعين لشؤون الإسلام و مساره الحضاري ، بل سدنة في محراب الفكر الإسلامي و أساة صادقين لجراحات هذه الأمة المكلمة و دعاة نابيين في ساحات العمل الإسلامي و حقول التغيير الاجتماعي و الصمود الثقافي .

٧- لقد أثبت هذا البحث تساوق الفكر و الدعوة عند الغزالي و عدم انفصالهما أو تقاقرهما ، فالفكر الصحيح الراشد بنظر الغزالي دعوة و إصلاح ؛ و التغيير النابه الذكي أو الدعوة القويمة أيضا عنده فكر و نظر سديد ، و لا غرو في ذلك فإن رسل الله و أنبياءه هم أصحاب الفكر اليناع الصحيح ، فينبغي على ورثة نهجهم و أتباعهم الصادقين الانتساء بهذه السمة العالية البارزة على مدارج التألق و الكمال .

٨- التزم الشيخ الغزالي في عطائه الفكري و منهجه الدعوي بكل القضايا الجوهرية الحساسة التي جعلت الأمة الإسلامية تتراجع عن دورها الرسالي الفذ العتيد ، و جعلت الإسلام - و هو منهج الله من الأزل إلى الأبد - لا يقود البشرية و لا يوجه منجزات الحضارة الإنسانية ، لذلك جاءت جهوده في مجملها استفارا عاما لمعالجة مظاهر الخلل و درء المغاسد و العطل ، عكس الكثير من الكتابات و المشروعات الفكرية التي جاءت تبريرا للواقع المنحرف أو اعتذارا عن الأخطاء و الخطايا الموروثة الشائنة ، و هو ما يفسر أيضا في الوقت ذاته قوة و صلابة مواقف الغزالي إزاء التحديات المشهورة في وجه الإسلام

و حضارته ، و تركيزه على المقاصد العامة من رسالة الإسلام و محاربتة الجارفة للأفكار المعلولة التي لا تتبصر الحقائق و لا تنزل الأمور منازلها .

٩- إن عناصر التجديد في عطاء الشيخ الغزالي الفكري و الدعوي انداحت عبر جنبات مشروعه الفكري كله ، حيث برزت في مختلف الموضوعات و القضايا التي كتب فيها أو عالجها أو تعامل معها ، و برأبي أن مغادرتة العمل التنظيمي الذي كان يشده إلى هيكل معين من التفكير ، إلى جانب جبروته العقلي و نزوعه للاستقلال في الاجتهاد و النظر و الاستبطاء ، صقل لديه الروح النقدية و أوجع في منهجه و هج التفكير الحر الذي يأبى القيود و الأغلال ، و هو ما جعل الغزالي مفكرا عالميا و داعية إنسانيا ، و تراثه مثابة تنتفع من معينها الأمة الإسلامية كلها ، دون أي نوع من الهواجس المذهبية أو الجغرافية (*) أو الإنتمائية أو التنظيمية أو نحو ذلك

١٠- إذا جاز قياس قيمة أي مفكر أو داعية بمدى صدق عطائه و بذله ، و عمق أفكاره و طرحه و تنظيره و قدرته المطردة على الإشعاع و التأثير و التواصل ، فإن فكر الشيخ الغزالي تكتنف معماره العام هذه السمات و المواصفات ؛ و من ثمة فإن تقديري يتجه إلى أن فكر الشيخ الغزالي سيكون له شأن خاص في المستقبل ، و سيكون الفكر الإسلامي مستقبلا بحاجة كبيرة إلى استلهامه و التفاعل مع ثمراته و خلاصاته ، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لفكر مالك بن نبي الذي لا يقبل التوقف عند منعطف ما أو بإزاء مرحلة من المراحل التاريخية بعينها .

ثالثا : المقترحات :

و في الأخير نضع المقترحات الآتية عسى أن تأخذ مجراها للتنفيذ :

١- بما أنني أقدر بأن هذه الأطروحة الجامعية هي الأولى عن الشيخ الغزالي مفكرا و داعية و بعد هذه الجهود العامة و الأولية ، فإن هذا البحث يقترح أن يتجه الاهتمام من قبل الباحثين لتناول قضايا محددة بعينها عند الغزالي في رسائل أكاديمية متخصصة ، و ذلك مثل : قضايا السنة النبوية في فكره و منهجه في التعامل معها ، و جهوده في مجال الدراسات القرآنية ، و الغزالي مفسرا ، و الغزالي فقيها و مجتهدا إسلاميا ، و فقهه لشؤون المرأة و الأسرة المسلمة ، و فكره السياسي ، و منهجه في الدعوة و الحركة و التغيير الاجتماعي ، و فقه السيرة و فلسفة التاريخ في عطائه الفكري ، و معاركه الفكرية و أثرها في نهضة الفكر الإسلامي المعاصر ، و مكانة إسلامية المعرفة في فكره و مؤلفاته ، و بواعث اهتمامه المميز بالوحدة الإسلامية العظمى ، و موقع الأدب و اللغة العربية و الثقافة الذاتية في مشروعه الفكري ، و دلالات القضايا الاجتماعية و الاقتصادية في تفكيره و اجتهاده ، و جهوده و منهجه في محاربة الغلو و التدين الفاسد و ترسيخ الوسطية ، و طريقته في المحافظة على معالم الشخصية المسلمة و الأقليات الإسلامية و مواجهة الغزو الثقافي و التبديل الفكري ، و عناصر التجديد في فكره و اجتهاده

(*)- كما هو الحال مثلا في التعبير الشائع : فلان من علماء المشرق أو المغرب الإسلامي ... إلخ ...

وأثرها في مسار الفكر الإسلامي المعاصر ... الخ ... ويمكن كذلك في هذا المضممار إنجاز رسائل وأطروحات تنحو منحى المقارنة بين فكر الغزالي ومشروعه الفكري وبين فكر ومشروعات غيره من قادة الفكر والإحياء والتجديد الإسلامي المعاصرين ، كالمودودي ومالك بن نبي وسيد قطب وأبي الحسن الندوي ، وعلي شريعتي وسعيد حوى وبديع الزمان النورسي ... ونحوهم

٢- السعي لدى كتاب النصوص الإسلامية التاريخية العامة لكتابة نص مشروع فلم عن حياة وجهاد الشيخ الغزالي، وذلك على غرار الأفلام التي أنجزت عن بعض المصلحين والمفكرين والأدباء ، وربما تأكدت لدينا أهمية وجدوى هذه الفكرة أكثر إذا نحن استحضرننا الجوانب والأبعاد الإعلامية في شخصية الشيخ الغزالي وممارساته الثقافية والمعرفية المتنوعة .

٣- وضع قاموس مفتاحي في شكل رؤوس أقلام أو أطراف جمل ، لكل نتاج وتراث الشيخ الغزالي الفكري والمعرفي ، لمساعدة الباحثين والدارسين ومحبي فكره وعلمه ، وتيسير وصولهم للموارد الفكرية التي يريدونها في هذا التراث الغزيري ، ربها للوقت واختصارا للجهد المرصود لمثل هذه الحالات التي تكون فيها معاناة طلاب المعرفة شديدة .

٤- العمل على جمع محاضرات ومداخلات ومشاركات الشيخ الغزالي التي أسهم بها في الملتقيات والتجمعات والمنتديات الإسلامية لتكون زادا ثقافيا وفكريا إلى جانب مؤلفاته وخطبه وبرامجه الإسلامية المسجلة في العديد من القنوات المسموعة والمرئية .

٥- السعي لدى أهل الخير من أثرياء المسلمين لتأسيس جامعة إسلامية تحمل اسم الشيخ الغزالي باعتباره مفكرا وداعية إسلاميا عالميا ، لتتولى هذه الجامعة خدمة الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية من المنظور الفكري والتصور الذي أرسى الغزالي طوال حياته الحافلة أسسه وآفاقه ومنطلقاته ؛ وحبذا أيضا لو يتم رفق مجهودات وأهداف هذه الجامعة بمركز دراسات وأبحاث ، ليكون الأفق مناسباً والفرصة ملائمة لتنمية فكر الشيخ الغزالي ، وبعث وتجسيد أهداف وغايات مشروعه الفكري التي تصلح رافداً هاماً لتفاعل العقل المسلم مع الواقع المناسب والمتغيرات الظرفية ، في الوقت الراهن أو المستقبل الذي نخطو نحوه على السواء .

و الله ولي التوفيق

عليه توكلت و إليه أنيب

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أ- مؤلفات الشيخ محمد الغزالي مرتبة ترتيباً ألفبائياً :

- ١- الإسلام و الأوضاع الاقتصادية ، ط٥ ؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١ م .
- ٢- الإسلام و الأوضاع الاقتصادية ، الطبعة الجزائرية الأولى ؛ الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت .
- ٣- الإسلام و المناهج الإشتراكية . ط٤ ؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ م .
- ٤- الإسلام و الإستبداد السياسي ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، د.ت .
- ٥- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين و الرأسماليين ، باتنة (الطبعة الجزائرية الأولى) - دار الشهاب ، د.ت .
- ٦- الإسلام و الطاقات المعطلة ، باتنة (الطبعة الجزائرية الأولى) الزيتونة للإعلام و النشر ، ١٩٨٧م .
- ٧- الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، بيروت و صيدا : منشورات المكتبة العصرية ، د.ت .
- ٨- الإستعمار أحقاد و أطماع ، ط٣ ؛ القاهرة : دار الكتب الإسلامية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
- ٩- أزمة الثورى في المجتمعات العربية و الإسلامية ، ط١ ؛ القاهرة : دار الشرق الأوسط للنشر ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م .
- ١٠- تأملات في الدين و الحياة ، ط٢ ؛ الإسكندرية : دار الدعوة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .
- ١١- التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام ، ط٣ ؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥ م .
- ١٢- تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل ، ط٢ ؛ هيرندن (فرجينيا) المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م .
- ١٣- جدد حياتك ، ط٣ ؛ قسنطينة : دار البعث (الطبعة الجزائرية الأولى) - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- ١٤- الجانب العاطفي من الإسلام ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، د.ت .
- ١٥- جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج ، ط١ ؛ الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م .
- ١٦- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام و إعلان الأمم المتحدة ، ط١ ؛ القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣ م .
- ١٧- حقيقة القومية العربية ، القاهرة : دار مكتبة العروبة ، د.ت .
- ١٨- حصاد الغرور ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، ١٩٨٦ م .

- ١٩- حصاد الغرور ، ط٣ : الدوحة : دار الثقافة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ٢٠- الحق المر ، ط١ : مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة و دار الشهاب بباتنة (الجزائر) ؛ ١٩٨٧ م ، الجزء الأول .
- ٢١- الحق المر ، ط٢ : القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٩٧ م ، الجزء الثاني .
- ٢٢- الحق المر ، ط١ : القاهرة : مركز الإعلام العربي ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م ، الجزء الثالث .
- ٢٣- الحق المر (جرعات جديدة من الحق المر) ط٢ : القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٩٧ م ، الجزء الرابع .
- ٢٤- خلق المسلم ، ط١٥ : الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م .
- ٢٥- خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين و الحياة (جمع قطب عبد الحميد قطب) - الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٩٠ م (أربعة أجزاء) .
- ٢٦- دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، ط٥ : القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٩٦ م .
- ٢٧- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، الجزائر : دار الكتب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- ٢٨- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، (الطبعة الجزائرية الأولى) - عين مليلة (الجزائر) : ١٩٨٨ م .
- ٢٩- ركائز الإيمان بين العقل و القلب ، طبعة الجزائر الأولى ، الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- ٣٠- سر تأخر العرب و المسلمين ، ط١ : القاهرة : دار الصحوة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ٣١- السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث ، ط١ : بيروت و القاهرة : دار الشروق ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م .
- ٣٢- صيحة تحذير من دعاة التصير ، ط١ : الجزائر : دار الانتفاضة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .
- ٣٣- الطريق من هنا ، ط١ : القاهرة : دار البشير للطباعة و النشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- ٣٤- الطريق من هنا ، الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٦ م .
- ٣٥- عقيدة المسلم ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، ١٩٨٥ م .
- ٣٦- علل و أدوية ، ط٢ ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- ٣٧- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، الجزائر : دار الكتب ، ١٩٨٧ م .
- ٣٨- فقه السيرة ، الطبعة الجزائرية الأولى ، الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- ٣٩- فن الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، د.ت .
- ٤٠- في موكب الدعوة ، الجزائر : دار الكتب ، ١٩٩٠ م .
- ٤١- فذائف الحق ، ط٢ : بيروت و صيدا : منشورات المكتبة العصرية ، د.ت .

- ٤٢- قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة و الوافدة ، طبعة الجزائر الأولى ، الجزائر : دار الانتفاضة للنشر و التوزيع ، ١٩٩٢م .
- ٤٣- كيف نفهم الإسلام ، الجزائر : دار الكتب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ٤٤- كفاح دين ، ط٦ ؛ الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٤٥- كيف نتعامل مع القرآن ، طبعة الجزائر الأولى ، الجزائر : دار الانتفاضة للنشر و التوزيع ، د.ت.
- ٤٦- ليس من الإسلام ، ط٦ ؛ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- ٤٧- من هنا نعلم ، الجزائر : دار الكتب ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٤٨- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث ، باتنة / الجزائر : دار الشهاب ، د.ت .
- ٤٩- مع الله : دراسات في الدعوة و الدعاة ، ط٥ ؛ القاهرة : المكتبة الإسلامية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٥٠- معركة المصحف في العالم الإسلامي ، الجزائر : مكتبة رحاب ، د.ت .
- ٥١- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، ط١ ؛ (سلسلة كتاب الأمة رقم ١) - الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٥٢- مائة سؤال في الإسلام ، القاهرة : دار ثابت للنشر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، الجزء الثاني .
- ٥٣- مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه ، الجزائر : دار الكتب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ٥٤- المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، ط١ ؛ القاهرة : دار الصحوة ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- ٥٥- محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع (جمع قطب عبد الحميد قطب) - طبعة الجزائر الأولى ، الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٩٠م .
- ٥٦- نظرات في القرآن ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، ١٩٨٦م .
- ٥٧- نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، ط١ ؛ الجزائر : وزارة الشؤون الدينية ، منشورات المركز الثقافي الإسلامي ، ١٩٨٧م .
- ٥٨- هذا ديننا ، ط٢ ؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ٥٩- هموم داعية ، باتنة : طبعة الجزائر الأولى ، دار الشهاب ، د.ت .
- ٦٠- واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر ، ط١ ؛ القاهرة : دار ثابت للنشر ، ١٩٨٣م .

- ١- حوار مع الشيخ محمد الغزالي ، إعداد دار المختار الإسلامي ، القاهرة : دار المختار الإسلامي للنشر و التوزيع ، ١٩٩٦م .
- ٢- عبد الحلیم عویس " الشيخ محمد الغزالي : قصة داعية جاهد بقلمه و لسانه نصف قرن " مجلة الفيصل السعودية (العدد : ١٤٧) - (رمضان ١٤٠٩هـ / أبريل و مايو ١٩٨٩م)
- ٣- عبد الحلیم عویس " حوار و مراجعة مع الشيخ محمد الغزالي " مجلة الفيصل السعودية (العدد : ١٨٩) - (ربيع الأول ١٤١٣هـ / سبتمبر ١٩٩٢م) .
- ٤- عمر عبید حسنة " فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعوة : في حوار مع الشيخ محمد الغزالي " هدية مجلة الأمة القطرية (رمضان ١٤٠٤هـ / يونيو ١٩٨٤م)
- ٥- محمد الغزالي " قصة حياة : مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي " مجلة إسلامية المعرفة ، ماليزيا (العدد : ٧) (رمضان ١٤١٧هـ / يناير ١٩٩٧م) .
- ٦- محمد الغزالي " الإسلام و الثقافة العربية المعاصرة " مجلة إسلامية المعرفة ، ماليزيا (العدد : ٧) - (رمضان ١٤١٧هـ / يناير ١٩٩٧م) .
- ٧- محمد الغزالي " هل يرتفع المسلمون إلى مستوى دينهم " مجلة المنهل السعودية (العدد : ٤٤٩ الخاص بالدعوة و الدعوة) - (الربيعان ١٤٠٧هـ / نوفمبر و ديسمبر ١٩٨٦م) .
- ٨- مجلة المنهل السعودية " الشيخ محمد الغزالي " العدد السنوي المتخصص (الهجمة الفكرية و التصدي الحضاري) - (رقم : ٤٩٥ : شوال و القعدة ١٤١٢هـ / أبريل و مايو ١٩٩٢م) .
- ٩- مجلة المجلة السعودية " شخصية العام الإسلامية لسنة ١٩٨٩م " إعداد مكتب المجلة بالقاهرة ، لندن (العدد : ٥١٦) - (٥ جمادى الآخرة ١٤١٠هـ / ٢ يناير ١٩٩٠م) .
- ١٠- محمد عبد الشافي القوصي " حوار مع الشيخ محمد الغزالي " مجلة الرابطة ، مكة المكرمة (العدد : ٣٦٤) - السنة ٣٣ - (صفر ١٤١٦هـ / يوليو ١٩٩٥م) .
- ١١- هشام زكي محمود " زيارة إلى فضيلة الشيخ الغزالي " مجلة الشباب المصرية (العدد : ٢١٠) - (يناير : ١٩٩٥م) .

ثانياً: المراجع: (بالترتيب الألفبائي)

أ- الكتب:

- ١- أبو عبد الله بن محمد اسماعيل البخاري الجعفي ، صحيح البخاري ، الجزائر : نشر مشترك بين دار موفم للنشر و دار الهدى بعين مليلة ، ١٩٩٢م .
- ٢- أ.ه.كار ، العلاقات الدولية منذ معاهدات الصلح (ترجمة سمير شيخاني) ط١ ؛ بيروت : دار الجيل ، ١٩٩٢م .
- ٣- أنور الجندي ، الفصحى لغة القرآن ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٤- _____ ، القرن الخامس عشر الهجري : التحديات في وجه الدعوة الإسلامية و العالم الإسلامي ، بيروت : المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، د.ت .
- ٥- إبراهيم منصور ، الإزواج الثقافي و أزمة المعارضة المصرية ، ط١ ؛ بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨١م .
- ٦- إبراهيم الوزير ، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري : دراسة للسنن الإلهية و المسلم المعاصر ، ط٤ ؛ القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- ٧- أكرم ضياء العمري (دكتور) التراث و المعاصرة (سلسلة كتاب الأمة رقم ١٠) ط١ ؛ الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ٨- أبو خلدون ساطع الحصري ، في اللغة و الأدب و علاقتهما بالقومية ، ط٢ ؛ بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥م .
- ٩- _____ ، العروبة أولاً ، ط٢ ؛ بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥م .
- ١٠- أحمد فتحي بهنسي (دكتور) الفقه الجنائي الإسلامي ، ط٢ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١١- _____ ، العقوبة في الفقه الإسلامي ، ط٤ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١٢- أحمد كمال أبو المجد (دكتور) حوار لا مواجهة ، ط١ ؛ القاهرة و بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٣- إبراهيم عاصي ، همسة في أذن حواء ، ط٣ ؛ دمشق : دار القلم ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ١٤- أبو الحسن علي الحسن الندي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٨٧م .
- ١٥- _____ ، السيرة النبوية ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، د.ت .

- ١٦- أحمد حجازي السقا (دكتور) دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي ، ط١ : القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- ١٧- جودت سعيد ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ، طبعة الجزائر الأولى ؛ الجزائر : المطبعة العربية ، ١٩٩٠م .
- ١٨- جمال البنا ، الحساسية الدينية ، ط١ ؛ القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- ١٩- حلمي محمد فودة و عبد الرحمن صالح عبد الله ، المرشد في كتابة الأبحاث ، ط٤ ؛ جدة : دار الشروق ، ١٩٨٣م .
- ٢٠- حامد ربيع (دكتور) مستقبل الإسلام السياسي ، ط١ ؛ بغداد : منشورات معهد البحوث و الدراسات العربية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٢١- حسن البنا ، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، الطبعة الجزائرية الأولى ؛ الجزائر : شركة الشهاب ، د.ت .
- ٢٢- خالص جلبي (دكتور) في النقد الذاتي : ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية ، ط٤ ؛ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ٢٣- ربيع بن هادي المدخلي (دكتور) كشف موقف الغزالي من السنة و أهلها و نقد بعض آرائه ، الجزائر : الدار السلفية للنشر و التوزيع ، ١٩٩٠م .
- ٢٤- زكي نجيب محمود (دكتور) في حياتنا العقلية ، ط١ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩م .
- ٢٥- _____ ، المعقول و اللامعقول في تراثنا الفكري ، ط٣ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٢٦- سليمان محمد الطماوي (دكتور) السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة و في الفكر السياسي الإسلامي : دراسة مقارنة ، ط٥ ؛ القاهرة : منشورات مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٨٦م .
- ٢٧- سامح كريم ، العقاد في معاركه السياسية ، ط١ ، بيروت : دار القلم ، د.ت .
- ٢٨- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط١١ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، المجلد الأول .
- ٢٩- _____ ، معركة الإسلام والرأسمالية ، ط٧ ؛ بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠م .
- ٣٠- _____ ، المستقبل لهذا الدين ، القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٣١- _____ ، السلام العالمي والإسلام ، ط٥ ، بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٣٢- _____ ، مقومات التصور الإسلامي ، ط٢ ؛ القاهرة : دار الشروق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ٣٣- سلمان بن فهد العودة ، في حوار هادي مع محمد الغزالي ، البليدة (الجزائر) : دار قصر الكتاب للنشر ، ١٩٩٠م .
- ٣٤- شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٥م .

- ٣٥- صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصري الحديث بين الإسلام والعروبة والتغريب ، بيروت : دار إقرأ ، د.ت .
- ٣٦- صبحي الصالح (دكتور) الإسلام ومستقبل الحضارة ، ط١ ، بيروت : دار الشورى ، ١٩٨٢ م .
- ٣٧- الطيب برغوث ، القدوة الإسلامية ، ط١ ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، ١٩٨٤ م .
- ٣٨- عبد العزيز رفاعي (دكتور) الديمقراطية والأحزاب السياسية في مصر الحديثة والمعاصرة ، ط١ ، القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٩٧٧ م .
- ٣٩- عبد الله عبد الجبار ، الغزو الفكري في العالم العربي ، ط١ ، مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامي ، د.ت .
- ٤٠- عبد الرزاق قسوم (دكتور) نزييف قلم جزائري ، ط١ ، الجزائر : دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر ، ١٩٩٦ م .
- ٤١- عبد الحليم عويس (دكتور) ، عماد الدين خليل (دكتور) ، محفوظ عزام (دكتور) ، رمضان عبد التواب (دكتور) ، الشيخ محمد الغزالي : صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره ، ط١ ، القاهرة : دار الصحوة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- ٤٢- عبد العزيز بن باز ، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع ، ط٤ ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ٤٣- عباس محمود العقاد ، المرأة في القرآن ، صيدا وبيروت : منشورات المكتبة العصرية ، ١٩٨١ م .
- ٤٤- _____ ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، بيروت وصيدا : المكتبة العصرية ، د.ت .
- ٤٥- _____ ، الإسلام دعوة عالمية ، بيروت وصيدا : المكتبة العصرية ، د.ت .
- ٤٦- عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، ط٥ ، بيروت : دار الفتح ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- ٤٧- عبد الكريم زيدان (دكتور) حقوق الأفراد في دار الإسلام ، ط٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٤٨- علي عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، د.ت .
- ٤٩- عبد البديع صقر ، كيف ندعو الناس ، باتنة (الجزائر) : دار الشهاب ، د.ت .
- ٥٠- عباس السبسي ، الذوق سلوك الروح ، ط١ ، الإسكندرية : دار الطباعة والنشر والصوتيات ، ١٩٨٨ م .
- ٥١- عبد الجليل شلبي (دكتور) الخطابة وإعداد الخطيب ، ط٢ ، بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- ٥٢- عبد الرحمن الرفاعي ، في أعقاب الثورة المصرية ، ط١ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٩ م ، الجزء الثاني .
- ٥٣- فهمي هويدي ، القرآن والسلطان ، ط١ ، بيروت : دار الشروق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٥٤- فردريك معتوق (دكتور) منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ م .

- ٥٥- فتحي حسن ملكاوي (دكتور) واخرون : العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (حلقة دراسية شارك فيها جمع من العلماء والمفكرين ونجل الشيخ الغزالي الدكتور علاء محمد الغزالي) ط١، عمان : المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) - ١٤١٧هـ/١٩٩٦ م .
- ٥٦- قطب عبد الحميد قطب ، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (جمع وإعداد)- الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٩٩٥ م .
- ٥٧- _____ ، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة (جمع وإعداد) ، ط٢، الجزائر : مكتبة رحاب ، ١٤١٠هـ/١٩٩٥ م (أربعة أجزاء) .
- ٥٨- مصطفى الفقي (دكتور) حوار الأجيال ، ط١، بيروت والقاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٤ م .
- ٥٩- مريم جميلة ، الإسلام في النظرية والتطبيق (ترجمة س . حمد) ، ط١؛ الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨ م .
- ٦- محمد حسنين هيكل ، السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة ، ط٦؛ بيروت شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٨٨م .
- ٦١- محمد الحسن ، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي ، ط١؛ الدوحة : دار الثقافة . ١٩٨٦م .
- ٦٢- محمد شلبي ، الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي ، ط١؛ القاهرة : دار الصحوة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
- ٦٣- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ط٤؛ دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- ٦٤- _____ ، تأملات ، دمشق : دار الفكر ، د.ت .
- ٦٥- محسن محمد ، من قتل حسن البنا ؟ ، ط١؛ القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٩٨٧ م .
- ٦٦- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ط٢؛ بيروت : دار المعرفة ، د.ت .
- ٦٧- _____ ، الخلافة ، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٨ م .
- ٦٨- محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ط١٠ ؛ القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- ٦٩- محمد عمارة (دكتور) الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكري والمعارك الفكرية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م .
- ٧٠- _____ ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، ط١، القاهرة وبيروت : دار الشروق ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- ٧١- _____ ، التراث في ضوء العقل ، ط١؛ بيروت : دار الوحدة ، ١٩٨٠م .
- ٧٢- _____ ، الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية ، ط١، القاهرة وبيروت : دار الشروق : ١٤٠٩هـ/١٩٨٨ م .

- ٧٣- جمال الدين الأفغاني المفترى عليه ، ط١؛ القاهرة وبيروت : دار الشروق ، د.ت.
- ٧٤- منير العجلاني ، عبقرية الإسلام في أصول الحكم ، بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٧٥- محسن عبد الحميد (دكتور) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري (سلسلة كتاب الأمة العدد رقم ٦) ط٢؛ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٧٦- مصطفى السباعي (دكتور) المرأة بين الفقه والقانون ، ط٥؛ بيروت : المكتب الإسلامي ، د.ت .
- ٧٧- محمد محمد حسين (دكتور) الإسلام والحضارة الغربية ، ط٤؛ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١ م.
- ٧٨- _____ ، التيارات الوطنية في الأدب المعاصر ، ط٧؛ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٤م.
- ٧٩- موفق الدين بن قدامة ، المغني ، بيروت : دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م؛
المجلد الأول .
- ٨٠- محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، طبعة مشتركة : بيروت : دار القلم ، وجدة : دار مكتبة
جدة ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م ؛ المجلد الأول .
- ٨١- محمد أبو زهرة ، التوجيه التشريعي في الإسلام (من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية)
بيروت : منشورات المكتبة العصرية ، ١٩٧٢ م.
- ٨٢- _____ ، العلاقات الدولية في الإسلام ، القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت.
- ٨٣- محمد رواس قلعة جي (دكتور) موسوعة فقه عبد الله بن عمر (سلسلة موضوعات فقه السلف : ٧)
ط١، بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.
- ٨٤- محمد عبد العزيز الخولي ، الأدب النبوي ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م.
- ٨٥- محمد حمد خضر (دكتور) الإسلام وحقوق الإنسان ، ط١، بيروت : مكتبة الحياة ، ١٩٨٠م.
- ٨٦- محمد فتحي عثمان (دكتور) دولة الفكرة ، ط١ ؛ القاهرة : دار مكتبة وهبة ، د.ت.
- ٨٧- محمود الخالدي (دكتور) البيعة في الفكر السياسي الإسلامي ، الجزائر : شركة الشهاب للنشر
والتوزيع ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩ م .
- ٨٨- محمد جلال كشك ، الشيخ محمد الغزالي بين النقد العائب والمدح الشامت ، القاهرة : دار مكتبة
التراث الإسلامي ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ٨٩- محمود محمد سفر (دكتور) دراسة في البناء الحضاري : محنة المسلم مع حضارة عصره (سلسلة
كتاب الأمة العدد رقم : ٢١) - ط١؛ الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ،
١٤٠٩هـ/١٩٨٩ م .
- ٩- نبيه زكريا عبد ربه ، الحركات الإسلامية ضد الصهيونية والصليبية والشيوعية ، ط١، الدوحة :
دار الثقافة ، ١٩٨٦ م.
- ٩١- همام عبد الرحمن سعيد (دكتور) قواعد الدعوة إلى الله ، طبعة الجزائر الأولى ، باتنة (الجزائر) :
دار الشهاب ، ١٩٨٥ م.

٩٢- وهبة الزحيلي (دكتور) الفقه الإسلامي وأدلته، ط١: دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م؛ المجلد الأولى .
٩٣- يوسف القرضاوي (دكتور) الشيخ محمد الغزالي كما عرفته : رحلة نصف قرن ، ط١ ، القاهرة : دار
الوفاء ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

٩٤- _____ ، ثقافة الداعية ، ط٤، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٩٥- يحي اسماعيل أحمد ، أسباب ورود الحديث للسيوطي (دراسة وتحقيق) ط١، بيروت : دار الكتب
العلمية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ب- المجلات والدوريات و الصحف والتدوات و المحاضرات :

- ١- إبراهيم نويري "الشيخ محمد الغزالي أديب الدعوة وداعية الاعتدال " المجلة العربية السعودية ، العدد :
٢١٥ (ذو الحجة ١٤١٥ هـ/مايو (أيار) ١٩٩٥ م) .
- ٢- إبراهيم نويري " خواطر في الوحدة الإسلامية " مجلة الحرس الوطني السعودية ، العدد : ١٣٢
(صفر ١٤١٤هـ/أغسطس (أب) ١٩٩٣ م) .
- ٣- إبراهيم نويري " ضرورة مراجعة مصطلحات الخطاب الإسلامي المعاصر " مجلة الحرس الوطني
السعودية ، العدد : ١١٠ (ربيع الآخر ١٤١٢ هـ/أكتوبر ١٩٩١ م) .
- ٤- إبراهيم نويري ، كراس مذكرات شخصية مع الشيخ الغزالي .
- ٥- أبو الأعلى المودودي " نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية " مجلة المسلم المعاصر - العدد
الافتتاحي - (شوال ١٣٩٤هـ/نوفمبر ١٩٧٤م) .
- ٦- الشعب (جريدة يومية تصدر بعاصمة الجزائر) - العدد الصادر يوم الثلاثاء ١٢ مارس (أذار) - ١٩٩٦ م .
- ٧- الشروق العربي (جريدة أسبوعية جزائرية) - العدد : ٢٥٥ (من ٢٦ مارس إلى ٢ أبريل ١٩٩٦ م) .
- ٨- طه جابر العلواني (دكتور) " شيخنا محمد الغزالي وصفحات من حياته " مجلة إسلامية المعرفة ،
ماليزيا ، العدد : ٧ (رمضان ١٤١٧هـ/يناير ١٩٩٧ م) .
- ٩- عزة بدر (دكتور) "رحلة في أعماق التاريخ: رحلة شامبليون" مجلة العربي الكويتية، العدد: ٤٤٩ (أبريل
١٩٩٦م) .
- ١٠- عمار الطالبي (دكتور) " الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر " مجلة إسلامية المعرفة ، ماليزيا ،
العدد : ٧ (رمضان ١٤١٧ هـ/يناير ١٩٩٧ م) .
- ١١- عبد الله بن عبد المحسن التركي (دكتور) " تحديد مفهوم الغزو الثقافي " ، محاضرة ألقاها بملتقى
الفكر الإسلامي التاسع عشر (الغزو الثقافي والمجتمع الإسلامي المعاصر) - بجاية : شوال
١٤٠٥هـ/يوليو ١٩٨٥ م .
- ١٢- عبد الحليم محمد أحمد " خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر " مجلة المسلم المعاصر - العدد
الافتتاحي - (شوال ١٣٩٤ هـ/نوفمبر ١٩٧٤ م) .

- ١٣- العالم الإسلامي (جريدة أسبوعية تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة) العدد الخاص برحيل الشيخ الغزالي (صدر بتاريخ : ٢٠ ذو القعدة ١٤١٦هـ / ٨ أبريل ١٩٩٦ م).
- ١٤- عبد القادر نور " الشيخ محمد الغزالي يهدي أحاديث الإثنين للمعوقين " مجلة المجاهد الأسبوعي الجزائرية ، العدد ١٤٨١ (الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٨٨ م) .
- ١٥- علاء محمد الغزالي (دكتور) "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي" العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، ط١، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م .
- ١٦- فهمي هويدي " الفارس الذي ترحل " مجلة النور الكويتية ، العدد : ١٣٧ (يونيو ١٩٩٦ م) .
- ١٧- محمد الرميحي (دكتور) " الميراث المر : الأيديولوجية العربية إلى أين ؟ " مجلة العربي الكويتية ، العدد : ٤٤٨ (مارس : ١٩٩٦ م) .
- ١٨- محمد عمارة (دكتور) " الإمام المتنوّر .. والتجديد بالإسلام " مجلة العربي الكويتية ، العدد : ٤٥٤ (سبتمبر ١٩٩٦ م) .
- ١٩- محمد رجب البيومي (دكتور) " رحلة في الذاكرة : الشيخ محمد الغزالي " مجلة المنهل السعودية ، العدد : ٥٢٣ (محرم ١٤١٦ هـ / يونيو ١٩٩٥ م) .
- ٢٠- محمد مراح " الدين و فلسفة التاريخ " مجلة الحرس الوطني السعودية ، العدد : ١٦١ (شعبان ١٤١٦ هـ / يناير ١٩٩٦ م) .
- ٢١- مناع خليل القطان " مناظرة حول المرأة في الإسلام " جريدة الشرق الأوسط السعودية، لندن العدد : ٤١٢٠ (الصادر يوم ١٠ مارس - آذار - ١٩٩٠ م) .
- ٢٢- منى محمد الغزالي " والدي طيب جدا " مجلة المجلة الأسبوعية السعودية ، لندن ، العدد : ٥١٦ (الصادر يوم ٥ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ / ٢ يناير ١٩٩٠ م) .
- ٢٣- النصر (جريدة يومية تصدر بقسنطينة) - العدد الصادر يوم الثلاثاء ١٢ مارس (آيار) ١٩٩٦ م .
- ٢٤- نور الدين بلبل " جيل .. في عاصفة " مجلة الخيرية الكويتية ، العدد : ٧٠ (رمضان ١٤١٦هـ/فبراير ١٩٩٦ م) .
- ٢٥- ندوة الحوار القومي الديني ، انعقدت في القاهرة بدعوة من مركز دراسات الوحدة العربية وتنظيمه بين ٢٥-٢٧ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩م، وشارك فيها الشيخ الغزالي؛ ط١، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ديسمبر ١٩٨٩م .
- ٢٦- يوسف الخليفة أبو بكر " الحرف العربي واللغات الإفريقية " مجلة رسالة الجهاد الليبية -مالطا- العدد: ٩٤ (ديسمبر ١٩٩٠م) .
- ٢٧- يوسف القرضاوي "الغزالي رجل الدعوة" العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، ط١، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدراسات الإسلامية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م .

الصفحة	الموضوع
	* المقدمة من ص (أ) إلى ص (ز)
(٩ - ٦٩)	* الفصل الأول : الشيخ الغزالي : : الرجل و العصر
١٠	- المبحث الأول : نبذة عن المجتمع المصري قبل وبعد ثورة يوليو
١٠	تمهيد :
١١	خطوط عامة لواقع مجتمع
١١	أ- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية
١٤	ب- الأوضاع الثقافية والتربوية
١٧	ج- الأوضاع السياسية والأيدولوجية
٢٤	- المبحث الثاني : نشأته ومراحل حياته
٢٤	* مراحل حياته
٢٤	- المرحلة الأولى
٣١	- المرحلة الثانية
٤٧	- المرحلة الثالثة
٥٢	- المرحلة الرابعة
٥٦	- المرحلة الخامسة
٦٠	- المبحث الثالث : خصائص شخصيته وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه
٦٠	أولا : أهم سمات شخصية الغزالي
٦٥	ثانيا : أهم العوامل المؤثرة في تكوينه
(٧٠-١٧٦)	* الفصل الثاني : الفكر السنني و المواجهة الثقافية عند الغزالي
٧١	- المبحث الأول : فقه للسنن الإلهية و مشكلة تأخر المسلمين
٧١	تمهيد :
٧٢	أولا : موقع هذه المسألة في فكر الغزالي ومقارنته مع غيره
٧٦	ثانيا : أسباب تخلف المسلمين في منظور الغزالي
٧٦	١- التصوير الجزئي للإسلام وتغليب الفروع على الأصول
٧٧	٢- الإستبداد السياسي وغياب الحرية والشورى
٧٨	٣- الفهم المغلوط للعلاقة بين الدين و الدنيا
٨١	٤- انبعاث و سيادة تقاليد الرياء

٨٢ ٥- الجفوة بين العلم والحكم
٨٣ ٦- التردد والذهول عن الأخذ بالأسباب
٨٥ ٧- اختراق المعرفة الدينية والتراث الثقافي الإسلامي
٨٧ ٨- الميل بالفكر إلى التجريد على حساب البحث في المادة
٨٩ ٩- الجمود الفكري وتعثر مسار حركة التجديد والاجتهاد
٩٠ ١٠- الهزيمة النفسية وضعف الولاء لهوية الإسلام الحضارية
٩٣ ثالثاً : رؤية الغزالي لعلاج مشكلة تأخر المسلمين
٩٦ - المبحث الثاني : مرتكزات الوحدة الثقافية بين المسلمين في فكره
٩٦ تمهيد :
٩٧ أولاً : مرجعية وحدة التصور بين المسلمين عند الغزالي
١٠١ ثانياً: أسس الوحدة الثقافية بين المسلمين عند الغزالي
١٠١ ١- تحديد المكانة العلمية للثقافة الذاتية والعناية بمكوناتها
١٠٤ ٢- تحديد الوظيفة العالمية للأمة
١٠٧ ٣- تحديد علاقة العرب بغيرهم من المسلمين
١١٠ ٤- العمل بمبدأ التقريب المذهبي وتجميد الخلافات
١١٩ ٥- مراجعة تراث الأمة الفكري
١٢٢ ٦- صياغة منهج معرفي جديد لفهم التاريخ الإسلامي
١٢٤ ثالثاً : ملاحظات واستنتاجات
١٢٦ - المبحث الثالث : جهوده الفكرية و منهجه في مواجهة الغزو الثقافي
١٢٦ تمهيد :
١٢٨ أولاً : تعريف مصطلح الغزو الثقافي
١٣٠ ثانياً : أهداف الغزو الثقافي في رأي الغزالي
١٣٠ ١- إضعاف الشخصية المسلمة
١٣٢ ٢- اختراق الأسرة المسلمة
١٣٤ ٣- التشكيك في التراث الإسلامي
١٣٦ ٤- تجميد العمل بالكتاب و السنة ومحاولة الإجهاز عليهما
١٣٧ ثالثاً : مجالات ووسائل الغزو الثقافي في منظور الغزالي
١٣٧ ١- محاربة اللغة العربية
١٣٩ ٢- الاستعانة بحملة الأقلام المأجورة
١٤٢ ٣- استغلال وسائل الإعلام و الدعاية

١٤٥	٤- التسلسل عن طريق مناهج التربية و التعليم
١٤٧	٥- التهجيم على رواد الفكر الإسلامي
١٥٠	٦- الدعوة إلى التّسبّث بالحياة و العيش دون رسالة
١٥٤	٧- استغلال التّقدم العلمي و تطويعه للتضليل
١٥٥	٨- استغلال التّقدم العلمي و تطويعه للتضليل
١٦٠	٩- تقديم ولاء الوطنية على ولاء العقيدة
١٦٨	• منهجه في مواجهة الغزو الثقافي
(١٧٧-٣٢٤)	* الفصل الثالث : الفكر الاجتماعي و السياسي عند الغزالي
١٧٨	- المبحث الأول : اجتهاده و فقهه في قضايا و شؤون المرأة المسلمة
١٧٨	تمهيد :
١٨٠	أولا : المرأة المسلمة و مسألة العمل
١٩٦	ثانيا : المرأة المسلمة و قضية الحجاب
٢٠٦	ثالثا : المرأة المسلمة و المسجد و الجماعة
٢١٤	رابعا : حول شهادة المرأة
٢١٨	خامسا : قضايا أخرى مختلفة
٢١٨	١- الأسرة المسلمة و مشكلة الطلاق
٢٢٤	٢- حقيقة معنى القوامة
٢٢٨	٣- صوت المرأة ليس عورة
٢٣٠	٤- دية المرأة
٢٣٣	٥- مسألة خروج المرأة و مفهوم الاختلاط
٢٣٤	سادسا : المرأة المسلمة و هاجس النهضة النسائية
٢٤١	- المبحث الثاني : نظرتة لمسألة حقوق الإنسان
٢٤١	تمهيد :
٢٤٢	أولا : بواعث اهتمام الشيخ بهذه القضية
٢٤٣	ثانيا : تعاليم الإسلام ضمانا لحماية حقوق الإنسان
٢٤٤	ثالثا : المنهج الإسلامي و حقوق الإنسان
٢٥٦	رابعا : منهج الشيخ الغزالي في تناول قضايا حقوق الإنسان
٢٦١	- المبحث الثالث : فكره السياسي
٢٦١	تمهيد :
٢٦١	أولا : مرتكزات مشروعية الدولة في الإسلام عند الغزالي

٢٦٢	١- مقتضيات الاستخلاف عن الله في أرضه
٢٦٤	٢- الجانب التنفيذي لأحكام الرسالة الخاتمة
٢٦٦	٣- طبيعة الدعوة العالمية
٢٦٨	ثانيا : أسباب قصور الأداء السياسي الإسلامي في رأي الغزالي
٢٦٩	أ- الظهور المبكر لسلطان الحكم المطلق
٢٧١	ب- الإنحراف عن المفهوم القرآني للشورى
٢٧٢	ج- عدم وضع سياسات دقيقة للتصرف في المال العام
٢٧٤	د- الجهل بفقہ الإسلام و موقفه من الدنيا
٢٧٦	هـ- الانفصال بين العلم و الحكم
٢٧٧	ثالثا : وسائل بناء النظام السياسي الإسلامي في منظور الغزالي
٢٧٧	١- اختيار الحاكم وفق الإرادة الحرة للأمة
٢٧٩	٢- الشورى أساس و ركيزة الاختيار
٢٨٢	٣- إبداع أو اقتباس الآليات التي تحقق المصلحة
٢٨٤	٤- إعادة بعث و تفعيل الاجتهاد في مجال الفقه الدستوري
٢٨٦	٥- دعم مبدأ الحريات العامة
٢٩٠	٦- توحيد الأمة و دعم مبدأ الأخوة و المناصرة
٢٩٣	٧- إعزاز الذات و مواجهة التحديات العالمية
٢٩٧	رابعا : الإطار السياسي لنظام الحكم الإسلامي في تصور الغزالي
٣٠٢	- المبحث الرابع : مشروع الغزالي الفكري : مراجعة و تقويم
٣٠٢	تمهيد :
٣٠٣	أولا : قسّمات منهج مشروع الغزالي الفكري
٣٠٣	أ- الجانب الشكلي و الجمالي :
٣٠٤	ب- الجانب الموضوعي
٣١٢	ثانيا : مدرسة الغزالي الفكرية : الموقع و الخصائص
٣١٢	١- المدرسة الكونية
٣١٣	٢- مدرسة الفلاسفة
٣١٣	٣- مدرسة المتصوفة
٣١٤	٤- مدرسة الأصوليين
٣١٤	٥- مدرسة المحدثين
٣١٧	٦- مدرسة الفقهاء و المجتهدين

٣٢٠ موقع الغزالي الفكري
٣٢٣ ثالثا : ملاحظات و استنتاجات
(٣٨٣-٣٢٥) * الفصل الرابع : الدعوة عند الغزالي
٣٢٦ - المبحث الأول : منظوره لطبيعة حركة إنتشار الإسلام
٣٢٦ تمهيد :
٣٢٧ أولا : خلفية اهتمام الغزالي بهذه القضية
٣٢٧ ثانيا : مناقشة الغزالي للجبهة الأولى
٣٢٧ ١- السلام هو الأصل في دعوة الإسلام
٣٢٨ ٢- حقيقة الجهاد في الإسلام
٣٢٩ ٣- ليس الهجوم من طبيعة الإسلام التوسعية
٣٣٢ ٤- الحرية قاعدة الإسلام في الحركة
٣٣٣ ٥- حول ما يسمونه آية السيف
٣٣٧ ثالثا : مناقشة الغزالي للجبهة الثانية
٣٣٧ ١- فرية لتغطية حقائق التاريخ
٣٣٨ ٢- ليس في الإسلام ما نستحي من كشفه
٣٤٠ ٣- الإسلام حركة دائمة معروضة على العقل
٣٤٢ ٤- الإسلام أرحم رسالة في تاريخ الإنسانية كله
٣٤٣ رابعا : مفاهيم و مرئيات مستتجة
٣٤٦ - المبحث الثاني : رؤيته لمواصفات الداعية الناجح
٣٤٦ تمهيد :
٣٤٦ أولا : مبررات هذه المواصفات في رأي الغزالي
٣٤٧ ثانيا : أهم مواصفات الداعية كما يراها الغزالي
٣٤٧ ١- الصلة بالله تعالى
٣٤٩ ٢- إصلاح النفس
٣٥١ ٣- دقة الفهم للدين و الفقه بالواقع
٣٥٢ ٤- الإخلاص للفكرة و المبدأ
٣٥٣ ٥- الشجاعة و الثبات على الحق
٣٥٤ ٦- الاستبحار العلمي و الثقافي
٣٥٦ ٧- النقد الذاتي و المراجعة المستمرة
٣٥٨ ٨- الإهتمام بأوضاع المسلمين

٣٥٩ ثالثا : ملاحظات عامة
٣٦١ - المبحث الثالث : أدوات و وسائل الدعوة في تجربته الدعوية
٣٦١ تمهيد :
٣٦١ أولا : خلفية اهتمام الغزالي بوسائل الدعوة
٣٦٢ ثانيا : أهم وسائل الدعوة عند الغزالي
٣٦٢ أ- قسم ذاتي
٣٦٣ ١- القدوة الحسنة
٣٦٥ ٢- الفطرة و الذوق السليم
٣٦٧ ب- قسم موضوعي
٣٦٧ ١- التعليم و التذكير
٣٦٩ ٢- منابر الخطابة
٣٧٢ ٣- التلفزيون و الإذاعة و الصحافة
٣٧٣ ٤- الترجمة و حسن العرض
٣٧٤ ٥- الرسوخ العلمي و الثقافة الواسعة
٣٧٦ - المبحث الرابع : أهم خصائص منهجه الدعوي
٣٧٦ تمهيد :
٣٧٧ أولا : دعائم منهج الغزالي الدعوي
٣٧٧ ١- إرجاع الناس للفطرة الصحيحة
٣٧٨ ٢- العناية بالعوامل المرتبطة بعملية التغيير
٣٨٠ ٣- الانفتاح على مختلف التوجهات
٣٨١ ٤- تجاوز قضايا الخلاف الفقهي
٣٨٢ ثانيا : أهم خصائص منهج الغزالي الدعوي
٣٨٤ * الخاتمة
٣٩١ - قائمة المصادر
٣٩٥ - قائمة المراجع
٤٠٢ - الفهرس المفصل

* تم بحمد الله وعونه *